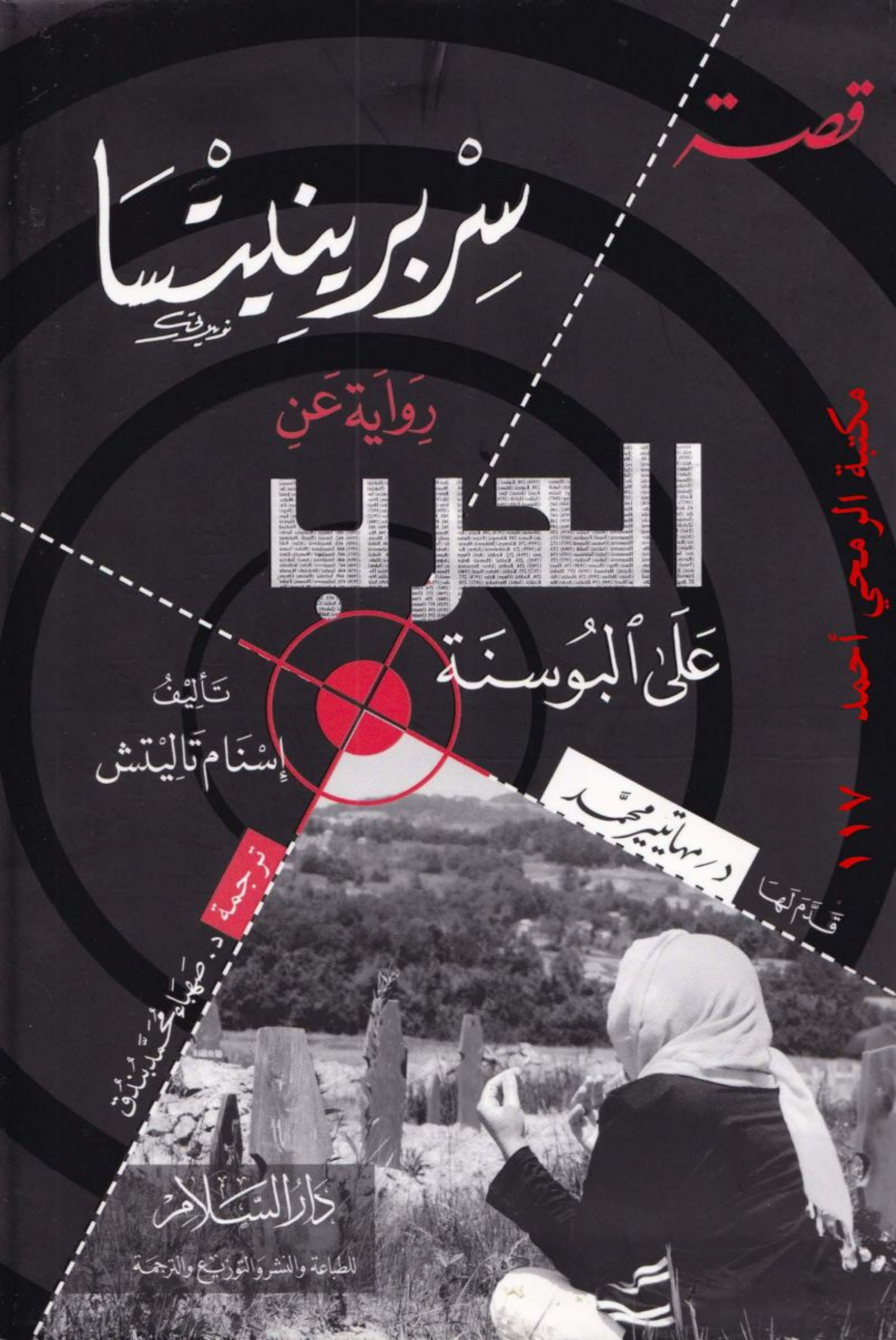
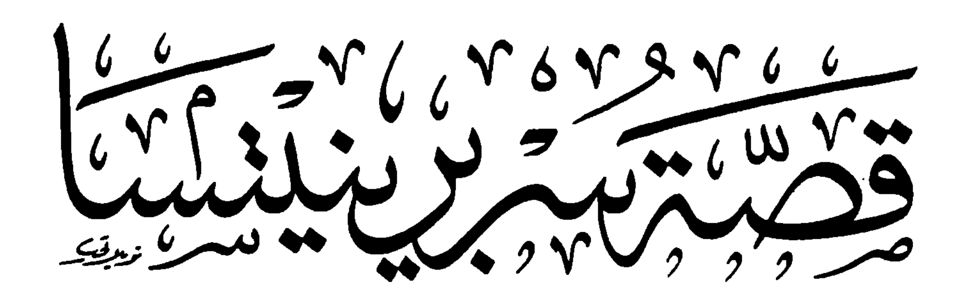


قصص
سِربرينيتسا
نوبيل لحقي
رِوَايَة عَنِ
الحرب
عَلَى البوسنة
تأليف
إسنام تاليتش
قدم لها
د. مهاتير محمد
ترجمة
د. صهباء محمد بندق
مكتبة الرمحي أحمد
١١٧
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



قصة سربرينيتسا

روايةٌ عن الحرب على البوسنة

تأليف

إسنام تاليتش

ترجمة

د. صهباء محمد بندق

عن الترجمة الإنجليزية لـ:

أ. محمد باشانديجوفيتش

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م




إهداء المترجمة
إلى الشُّهدَاء ..
الذين لا زَالتْ أرواحُهم
تَحومُ حَولَ سربرينيتسا
تبْحثُ عَمّن خَذَلها .. !

مُقدِّمَة

بقلم السيد الدكتور : مهاتيير محمد

« سربرينيتسا » Srebrenica .. هو اسم تلك المدينة الذي أستطيع بالكاد أن أنطقه والمحفور بعمق فى قلبِي ... كلنا يذكُرُ (٩/١١) الحادي عشر لسبتمبر / أيلول عام ٢٠٠١م ذلك اليوم الذي تحطمت فيه الأبراج التوأمية لمركز التجارة العالمي في (نيويورك) ، ولقي فيه ٣٠٠٠ شخص حتفهم المروع . أما في (سربرينيتسا) فقد ذُبح أكثر مِنْ ١٣,٠٠٠ مسلم بوسني على يد الصرب وعلى مرأى قوات الأمم المتَّحدةِ الهولنديةِ التي تم حشدها هناك بهدف حِمايتهم ، ومع ذلك فلا أحد يتذكر تلك المجزرة !!

كان الصرب يعرفون جيدًا فظاعة الجرائم التي ارتكبوها هناك ، كما كان الجنود الهولنديونَ على علم بجرائم القتل التي كَانتْ تتم بشكل مستمر في البوسنة ، وكان المسلمون البوسنيون أيضًا يَعْرفونَ أنَّهم سيساقون للذبح الجماعي . لم يكن موتهم موتًا فوريًّا أو سريعًا ، بل كان كُلُّ فرد مِنَ الضحايا يعرف بأنَّهم سَيُؤْخَذونَ واحدًا بعد الآخر للذبحِ . وقد استغرقت تلك المجزرة وقتًا طويلًا ، الوقت اللازم لقَتْل ١٣,٠٠٠ شخص - كلهم من الذكور - بشكل منفرد ، كانت كُلُّ ضحية تقتل بعملية قتل مستقلة .

كَان الصرب مصمِّمون على إبادة المسلمين البوسنيين ، الذين يمثلون الوجود الأخير للمسلمين الأوربيين الأصليين في أوربا . وظن الصرب أنهم بذلك يقدمون جميلًا لباقي أوربا المسيحية . فأوروبا يجب أنْ تُحرَّرَ من المسلمين . وحتى يتحقق ذلك يجب أنْ يُقْتَلَ كُلُّ الذكور ، وهكذا يستحيل إعادة إنتاج المزيد من المسلمين . أما النساء المسلمات فيمكن أن يتركن أحياء على أن يتم اغتصابهن من قبل الصرب ، وهكذا فإن أطفالهن لَنْ يَكُونوا مسلمين بعد أن تلوثوا بالدم الصربي غير المسلم .

لقد تم ذبح ١٣,٠٠٠ بوسني في (سربرينيتسا) ، ومع ذلك فالعالم اليوم بالكاد يعرف تلك الحقيقة ، وحتى أولئك الذين يَعْرفونَها بالكاد يَتذكَّرونَ تلك المذبحةَ المنظَّمةَ التي وقعت في (سربرينيتسا) . بينما استنفر العالمُ للحرب ضدَّ الإرهاب بسبب أحداث ١١سبتمبر / أيلول . وكان عليه أنْ يعلن الحرب قبل ذلك ؛ لأن ما ارتكبه الصرب يعد بالتأكيد عملًا إرهابيًا . عمل إرهابي متعمَّد ومنظَّم ، بلغ مسمع العالم كنوع من « التطهير العرقي » ، تلك الأعمال الإرهابية استمرت بشكل ثابت

لمدة طويلة ، وعلى مرأى ومسمع العالم الذي لم يصب بالذعر كثيرًا . وسرعان ما عاد العالمُ إلى جمع المالِ ، ومُرَاقَبَة مباريات كرةِ القدم وعاد الجميع إلى مُشاحنتهم التافهة . لكن العالم الذي اتخذ هذا المسلك تجاه « الإرهاب في البوسنة » لم يتخذ ذات المسلك مع أحداث ١١سبتمبر / أيلول !!

إن قتل البشر لا يَنبغي أن يصنف إلى قتل مأساوي وقتل أكثرُ مأساوية ، أو قتل متوحش وآخر أكثر وحشية . فكُلُّ حالات القتل ، وكُلُّ المذابح مأساوية ووحشية . ولكن لا يمكن المقارنة بأي حال بين رَدَّة فعلِ العالم تجاه كل من (١١ سبتمبر / أيلول) و (مذبحة سربرينيتسا) . هل القتل المتعمَّدُ والمنهجي الذي انتهى بإبادة ٢٠٠,٠٠٠ مسلم بوسني أقل تَرويعًا مِن التدمير المتعمَّدِ أيضًا للمبنى الذي أدَّى إلى موتِ ٣٠٠٠ شخص في (نيويورك) ؟ لا يمكن أن يكون هناك فرق بين الأمرين . لكن يَبْدو أن ردة فعل العالم تشير إلى وجود فرق !!

وبالتأكيد كان الردُّ على مذبحةِ ٦ مليون يهودي قبل ٦٠ سنةً تقريبًا مختلفًا أيضًا . ولا يزال العالم يذكر جيدًا تلك المحرقة ، ولم يزل الحديث عن المحرقة مستمرًا إلى يومنا هذا ، بل ويُجبَرُ العالم على التكفير عنها بالتسامح مع كُلِّ الجرائم اليهودية ضدَّ العرب الذين لا ذنب لهم ولم يتهموا بحالة قتل واحدة في تلك المحرقة !!

يبدو أن الردَّ العالميَّ على العنف والوحشيةِ يَعتمد على هوية الضحايا !! فقد قامت (ماليزيا) بإعدام العديد من مهرِّبي المخدرات الآسيويين شنقًا . ولكن عندما طبقت (ماليزيا) ذات الحكم على مهرِّبين أستراليينَ ، اعترضت (أستراليا) والعالم الأوربي وادعت أن الماليزيين قاموا بفعل همجي وبربري . ولم يُعلق عن ذلك معظم المجتمع المهتم بالعدالة والمساواة الذي نحظى به هذه الأيام !! لأن ذلك الاهتمام بالعدالة والمساواة هو في الحقيقة اهتمام انتقائي ، على الرغم مِنْ كُلِّ الادعاءات حول المساواةِ وحقوق الإنسان ، وحكم القانون والديمقراطية .

لهذا فإن قصَّة (سربرينيتسا) منَ الضَّروري أن تحكى وأن يخبَرَ بها مرارًا وتكرارًا ؛ لأنها قصَّة معاناة الإنسانيةِ في عصر مُجهَّز بكُلِّ الوسائل اللازمة لإيقاف تلك المعاناة . لم يكن هناك ما يُمكنُ أنْ يُعْمَلَ لإيقاف أحداث ١١ سبتمبر / أيلول . حيث صدمت الأحداث السلطات في الولايات المتحدة والعالم بأكمله ، وبالتأكيد لم يعرف أحد شيئًا بالضبط عن الهجومِ الذي كَانَ في طريقه للانطلاق ؛ لذا يمكننا أن نفهم - وببساطة -

لماذا لم يكن بإمكانهم أن يُوقفوا الهجومَ .

أما التطهير العرقي الذي قام به الصرب فكان معلومًا للجميع ، ومذبحة (سربرينيتسا) كانت واضحة ومعروفة ، بل وشوهدت مِن قِبل ذوي الضحايا ، وشهد على حدوثها الكثيرون من شهود العيان ، وعلى الرغم من ذلك لم يتم عمل أي شيء لإيقاف المذبحة !!

وطبقًا لقانونِ جرائم الحرب المتعارف عليه « **يُعدُّ الشاهد على جريمة قتل محرضًا عليها ما لم يكن مقيدًا** » . وقد شاهد العالم مذبحة البوسنة ، وشهد ذبح الذكور من أهل البوسنة ذبح الخراف ؛ ولذا يُعدُّ العالم محرضًا على الجرائم التي تعد تطهيرًا عرقيًا التي تمت على أيدي الصرب . ولأن الصرب أفلَتوا - عن قصد وبشكل مغرض - دون عقاب على جرائم القتل الجماعي ، فيمكن اعتبار جرائم القتل الجماعي سمة يومية مِنْ سمات حضارتِنا الحديثةِ .. في الحقيقة إننا نَرى قتلة وسفاحين مجهَّزين بالأسلحةِ يُسمح لهم بقتل البشر على أَنْ تتم حمايتهم بعد تنفيذ ذلك . بل إن أولئك الذين يُزوِّدونَ المجرمين بالحماية يُرشَّحونَ في الحقيقة لجائزة نوبل للسلامِ !!

لقد قرَّرَ السَّيدُ « إسنام تاليتش » Isnam Taljic أَنْ لا يُدينَ قتلةَ شعبِهِ . وأنا آمل أن يقدر القراء سماحة قلبه النبيل على الرغم من كوني أحمل وجهة نظر مختلفة . وأرى أن هذه الرواية يَجِبُ أَنْ يقرأها الجميع ، على الأقل حتى ندرك ونقدِّر حق التقدير أنه على الرغم مِنْ كُلِّ شيء لا يزال يوجد بوسني كريم وسمح لدرجة تمنعه من أن يُنفِّسَ غضبَه من خلال كتاباتِه . إنني أُحيِّي السَّيدَ « تاليتش » على كرمه وشهامته ، وسَأُحاولُ جاهدًا أن أكُونَ كريمًا مِثْله ! .

د . مهاتيير محمّد

* * *

القصة التي ستظل عالقة بضَميرنا

هَلْ ما زِلتَ تَتذكَّرُ الحربَ في البوسنة ؟

بقلم : إليدا تاليتش (**)

هَلْ كلمةُ « سربرينيتسا » مألوفة لديك ؟ هَلْ تَذكُّرك بتلك الأعمال الوحشية الواسعة النطاقِ ؟! ولكن لا ، شكرًا لك ، الأفضَل ألا تجلب الهمَّ لنفسك بتذكر ذلك . فأنت مُتعَب مِنَ الأخبارِ التي تصلك مِنْ ميادين القتال حول العالم ، ومِنْ مشاهدِ العُنف المؤلمِةِ ، ومناظر الوجوهِ الملطخة بالدماء ، وشهادات ضحايا العنفِ التي تُغذّيك بها وكالات أنبائكَ المفضَّلة ومحطات التلفزيون المختلفة ...

ومع ذلك فإنني أنصحك بألا تَحْرِمَ نفسك من مُتْعَة الغَوْص إلى محتوى هذا الكتابِ، وتَجْرِبَة الانْغِماس في تفاصيله ؛ فالغَوْص إلى محتوى هذه الرواية يُعد تجربةً عظيمة على الرغم من التناقض الظاهري الذي يُثيره العنوان وتَدَاعِياته الفكرية والخَوَاطِر المحزنة والمَعَاني الأليمة التي يَستدعيها - وهو تناقض صحيح - ولكنك برَفْضك المُشاركة في مثل هذه التجربةِ تَحْرِمُ نفسك مُتْعَة أن تَتَذَوَّقَ بنفسك روعة الأدَب الرِّوَائِيِّ الذي يَأسرُك بقوَّته ويفتنك بجمالِه ، كما تَحْرِمُ نفسك فرصة الاستمتاع بالتعرف بنفسك على عمل قَصَصِيٍّ رائع يُعَالِج موضوعًا يَتعلَّقُ بك أيضًا في الكثير من الجوانب ومن نواحٍ عديدة .. لماذا ؟ هذا ما سَتَكتشفُه أنت بنفسك !!

بين يديك عمل أدبي سلميٌّ يخلو تمامًا من العنف ، لا يُدينُ ولا يَدْعو إلى الكراهيةِ ، لَكنَّه يَطْلبُ من القارئ فقط ألَّا ينسى . وكلُّ ما فيه هو في الواقع نِدَاءٌ عظيمٌ مُوجَّهٌ نحو الإنسان الفردِ .. تُنَاشِده أَنْ لا يَنْسى ما لا يَجِبُ أنْ يُنْسَى ! هذه الروَايَة قِيمَة أدَبِيَّة وقِطْعَة فَنِّيَّة سَتُساعدُك - على مستوى الفَنِّ الأدبي وبعبارة أخرى على مستوى الخَيَال - أن تتعرَّفَ على ما يهمك أنت أيضًا بقدر كبير وما يسبب لك القَلَق بعمق .

(**) إليدا تاليتش Elida taljic ، ولدت عام ١٩٦٠م في بيهاتش ، بالبوسنة والهرسك . وتَخرَّجتْ مِنْ كليَّةِ الصحافةِ ، جامعة سراييفو عام ١٩٨٣م . و عَملتْ لهيئات حكومية وفي العديد من الصحف . ولعدَّة سَنَوات كَانتْ محرِّرةَ القسمِ الثقافي بجريدة يوتارنيه نوفينه « Jutarnje novine » في سراييفو ، ونَشرتْ العديد من المراجعاتِ والأعمال النقدية الأدبية . وتعمل حاليًا في « Bosnalijek » بسراييفو ، في مجال العلاقات العامة ، كما تعمل حاليًا لإعداد رسالتها للماجيستير في علم الاتصال ، (العلاقات العامة) .

إنها رِوَايَة تُناشدُ الإنسانيةَ وتمثل نداءً للبشرية ، وفي نفس الوقت تَهبُنا الأمل كَهَدِيَّة !

وسواء أرغب العالم في ذلك أم لا ، فقد شَغلتْ تلك الحرب انتباهَ العالم في العَقْد (١) الأخير واستحوذت على اهتمام وسائل الإعلام في كل أنحاء العالم ليلًا ونهارًا ، حَيْثُ اطلع الناسُ في الصُّحُفِ الشهيرة والمجلات المفضَّلةِ على المَعْلُومَات الرَّهِيبة و الحقائقِ الفظيعة حول تلك الحرب ، كما شاهدوا في قنواتِ التلفزيونِ وقائع الجرائم البشعةِ والمُرَوِّعة التي تَقْشَعِرُ لَها الأبْدانُ . هذا إلى جانب التَّضَامُن مع معاناة البوسنة وإدانة العدوانِ عليها ؛ ولهذا فقد تَبَرَّمَ الناس - بسبب المدَّةِ الطويلةِ للحربِ - وسَئِموا بعد أن أنْهَكتهم المُتابعَة المستمرة للمشاهدِ المفعمة بأهوال الحربِ . أجل لقد أرْهَقَت أخبار الحرب الجمهور وأتْعَبَته تَعَبًا شَدِيدًا ، وبعد ذلك شعر الجمهور المُنْزَعِج الذي كَانَ لديه ما يَكْفيه من مشكلاتِه الخاصةِ بالاستياء والامتعاض وأقبل على مشاهدة أي شيء آخر عوضًا عن مشاهدِ المصائب والكوارِث الشنيعةِ .

لكن تلك الحرب في الواقع تَهم وتتعلَّق بكُلِّ فرد حتى خارج القارةِ الأُوربيةِ ؛ حيث في البوسنة - وعند انتهاءِ الألفيةِ الثانيةِ - انتهكت كُلُّ قواعد ما أُطلق عليه « **النظام العالمي الجديد** » ودِيستْ بالأقدام . كما أن الحرب في البوسنة يجب أن تُقْلِق أيضًا « **السيدة العجوز** » أوربا خاصة ؛ لأنها « لا تَحْدُثُ في مكان ما بعيدٍ عنها » بل في المنطقة المجاورة تمامًا - في الحيِّ ذاتِهِ - في قلبِ أوربا وفي وقتٍ اعتبرت فيه هذه الجرائم شيء ينتمي إلى الماضي . في الحقيقة تلك الحرب كان لا بُدَّ أنْ تُقْلِق الغرب بأسره ؛ لأنها كَانَت تَحْدُثُ في الحيِّ المُجاور مُباشرة .

وعندما - كما يُقالُ في البوسنة - تَخْرجُ النيرانُ عن السيطرة في أحد البيوت ، فإن رجال الإطفاء يَجِبُ أَنْ يَنتبهوا ، وأن يأخذوا حذرهم ، وعليهم أن يراقبوا البيوت الأخرى المجاورة في الحيِّ ؛ لأن الحريق يُمكِنُ أَنْ ينتشر بسهولة ، وبالطبع فإن المعاناة في البوسنة تَتعلَّق بالعالم الإسلامي وتهمه أيضًا ؛ لأن العدد الأكبرَ من ضحايا الحرب كان من أبناء البوسنة الذين يدينون بالإسلام ، بل إن هؤلاء البوسنيين هم وحدهم من بين مسلمي أوربا الذين ينحدرون من جذور أوربية أصيلة . وهذه الرواية لا تكرر الحديث عن مشاهد الرعب التي شوهدت بالفعل وليست تكرارًا للحقائق البشعة التي يعرفها الناس - بل ويَشْهدُون عليها بشكل عنيد أيضًا - في الحقيقة إن « **قصَّةَ سربرينيتسا** »

---

(١) عَقْد (مِنَ السَّنَوات) : عَشْرُ سَنَوَات . (المترجمة) .

هي شَهَادةٌ فنيَّةٌ وسَرْد [1] مَجيد ضدَّ الشرِّ والعدوان ، ولكن في نفسِ الوقت دون دعوة إلى الكراهيةِ ، وهي أيضًا الرواية التي سَتُعيدُ تحريك ضميرنا .. حيث تحمل في طياتها إشارةً بأنَّ مثل هذه التجربةِ لا يَجِبُ أنْ تُنْسَى وبأنَّ العقلَ والفكر الإنسانيَّ يَجِبُ أَنْ يَرتفعا إلى المُسْتَوى الذي يمنع نشوب مثل تلك الحرب مرة ثانيةً .

هذا ما يَجْعلُ من (سربرينيتسا) صفَّارَةُ الإنْذارِ وناقُوسُ الخَطَر الأعظم الذي يقرع آذان الحضارة الحديثة والنذير الفائِق الخطورة .. حيث تمثل مجزرة (سربرينيتسا) وَصمَة العار التي لَوَّثَت سُمْعَةَ العصر الحديث ولَطْخَة خِزْي دائمة على ضميرِ الحضارةِ الحديثةِ يتعذر محوُها أو إزالتُهَا .

وعلى الرغم من أنَّ « قصَّةَ سربرينيتسا » قد كُتِبَت في وقتٍ مُبَكِّر يعود إلى يوليو / تموز ١٩٩٦م ، فقد نُشِرتْ في البوسنة في عام ١٩٩٨م - حيثُ كان الاضْطِراب يضرب أطنابه على الكثير مِنْ نشاطات الحياة ، وكان كل شيء يغرق في بحار الفَوْضَى خصوصًا مسألة نشر الكُتُب القيمة والجديرة بالقراءة . إلا أنها بالرغم من كل ذلك ، بيعت في نفس الشهرِ الذي نُشِرَت فيه . ولكن كان على الطبعة الثانية أنْ تَنتظرَ لأربع سَنَوات أخرى حتى يوم ١١ يوليو / تموز ٢٠٠٢م - في مناسبة الذكرى السابعة للجريمةِ الكَوْنِيَّة التي وقعت في (سربرينيتسا) - وأثناء رواج الطبعةِ الثانيةِ ومع نشاط مَبيعاتها في (سراييفو) - عاصمة البوسنة والهرسك - قُدِّرَت الرواية تقديرًا قَيِّمًا على مستوى الفَنِّ الأدبي كأفضل كتاب نُشِرَ في البوسنة والهرسك ونالت أيضًا التصنيف الأول كأفضل كتاب في الأَدَب البوسنوي خلال الثلاثين عامًا الأخيرة .

« ها أنا المُصارع الروماني القديم ، أصارع في حلبة الموتِ من أجل الحرية ، أُحيِّي مُتَأَخِّرًا الصباحَ الذي جاء باليوم الحادي عشرَ مِنْ شهرِ يوليو / تموز ، لخمس سَنَوات قبل انتهاءِ القرنِ العشرين بعد ولادةِ المسيح عيسى عليه السلام ، اليوم الثاني عشر مِنْ شهرِ صفر مِن السَنَةِ السادسة عشرةِ بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي محمد ﷺ » .

أيها الصُبْح هَلْ تلقيت تحيَّة مَنْ لا بُد أن يلقى حتفه ؟ ..
.. تحية إنسان عليه أَنْ يمُوتَ الآن ؟!

---

(١) سَرْد : رِوَايَة ، قَصص . (المترجمة) .

آف ، دومافيا أرغنتاريا
أديو ، بارتيا أرغنتي

Ave Domavia Argentaria!

Adio, patria argenti!

الصلاة والتحيَّة على أرضِ أجدادي الفضِّيةِ ..
عليك السلام والتحيَّة .. يا أرض أجدادي الفضِّية ..
عسى أن تَظلِّي مصونة إلى الأبَدِيَّة ..
محميَّة عبر الخلودِ .. يا أرض أجدادي الفضِّية

* * *

(سربرينيتسا) : هي بلدة صغيرة تقعُ في شمال شرق البوسنة ، سمع العالم باسمها عقب المعاناة غير المسبوقة لآلاف من سكانها الأصليين ولضحايا كثيرين أيضًا من سكان المناطق البوسنية المجاورة للحدود مع صربيا وعلى امتداد نهر (درينا) وأيضًا لآلاف الضحايا مِنْ سكان المناطق المختلفة في داخلِ البوسنة . حيث هرب العديد من سكان المدن والقرى التي تعرضت للاعتداءات الوَحْشِيَّة من قبل صرب البوسنة [1] وقوات الاحتلال من الغُزاة القادمين مِنْ صربيا والجبل الأسود ، تحت قيادة ضبَّاطِ ما يسمَّى بجيشِ الشعْب (الذي كان حتى ذلك الوقت الجيش الفيدرالي ليوغسلافيا السابقة) ، مما أدى إلى نزوح قوافل بشرية من سكان تلك المدن والقرى المنكوبة هاربين من الجحيم الصربي وبحثًا عن الأمانِ في المدن والقرى المجاورة . وظلت تلك الطوابير المُتَضَعْضِعة من البوسنيين الذين أضناهم التشرد واستَنْزَفَهُم الألم ، تتدفق طيلة شهور عديدة لتصُبَّ في (سربرينيتسا) البلدة التي دافعت عن حريتها ، والبلدة التي أعلنتْ الأُمم المتَّحدة أنها آمنة وأطلقت عليها اسم « المنطقة الآمنة » . وعندما انتهى هذا الهروب إلى « الأمانِ » ، الذي كَانَ عبارة عن مِنْطَقَة تُحيط بـ (سربرينيتسا) كحِزَام أو طَوْق عريض ، تحولت تلك « المنطقة الآمنة » إلى « منطقة مُستباحة » .. واعتبرت وفقًا للمُصْطَلَحَات العسكريةِ « منطقة مُكْتَسَحَة » ، وبَدأَت الأعمال البَرْبَرِيَّة بل واسْتُحْدِثَت - في تلك « المنطقة الآمنة » - أبشع المُوبِقَات وابْتُكرت أقبح الفَظَائع الهَمَجِيَّة التي لمْ يَسْبِقْ لَها مَثِيل ولَمْ يُسْمَعْ بِها من قبل ؛ فقد سَمحَت قوات

---

(١) صرب البوسنة : الصرب الذين يسكنون مناطق معينة في البوسنة . (المترجمة) .

الأُمم المتَّحدة للمُحتلين بالدخـولِ بين المُقاومين العُزَّل والبشر المكْدُودين الذين أنْهَكهم الجوعُ والمرض وثلاث سَنَوات ونِصْف من المعاناة . وأصبحت (سربرينيتسا) مَذْبَحًا بشريًّا [١] ، حُراسُه الرسميون هم أعضاء الكتيبةِ الهولنديةِ التابعة لقوات الأمم المتَّحدةِ ، الذين راقبَوا في صمت جرائم الاضطهاد والظُّلْم والطُّغْيان وشهدوا على العدوان الغاشم بغير حق دون أن يحركوا ساكنًا .. وقفوا ليحرسوا أسوء أشكال التَّعَسُّف اللاإنسانيّ والإبادة الجماعية لأولئك الذين كان ذنبهم الوحيد أنهم حاولوا الصمود دفاعًا عن حريةِ بلادِهم !!

وَقد تجاوزت الأعمال الوحشية كل الحدود لدرجة لَمْ يَعُدْ يحتملها حتى الضمير الفظّ القاسي لكبار مسؤولي العالم .. حتى قلوبهم المُتَحَجِّرة ومشاعرهم المُتبلدة لم تستطع أن تتَحَمَّل المـزيد . وجـاء رَدُّ مجلس الأمن التابع للأُمم المتَّحدةِ بإصدار قرار يُطالِبُ القوات الصربية « بأنْ تُغادر المنطقةَ الآمنةَ في (سربرينيتسا) فورًا » إلا أنه حتى اليوم وبعد مرور عقد تقريبًا على تَوْقيع اتفاقية (دايتون) للسلام التي أدت إلى وقف العدوان على البوسنة ما تزالُ (سربرينيتسا) تحت سيطرةِ صرب البوسنة . وبتَوْقيع اتفاقيةِ دايتون للسلامِ ، عاد السلام إلى البوسنة والهرسك وداخل حدودِ الأرض التي قُسِّمتْ إلى كيانين . أصبحَت (سربرينيتسا) جزءًا من جمهوريةِ صربيا .

* * *

بَدأَ العدوان على البوسنة والهرسك في **١٩٩٢م** ، مباشرة عقب اعتراف الأُمم المتَّحدة بها كدولة مستقلة نشأت بَعْدَ تفكك يوغسلافيا السابقة وبذلك تصبح البوسنة والهرسك الجمهورية الرابعة التي تخرج على وحدة الفيدرالية البلقانية بعد (سلوفينيا) ، و (كرواتيا) و (مقدونيا) . وقد بدأ الهُجُوم الضاري للجيشِ الصربي وجيش الجبل الأسود على القوَّات المُسَلَّحةِ شبه عسكرية على أرضِ البوسنة والهرسك بنيَّةٍ صريحة وعزم أكيد على القَتْل ، وانتهاك الأعراض وإلحاق الخزي والعار بسكان البوسنة وترحيل أكبر عدد منهم لترسيخ السيادة والهيمنةِ الصربيةِ في الأراضي المحتلةِ حديثًا . ولكن حتى ذلك لَمْ يُؤثِّرْ على قرارِ المجتمع الدولي بفَرْض حظـر الأسلحة على البوسنة والهرسك . وبحلول عام **١٩٩٣م** حمِي الوَطِيس واشتدَّ البَطْش بالبوسنة عندما تكتلت دولة كرواتيا المجاورة مع معظم الكرواتيين الذين

(١) مَذْبَح : مَجْزَر ، مَكَانُ الذَّبح . (المترجمة) .

عاشوا داخل حدودِ البوسنة ، وانضموا جميعًا إلى حلف المُغِيرين المُعتدين من صربيا والجبل الأسود . وتكشفت حملات التدْمِير والمذابح البربرية ضد البوسنيين الذين دافعوا بكل ما استطاعوا عن دولتهم الوليدة .

لقد أراقتْ البوسنة الكثير مِنَ الدِّماء وعَانتْ كثيرًا وقاست بدرجة هائلة ، لكنَّها دافعَت عن نفسها أيضًا . وقد انضمَّ إلي قواتها - علاوة على البوسنويين من غير الرُّتب العسكرية - وطنيُّون وأصدقاء آخرون من حول العالم ، منهم بلادكَ ، حكومتكَ وشعبكَ الذي ساهم بقدر كبير وبمساعدة أصدقائها حول العالم ، نجحت البوسنة في الحفاظ على حرية أجزاء من أراضيها ، ومنها (سربرينيتسا) .

* * *

وعندما اقتربت الحرب من نهايتها ، وبسبب الكفاحِ والنضَال العالمي من أجل إحلال السلامِ والاعترافِ بحقوقِ المدافعين عن (سربرينيتسا) الذي اكتسب قوَّةً على الساحة الدولية ، وقعت الجريمة الأعظم لهذا العدوانِ .. « **خِيَانَة سربرينيتسا** » !! . تم الغَدْر بـ (سربرينيتسا) حيث سُمِحَ للمُعتدي الصربي بالتَّصَرُّف بشكل وحشي ضدَّ آلاف وآلافِ المدنيين وانطلقت الكلاب والذئاب الضواري تفتك بالمدنيين العُزَّل في منطقة غير عسكرية .. منطقة آمنة مَنْزُوعة السلاح .. في « المنطقة الآمنة » !! وبعد ذلك دَخلَ يوم ١١ يوليو / تموز ١٩٩٥م تاريخَ الحضارةِ الحديثةِ بوصفه تاريخ سُقُوط (سربرينيتسا) وانهيارها .

لقد شهدت (سربرينيتسا) احتضارها الرابع وأصبحت مرآةً لجريمة كبرى ضد البوسنة وضدَّ البوسنيين الذين يُمثلون غالبية شعبها المتعدد الأعراق . وبَعْدَ أنْ أسمَعَ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة صوْته وأصدر قراره ، أُزيلت بسرعة أيُّ آثار للعدوان الوحشيِّ . ومع ذلك ، بَقيت الآثار وبدأت حدود المذابح ضدَّ المدنيين والمقابر الجماعية تتكشَّف بشكل تدريجي . ولا تزال الشهادات حولها تُسمع وتُروى في كل مكان . والزوجات ، والأمهات ، والأخوات ، والبنات والقليل جدًّا من الأطفال الذكور - الذين أفلتوا بمعجزة إلهية من الإبَادَة المُنَظَّمة - كل أولئك لا يزالون يَبحثُون عن آلافِ من الأحبة الذين اختفوا ولا أثر لهم .

* * *

إنَّ آلام (سربرينيتسا) وأوجاعها هائلة جدًّا لا يُمكن وصفها ...

والعديد مِنَ المُؤلفين والكُتَّاب حول العالم يَهتمُّون بهذا الموضوع . والكثيرُ من النصوصِ الصحفيةِ والوثائقيةِ والأفلامِ تعرض مدى الجرائمِ وتتناولها وتُعالجُ أسبابَها .

ولكن إلى الآن ، فإن « **قصَّةَ سربرينيتسا** » هي الجوابُ الأدبيُّ الوحيدُ المُتعلِّق بهذا الشأن ، فهذه الرواية تُعد بمثابة الرَّد الأدبي على كلِّ الأسئلة حول مأساة (سربرينيتسا) ، إنها الإجابة الأدبية الفريدة من نوعها الوَثِيقَة الصِّلَةِ بِالمَوْضُوع . فقد كُتِبَت ونُشِرت في (بوسانسكا قرايينا) - في الطرف الآخر من المنطقة الحرة في البوسنة والهرسك حيث استقرَّ المُؤلف - الذي نـزحَ عن بلدته أيضًا - بشكل مؤقت وظلَّ هناك يُكابد الشَّوق إلى موطنه الأصلي المَسْلُوبِ - وقد نُشرت الرواية في أعقاب الإعلان عن الجريمةِ العُظمى ضدَّ الأبرياء في (سربرينيتسا) وصدرت الطبعة الأولى في (بيهاتش) بعد بضع سَنَوات في ١٩٩٨م .

وفي خاتِمَة هذه الروايةِ ، يُظهرُ المُؤلفُ احتجاجُه ضمنيًا :

« **لم يكن الستة آلاف (٦,٠٠٠) هو عدد سكان (سربرينيتسا) الذين قُتلوا بطريقة وحشية ، بل إنَّ عدد الذين ضربوا بالهروات حتى الموت بلغ ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائة (١٣,٥٠٠) فضلًا عن أولئك الذين قُتِلوا أثناء دفاعهم عن (سربرينيتسا) وأكثر من خمسة عشر ألف (١٥,٠٠٠) بوسني كانوا في (سربرينيتسا) ودافعوا عن البوسنة ودَفعوا حياتَهم ثمنًا لمستقبلِ بلادهم** » .

* * *

والمؤلف « إسنام تاليتش » كان الكاتب الوحيد مِنْ ذلك الجزءِ من البوسنة الذي نجى من المذبحة وظل على قيد الحياة . وقد وُلدَ وعاش في (ولاسنيتسا) ، وهي بلدة بوسنية تقع بجوارِ (سربرينيتسا) مباشرة في المنطقة الملاصقة لها تمامًا ؛ لذا فهو يعرفُ (سربرينيتسا) وسكانها معرفةً جيدة .

وقبْلَ الحرب في البوسنة والهرسك ، كان « إسنام تاليتش » موضع احترام كما بعد الحرب على حَدٍّ سَوَاء ، بوصفه كاتبًا مُتَمَيِّزًا لأعمال أدبية رائِعة بدرجة اسْتِثْنَائِيَّة على صعيد الفنون الأدبية النثريةِ [1] والأعمال القصصِية والروائية ؛ وقد تجلَّت موهبته الأدبية مُبَكرًا ولاقت الاعتراف بها في باكُورَة شبابه (استلم جائزتَه الأولى في كتابة القصَّة

---

(١) النثر : كَلَامٌ مَنْثُورٌ غَيْرُ مَوْزُون أو غَيْرُ مَنْظُوم . (المترجمة) .

وهو لا يزال بالمدرسة الثانوية) ، وتوالت الجوائز التقديرية التي نالها على امتداد فترات عمله المهني ، فنال جائِزَة عن عمله كمُرَاسِلٍ صحفِيّ [١] ، حيث عملَ في ذَلِك الوَقت كمحرِّر في إحدى الصُّحف اليوميةِ في (سراييفو) وحاليًا ما زالَ يَعْمَلُ في مِجَلَّة أسبوعية في (سراييفو) . و نُشرَ له حتى الآن اثنا عشر كتابًا مِنْ كُتُبِ النثرياتِ ، من بينهم ستة روايات . وتعتبر بلدته الأصليَّة مصدر إلهامِه العَظِيم والوَحِيد أيضًا .

* * *

و « قصَّةُ سربرينيتسا » ، كما « يَعترفُ » المؤلف بذاته كُتِبَت كردَّة فِعْل واجبة وكاسْتِجابَة حتميَّة لرجلٍ عاش – بعمق – المصيرَ المروِّعَ لأهل بلدته . إنها ردَّةُ الفِعْل على غيابِ الإنسانيةِ . ومع ذلك ، فإن المؤلفَ لا يتَناوَلُ الجُناة بانْفِعال وغَضَب كما يُتوقعِ ، بل تَعَرَّضَ لَهم دون تحيُّزٍ وإجْحاف وغاصَ عميقًا إلى الأسباب الجذريَّة وراء ارتِكابهم لأبشع الجرائم . لقد كُتبت هذه الرواية باحْتِرَام بالغ وبوَقَار ملحوظ وبقلم مترفعٍ عن الأحْقاد والضَّغائن .

بين يدي القارئِ عملٌ أصيلٌ وموثق فإضافةً إلى الأدَاء الأدبي السَّاحِرِ والأسلوب الأخَّاذ ، تُعد هذه الرواية – من نواحٍ عديدة – نَصًّا وثائقيًا . ولا يُعد هذا غريبًا عندما يُعالج مُؤلفٌ مثل « إسنام تاليتش » مَوْضُوعًا نَشِطًا وحيًا كموضوع هذه الرواية ، إذ لا بد أن يتوقع المرء أن تكون قصته موثقة ومُؤصَّلة تاريخيًا [٢] بل لا بد ألا يتوقع غير ذلك من إسنام تاليتش المَشْهُور بهذا الأسلوب سواء كمُؤلف أو كصحافيٍّ [٣] ، حيث يمكن التعرف بسهولة على أسلوبه الأدبي الذائِع الصِّيت والذي لا يسبقه أحد فى البوسنة والهرسك إليه .

وأولئك الذين نَجوا من سَعِير (سربرينيتسا) كانوا قد أرْسَلوا إلى « إسنام تاليتش » بوثائق مَكْتُوبة ومُدَوَّنات كِتَابِيَّة أدلوا فيها بشَهاداتهم ورواياتهم ، وقدموا بياناتهم ، حتى بينما كانت (سربرينيتسا) لا تزال حرَّة وعندما كانت مُطوَّقَة ومحاصرة بالمُعتدين وألْزموه بالتَعَهُّد بتسجيل كل شيء في روايته وأخذوا عليه العَهْد بأن

---

(١) مُرَاسِلٌ صَحَفِيٌّ : مُكَاتِب مَنْدُوب عن جَرِيدَة يكاتبها بالأخبار والتقارير الصَحَفِيَّة . (المترجمة) .

(٢) مُؤصَّلة تاريخيًا : ذات تأصيل تاريخي أي تَرْتَكِزُ على أُسُسٍ تاريخية من حيث تواريخ الأحداث والوقائع . (المترجمة) .

(٣) صَحَافي : مُشْتَغِلٌ بِالصَّحَافَة

ما قدموه سيُدون كِتَابِيًا وسيُعاد صياغته أدبيًا . كانوا يتحرَّقون شوقًا لفضح الجرائم ومُرْتَكِبيها ، ويتطلعون لكشف الحقيقةِ وإظهارها بأسلوب مُفعم بالحياة وتقديمها مدعومة بقوَّةِ البيان وروعة التعبير البديعِ ، وقد تُرجمَت حكاياتهم بصدق وعمق لتتحول إلى تُحفةٍ أدبية متعدِّدة المقاصد وعَميقة المعاني لدرجة بالغة التأثير .. ونُقِلت رواياتهم وشهاداتهم لتُصَبَّ في عملٍ فنيٍّ دراماتيكِيٍّ قَوِيٍّ يحكي ويؤرخ قصة التَّدْمِير المخْزِي لـ (سربرينيتسا) .

* * *

(سربرينيتسا) هي بلدة بوسنية قديمة . ولمْ تُعرف بهذا الاسم دائمًا ، فهي لم تَحْمِلْ اسم (سربرينيتسا) مُنْذُ بِداية عهدها . فـ (سربرينيتسا) الحالية هي إحدى أربع مُدن بُنيَت في نفس المكَان على امتداد فَتْرَة زمنيَّة تتجاوز الألفي عام وقامت على نفس البُقْعَة ، فقد كان هناك (أرغنتاريا ARGENTARIA) أولًا ، ثمَّ (دومافيا DOMAVIA) ، ثم (سربرينيتسا القروسطية) [١] ، ومن آثار البلدةِ الأصليةِ (أرغنتاريا) بقيَت النقوش المكتوبة فقط ، دون أثر ماديٍّ واحد . فقد اختفت تلك الأطلانتيس [٢] البوسنية قبل أكثر من ألفي سنة هي عُمرُ (دومافيا) القديمة ، حيث قامت على أنقاض (أرغنتاريا) المختفية مدينة (دومافيا) المدينة الأكثر أهميةً بالنسبة للإمبراطورية الرومانيةِ في منطقة البلقانِ . وعلى نفس القدر من الأهمية كانت (سربرينيتسا القروسطية) التي قامت مِنْ جَدِيد على أنقاض (دومافيا) أيضًا . فمن المعلوم أنها كَانَت واحدة من كُبريات المُدنِ الأوربيةِ ، وكانت مدينة (لندن) لا تعدو أنْ تَكُونَ مجرد قرية مقارنةً بها . مُحِيتْ هذه المدينة أيضًا مِنْ على وجهِ الأرضِ . وسوف يذكر التاريخ (سربرينيتسا) الحاليَّة أيضًا كمُرَادِف لجريمة يتعَذَّر تخيلها ومن المحَال تصور أبعادِها .. جريمةٌ تم تنفيذها أمام عيون العالم .

* * *

ولكن رِوَايَة « تاليتش » لا تَقصر اهْتِمَامها على (سربرينيتسا) الرابعة فقط ، بلْ

(١) القروسطية : نسبة إلى القرون أو العصور الوسطى . (المترجمة) .

(٢) أطلانتيس : جزيرة خرافية يُقال : إنها كانت في المحيط الأطلسي غربي جبل طارق واختفت من الوجود . (المترجمة) .

تَنَاوَلَ (سربرينيتسا) في كافة مراحل تاريخِها . وحتى يتسنى إدراك حجم مُعَانَاة الوَقْتِ الحاضِر وسبر غور مَأساة (سربرينيتسا) المُعاصرة ، يَغوصُ المُؤلفُ عميقًا في صفحات ماضيها السحيق ليُوضِّح كثافة قدرها المأساويُّ المُتكرر عبر التاريخ .

والقصَّة الخيالية [١] عن (سربرينيتسا) والمَرْوِيَّة على لسان بَطَل الرواية (مرْجان جوزو) تتَدَاخَل وتتَشَابَك مع قصَّة البطل الجدِّ (رَّحمْن بك جوزو) ومغامراته مِنْ الحرب العالمية الأولى . وهكذا تَخطَّت « **قصَّة سربرينيتسا** » المَعْنى الحرفيَّ لعنوانها لتُصبحَ قراءة مُشْرِقة وواضحة لتاريخ البوسنة بأسرها والبوزسنيين جميعًا .. فلم تقف « **قصَّة سربرينيتسا** » عند فَحْوَى العنوان بل غدت تَرْجَمَة تاريخية بديعة وقراءة شَدِيدة الذَّكَاء في تاريخ البوسنة . حَيْثُ يُظهر المُؤلف مرة أخرى شجاعة محل اعتراف لم تتكرر وهي خاصِّيَّة وصفَة مُمَيَّزَة لكتابات « إسنام تاليتش » . فهو لا يُقِرُّ بِفكرةٍ رسمية مُعينة ، ولا يُسلِّم بِحقيقةٍ نهائية ثابتة ، بل يَبْحثُ عن الحقيقة ليعثر عليها ويجدها بنفسه . وبعبارةٍ أخرى : يستخدم أدواتِ التعبير الأدبي لإعادة تَفْسِير وتأويل التاريخ كليًا وصياغة الوقائع والأحداث التاريخية من جديد بأسلوب بَدِيع ومُؤَثِّر يُحَرِّك المَشَاعِر ويُثِيرُ الإعْجَاب .

وبأُسْلُوبه البَدِيع المُتْقَن ونَمَط كتابته المُحْكَم نجح في تطوير حَبْكَة الرِّوَايَة عن طريق مزج الحاضِر والواقِع بالتاريخ والخيال وبمهارة تقنية فائقة أدخل عُنْصُر الأسْطُورَة على ذلك المزيج المُدهش . كما تَنَاوَل التراث البوسنيَّ المُرتكز على المَبادئ الإسلامية بمهارةٍ ودقةٍ بالغة . وقد قام « إسنام تاليتش » بكُلِّ ذلك عَلى نَحوٍ سَاحِر جَذَّاب .

* * *

وقصَّة « تاليتش » عن (سربرينيتسا) ، تُصَنَّفُ كرواية من طراز الأدب الرفيع ، ومُعاصرة بِصُورَةٍ اسْتِثْنائِيَّة جدًّا . وهذا اللون من الفن الروائي يتميَّز بعدد من الملامح البارِزة التي تميزه ، منها قبل كل شيء الأسلوب واللغة ، ثمَّ – وربما حتى قبل ذلك – بِنْيَة الروايِة وتَرْكِيبها . لكنَّنا بالفعلِ علَّقنا باختصار على التركيبِ . وعلى أيِّ حالٍ ، يكفي أن نتَصَفَّح الرواية وأَنْ نُقَلِّبَ صفحاتها حتى بدون أن نقرأ ، حتى نُلاحظ ونُدْرِكَ سريعًا الهَنْدَسَة المِعْمارِيَّة المتميزة لبِنَاء الرواية المرْتَكز على عدد من الفصولِ تم تقسيمها حسب كثافةِ وزمن الحوار إلى أجزاء أصغر . والتحليلُ الأعمقُ

---

(١) الخيالية : الوَهْمِيَّة أو المُخْتَلَقَة .

للروايةِ يَكْشفُ عن عمقِها ، وتَشَابُكِها وتداخلها مع روايات عَديدة ، وأيضًا عن بُعدها التاريخي حيث تستعرض الرواية أحداثًا تاريخية وتستعيد التاريخ لتتأمل فيه مُجددًا ...

وتجدر الإشارة أيضًا إلى نوع خاص من التعبيرِ اللغويِ يُميز كتابات « إسنام تاليتش » . فقد كُتبت « **قصَّة سربرينيتسا** » بلغة بوسنية بارِعة ورائعة ، ستتكشف قيمتها الكاملة بمرور الوقت . وببساطة ، هذه الرواية هي كنز لغوي ثمين وإثراء أدبي للُغة بوسنية ما زالَ البوسنيون يَستعملُونها بالرغم من محاولات قَمْعِهَا في الماضي .

وهذه الموهبة القصصية التي تأَكَّدَت منذ عهد بعيد « لإسنام تاليتش » ، تتَّضِحُ وتتبدى جَلِيًّا في هذه الروايةِ من أول صفحة فيها . فهو يُمْسِكُ بزمام الكلماتِ باقتدار ومهارة ويتَحَكَّمُ بالمُفْرَدات على نحو بارِع ويبسط نفوذه عليها . وبدقةِ صائغ الماس يُصيغ جُملتَه ويُشذبها ليصل بها إلى حد الكمالِ . إنه يُرتِّبُ الكلماتَ ثم يُقسمها ، حتى إننا نَجِدُ على سبيل المثال اسمًا واحدًا في صفحة بأكملها ولهذا فمن المُستحيل بعد قراءة هذه الروايةِ أن ننسى اسم الكُولُونِيل [1] الهولنديِ « كارمانز KAREMANS » ، وهكذا يُحَقِّقُ « تاليتش » وبشكل رائع كلًّا من : الدينَامِيكِيَّة [2] والوُضُوح والبساطة .

وهو يَكْتبُ بِوُضُوح وشَفَافية عنْ لَوْعَة الحُزْن وحُرْقَة الألم . وتعبيراته اللغوية الفياضة والمتدفقة بغزارة في « **قصة سربرينيتسا** » ليستِ فحسب عَلاَمَة مُمَيِّزَة لأسلوبه يسهل تمييزها ، بلْ تُمثِّلُ أيضًا خطوة أبعد من ذلك أُنجزتْ وتحققت بنجاح إلى حدٍّ بعيد . والعديد مِن الكلماتِ أعادَ المؤلفُ تَثْبِيتها والتَّأكِيد عليها ، ووَضعَها باقتدار في سياقٍ حَقَّقَ فيه تمام القوَّةِ وذروة المعنى ، وبإدخال تعبيراته اللغوية الخاصة وضع « تاليتش » لبنةً إضافية في بنية الأدبِ البوسنيٍّ وبذلك يكون قد أغنى وأثرى الأدبَ البوسنيَّ المُعاصرَ بأسره .

* * *

لقد طوَّرَ « إسنام تاليتش » الحَبْكَةَ الرِّوَائِيَّة – القصَّة التأريخية لسربرينيتسا على نحو يُمْكِنُ أَنْ يُقَارنَ بفنِّ التطريزِ بالتَخْرِيم [3] مِنَ التراث البوسني !!

---

(١) كُولُونِيل : عَقِيد في الجَيْش . (المترجمة) .

(٢) الدينَامِيكِيَّة : أداء عملِ دِينَامِيكِيّ أي مَليء (أو مُفعَم) بالحَيَوِيَّة . (المترجمة) .

(٣) التطريزِ بالتَخْرِيم : زركشة دقيقة بالتثقيب أو التَخْرِيم بالغ الدقة وهو فن يستعمل للتطريز والتزيين . (المترجمة) .

تَبْدأُ القصَّةُ بوصفٍ تَفْصِيلي بَسِيط وغَيْر مُعَقَّد ، إلا أنَّه مُؤَثِّر على نحو مَهِيب .. وصفٌ دافئ وحميم جدًّا يُحَرِّكُ المشَاعِر بعمق :

« لقد فشلت في الخروج من حلقةِ الخاتم .. لا يمكنني نَزْع الخاتم .. حاولتُ بألف طريقة وطريقة دون جدوى .. أَبدو جافًا كسحابة من الغبار .. مشوهًا لشدة نحولي ... لو أنقذ هيكلي العظمي نفسه وخَرج من جلدِي فسيفزعه منظر الجسد الذي كان معلقًا عليه .. متدليًا كخرقة بالية .. ولكن كيف سيهرب هيكلي العظمي ؟! .. يبدو أن خاتمَ الزواج قد التحم بعظم إصبعي .. توحد معه .. أصبحا شيئًا واحدًا تقريبًا .. وحتى لو استطاع جسمي أن ينقذ نفسه .. فإن روحي ستبقى عالقة في ذلك الفخ إلى الأبد !!

هَلْ من المحْتَمَل أن يكون الموت قد الْتَفَّ حول إصبعي ؟ .. هَلْ يُمْكِن أن يَلُفَّ الموت نفسه ويتسلل ليقبع كحلقة تحت خاتم الزواج بالضبط ؟ هل استطاع الموتُ أن يَتَدثَّر ويلْتحف بخاتمَي .. ليغدو الموت معقودًا بإصبعي ؟ ليصبح الموت عروسي .. عَرُوسي الموت – وأنا .. خَطِيبُها المتَآمِر عليها .. الخَطِيئَةُ والمتُآمِر !!

لا بد أَنْ ذلك هو الموت .. « خطيئةُ » كُلِّ إنسان .. استطاع أن يختبئ عنِّي فقط تحت خاتم الفتاة (تنزيلا مُهوردار) .. التي لم أتزوَّجها يومًا .. الفتاةِ التي قضيتُ عمري أحلم بالزواج بها » .

ومع هذا الاقتباس ، أبتعدُ للحظة عن العمل الحالي ، إذ لا بد أن أمنح لنفسي فرصةَ التأكيد على أن كاتبة هذه السطور هي سيدة . وأنني بوصفي امرأة أُوصي النساء الأُخريات بقراءة هذه الرواية ؛ لأن « إسنام تاليتش » هو أحد الكُتَّابِ المُعاصرين القلائل الذين ترجمُوا شخصية المرأة بشكل رائع فقد نجح على نحو مدهش في تحويل مشاعر المرأة إلى مَعَانٍ إنسانية مؤثرة وإلى عَمَلٍ فنِّيٍّ رائع . وفي كُلِّ عمل مِنْ أعمالِه (وجميعها قطعٌ موسيقيةٌ مُحترمَة جدًّا بِصُورَةٍ اسْتِثْنائِيَّة) تَلألأ المرأة وتُشْرِقُ الشخصيات النسائية ، وتُعطي كل شخصية النَّغمة المناسبة ، وكل ما تتلفظ به يكتسبُ إحساسًا مُمَيَّزًا ومعنًى خاصًّا .

يَكْشفُ « إسنام تاليتش » عن أهمية المرأة وموقع الشخصية النسائية في القصَّةِ التي يرويها وقد يبدو ظاهريًّا فقط أن بطل القصة رجل . ولكن الحقيقة أن الشخصِيَّات التي لعبت دور البطولة هي شَخْصِيَّة (تنزيلا) ، وشَخْصِيَّة (مُرجانة) التي سُمِّيت الشَّخْصِيَّة الرئيسية على اسمها ، وأُختها (مونتسكيرا) ، و (زيرينا)

السيدة المجيدة من إسطنبول وآنسات (فينا) وسائر النِّساءِ الأخريات المسمَّيات وغير المسمياتِ والجارة العجوز (بيدا) التي تُتمتم بالتعاويذ السحريَّة وتنفثُ العزائمَ وتقرأها على الرجلِ المريضِ ، إن وجود هذا الحشد من السيدات هو ما يَجْعلُ هذه الرواية رائعة حقًّا . فبدلًا مِنْ صُراخ المُغْتَصَبات وأنين البائِسات وآهات المُصاباتِ وزفرات المُشَوَّهاتِ ، وبدلًا من نِساءِ (سربرينيتسا) المُعانياتِ ، فإن المُؤلف يُقدِّمُ لنا باقةً من النِّساء الجميلاتِ المُبتليَات بالحُبِّ .. اللواتي حكم عليهن القدر بلَوْعَةِ الحُبِّ ، والنساء اللواتي يعلو كِبْرِيائهن فوق حبِّهن لمن اختارته قلوبهن الرقيقة . النساء الخارِقات والاسْتِثْنَائِيَّات فَوْقَ العادَة .. النِّساء اللواتي مَيَّزنَ البوسنة وأهلها بشكل مُثيرٍ لِلْعَجَب ، وهكذا تمكن « تاليتش » من رَفع البوسنة والبوسنيين عن حضيض واقعهم الأليم والتسامي بهم فوق وجودِهم اليومي المريرِ .

* * *

وبينما يُبدع روايته التاريخية ، لم يَلجأ « إسنام تاليتش » إلى وصفِ المعاركِ الثقيلةِ الضارية التي يوضع فيها حشود من البشر أمام الفردِ ، ولأن نتيجة النزاع المُسَلَّح أهم من أسبابه الجذرية ، لم يكن بِحاجةٍ إلى أنْ يَستعملَ كلماتٍ قاسيةً أو مفردات فظة ، ولم يعمد إلى صبِّ السباب واللعنات كما لم يضطر إلى أنْ يعظ ويقدم التوصيات .

ففي (سربرينيتسا) ... في جحيمِ (سربرينيتسا) ، يَتجلَّى كلُّ شيء وينكشف من خلال ذاكرة البطل (مرجان جوزو) يظهر كل ما حدث من خلال : اسمِه ، وإيمانِه ، وفي الحالاتِ المختلفةِ لجسده المُعَذَّبِ ، ومن خلال نسج الواقع بالأحلامِ ، وعلى الخَطِّ الفاصل بين الحياةِ والموتِ (وهو يَرغبُ في كليهما ولكنه يخشاهما معًا) ، وفي وجودِه في (سربرينيتسا) وفي النهاية أثناء الاختراق الأخير للحصار في اتِّجاهِ الأراضي البوسنية غير المحتلة ، حيث تتكثف مئات وآلاف السنوات من عُمْر هذه البلدةِ ، ويسترجع المؤلف ظهور الأجيالِ واختفائها وكأنها تتحلل من دخله . ويصور المعاناة الحالية وهلاك الآلاف من البوسنيين المُطاردين والمُعذَّبين بين تلالِ (سربرينيتسا) . وهكذا في شَخْصِيَّة واحدة وفي مصيرِها المؤسف يتبدَّى ويتكشَّف مصير البوسنة والبوسنيين بالكامل !!

* * *

وفي هذا « الاكتشافِ » للروايةِ ما يؤكِّد القيمة المُعترف بها والتي يسهل تميزها لكتابات « تاليتش » . وبسبب ذلك ، فإن القارئ - بينما يَقْرأُ الروايةَ ويتنقل من صفحة لأخرى بأنفاس مقطوعةٍ لاهثة مُندفعًا نحو نهايةِ الروايةِ - يَتنقلُ به المُؤلف من الحاضر إلى الماضي البعيدِ ، مُتحولًا إلى الجدِّ بعيدًا عن البطل ليُؤسِّسَ الوصلةَ مَع الأسلافِ ، تاركًا انطباعًا بكونه إنسانًا منطقيًا وطبيعيًا كليًا .

وثمة بُعد آخر يُطل برأسه في هذه الرواية ، وهو واضحٌ تمامًا ولا يخفى على ذي بصيرة ، لكن تأكيدَه يَبقى مُقيدًا ومُحددًا ضمن إطار مُحَدَّد ، ولكن يَجِبُ التركيز والتنبيه إلى هذا البُعد البارز - وهو البُعد الرُّوحانِيُّ والسمَة الروحيةُ لكتابات تاليتش ، فشرف الالتزام بالهدي الإسلامي نافِذٌ ومُتَخَلِّل في روح الكلمات والافتخار باتباع نهج الحياة الإسلاميةِ في هذه الحياة الدنيا هو القاعدة الأساسية وقد تَجَسَّدَ في الشخصِية الرئيسية في القصَّةِ ، حيث إخْلاص البطل لعقيدته يعادل الهواء الذي يتنفسه ، ووَفَاؤه لإيمانِه يُساوي الدم المُتدفق في عروقه والذي يُحافظ على بقائه ، وهذه الصبْغَة الإيمانية مُتَغلغلة في أعماق النص تمامًا وطاغية بشكل هائل ، بحيث تتأقزم إلى جوارها أي صبغة أخرى تحاول أن تفرض لونها على النص ، فقد تم إعلاء الجانب الروحِي على نحو رائع فوق الجوانب السياسيةِ وسائر التفسيراتِ المَوضوعية للإسلامِ ، والبوسنة ، والحَرب والإيمان . فقد طغى الطابع الروحِيُّ على الحرب في البوسنة وعقيدتها الدينية .

ويُمْكِنُ للمرء من خلال التأمل في « **قصَّة سربرينيتسا** » ، أَنْ يَكْتشفَ المزيد والمزيد ، وقد يُؤكِّد على ما قد قُلته بالفعل ويُشدِّدُ عليه أَو ربما يُضيفُ إليه . لكنني سَأتوقَّفُ هنا حتى أُتيح للقارئ اكتشاف المزيد .

إليدا تاليتش

سراييفو ، يناير / كانون الثّاني ٢٠٠٣م

* * *

مقدمة المترجمة

إن الجرائم الفظيعة التي ارتكبت بعد سقوط (سربرينيتسا) باتت معروفة للجميع . بل إن الأيام التي تلت سقوط (سربرينيتسا) تُعد أسوأ الأيام في التاريخ الأوربي الحديث ؛ فقد ارتُكبت تلك الجرائم خلال ما يزيد عن أسبوع بدرجة من الوحشية غير المسبوقة أثناء النزاع في إقليم البلقان الذي نشب عقب انهيار يوغوسلافيا السابقة . بينما وقفت قوة خفيفة التسليح من قوات الأمم المتحدة الهولندية تشاهد ما يحدث دون أي تدخل ! وهكذا - وببساطة - قُتل أكثر من (١٠,٠٠٠) مسلم من الرجال ، والعجائز ، والنساء ، والأطفال في جيب (سربرينيتسا) المسلم الذي كان يخضع لحماية القوات الدولية . وعند الأخذ في الحسبان أولئك الذين قتلوا منذ عام ١٩٩٢م يصل عدد الأرواح التي أُزهِقتْ في جيب سربرينيتسا إلى (١٥,٠٠٠) مسلم خلال الحرب التي استمرت بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٥م . ويُسجل التاريخ أن « مذبحة سربرينيتسا » تُعد أسوأ حادثة قتل جماعي في تاريخ أوربا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

و « تاليتش » الكاتب البوسني المعاصر ، أحد الذين شهدوا مأساة « سقوط سربرينيتسا » واختبر بنفسه كيف بات الموت السلعة الرائجة في زمن الحرب ؛ يأخذ الصبية قبل العجائز ويحول البلاد إلى كم هائل من الركام والخرائب .. وكانت القوات الصربية قد دفنت ضحايا مذبحة سربرينتسا الذين بلغ عددهم قرابة العشرة آلاف من المسلمين في عدة مقابر جماعية بعد أن قاموا بإعدامهم رميًا بالرصاص ... و « تاليتش » مثله مثل الكثير من البوسنيين مهمومٌ بقضية « التطهير العرقي » ، يحذر من تكرارها ؛ لأنه يرى أن « التطهير العرقي » جريمة يمكن أن تتكرر إذا ما تكررت العوامل التي ساعدت على إتمامها . وكأنه خرج للتو من بين المقابر الطرية الطازجة محذرًا ومنذرًا ؛ فالرواية أقرب أو أشبه ما تكون بقصيدة رثاء وتأبين للإنسانية التي قتلتها الحرب . يدين فيها الكاتب الحرب وأهوالها ومصائبها بأسلوب تهكمي ؛ فنص « تاليتش » في النهاية هو صرخة تحذير لكافة المجتمعات البشرية من تكرار جرائم « التطهير العرقي » ؛ التي لم تختف تمامًا في المجتمعات الشمولية وبقيت معها كل وسائل تكريس الخوف والكراهية التي تسللت إلى جميع مؤسسات الدولة بدءًا

من الأسرة فالمدرسة فالمؤسسة الدينية فوسائل الإعلام فالخطاب الرسمي للحكومة .

* * *

والنص المُترجم الذي بين أيدينا يحكي « **قصَّةَ سربرينيتسا** » وهي - كغيرها من القصص الإنسانية ذات الصِّلة بالوطن والتاريخ - كُتِبَت كاسْتِجابَة وَفِيَّة وبارَّة لرجلٍ لامَسَت روحه ذلك المصيرَ المُرِيع الذي حَلَّ بِأبناء بلدته المغدورة ، فتحَرَّكَت عَوَاطِفه وفاضت مَشَاعِره بسطور هذه الرواية وَفاءً لأرواح إخوانه من أبناء البلدة المنكوبة وبرًّا بأمه الثكلى (سربرينيتسا) . ولأنه ما من أحد يستطيع أن يبدأ المقاومة إلا بعد أن يصوغ مشاعره في كلمات :. شرع المُؤلفُ في الكتابة .. وبدأ يروي للعالم وللأجيال القادمة « **قصَّةَ سربرينيتسا** » مُؤرخًا لقصة الإبَادَة الجماعية التي تمثل عارًا يَنْدَى لَهُ جَبِينُ البشرية وموثقًا لحكاية التَدْمِير المُخْزِي لبلدة مسلمة صغيرة كانت تقبع هادئة في جنوب شرق أوربا ... ولكن المُفارقة التي تلفت النظر أنه - مع تلك الدرجة من الحزن والغضب - لم يتَنَاوَل الجُناة بانْفِعال وغَضَب كما يُفترض ، بل تَعَرَّضَ لَهم بموضوعية ودون تحيُّزٍ أو إجْحاف ؛ وانْغَمَسَ بعمق وهدوء إلى الأسباب الجذرية وراء ارْتِكابهم لأبشع الجرائم مُجتهدًا في نبش الدوافع التي أوقدت حطب المحرقة لتوقظ النيران المستعرة من تحت رماد التاريخ ... فالكتابة عن الألم والضحايا تعني أيضًا البحث عن الجناة .. عن الذنب .. وعن أسباب الفظاعة وجرائم الموت المروِّعَة ..

فالقيم التي كان يراها جيل الآباء الذين عاصروا الحرب ؛ تتمثل في أن جزءًا من البوسنيين - أُطلق عليهم اسم « البوشناق » أو « البوشنياق Bosniak » باللهجة المحلية - قد خانوا المسيحية عندما اعتنقوا الإسلام الذي انتشر في البوسنة كما لم ينتشر في المناطق المجاورة وأصبح دين الغالبية بعد حوالي مائة وخمسين سنة من الحكم العثماني (١٤٦٣م - ١٨٧٨م) . وجاء موقع البوسنة (المسلمة) بين صربيا (الأرثوذكسية) وكرواتيا (الكاثوليكية) ليجعل منها حدًّا فاصلًا بين الشرق والغرب بالمفهوم المسيحي الثقافي . فقد أدى انتشار الأرثوذكسية في صربيا وانتشار الكاثوليكية في كرواتيا المجاورة إلى بروز « دور قومي » للدين في المنطقة ، حيث أصبحت « الأرثوذكسية » لصربيا و« الكاثوليكية » لكرواتيا ليست مجرد ديانة وثقافة بل هوية قومية أيضًا . وعلى هذا النمط فقد لعب انتشار « الإسلام » دورًا مماثلًا في البوسنة فأصبح الإسلام من مكونات القومية البوسنية . كما أخذ البوسنيون - الذين ينحدرون

من العرق السلافي - كثيرًا من حياة الأتراك وطبائعهم وخاصة أن الأتراك كانوا هم النافذة الأولى التي أطلوا منها على الإسلام .

ومن هنا جاءت الكراهية التي انتقلت إلى الأجيال المعاصرة من خلال مَنْ هم في سلطة أعلى مثل الأهل ، والمدرسين ، والحكام السياسيين ، ورجال الدين ؛ ولهذا يحكي لنا « تاليتش » عن حياة المُعَلِّمة (دانيتسا) التي أخفت أحقادها لسنوات طويلة ومع الحليب أرضعت الكراهية والحقد لولديها (ألكساندر) و (بيرو) فتحولا إلى ذئبين ضاريين يلغ كل منهما - بنشوة وفرح - في دماء جيرانهم وأهل بلدتهم ؛ بل وأقدمت المعلمة (دانيتسا) - التي لم يصدق أحد خيانتها - على الوشاية بزوجها (فخر الدين) والخلاص منه بدم بارد !

ويصف « تاليتش » دور جيل الآباء الذي ساهم في نقل نسق القيم السائدة و (الفاسدة) إلى الجيل الأصغر . فما فعله الابن ليس أكثر من الخضوع لنسق القيم التي شارك الجميع في تلقينه إياها ؛ الأب والأم والمدرسة والكنيسة وكل مؤسسات المجتمع :

« ... في ذلك الوقت عندما كَانتْ المؤامرة تختمِر في الخفاء .. وتُدبر المكائد والخطط ، وبينما كان البوسنيون - كعادتهم - لا يُمكنهم حتى أَنْ يَتخيَّلُوا ما الذي كَانَ يَنتظرُهم ، كانت كُلُّ جدَّة صربية تعرف ما هي مهمتها بالضبط تمامًا كما فعلت المعلِّمة الطيبة (دانيتسا) .. ! » .

ولكن على الرغم من كل الحزن والغضب ؛ وعلى الرغم من التفهم الحقيقي للأحقاد الدفينة والكراهية التي تسببت في المجزرة المروعة ؛ فقد كُتبت هذه الرواية بأخلاقية عالية وباحْتِرَام بالغ ، وما من شك في أنها كُتبت بقلم رزين جاهد كثيرًا ليترفع فوق الأحقَاد والضغائن . وهو ما أضفى المزيد من الموضوعية والمصداقية التاريخية وفتح المجال لمساحة أكبر من التعاطف الإنساني المُحايد مع المظلمة المطروحة ؛ كما نجح - بذكاء واقتدار - في تركيز بقعة الضوء على حجم الجريمة مُتجنبًا الوقوع في فخِّ تشتيت الضوء وراء الجلاد وإضاعة فرصة التوثيق النادرة في السباب وكيل اللعنات . لقد سجل « تاليتش » الحدث الملُوث بقلم نظيف مُسلطًا حراب نقده على الظلم بشكل عام والسلبية الدولية والعالم اللامبالي - الذي يخدع نفسه بشعارات الإنسانية وحقوق الإنسان - وعلى الرغم من أنني كنت

أستشعر في بعض الصفحات أصابعه التي تركت بصمات كأنها سحاب أسود فوق الورق ؛ إلا أنه اجتهد ألا تُخفي سحب الغضب السوداء تفاصيل المأساة وأسبابها الجذرية تمامًا ...

* * *

والنص يعتمد في الأساس على التذكر ؛ الذاكرة الخاصة ببَطَل الرواية (مزجان جوزو) ؛ وكذلك على استحضار تاريخ الجدِّ (رحمن بك جوزو) من خلال قراءة دفتر يوميَّات الحرب الخاص به ومذكراته الشخصية ؛ وبينما نطالع مذكرات الجدِّ نشعر بأننا أمام « ألبوم » من الصور يسجل أهم الأماكن التي زارها في أثناء رحلة حياته التي لوَّنتها ظروف الحرب والتجنيد والأسر ونجد أيضًا صورًا تسجل عبوره ببعض المغامرات العاطفية ، وبينما يُقلِّب الحفيد في ذاكرته صورًا من « ألبوم » حياة الجد يستعيد ويتذكر المواقف والأحاسيس المشتركة التي انعكست عليهما في تلك اللحظة ، ويكتشف القدر المُشترك الذي يجمع بين حياة كل منهما .. وتتداعى المشاعر والانطباعات في نفوسنا من خلال الصور التي نشاهدها حتى إننا نشعر أحيانًا بأننا في معرض لوحات تشكيلية ؛ تحتوي كل لوحة على مجموعة من الألوان لباقة من المشاعر التي تتسلل تحت الجلد في لمحات سريعة وخاطفة بحيث تتَدَاخَل صور القصَّة المَرْوِيَّة على لسان بَطَل الرواية الأساسي (مزجان) وتتَشَابَك مع الصور المزدحمة بالألوان المتداخلة في قصَّة البطل الجدِّ (رحمن) على نحو مدهش حقًّا ؛ حتى لكأن القصتين تتضافران معًا لتصنعا من شعر (سربرينيتسا) الجميلة جَديلَة واحدة .. ضَفِيرَة واحدة من التاريخ القديم والحديث معًا .. ضَفِيرَة من التاريخ .. طويلة وناعمة .. ولذلك فإن لهذه الرواية مذاقًا خاصًّا .

و « تاليتش » في هذا النص الأدبي هو الراوي والكاتب معًا .. فإلى جانب مذكرات الجد يقص شهادات الأشخاص الذين شهدوا المجزرة المعاصرة ويعرض حكاية كل منهم .. إلا أن التذكر لا يضمن تسلسل الأحداث ؛ فالذاكرة لا تحتفظ بكل التفاصيل ؛ وبعض التفاصيل تضيع من الذاكرة إلى الأبد ؛ ولهذا السبب تبدو « **قصَّة سربرينيتسا** » غير منسجمة كدأب القصص السردية ؛ حيث اختفت الحبكة الزمنيَّة ولم يتبع زمن الرواية الخط التصاعدي التقليدي للأحداث ؛ فالأحداث في النص هي لحظات يتذكرها الراوي بتفاصيل قد لا تكون كلها مكتملة . ومن هنا جاءت الجمل

في النص غير مكتملة أحيانًا ؛ وبعض الكلمات تتكرر في الجملة نفسها ؛ فتلك هي الكلمات التي علقت في ذاكرة الضحايا ، وتلك هي الجمل التي ظلت ذاكرة الراوي محتفظةً بها .. فالذاكرة تنتقي دائمًا ما تحتفظ به ؛ ولهذا فالرواية أشبه بتراكم أشتات من الذكريات ؛ وخليط متناثر ومتداخل من التأملات التي تكسوها سحابة هلامية من الأوهام والكوابيس والهلاوس من خلالها نستشعر تداخل العالم الخارجي بالعالم الداخلي لشخصيات الرواية في علاقة جدلية مستمرة دون أن نلحظ وجود أي رابط يجمعها معًا .. فالكاتب يترك لنا مهمة تلمس ذلك التداخل والتوحد بين عوالم الشخصيات الخارجية والداخلية دون أن يربط بينهما .. بل إن الكاتب يُقطِّر المعلومات عن شخصياته ويبعثرها عبر صفحات الرواية ؛ فقصة الجدَّة (تنزيلا) مع الجدِّ (رحمن جوزو) لم تأت مرة واحدة بل كان علينا أن نلملمها عبر الصفحات ؛ وكذلك كان علينا أن ننتظر حتى نهاية الرواية لكي نكتشف أن المحقِّق المُريب في (فلادفُستُك) هو نفسه (بيبي هاديدز) بن (يوسف التاي خان) ؛ وحتى أوصاف الشخصيات يسربها الكاتب من خلال مواقف متباعدة ؛ ولذلك تحتاج قراءة « **قصَّة سربرينيتسا** » إلى قدرة عالية على التركيز للإلمام بالتصور التام للشخصيات وتجميع طبيعة الحدث ومدلوله . فالكاتب في هذه الرواية المتميزة لا يكتفي بتسلية القارئ ؛ ولكنه يُجبره على المشاركة والاهتمام بالمتابعة .

وقد أجَادَ الكاتب المُحَنَّك حين باعد بين الصور الوحشيةِ التي يرويها شهود العيان بفواصل زمنية تبتعد قليلًا عن أرض المأساة لتنتقل بالقارئ إلى فَتْرَاتٍ خاطفة من زمن الحبِّ البريء واستِراحَات من الدُّعَابَة الظريفة والفُكَاهَة اللطيفة ، وكأنه يقدم تلك الفواصل الزمنية كهَدِيَّة - كواحة آمنة - يلجأ إليها القارئ وسط ذلك الدمار والفوضى ليلتقط أنفاسَه بعيدًا عن أجواء الدماء والرعبِ . فقد شاهدتُ في هذه الرواية رجالًا يمرون على أجساد إخوانهم بجنازير دباباتهم الثقيلة .. وسمعتُ صليل الحديد ودويَّ القنابل في المعارك ؛ وصوت نوافير الدم التي تنفجر من رقاب الضحايا التي ذُبحت كالخراف .. وشاهدتُ أمهاتٍ ينزعن أصابع أطفالهن الصغيرة عن ثيابهن ويقفزن في الشاحنات هربًا من شبح الموت في (سربرينيتسا) .. ورأيتُ وجوهًا جمَّد الموتُ ملامحها ... فبكيتُ وقلتُ : كم أن العالم مملوء بالكراهية !! .. ولكني شاهدتُ أيضًا فتياتٍ صغيرات يرقصنَ بلطف وحنان .. وشبابًا يمرحون ويضحكون في مروج عمتها البهجة والسعادة .. وسمعتُ العاشقين يهمسون بعبارت

الوفاء والحب والتضحية .. فابتهجتُ وقلتُ في نفسي : العالم كله محبة وابتهاج !! .. وبهذا المزج البديع بين مرارة الحاضر وعذوبة الماضي نجح « تاليتش » في نقل المعاناةِ كاملةً دون الانغماس فيها .. في تجربة فريدة أشبه ما تكون برحلة الذهاب إلى الجحيم والعودة منه في سلام !!

* * *

وقد اختار « تاليتش » موقف المراقب لسرد الأحداث على الرغم من أنه يسرد القصة بضمير (الأنا) ؛ فهو من ناحية ضلع أساسي في الأحداث – لأنه يحكي عن حياته – ولكن القصة ليست قصته وحده أو قصة البطل (مرجان) وليست مجرد تسجيل لرحلة حياة الجد العجوز (رحمن جوزو) ؛ فهو عندما يكتب عن حياة كل شخصية من شخصيات الرواية يكتب بالضرورة عن « **قصّة سربرينيتسا** » ذاتها ويشرحها ويعلق عليها .. فبينما يلقي المؤلف بصيصًا من الضوء على العالم الداخلي للشخصيات ؛ وبينما يتسلل بهدوء إلى مشاعرها وتحت جلدها حتى يصل إلى النخاع ؛ فإذا به ينقلنا فجأة إلى عالمها الخارجي .. إلى عالم (سربرينيتسا) حيث تتداعى المعلومات عن تاريخها .. جغرافيتها .. تلالها .. جبالها .. أنهارها .. سماءها الملبدة بالغيوم .. أشجارها المتنوعة « البتولا » .. « الحور » .. « الزان » .. بيوتها التي تتصاعد منها أدخنة المدافئ .. ولهذا تبدو « **قصّةُ سربرينيتسا** » للوهلة الأولى أشبه ما يكون بجولةٍ نفسية داخل مشاعر أبطالها ولكنها في حقيقة الأمر تصور رحلة خارجية في فضاءات (سربرينيتسا) .. حيث يتحول قلم الكاتب إلى « كاميرا » تسجل مجموعة من المناظر الخلابة وعلاقتها بالملاحظات الشعورية للراوي في صورة أقرب إلى تسجيلات الخواطر اليومية في ظهر كل صورة خواطر سريعة بلغة تلغرافية ، قد تبدو مُلغزة أحيانًا بسبب اقترابها من نسيج القصيدة المشحونة بـ « كوكتيل » من المشاعر المُختلفة والمُتفاوتة .

وهكذا قدم « تاليتش » من خلال « **قصّةِ سربرينيتسا** » رؤية عميقة للتاريخ والإنسان معًا . ولهذا السبب وُلدت « **قصّةُ سربرينيتسا** » قَوِيَّة وعَمِيقة لدرجة بالغة التأثير فهي ليست عملًا دراماتيكِيًّا مُؤثرًا وعَمِيق المغزى فحسب بل وتسجيلًا تاريخيًّا نزيهًا وأمينًا وبَعِيدَ الغَوْر لدرجة مُدهشة ، فروَايَة « تاليتش » لا تَقصر اهْتِمَامها على (سربرينيتسا) الرابعة فقط ، بلْ إنها تتَنَاوَلُ (سربرينيتسا) في كافة مراحل نموها

التاريخي .. إذ يبدو أن المُؤلفَ لم يستطع أن يروي « **قصَّةَ سربرينيتسا** » دون الرجوع مسافة طويلة إلى الوراء .. ودون أن يذهب بعيدًا بعيدًا إلى باكُورَة تاريخها ؛ حيث غاصَ المُؤلفُ بعمق في صفحات ماضيها السحيق ليُوضِّحَ كثافة قدرها المأساوي المُتكرر عبر التاريخ ، وحتى يتسنى للقارئ إدراك حجم مُعَانَاتها في الوَقْتِ الحاضِر وربط تاريخها القديم بمَأساتها المُعاصرة ، ويَبْلُغَ الغوص التاريخي المُشوق أوْجَ المُتعة وذُرْوَةَ كثافته التاريخية والتراجيدية معًا عندما يُفسر الشيخ الدرويش رؤيا السلطان (محمد الفاتح) - التي رآها وهو في طريقه لفتح البوسنة - حيث رأى في منامه الخلفاء الأربعة الراشدين عدا الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) :

« يا جَنَاب السلطان ، لقد تَقَوَّض منامك الذي رأيته بشأن هذه الأرضِ ... الآن انهارت الرؤيا الجميلة وتَدَاعت . فسيدنا (عمر) ، فوق كُلِّ مزاياه التي جَعلتْ منه خليفة والتي ستجْعل منه مثالًا وقُدوة للمؤمنين إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، كَانَ قبل كل شيء رجلًا مُنصفًا وعادلًا .. ونظرًا لأنك رأيت في منامك سيدنا (أبا بكر) فإن البوسنة سَتصْبِحُ أرضًا غنيةً ولأنك رأيت في منامك سيدنا (عثمان) فإن البوسنة سَتكون أرضًا تقية يسكنها المؤمنون الأتقياء ، ولأنك رأيت في منامك سيدنا (علي) فإن البوسنة سَتكون أرضًا للمجاهدين ، ولكنك لم تر سيدنا (عمر) ولهذا فإن هذه الأرض لم تعرف العدل يومًا من تاريخها الطويل .. لم يكن فيها أيُّ عدالة ولن يكون ... إن هذه الأرض مَحْكُومٌ عَلَيْها بالظلمِ يا مولاي !! » .

فنهاية تأويل الدرويش لرؤيا السلطان تحمل طاقةً شعرية كبيرة لا يُخطئها حِس القارئ ؛ فجملة « **إن هذه الأرض مَحْكُومٌ عَلَيْها بالظلم يا مولاي** » تحمل كثيرًا من المعاني المضغوطة بداخلها ما جعلها أشبه بضربة المطرقة على السندان !!

والمُتتبع لتاريخ (سربرينيتسا) يُدرك أنها تقع في قلب الحضارات التاريخية العظمى فموقعها بين الشرق والغرب خلال أكثر من ألف عام يجعل مصيرها وواقعها ومستقبلها مرتبطًا بهذا الموقع على صعيد التاريخ والسياسة والثقافة ، ولهذا فمن العسير كتابة تاريخها ؛ لأنه يحتاج إلى الإلمام بعدة لغات ومعرفة حوادث تاريخية بالغة التعقيد . وبالنظر إلى كارثة « سربرينيتسا المُعاصرة » ؛ فإنه يحتاج أيضًا لفهم عالم ما بعد الحرب الباردة . وما من شك في أن اجتماع كل هذه المواصفات في

رواية مُحكمة الحبكة التاريخية تحكي عن تلك البلدة التي يلتقي عندها الزمان بالمكان لهو مجهود عظيم لا يقدر عليه إلا كاتب مُثقل بالحب والوجع معًا ، كاتب مثخن بألم الكبرياء مثل « تاليتش » ؛ الذي قص علينا – بعد المجزرة – صور العذاب الذي لا يمكن أن يُقال .. ولكنه قال كل ما استطاع أن يصيغه في كلمات وما استطاعت الحروف أن تحمله ، ووصف بقلمه كل شعور كان ما يزال في إطار إمكانية صياغته في سطور .. فهو يتفوق حتى على نفسه في وصف خلجات النفس المُهددة بالموت والاقتلاع من الوجود .. بل ووصف تجذرها العنيد في تراب الوطن أيضًا !

* * *

وتلعب الأحلام والرؤى والكوابيس دورًا حيويًّا وحاسمًا في « **قصَّةِ سربرينيتسا** » ؛ ففي كثير من المحطات النفسية التي توقفت عندها حياة البطل نجد مذاقًا من الهراء والفوضى .. من الأحلام والكوابيس والهذيان بل وينقلنا الكاتب بشكل مفاجئ من وصف الحلم إلى الواقع أو العكس في دوامةٍ ممتعة من تماهي الحلم مع الواقع ، وقد تجلى ذلك على نحو خاص في الحُلم الذي يتحدث فيه (مرجان) مع أمه وجدِّه ؛ حيث يُصور الكاتب ذلك الحوار الوهمي مع موتى يعيشون في العالم الآخر كما لو أن البطل يتحدث إليهما من مقصورة هاتف عمومي !!

كما تضمنت الرواية مشاهدًا من اللهو والمجون الذي يعقبه الندم ؛ فالجدُّ يعترف بذنوبه ويُقرُّ باستحقاقه للعقاب .. مثل كل الرجال الذين يتوقفون عن خداع أنفسهم ويُسلمون بأنهم بشر ليس أكثر تتنازعهم الحاجات والرغبات والمخاوف ولا يُنكرون مشاعرهم ويُخفونها تحت بساط الفرض والواجب .. فهناك دائمًا الواجب والإثم .. الضمير الفاسد والاعتراف .

« ... لا أَستطيعُ أن ألوم القدر .. فأَنا المُلام الوحيد .. كَانَ عليَّ أَنْ أعرف .. كَانَ عليَّ أَنْ أعرف مُسبقًا بأنَّني سأَنتهي نهاية كهذه ... وبأنَّني – عاجلًا أم آجلًا – كنت سأقع في الأسر .. إما أنني سأقع في الأسر أو أنَّني سأُوقع نفسي فيه ؛ وحيث إنني فررتُ من الخدمة العسكرية في كتيبة الحراسة في (ڤينًا) ، كان الشيء الوحيد الذي يُمْكِنُ أَنْ أَتوقَّعَه هو أنني سأُرسلُ إلى هنا – إلى الجبهة الشرقية . هل تكفي خمس لَيالٍ من المجون والفُجُور في فندق G'nery بمدينة (بست) .. ليلتين مع اثنتين من عاملات النظافة في غُرفَة الفندق ، وليلة مع

الخادِمَة وليلتين مَع سَيِّدَتِها ، هل في تلك الليالي الخمس ما يَكْفي من العِقَاب والجَزَاء على هروبي مِن الحَرَس الإمبراطوري ، وهَلْ يكفي وجودي في (جاليتسيا) للتكفير عن ذنوبي ؟ » .

كما تمتاز كتابة هذه الرواية - لأنها رواية فلسفية - بنوع من الغموض العميق ولكنه مفهوم ، وعلى هذا النحو كان يحلو لكاتبنا البوسني أن يسجل لقطات من حياة جدُّه تبدو بسيطة ؛ ولكنها في الحقيقة تحمل مضامين عميقة :

« ... في ذلك العَصْر كان المسيخ الدجال قد ظَهرَ في هذا العالم . فالشُّيُوعِيَّة ليست ديانة الشيطان فحسب . بل إنها علامة من علامات يَوْم القِيَامَة كظُهُور المسيخ الدجال تمامًا ، فالمسيخ الدجال يدَّعي أنه اللَّه ويوهم الناس بأنه يمتلك صفات الألوهية والربوبية وكل ما هو من اختصاص اللَّه ﷻ ، وكذلك الأفكار والأطروحات الشُّيُوعِيَّة تهدف إلى سحب السلطات من الإله ومنحها للنظام الشيوعي ، وحيث إنه لا وجود للإله في الشيوعية فلا بد أن تحل الدولة محل الإلــه . ولهذا اضطر الشُّيُوعيُّون إلى أن يَنسبوا للدولة خواص اللَّه ﷻ وأن يُلصقــوا بالسلطة الشُّيُوعيَّة جميع أسْماء اللَّهِ الحُسْنَى ؛ ولأن من أسماء اللَّه « العليم » ، فلا بُد أن يكون النظام الرسمي الشُّيُوعِيُّ كذلك ؛ ولذا يُصرُّ النظام الرسمي للدولة الشُّيُوعِيَّة على أن يعرف ما يفكر به كل فرد في الدولة ، وأن يكشف عن عقيدته وإن أخفاها في أعمق تلافيف دماغه ، ولأنهم لا يقدرون على ذلك ، فقد كان من الأيسر أن يتركوا للدولة مهمة تحديد ما يعتقــده الإنسان ، وأن يرغموا الناس على عقيدتهم » .

* * *

وقد نجح « تاليتش » في توظيف الشخصيات النسائية توظيفًا موفقًا .. وبشكل رائع استطاع أن يحول مشاعر المرأة إلى مَعَانٍ إنسانية راقية ومؤثرة .. حيث أضفت شخصية (تنزيلا) حبيبة الحفيد ، و (مرجانة) حبيبة الجد النكهة الرومانسية على هذه الرواية التاريخية .. تلك النكهة المؤثرة التي أضافت إلى قراءة « **قِصَّةِ سربرينيتسا** » طعمًا ممتعًا للغاية . وهكذا أدخل « تاليتش » إلى النص جرعات كبيرة من الحميمية والشاعرية مازجًا بين نعومة الرومانسية وصلابة التاريخ .. وبأُسْلُوبه البَدِيع المُتْقَن ونَمَط كتابته المحكَم استطاع أن يطوِّر الحَبْكَةَ التاريخية للرِّوَايَة عن طريق

المزج البديع بين الحاضر والماضي ... بين رحابة الخيال ومحدودية الواقع .. ومن تداخل تلك الفضاءات الفنية والتاريخية وتمازج بعضها ببعض تنعكس صورة الحبيبة لتقع على صورة الوطن وتنطبق الصورتان معًا في توحد أبدي .. فرواية « **قصَّة سربرينيتسا** » سياسية في جذورها وغرامية في شكلها .. كما أدخل - بمهارة وتقنية فائقة - عُنْصُر الأسْطُورَة على ذلك المزيج المُدهش من خلال شخصية المشعوذة (بيدا العجوز) التي تؤدي طقوس « السترافا » وتعالج بالرقى والتمائم السحرية .

ومن خلال شخصية العمة (زيرينا) - السيدة الأناضولية الجميلة - يؤكد المؤلف على حقيقة أن « البُشْنَاق » هم شعب أوربي ينحدر من العرق السلافي ، وليس جالية تركية أدخلها العثمانيون إلي البوسنة - كما يزعم المؤرخون الصرب وحيث لا يزال هناك من يخلط بينهم وبين الأتراك - حيث تموت العمة الأناضولية « زهرة النرجس » دون أن تترك بذرة تركية في الأرض البوسنية .. وهكذا بقيت البوسنة للبوسنيين الأقحاح .. بقيت لـ « البُشْنَاق » سكان البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام منذ وصوله إليهم وليسوا جالية هاجرت من أي بلاد إسلامية أخرى :

« .... إنني حَزين ومُكْتَئِب لأجل عمتِي (زيرينا) ، أتوجع وأتَحَسَّر لجمال الأمِّ (فرح) والابنة (زيرين) ... ذلك الجمال المحْتَضِر .. الذي ظل يُكابد الموت منـذ زمن بعيد إلى أن لفظ النفَس الأخير . إنني مُلَوعٌ ومَهْمُومٌ لأجل هؤلاء الجميلات الذابلات ... زهرات النرجس الذابلة ... الجذور المُقتَلَعة مِن التربةِ الأناضوليةِ والتي بُتِرَت في البوسنة ... الزهرتين : الأناضولية والأخرى النِصْف أناضولية ... الزهرات المَبْتُورات المقطُوعات في أقصى شرق البوسنة ... السيدة التي صارت بوسنية بالكامل .. والسيدة الأخرى النصف بوسنية . لم يترَكن أي ذُرية من ورائهم .. لم يخلفوا سُلالة من بعدهم . البوسنة - الشرق والأكثر توغلًا في الغرب من هذا العالم - تُركت فقط للبوسنيين الخُلَّص ... البوسنة للبوسنيين الأقحاح .. »

كما تَنَاوَل المؤلف التراث البوسني والتَقَاليد الشعبية للبوسنيين بدقةٍ بالغة .. مؤكدًا ومُرسخًا لعلاقة أبناء البوسنة بتراثهم الغني والمتميز . وكأن اللُّحمة ما بين أبناء البوسنة وتراثهم قد عادت حية قوية حين تحدث عن رقصة « الكولو » التي ترقصها الفتيات الصغيرات صبيحة ثاني أيام العيد .. وأيضًا عندما تحدث عن عادة قَلْب أكمام

المعطف من الداخل للخارج في محاولة لإخْراج الشخص المُكتئب من حالة الحُزن والإحباط التي أصابته .. وعادة ذبح القرابين تقربًا للَّه عسى أن يبرأ المريض وتعود إليه عافيته ، أو على الأقل أن يمن اللَّه على المُحتضِر بميتة سهلة وألا تتعذب روحه في سكرات الموت .. وغيرها من التقاليد والعادات البوسنية . ولهذا فهذه الرواية تعتبر فاتحة خير في طريق التعرف على آداب الشعوب المسلمة في منطقة البلقان . وإن وُجد في بعض الممارسات بدعٌ لا تقرها الشريعة فإنه ينبغي ألا يُحكم على كل ذلك التراث بالإعدام . ولا شك أن نشأة « تاليتش » في بلد متنوعة الثقافة (الشرقية والغربية) مثل البوسنة ومعرفته الجيدة باللغات الشرقية (العربية واللاتينية) واهتماماته المتعددة (اللغة والأدب والتاريخ والعلوم الإسلامية) قد ساعدته على أن يكوِّن ثقافة واسعة تجمع ما هو محلي ، بوسني مع ما هو شرقي وغربي مُرتكزًا في الوقت نفسه على المبادئ الإسلامية .

إذ ليس من الصعب التقاط الحس الإسلامي الدافئ في كتابات « تاليتش » ؛ ففي كل مشهد من مشاهد الرواية كان الانتماء للإسلام حاضرًا وبقوة .. فهو يتحدث عن كل شيء يتعلق بالإسلام بعذوبة شديدة .. وكثيرًا ما شعرتُ بارتفاع نبض الكلمات وارتفاع حرارة النص كلما اقترب من الحديث عن الإسلام .. فكنت أتوقف أمام تلك الجمل السحرية المحملة بالحب للإسلام ولا أكمل القراءة .. كانت تقفز أمامي فوق الصفحة لترتطم بها عيناي ؛ فكنت أغلق الرواية حتى أسمح لمشاعري بأن تستقر وتأخذ مكانها من جديد ؛ وبهذا فقط كنت أستعد لأن أكمل القصة حتى نهايتها ..

« .. طلبتُ منه أن يرفع الأذان ... اللَّه أكبر ...

وفجأةً دوَّت الأحَراج .. وتَردَّدَ صدَى الصَّوْت في جنبات الغابَة !

يا إلهي .. كَمْ هذا جميل !

كَانَ كافيًا جدًّا أَنْ يُلْفَظَ النداء القدسي « اللَّه أكبر » مرَّةً واحدة فقط حتى تُكمل التلالُ ترديد النداء ثلاث مرات .. ليس فقط لثلاث مرات لإتمام الأذان .. بل لثلاثين أو لثلاثمائة مرة .. وهكذا دَوَّت تكبيرات مؤذننا القادم مِنْ (روجاتيسا) في أرجاء الغابة البعيدة وتَرددت التكبيرات على بعضها البعض .. »

وفي هذه الرواية أيضًا يُركز الكاتب على حقيقة انتشار الإسلام وتواجده في كل بلاد الدنيا وفي كل بقاع الأرض فحتى في قلب (روسيا) الشيوعية كان الإسلام يقبع آمنًا في قلب الضابط الروسي (عبد الرحمن) المُنحدر من أصول فارسية مُسلمة .. بل وفي أعماق القلب القاسي للمحقق الذي التقى به الجدُّ في (فلادفُستُك) القابعة عند آخر نقطة قبل نهاية الحدود الشرقية للاتحاد السوفيتي الفسيح .. ذلك القلب البعيد عن الرحمة بُعد (فلادفُستُك) عن الإسلام .. هو ذات القلب الذي أجهش بالبكاء وهو يستمع إلى آياتٍ بيناتٍ من « سورة يوسف » في قلب زنزانة قاتمة تحت الأرض .. في إشارة إلى بذرة الإسلام التي تنبض بالحياة في جوف التربة تمامًا كما أضاءت تلك الزنزانة - المدفونة تحت الأرض - بنور القرآن في جوف العتمة !! وقد كثَّف الجدُّ (رحمن جوزو) مشاعر التعجب والدهشة للحيوية الفائقة التي تتمتع بها « بذرة » الإسلام .. في تساؤله البليغ : « **يا إلهي ، مَنْ يَعْرِفُ في أي أماكن أخرى من هذا العالم بذرتَ بذورَ الإسلام ؟!** » .. فالتساؤل يحمل في طياته تأكيدًا على أن « بذرة » الإسلام قد تكمن وتقبع في جوف التربة لبعض الوقت عندما تسوء الأحداث وتقسو الظروف الخارجية ولكنها أبدًا لا تموت مهما اشتد الجفاف .. فهي بذرة تحمل « جينات » الخلود .. وما أن تتحسن الأحوال حتى تزدهر وتدب فيها الحياة من جديد .. وتعود لتطرح الخير والخَضار في كل مكان .. ولهذا تلتقي الأحداث بالإسلام مُجددًا في المنطقة الجنوبية والوسطى من (سيبيريا) على طول الشاطئ الشرقي لبحيرة بايكال .. حيث نجد الإسلام عامرًا ومزدهرًا في قلوب قبائل « البوريات » التي تسكن جمهورية (بورياتيا) التي قد لا يسمع بها أحد .

ويصور الكاتب في هذه الرواية لحظة إنسانية عالية جدًّا ؛ تؤكد عمق الأخوة الإسلامية التي تربط المسلمين من مختلف شعوب الأرض .. الأخوة التي جمعت بين الحاج (موريز فريز) قاضي بلدة (تشاينيتشه) القادم من البوسنة في شرق أوربا والحاج (يوسف التاي خان) القادم من جمهورية (بورياتيا) حيث التقيا في (مكة المكرمة) أثناء رحلة الحجّ وتوثقت عُرى المحبة بينهما وكانت لحظة الوداع بالغة الحزن والأسى بسبب تلك الأخوة .. بسبب شيء لا يمكن التعبير عنه باللغة .. شيء يتحلل في الدموع فقط :

« **... وكان على رفاق الخانِ أنْ يَنتظروه في (مكة المكرمة) لأكثر مِنْ شهرين**

حتى يرَجعَ مِن (الإسكندرونة) .. حيث أصر على الذهاب لتوديع صديقه القاضي مِنْ (تشاينيتشه) وانتظر حتى رآه يصعد إلى متن السفينة التي ستحمله في رحلة بحرية إلى البوسنة ... وكشخص يعاند مشاعره حاول على الرغم من الأحاسيس المؤلمة التي كانت تنغز كالإبر في قلبه أن يحبس دموعه في مقلتيه .. ولكن سرعان ما امتزجت دموع الخان الحزين بمياه البحر المالحة .. »

* * *

إن رواية « **قصّة سربرينيتسا** » لا تخص (سربرينيتسا) وحدها وإن أظهر عنوانها غير ذلك .. فمن خلال مأساة تلك البلدة الصغيرة تسطع لمحات عن تاريخ وثقافة وجغرافية البوسنة كلها .. ولعل في محاولة إبادة البلدة الصغيرة (سربرينيتسا) وطمس معالمها وتاريخها ومحو اسمها من خارطة العالم مُفارقة عجيبة ؛ حيث عملت المجزرة المروعة على ترسيخ اسم البلدة الصغيرة التي كانت مغمورةً لا يسمع عنها أحد ؛ بل وغدا اسم (سربرينيتسا) بوابة تفتح أحضانها ليدخل العالم ويتعرف ليس فقط على (سربرينيتسا) وإنما على البوسنة بأسرها .. وهنا تتأكد أهمية هذه الرواية .. فإذا كان بوسع رصاصة واحدة أن تقضي على وجود أي أمة مرةً وللأبد ، فسوف تفقد رواية قصص المُدن المنكوبة أيَّ طائل من ورائها .. بيد أن كل مدينة هي أكثر من مجرد نفسها .. هي أيضًا تمثل « الأمة » من البشر التي تسكنها .. فالبشر هم روح المدينة .. أما وقد حلت الروح في جسد المدينة ، فكل مدينة رائعة وجديرة بكل اعتبار طالما عاشت لتنفذ إرادة الوجود والبقاء .. وقوة الهوية هي القوة التي لا يستطيع أحد أن يبكيها .. فهي قادرة دائمًا على ترميم ذاتها وبناء مدينتها من جديد .. إنه الإنسان .. ذلك الكيان الاستثنائي .. ولهذا السبب تكتسب قصة كل مدينة أهميتها وأبديتها وقدسيتها .

وقد لا أذيع سرًّا إذا أفصحت بأنه لا توجد صفحة من صفحات هذه الرواية لا تحمل تضامني وتعاطفي التام معها .. وأن ترجمتي لهذا النص - التي لم تقتصر على الترجمة فحسب بل تضمنت التحقيق التاريخي لأحداث الرواية وإضافة التراجم للمشاهير وللشخصيات التاريخية الواردة فيها وإلحاق العديد من الهوامش التوضيحية بالإضافة إلى تزويد النص العربي بالخرائط والصور التي لم يتضمنها النص الأصلي ؛ لإضافة المزيد من الوضوح وتقريب العقل العربي من أجواء الرواية البوسنية -

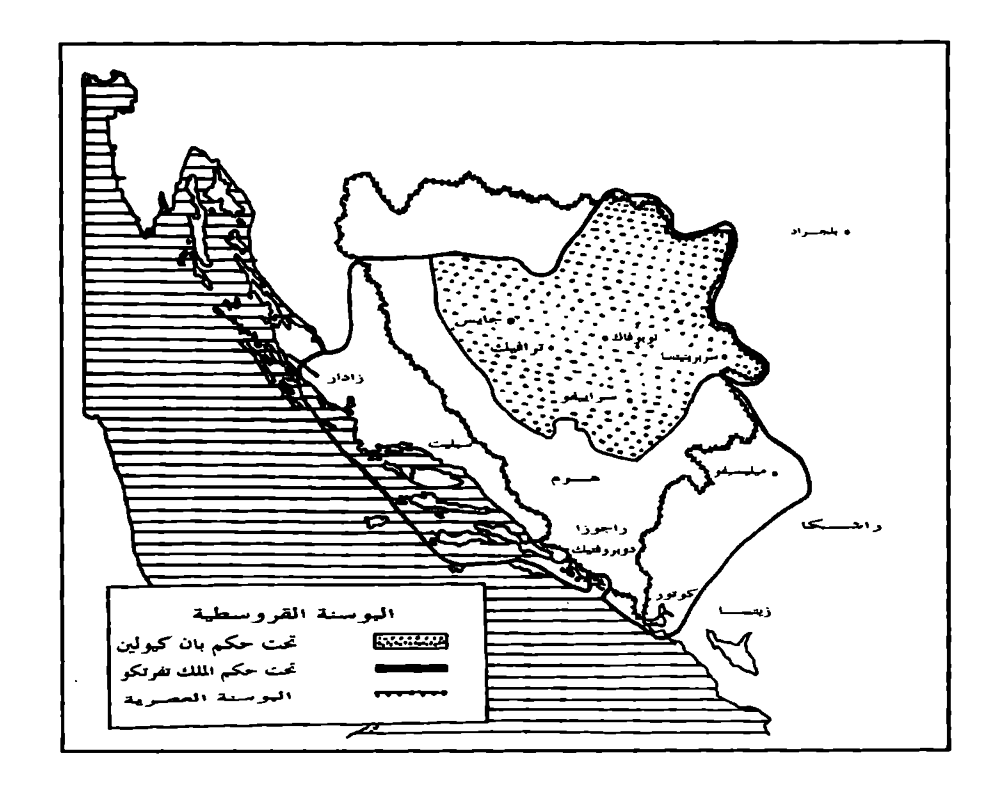
هي أقل ما يمكن أن أقدمه .. فكلمة حقيقة واحدة .. كشمعةٍ واحدة .. يمكنها أن تُبدد كثافة العتمة .. ولهذا فإنني أقدم هذا العمل شهادة للَّه أولًا وللتاريخ ثانيًا .. ولا يفوتني أن أتقدم ببالغ الشكر والتقدير للناشر السيد المُحترم / **عبد القادر محمود البكار** ؛ لموافقته - بل وحماسه الفائق - لنشر هذا العمل ويمكنني أن أبوح أيضًا بأن الاتفاق رسميًا على ترجمة هذه الرواية كان في **الحادي عشر من يوليو / تموز ٢٠٠٦م** .. نفس اليوم الذي وقعت فيه مذبحة (سربرينيتسا) في مفاجأة قدرية مثلت بالنسبة لنا « علامة خير » تشير إلى توفيق إلهي وبشارة بالقبول - بإذن اللَّه - وإشارةً لفأل حسن .. بل وجاء الانتهاء من الترجمة والتنقيح والتدقيق في **الحادي عشر من يوليو / تموز ٢٠٠٧م** بعد عامٍ كامل من الجهد والعمل المُتواصل . وإذا كان على الطبعة الثانية من هذه الرواية بلغتها الأصلية - البوسنية - أنْ تَنتظرَ حتى يوم **١١ يوليو / تموز ٢٠٠٢م** - حيث مناسبة الذكرى السابعة للجريمةِ الكَوْنِيَّة التي وقعت في (سربرينيتسا) - فلم يكن على الطبعة العربية الأولى أن تترقب ولا أن تتربص **بالحادي عشر من يوليو - تموز** .. فقد قدر اللَّه لها ذلك دون تخطيط أو تدبير منا وكان ذلك التقدير الإلهي من دواعي ابتهاجنا وسرورنا .

وعند هذا الحد فإنني أفضل أن أنهي مقدمتي وأن أترك تقييم هذه الرواية وتذوقها للقارئ .. وأن أحترم أحاسيس المتلقي وذهنه ، حيث لكل متلق انطباعه الخاص عن أي عمل إبداعي فني ، وهذا الانطباع يتفاوت تفاوتًا كبيرًا وفقًا للتجارب التي خاضها في حياته والمؤثرات التي شكلت ذائقته الأدبية . وأترك للقارئ محاولة فهم المزيد عن فحوى الرواية وسبب كتابتها ومناخاتها وأصواتها وألوانها وشذاها وشخوصها وعلاقتهم ببعضهم ... والكلمة الوحيدة التي يمكنني أن أختم بها حول « **قصَّة سربرينيتسا** » هي أن هذه القصة قد كتبت لأنها كأيِّ قصة مؤثرة وكثيرة العبر كان يجب أن تكتب .. ولأنها ككل القصص التاريخية يجب ألَّا تنسى !!

صَهبَاء مُحَمَّد بُنْدُق

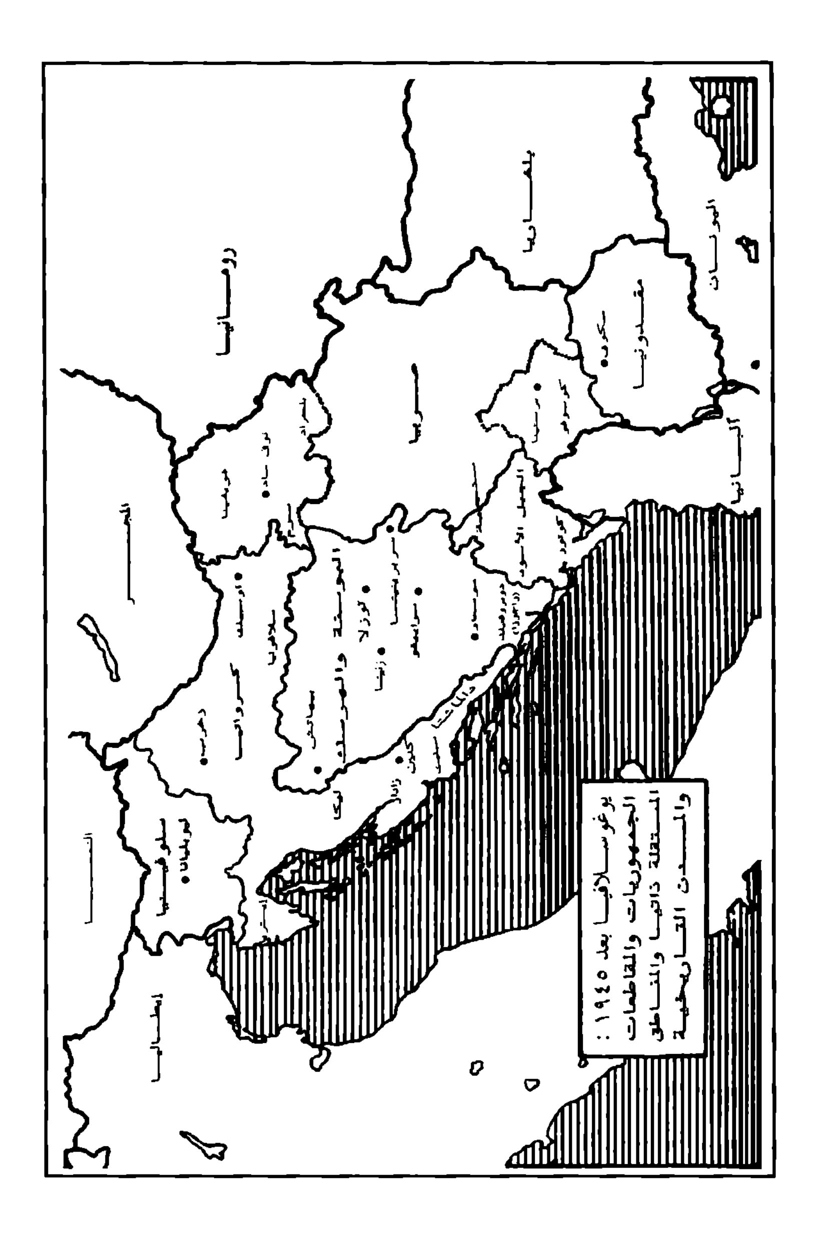
القاهرة ١١ يوليو ٢٠٠٧م

* * *



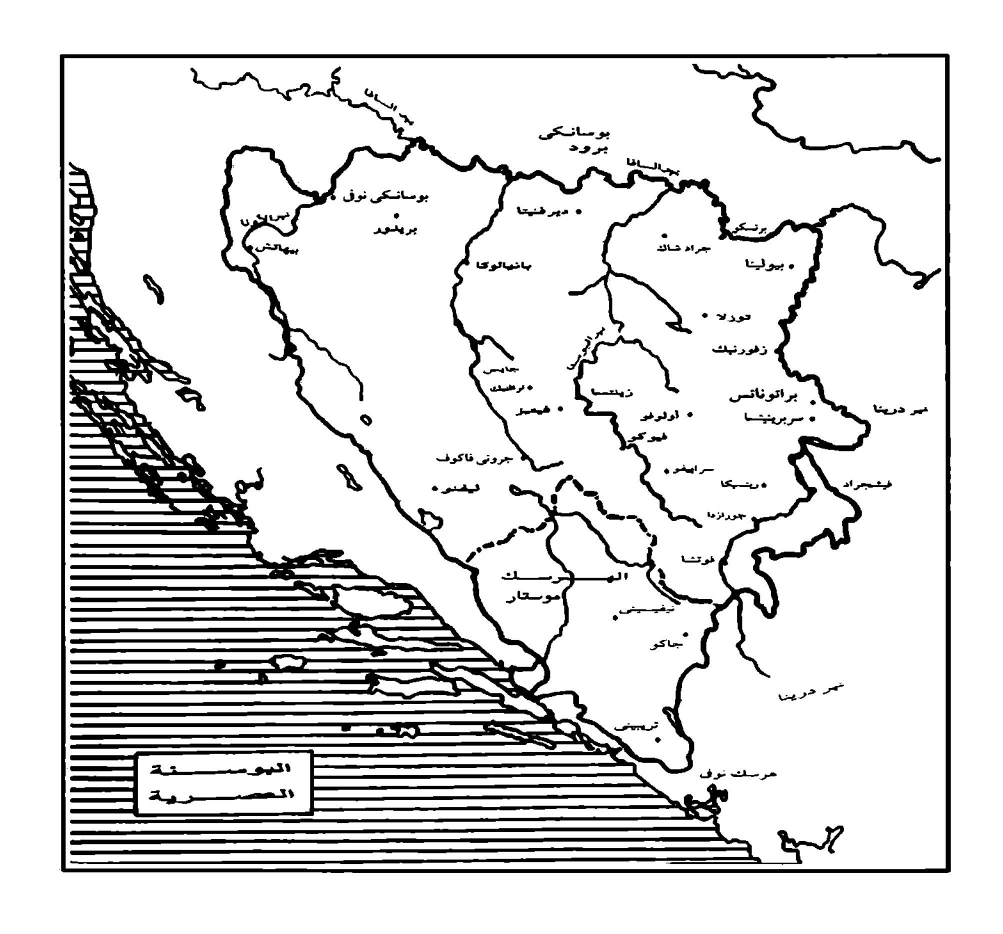
الخريطة رقم (١)

البوسنة خلال القرون الوسطى



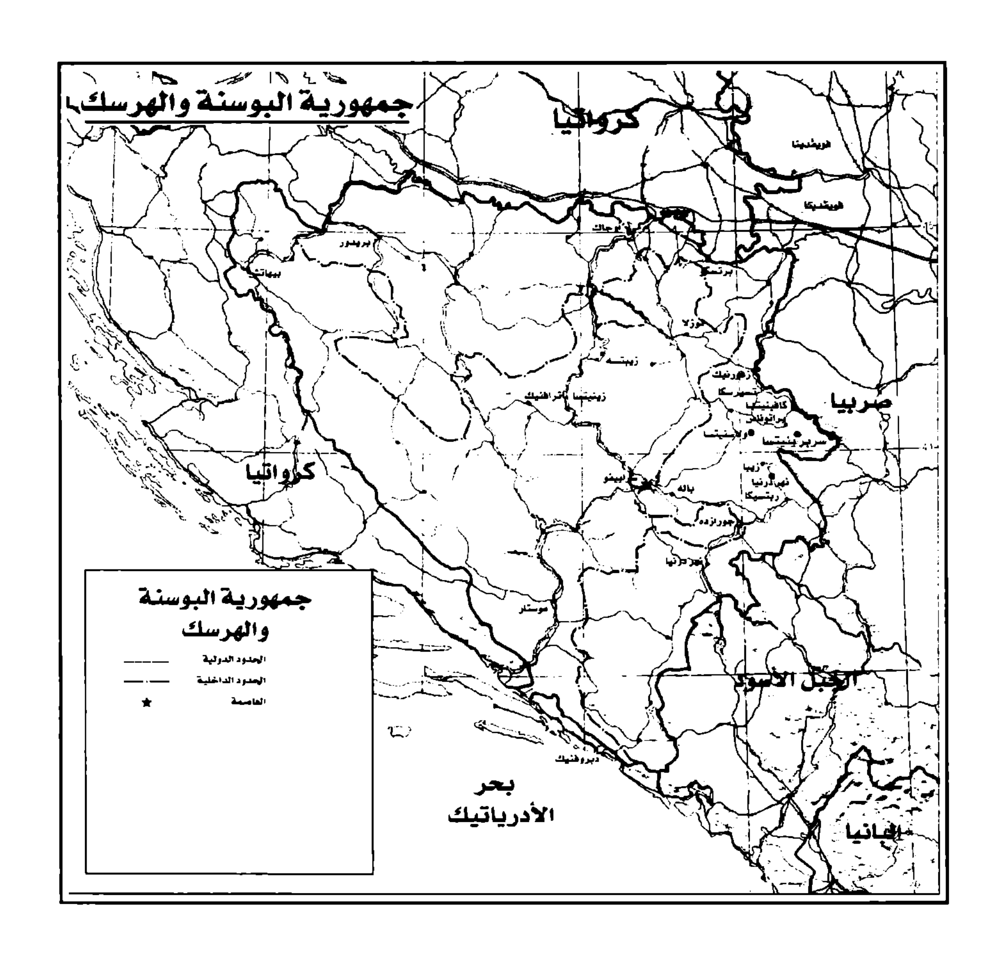
الخريطة رقم (٢)

يوغوسلافيا السابقة



الخريطة رقم (٣)

جمهورية البوسنة والهرسك



الخريطة رقم (٤)

المقاطعات والمدن والقرى المحلية داخل البوسنة

أُؤمنُ بيوم الحسابِ

وأؤمنُ بالحياةِ الأبديّةِ الخالدة

غير أني بدأت أؤمنُ أيضًا بفظاعةِ الموت

وبالخوفِ من عتمة الظلام ! .

ميشا سليموفيتش

« الموت والدرويش »

الفَصلُ الأول

نادرًا ما يُنبئُ الموتُ عن قدومه ، فهو في أغلب الأحوال يُفضل ألا يُرسل أية إشاراتٍ تحذيرية تُعلم عن قُرب وصوله .. حتى إنني لم أشعر بهاجس الموت يومًا ولم يخطر لي ببال قبل الآن . أما اليوم فأنا لا أشعر بشيء سوى بحضوره الكثيف في كل مكان .. يسيطر الحَذَر والنعاس على كُلِّ مشاعري .. كل مشاعري مخدرة وغائبة عدا شعوري بمَوتي الخاص الذي بقي حاضرًا بقوة .. أقربُ إليَّ مِنْ قميصِي .. إنه يزحف على جسدي .. يتسلل إليَّ من جلدي ... إنني أَنْزِعُ قميصِـي[١].. ملابسي الداخلية .. أخلع جواربي .. لكنني لا أستطيع التخلص منه ولا حتى بحَكّه بأظافري .. أحاول كَشْطه بأظافري دون جدوى .. أنْزِعُ ساعةَ يدي المَكْسُورةَ ... ساعتي التي نسيت وجودها .. حاولت جاهدًا ولكن عبثًا أحاول .

إنني أحاول أن أنزع خاتم الزواج من إصبعي .. لكنني لا أستطيع .. واأسَفَاه لقد بلغ الموت إصبعي .. إن وقعتُ في يد العصابات الصربية فسوف ينزعون خاتمي بقسوة .. وفي تلك اللحظة التي سيقطعون فيها بنصَرِي .. سيُنبهني الألم وسيوقظ فيَّ الإحساسَ بالحياةِ بسرعةٍ خاطفة ..

« لقد فشلت في الخروج من حلقةِ الخاتم .. لا يمكنني نَزْع الخاتم .. حاولتُ بألف طريقة وطريقة دون جـدوى .. أبـدو جافًّا كسحابة من الغبار .. مشوهًا لشدة نحولي ... لو أنقذ هيكلي العظمي نفسه وخَرج من جلدِي فسيفزعه منظر الجسد الذي كان معلقًا عليه .. متدليًا كخرقه بالية .. ولكن كيف سيهرب هيكلي العظمي ؟! .. يبدو أن خاتمَ الزواج قد التحم بعظم إصبعي .. توحد معه .. أصبحَا شيئًا واحدًا تقريبًا .. وحتى لو استطاع جسمي أن ينقذ نفسه .. فإن روحي ستبقى عالقة في ذلك الفخ إلى الأبد !!

هَلْ من المحْتَمَل أن يكون الموت قد الْتَفَّ حول إصبعي ؟ هَلْ يُمْكِن أن يَلُفَّ الموت نفسه ويتسلل ليقبع كحلقة تحت خاتم الزواج بالضبط ؟ هل استطاع الموتُ أن يَتَدثَّر ويلْتحف بخاتَمي ؛ ليغدو الموت معقودًا بإصبعي ؟ ليصبح الموت عروسي .. عَرُوسي الموت ، وأنا .. خَطِيبُها المُتَآمِر عليها .. الخَطِيبَةُ والمُتَآمِر !!

لا بد أَنْ ذلك هو الموت .. « خطيئةُ » كُلِّ إنسان .. استطاع أن يختبئ
عنِّي فقط تحت خاتم الفتاة (تنزيلا مُهوردار) .. التي لم أَتزوَّجها يومًا ..
الفتاة التي قضيتُ عمري أحلم بالزواج بها » .

ها أنا أنْزِعُ ثِيَابي أمام روحي العارية من جسدي .. إنني الآن أَلْبسُ خاتمي فحسب ... أقفُ مَكشُوفًا حاسرًا ... وروحي الواهية المُهَلْهَلة تُراقبُ جسدي المُجرد إلا من الخاتم الذي لا زلتُ أُحاولُ كَشْطَه بأظافري دون جدوى .. لا يزحف موتي على سطح جسدي ، بل يتوغل منذ عهد بعيد في أعماق نفسِي .. يدور الموت بداخلي على هيئة دوائر متداخلة .. يطوقني ببطء كحية لزجة .. ينزلق شيئًا فشيئًا .. يدور بهدوء .. يُغْلقُ الدائرةَ حول روحي !!

* * *

لم تُطلق المجموعة الأخرى من الديكة صيْحة الفجر الثانية .. بل إن الصيحة الأولى خرجت منْ حنجرةِ ديك واحد فقط ... صَاح ديكٌ واحد فقط .. ولَمْ تلحق بقيَّة الديكة بذلك الصوت الوحيد ، وقد يكمل العقرب الكبير في ساعةِ يدي دورته وقد لا يكملها تمامًا قبل أن يصيحوا ثانيةً ... عادةً ما يَصيحون مرة ثانيةً .. إلا أنَّهم لا يَصيحون هذه الليلة !!

في الأحوال الاعتيادية ، ما أن تولد الصيحة الأولى .. حتى تتبعها مجموعة من الصيحات . يطلق الديك الأول صيحته الأولى مُمزقًا صمت الليل المهيب ومُعلنًا ميلاد فجر جديد ، ولكن تلك الصيحة لا تنتظرُ وحدها كثيرًا ، فسرعان ما يلتحق بالديك الأول مجموعة من الرفاق .. وبعد قليل تَخْرجُ بقية الديكةُ عن صمتِها مُعززةً صيحات مجموعة الديكةِ الأولى ومُؤكدةً هي الأخرى مجيء الفجر الجديد .

أما الآن فلَيسَ هناك ولا حتى ديك واحد يَصيح ...

هذه الليلة .. لا شيء سوى مَوات الليلِ ...

الصمت التَّامُ لجوف الليل البهيم ...

هَلْ سيبزغ الفجر ؟

أَم أن هذه هي نهاية (سربرينيتسا) ؟ وبهذا يَبْدأُ الموت الرابع والأخير لتلك البلدةِ العتيقة ؟

هل تحتضر (سربرينيتسا) الآن لتمُوتَ موتتها الأخيرة وتنتهي إلى الأبد ؟

* * *

يَزحفَ الموتُ تحت جلدي ... ثم يتغلغل سريعًا في عروقِي . والآن يَمْلأُ الموتُ أكثر تلافيف دماغي اختباءً ويحتل الزوايا المجهولة مِنْ خلايا دماغِي .. يَعتصر منها ذرَّات الأوكسجينِ الأخيرة .. لتفقد الحياة معركتَها الأخيرةَ ... وتفقد معناها بالكامل .. وأفقد حياتي المفقودة أصلًا !!

فقط الموت ...

وحده الموت يبقى ..

م .. و .. ت ..

يبقى الموتُ كائنًا مَحْسُوسًا يُدْرَكُ بِكل الحوَاسِّ ... واضحًا ككل حرف في اسمِه .. مسموعًا كسكون كُلُّ حرف في لفظِه .. ناشرًا رائحته المنتنة .. مُشاهدًا أكثر مِنْ أي شيء آخر في هذا العالم .

يُمكننا أن نسمع عن الموت ، أن نشاهد الموتى ، أن نشُم رائحته الكريهة . ولكن فقط الحاسة الخامسة .. « الحدس » .. يُمكنها أن تتمم البُعد الرابع للموت . الحاسة الخامسة وحدها تُتمم الأبعاد الرباعية للموت .. ولهذا يمكنها وحدها تعريف الموت والإفصاح عن ماهِيته ... وعندها فقط قد يُعلنُ الموتُ لنا عن نفسه !!

* * *

في هـذه اللّيلة ، وبعيدًا مِنْ هنا ، في العـالم الآخـر حيثُ المكـان الأكثر توافقًا مع الوَقْت العَصِيب الذي تمُرُّ به (سربرينيتسا) ، ستفيق أمي مِنْ نومِها في عالم البَرْزَخ [1] ، ستقوم وهي تهذي باسم ابنِها الذي لم يعد له وجود .. لن تعرف تلك العجوز ما إن كان ذلك العذاب كابُوسًا بالفعل أم أنه جزء من الواقِع ؟ فقد اشتبكت الكوابيس بالواقع واختلط الوهم بالحقِيقة وأصْبَحا كيانًا واحدًا لا يُمْكن تمييز الفرق بينهما !!

---

(١) البَرْزَخ : فاصِلٌ زَمَنِيٌّ بين الحياة الدنيا والآخرة - (المترجمة) .

والأمُّ العجوز المسكينة لا تعلم بأنَّ الموت قد غيب ابنَها مُنذُ فترة طويلة .. لا تعلم بأنِّي أَعِيشُ الآن داخل الموتِ . وربما أنها تَعْلمُ ، بل ربما تَعْرفُ ذلك بشكل أفضل مِني أنا .

كان من الأفضل لها ألا تلدني .. لو لم يكن لها ولد .. لكانت أفضل حالًا .. ولو أنني ولدتُ بدون أمٍّ ، لكنتُ أنا أيضًا أفضل حالًا .

إيه يا أمي ... كم أحسد الكلاب !!

من الأفضل لامرأةٍ أن تكُونَ كَلْبَة مِنْ أن تكون أمًّا .. !!

ولكن ما الفائدة ؟ .. فالكلبة أمٌّ أيضًا .

أمي .. كم جميل لو لم نكن أنا وأنت كذلك .. أمٌّ وابنها .. ابن وأمُّه !

لو لم تربطنا تلك العلاقة لهان الأمر على كلينا ..

آهٍ كم ستكون وطأة الألم أخف لو لم يكن لدى كل منا الآخر !!

* * *

أسأل اللّه أن يغفر لي .. اللّهم اغفر لي كلَّ شيء .. اغفر لي كُلَّ ما أُوشِك أَنْ أَكْتبَه .. وما لَنْ أَكْتبَه . ولَكنِّي على الأقل سأجدُ شهادتي مكتوبة على جسدي .. فمنذ أربعة سنوات كَتبْتُ على صدري كلمتي الأخيرة ... وللسَّنَةِ الرابعةِ ، أحملُ على صدرِي الكلمات التالية :

اللّه إلهِي

الإسلام ديني

القرآن كتابي المقدس

مكة المكرمة قبلتي التي أتوجه إليها في الصلاةِ

محمد ﷺ نبيي

أَنا مِنْ نسل النبي آدم

أَنــا مِنْ أمةِ النبي إبراهيم عليه السلام

أَنا مِنْ أمةِ محمد ﷺ

فقد عرفت أنني عندما أموت ، لَنْ يكون هناك أحد ليشقي قبرِي وينضح الماء على ترابي ... ولَنْ يَكُونَ لي جنازة ... ولن يأتي أحدٌ لِيُنزلني إلى قبري .. ولا أحد ليلقنني الإجابة على أسئلة الملَكين (منكر ونكير) .. لن يدعو لي الإمام ولن يؤمِّن

على دعائه أحد .. ولَنْ يكون هناك أحد ليستغفر لي ويقرأ القرآنَ على قبري .. وقد لا يكون لي قبر أصلًا .. بل إنني حتى لست على يقين من أنني سأقدر على إجابة الملائكة التي ستسألني أسئلة القبر !!

ولِهذا السبب ، كشفت صدرِي ونَقَشتُ عليه « **وثيقة الإيمان** » (١) – التي تشهد بمن أنا ، ومن أكون ، ومَنْ أبي – لأدع (منكر ونكيرِ) يقرآنها بنفسيهما . أم تُراني سَـأُسْتَجْوَب مِن قِبل (مبشر وبشير) (٢) ؟ .. إنني أَضَعُ ثقتي بالله ، وأؤمن بالله ، وملائكته وكُتبه التي أنزلها على رسله وآخرها القرآن المُنزَّل على محمد ﷺ ، وأؤمنُ برسله جميعًا دون تفريق . وأؤمن بعذاب القبر ونعيمه .. ولهذا فإنني أؤمن بأن الملكان (مبشر وبشير) سيدخلان إلى قبري .. سَيَهْبط الملكان لأسفل كما لو كَانا يَنْظرانِ إليَّ من عتبة الباب .. ليتحققا من أنني أنا الذي حمل « وثيقة الإيمان » على صدره لأربع سنوات .. ولَنْ يستجوباني ، فلا حاجة لهم بذلك ؛ لأنهما سَيجدا كُل الإجابات مكتوبَة على صدرِي ، وأيضًا لأن ملكَ الموتِ سَيُخبرُهم عني أنني أَضَعُ كامل ثقتي ويقيني بالله ؛ ولِهذا السبب فإن الملكين المكلفين بسؤال القبر سيتركاني لأرتاح وأرقد بسلام في قبري . وبإذن الله سيقولا لي : « لا تخش شيئًا .. لا تخف .. إننا رفيقَاك في قبرك إلى أن تقوم الساعة » (٣) .

---

(١) طقس ديني يؤديه المسلمون في البوسنة يُعرف في لغتهم المحلية باسم « إيمان تا حتا Iman-Tahta » . ويتمثل في كتابة إجابات أسئلة منكر ونكير « ملائكة الحساب » على ورقة ووضعها على صدر المتوفى وإنزالها معه إلى القبر [هذا الطقس يُعد من العادات والتقاليد الموروثة ، وليس من أصول الدفن الشرعي عند المسلمين – المترجمة] .

(٢) المناديان « الملكان » اللذان يظهرانِ فقط لاستِجْواب المؤمنين الحقيقيين .

(٣) لم يرد في الأحاديث الصحيحة ذكر للملكين « مبشر وبشير » والصحيح أنه ذكر في الحديث الملكان « منكر ونكير » فقد روى الترمذي (١٠٧١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ – أَوْ قَالَ : أَحَدُكُمْ – أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لأَحَدِهِمَا : الْمُنكَرُ ، وَالآخَرُ : النَّكِيرُ ، فَيَقُولَانِ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . فَيَقُولانِ : قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : نَمْ ، فَيَقُولُ : أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ ، فَيَقُولَانِ : نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لا يُوقِظُهُ إِلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ : سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ لا أَدْرِي . فَيَقُولَانِ : قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ : الْتَئِمِي عَلَيْهِ ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ ، فَلا يَزَالُ فِيهَا**

إن اللّه يعلَمُ كُلَّ شيء .. وأنـا أيضًـا أَعْلَمُ يقينًا كُلَّ مـا صنعـت في حياتِي وكُلَّ أعمالي .. ولهذا فأنا أثقُ تمامًا بعدل اللّه تعالى .. ولكنني أَتمنَّى ألا أتعرض لعذابِ القبرِ .. وأسأل اللّه وأتضرع إليه أن يقيني عذاب القبر .. اللّه وحده يعلم الغيب ويعلم ما الذي سيحل بي لاحقًا .

عسى أن يغفر اللّه لي إذا تضرعت بهذه الكلمات .. إذا توسلتُ إليه بها ونبحت بها كالكلب .. ولكن الكلب أيضًا مخلوق من مخلوقات اللّه تعالى .. وأنا أثق برحمة الخالق العظيم التي تسع كل مخلوقاته .. أثق باللّه سيد الموت والحياة .. وليّي في الدنيا والآخرة .. !!

* * *

جَدِّي الحاج الحافظ [١] (رَحْمن بك [٢] جوزو) إمام ومعلم وخطيب مسجد (ريتسكا) في (سربرينيتسا) .. وحفيد (رَحمن بك جوزو) الحافظ وقاضي [٣] المحكمة المحلية في بلدة (تالسيجا) ، هو الذي اختار اسمي (مَرْجَان) [٤] .

مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ » والحديث حسنه الألباني في صحيح الترمذي - (المترجمة) .

(١) الحافظ : لقب يطلق على من يحفظ القرآن كاملًا عن ظهر قلب - (المترجمة) .

(٢) بيك أو « بيه » : لقب تركي بمعنى السيد المحترم أو مالك الأرض الذي ينتمي إلى الطبقة الأعلى من طبقتي ملاك الأراضي . وتنطق (بيج Beg) في اللغة المحلية لأهل البوسنة ؛ فالمقطع (بيج) في اسم العائلة هو النطق المحلي للقب (بك) العثماني ، ويدل لقب (بك) أو (بيج) على تمتع العائلة التي يلازم اسمها بمكانة مرموقة في العهد العثماني فهو أرفع تكريم كانت تقدمه السلطات العثمانية لأهل البلاد . على سبيل المثال لقب الرئيس البوسني (علي عزت) هو (بيجوفيتش) يعني ابن عزت بك - (المترجمة) .

(٣) كان القاضي هو الذي ينفذ القانون العثماني محليًا ، كما كان أهم مدير للشؤون على المستوى المحلي . وكانت الدائرة التي هو مسؤول عنها تسمى (كازا Kaza) أو (قاضيلوك Kadiluk) أي دائرة اختصاص القاضي . وقد تقسم القاضيلوكية إلى ناحيتين أو أكثر يحكم كل منها نائب قاض . (انظر : كريشفلياكوفيتش Kreshevljakovich : في كتابه Kapetanije u Bosni . الصفحات ٩ - ١٠) - (المترجمة) .

(٤) مَرْجان (Coral) : اسم لحيوانٍ بَحْرِيٍّ من الزهريات الشعاعية Anthozaa .. يفرز مادة كلسية تشكل هيكلًا عظميًا قاسيًا خارج جسده . وهذه الهياكل تبقى بعد موت الحيوان لتكون الشعاب أو الحيود المرجانية Coral Reefs ، وما يعرف بالجزر المرجانية Atolls في مختلف أصقاع العالم .. وبعض أنواعه يفرز مادة ينشأ منها حجر كريم يتميز بالصلابة ؛ ولهذا يفسر البطل في موضع آخر سر الارتباط بين شخصيته العنيدة وبين اسمه الذي يحمل معنى الصلابة والعناد أيضًا - (المترجمة) .

كُنْتُ على وشك أن أُسمى باسمِه وأن أحمل اسمه ما حييت ، لكنَّه بدلًا من ذلك أسمَاني (مَرْجَان) .. ففي اليوم السابعِ من ولادتِي ، أخرجَني من المهدِ إلى ذراعيهِ ، وبَدأ يؤذن أذان الصلاة وتلا دعاءً خاصًا في أذنِي اليمنى وناداني ثلاث مرات باسمِي (مَرْجَان) ..

كان يُتمتم بكلمات : « اللهم ارزقه عيشًا هنيًا رضيًا واجعله يَعِيشُ في سلام وازدهار » .. وقد أعد احتفالية لَيْسَ لَها مثيل ابتهاجًا بمولدي .. احتفالية لم تشهد مثلها عائلة (جوزو) المعروفة بضخامة احتفالاتها والتي تعرف تمامًا كيف تحتفل وكيف تُعد للاحتفالات جيدًا .. أنا لا أتذكر هذا الاحتفال البهيج بالطبع .. ولكنهم حدثوني عنه فيما بعد !

الناس في البوسنة مُتَعَصِّبون جدًا فيما يتعلق بمسألة الأسماء خاصة في القرى والبلدات الصغيرة .. فعادةً ما يُلحق الاسم بصفات حاملِه ، ويُصبح رديفًا لصفةٍ معيَّنة في الشخص المسمَّى ، خاصة إذا كان الاسم مُمَيَّزًا وغيْرَ مَألُوف في مَوْطِن صاحبه أو إذا كان حامله يتصف ببعض العيوب أو النقائص المتَمَيِّزة . وكان اسمي شاذًا جدًا فحتى بين سكان المدن الكبرى ، أثار هذا الاسم الغريب (مَرْجَان) الكثير من اللغط والضجيج .. ولكنه على نحو خاص أحدث المزيد من الصخب والضجر بين سُكَّانِ الرِّيف وفي البلدات الإقْلِيمِيَّة الصغيرة . وهكذا اصطبغ اسمي بصبغة الإدانةِ وانطَبَعَ بختم اللعنة ... ولم يكن هناك قوة في الأرض يُمْكِنُها أَنْ تَفْرِض هذا الاسمَ على أي مولود جديد آخر في البلدة . ومن جهة أخرى أيضًا ، فمن الخير ألا تكون الشخص الوحيد الذي يحمل اسمًا مميزًا لم يمنح لأي شخص آخر في الحيِّ الذي تعيش فيه .. فعلى الرغم من أن الاسم ككلمة ليس شاذًا ويُعد اسمًا عاديًا ، إلا أن الناس لا يُسرُّون به لكونهم لم يعتادوا عليه ؛ لذا فإنهم يتعاملونَ مع الشخصِ الذي يحمل اسمًا اسْتِثْنائِيًا بروح عدائية وكأنه شخص غَرِيب !!

كان الأطفال في الحيِّ الذي أسكن فيه يسخرون مني ويتندرون على اسمي . وفي المدرسة [1] كان الإمام (سفران) ينطق اسمي بصعوبة بالغة ، وبعيدًا عن

(١) المدرسة (Medrresa) : معهد لدراسة الشريعة الإسلامية يعادل المرحلة الثانوية اليوم . وقد كان اسم « المدرسة » يطلق على المعهد الإسلامي . فإذا انتهى التلميذ من دراسته بالمكتب (الكُتَّاب) وأراد أن

احترامه لسِلْسِلَة نَسَبي العريقة وكوْني سليل إحدى عوائل علماء البوسنة الشهيرة ، كان يحاول لينطق اسمي بشكل صحيح ما أمكن .. كان يحاول بكلِّ قوَّته ، وفي النهاية كان يلفظ اسمي بطريقة تجعلني أتمنى لو لم يلفظ اسمي مطلقًا !!

وفي البلدةِ ، كان الناس- بغير قصد - يشَوِّهُون اسمي ويُحَرِّفُون معناه بالكامل . كانوا لاإراديًّا يضغطون على حرف العلّة الأخير في اسمِي بطرف اللسان على نحو يُفترض ألا يَكُونَ . وهكذا كان اسمي يُولد كَمَسْخٍ مُشَوَّه مع كل مرة كان أحدهم يتلفظ فيها باسمي !! وقد شعر أفراد عائلتِي بأنَّ الاسْمَ قَدْ يُرهقني في المستقبل لكنهم لم يفكروا مطلقًا بتَغييره إجلالًا واحترامًا لرغبة جَدِّي . ولكنهم عوضًا عن ذلك ، قاموا بإطلاق العديد من الكُنْيَاتِ المختلفة عليَّ آملين أن أقبل أي منها ...

لكنِّي قررت أن أحتفظ باسِمِي .. الاسم أحد الهِبات الإلهية ونعمةٌ من نعم اللَّه ؛ لذا يَجِبُ ألا يُبدل أو يُمَوَّهَ بلقب آخر .. كما أن الاسم رمزٌ ووصفٌ للإنسان .. ولكل إنسان نصيب من اسمه ..فالاسم تَصْوِير ورَسْم جميل للإنسان بِالكَلِمات يُجَمِّل شخصيته ويُزَيِّنُها فهو حلية وزينة له في هذا العالم .

على أية حال إن كُلَّ الأسماء جميلة . غير أنه لا يُوصى بحَمْل أسماءِ الأنبياء . لأن الإنسان يميل دائمًا إلى ارتكاب الآثام واقتراف العيوب والأخطاء ، وهذه النقائص سوف ترتبط تلقائيًّا باسم صاحبها ، وعندما يذكر الناس عيبًا في شخص يحملُ اسم نبيٍّ من الأنبياء أو عندما يشتِمونه أو يَسبُّونه ثم يُتبعون تلك الشتِيمَة والمسَبَّة باسم ذلك النبيِّ فسوف تلتصق الصفات السيئة باسم نبي من أنبياء اللَّه ، وهكذا تتعـرض تلك الأسماء الشريفة للإهانات من قبل الناس دون قصد . لِهذا

يواصل دراسته التحق بأحد تلك المدارس أو المعاهد العليا ، وكان الكثير من كبار رجال الدولة يتنافسون في تشييد المدارس ويوقفون الأوقاف التي يُصرَف من ريعها على شؤون المدرسة ومن يقوم بمهماتها . وقد بلغ عدد المدارس (أو المعاهد العالية) في جمهورية البوسنة والهرسك من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر أكثر من مائة مدرسة في المدن والقرى الكبيرة ؛ ولكن لم يبق منها سوى مدرسة « الغازي خسرو بك » التي لم تتوقف في وقت من الأوقات عن أداء واجبها . (انظر : المسلمون في يوغوسلافيا والألبانيون الأرناؤوط والإسلام تأليف : د/ رجب يشار بويا . ص :١٤١ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

لا يطلق الناس في (سربرينيتسا) اسم « مُحمَّد » على أبنائهم . وغالبًا ما يطلقون اسم « حمد » عوضًا عن « مُحمَّد » .

أعتقدُ أن على الإنسان أن يحترم اسمه وأن يُحافظَ عليه . وإذا لم يُحب شخصٌ ما اسمه ، فعليه ببساطة أن يُغيرَه وأن يُشهد اللّه والناس على ذلك ، لا أن يُوافقَ على قَبُول كنية أو لقب بديلًا عن اسمه الحقيقي .. على الإنسان أن يكون بارًّا باسمه وفيًّا له .. ولهذا السبب دافعتُ عن اسمي واحتفظت به .

نعم أبقيتُ على اسمي وواصَلتُ حياتي برفقته الميمونة !

* * *

من جديد ، احتشد « التشيتنيك »[1] حول (سربرينيتسا) وحاصروها مِنْ كُلِّ

(١) التشيتنيك أو الجيتنيك (Chetnik) : رجال العصابات . وهو المصطلح التقليدي المأثور الذي أُطلق في التاريخ الصربي القديم على القراصنة وقطاع من الفرسان الكماة الصناديد والمقاتلين البواسل . وقد أطلق اسم « التشيتنيك » على المقاتل الصربي غير النظامي وعلى القوات (الميليشيات) أو العصابات الصربية المُتطرفة التي تشكلت أثناء الحرب العالمية الثانية على يد كولونيل في الجيش اليوغسلافي اسمه (دراجا ميهايلوفيتش) كنتيجة لسياسة الإبادة العرقية التي انتهجها نظام (دولة كرواتيا المستقلة) التي أدت إلى اندفاع الآلاف من الصرب البوسنيين إلى الانخراط في واحدة من حركات المقاومة المنظمة المتباينة الأهداف والتي كانت تعمل في الأراضي البوسنية ، ومن أهمها تنظيم « التشيتنيك » بقيادة (دراجا ميهايلوفيتش) الموالي للإنجليز ، وكان الإنجليز يدعمون تلك الحركة المتعصبة والتي من أهدافها استئصال المسلمين وإزالة الإسلام من المملكة الصربية وبخاصة مسلمي البوسنة والهرسك . كما يستخدم اسم « التشيتنيك » بنوع خاص جدًّا للإشارة إلى غير النظاميين الصربيين بقيادة (فويسلاف شيشيلي) . ويعد هذا الاسم مصدرًا للعديد من الالتباسات ؛ وذلك لأنه كانت هناك منظمة رسمية من « التشيتنيك » قبل تلك التي أسسها (دراجا ميهايلوفيتش) وكانت تقوم على حركة من قدامى المحاربين من الحرب العالمية الأولى وأصبحت ساعدًا للنظام العميل الصربي . كما نشأت تجمعات صربية كثيرة في أمكنة أخرى وأطلقت على نفسها اسم « التشيتنيك » ولكن لم تكن لها أدنى علاقة بجماعة (دراجا ميهايلوفيتش) . وفي هذه الرواية يستعمل المصطلح للإشارة إلى كل المجندين غير النظاميين من الصرب المتطرفين الذين نفذوا المذابح الجماعية المروعة في البوسنة والهرسك في العامين (١٩٩٢ - ١٩٩٣م) . (انظر كتاب : البوسنة تأليف نويل مالكوم وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م) - (المترجمة) .

جانب ، وقد طَلبنَا من القيادة العليا الإذن لنا بالأخذ بِالثَّأر ، وتمكنا من صدهم ودحرهم بعيدًا في (كراغليفودا) . بل وقَضَينا على قوات الشُّرْطَة [١] الخاصة بهم في (روزينا فودا) وأبدنَاها بالكامل . وفي (كونفيتش بوليو) أحرقنا شاحنة كبيرة تغُصُّ بعناصر من عصابة « التشيتنيك » الصربية . أما في (خان بيساك) حيثُ الموقع الرئيس لقيادتهم في ذلك الحين – وحيث المنطقة التي هرب رجال حاشيتها أمام الألمان عند بِداية الحربِ الأخيرة ظنًّا منهم بأنهم بذلك سينجون بحياتهم ويفرون من الحرب برُمتها – فقد اندفعنا بقوة وبسرعة خاطفة باتجاه ثكناتهم العسكرية وقمنا باقتحامها كعاصفةٍ غاضبة ... أتَينا على الأخْضَرِ واليابِس فيها ودمرناها تدميرًا .

وقد رَدُّوا بالطريقَة الوحيدة التي يَعْرِفونها .. من بعيد ! بالدباباتِ وأسلحة المدفعيةِ التي تقذف حمم الجحيم بكامل طاقتها وبكل أنواع القذائف من العيار الثقيل والخفيف .. كانت القذائف تهطل كالمطر بمعدل مائة قذيفة كُلَّ دقيقة . كُلُّ شيء من حولنا كان يتوهجُ اشتعالاً ويتطاير منه اللهب . لكن كل ذلك لم يعد غريبًا علينا .. فقد تحول الحديث عن القصف إلى حديث تافه .. لا شيء غير عادي باستثناء الأمر العسكري الجديد الذي نقله لنا قائدُنا الجديد ، كان الشيء الغريب الوحيد الذي أثار دهشتنا وحيَّر ألبابنا هو أن القائد الجديد والمسؤول الثاني (ناصر) جاء ليُخبرنا بأنَّ القيادةَ في (توزلا) تمنعنا من الردِّ ولا تَسْمحُ لنا بالانتِقام .

أعدنا الاتصال ثانيةً بالقيادةِ ، أين نذهب ؟ ... لا جوابَ ... سوى الذُّعْر والرُّعب .. وفقط مع صباح اليوم التالي منحنا الإذن بالقيَام بحَمْلَةٍ مُضادة ردًّا على عدوانهم المتواصل ، وبالفعل قمنا بشَنٍّ هُجُوم ضارٍ ونجحنا في دحرهم إلى (زيليني يادار) . وكانت عربة كبيرة يجرها حصان قد امتلأت عن آخرها بجثث « التشيتنيك » الذين قتلهم (أيوب غوليتش) [٢] . وبعد أن كدس جثثهم فوق عربته ، أخذ يصول ويجول بعربته الطافحة بجثث الأعداء ليعرضها في شوارع (سربرينيتسا) كلها ليشحذ همم الأهالي ويرفع من روحهم المعنويةِ . ولكن حتى بدون تلك المحاولة الاستعراضية لشحذ همم الناس في (سربرينيتسا) .. كنا جميعًا

---

(١) قُوَّات الشُّرْطَة : رِجَالُ الدَّرَك (رَجَال البُولِيس) – (المترجمة) .

(٢) أيوب غوليتش (Ejub Golic) : بطل مسلم من أبطال حرب البوسنة الأخيرة – (المتُرجمة) .

لا تزال نثق بالنصر ونمتلئ يقينًا بأن لا أحد يُمْكِنُه أن يسلبنا (سربرينيتسا) أو أَنْ يَأْخذَها منَّا . أيًّا كان عدد الغزاة المعتدين !!

ولكن الهجوم ما زال مستمرًّا ..

لم يتوقف القصف الماطر .. كان كل شيء يشتعل من حولنا .. والأمر يزداد سوءًا مع مرور الوقت ..

ومع ذلك لَمْ يُسْمَحْ لنا بالرد ..

يبدو أنه كانت هناك مفاوضات تدور خلف ظهورنا .. وربما تواطؤ أو مؤامرة ... هَلْ من المحتَمَل أنَّنا سَنتلقى أي مساعدة ؟ هَلْ هناك أي أمل في أن تصلنا النجدة ؟

طلبت مِنَّا قيادة الكتيبةِ الهولنديةِ للأُمم المتَّحدةِ بأَنْ نَتراجعَ وننسحب لكي نفسح المجال لقصف الطائرات - قاذفات القنابل - التابعة لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو NATO) . فقد كنَّا قريبين جدًّا من قوات « التشيتنيك » ، لم يفصل بيننا سوى عشرون مترًا فقط ، ويُمْكِنُ أَنْ نَتأذَّى بسهولة جراء القصف . ولهذا اقتنعنا وصدقنا ووافقنا على الانسحاب والتراجع . خرجنا مِنَ الخندقِ وتراجعْنا مسافة نِصْف كيلو متر .

ولكن لم تظهر أي طائرات تابعة للناتو . وأمام أعيننا ، استسلم ثلاثون من جنود قوات الحماية الدولية لقوات « التشيتنيك » التي انقضت على خنادقِنا .. لقد فعلها العُملاء الخونة !!

كُنَّا على مَرْج أخضر . في منطقة اكتسحتها النيران . وهم يَقْصفوننَا مِنْ مواقعِنا نحن من خنادقنا التي أخليناها بأمر قوات الأمم المتَّحدةِ .. إنها خيانة مُتكاملة الأركان !

أخذت القذائف تهبط علينا مِنْ كُلِّ جانب . قبل فترة قصيرة كنا ندرك بأن كُلَّ ما حولنا يشتعلُ .. بعد ذَلِكَ اشتد القصف وأصْبَحَ إطلاق النار حادًّا جدًّا لدرجة أننا أصبحنا لا نُميِّز الليل من النهار . لم يَكن بوسع أحدنا أَنْ يُميِّز اللحظة التي يهبط فيها الظلام .. ولا أنْ يتذكر متى أعتمت السماء . فقد ظلام الليل سواده بعد أن عادلت أضواء النيران ضوء النهار الذي تاه في وهج النيران ... وأصبح الضوء سيدًا ومُهيمنًا

على المكان .. ولم نعرف أكَان ضوء النيران والحرائق أم ضوء النهار . لم يستطع أحد أَنْ يُلاحظَ أي اختلاف بين النهار والليل ... فقدنا أي تمييز بينهما !!

لم يعد الليل في (سربرينيتسا) سوى جمرة مُتوقِّدة ... باتت (سربرينيتسا) مدينة الليل المضيء ليلها يُغطي شمسها ، وشمسها تُغطي ليلها .. لا ليلها يصل النهار ولا يلتقي نهارها بليلها .. ولا ترى إلا نهارًا بعد طوى نهار .

كانت الرائحة النتنة تَفوحُ مِنْ أرضها المحرُوقةِ !!

* * *

وفي جُهد مُضَيَّع لتَتَبُّع الخط الفاصل بين الموت والحياة .. وفي مسعى عَقِيم لإيجاد خط الاتصال السري بين الحياةِ والموتِ ، صمَّمْت بعناد على أن أتَحرر من الشيطان وألا أقْتلَ نفسي .

اليوم فقط اكتشفتُ سِرَّ اسمِي !!

وما كُنتُ لأصل لذلك الاكتشاف ، لو أنني لم أسحب نفسي بجهد وصعوبة وأجرُّ نفسي ككلبة صمَّاء بحثًا عن بعض القُصاصات الورقية في أكثر أركان البيتِ اختفاءً واختباءً .

لَمْ تَنتم عائلتي يومًا إلى الشيوعيَّة [١] ، وأنا أيضًا لم أكن أبدًا أحد الرفاق الاشتراكيين .. بحسب افتراضي ، يبدو أنني كنتُ أمتلك آلية دفاعية راسخة مُنذ طفولتِي المبكرة ، بالنظر إلى إصراري العنيد على حِماية اسمِي وتمسكي به . وهو ما شكل صمام أمَان نجحتُ بواسطته في تَفادي نيرانِ عضويتِهم الجهنميةِ . ومع ذلك ففي مُنَاسَبَات عديدة كُنْتُ على حافة الندم على عدم انتمائي للرفاق الشيوعيِّين . على سبيل المثال ، لو أنني وافقت على أن أكون واحدًا منهم لكان لدينا على الأقل

(١) الشيوعية (communism) : مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأن المادة أساس كل شيء ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي ، ظهرت في ألمانيا على يد ماركس وإنجلز وتجسدت في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة (١٩١٧م) بتخطيط من اليهود وتوسَّعت على حساب غيرها بالحديد والنار ، وقد تضرر المسلمون منها كثيرًا - (المترجمة) .

بضعة مجلدات (لماركس)[١] و (إنجلز)[٢] داخل بيتنا الذي كُنَّا نسكن فيه ، حيث كانت الكُتُب تُقيَّم وتُقدر إلى حدٍّ كبير . وحينذاك لا يمكن تخيُّلُ عدد الكتب التي كان من المُمكن أن تكون موجودة في بيتنا والتي تتحدث عن اشتراكيةِ الحكومةِ الذاتية : كُتب لـ (كارديلي)[٣] و (جوزيف بروز تيتو)[٤] كما لا يمكن

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) : عالم اقتصاد وفيلسوف وسياسي وصحفي ومنظِّر اجتماعي ألماني . قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية . نشر مع صديقه فريدريك إنجلز (البيان الشيوعي) Communist Manifesto عام (١٨٤٨م) . وأسس معه ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية (الشيوعية المعاصرة) ، التحق (ماركس) بجامعة بون عام (١٨٣٣م) لدراسة القانون . وأظهر اهتمامًا بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد له أن يصبح محاميًا . وقام بتقديم رسالة الدكتوراة في الفلسفة عام (١٨٤٠م) وحاز على شهادة الدكتوراة . وفي عام ١٨٤٩ أبعد عن ألمانيا وفرنسا فشخص إلى لندن حيث انكب على الدرس في المتحف البريطاني ، وتوفي فيها في ١٤ مارس من عام ١٨٨٣م ، ودفن في مقبرة هاي غيت - ومن أشهر آثاره : (رأس المال) Das Kapital في ثلاثة مجلدات - (المترجمة) .

(٢) فريديرك إنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥م) : زعيم البروليتاريا الذي أسس مع (ماركس) المذهب الماركسي أي نظرية المادية الجدلية والتاريخية . ولد في مدينة بارمن (ألمانيا) . وسعى منذ شبابه للمساهمة في الكفاح من أجل تبديل العلاقات الاجتماعية القائمة . وفي عام (١٨٤٤م) التقى بماركس في (باريس) . وتعد هذه المقابلة بداية صداقتهما العميقة التي قامت على أفكارهما المشتركة وكفاحهما المشترك لتحرير البروليتاريا من العبودية الرأسمالية . وقد كتبا معًا في (١٨٤٤ - ١٨٤٦م) كتاب « العائلة المقدسة » و « الأيديولوجيا الألمانية » وهدف هذين الكتابين إبراز نظرة تقدمية جديدة للآراء الفلسفية السائدة آنذاك لـ (هيجل) و (فيورباخ) وأتباعهما . وقد اهتم (إنجلز) للغاية بالحركة الثورية في (روسيا) ، وتنبأ بالثورة الروسية الكامنة ، وعقد آمالًا كبارًا عليها . وشارك حتى آخر حياته في الحياة السياسية في أوربا وكان مع (ماركس) زعيمًا بارزًا لحركة الطبقة العاملة - (المترجمة) .

(٣) إدفارد كارديلي : أحد المفكرين الشيوعيين البارزين .

(٤) جوزيف بروز تيتو (Josip Broz TITO) (١٨٩٢ - ١٩٨٠م) : مارشال وسياسي يوغوسلافي ولد عام (١٨٩٢م) في (كومروفيتش) بكرواتيا ، فهو كرواتي الأصل كاثوليكي المذهب في بداية حياته . وهو ابن حداد فقير ، والد لخمسة عشر طفلًا ، ومنذ طفولته عانى (تيتو) مصاعب عديدة جعلت حياته مزيجًا من الشقاء ؛ لذلك ترك المدرسة صغيرًا وراح يعمل في مصنع الحدادة مع والده ، وبعد أن كبر التحق بالجندية في بلدته وأُرسِل للقتال بداخل الاتحاد السوفيتي وخلال الحرب هناك تعرف على الفكر الماركسي واقتنع به ، ثم عاد إلى بلاده وبدأ نشاطه السياسي ، فاعتقل سنة (١٩٢٨م) ، ثم أفرج عنه ومع بدء الحرب العالمية الثانية برز في صفوف المقاومة ضد الاحتلال النازي لكرواتيا ، ثم كون جبهة التحرير الوطنية سنة (١٩٤٠م) خاض بها معارك كثيرة . وقام في الفترة ما بين (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)

تصور عدد رسائل الدكتوراه التي تتحدث عن الحكومةِ الذاتية . وما على هذه الشاكلة من الكتب التي كانت ستتواجد بوفرة في بيتنا لو أنني حصلت على عضوية شيوعية ... على الأقل لما اضطررتُ إلى استخدام كُتُبنا القيِّمة والأكثر نفعًا كوقود للنيران طلبًا للدفئ وللإبقاء على جسمي دافئًا ، تلك إحدى المناسبات التي تجعلني أحيانًا أتحسر على فوات العضوية الشيوعية !!

فتَّشتُ أولًا ، كُلَّ بوصة في العِلِّيَّة [1] ، حسبتُ بأنَّني كَانَ لدي ما يكفي من الوقت ؛ لِهذا السبب اعتمدتُ أسْلُوبًا منظَّمًا لِلتفتيش عن الكتب . بَدأتُ مِنَ القمةِ نزولًا إلى القاع ، رأسًا على عقب فيما أظن . ولا أدري لماذا لم أبدأ مِنَ القَبْو [2] ؟ رُبَّمَا لأن القَبْو عبارة عن مخزن مؤقت تنتظر فيه الكتب إلى أن يُقرِّرَ صاحبها ما الذي سَيُرْمَى منها وما الذي سَيُخزَّنُ في العِلِّيَّة . وبهذه الطريقة تَتحوَّلُ الغرف العلويةُ إلى مستودعات للأشياءِ الأقل طلبًا . وفي مثل هذه الظروف ، من الأفضل ألا تحاول البحث بين الأشياءِ ؛ لأن ذلك البحث يُمكن أن يُفضي إلى عملية تنقيب لانِهَائيَّة وسيتحول إلى رحلة تفتيش مُضنيَة لا نِهَايَة لها . وقد يكون من الأفضل أن تكدس كُلَّ الأشياءِ في كَوْمَة هائلة فحسب ، أو أن تقذف بكُلِّ الأشياءِ إلى النار وتتخلص منها دفعة واحدة .. ومن الجيد - حتى الآن - أن كل الأشياء القابلة للاحتراق تتحول إلى نيران !!

بتشكيل حكومة انتقالية معظمها من الشيوعيين لمقاومة الاحتلال النازي ، ثم وقعت خلافات بين هذه الحكومة ومنظمة « التشيتنيك » التي كانت تقوم أيضًا بالمقاومة المسلحة . وفي عام (١٩٤٥م) مال الحلفاء المنتصرون إلى (تيتو) بعد فشل محاولات التوفيق بينه وبين « التشيتنيك » ، وبذلك صار (تيتو) الحاكم الفعلي ليوغوسلافيا ، واختير رئيسًا لجمهورية يوغسلافيا الاتحادية سنة (١٩٥٣م) . وقد أسس أول دولة شيوعية مستقلة في الفترة بين عامي (١٩٤٨ - ١٩٦٣م) مصلحًا الاقتصاد ومعصرنًا الإدارة . وفي (عام ١٩٦٣م) ساهم في إنشاء مجموعة دول عدم الانحياز ، وأعلن نفسه رئيسًا لها مدى الحياة . وفي (عام ١٩٧١م) أصبح زعيمًا للمجلس الرئاسي لإدارة البلاد . وتوفي في (٤ أيار / مايو عام ١٩٨٠م) ، (انظر : تيتو في الميدان . ترجمة وتقديم/ السيد فرج ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م) - (المترجمة) .

(١) السقف أو السقيفة : غرفة صغيرة تحت سقف الدار مباشرة تستخدم لتخزين الأغراض المنزلية قليلة الطلب - (المترجمة) .

(٢) القَبْو : غرفة تحت الطابق الأرضي تشبه السرداب وهي مكان لتخزين الطعام أو الوقود - (المترجمة) .

كَانَ بحثي عن أي مواد لأحرقها بغرض التدفئة متحمسًا جدًّا لدرجة أنَّني أزلت كُلَّ الألواح الخشبية في العِلِّيَّة ، فقط العوارض [١] العارية هي كل ما تبقى منها . عندما كنت أقف على أرضيةِ الغُرَفِ العلوية لم يكن هناك أي شيء عدا السقف فوق رأسي ؛ لأن أرضيةَ العِلِّيَّة كَانَت في نفس الوقت ، سقفًا لغُرَفِ الطابق العلوي ، كان ذلك السقف مصنوعًا من الخشب العتيق ذي النوعية الفائقة الجودة . ومن أسْفَل كان السقف يلْمَعُ حيث تحول إلى ألواح صفراء تشبه الشمع كانت تَسْطَعُ نتيجة المسْح المتكرِّرِ بقطع الجوخ الرطبة . كانت العوارض مُزَيَّنة بالقطع الخشبية المنحوتة بالزَّخَارف والنُّقُوش كما لو أنها أعدت لصنع صندوق لحفظ المجوهرات والقطع الذهبية . ومن أسفل إلى أعلى بقيت فقط الدِّعامات الخشبية السميكة التي نُحتت بخشونة وتم تثبيتها بشكل مائِل ومُنْحَرِف بمُحَاذاة الأخاديدِ [٢] الأحادية . وقد سوِّدَت بالسخامِ ولطِّخَت بطبقاتِ الدخانِ المتراكمِ بعد أن الْتَهَمَتها ألسنة اللهب مع شيخوخة بيت عمره قرن من الزمان .

هذا البيت ما كان ليتضرر بهذه الدرجة لو لم يكن من الطراز القديم جدًّا ، بالتأكيد سَيَكُونُ بحال أفضل لو لم يكن كذلك ، فالألواح الخشبية سَتَكُونُ مجرد ألواح من الخشب الخام غَيْرِ المشْغُول ، وأقل تلطيخًا بالدخانِ كما أنها سوف تحترق ببطء أكثر . ولكن ذلك لا يمكن أن يتحقق ، فالبيت الأحدث لَنْ يَكونَ له سقوفٌ خشبية سيكون له فجوة في الأعلى عوضًا عن السقف تمامًا كالتصميم الحديث لبيتي الذي بنيتُه أنا . في الحَقِيقَةِ ، بإزالة سقف الدور العلوي ، كان إلى حد ما يشبه بشكل جزئي بيت جَدِّي (رحمن جوزو) حيث لم يتم تركيب السقف الخشبي فوق المنطقة التي يقع فيها المطبخ . وعلى هذا النحو ستتمكن الفجوة في سقف المطبخ مع العِلِّيَّة من امتصاص الدخان الصادر مِن الموقدِ الذي سيتسرب بعد ذلك من خلال فتحة في السقف تستعمل للتهوية وطرد الدخان وأيضًا للسماح بنفاذ المزيد من الضوء .

في البيوت الحدِيثة التي بُنِيَت مُؤَخَّرًا ذات الأسقف الخشبية والتي لم يستخدم الأسْمَنْت في بنائها وليس لها هيكل خرساني ، يتم تغطية الألواح الخشبية المائلة

(١) العوارض : جمع عارضة وهي القوائم التي يقوم عليها البناء - (المترجمة) .

(٢) أُخدُود : حَزٌّ أو ثَلْم - (المترجمة) .

بطبقة كثيفة ومكدسة من التراب . وهذا وحده كان كفيلًا بمنعي من مجرد التفكير في استخدام تلك الألواح للتدفئة .

ولكن هذا لَيسَ البيتُ الذي ورِثه جَدِّي ، ولا هو البيتُ الذي يَجِبُ أَنْ يُبْنَى مِن قِبل طفلِي الذي لم يولد بعد . هذا البيتُ بَناه أبي . تمامًا كما بنى جَدِّي سابقًا بيته على طرازه الخاص . لهذا فأنا مجرد متطفل في هذا البيتِ .

أما بيت العائلة السابق فقد بناه والد جَدِّي على الطراز العتيق . فالعُرف في البوسنة يقتضي أَنْ يَبني سليل كل جيل بيته الجديد على مِزَاجِه الخاص . وقد اتبعت عائلتنا هذه العادة تاركة لكل جيل حرية اختيار وتقدير طراز المنزل الذي يرغب في بنائه . ولكن هذا العرف كان يُطبَّق على المنازل فقط . أما الجسور والمساجد والصروح وكل الأبنية التي تنشأ لتقديم الخدمات العامة فقد كانت تُبْنى بطريقة تجعلها أكثر تحملًا لضغط الزمن ، بحيث تصمد أمام تقلبات الدهر ؛ ولِهذا السبب ، فإنك لا تجد في البوسنة بيوت عتيقة معمرة بَقِيتْ على حالها منْذ أزمان بعيدة . لكنّي ، أنا المتطفل على هذا البيت ، أقتلعه بيدي دون انتظار لمجيء ابني ، بعد أن دفعني حَظِّي العاثر المَنْحُوس إلى قضاء الشتاءِ محاصرًا من قِبل عصابات « التشيتنيك » الصربية .

عندما شرعت في نزع أرضية الطابق العلوي وجدت طبقة إضافية من التراب العفن . منحني ذلك شعورًا بالرضا والارتياح حيث عزز ذلك من شعوري بالأمان وسمح لي بالاحتفاظ بِدرجة حرارة محتملة في الطابق الأرضي حيث تقع الغرفة التي اخترتُها لأَنْتَظِرَ فيها وأتَرَقَّبَ الأحداث . والتي كانت شديدة البرودة بسبب مستواها المنخفض فقد كانت درجة حرارتها أقل بكثير مِنْ غرف الطابق العلوي .

بينما كُنْتُ أُسقطُ السقفَ الخشبيَّ كان لا بُدَّ أنْ أَتجنب إزالة أرْضِيَّة الطابقِ الثاني ، لو لم أفعل ذلك ، لتطلب الأمر إحراق البيت بالكامل لتدفئة الفضاء المفتوح بين أرضيةِ البيت والسقفِ الذي أزلت ألواحه حتى بدت عوارضه الخشبية المائلة .

وتَحْت أرضيةِ الغرف العلوية ، صادفتُ ثلاثة طبقات مِن العوارض الخشبية الضخمة تَحْت طبقة التراب الكثيفة . الطبقة الأولى من العوارض كانت مصفوفة

جنبًا إلى جنب بطول البيت بأكمله . الطبقة الثانية وُضِعَت بالطَّريقة نفسها ، إلا أن عوارض الطبقة الثانية صُفت جنبًا إلى جنب بعرض البيت بالتعامد بزاوية ٩٠ درجة مع ألواح الأرضية . بينما يُقابلُ ترتيب الطبقة الثالثة نفس ترتيب الطبقة الأولى من العوارضِ .

هذا هو التركيب الداخلي للبيوتِ البوسنيةِ الأرستوقراطيةِ . الإطار أو الهيكل الضخم المكون من العوارض والمثبت على الطابق الأرضي فوق الجدران العريضةِ المبنية من الحجارةِ يدعم بثبات وسهولة تشابكَ العوارض العمودية والمائلة ضمن صفوف اللبنات [1] الطينيةِ ، بالإضافة إلى العوارض التي تدعم السقفَ المرتَفِع .

لم أكن بحاجة لأن أحَشُرَ وَتَدًا أو أدك إسْفِينًا بين الألواح واحدًا بعد الآخر حتى أصل إلى هذا الاكتشاف . فقد كنت أعَرفُ تمامًا أنَّ الهيكل الخشبي لبيوت البكوات يرتكز على شَبَكَة من الألواح المُتداخلة التي يعتمد أحدها على الآخر بدون دقٍّ وَتَد أو مسمار واحد ، فقط باستخدام المِفْصَلَات المتَفَرِّقة الموزَّعة على نحو غير نظامي ، وأي إخْلال بِهذا النظام البنائي المقَدَّس وأي انتهاك بل وأي مَسَاس بِثباتِهِ التَرْكِيبِيِّ ، سيتسبب في انهيار هذا البيت العريق - المَزْهُوِّ بِنَفْسِه لحد الغرور - وتداعيه سريعًا كما يسقط بيت مصنوع من البطاقاتِ الورقية .

وهو ما حَدثَ في المَدْخَنَة حيث تَفَسَّخت لبناتها وتَدَاعت . وبسُقُوط اللبنات وانْهِيَارِها تعرَّت الألواح الخشبية وظهر الهيكل الخشبي عاريًا بين الصفوف المتضَعْضِعَة من اللبنات الطينية .

قد يَفْسدُ الخشب ويتعفن . أما اللبنات فلا يُفترض أَنْ تتعرض لذلك . ولكن هذا ما حدث بالفعل في هذا البناء . سقطت اللبنات بينما بقيت العوارض الخشبية صامدة كما لو كانت مصنوعة مِنَ الفولاذِ دون تفسخ أو تلف ودون أدنى علامة لنَخْر السوس أو التعفُّن !!

قمت بإزالة اللبنة الخارجية المتعفِّنَة ، وكان بوسعي أن أنظر لأسفل مباشرة لأرى

---

[1] اللبنة : الطابوقةِ أو قالب من الطوب - (المترجمة) .

مقطعًا عرضيًا للجزء الواقِع في وَسَط الدار .

عندما نزعتُ اللوح التاسع عشر من أرضية الغرفة ، وعلى يمين اتجاه القبلة ، عَثرتُ على صندوق فولاذي داخل التراب المضغوط تحت الأرض . وداخل الصندوقِ وجدت مصحفًا . وفي قلب المصحف وفي الصفحة التي تبدأ عندها سورة الأعراف ، وجدت لفيفة ضَخْمة مِن الورق . كانت عبارة عن مذكرات جَدِّي أثناء الحرب .

كانت المذاكرات مكتوبة باستخدام نظام بوسني قديم في الكتابة يعرف بالبوسانتشتسا [1] ، لهذا كان من العسير عليَّ فك مغالق تلك الكتابة وحل الشَّفْرَة التي كُتبت بها . ولمدة طويلة بقيت أفكرُ في حل شفْرَة الخط البوسانتشتسي ، نعم تلك هي الكلمةُ المُناسبةُ « حل الشفْرَة » .. ولكن ما الحلُّ ؟ أَعترفُ بأنني لم أكن على دراية جيدة بالمخطوطات التراثيةِ . ولم تكن مألوفَة بالنسبة لي . وبقدر ما كان يروق لي الاعتقاد بأنَّ زوبعةَ النسيانِ لم تبتلعني ، مقارنة مَع الآخرين ، وبأنني كنت مُحصنًا ضد النسيان إلا أن الحقيقة أنني كنت كغيري .. قد ابتلعني إعصار النسيان !!

كُنتُ أفضل الكتابة على أَنْ أدُس أنفي في الكُتُبِ القابعة في مكتبةِ بيتِنا ، إما لأنني كُنْتُ أُعاقبُ نفسي أو لأني لم يكن لدي الوقتُ الكافي . ولو أنني فتشتُ بين تلك الكُتب لكُنْتُ بالتأكيد سَأُصادفُ أحد الكُتُب الحديثة المكتوبة بلغة عصرية والتي بواسطتها يمكنني أن أُفسر هذه المخطوطةَ .

ولكن السهولة التي حللت بها لغز الكتابة بأسلوب البوسانتيشتسا أغرتني بمُتابعة

---

(١) بوسانتشتسا أو بوسانتشيكا (Bosantchica or bosancica) : الخط الذي كان يستعمل في البوسنة أيام القرون الوسطى وهو مرتبط بالخط السيريليكي (Cyrillic) ولكنه مختلف عنه . ويعتبر البديل البوسني للخط السيريليكي . وفي أثناء القرنين الأولين من الحكم التركي ، ظل الخط « البوسانتشيكي » مستخدمًا لدى بكوات البوسنة ، أما الخط الروماني فقد شاع استعماله بين الرهبان الكاثوليك . وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يتم التحول للكتابة بالخط العربي بين المسلمين ، فالخط العربي هو الخط الذي كانت تكتب به المعارف العربية والتركية والفارسية جميعًا ، وهو الخط الذي كانت تدرسه وتعلم به جميع المكاتب (الكتاتيب) الإسلامية في كل أرجاء البلاد (انظر : ليفلدت Lehfeldt: Das serbokroatische Aljamiado- Schrifttum . صفحات ٤٥ – ٥٢) – (المترجمة) .

القراءة ، وحَملتني على الانهماك والغوص بعمق في مذكراتِ جدي الحاج الحافظ (رحمن جوزو) ، إمام وخطيب ومعلم مسجدِ (ريتسكا) في (سربرينيتسا) التي كانت المؤامرات تُحاك ضدها في الخارج وكان الكيد بها على قدم وساق .. كانت (سربرينيتسا) على موعد مع مُؤَامَرَة مُرتبة مكتملة الأركان . لو كُنْتُ أعْرف ما الذي ينتظرُني ، لكُنْتُ استسلمتُ قَبْلَ أَنْ أبدأ القراءة ... ولتوقفت منذ البداية .. على أية حال ، أغرتني البِداية السهلة وخَدعتْني السهولة التي توصلتُ بها لفك شفْرَة الكتابة القديمة ، ثم لاحقًا بعد أن تم تضْليلي وأغوتني أوهامي وضلالاتي ، وقعتُ في المصيدة ولم أستطع أن أنسحبَ وأن أخلع نفسي من بين صفحات تلك المذكرات .

كانت الكتابة تعتمد طريقة الترميز [١] ، واستنادًا على ترددِ الرموزِ كان لا بُدَّ أنْ أُقرِّرَ أي تلك الرموز يرمز لأحرف العلة . وقد أسعفتني المهارات التي اكتسبتها من خلال اشتراكي في مِجَلة للألغاز والكَلِماتِ المتَقَاطِعَة كانت تُسمَّى (أتلانتيدا أرغنتاريا Atlantida Argentaria) ، ساعدَتني تلك الخبرة في اللحاق سريعًا بأحرف العلة التي تصاعد تكرارها كثيرًا في المخطوطة . وبالنسبة لأيِّ كاتب شفْرَة جيد - مثلي - كانت تلك المهمة أشبه بأداء أغنية ، كما لو كنتُ أدندن همسًا بلحن سلس . فدون أدنى جهد .. وكما يتسلل القمر من ستارة النافذة تسللت إلى ذهني حروف الشفرة القديمة ... تَذكَّرتُ رمز كل حرف مِنَ الحروف ؛ حتى إنني لَمْ أكن بحاجة حتى إلى قراءة الملاحظات والتعليقات على الهامش .

ومع ذلك ظَهرت الصعوباتُ حين تبين أن عليَّ أن أَكتشف متى يكون السَّطْر قَدْ كُتِبَ من اليسار إلى اليمين ، ومتى يكون قد كتب من الجهة المعاكسة ؟ وبعدها سيُمكنني أن أحدد التسلسل الزمني لمجرَى الأحْداثِ . وفي النهاية ، وعندما اعتقدتُ بأنَّني قمتُ بربط أطراف الأحْداثِ معًا ، أدركتُ بأنَّ جهدي كان ضربًا من العبث وأن تلك المحاولة تكَشفَت عن لا شيءَ !!

على أية حال ، بينما كنتُ في الخِدْمَة العسكرية ، عملت كعامل تشغيل في الإذاعة مَع وحدة القائدِ (ماريانوفيتش) ، تحت قيادةِ العريفِ الكبيرِ (يوكيتش) -

(١) الترميز : استخدام الرموز - (المترجمة) .

VP ٦٧٨٨ / ٥ – بوباني – نِش . وقتها لَمْ أقبل بأنْ أكون مجرد كاتب شفرة حقير في الجيشِ اليوغوسلافي [١] . وقد أدركَ (يوكيتش) في الحال بأنّني أتقن كتابة الشفرة أكثر مِنْه ، وعندما طلب منه القائدُ (ماريانوفيتش) أنْ ألقي محاضراتٍ للجنود ، أعفيتُ نفسي وعريفي الكبير من أسلوبي المعقد في التَّدْرِيسِ . بعدها تَركوني وسَمحوا لي بالذهاب إلى النادي الإذاعي العسكري في المدينةِ ، في مركزِ قيادة الجيشِ . وكانَ الراديو مشفرًا بشفرة مدنيَّة ؛ ولهذا السبب تضاعفت نوباتُ عملي ذات الساعاتِ الثمانية كما طلبتُ ، وهكذا تسنى لي معرفة الطقسِ في الكاريبي ، وتعرفتُ على سعر « الآيس كريم » في هونولولو ، وكل أنواع الأسرارِ الخاصة البالغة الخفاء والسريَّة في الكتلتين الشرقيةِ والغربيةِ . كتصريحِ (جاجارين) [٢] التالي : « وجدت السماءَ سوداء ، والأرض زرقاء ولَمْ أُقابلْ الملائكة » . ولا بد أن كل شيء بدا مختلفًا كليًّا عما كان قد افترضَ وأنه قد الْتَقَى بالتأكيد بأشياء لم يتوقعها . اكتشفتُ أيضًا أن « آرمسترونغ » [٣] قد اعتنق الإسلام ، أثناء زيارة ترويجية إلى المملكة العربية السعودية مَع شركة حاسوب أمريكيةِ . فبينما كان هناك سمع الأذان وخالطه شعورٌ قوي بأنه قد سَمِعَ هذا النغم قبل الآن ، وأخذ يسْأَلُ نفسه أين سَمِعَ ذلك اللحن قبل ذلك ؟ وعندما شرح له المسلمَون ما هو الأذان وعلم بأنَّ المسلمين يسمعون هذا النداء خمس مرات كل يوم ليذكرهم بموعد الصلاة . قال : « لقد استمعتُ إلى نفس هذا الصوتِ ونفس النغمِ بينما كنتُ على سطح القمرِ ، و ... » .

وأثناء انهماكي واستغراقي في التحدي الذي فرضته عليَّ مُسْتَنَدات جَدِّي

(١) كلمة « يوغسلافيا » بذاتها تحمل اسم الشعوب السلافية الجنوبية التي سكنت تلك البلاد ، فهي مركبة من مقطعين : الأول « يوغ » ومعناه الجنوب ، والثاني « سلافيا » وهو اسم لمجموعة الأمم السُّلافية (السلاف) أو الذين أطلق عليهم العرب اسم الصقالبة وهم شعب يسكن ما بين جبال الأورال والبحر الأدرياتيكي في أوربا الشرقية والوسطى . (انظر : المسلمون في يوغسلافيا . والألبانيون الأرناؤوط والإسلام تأليف : د/ رجب يشار بويا . ص ٩ و ص ٣٠ – دار السلام – ٢٠٠٤م) – (المترجمة) .

(٢) يوري جاجارين : رائد فضاء سوفيتي وأول من صعد إلى الفضاء الجوي (عام ١٩٦١م) ليفتح أبواب الفضاء أمام البشرية – (المترجمة) .

(٣) نيل آلدن آرمسترونغ (Nell Alden Armstrong) : (١٩٣٠ – ؟) : رائد فضاء أميركي . كان أول إنسان وطئت قدماه سطح القمر (٢٠ يوليو ١٩٦٩) . أما ثاني إنسان وطئ هذا السطح فكان زميله في الرحلة الفضائية أدوين أولدرين – (المترجمة) .

الخطيةِ ، عُدتُ بذاكرتي إلى الوراء .. إلى أسرارِ الأعدادِ سبعة وتسعة عشرَ ، بالتأكيد لم يكن وجود المصحف تحت اللوح التاسع عشرِ بمحض الصُّدفَة .. ولَيسَ مجرد صدفة أيضا أن يَترُكَ جَدِّي لفيفةَ الورق المكتُوبةِ بخط صغير في بداية السورة السابعة من القرآنِ الكريم . تُرى هل أرادَ بذلك أن يَترُك مِفْتاحًا لحل اللغزِ ؟ لا بد وأن يكون بالفعل قد قصد ذلك . وحتى إن لَمْ يقصد ذلك ، فمفتاح اللغز قَدْ تُرِك بالفعل . ليُصبح قدري المُحتم ، ولا أعْرفُ لماذا أنا بالذات ، ربما لأنني استطعت أثناء وقت فراغي أن أنفذ إلى أسرارِ علم الألغاز والأحاجي ؟ يقوم مفتاح الشفْرَة على رَبْط الأرقام العربية [١] في اتحاد غير مُتَنَاسِق مع الأرقام اللاتِينِيَّة [٢] .

وعندما وضعتُ الأرقام العربية : سبعة (٧) وتسعة عشرَ (١٩) في اتحادِ غير مُتَنَاسِق مع نَظِيرها من الأرقام اللاتِينِيَّة حصلت على المفتاح السري . فالرقم (٧) هو ترتيب سورة الأعراف في المصحف الشريف ، وبتطبيق ذلك الرقم في معكوس المتَوَالِيَة الهندسية [٣] للرقـم (١٩) وهو ترتيب سورة مريم في القرآن الكريم المنقوشة على لوحة التاريخ [٤] المعلَّقة فوق مدخلِ المسجد ينكْشفُ مفتاح قراءة الحروف التي كتب بها جدي يومياته ، وهكذا حصلت على المفتاح السري لقراءة أوْراق جَدِّي ،

---

(١) الأرقام العربية (Arabic Numerals - Arabic Figures) : الأرقام التي يظن الكثيرون أنها إنجليزية (1 , 2 , 3 , 4 , 5) أخذها العرب عن الهنود فوحدوها وهذبوها واستخدموها في الترقيم . وأدخلها العرب إلى أوربا منذ القرن التاسع للميلاد فحلت محل الأرقام اللاتِينِيَّة (الرومانية) فيها أما الأرقام المتداولة اليوم على أنها عربية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) فهي الأرقام الهندية الأصلية - (المترجمة) .

(٢) الأرقام اللاتِينِيَّة (Latin Numerals) : رموز تشير إلى عدد من الأعداد وهي VI, III, II, I ، وهي عبارة عن حروف من الألفباء الرومانية ، استخدمت لتقوم مقام الأرقام حتى القرن التاسع للميلاد ، ثم استعيض عنها بالأرقام العربية في القرن التاسع الميلادي . وهي لا تستخدم اليوم إلا في ترقيم الساعات ، وفي رؤوس (بدايات) فصول الكتب ولأغراض التبويب والتصنيف - (المترجمة) .

(٣) المتوالية الهندسية (Geometric Progression) : سلسلة أعداد يساوي كل عدد منها العدد السابق مضروبًا بعدد ثابت لا يتغير أو مقسومًا عليه ، مثل : (١٠ ، ٣٠ ، ٩٠ ، ٢٧٠) أو (٢٧٠ ، ٩٠ ، ٣٠ ، ١٠) . ويدعى العدد الثابت (الأساس) . وهو في هذه المتوالية [٣] . وكمثال آخر (٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦) ، الأساس هو [٢] - (المترجمة) .

(٤) لوحة التاريخ : لوحة تذكارية عبارة عن نقش فوق مدخلِ المسجد مكتُوبٌ بالخط العربيِّ بحيث يَكْشفُ مجموع القيمة الرقمية لحروف النَّصِّ عنْ تاريخ بناء المسجدِ .

بعبارة أخرى : أي أنني بذلك حصلت على التتابع أو التسلسل الرقمي لأوْراقِهِ المدونة بالخط البوسانتشتسي .

* * *

ركضت نحو عمَّتي العجوزِ (زيرينا) . كَانتْ تَخْرجُ مِنْ بيتِها البرجوازيِّ . الذي أشك في أنها قد ذاقت طعم النوم في ليلتها التي قضتها بداخله ، بل إنني لا أتصور حتى أن يكون قد غمض لها جفن في تلك الليلة . كنت أعتقدُ بأنَّ بيتها العتيق قد انهارَ منذ زمن ، لكن كارثة اللاجئين أعادت الحياة إلى كثير من البيوت المهجورةِ وحتى إلى كثير من المنازل الأكثر تهدمًا وخرابًا من بيت عمتي .

قالت لي وهي تُشيرُ برأسها نحو السكان الذين أتت بهم الحربُ إلي بيتِها : « أنا شاكرة وممتنة لهم لأنهم أَخذوني إلى داخله » .

عمَّتي سيدة عجوز كبيرة السنِّ لكنها تحمل اسمًا شابًّا . لرُبَّمَا كَانتْ هي المرأةُ الأولى في البوسنة كلها التي حَملت مثل هذا الاسمِ . بعد ذلك وفي الآونة الأخيرة فقط صار الكثير من الأطفالِ يحملون اسم عمتي (زيرينا) وأصبح هذا الاسم شائعًا بل وانتشر على نحو يذكر كثيرًا . ولكن فقط الأطفال الإناث كن يمنحن اسم « زيرينا » ، ليس هناك صبي ذكر يدعى (زيرينا) !!

كان من المفترض أَنْ يكون اسم عمَّتي « زيرين » ، كانت أمُّها (فرح) - إحدى أجمل الجميلات في بلدة (أزمير)[1] التركية ذات الجمال الخلاب - قد وافقَت على المجيء مَع أختِها (زينب) لكي تُخفِّفَ عنها شيئًا مِنْ وحدتِها في البوسنة . كانت (زينب) قد أغرمت في بلدتها (أزمير) برجل من البوسنة من عائلة (شيهوفاتس) ، كان تاجرًا كبيرًا مِنْ بلدة (روجاتيسا) وكان يحمل لقب « بيك » . ولا أحد يَعْرفُ ما إن كان قد سحرها ومارس طقوس السحر عليها لتغرم به لهذه الدرجة ، أم أنها قد أُسرَت بوسامتِه ؟ على أي حال فإن المرأة عندما تقع في حب رجلٍ ما بصورة عمياء ، فإنه من الصعب جدًّا بل من المستحيل إقناعها بالعدول عنه . ولا يمكن لرجل

---

(١) أزمير : مدينة يونانية قديمة تقع على بحر مرمرة في آسيا الصغرى ، وهي الآن تابعة لتركيا ، ويكتبها الأتراك اليوم (Izmit) - (المترجمة) .

أن ينجو من امرأة كتلك ولا حتى بأيٍّ نوع من التعاويذ أو الحيل السحرية !!

وعندما وَصلتْ (زينب) إلى البوسنة مَع زوجها ، وبمجرد أن أدركتْ إلى أين جاءتْ بالضبط ، بَدأتْ بإرْسال الرسائل فورًا إلى أبويها لتُخبرُهم بأنَّها كَانتْ قبل الآن تَعِيشُ حياةً لا قيمة لها ، وبأنَّها لا يُمكنُ أنْ تَكونَ أفضلَ حالًا في أي مكان آخر في هذا العالم ، فهذا المكان هو الأفضل بالنسبة لها . وذكرت في رسائلها أنَّها كانتْ تفتقد كثيرًا أختها (فرح) وبأنَّهم يَجِبُ أَنْ يُرسلوها إليها لفترة من الوقت كرفيقة تأنس بوجودها . لكنهم أجابوها بأنَّ الطريقَ طويلة إلى البوسنة . وقالا لها : « إذا كانت إحداكن قد غادرتنا إلى البوسنة ، فكيف نترك ابنتنا الأخرى لتَبْدأَ هي أيضًا مثل هذه الرحلةِ الطويلةِ ؟!!

رَدَّتْ عليهم (زينب) بقولها :

« .. إذن فقد تَخلَّيتُم عن رُؤيتي مرة ثانيةً ، وأعتقدُ بأنَّكما لَمْ تفضلا يومًا إحدانا على الأخرى ، ولم يقدم أحدكما إلى واحدة منا مَعْرُوفًا أو إحْسانًا خاصًا دون الأخرى ، وأنكما كنتما عادلين ومنصفين تمامًا في التعامل مع كل منا ، وأرى أنكما تريدا أن تقولا : إنه إذا اخترت أنا أن أكون بائسة وتعيسة فعلى الأقل هي لا يَجِبُ أنْ تَكُونَ كذلك !! لكنَّ ذلك ليس صحيحًا .. أنتما مخطئين تمامًا . فأنا على خير ما يرام وأموري تسير بشكل جيِّد .. جيِّد جدًا ، بل ولا يُمكنُ أَنْ يَكُونَ حالي أفضلَ مما هو عليه . وهل ذكرت في رسالتي أن (فرح) سَتَتزوَّجُ هنا ؟ فقط دعوها تَأتي إليَّ . وهذا شائع هنا في البوسنة ، فالتقاليد في البوسنة تسمح للعروس بأن تَجلبَ مَعها امرأة أخرى من قريباتها لتبقى معها لفترة من الزمن إلى أن تعتاد عالمها الجديد ، حتى يسهل عليها التكيف مع بيئتها الجديدة ، هذا حق للعروس .. وهم يسمون تلك المرأة المرافقة الـ « أوبيكوشا » . لذلك فإن وجود أختي (فرح) معي سيساعدني على التعود على حياتي الجديدة ، وربما سيمضي الوقت بشكل أيسر مَع (فرح) حيث سيكون من اليسير على نفسِي تحمل فترة التعود تلك في وجود مثل ذلك الجمالِ الأزميري . وبعد ذلك يُمْكِنُها أَنْ تَعُودَ للبيت ، وحتى إذا لم ترغب هي في العودة . فسوف أرسلُها أنا بنفسي إليكم ؟ » .

ظلت تكتب إليهم ويردون عليها تباعًا ، واستمر الوضع كذلك إلى أن جاء يوم

من الأيام ، وبدلًا مِنْ أن تصل رسالة منهم ، وصلتْ (فرح) بنفسها إلى بلدة (روجاتيسا) . ووَجدتْ أختَها (زينب) ترفل في الثراءِ وتتَقَلبَ في النِّعْمَةِ والتَّرَف وفي الذعر الثقيلِ والخوف المضجر أيضًا !! كانت تُغالبُ خوفًا لا سبيل إلى التحكم فيه أو السيطرة عليه ، فهي لا تَعْرِفُ ما إن كان زوجَها - زير النساء العظيم - سَيَجْلبُ إلى بيتها زوجة ثانية بعد عودته مِنْ سفره إلى الهرسك بغرض التجارة ؟!

« ياله من فاسد فاسق ، لا سَامَحَه اللّهُ .. إنه لا يَهتمُّ بالبيتِ بأي شكل من الأشكال . و كل ما يهتم به هو طعامه وشرابه ، وملاطفة الفتيات وغوايتهن والتَّزَلُّفِ إليهن ، هذا باختصار نوع شخصية ذلك الرجل » ، هكذا أخبرتها الألسنةُ الخبيثةُ لسكان الحي الذي تعيش فيه ، بحجة أنهم يخشون عليها أن يجلب لها امرأة منافسة .

إنها الغيرة .. أعظم وأشرس مرض يمكن أن تعاني منه النساء ..حتى تطمينات أختها لم تنجح في التخفيفِ من آلامها وإعادَة السكينة إلى قلبها : « لا تقلقي .. فهذا لن يفيد .. امنحيه بعض الوقت وانتظري قليلًا .. عليك بالصبر فترة أخرى ! » .

على أية حال ، لَمْ تَرْجعْ (فرح) إلى بلدتها (أزمير) .. بل (زينب) هي التي رَحلَت عن بلدة (روجاتيسا) وعادت إلى (أزمير) .

رُبَّمَا اعتقدت (فرح) بأنَّ أختها لَنْ تَهْربَ لمسافة بعيدة بقدر المسافة إلى (أزمير) ، وبأنَّها ستعود قَبْلَ أن تَصِل إلى هناك ، ورُبَّمَا شعرت بالخزْي والخجل من العار الذي جلبته أختها ، وتمنت ألا تؤخذ بوزر أختها وألا يحملها الناس مسؤوليةَ خطأ أختِها وفعلها القبيح ، فتتعرض سُمْعَتها للتَّشْويه وتشعر بالذُّلِّ والهوَان ، ورُبَّمَا فتنت (فرح) بنسيبِها وأصبحت متيمة به ، أيًّا كان السبب .. بَقيتْ (فرح) في البوسنة حتى بعد أن أصبحَ معلومًا للجميع بأن الأختَ الكبرى لم تكن تُفكرُ بالعودة مِنْ (أزمير) .

وقد أنجبت (فرح) للسيد صاحب الفضل ابن وابنة .

سُمِّي الابن (شيمسي بك) ، وهو اسم ليس بوسنيًّا ولا تركيًّا ؛ لكنه قد يتصل بطريق من الطرق بأي من اللغتين ، صحيح أن اسمه لم يكن « شيمسو » أو « شيمسيا » أو « شمس الدين » ، إلا أنه ما زال يحمل ضمن موسيقى حروفه علامة

تشير إلى انتمائه إلى طبقة النبلاء ، ما زال يحمل فوق حروفه بصمة الأشراف .

ولم يُسمع أي خبر عن (شيمسي بك) ونادرًا ما تحدث عنه أحد ، وكل ما يذكره عنه الناس أنه عندما أصبح في سن التَّجْنيدِ الإجْبَارِيِّ أو الإلْزَامِيِّ كان قد كبر وصار شابًّا وسيمًا وأنه كان مجندًا أثناء الحرب العالميةِ وفقِدَ كل أثر منه ولم يسمع عنه أي خبر ... هذا كُلُّ شيء .. ولا أحد يعرفَ ما إن كان قد نجا وبقي على قيد الحياة أم أنه هلك مع الهالكين في الحرب ، لم يكن هناك أي دليل يفيد بأنه حي أو ميت ... وما من سبيل لتأكيد أو نفي أي من الاحتمالين . ولهذا السبب لم يكن ملائمًا الحديث عنه كحي أو كميت ، كما لم يكن من اللائق أن يصمت الناس عند اسمه ، وما كان بوسع أحد أن يذكره بسوء أو بعدم ارتياح .. أو حتى أن يُفكرَ فيه بشكل غير ودود أو غير محبب . ببساطة لم يكن هناك ما يمكن أن يقالَ عنه .. إذ ليس لطيفًا التحدث عن الأحياء كما لو أنهم موتى ، وليس لطيفًا أيضًا الحديث عن الموتى كما لو أنَّهم أحياء ؛ لذا اختار الناس الصمت عند ذكر اسمه على الرغم من أنه كان الاختيار الأكثر صعوبةً ، إلا أنه كان في ذات الوقت الحل الأكثر ملاءمة .

بعد ذلك ، جاءتهما البنت الأكثر تألقًا .. كما لو كَانتْ هدية أرسلتْها السماءُ إليهما . فقد ولدَت في وقت تجنيد أخِيها . وقررت الأم أن تسمي الابنة (زيرين) وهو اسم يعني « زهرة النرجس » [1] . ولم يفكر الأبُ مطلقًا في مخالفة رغبة الأم ، وحقق بالفعل رغبة الأم ، فسُمِّيتْ الطفلة (زيرين) .

(زيرين) اسم غير مألوف في البوسنة . خصوصًا لأنه أكثرُ شبهًا باسم ذكر وليس أنثى . إلا أن (شيهوفاتس بك) وافق قبل كل شيءٍ على رأي زوجتِه المحبوبةِ الودودة واستحسن اختيارها ، فقد كان يعَمَل كل ما في وسعه لإرْضائها وتحقيق كل

---

(١) النرجس (Narcissus angustifolina) : زهرة شتوية تظهر في الشتاء وبعد نزول المطر ، موطنها الأصلي أواسط آسيا وحوض المتوسط ، وهي زهرةٌ متوسطة الطول محمولة على حامل زهري في أعلى الساق ، لونها أصفر متعدد الدرجات ولها رائحة زكية ويُعرف النرجس بقاتل أعدائه ؛ فهو يقتل أي نبات ينمو بجواره .. وقد ذكره الشعراء كثيرًا ومدحوه وشبهوا العيون الفواتر به لانكساره وميله - (المترجمة) .

أمنية لها . ومن جانبها أيضًا لم يكن لها أية طلبات ؛ لذا استمرَّ زواجَهما كما لو كَانا حمامتين مطوقتين داخل قفص من ذهب .

وقد تَخلَّى البيك عن سفاراته التجارية وتحول إلى صاحب متجر بعد أن افتتح متجرًا يعول منه أسرته ، وبعد ذلك مباشرة ترك صناعة الأغلفة الخشبية التي تُعوِّضُ عن نوافذ وأبواب المخازن إلى الشبابِ الذين يعملون لديه ، واستسلم تمامًا إلى هوى نفسه وشرع في ملاحقة الفتيات إرْضاءً لنزواتِه التافهةِ وأسلَمَ نفسه كليًا إلى اللهو والعبث وأخلد إلى حياة المجون مع الصبايا – حوريات الدنيا !!

وطوال حياته بقيت (زيرين) تحمل اسمها .. (زيرين) ، وبعد أن رحل عن الحياة الدنيا ، لم تنتظر (فرح) ولا ابنتها الإذن من أحد لتصبح (زيرينا) وبهذه الطريقة أصبح الاسم أكثر بساطة بالنسبة للناس وأقل بلاهة أيضًا ، فقد كان أهل البلدة لا يُحبُّون أيَّ اسم استثنائي أو غير تقليدي . وما دام لا أحد يمكنه إيذاء السيدة (فرح) هانم ، فلا بأس ببعض التعديل في الاسم ، فحرف واحد على الأقل يُمْكِنُ أَنْ يضاف في نهايةِ اسم بنتِها لِكي يَجْعلَه اسمًا نسائيًا بحق ، تمامًا كما فعلوا مع (زينب) قبل وقت طويل لذلك كَانتْ أسرعَ خروجًا من البوسنة ثمَّ أصبحت خارج (أزمير) !

وفي كل الأحوال ، لا أحد يَستطيع أن ينادي على نفسه ، لذلك فاسم الإنسان الفعلي هو الذي يدعى به مِن قِبل الآخرين ، وللناس طريقتهم في نطق الأسماء سواء أرغب المرء في تلبية ندائهم عندما ينادونه باسمه أم لا .

أصبحَت (زيرينا) عمَّتي بعد أن تزوجت من عمي (مهيو) . وقد انتقل عمِّي (مهيو) إلى عِزبة عائلتنا في (أوجاك) حتى تتمكن (زيرينا) من البقاء قريبًا من أمِّها . وهناك كان يعيش معنا أيضًا عمِّي (فريد) الابن البكر لجدي (رحمن بك جوزو) . وهو عازب ورَفِيق اشتراكي متشدد لم يزعجه مطلقًا قدوم الوافد الجديد من (سربرينيتسا) ، ولا بد أنه لم يشعر بحضورهم ، وربما لم يلحظ وجودهم أصلًا حيث كان مهووسًا جدًّا بفكرةِ ابْتِكَار بساط ريح !!

بالطبع لَمْ يكن عمِّي يُحب أن يسخر الناس مِنْ طموحه وأهدافه ، فقد كان انزعاجه من ذلك واضحًا ، كان بوسع أي شخص أن يلاحظ مدى انزعاجه من ذلك . وكان يقول دائمًا ألا أحد يمكنه أن يخترع شيء تم اختراعه بالفعل ، فبساط

الريح قد تحقق وجوده اليوم على هيئة منطاد الهيليوم ، والطائرة الشراعية ، والمروحية والطائرة ؛ لذا كان يؤكد أنه يُريدُ فقط أَنْ يُعيدَ اكتشاف بساط الريح القديم ، فالإنسان قد اكتشفه بالفعل وليس عليه أن يخترعه من جديد ، بل يريد فقط أن ينعش ويجدد ذلك الاختراع القديم بطريقة عصرية .. وأثناء محاولاتِه الطويلة المدى ظَهرت في السماءِ أيضًا الصواريخ ، التي أضافَها ببساطة إلى قائمةِ جدالِه الحالية :

« إن كان في استطاعة كُلُّ تلك الآليات الطائرةِ - الثقيلة جدًّا - أَنْ تَرتفعَ إلى أعلى وأن تحلق في السماءِ كما يمكنها أن تبقى مُعلَّقة في الهواءِ ؛ إذن ففي استطاعة بساط الريح أن يفعل ذلك أيضًا !! أنا لا أُريدُ اختِراع أيَّ شيء ، فقط أسْعي لمحاولة تفهم مَهَارات ودهاء الحضاراتِ السابقةِ جيدًا ، وكشف أسرار بَرَاعَتها وروعتها تلك الحضارات التي نتحدث عنها كمجرد أسطورة . أنا لا أقصد المهارات ذات الصلة بالكيمياء القديمة ، فلا يوجد ما يؤكد أنهم تمكنوا من تصنيع الذهب من المعادن الأخرى ، لكن أحدًا لا يستطيع أن ينكر وجودَ بساطِ الريح في زمانهم ، بل إنهم كانوا يتحدثون عنه بتلقائية شديدة ، فقد كان الجميع يتحدثون عنه ببساطة كشيء كان موجودًا في ذلك الوقت ! » .

وقد ابتهج جَدِّي (رحمن بك جوزو) كثيرًا بانتقال (مهيو) و (زيرينا) إلى (أوجاك) ، وشَعرَ بأن مجيئهم إشارة مِن اللَّه واستقبل انتقالهم إلى (أوجاك) كهدية رحمانية وبشارة إلهية .

ويُمْكِنني أنْ أَتذكَّر بالكاد وبصعوبة بالغة كيف كان يروي في بيتِنا أحيانًا بأنَّه بَعْدَ أَنْ ذَهبَ العَرُوسَان إلى العزبة الريفية ، انسحبَ جدي تمامًا في بيته الصيفي وهجع إلى غرفته ولَمْ يَخْرجْ لمدَّة شهر كامل . ولَمْ يَتناول الطعام مطلقًا . سَمحَ لنفسه فقط بعُلبة من « سجائر سرايفو » ذات المرشح (الفلتر) وبإبريق الماء الذي كان يُوضع أمام بابِه قبل أذان المغرب مباشرةً . ولكن بعد أن تهدأ الأصوات في أول الليل ، وبعد أن يهجع الجميع للنوم ، كان جدي يحيي الليل بهَمس صلاواتِه النافلة ... كان صوت تلاوته يحطم سُكُون الليل ، وأيضًا كان بوسع أي أحد على الجانبِ الآخرِ مِن البابِ أنَّ يميز صوتَ خَرْبَشَة ريشة على ورقةِ ؛ وبالتالي أن يخمن أنَّ جدي كَانَ يَشغلُ نفسه بالكتابة السريةِ .

وحتى وقت قريب كنا نعتقد بأنَّ جدي كَانَ يَعشق الكتابة سرًا . فالكتابة هي عذاب الوحدة ووَجَع الوجودِ الانفرادي . لكنه لم يستمر قبل الآن في عزلته إلى مثل هذه الدرجةِ ، كما لم يسبق له أبَدًا أن واصل عُزلته الاختيارية لهذه المدة الطويلة . لم يفعل ذلك قبل أن يسلِّمَ نفسه للكِتابَة ويفرضَ على نفسه صيام شهرٍ إضافي ، بالإضافة إلى شهر رمضان ... وكان يفطر فقط على الماءِ والسجائرِ ويقيم الكثير من الصلوات النافلة ليحمد اللّه أن استطاعت (زيرينا) أن تقنع زوجها (مهيو) بالانتِقال إلى عِزبة العائلة في (أوجاك) ، كان يحمد اللّه أن أرسل (مهيو) ليُساعدَ أخاه الخَرِف (فريد) . أعتقد أيضًا بأنني كنت أسمعهم يقولون : إنهم عندما كانوا يَسْتَرِقُون السَّمْع أمام باب جدي ، كانوا يسمعون نَشِيجه وبُكاءَه ابْتِهاجًا وفَرَحًا لأجل ولده (فريد) ، كانوا يسمعون بوضوح تَنَهُّده بِأنْفاسٍ سَرِيعَة وهو يعبر عن امْتِنانه للّه وعِرْفَانِه بالجميل الذي أسداه اللّه تعالى إليه .

في بيتنا كما في كُلِّ بيت بسنوي مُحترم - لا تنهمر دموع الرجالِ ، أَو على الأقل هكذا كان يُظن . ولهذا كَانَ من المستحيلِ - خارج دكان التَّوَابِلِ والأَخْشَابِ العطْرية المُعتَّقَة لمدة مائة سنةٍ تقريبًا والتي وضعت بعد ذلك في مهبِّ الريح لمدة تتجاوز الرُّبْع قرن - أن يعتَصِر الرجل دمعة واحدة من عينيه ... وحتى عندما كان جدي يحس برطوبة الدمع في عينيه كان يفتحهما على وسعهما ويكز على أسنانه مُتَمنيًا ألا تسقط دمعته .. !!

وتمشيًا مع تلك المعتقدات المتعلقة بدموع الرجال ، لم يسبق لجدي - إلى أنْ وُلدت - أن وَضعَ يَدَه على رأسِ أي طفل لملاطفته وتَدْلِيله ، فلم يكن جدي يرغب مطلقًا في أن يظهر ضعفه أمام أي أحد ، وعلى هذا النحو من الصلابة وبهذه الصرامة أبلغ ولده (فريد) أن يغرب عن وجهه ، بسبب سلوكِه الأحمقِ بخصوص بساطِ الريح وأن يختفي بعيدًا عن بصره . وهكذا أمره أن يَنتقل إلى (أوجاك) . كَانَ القرار مفاجئًا لكن كان الجميع يعلم وقتها بألا أحد منهما يمكنه أن يتنازل عن كبريائه وبأن عيونَ أحدهما لن تقع على الآخر ما داما على قيد الحياة . وبعد ذلك مَنحَه اللّه الكريم كنَّته [1] (زيرينا) التي أرادت العيش في عِزبة العائلةِ في (أوجاك) لكي تَكُونَ أقربَ إلى أمِّها .

---

(١) الكنَّة : زوجة الابن - (المترجمة) .

وقد نقل جدي إلى عمي (مهيو) وزوجته (زيرينا) مِلْكِيَّةِ بيت في البلدةِ له مطبخه المستقل إضافة إلى فناء صغير . على أية حال ، لقد فقد عمي وزوجته الشعور بالزمن في (أوجاك) وبَقيا فيها حتى بعد أن توفيت أمُّ (زيرينا) بسبب حُزنِها العظيم على أبيها . وحتى بعد أن صادرت الحكومة اليوغسلافية الأولى والثانية [١] أملاك السادة والبكوات في كافة أنحاء البوسنة ونهبتها كما لو كانت غنائم حرب ، فقد تمكنا من تدبِير رشْوَة أو بالأحرى إتَاوَة ودفعها لمدير الوحدة الزراعية التعاونيةِ ، وهو صربي مِنْ منطقة (شومادِيا) كان قد أرسلَ إلى هناك لإنشاء المزارع الجماعيةِ - حتى في ذلك الوقت كان الروس أيضًا يتَخلصَون مِنْهم - وهكذا تمكن عمي وزوجته من استعادة دونم [٢] أو اثنين مِنْ أراضِي العائلة بجوار البلفيدير [٣] . وهكذا أنفقا القِطَع الذهبية القديمة ببطء . وقد أمضى عمي وزوجته حياتهما بدون أولاد ، كجَذْلين [٤] عجوزين عاشا بسعادة فقط لكونهما يهتزان ويتحركان في الحديقة ، كانا سعيدين بأدائهما لبعض المهمات الخدمية المتواضعة التي ألزما نفسيهما بها وسعيدين كذلك بالاهْتِمام بإعَالَة عمي (فريد) ورعاية مصالحه . ولم ينفقا على نفسيهما مثقال ذَرَّة واحدة مما كان يضعه الجَدُّ جانبًا في السلةِ ذات الغطاء لقضاء حاجاتِ (فريد) متظاهرًا بالكبرياء والإصرار على موقفه حتى في شيخوختِه وكَانَ يُذكِّرهم في كل مرة بأنَّه يبرئ ذمته وينجزُ فقط التزامَه فيما يتعلق بالميراثِ .

وعندما شعر الزوجان العجوزان بالخَوْف الشَّدِيد من الزمن وفزعا مِن الشيخوخةِ وأدركا خطورة أنَّهُمْا قَدْ يُصبحا بلا أي تمويل في المستقبل ودون أدنى موارد ماليَّة ، طلبا مني أن أعرض البيت الموجود في البلدةِ للإيجارِ ، إن كان هناك أيُّ شيءٍ بقيَ منه . ولم أعثر على أي مُسْتَأجِر مِنَ الباطِن ، لَكنِّي على الرغم من ذلك كنت آخذ الإيجارَ إليهم بانتظام . كَانَ كل ما يربطني بنسبي القديم هو ذلك الخيط الدَّقيق

(١) تحت شعار الإصلاح الزراعي صادرت الحكومة جميع أراضي المسلمين وأعطتها للفلاحين الأرثوذكس مما أدى إلى إفقار المسلمين وتأخرهم (انظر : المسلمون في أوربا وأمريكا . د/ علي المنتصر الكتاني . ص ١٢٠ ، ١٢١) - (المترجمة) .

(٢) الدونم : وحدة لقياس الأراضي تساوي ١٠٠٠ متر مربع - (المترجمة) .

(٣) البلفيدير : بناية كبيرة تطل على منظر جميل - (المترجمة) .

(٤) الجذْل : أصل الشجرة المتبقي بعد قطع جذعها - (المترجمة) .

المُعَلَّق بيني وبين أولئك الأفرادِ المسنينَ الثلاثة المتبقين من عائلتي ؛ ولهذا فقد كنت مبتهجًا لدرجة لا تسعها الكلمات لأن لقاءاتِي مَع المسنين الثلاثة تَحوَّلت إلى التزام وواجب ، فبهذه الطريقة سأراهم مرة على الأقل كل شهر لأُعطيهم بَعْض المالِ ، على اعتبار أنهُ مِنَ الإيجارِ .

عندما نشبت الحرب الجديدة في البوسنة كان أقاربي المسنينَ قد بلغوا من العمر عتيًا ، فقد التقت الحرب بثلاثتهم وهم في شيخوخة متقدمة جدًّا ، لدرجة أن كل منهم أمسى شَيْخًا هَرِمًا تمامًا . أتذكر أنهم في الفترة التي كنت لا أزال قادرًا على زيَارَتهم ، كَانوا قد ضعفوا كثيرًا وعجزوا بسبب التقدم في السن ، وبسبب انشغالِي بمشاكلِي وشؤوني الخاصةِ ، اضطربت زياراتي المنتظمة لهم ، ثم انقطعت تمامًا وطواهم النسيان ، وبعد ذلك ، ظهرت لي فجأة إشارة بدت كالطالع ، نَزلتْ عمَّتِي (زيرينا) إلى (سربرينيتسا) ! هَلْ كَانتْ تلك علامة أو إشارة لفأل حسن أم أنها كانت نذيرٌ بنحس ؟ لا بد أن تكون أحدهما ، فالسيدة العجوز عمتي لم تكن لتظهر في (سربرينيتسا) هكذا فجأة بدون أي سبب .

ياللعجب .. إلى أي مستوى هبط ذلك النبل الأرستقراطي ! وأي انحدار بلغته العمة (زيرينا) .. تلك السيدة الأناضولية ذات النسب الرفيع والتي تنحدر مِنْ أسرة أرستقراطية تنتمي لأعلى الرتب الاجتماعية . السيدة التي كانت أسيرة دائمًا لهاجس الأرستقراطية والمفتونة بيلفيدير آل (جوزو) في (أوجاك) ، والتي لم تسمح لنفسها يومًا أن تظهر بالزي النسائي التركيِّ المعروف باسم الـ « كات » [1] دون أن يكون منمقًا ومهيأ بطريقة بالغة الأناقة . وكان لديها أيضًا العديد من السراويل والبلوزات وأوشحة الرأس التي ما كانت لتتسع لها خِزانتان للثياب . وها هي الآن في (سربرينيتسا) ، تَسندُ بذراعيها على سياج بيتِها المخرَّبِ ، وترتدي سروالًا مصنوعًا من قماش باهت ذِي مُربَّعاتٍ أو تَرَابِيع بيضاء وزرقاء ، ذلك القماش كان في الأصل شَرْشَفُ سرير باهت وأتى الزمان على لونه فغدا شاحبًا مهترئًا .

---

(١) الكات Kat : الزي النسائي التركيُّ وهو عبارة عن بزة (طاقم أو بدلة) مكونة من قطعتين : سروال متهدِّل يعرف بالـ « ديميه » وبلوزة مماثلة من نفس القماش .

كان بإمكانها أَنْ تلاحظ أن عيوني كانت مثبتة على ملابسها ، لكنها لم تكن محرجة ولم تشعر بأنها مضطرة لتقديم تفسير سريع لمظهرها ولم تتعجل لتوضيح صورتها الرثة ، بل تَكلمتْ معي ببطء وبشكل هادئ :

« أنت وأنا ، إننا الأخيرين ... آخر من بقي على قيد الحياة من آل (جوزو) في هذا العالم . لقد أضرموا النيران في منزل عمِّك (فريد) وأحرقوه حيًا بداخله .. أجل كان بالكاد حيًا .. لم يكن حيًا تمامًا ... لكنه كان حيًا .. لقد جاء (رامو) ابن ذلك المدعو (آدم) من سكان (أوجاك) . هرع إلى بيتِنا بعد منتصف الليلِ . اعتقد بأنَّ البيت كَانَ فارغًا ، وألا أحد كَانَ بالداخل ... كَانَ يَبْحثُ عن الطحين . قالَ (رامو) بأنَّهم الصرب يُهاجمونَ البيوتَ ويقتحمونها بشكل مفاجئ، وأن أولئك الذِين بقَوا مِنْ سكان (أوجاك) ينتظرون دورهم . وقال : إن الأهالي كانوا يَحْصلونَ بسرعة على بعض الطعام ويفرونَ إلى الغابةِ . أحيانًا كان بعض الجيران يتقافزون خلسةً إلى القريةِ أثناءَ النهار ، يطلقون طلقة أو طلقتين و يَعُودونَ بعد ذلك إلى الغابة من جديد . وإن الجيران الصرب كانوا لا يزالون غير متأكدينَ ما إن كانت القرية مَهْجُورةً أم لا . وهم على أي حال لم يكونوا متعجلين كثيرا لوَضْع أيديهم على أملاكنا . فقد كانوا على قناعة تامة بأن كل ما هو ملك لنا سيصبح بين أيديهم في النهاية . و كان رجالهم يَستعدُّونَ للإغَارَة والهجوم بعنف على (سربرينيتسا) ولم يرغبوا في المخاطَرة بمُهَاجَمَة (أوجاك) وغزوها وحدهم .

وقد استغرق تفريغ القرية من ساكنيها سبعة أيام كما قال (رامو آدم) . ووسط تلك الفَوْضَى والإرْباك مَنْ كان بوسعه أن يعرف بأن بعض السكان لَمْ يقدروا على الخرُوج وأنهم ما زالوا محتجزين داخل القرية في (أوجاك) ؟ كَانوا يَصِيحونَ وينادون الناس بأسمائهم حتى إن (رامو) أخبرني بأنهم كانوا يصيحون باسمي أنا أيضًا ؛ حتى إنهم أسمعوا (فريد) أيضًا وكان يعرف . نعم لقد فعلوا ذلك . سَمعتهم يَصِيحونَ في الخارج بأنه لا جدوى من البقاء أكثر وبأن علينا أنْ نَهرب ... وأنا ما كُنْت لأستطيع .. لم أكن أقدر على الهرب .. وكيف لي أن أفعل ؟ .. كَانَ زوجي يَحتضر ، وكان هناك (فريد) أيضًا الموجود معنا في ذلك البيتِ ، والذي لم يكن بوسعه أن يَعْملَ أيَّ شيء فقد كَانَ مصابًا بسَكْتَةٍ دِمَاغِيَّة !

... عندما رَآني (رامو) ، ماتَ تقريبًا من الفزع ... كان من الممكن أن يصاب

هو الآخر بسكتةٍ دِمَاغِيَّة ، لَكَمْ كانت دهشته عندما تفاجأ برؤيتي أنا و(مهيو) ، كان هناك العديد من البيوتِ لكنه قرر السرِقَةَ مِن بيتنا !! حسنًا ، لا بأس لقد سامحته ، قال لي : إنه لم يجد بأسًا في أن يسرق الحنطة من بيتنا ؛ لأن « التشيتنيك » كانوا سيأتون على كل شيء في البلدة على أية حال . ولكن تصادف أن وجدني داخل البيت . دعْني لا أتكلمُ عن كَمٍّ الارتباك والاضطراب الذي شَعرَ به .. كان مُتَبَلْبِلًا ، ومَشَوَّشًا بشأن كل ما يجري .. نعم يا ولدي (مَرْجَان) . وبعد يومين من إخلاء القرية ، مات عمُّك (مهيو) - رحمه اللّه وأسكن روحه الجنة - وقد أمضيت الليل بطوله وأنا مُنتصبة واقفة على قدمي كما هي العادةُ في بلدنا حيث لا تجلس الزوجة قبل أن يدفن زوجها ... قضيتُ الليل بأكمله واقفةً تحت قدميه بعد أن فارَقَ الحَيَاة .. تسمرت طوال الليل بجوار السرير الذي يحمل الجسد الراحل بلا عودة .

في الصباحِ خرجتُ من البيت ، تنقلت مِنْ بيتٍ إلى بيتٍ دون أن أجد أحدًا .. لا أحد سوى أولئك « التشيتنيك » الرابضين في الغابة ، ومِنْ مواقعهم في الغابةِ كانوا يطلقون القذائف المسعورة .. سيل لا ينقطع من الطلقات النارية ، كان أزيز الرصاصِ يشبه طنين الزنابيرِ .. وكانت الطلقات تخترق سروالي وتئز حول رأسي أيضًا .. أخذت بَعْض المرقِ لإطعام (فريد) تمامًا كما لو كان طفلًا . وماذا يمكنني أَنْ أعْمَلَ ؟ فقد كَانَ مصابًا بالسَّكْتَة الدِّماغِيَّةِ ومشلولًا لا يمكنه أن يتحرك .. وقد بقي مُمَدَّدًا في مكانه مُستَلْقِيًا لليومِ العاشرِ ، ومن المحال أن يقدر على مساعدتي كي أُدْفن (مهيو) .. لذا أمضيت الليلة الثانية منتصبة عند قدمي زوجي .. على أمل أن يَظْهر أي شخص غدًا .

في اليوم التالي ، خَرجتُ من البيت للمرة الثانيةِ . كان الصرب لا يزالون يطلقون الرصاص .. ومن جديد اخترقت رصاصاتهم سروالي وبلوزتي ، ومن بيت لبيت كنت أستنجدُ بأي أحد دون جدوى .. كنت أنادي بهدوء وبصوت حذر على أي أحد ولكن ما من مُجيب ... لا وجود لأحد مطلقًا ..

... ولليوم الثالث ولليلة الثالثة ، تكررت نفس الأحداث .. انتصبتُ أثناءَ اللَّيلِ عند أقدام زوجي المتوفى .. وفي النهار تَجوَّلتُ خلال القريةِ . كانوا لا يزالون يُصوبون الطلقات تجاهنا .. أخذت لـ (فريد) شيئًا يمكنه أن يمضغه . وفي اليوم الرابعِ لَمْ آخذْ أيَّ طعام لـ (فريد) .. كنت أَشْعر بأنني لَسْتُ بصحة جيدة . رُبما

بسبب قلةِ النوم ، أَو بسبب الوقوف طوال الليل تحت أقدام (مهيو) .. وربَّمَا لأن جسدَه كان بالفعل قد بَدأ بالفساد والتحلل .

دعوت اللّٰه أن يغفر لي .. ورجوت أن يسامحني (مهيو) أيضًا لانزعاجي من الرائحة ؛ لأن الجسد الميت يصدر رائحة نتنة و كريهة بطريقة لا يمكن أن تُوصَف . لم يكن في وسعي فعل أي شيء .. فقط جَلستُ وصَلَّيتُ ودعوتُ اللّٰه بأن يُرسل لي أيَ شخص بأي طريقة . فأنا لا أَستطيعُ أَنْ أَتْرُكَ جثة (مهيو) دون دفن . كما أنني لا أَستطيعُ أن أدْفنَه وحدي .

دعوتُ اللّٰه ألا يُدركَ « التشيتنيك » أن القريةَ كانت مَهْجُورةً . ولكنهم سَيُلاحظون أنه ليس هناك مدخنة واحدة في القرية تطلق الدخان ... وأنا لا أستطيعُ أن أقف على قدميَّ وأن أذهب لأُوقد النار في أحد بيوت القرية حتى يعلم « التشيتنيك » بأن القرية ليست خالية تمامًا من السكان .. لكني فعلتها .. خَرجتُ في الليل وحَصلتُ على شيء من الحطب والخشب المعد لإضْرام النار في الأفران ، وقمت بإشعال النار في أفران عدة منازل في القرية .. وهكذا بدأت أعمدة الدخان تتصاعد من مداخن القرية .. ولهذا تحقق الصرب من أنه ما زال هناك أناس في القرية وخشوا من أنهم إذا داهموا القرية ، فسيكون هناك من يطلق عليهم الرصاص ؛ لذلك بدؤوا بإطلاق الرصاص من جديد .. وبدأ صفير وابل الرصاص المسْعُور يَصْفرُ، لكن لَيسَ في أي مكان بقربي فهم لا يَرونَني في الظلام ..

وفي الليلة الخامسة وصلت رحمة اللّٰه .. وظهر (رامو آدم) ، كان ضعيفًا وشاحبًا يوشك أن يفقدَ وَعْيَهُ ، كان الكفن الأبيض الذي يحوي جسد (مهيو) يسطع ويتلألأ في غياهب الظلام .. وأنا أقف بجانب الكفن كظل أشد سوادًا مِنْ ظلام الغرفةِ . حَسنًا ، أنا أيضًا شعرت بالرعب والفزع من ظهور (رامو) المفاجئ ، لكن في نفس الوقت كُنْتُ مسرورة جدًّا لرؤيته . أوضَحتُ له كل شيءٍ وشرحت له حالي ، وقد وافق مباشرة ودون تردد على دفن زوجي ، وشرع في حفر قبر في تربة الفناء الخلفي الناعمةِ . والتي لم تكن أيضًا تربة سطحية أو ضحلة .. فقد كانت أرض الفناء الخلفي عميقة . وفي ظُلمَةِ الليل البهيم حَفرَ (رامو) عميقًا بقدر استطاعته وبقدر ما كانت تستجيب التربة الناعمة ، وتوقف عن الحفر بمجرد أن بلغ نهاية طبقة التراب الناعمة خوفًا من أن يسمع أحد « التشيتنيك » صوت الحفر في

التربة الصلبة . أنزلنا جسد (مهيو) إلى القبرِ وشرع (رامو) في تلاوة الدعوات والصلوات – المناسبة لدفن الموتى وغير المناسبة – ثم أخبرني بأننا يَجِبُ أن نَتْرُكَ القريةَ ونغادرها سريعًا . أخبرته بأنني لا أَستطيعُ تَرْك نسيبي (فريد) ، سَألني : وما الذي يمنعه من الهرب ؟ أَوضَحْت له أنه مشلول ولا يمكنه الحركة ، أجاب : حَسنًا ، أنا لا أستطيعُ حَمْله فهو حملٌ كبيرٌ جدًّا ، قلت له : أبدًا لم يعد (فريد) ثقيل الوزن كسابق عهده ، بل إنه نحيل كقرنِ الفُولِ أو البازِلَّا . لَكنَّهُ لا يُرِيدَ أن يترْك البيتَ ، يقُولُ : إن أيامه معدودة على كل حال .

أجاب (رامو) : حسنًا ، أنا لم أقصد وزن جسمه ، قَصدتُ القول بأن (فريد) نفسه رجل صعب المراس . ولكن إن كان هو لا يُرِيدُ أن يترك البيتَ ، فليس عليه أن يفعل ذلك . قال ذلك ثم أضاف : تعالي مَعي ، سنرحل في الليل . قلت له : أنا لا أستطيعُ المشي في الظلام ، كما أنني بطيئَةَ أيضًا ... اذهب أنت ..عليك أن تَمْضي في طريقك .. وأنا سَأمضي بنفسي . وشكرًا لك على كل حال .. فقط دلني على الطريقِ الذي أسلكه للذهاب إلى (سربرينيتسا) .

أجاب قائلًا : كما تشائين ، تَذْهبِين عبر هذا الطريقِ ، ثم على طول ذلك الطريقِ ، وبعدها ذلك الطريقِ ، كان يَشرح ذلك وهو يُشيرُ بيده خلال الظلام ، ثم قال وهو يغادر : عندما تُصادفِين شجرة الزانِ ، التي لَها فَجْوَة بحجم بوَّابَة ، اسْتَرسِلي جِهَةَ اليَمِين ، قال ذلك وَغادر المكان ، وقد نسي أن يأخْذ الطعام الذي أعددتُه له . سألت نفسي هَلْ يَجِبُ أنْ أناديه ؟ أَردت أن أفعل ذلك ، لكني خَشيت إن فعلت أن يبدأ « التشيتنيك » بإطْلاق النَّار مِنْ فوق على إثر صوتِه .

هكذا سارت الأحداث وذاك ما كانَ ... ثم بدأ نور الصباح يبزغ ويخترق العتمة .. تسللتُ قاصدةً بيت (فريد) .. كان القصف قد توقف في ذلك النهار ، ربما لأن الوقت كان ما زال مبكرًا بالنسبة لهم ، أخبرتُ (فريد) بأن (مهيو) قد دُفِنَ ، وأن عصابات « التشيتنيك » تحاصر القريةَ من كل اتجاه وبأن القريةَ مَهْجُورة وأنها خالية تمامًا الآن . أخبرتُه بأنني جِئتُ لأعرف ماذا يقول ؟ أجابني : أقُولُ كما قُلت لك من قبل . عليك أن تغادري القرية ، اتْركيني واهربي .. امضي يا (زيرينا) وأنا أسامحك على كل شيء .. لقد سامحتك وأغفرُ لك كل شيءٍ في هذا العالم وفيما بعد .. لا تثريب عليك بعد الآن لا في الدنيا ولا في الآخرة .. لقد

سامحتك تمامًا .. لقد انقضى عمري يا (زيرينا) وحلَّ أجلي .. لا تقلقي بشأني .

طلبت منه ألا يفقد الأمل وألا يَستسلمَ . قلت له : إن اللَّه يدخر لك المزيد مِن الأيام المباركة ، لا تَستسلم ! ، كنت قُلتُ له ذلك ، لكنَّه كَانَ عِنْدَهُ رأيه . وقال مرة ثانيةً : إنني يَجِبُ أنْ أذهبَ ، استمرَّ بإخْباري بذلك كما يفعل شخصٌ طبيعيٌّ تمامًا ، وقد كان كذلك بالفعل ، وإن لم تكن تلك هي الطريقة التي رآه الناس بها ، فقد كان الناس ينظرون إليه كما لو كان أبلهًا مُختلًّا .. لكنه لم يكن كذلك أبدًا ولم يكن معتوهًا كما رآه الناس . ولكن ما الأذى الذي يُمْكِنُ أن يُسببِّه بساطه السحري لأي أحد ؟! أي أذي ؟ لا شيء ، إنه لم يلحق الأذى بأي إنسان ولم يرتكبْ أيَّ فعل خاطئ بحق أحد .. رحمه اللَّه وأسكنه فسيح جناته .

ما الذي كان بوسعي أن أفعله ؟ إن من عادتِنا الاستِماع إلى نصائحَ المسنينَ والأكبر منا سنًّا . لقد سامحني (فريد) ، لكنِّي فَتحتُ فَمِي لأسأله السماح مرة ثانيةً ، كنت أبحث عن كلمات أكثر لأقولها .. سألته من جديد فقط لكي أجد شيئًا أكثر أبدد به ثقل تلك اللحظات الخانقة .. هل سامحتني يا (فريد) ؟ لم يُجبْ .. ولم ألتفت إليه ولمْ أستدرْ بحيث يُمْكنني أن أسْمعَ رده ... لا يمكنني أن أكذِب وأدعي بأنَّني فعلتُ ذلك .. ولستُ أدري ما إن كانت روحه قد غادرت جسده بالفعل في ذلك الوقت أم أنه لم يرغب في تكرار الكلام الذي قالَه . لكنني أظن بأنني رُبَّمَا سَمعتُ سُعْلَة أو شيئًا مشابهًا بينما كُنْتُ أغادر وأَتْركَ البابَ خلفي منفرجًا ومفتوحًا بشكل جزئي . لِهذا اعتقدت بأنَّهم أحرقوه حيًا .لكنَّهم لم يكونوا قد فعلوا ذلك بعد . فقد عُدتُ إلى بيتي أولًا . وَأخرجت الـ « كات » المفضل بالنسبة لي من قاع السحارة [1] الخشبية وارتديته ، ثم وَضعتُ على رأسي وشاحَ الرأس المزركش والمزين بالتطريزِ وهو خماري المفضل . وبعد ذلك حَللتُ البقرةَ والعِجلةَ وتَركتُ باب الحَظِيرة مفتوحًا لهما ، ثم شَققتُ طريقي إلى أسفل الحديقةِ .. أجر قدمًا وأسْحَب الأخرى . في البداية كانَ الطريق شديد الانحدار ومرهقًا جدًا بحيث لم أستطع أن أسرع ، كانوا قد بدوا بإطلاق النار بجنون من أعلى باتجاهي مباشرة .. كان الرصاص ينهمر كزخات مطر غاضب .. والطلقات ترشق المكان الذي كنت فيه من كل جانب ... انظر إليَّ ، هل يمكنك أن تقول لي ما الذي كَان

(١) صُنْدُوق يشبه العُلْبَةَ الكَبِيرَة يستخدم كخِزَانَة للملابس والأغراض الثمينة - (المترجمة) .

بوسعي أن أفعله ؟ وقعت في حيرة .. إلى أين يمكنني الذِّهاب ! أوه ، يا إلهي ! على أية حال ، أنا لَمْ أكن أرغب في الحياة وأيضًا لم أرد المَوت . تضرعت إلى اللّٰه :
يا إلهي يا لطيف بعبادك ألهمني ماذا أفعل ؟

وبعد ذلك ، جَلستُ على الأرض مباشرة .. جَلستُ بارتياح تمامًا كما كان بوسع أي شخص أن يَجْلسَ بارتياح على تلك الأرضِ المنْحَدِرةِ التي تقع أسفل بيتِنا . لمْ أحس بأنني كُنْتُ قَدْ أصبت ؛ لذا هدأت وشعرت بقدر من الراحة ... وعلى الرغم من أنني كنت هدفًا مكشوفًا لأولئك الصرب ، إلا أنني أخذت من الوقت ما يسمح لي بأن أدخن سيجارة في هدوء وسلام ... كنت قد ورثت عادة تدخين التبغِ [١] عنْ أمِّي .... مكثت هناك الوقت الكافي لتدخين سيجارة .. لا أدري كم عدد السجائر التي يُمْكِنُ أن يُدخِّنَها الفرد في تلك الفترة من الوقت عندما لا يكون في عجلة من أمره .. لكنني جَلستُ تلك المدة هناك ... ثم رَفعتُ نفسي إلى أعلى قليلًا .. ما زالوا يُطلقون الرصاص مباشرة باتجاهي .. كانوا يصوبون عليَّ بحقٍّ ... أَخذتُ خطوةً أخرى أو اثنتين ، وأصبحت خارج نطاق رؤيتهم .. فقد اختفيتُ في الأسفل ولم يعد بإمكانهم أن يبصروني بعد أن احتوتني الأرض المنْحَدِرة . لا يمكنهم أن يروني الآن .. لم أعد أشعر بالرصاصات وهي تخترق ثيابي الفضفاضة وخماري الذي أضعه على رأسي ، لَكنِّي كنت لا أزال أستطيع سماع صوت إطلاق النار حينما كُنْتُ أنحدرُ نحو جدول الماء الصغير .. وحتى عندما كُنْتُ أَتسلَّقُ التل على الجانبِ الآخرِ للجدول كان يمكنني أنْ أسْمعَ عِواء تلك الطلقات الضارية .

عندما وصلتُ إلى قمةِ التلِّ ، كانوا يعربدون في قرية (أوجاك) .. بعد أن هبطوا إليها وقبل أن أتدلى بسرعة صوب (سربرينيتسا) ، عند شجرةِ الزانِ المجوَّفةِ مباشرةً ، رَأيتُ بيتَ (فريد) وسط ألسنة اللهب .. كانت النيران تلتهمه بضراوة .. رحمه اللّٰه وأسكن روحه الجنة ، كانوا قد أشعلوا النيران في بيته أولًا ، بعد ذلك كانت كُلُّ البيوتِ مُشتعلة ككتلة واحدة من الجحيم ، لَكنَّهم أضرموا النيران في بيت (فريد)

---

(١) التبغ (Tobacco) : نبات من الفصيلة الباذنجانية Solanaceae ، موطنه الأصلي أميركا ، ومنها انتقل إلى أوروبا عام (١٥٥٦م) ، يتراوح ارتفاع شجيراته بين ٩٠ سنتيمترًا وثلاثة أمتار ، أزهاره قرنفلية اللون وأوراقه خضراء مصفرة يحوي مادة النيكوتين السامة ، وزيوتًا طيارة تعطيها الرائحة الخاصة بالدخان - (المترجمة) .

ليحترق هو أولًا . أعتقدُ بأنَّهم وَجدوه حيًّا ؛ لذا أرادوا حرق بيتِه أولًا . وهذا ما حدث هناك ... » .

« هناك ... » .. وبكت السيدةُ الأناضوليةُ وانتحبت بشكل هادئ .

قلت لها : « لا . لا تبكي .. إنها لَيسَت عادتنا أن نبكي على من غيبهم الموت عنا ، ولست أدري ما إن كنت قد ورثت تلك العادة عَنْ أمِّك مُنْذ عهد بعيد وجلبتيها معك ولم تتَنَازَلي عنها . لكن لَيسَ من التقاليد البوسنية أن نبكي على من فارَقَ الحيَاة . وإذا كُنْت قد استطعت بحكم التقاليد والعادات أن تعتكفي طوال الليل تحت أقدام زوجكِ الميتِ إلى أن يتم إخراج جثته من البيت ، فبإمكانك أيضًا أن تتجلدي وأن تلزمي نفسك بالكف عن البُكاء . لا تتَخَلي عن التقاليد ولا تتجاهلي العُرْف .. واحمدي اللَّه لقد كُنْت في الجحيم ، واللَّه تعالى سلَّمَك وحفظك مِنْ نيرانِه . لا تسمحي لنفسك بأن تنكر أيًّا مِنْ نعم اللَّه أو أن تجحد أيًّا من الجوائزِ السماويةِ لأجل مسألة تافهة ! » وبينما كانت تَتجه إلى الساحةِ الأماميةِ ... لتتمكن بالكاد من فتح البوابة قالت وهي تَدْعوني بحركةِ يدِها لأتبعها :

« آه يا عزيزي (مَرجَان) .. ! أنت وأنا فقط هو كلُّ ما تبقَّى من عائلة (جوزو) في هذا العالمِ !! » .

وفي الغرفة اليتيمة التي تَركَها اللاجئون لها .. غرفتِها الصغيرةِ التي تعرف في البيوت البوسنية باسم « الغرفةِ الصغرى » .. أخرجت عمَّتي مِنْ تحت الوسادةِ ، كومة من الملابس المهلهلة ، كانت عبارة عن البقايا الرثَّة لبدلتها التركية المَمَزَّقَة وخِمارها المخرَّق .. تلك الحثَالَةَ المهلهلة هي ثيابها التي كانت ترتديها بينما كان « التشيتنيك » يحاولون قَتْلها برصاصاتهم المجنونة !!

إن كان هناك شيء واحد أَعْرفُه وأستطيع تمييزه وسط تلك الكومة المتَهَرِّئة .. فهو شكل العلامة التي يتركها الرصاص على الملابس ، وحتى إذا لَمْ أتمكن من التعرف على أثر الرصاص على الملابس ، فكل ساكني (سربرينيتسا) يألفون تلك العلامات ويعرفونها جيدًا .. وليس هناك شخص واحد في (سربرينيتسا) لا يعرف منظر آثار الرصاص على الملابس ، فقد كانت طلقات الرصاص أقرب إلينا مِن القمصانِ التي على ظهورنا . كانت تلك القمصان أدق خيط في العالم يَفْصلُنا عن الموتِ . وما من

شَكٌّ مطلقًا بأنَّ سروال عمَّتي الفضفاض وبلوزتها وخمارها وكل شيء آخر كَانَ على جسدها قَدْ تمزَّقَ وتحول إلى خيوطٍ بفعل الرصاصِ . فأثناء الفترة القاسية والموْجِعة جِدًّا التي قضتها في (أوجاك) ، وخلال هروبها المهْلِك مِنْ البيتِ ، كانت عاصفة من الرصاص قد اخترقت ملابسها .. كان الرصاص يحتشد حول جسدها كسِرْبٍ مِنَ النَّحْلِ أو الجرَاد .. دون أن تخدشها واحدة منها .. كان ذلك معجزة حقيقية من اللَّه !

إنه اللَّه ، هو العليم وهو القادر ... هو وحده القادر على كل شيء وهو وحده يعلمُ كل شيء .. ومن أنا ؟ لست إلا (مَرْجَان جوزو) الضعيف العاجز ، وكل الفضل يرجع إليك وحدك .. أنت سبحانك أنقذت تلك المرأة البوسنية العجوز مِن الموتِ الذي أراده لها أعداء مصيرنا واستبقيت ما بقي من جمالِها الأناضولي العتيق .. أتوسل إليك أن تترفق بها في البقية الباقية من عمرها ، وأتضرع إليك أن تمطرها برحمتِك في شيخوختها الخرِفة وأن ترحم بقيَّة وجودِها الشارد في هذا العالمِ .. هنا في (سربرينيتسا) . يا إلهي ! أنت سبحانك علام الغيوب ..ولا يخفى عليكَ شيء في الأرض ولا في السماء .. أنت تعلم ما إن كانت هذه الدقائق الأخيرة هي النَّفَسُ الأخِيرُ في حياة (سربرينيتسا) وما إن كانت (سربرينيتسا) ستلفِظ رُوحَها مع تلك الدقائق الأخيرة ، وأنت سبحانك تعلم ما إن كانت نهاية هذا العالمِ تزحف باتجاه (سربرينيتسا) وأنها باتت قريبة جدًّا منها !!

كنت قد مُنِحتُ قدرًا من المعرفة والفِطْنَة يُمكِّنني من أَنْ أدْرِكَ وأَتفهمَ ما يدور من حولي .. لِهذا كنت خائفًا على العمَّةِ (زيرين) ، فلست أدري ما إن كانت قد نجت من الموت بالفعل حين نجحت في الهروب من (أوجاك) كما تظن هي أم لا ؟! ولا أدري هل ستبقى حياتها مَحْفُوظة مَصُونة هنا في (سربرينيتسا) أم لا ؟ في الحقيقة لا أدري ما إن كانت بمأمن الآن كما تظن هي أم لا ؟

(زيرين) اسم معناه النرجس .. إذن عمَّتي هي « النرجسة » .

عمتي زهرة النرجس !! .

* * *

مِنْ خارج البيت ، كان جاري (شعبان) يضرب بإبهامِه على قطعةِ الزجاج

الوحيدةِ المتبقية في إطارِ نافذةِ غرفتي المزينة بالفسيفساء . فقط جاري (شعبان) يَعْرِفُ كَيفَ يَدق على الجزءِ الزجاجي الوحيدِ من النافذةِ المغطاة بالنايلون ، كانت طرقاته تُحْدِث صوتًا مكتومًا على قطعةِ الزجاج اليتيمة المتَبَقية في إطار نافذتي .

أَجبتُه بنَقْرَة من الداخل ..

دخل ليُخبرَني بأنَّ الأمور لا يُمكنُ أَنْ تَكُونَ أسوأ مما هي عليه الآن . قال لي : « لقد أصدرَت قوات الحماية الدولية لحراسِنا أمْرًا بالترَاجُع والانسحاب عن خَط الدفاعِ الأول والتَنَحّي عن مواجهة عصابات « التشيتنيك » الصربية » .

على أية حال ، لم يَعُدْ ذلك خط دفاعنا الأولَ بعد أن أخلى جنودنا مواقعهم في الخنادقِ واستسلمُوا فور تلقيهم لنفس الأمر سابقًا .. وبقينا بدون أي جيش في الخنادقِ ، والآن باتت عصابات « التشيتنيك » تمتلك مَمَرًّا حرًّا وطريقًا ممهدة لغزو المدينة بعد أن تم إخلاء الطريق أمامهم من أي مقاومة . وبإمكانهم الآن التنقل عبر الطرِيق الآمنة مِن الأرض العالية المشْرِفة على المدينةِ . حيث تُسَيْطِر الأرض المرتفعة وتُهَيْمِن على الموقف ، وحيث يكون المتر في هذه الحالة أطولُ مِن الكيلو متر .

سألتُ (شعبان) :

– « كم الوقت الآن ؟ » .

– « الثانية أو الثانية والنصف .. ، ورُبَّمَا حتى الثالثة .. » .

– « بعد الظهر أَم بعد منتصف الليل الماضي ؟ » .

– « لا يُهِمُّ » .

– « أَسْأَلُ لأعرف ما إن كان الوقت يمر بشكل عكسي ، فأنا لم أسمع صياح المجموعة الأولى من الديكة التي كانت تصيح دائمًا قبل هذا الوقت .. وكان لا بد أن تصيح المجموعة الثانية أيضًا ، فقد مضى الوقت الذي يُفترض فيه سماع صيحات المجموعة الثانية أيضًا » .

– « أنت أيضًا تَستمعُ إلى الديكةِ وتترقب صيحاتهم ؟ »

– « نعم .. كُلَّ لَيلة .. أَستعملُ الديكةَ لضبط الوقتِ وتَحديد الزمن الصحيحِ ؛

لذا شعرت بالاضطراب والإرباك عندما لَمْ أَسْمعْ صياحهم . ولِهذا فأنا مشوَّش ومُضْطَرِب لأنني لا أستطيعُ أَن أعرف الوقتَ بالضبط » .

- هذه الليلة لَنْ يكون هناك ديكة ؛ لِهذا اختفت صيحاتهم .. وحتى إذا نجت الديكة وتمكنت من معرفة الوقت بالضبط الصحيح للبدء بالصياح .. فلن يتمكّن أحد مِنْ سماع صيحاتهم ، لن يبقى أحد في المدينة ليسمعهم .

سألتُ (شعبان) :

- « تُرى ما الذي سَيَحْدثُ لنا ... ؟ »

- « سوف نهلك ما لم تتدخل قوات منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو NATO) وتَقْصفُهم ، ستكون تلك نهايتنا لا محالة .. أجل ..هكذا بلغ بنا الحال .. لقد أرغمنا على هذا الوضع .. وأودت بنا الأحداث إلى هذه الحال .. وما لم تردعهم قوات منظمة حلف شمال الأطلسي فقد انتهينا » .

- « هَلْ تَعْرفُ متى سَيَقْصفونَ ؟ متى تنطلق طائرات الناتو - قاذفات القنابل - لتلقي القَنَابِل عليهم ؟ » .

- « في الساعة ستمائة [1] .. أي عند الساعة : ستَّة - صفر- صفر (٦,٠٠) » .

- « شعبان .. أنا أَعْرفُ بأنَّك لا تَدري متى سَيَقْصفونَ ، لكنني أَسْأَلك لكي أخبرك أن متى سَيَقْصفونَ » .

- « متى ؟ » .

- « عندما يصبح يوم الجمعة اليوم المقدَّس عند المسيحيين » .

- « غدًا الجمعة ؟ » .

- ثم تابع بمنتهى الجدية « إذا تَزَحْزَحَ الصرب بوصة واحدة ، عندها ستصل الطائراتُ في الساعة ستَّة صفر- صفر (٦,٠٠) » .

- « واصل التمنِّي .. لا تطفئ شعلة أملك .. لكن تذكر أن غدًا هو الثُّلاثاءُ ليس إلا .. » .

هزَّ (شعبان) كتفيه بلا مبالاةٍ .. لم يَعْرفُ ماذا يَقُولُ ، تبعثرت كلماته وقال

---

(١) الساعة ستمائة بلغة العسكريين تعني الساعة السادسة صباحًا حيث تُقرأ رقميًا (٦,٠٠) - (المترجمة) .

بشكل متفكِّك وغَيْر مُتَنَاغِم :

- « جِئتُ فقط لأخْبرك لعلك تهدأ وتطمئن فترقد قرير العين مطمئن البال وتَنَام بسلام .. أعْرِفُ أنَّك لا تَستطيعُ حتى مجرد التفكير بالنوْم ، لكن على الأقل ، لَنْ يتوجب عليك النهوض مبكرًا للقيام بمناوبة الحراسة الأولى وأداء واجبك كرَقِيب » .

- « تدَّعِي قوات الحماية الدولية بأن زمام الأمور في قَبْضَتها ، وتزعُمُ أن الوضع تحت سَيْطَرَتها ونُفُوذها كليًا وأنها تضْمنُ الحِمَايَة الكاملة وتتَعَهَّد بالأمَان التام لسكان (سربرينيتسا) .. لكنني أقول لك : إن حراسنا قد أرغموا على الانسحاب بناء على طلب قوات الحماية الدولية الصريح والواضحِ لهم بالتراجع والانسحاب .. وأنهم ما لم يستجيبوا للأمر ويتخلوا عن مواقعهم ، فإن قوات الحماية الدولية لا تَتَعَهَّدُ بأية ضَمَانات ولا تتَكَفَّلُ بأية رِعَايَة ، أو وِصَايَة ، ولا تلْتزم بمَسْؤُولِيَّة ؛ وبالتالي فلن تكون عرضة للمحاسبة أو المساءلة وتذرعوا بأن الصرب قد يُبرِّرون عدوانهم بالاستفزازاتِ الإسلاميةِ المسلَّحةِ . ولكن بعد أن يتقهقر حراسنا ويتراجعوا فلن يبقى لهُمْ عذر .. وبهذه الطريقة يمكننا أن نبطل حجتهم ؛ وبالتالي سنوقف زحفهم واكتساحهم لأرضنا .. وعندها .. يُمْكِنُ للبوسنيين مِنْ سكان (سربرينيتسا) - الذين سيَمُوتون حتمًا - أن يُلقوا التحِيةَ والسَّلامَ على مقرِّ الأمم المتحدة عند النهرِ الشرقي .. هَل تَفْهمُ يا (شعبان) لقد قُدِّرَ لنا أن نموت دون أن يكون لنا الحقُّ في تقديم حياتِنا فداء لـ (سربرينيتسا) ... دون أن تكون لدينا فرصة لمنحها أرواحنا ؟! (شعبان) .. هَلْ تَفْهمُ ؟ ثلاثة فيالق عسكرية مِنْ صربيا بالإضافة إلى كل صربي مِنْ صرب البوسنة وكرواتيا يقدر على الوُقوف على قدميه ، هؤلاء جميعًا زحفوا نحو (سربرينيتسا) كل هؤلاء هبطوا كالسيل باتجاهها !! تتقدم الطريق أمامهم مائة دبابة ، ومن خلفهم ترسانةُ مدفعيةِ الجيش اليوغوسلافي بأكملها . ثم يُخبرُنا ممثلو الأمم المتَّحدةَ بأننا لا نَستطيعُ الدفَاع عن أنفسنا !! إنَّ أقرب الأرضي البوسنية غير المحتلة تبعد ثمانين كيلو متر عَن هنا . ولكن ما فائدة ذلك ؟ إنهم لا يَسْمحونَ لنا بالدفَاع عن أنفسنا ؛ لأن (سربرينيتسا) تقع تحت حمايةِ الأمم المتَّحدة . والقواتِ الهولندية تَزعم أنَّها مسؤولة عن حمايتنا وتدعي أنها موجودة هنا بغرض الدفاع عنا . لكنهم لا يُدافعونَ عنا ! الشيء الوحيد الذي سيفعلونه هو منعنا من أن نموت هنا .. لن يَسْمحُوا لنا بالموت هنا . ولا يُمْكِنُنا أن نتلمس العَطْف ورِقة القَلْب من الجلاد ،

أو أن نَطلب الرَّحمَة واللُّطف مِنْ مُنَفِّذِ حُكم الإعْدام . والخيار الآخر الوحيد المُتاح أمامنا هو التقدم باتجاه الأرض البوسنية الحرة غير المحتلة والتسلل إليها ، إنَّ « حلبة الموت » تنتقل مِن (سربرينيتسا) ... حيث يتحوَّلُ الجلادون إلى مُطَارَدَة سكانها الذين ستتعقبهم ذئاب « التشيتنيك » الضارية أثناء مسيرتهم البائسة نحو (توزلا) ... ستتحرك « حلبة الموت » باتجاه (توزلا) حيث ستبدأ قوات « التشيتنيك » مُتعة اصْطِياد تلك القطعان المذعورة الهاربة من الموت إلى (توزلا) يا له من صيدٍ سهل ومُسلٍّ !! » .

* * *

عندما قام الإمبراطور (نيرو) [1] بحرق مدينة (روما) عن بكرة أبيها وتركها

---

(١) الإمبراطور نيرو (Nero) أو نيرون : ولد عام (٣٧ للميلاد) . وتوفي أباه وهو في الثالثة من عمره وربته أمه ، وكان فقيرًا ولكن ذلك تغير عندما تزوجت أمه ، (أجريبنا Agrippina) من الإمبراطور (كلوديوس Claudius) وأقنعته أن يتبنى ولدها (نيرون) . وقد تتلمذ (نيرون) على يد الفيلسوف المشهور (سنكا Seneca) وأصبح مرشحًا محتملًا ليرث عرش الإمبراطور . وفي عام (٥٤) دست (أجريبنا) السم لـ (كلوديوس) في الفطر - أكلته المفضلة - وقتلته . ومنذ ذلك الحين أصبح (نيرون) إمبراطورًا وهو في السابعة عشرة واستمر حكمه حتى عام (٦٨) . وفي بداية عهده كإمبراطور عرف (نيرون) بتسامحه وكرمه وحسن إدارته ؛ ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال واختفى هذا الجانب منه بعد أن قتل أمه (أجريبنا) التي اتهمت بالخيانة عام (٥٩م) . ومنذ ذلك الحين عرف بظلمه واستبداده واستغلاله لقوة الحكم في البطش وسوء الإدارة . اهتم كثيرًا بمتاع الحياة وكان يأمر بمصارعة العبيد حتى الموت للترفيه عن نفسه وأحب الحضارة اليونانية ، وكان يزور اليونان كثيرًا ويمكث فيها فترات طويلة ليشارك في الأمسيات الشعرية والغنائية والمباريات الرياضية . وفي عام (٦٨) تقريبًا رجع (نيرون) من رحلة طويلة إلى اليونان ليجد أن شعبه قد ملَّ منه وسئم من سعيه وراء ملذاته الشخصية وإهماله لإدارة الإمبراطورية . وكانت هناك عدة محاولات لإزاحته ، وقد قضى على بعضها ؛ ولكن حكم (نيرون) وصل إلى نهايته في عام (٦٨م) بعد أن وضع هو حدًّا لحياته (طلب من خادمه أن يقتله مقابل أن يعتقه) . ولا شك أن الحريق الذي شبَّ في (روما) عام (٦٤م) ودام ٩ أيام ، كان من أهم الأحداث في فترة حكم (نيرون) . ومن الثابت تاريخيًا أن حريق (روما) شب يوم (١٩/٧/٦٤م) . ولكن لا يوجد أي برهان تاريخي يُؤكد من كان وراء احتراق (روما) . ولكن هناك ادعاءات بأن (نيرون) هو الذي قام بحرق (روما) ، وأمر بعد ذلك ببناء (روما) الجديدة ، وبني له قصرًا ضخمًا أطلق عليه القصر الذهبي و الدوافع والتفاسير متعددة :

١ - لرغبته الجامحة في التفرج على هلع واضطراب أهل (روما) وهروبهم منها ، ومن المعروف أنه كان

قاعًا صفصفًا .. كَان ينوي إقامة (روما) جديدة مكانها .. مدينة من الرخام والفضةِ والذهبِ .. عوضًا عن (روما) القديمة .. وحينما شرع في إحراق (روما) لم تكن القصائد الشعرية هي ما تهمه في ذلك الوقت كما يقترح مؤلفو القصص المختلقة التي رُويت عن (نيرو) بعد ذلك .. بل كان تشييد المسْتوْطنَة الجديدة هو كل ما يشغله في ذلك الوقت .. كان مُستغرقًا في تحقيق حلمه بإنشاء مُسْتَعْمَرَة (دومافيا) ... أكبر مَنْجَم للذهب والفضة [1] في الإمبراطوريةِ .

لكنها كانت ساعة نحس .. كَانَت الإمبراطورية الأعظم في العالم تَنهار .. كَانَ الدهْمَاء الغَوْغَاء [2] يَعْبثُون في (روما) بوَحْشِية وهَمَجِية ويتيهون بها فسادًا .. لم تكن

يعاني حالة من عدم الاستقرار في طفولته ويقال : إن (نيرون) كان يعزف بآلة الكمان على خلفية احتراق روما ، ولكن بعض المؤرخين يستبعدون ذلك ويقولون : إنه لم يكن بإمكانه العزف على الكمان ؛ لأن هذه الآلة لم تكن موجودة آنذاك وتم ظهورها حوالي عام (١٥٠٠ للميلاد) ، وحسب رأي هؤلاء أنه كان يغني فحسب دون آلة .

٢ - لأنه أراد أن يبني (روما) من جديد ليخلد اسمه ويبني قصره الشهير - القصر الذهبي . ولكن من الثابت تاريخيًا أن الحريق أتى على كل البيوت الخشبية لروما كما أنه أتلف جزءًا كبيرًا من القصر الإمبراطوري لنيرون نفسه .

٣ - أراد أن يُلصق هذه التهمة بالمسيحيين ، وقد عرف نيرون مدى كراهيته للمسيحيين ؛ ولذا قام بإحراق روما ليجد عذرًا لمطاردتهم والبطش بهم بتهمة إحراق (روما) .

ويرى المدافعون عن الإمبراطور (نيرون) أن هذا الاتهام جاء من قبل النبلاء الغاضبين على (نيرون) ، والذين فرضت عليهم إتاوات باهظة لتمويل وإعادة البناء وتذهب بعض الدراسات التاريخية إلى أن اليهود المتمسحين المتعصبين الذين كانوا يقطنون في (روما) هم وراء الحريق المهول الذي شب في تلك الليلة لأن « على بابل العاهرة أن تحرق » كما ورد في إحدى نبوءات العهد القديم . ولا يزال الخلاف قائمًا حول ما إن كان (نيرون) هو الذي أحرق روما أم لا ... وعلى الرغم من أن بعض المصادر التاريخية تقول : إن (نيرون) قام بعد الحريق بسن قوانين جديدة للبناء تراعي مواد البناء المستعملة حديثًا ووضع مقاييس جديدة لترتيب شوارع (روما) إلا أن التهمة التصقت به وأصبح يعرف بحارق (روما) ، ومن الطريف أن برنامج الكمبيوتر الشهير نيرو (Nero Burning Room) الذي يستعمل لحرق (نسخ) الأقراص المضغوطة (CD) قد استوحي اسمه من (نيرون) المتهم بإحراق (روما) - (المترجمة) .

(١) كانت البوسنة أثناء العصور الوسطى أرضًا غنية تنعم بالثروات المتعددة . وكان مفتاح ثروتها هو المعادن والمناجم ، بيد أن المصدر الأكبر للثروة كان معدن الفضة ، وأهم مناجم الفضة كانت في سربرينيتسا (الاسم اللاتيني لسربرينيتسا معناه الفضة) - (المترجمة) .

(٢) حُثَالة المجتَمَع من الأَوْباش والرَّعَاع - (المترجمة) .

الإمبراطورية وحدها عرضَة لِلْخَطَر ومهددة بالهلاك ، بل كان الإمبراطورُ بنفسه أيضًا على شفا التهْلُكَة ... ولم يبق في الإمبراطورية بأسرها حبة قمح واحدة لإطعام الناس .

في ذلك العَهْد كان فائِض الذهب والفضة يُرسل من (سربرينيتسا) إلى مصر بواسطة قافِلَة مكونة من العرباتِ السَّرِيعة خَفِيفة الحرَكةِ ، حيث يسير المَوْكِب على طول الطريقِ المؤدي إلى مستعمرة (دوبروفنيك) [١] ، وبعد ذلك كانت القافلة تُلحق بالسفينة السريعة التي كانت تتبع أسْطُولًا بحريًا كَانَ في طريقه إلى مصر [٢] .

وما أن وَصلَ قائِدُ الأُسْطُول إلى مَقْصِده وبلغ المكان الذي تنتهي إليه الرحلة ، حتى سمع بحقيقةِ المجاعةِ المروِّعةِ في العاصمة ، وقد عِلمَ بالسقوط المتوقع للإمبراطوريةِ بعد أن لَحِقَت بأسطوله السفينة المحملة بفائِض الذهب والفضة . فكتبَ تقريرًا وقدَّمه إلى المدافع الرسمي عن الحق العام وحقوق الشعب وسَألَه ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك ؟ هَل يُحمِّل السُّفن بالرمل لكي يُنْثَرَ على أرضِية حَلْبَة المصَارَعة في مَلاعِب « سيرك مايمس Circus Maimus » .. السيرك الأكبرِ في رُومَا القَدِيمَة ؟ وهو الأمر الذي استلمَه قَبْلَ أن يبدأَ رحلتَه . أَم يُحمِّل السفن بالحنطةِ ، ليطعم الجائعين ؟ كَانَ ذاك هو المَسْلَك المنطقي والرأي السديد بالنسبة لَهُ .

ولكن المدافع الرسمي تَعَجَّب ، وانْدَهش كثيرًا لكون الضابط البحري الكبير صاحب أعلى رتبة في الإمبراطوريةِ الأعظم في العالم يُمكنُ أنْ يقع في مثل هذه الحيرة وأن يتردد لحظة واحدة في مُواجهة مثل هذا المأزِق وانفجر بغضب وغيظ شديد قائلًا :

---

(١) مدينة دوبروفنيك (Dubrovnik) : كانت تسمى قديمًا (راجوزه أوراكوز) . تقع على شاطئ البحر الأدرياتيكي ، وكانت هذه المدينة في الفترة من سنة (٨٠٦ - ١٢٢٤ للهجرة / ١٤٠٣ - ١٨٠٩م) عاصمة لجمهورية أرستقراطية ، وقد أثرت تأثيرًا كبيرًا في تجارتها مع الدولة العثمانية وهي تشبه قلعة كبيرة مبنية على شاطئ البحر - (المترجمة) .

(٢) بعد سقوط جميع أراضي الليريين (أقدم سكان البوسنة وكانوا مجموعة من القبائل الرعوية) في قبضة الرومان المهيمنة ، قام الرومان بتأسيس شبكة من الطرق والمستوطنات الرومانية وامتدت طرق عديدة عبر البوسنة من مدينة (سالونا) الساحلية ، ولم تكن الإمبراطورية بحاجة إلى هذه الطرق من أجل التجارة قدر احتياجها إليها لخدمة العمليات الحربية المتجهة بعيدًا نحو الشرق ؛ ولكنها كانت تستخدم أيضًا كطرق لنقل الذهب والفضة والرصاص التي كانت تستخرج من البوسنة الشرقية (حيث توجد سربرينيتسا) في العهد الروماني . (انظر كتاب : البوسنة تأليف نويل مالكوم وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م) - (المترجمة) .

- « ليس (نيرو) فقط من ذَهَبَ عَقْلُهُ ، أنتم جميعًا أصابكم الجنُون والخبَل ! هل تدركون حتى ما الذي يجري في مدينةِ (روما) ؟! الناس يَمُوتونَ جوعًا ، والجيش أوْشَكَ أن يتمَرَّد ويَخرج عَنِ الطاعَة ، والإمبراطورية الرومانية أوْشَكَتْ أنْ تتدَاعَى وتَنْهار كما يُقَوَّض بيت من البطاقاتِ الورقية ، ومن المتوقع أنَّ جنونَ الإمبراطور سَيتَأجج ويبلغ الذروة بسبب معاناة الناس المغضَبينِ ، وأنتم هنا تُهدرون الوقتَ في الترددِ ! امضوا على طريقِكم دون لحظةِ تأخير ! فبفائض الفضَّة والذهب يُمْكِنُكم أنْ تُوظفوا وتستخدموا عِدَّة آلاف من الرقِيق على السفينة الشراعية ويُمْكِنُ أن تُشحن حُمُولَتكم بالمزيد من المراكب والزوارِق الإضافيةِ ! لهذا ، فبدون أي تأخير ، قوموا بتحميل الرمال على الفور !! »[1] .

وفي تلك الآونة ، وعلى افتراض أنَّ الأمور في الأسطولِ على أرض مصر كَانتْ تَسِيرُ وفقَ الخطَّةِ ، كان الرسُل في كافة أنحاء (روما) ، يعلنون عن فعاليات السيرك ويُبشِّرونَ الناس بأن ألعابَ المصَارِع[2] أشهر الألعاب في رُومَا القَدِيمَة .. تلك الألعاب البهيجة الباهرة والأكثر روعةً في تاريخِ الحضارات الحديثةِ ستُنقل إلى (سربرينيتسا) حيث ستقام - حصريًا - في مَلاعِب « سيرك مايمَس Circus Maimus » :

« سوف يتصَارَع ثلاثمائة مصارع ويقتِلُونَ مع بعضهم البعض حتى الموت ، سَيُرْمى بألفٍ ومئتين من قُطّاع الطُّرق إلى الأسودِ المفترسة ، وستشمل العرُوض أيضًا القتال بين الفيلةِ والكَرْكَدناتِ[3] والثيرانِ والنمورِ المرقَّطة والخنازير البرية ، إضافة إلى الاستعراض الختامي ذو المتعة الخاصَّة ! ستهجم الحمير الوحشية على عشرين شابّةً في سن الربيع وتفترسهن حتى الموتِ . وسيكون الدخول مجانيًا باستثناء الصفوفِ الستَّة

(١) يُفترض أن تُحمل السفن بالقمح عوضًا عن الفضة حيث كانت الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت تصدر الفضة والمعادن إلى مصر ، وتعود السفن بالقمح ؛ ولكن صدر الأمر بتحميل الرمال لنشرها على أرض مسرح الألعاب الكبير الذي يقام لأجل الترفيه عن الإمبراطور وتلبية لرغباته ونزواته في الوقت الذي كان فيه سكان تلك المستعمرات الرومانية يعانون المجاعة ولا يجدون حبة قمح واحدة - (المترجمة) .

(٢) لُعبة المصَارِع (أو المجالِد أو المُنازل) : لعبة معروفة في رُومَا القَدِيمَة عبارة عن أسير يُقاتل حتى الموت لإمتاع الإمبراطور في حَلْبَة الموتِ بمَسْرَح المدرج الروماني ، وهو مَسْرَح تاريخي استخدم لمشاهدة الألعاب والمسرحيات الرومانية . والمقصود أن المصارع البوسني يموت من أجل الحرية على مَرْأى ومسمع العالم الذي يراقبُ موت المصارع كما يشاهد الإمبراطور والجمهور لعبة مصارعة الموت - (المترجمة) .

(٣) حيوان وَحِيدُ القَرْنِ أو الخرْتيت .

الأولى التي يتزاحم الناس عليها ويندر أن توجد فارِغة أو شاغِرة ، فتلك الصفوف ستكون مقابل رسوم بسيطة جدًا ، وستَكونُ جميعها مَحجوزة في الغالب » .

وهكذا سيتمكن خمسة وثمانون ألف وثلاثمائة من الرجال والنساء أصحاب الحظ السعيد من مَلْء أجنحةِ السيركِ العملاقِة ، وهم لا ينتظرونَ الآن سوى عودة الأسطولِ مِنْ مصر لكي تُنثر الرمال على أرضية الحلبةِ العملاقةِ التي ستبَدأ الألعاب فوقها .. ولم يُفكر أحد مجرد تفكير بشأن الحنطةِ ... فقط الألعاب .. الألعاب فحسب !!

وهكذا اختفتْ كُلُّ مشكلات الإمبراطورية الرومانيةِ . وحقق الشعب مُبتغاه وأحْرزَ الجمهورُ أمنيته .

سَيصِيح المصارعون وهم يَعْبرونَ المسرح الروماني وسيهتفون بينما يمرون أمَامَ منصة العرشِ الإمبراطورِي قائلين :

- « آف سيزر [1] .. السلام والتحية على القيصر ، أولئك الذين يَجِبُ عليهم أنْ يَمُوتوا يقرؤون عَلَيْك السَّلام والتحية ! » .

وبالمقابل سَيُحيِّيهم (نيرو) قائلًا :

- « أيها الأصدقاء الأعزاء هذا يَعتمدُ عليكم ! » .

- « أيها الإمبراطور طَيِّبُ القَلْب ، لو كان الأمر بأيدينا .. لما اشتبكْنا وتَعَارَكْنا مع بعضنا البعض ، وما كنا لنتقَاتَل ويقتُل بعضنا بعضًا ونهلك أنفسنا بأيدينا ! » .

* * *

- « يا ليت لنا مثل ما أُوتي أولئك المصارعين القُدامى .. لم يكن لنا نحن سكان (سربرينيتسا) ما كان لأولئك المصارعين .. لم نكن محظوظين مثلهم ... فنحن لم يُسمح لنا باتخاذ قرار الحرْب ، ولم يُتْرك لنا حرية الاختيار لم يكن لدينا حتى حقُّ الموت في حَلْبَة (سربرينيتسا) .. لم يكن قرار الجهاد بأيدينا .. هنا لم يُؤذن لنا بالاستشهاد على مَسْرَح (سربرينيتسا) .... فقد كانت (سربرينيتسا) تحت حمايةِ الأمم المتَّحدةَ .. لذلك فنحن لا نَمتلكُ الحق في الموت . أجل .. لقد تحول العالمُ إلى

---

(١) آف سيزر : (آف Ave) تعني السلام المريمي وهو تحية رومانية قديمة و (سيزر Caesar) تعني القيصر والمقصود : السلام والتحية على القيصر .

« سيرك مايمَس Circus Maimus » والدخول مجانًا بالطبع ؛ لأن الاشتراك في المحطات الفضائية مجاني في الدول المتقدمة ، فكُلفة تلك الاشتراكات يتم تسديدها وتغطية قيمتها من خلال الدعاية التلفزيونية والإعلانات التجارية . وخلال الفتراتِ الإعلانية وبين فقرة دعائية وأخرى سيتَابع سكان العالم عمليات مُلاحقة واصطياد سكان (سربرينيتسا) المذعورين .... وسيطلقون الزفرات الخفيضة بأنفاس مُتقطعة . وعلى الرغم من أن هذا هو العرض الأول لهذا النوع من مشاهد الموتِ ، وعلى الرغم من أن هذا هو أول نقل مباشر لعمليات قتل جماعية لمْ تُعرض قبل الآن ، فإن أنفاس مشاهدي التلفزيون سَتنفطر تلهفًا وشوقًا لمعرفة نوع المنتج الذي سيتناوله الإعلان التجاري التالي .. أجل ، ستنقطع أنفاس المشاهدين أثناء ترقبهم المتَلَهِّفِ للإعلان التلفزيوني القادم !! » .

– « أوه ، أنت رجل طَيِّبُ القلب وحسن الظن » .

قالها جارِي (شعبان) وهو يربت على كتفي تَرْبِيتَة خفيفة وتابع قائلًا :

– « كنت تعرف دائمًا كَيفَ تلين مخارج حَدِيثك وتلطف حِوَارك . وها أنت الآن تَشُكُّ حتى في ذمة منظمة حلف شمال الأطلسي ولا تثق بعهودها ! » .

* * *

ولم تكد تمر عشْر دقائق بعد مغادرةِ (شعبان) حتى صاح الديك الأول . ديك واحد فقط . ديك وحيد . هو ذاته الديك الذي ذكرته قبل الآن .

ما زالَ جمود الليل يخيم على المكان .. والسكون المميت يواصل بقاءه بعزم وعناد .. غرقنا في كيمياء السكون المطلق ..

يغشَى الموتُ سماء (سربرينيتسا) كغيمة حبلى بالشُّؤُوم .. إنه يَزْحفُ خلال هواءِها كضَبَابِ رَقِيق يَمْلأُ وادي (سربرينيتسا) .. ويُنذرُ بالشَّر والبلاء ... يُنْبِئ بِالنحس !!

* * *

(سربرينيتسا) اليوم أكثر شَبَهًا بقبرٍ مفتوح .. إنها تشبه بقوة شكل القبر المفتوح .. بل إنها لا تشبه أي شيء أكثر من لحد كبير يفتح ذراعيه !!

لم تخطر ببالي مثل هذه المقارنةِ قبل الآن . لكنها مقارنة حقيقية وأصيلة . أصالة الموت للإنسان .. الموت هو الحقيقة الوحيدة في حياة الإنسان التي يمكنه التحقق منها ، والحقيقة الوحيدة التي بوسع الإنسان الإمساك بها والقبض عليها واسْتِيعابها .. إنه الحقيقة الوحيدة القابلة للفَهْم في هذا العالم .

(سربرينيتسا) بلدة مُحاصرة بإحكام بواسطة التلالِ من كل جانب ، لذلك فهي تحمل ملامح لحدٍ كبير . حيث تمثل (سربرينيتسا) الفتحة المطَوَّلة لذلك اللحد المحاصر بالتلال من جميع الجهات .. إنها ذلك اللحد وقد فَغَر فَمه .. نعم هكذا بدت (سربرينيتسا) كقبر فاغِر الفم .. كتَجْوِيف أو ثغرة بين مَشَارِف التلال حيث يتجمع حول وادي (سربرينيتسا) حَشدٌ من الجبال الضخمة يجعلها تبدو كما لو كانت صدعًا أو شقًّا طوليًا بين التلال والكتل الجبلية ، إنها محاطة بالكتل الرئيسية لكل من جبال (درفيتاك) و (رومانيا) و (يافورا) و (شوشيتسا) و (تارا) ، بوديانِها المتشابكة وظهورِها المتصدِّعَة .. وكأن تلك الجبال قد تصدعت لتفسح المجال أمام تلك التلالِ البوسنيةِ المبعثرة على نحو بَرْبَرِيٍّ ومُتَوَحِّش .

ومِنَ المحتَمَل أيضًا أن قاع نهر (درينا) كان قد شُق هنا ، وأنه كان من المفترض أن يجري النهر من هنا في هذا المكان وأن يكون مجراه من هنا ، ولكن وجود البقعة التي ستقوم عليها (سربرينيتسا) أرغم النهر على التراجع للخلف حين أدرك أن الموقع الذي ستنشأ (سربرينيتسا) فوقه لن يكون فجًا [1] عميقًا ، بل مجرد ممرٌّ طويل ضَيِّق .. شِعْب مُمَدَّد بشكل طولي ومَسْدُود كليًا مِنْ جهة الجنوبِ . لهذا رجَعَ النهر للخلف بزاوية منفرجة واستقرَّ للوراء أكثر ، متأرجحًا في منحنى عريض حول تلك الأجزاءِ حيث شكل النهر انحناءه الأوسعَ في الاتجاهِ الشرقي .. هنا حيث تقع أوسع منعطفات نهر (درينا) وأكثرها تعرجًا والتواء . إنه مُنْحَنٍ جدًّا وشديد الانحراف في هذه البقعةِ وعند هذه النقطة من مجرى النهر بالذات . ولو لم يكن كذلك - وبوصف آخر - لو كان بوسع نهر (درينا) أن ينفذ من خلال ثغرة أو ثلم بين التلال ، ولو تمكن من اجتياز التلال ، لأمكنه أن يقْتَرِبَ بسرور ويسر من (سربرينيتسا) وأن يمر عن طِيبِ خاطِر من هناك ليعانق نبع (سريني غوبر) المتَدَفق ولتمتزج مياه النبع العذبة بمياه نهر

---

(١) الفج : الوادي الضَّيق العميق - (المترجمة) .

(درينا) الذي سينطلق بعد ذلك مباشرة كالسهم باتجاه نهر (سافا) . وتحت تَأثِير تلك الصورة الافتراضية عن التدفقِ غير المنحرفِ لنهر (درينا) ، لنْ يَقُول الناس عن نهر (درينا) : « درينا المتعرج » . لكن ، يَبْدو أنه كان لا بدٍ أن يَكونَ (درينا) كذلك .. مُلْتَوِ ومُتَعَرِّج على ذلك النحو . فلو لم يكن كذلك لأُهدرت العديد من عيون الماء العِلاجِيَّة الوفيرة في تلك المنطقة والتي تستخدم لأغراض استشْفَائِية ولفقدت المياه الغَزِيرة لتلك اليَنابِيع العذبة ، إضافة إلى نبع (غوبر) ومياه (سريني غوبر) نفسه ، حيث ستتَدَفَّقَ تلك المياه لتَمتزج مع مياه نهر (درينا) . ولهذا فلولا تعرج واعوجاج مجرى ذلك النهر ، ولولا أنه انحرف عن موقع العيون المائية ، لفقدت تلك الثروات العلاجية ولأهدرت تلك الكنوز المائية ولذابت قيمتها العلاجية مع مياه النهر المتدفقَة . ولما تمكن أحد من التعرف على أماكن وجود مثل تلك البركات والمنح الإلهية في هذه الحياة الدنيا وعلى قيمة تلك المياه العلاجية . حقًّا ، ليس بوسع أي أحد أن يتعرف على قيمة أن يكون نهر (درينا) متعرجًا وملتويًا هكذا ، لا أحد يمكنه أن يتصور حكمة اللّٰه في جعله كذلك ، وأنى لأحد أن يتصور أن تميزه وقيمته تكمن في انحرافه واعْوِجَاجه !

في الأيام الهادئة الجمِيلة ، تبْدو (سربرينيتسا) أيضًا وديعة ولطيفة . لا يمكن لأي مكان آخر في هذا العالمِ أن يَكونَ جميلًا وناعمًا كما هي (سربرينيتسا) في ساعات رضاها . ليس هناك مكان آخر يمكن أن يضاهي جمال ولطف (سربرينيتسا) عندما يكون الطقس جميلًا . أما عندما تغضب (سربرينيتسا) ويكون الطقس سيئًا أو عندما تُظلِمُ سماءها المكفهرة وينهمر المطرُ فجأة ، فلا داعي لوصف انْهِمَار الأمْطار الغَزِيرة التي لا تتوقف والضباب الكثيف الذي يتبع هُطُول ذلك الوابِل من المطرِ الشدِيد المتواصل ، فحينذاك تكشر (سربرينيتسا) عن أنيابها وتبدو أشبه بقبر مخيف ، وما لم يحتفظ الإنسان في قلبه بذكريات طيبة من أوقات لطفها ورقتها وما لم يأمل بأن الطقسَ لا بد وأن يَتحسَّنَ في النهاية ، فلن يرغب في قضاء حتى ساعة إضافية واحدة في (سربرينيتسا) العابسة ، يحدث ذلك أيضًا عندما يهبط الظلام على المرء في (سربرينيتسا) وتغلفها العتمة الموحشة .

إنه الربيعُ الآن .. وها هي هالة الصبح البعيد تُعلنُ عن وصول نهارٍ جميل – هذا إن كان سيأتي – لكن (سربرينيتسا) اليوم تُشبه نفسها : **قبر كبير مفتوح .. قبرٌ** عاش دهرًا على هذا الحال في انتظار أن ينجز مهمته !!

كانت الجثث تَنتظرُ مراسم الجنازةِ التي لن تَتم . فلَنْ يكون هناك أحد ليرُشَّ بَعْض الماءِ على قبورِنا . ولن يُغطي التراب قبورنا ليسترنا تحت الأرض . لَنْ يكون هناك تَشْييع للموْتَى أو جنَازَة لتوديعهم .. لا شيء سوى الموت .. والجثث . فقط القبر الكبير . قبر (سربرينيتسا) المهْمَل .. المهْجُور هناك في نهايةِ العالم .. (سربرينيتسا) وحدها في هذا العالم .. (سربرينيتسا) تقف وحدها أمَامَ عيونِ العالم !!

* * *

إنني أنا ... (جوبيتر) [1] .. الإمبراطور والإله !

ذاتَ يَوْمٍ ، كان هناك إمبراطور في (سربرينيتسا) يدعي أنه إله ويمنح نفسه اسم « اللّه » .

منذ زمن بعيد جدًّا .. في عهد الإيليريين ، كانت هناك مدينة تقع حيث تقع (سربرينيتسا) اليوم ، وكان لتلك المدينة اسم ، كانت تدعى (أرغنتاريا) [2] .

وفي العهد الروماني ، كان هناك مدينة أخرى ، في نفس المكانِ الذي تقع فيه (سربرينيتسا) اليوم ، وكانت أكبرَ من المدينة السابقة ، بل وأصبحت عاصمة لكافة المقاطَعَات والأقالِيم بَدْءًا مِنْ إقليم (دالماشيا) [3] ، وحتى مُقَاطَعَة (بانونيا) [4] ،

(١) جوبيتر (Jupiter) : المشْتَرِي أكبر الكواكب السيارة وخامسها من حيث البعد عن الشمس وهو اسم أبي الآلهة عند اليونانيين والرومانيين . كان أبوه ساتورن فنازعه في سلطانه وغلبه وأعطى أخاه (نبتون) مملكة البحر وأخاه الثاني (بلوتون) سلطنة جهنم وحفظ حكومة السماء والأرض لنفسه وهذا من خرافات اليونانيين - (المترجمة) .

(٢) أرغنتاريا (Argentaria) : الاسم اللاتيني لسربرينيتسا . أي اسم المدينة التي قامت مكان سربرينيتسا المعاصرة في العهد الروماني . و (أرغنتاريا) كلمة معناها « الفضة » وذلك لأنها أرض غنية بالعديد من المعادن وأهمها الفضة (انظر كتاب : البوسنة تأليف نويل مالكوم وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م) - (المُترجمة) .

(٣) إقليم دالماشيا وتنطق أحيانًا دالماسيا أو دالماتيا (Dalmatia) : إقليم يمتد على سواحل جمهورية كرواتيا اليوم . سمي الإقليم بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة (دالماتيا) ، وكانت فيما يرجح قد أخذت اسمها من الكلمة الألبانية (دلمى Delme) التي تطلق على الغنم . وكانت أرضها تغطي جزءًا من غرب البوسنة . بل كان معظم البوسنة المعاصرة يقع ضمن مقاطعة (دالماشيا) الرومانية ؛ ولكن جزءًا من شمال البوسنة كان يقع داخل مقاطعة (بانونيا) - (المُترجمة) .

(٤) مُقَاطَعَة بانونيا (Panonia) : مقاطعة في شمال البوسنة تقع على أميال قليلة خلف الركن الشمالي الشرقي من المجر المعاصرة - (المُترجمة) .

تلك المدينة الكبيرة كان اسمها (دومافيا Domavia) .

وقد شهدت تلك المدن ميلاد وأفول حِقبتين تاريخيتين : فَتْرَة ما قبل مجيء عيسى عليه السلام مباشرةً ، وما بعد ولادةِ عيسى عليه السلام .

وفي زمن العصور الوسطى كان هناك أيضًا مدينة في نفس المكانِ الذي تقع فيه (سربرينيتسا) اليوم ، وقد ازدهرت تلك المدينة وانتعشت مع وصولِ عُمَّالِ المناجم الألمان - الساكسون [١] . وكَانتْ هي الأخرى مدينة المدائن وأكبر مدن القرون الوسطى في منطقة البوسنة وإقْلِيم البلقان [٢] . كَانتْ (لندن) لا تعدو أن تكون قرية صغيرة متواضعة مقارنة بتلك المدينة الكبيرة . وقد حاول الملوك الهنغاريون اغْتصَابها من البوسنة ، كما حاول المعْتَدون الصرب دائمًا والسلاطين الأتراك حاولوا جميعًا انتزاعها مِن البوسنة ، وقد سجل التاريخ أنَّ تلك المدينة كان اسمها (سربرينيتسا) !!

---

(١) الساكسون Saxons : عرق من الأعراق البشرية ، يعيشون في شمال ألمانيا والدنمارك والسويد والنرويج وهولندا وشمال فرنسا ، أي تقريبًا الساحل الجنوبي والشرقي لبحر الشمال . كان لهم سطوة ودولة في العصور الوسطى (عصور الانحطاط الأوربي) والأنجلوسكسون هو العرق الذي نشأ من اختلاط الإنجليز بالسكسون بتصاهر ملوكهم ، ثم جرت الشعوب على تلك العادة حتى ظهر بينهم العرق الذي يدعى أنه المميز والأكثر فخرًا بنفسه من أي عرق في العالم ، وهو الأنجلوسكسوني ، وإذا قرأت رواية روبن هود ، فإنك ستلمس من الكاتب تبجحه بهذا العرق وشعره الأصفر المائل إلى الرمادي ، إلا أن هذا العرق ليس له تأثير يذكر في تقسيم أوربا اليوم ، إذ يعود تقسيمها إلى عرقيات أخرى كانت موجودة قبل ظهور هذا العرق ، وهي السلالات الخالصة لملوك أوربا ، وإن كان هناك دعوة أو تكلم باسم الساكسونية ، أو الأنجلوسكسونية فلن تكون إلا محاولات إنجليزية لمعاودة الإشراف على السياسة الخارجية لأوربا ، و الهيمنة على حوض بحر الشمال ، كما كانت في مستهل القرن السادس والسابع عشر - (المُترجمة) .

(٢) إقليم البلقان : شبه جزيرة كبيرة تقع في جنوب شرقي أوربا ، بين البحر الأدرياتيكي في الغرب والبحر الأسود في الشرق ، والبسفور ، والدردنيل ، وبحر إيجه في الجنوب ، ويحدها شمالًا نهر السافا والدانوب . ويسكن فيها شعوب الدول الآتية : ألبانيا ، واليونان ، وبلغاريا ، وتركيا الأوربية ، وجنوب شرقي رومانيا ، ومعظم دول يوغسلافيا السابقة . والبلقان : كلمة تركية معناها التلال المرتفعة الوعرة التي تكسوها الغابات ، والواقع أن إقليم البلقان كذلك بالفعل . وقيل : إنها كلمة فارسية تُنطق (بالإخانة) . (انظر : دائرة المعارف الإسلامية ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين ؛ المجلد الرابع (ص : ١٠٤) - مطبعة عبد الحفيظ البساط - بيروت -١٩٣٣م) - (المُترجمة) .

في هَذِهِ اللَّيْلَة ، تقوم مدينة تدعى (سربرينيتسا) أصغر مِنْ كُلٍّ المدن السابقة التي قامت قديمًا في نفس المكانِ .

هل ستصمُد هذه الـ (سربرينيتسا) الأخيرة وتبقى حتى نهاية الألفيةِ الثانيةِ بعد ولادةِ المسيح ؟ عندما تتشقق هالة الصبح من بعيد هل ستكون (سربرينيتسا) موجودة ؟ هل ستلمحُ (سربرينيتسا) سنا الفجر الجديد ؟ هل سيمسها الشعاع البِكر لنُور النهار ؟

* * *

لن يحتاج المؤرخون لأنْ يَسْألوا أنفسهم بعد الآن أين اختفت السربرينيتسات الثلاثة السابقة .. لا داعي لأن يبحثوا وسط غبار تلك العُصُور القَدِيمَة عن الكيفية التي اختفت بها المدن الثلاث التي قامت ذات يوم محل (سربرينيتسا) اليوم .. وليس عليهم أن يجهدوا أنفسهم في البحث عن تواريخ اختفاء كل (سربرينيتسا) قامت هنا ذات يوم .

فها هي (سربرينيتسا) الأخيرة تحتضر الآن أمام أعينهم مباشرةً .. ويشهد العالم مَنِيتها .

أم تُرى سَيتريثُ العالمُ وينتظر- بتَعَقُّل وحكمة - مرور خمسين عامًا بعد وَفَاة (سربرينيتسا) الحالية ، حتى يكون المؤرخون أول من يبدأ محاولة فهم ما حَدثَ لكُلٍّ السربرينيتسات ؟!

ياللروتين والنمطية .. يالضيعة التاريخ .. واأسفاه !!

* * *

عندما تقع في حالة من العجز المختلط بالغُمُوض واليأس المشوب بالحيرة فهَلْ هناك لَفْظٌ أو اسم أكثر دقةً مِنْ كلمة « القُنُوط » ؟

هَلْ للقُنُوط اسم أسوأ من « القنوط » ؟

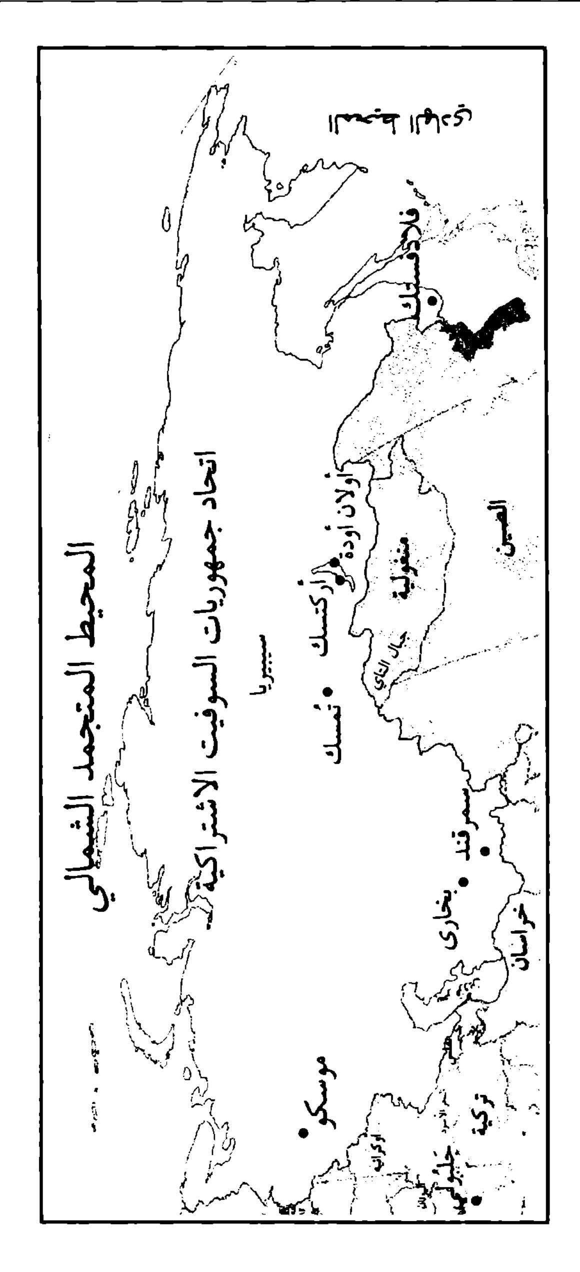
* * *

على الرغْم مِنْ عدم صياح المجموعة الثانية من الديكة ، إلا أنه يوم جديد يزور

(سربرينيتسا) وإن لم تُعلن الديكة عن قُرب وصوله .. ما من شك في أنه الثُّلاثاء الموافق للحادي عشر من شهرِ يوليو / تموزِ مِنَ العام ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين ، بعد ولادةِ المسيح عيسى عليه السلام ، إنه صبح الثلاثاء قد طلع على (سربرينيتسا) .. أجل من المؤكد تمامًا إنه يوم الثُّلاثاء .

الثُّلاثاء يومٌ سيئ الحظ !!

* * *



الخريطة رقم (٥)

المدن التي مر بها الجد (رحمن جوزو) أثناء وقوعه في الأسر الروسي

الفَصلُ الثَّاني

جدي يتساءل كَيفَ يُمكن إحصاء عدد أولئك الذين نجوا من الحربِ ولم يعودوا إلى بلادهم ؟

مُذَكِّرَات جَدِّي الأولى [زمنيًا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الثالثة] :

مِنْ (كارافلاشكا) وَصلتُ إلى أكبر مِنْطَقَة يسكنها الأفلاق [1] ... واكتشفتُ كيف أن (روسيا) لم تكن بلادًا مُلحدة بدرجة كبيرة تتناسب مع مساحتها الهائلة .. حسنًا ، لقد تحررت من الأسر على الأقل لأعرف أن حجم الإلحاد في (روسيا) لم يكن متناسبًا مع مساحتها الشاسعة !!

كنتُ قد سَمعْتُ بهذا عندما كنتُ في سلسلة جبال الكارابات ورَأيتُ رجالًا في الجيشِ الروسي لم يكونوا روسيين . كان هناك الكثير من الرجال غير الروسيين ، بل كان عددهم يفوق عدد الرجال الروسيين أنفسهم ، لكن كَان مُعْظَمهم من المسلمين الذين أُخِذوا إلى الجيشِ ضدَّ رغبتهم ، تمامًا كما أُخذنا نحن إلى (فِيِنًّا) . إلا أنهم كانوا أسوء حالًا حتى مِنْ حالنا نحن . كانت أوضاع المسلمين الذين رزخوا تحت سيطرة الحكم الروسي كأوضاعنا نحن عندما تَنَازَل الأتراك عَن البوسنة وتَخَلّوا عَنا ولكن دون أن يسمحوا لنا بإقَامَة دَوْلَة مُستقلة خاصة بنا (على الرغم من أنهم سمحوا للصرب بإنشاء دولتهم الخاصة بإعْطائهم صربيا) . والآن نحن أفضل حالًا تَحْتَ سُلْطَةِ الألمان وهم ليسوا جيرانِنا بل ولا نَشترِكُ معهم حتى في حد من الحدود .

الآن أنا أدركُ يقينًا أنَّ (روسيا) بها عدد من المسلمين لا يُسْتَهَانُ بِهِ بل وأكثرُ مما يُمكِنُ لأي أحد أَنْ يتخيَّلَ ، وإلى هؤلاء المسلمين تَعُودُ خِيرَة الأراضي في البلادِ التي عُرفت باسم (روسيا) وأكثرها تميُّزًا . فقد كانت أفضل الأراضي الزِّراعيةِ مَمْلُوكة لمواطنين

(١) الأفلاق أو الفلاتش (Vlach) (باللغة المحلية Vlah) : سلالة سكان البلقان من « المُرمِّنين » قبل السلافين .وهو تعبير يُستَعملُ للإشارة إلى البوسنيين من الديانات المُغايرة وخصوصًا الأرثوذوكس . والكلمة نفسها تأتي من مصطلح أطلقه السلاف الأوائل على تلك الشعوب التي كانوا يلتقون بها وتتكلم لغات لاتينية أو مصطبغة باللاتينية – (انظر كتاب : البوسنة تأليف نويل مالكوم وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م) – (المترجمة) .

مسلمين . وكان الجنوبِ الروسي بأكمله في حوزة المسلمين . وفي الجهة المُقابلة ، كانت كُلُّ الأراضي غيرِ المَسْكُونةِ وغير الآهلة بالسكان تقع في (سَيْبِيريَا) [١] حيث الأعشاب الجافّة والشُّجَيْرات الظمأى الشَدِيدة العَطَش في الغاباتِ والأدْغَال الروسية ، هناك وكما يليق بشعبِ ملحدٍ كافر ، استقرَّ الروس في الشمالِ ، باتِّجاهِ (سَيْبِيريَا) .

وطالما وُجد في (روسيا) أشخاص مثل عزيزي (عبد الرَّحمَن) ، وما دام هو من ذاك النوع من الرجال الذي سَأَصِفُه فيما بعد ، فلا يُمْكن ألا يكون هناك كثير من الرجالِ مثله . فمَا أنْ تعرفت على شَخْصِيَّه حَتَّى شَعرتُ بأنَّ شخصًا مثل (عبد الرَّحمن) لا بد أن يكون له جذور ضاربة بعمق في تربة الأصالة وأنه حتمًا سليل أسرة عريقة ومتَأصِّلَة ، فلا يُمكنُ ألا يَكُونَ له أصول عميقة متَجَذِّرة . كنت واثقًا تمامًا بأنَّه هنا ، في هذه الإمبراطورِية الروسية - التي كانت في طريقها للتحوّل إلى روسيا شيوعية - لا بد وأَنْ يَكُونَ (عبد الرَّحمن) أحد الفروع في شجرة نسب ضَخْمة عملاقة تَفرَّعتْ سُلالتها في كُلِّ اتجاه . وكلُّ ما هنالك أن إخوة (عبد الرَّحمَن) كانوا - مثلي تمامًا - قد وقعوا في الأسْرِ الروسي .

قاموا بتحمِيلنا فوق عرباتِ نقل الماشيةِ وأطلقوا القطار . كنَّا محشورين في العربة كالسرْدِين [٢] ..

وأبقوا القطار مُنطلقًا في طريقه لعدة أيام وليالٍ دون انقطاع ... لم يتوقف القطار في محطة واحدة ... ولم نر أي شيء من حولنا ... لا شيء سوى صوت عُواء

---

(١) سيبيريا (Siberia) : أكبر صحراء جليدية في العلم تقع شمال آسيا ، وتمتد من جبال الأورال إلى المحيط الهادي ؛ حيث تبلغ مساحتها ١٢ مليونًا و٨٢٠ ألف كيلو متر مربع ، أي أنها أكبر من مساحة أوربا كاملة . وتشمل آسيا الشمالية بكاملها ، وتمتد من جبال الأورال (غربًا) إلى المحيط الهادئ (شرقًا) ، ومن المحيط القطبي الشمالي (شمالًا) إلى مرتفعات الجزء الشمالي من وسط (قازاخستان) وإلى حدود الاتحاد السوفيتي السابق مع (منغوليا) و(الصين) (جنوبًا) . وقد بدأ الاحتلال الروسي لسيبيريا (عام ١٥٨١ م) بحملة قوقازية أطاحت بخانية (إمارة) سيبير الصغيرة التي أعطت اسمها للمنطقة كلها . وفي العهد القيصري كانت (سيبيريا) مجرد منفى يعد إليه المجرمون والمعتقلون السياسيون . إلى أن أنشئت سكة حديد سيبيريا (١٨٩١ - ١٩٠٥م) حيث تدفقت على (سيبيريا) أعداد كبيرة من المهاجرين - (المُترجمة) .

(٢) السَّرْدِين : سَمَكٌ صَغِير يُعبأ على نحو مضغوط ويُحفظ كمُعلبات تُباع في الأسواق - (المترجمة) .

الرياحِ وصَلِيل العجلاتِ الحديديةِ وقَعْقَعَتها فوق خطوط السكة الحديديةِ [1] .

كانت أجواء العربة ثقيلة جدًّا ؛ والتنفس فيها يبدو صعبًا للغاية ؛ وكأن أشباحًا نجسة تستنشق كل هواء العربة وتحول دون تنفسه ... كنَّا نرشُف الهواءَ رشفًا من بعض الفتحات والثقوب في الغطاء الذي كان فوق رؤوسِنا . كانت عربة الماشية قد غُطِّيتْ بغطاء سميك ، ورغم ذلك كان المطر يسقط علينا !! وعندما كانت زخات المطر تتساقط كنا ندرك أنَّنا في وقت الظَّهِيرَة ... أشد فترات اليوم حرارة وقيظًا ، كنا في تلك الفترة من النهار نتنفس – بصعوبة بالغة – الهواء القليل المتاح فوق رؤوسِنا ، كنا نَمتصُّ الهواء الضعيف امتصاصًا وكأننا نسرق أنفاسنا من الجو . وفي الليل وقبل الفجر مباشرةً ، كان زفير أنفاسنا وعَرَقنا المتَبَخِّرَ يتكَثَّف من شدة البرودة ليتحول إلى قطرات تقبع تحت سقفِ عربةِ الماشية ، وذاك السقف كان مصدر المطر .. حيث كان المطر يهطل منه عند الظَّهِيرَة !!!!

السجناء الذين كانوا مُلتصقين بالجانبِ الحديدي للعربةِ ، كانوا يجدونه مُحتملًا أكثر أثنَاءِ النهار وأكثر صعوبةً في الليل . لكن ذلك لم يكن قاعدة ثابتة . فبينما كانت رطوبة الجانبِ الحديدي تُبرِّدُ حرارة أجسامهم وتُشعِرهم ببرودة معتدلة أثناء النهار ، كان الجانب الحديدي من العربة يلفحهـم بلهيـب حـرارته في أوقات أخرى من النهار حين كانوا يميلون مع حركة القطار باتجاهه ، وأيْضًا أثناءَ اللَّيلِ كان الجانب الحديدي للعربة يعمل على تبرِيدهم وتلطيف حرارة أجسامهم في بضعة ساعات من الليل ، وفي ساعات أخرى من الليل كانوا يتجمدون من برودة الحديد وصقيعه القارص .

وبمعجزة من اللَّه ، نجح بعضهم في حفر بضعة ثقوب في الجوانبِ الحديديةِ للعربةِ – وأقول : بمعجزةٍ من اللَّه ؛ لأنهم كانوا قد قاموا بتفتيشنا بدقة بالغة ، وأخذوا منا جميع الأدوات المعدنية التي كانت لدينا ، حتى إنهم قَلَّعوا أزرار ملابسنا العسكرية – لكي يتمكنوا من وضع أفواههم على تلك الفتحاتِ وامْتِصاص شيئًا من الهواءِ . وكَانت تلك الفتحات

(١) المقصود سكة حديد سيبيريا (Trans - Siberian Railroad) وهي أطول سكة حديد في العالم . أنشأتها الحكومة الروسية فيما بين (عام ١٨٩١) وعام (١٩٠٥) وتمتد مسافة ٩٣١٧ كيلو مترًا من موسكو (غربًا) إلى فلاديفوستوك (شرقًا) ، وتصل روسيا الأوربية بساحل المحيط الهادئ عبر (سيبيريا) – (المُترجمة) .

هي التي تخبرنا بتناوب الليل والنهار .. من خلالها كنا نميز هبوط الليل وانبثاق النهار .

وأثناء توقف القطار كنا نرفع صلواتنا إلى اللّٰه فوق البقعة التي كنا نقف فيها ودون أدنى تعديل في مواقعنا ، ولكن من كان منا مسلمًا كان قد فقد وضوءه وبالتالي لم يتمكن من أداء الصلاة . كانت ملابسنا مُتَعَفِّنة وبالية ورائحة أجسامنا كريهة وقذِرة ، كنا عبارة عن أجساد مَحْشُورة ومَرْصُوصة سوية بطريقة محكمة ، كانت أجسادنا تشبة كتلة واحدة مَكْبُوسة بإحكام شديد ، ومع ذلك كانت الصلاة تشعرنا بشيء من التَّحَرُّر وكأننا انْعَتَقْنا .. وخفَّفنَا عن أنفسنا .. كان لُعَابُنا يسيل ، وكنا نتقيأ ونبكي ، ونطلق التَّأَوُّهَات والأَنَّات والآهَات الصامتة ، فعلنا كل ذلك ونحن صامتين . كنا واجِمين مِنْ فرط الإرهاق فقد أسكتنا الإجهاد وأخرسنا الإعياء . وفي النِّهَايَة وبَعْدَ لأيٍ أُتيحت لنا فُسْحَة من الجَوِّ الخارِجي . ولكن كيف تمكن القطار من الانطلاق دون توقف والاستمرار في التحرك طيلة تلك المدة دون أن تنفتح أبواب القطار ؟ حَسنًا ، ما أيسر الجواب !! بل إن الجواب لا يُمكنُ أَنْ يَكُونَ أسهلَ من ذلك ! كان الناس يَمُوتونَ بسبب الجوع والاختناق بالرائحة النتِنة الكريهةِ ، أما من نجوا وبقوا على قيد الحياة ، فلم يكن أمامهم خيار آخر غير وَضعِ أولئك الموتى تحت أقدامِهم . لم يكن أمامهم حل آخر !! أنا لا أُبرِّرُ أفعالي ولا أبَرِّئُ نفسي ، فلم أكن الوحيد الذي فعل ذلك . في الحقيقة لم يكن هناك شخص واحد بين أولئك الذين بَقوا أحياءً لم يكن تحت قدمَيه جثة أو اثنتين أو ثلاث !!

كان طول قامتي نحو (٩٨,١) سنتيمتر ووزني (١٠٥) كيلو غرام تقريبًا . وعندما كنت في البوسنة كان وزني يصل إلى (١٣٠) كيلوغرام . فقد أسهمت بِرَك الطِّين اللزِجة والأوحال وخنادقنا اللعينة ، وأيضًا انقطاع المُؤَن – أسهمت كل تلك العوامل في خفض وزني وعملت على تشذِيب وتهذِيب جسمي حيث أفقدتني العديد من الكيلو غرامات الزائدة ليصل وزني إلى ١٠٥ كيلو غرام فقط . وعندما تَوقَّفَ القطار في (تُمسك) بعد يوم أَو يومين ، استعدتُ تَدْرِيجِيًا القَليل مِنْ قوَّتي ، ولا أَعْرِفُ كَيفَ حافظت عظامي وأحشائي الداخلية على سلامتها ، وكيف تمكن جلدي من الصمود فوق جسدي المُهلهل وكيف بقيَت أظافري صَحِيحة سَلِيمة ! ، تعجبتُ كيف سَلِمَت أجزاء جسدي جميعها ، كانت كلُّ أجزاء جسدي تلك

بالإضافة إلى ملابسِي الرثَّةِ التي أصبحت خرقًا بالية ، لا تزنْ حتى ٥٠ كيلو غرام . فقد هبط وزني ليصل إلى ما دون الخمسين كيلو غرام ، أما قامتي فقد انكَمَشت بمقدار خمسة سنتيمترات دون المترين .

وأغلب من بقي على قيد الحياةِ من حولي كَانوا يُشبهون الأطفالَ المُصابين بسوء التغذية ، بالرغم من أنهم كانوا في الحقيقة جنودًا مُفْعَمين بالحياة .. أجل لقد كانوا جنودًا بالفعل .. ولكن جنود في الأسرِ الروسي ! .

لاحقًا ، وبعد أيام ، شعرتُ بألم هائل زلزل كياني ، كنت عندما أُصْغي السمع بداخلي ، كان بوسعي أَنْ أحسَّ بأمعائي ومعدتي وجدار بطني يلْتَصِقون ببعضهم البعض . وفي داخل تجويف قفصِي الصـدري وبين أضلعِي عَرفتُ بالضبط مكان البقعة التي يتدلى منها قلبِي ، كان بوسعي أن أُحدد تمامًا النقطة التي كان قلبي يتعلَّقُ عندها ، والمكان الذي كانت رئتيَّ تَمُورَان وتتَذَبْذَبان فيه ، وشعرتُ أيضًا بكليتيَّ تَتَدَلَّيان كثمرتين طريتين تتأَرْجَحَان على جِذْعِ نَبْتَة جافة .. استمعت بوضوح تام إلى كافة أجزاء تلك السيمفونية المزعجة التي عزفتها أحشائي المضطربة !! .

في اليومِ الخامسِ أَوْكَلُوا إلى الجنديين الصربيين المتبقيين مسؤولية ثكنتِنا العسكرية . لم يكن مَعنا الكثير مِن الصرب في الوحدةِ الثالثةِ من الكتيبةِ [١] العَسْكَرِيَّة الثانيةِ التابعة للفوج العَسْكَرِيِّ الرابع للبوسنة . كانوا زهاء العشْرة جنود ، نِصْفهم اختنق في القطارِ وماتَ ثلاثة آخرون بعد أن تم تفْرِيغهم من عربة الماشية . هذان الصربيان تخلصوا من قبَّعاتِ الحامِيَة [٢] ذات النجم الأحمر وقذفوا بها بعيدًا . وبَدآ بإطلاق شِعَاراتِ الحرب المُطالبة بموتِ المنشويك [٣] والبوسنيين .

نحن أيضًا لَمْ نَكن نحبُّهم ، والسبب أَنَّهم كَانوا يشكلون أقلية في فوجِنا ؛ لذا

---

(١) كَتِيبَة : طابُور أو فرقة مِنَ الجَيْش - (المترجمة) .

(٢) الحامِيَة : مَوْقِعٌ عَسْكَرِيٌّ للكتيبة - (المترجمة) .

(٣) المنشويك أو المانويين (مينشيفيكس ، Manichaean, Manichee) : طائفة النصرانية منشقة وهم في الأصل من أتباع (ماني) معلم المعتقد المثنوي غير المسيحي في القرن الثالث ، ثم أصبح يستخدم فيما بعد كمصطلح يطلق على الهراقطة المثنويين في المسيحية - (المترجمة) .

لم يكن وجودهم مستساغًا بيننا ، ولم يُرحب أحد منا بوجود هؤلاء معنا ، فقد كُنَّا جميعًا نَفضِّلُ تخصيصَ مُؤَخِّرَة الجَيْش لهؤلاء الأرثوذكس ونرغب في أن يُكلَّفوا كبقية الأرثوذكس في الوحداتِ الخلفِيَّة للجَيْش ، أو أنْ يهْربوا إلى الروس .. وتمنينا لو أنهم تمكنوا من الهَربِ قبل تجْنيدهم مباشرةً ولاذوا بِالفِرَار عبر نهرِ (درينا) . شَعرنَا بمثل هذا الضِّيق المُرْبك تجاههم فقد كنا نزْدَريهم ونَحْتقِرهم ، إلا أننا على الرغم من ذلك لم نشعرهم بالاحْتِقار أو الهَوَان ، ولم نفكر مطلقًا في إهانتهم أو إذلالهم ، ولم نحاول إلْحَاقَ الأذَى بِهم بأي طريقة ، ومَا فكَّرنَا حتى بمجرد إزعاجهم . وهذا الفصام بين مشاعرنا وسلوكنا هو ما أدخلنا في دوامة من المشاعر المُشَوَّشة والأحاسيس المُرْتَبِكة .

وقد تقبلوا الأمر ببساطة ، وبسبب تجنُّبنا لهم وارتيابنا فيهم ، فقد اكتفوا بالعيش بيننا دون مُبالاة . ولم يكن لِزامًا عليهِمْ أَنْ يَتطوَّعوا للعديد من الخدْمَات الإلْزامِيَّة للجَيْش . فهم لا يُؤْتمنون ولا يمكن الوثوق بهم بحيث تُسْنَد إلَيْهم بعض المأمُوريَّات ولهذا لم يتولَّوا بعض المهام ، فلم يوكلْ إليهم واجِب الحراسة الليليةِ . ولَمْ يُعهد إليهم بمَهَامِّ المرسال أو السَّاعِي ، ولم يكن لِزامًا عليهِمْ أَنْ يُقشِّروا أكوامًا من ثمار البَطَاطِس لم يكونوا أهلًا للثقة بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا محبوبين .

وقد سممت الأفكار السامة أجسادهم .. وربما تغلغلت شكوكهم وظنونهم الداخلية وتسربت من عقولهم إلى أجسادهم ، فعمل اعتقادُهم المُستمر بأنهم مُعرضون للخطر كمادَّة سامَّة أدت إلى انتفاخ أجسادهم وتضخمها ، بحيث أصبحت لهم أجساد هائِلة وضَخْمة جدًّا مقارنة بسراويلهم القصيرة !! . ولكنهم في نفس الوقت كانوا يتصرَّفون - بحسب الظروفِ - كصعَاليك ضعاف ، بل كتعساء عاجزين ، يعجز أحدهم عن إطعام نفسه .

لكنهم الآن ، في المنفى الروسي ، وعندما حانت « دقائقهم الخمس » ، تَحوَّلوا إلى وحوش همجيَّة ، وأثاروا في نفوسنا جميعًا - ونحن البوسنيون على وجه الخصوص- الذُّعر والفزَع ، وعرضونا لشتى صنوف الخَوف والهَلَع ، ولم يعتقوا حتى الكاثوليك ، لم يستثنوهم من ذلك ، لكنهم أوضحوا أن لهم منزلة مُتَمَيِّزة

ومَكَانَة خاصَّة بسبب التشَابُه بين الصلبان الكاثوليكية [١] والأرثوذكسية [٢] ! .

قالوا وهم يبتسمون ابتسامةً عريضةً :

« طابُور واحد أطول أَو أقصر .. وما الفارق ؟ لا يهم !! » .

« وماذا عن النَّجْمَة الحمراء ؟ عسى أن يُفقد أيُّ أثر منكم إلى الأبد ؟! .

لم يَستطع (شيمسو) من بلدة (روجاتيسا) أن يتراجع عن التلفظ بقوله :

« ماذا عن النجم الأحمر على جبهتِكَ ؟! »

وفي الحال ضربوه وقاموا بكسر فكِّه على الفور ، وتَرَكوه مَغْشِيًّا عَلَيْه وقد غرق

(١) الطائفة المسيحية الكاثوليكية هي أكبر طوائف الدين المسيحي . يقع مركزها في مدينة (الفاتيكان) ، مقر البابا . ويتواجد أتباعها في كثير من دول العالم وخاصة في جنوب أوربا وأمريكا اللاتينية . والكاثوليك هم أتباع الكنيسة الكاثوليكية العامة ؛ وسميت بهذا الاسم لادعاء أتباعها أنها أم الكنائس في العالم ؛ وأنها وحدها تنشر النصرانية في العالم ؛ وتسمى أيضًا الكنيسة الغربية أو اللاتينية ؛ لأن أغلب أتباعها من الغرب واللاتين ؛ كما تسمى الكنيسة البطروسية ؛ أو الرسولية ؛ لأن أتباعها يدعون أن مؤسسها الأول هو (بطرس) كبير الحواريين ؛ والرئيس العام للكنائس الكاثوليكية هو : بابا روما (الفاتيكان) - (المترجمة) .

(٢) الطائفة المسيحية الأرثوذكسية هي مذهب من المسيحية يَرجع جذوره بحسب اعتقاد أتباعه إلى المسيح والخلافة الرسولية والكهنوتية . ومعنى كلمة أرثوذكسية باليونانية : الرأي القويم ، والإيمان المستقيم . والكنائس الأرثوذكسية التقليدية هي الكنائس الشرقية ، منها البيزنطية (أي الرومية أو ما تسمى أيضًا باليونانية) والسلافية . والأرثوذكس هم أتباع كنيسة الروم الأرثوذكسية ؛ وتسمى الكنيسة الشرقية أو اليونانية ؛ لأن أكثر أتباعها من الروم ؛ واليونان ؛ وسكان البلاد الشرقية ؛ وكان مقرها القسطنطينية ؛ وكانت في الأصل تابعة للكنيسة الكاثوليكية ؛ ثم انفصلت عنها بعد الانشقاق الذي حصل بين الكنيسة الغربية (الفاتيكان والمسماة اليوم الرومانية الكاثوليكية) والشرقية (الرومية ، البيزنطية ، والمسماة أيضًا اليوم الرومية الأرثوذكسية) . وقد استفحل هذا الانشقاق في عهد (ميخائيل كيرولارس) بطريرك القسطنطينية (عام ١٠٥٤م) ، لأسباب سياسية أكثر منها عقائدية . ومن المعلوم أن المراجع القديمة بما فيها العربية كانت تسمي رومان القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية (الروم) تمييزًا لهم عن رومان القسم الغربي من الإمبراطورية ، في حين سمَّاهم الغربيون منذ القرن التاسع « الإغريق Greek » . وقد انتشرت الأرثوذكسية الشرقية في روسيا وبلاد البلقان واليونان وعموم الشرق الأدنى ، أما المسيحيون التابعون للكنيسة الأرثوذكسية في البلدان العربية فيطلق عليهم اسم الروم الأرثوذكس ؛ لأنهم يتبعون الطقوس الدينية اليونانية البيزنطية . وتتبع الكنيسة الأرثوذكسية النظام البطريركي القديم ؛ ولهذا رئاسة الكنائس الأرثوذكسية تتبع نظام البطريركية فيدعى رئيسها بطريرك . وبعض الكنائس يدعى النظام الرئاسي فيه برئاسة الأساقفة ؛ وليس للكنائس الأرثوذكسية رئيس عام - (المترجمة) .

في بركة من الدِّماء فاقدًا للوَعْي تمامًا .

لم يكن لدينا أدنى فكرة عن الحيَّة التي كُنَّا نغذِّيها في أحضاننا .. الحيَّة التي كانت تتلوى داخل صدورنا ، ودون أن نشعر كانت تخزن سمها وتنتظر اللحظة التي تنفث فيها سمها الرعاف وتفجره داخل صدورنا التي احتوتها !! .

كان علينا أن نعرف ذلك ، أنا بشكل خاص كان يَجِبُ أن أعرف ، كَانَ عليَّ ألا أنخدع بذلك ؛ لأن جَدِّي الحاج حافظ (رحمن بك) مات مَخْنُوقًا بالأيْدي المُجرَّدة في المحكَمَةِ العَدْلِيَّة في بلدة (تاسليجا) بمجرد أن بَدأ الناس يهْمِسون [1] بالحديث عن الهَيْئَةِ التَّشْرِيعِيَّة (الكونْغرِس) في (برلين) . وقد نجا والدي (ثاقب أفندي) بشقِّ الأنفس وبالكاد وصل حيًّا إلى (سربرينيتسا) قبل أن يتم التقْسيم وتنفصل (نوفي بازار) في جنوب شرق إقليم (سنجق) عن البوسنة لتُلحق بصربيا .

على أية حال ، نحن البوسنيون الخمسة عشرَ الباقون ، قررنا الهَرَبَ ، إلى أين ؟ باتجاه الغربِ .. إلى أبعد مكان ممكن عنْ (تُمسك غوبرنيا) . إلى أبعد ما يكون غربًا ، وبأعمق ما يكون إلى الجنوبِ . أنا عن نفسي كنتُ أفكر في الاتجاه نحو (إيران) و(خُراسان) ، ولكن كان أهم شيء بالنسبة لي وللآخرين هو أَنْ نبتعد قدر الإمكان عنْ هذا الشرقِ .

بِالنَّظَرِ إلى جغرافيةِ المكان ككُلٍّ ، يتبين كم كَان الطقس بارِدًا في (تُمسك) وكيف كانت درجة الحرارة تنخفض تدريجيًّا ويزداد الجو برودة كلما توجهنا إلى الشرق . إذن نحن نبتعد عن البلاد التي يسكنها المسلمون .. فالمسلمون لا يُحِبُّونَ العيش في الأجواء الباردة . وحين كنا في البوسنة ، كنا نعلم بأنَّ مآذننا البسنية كَانتْ الوحيدةَ في هذا العالمِ التي كَانَ الثلجُ يَمَسُّها .. المآذن الوحيدة المُزركشة بلون الثلج الأبيض !! .

في تلك الأثناء ، وبفضل العناية الإلهية ، قَام الحرَس الأبيض بالاستيلاء على (تُمسك غوبرنيا) .. ولكي يَعمَلُوا نَقِيض ما كانت تعمله حكومةِ (تُمسك)

(١) يهْمِس : يوَشْوِش أو يتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ - (المترجمة) .

السابقةِ ، أطلقوا سراحنا .. وتحررنا مِن الأسرِ !! .

« هذان الصُّعْلُوكان البائسان ، اللذان يثيران الشفقة قاما بإخفاء قبّعاتِهم العَسْكَرِيَّة التي تحمل شعار كتيبتهم وكَانا بالفعل يتهَامسان مَع الحرَسِ الأبيضِ . وبالطبع سوف يُداهنان ويتملقان ونحن سَنَقع في المشاكل من جديد » . وغدًا سيكون مع الحمر مرة ثانية ..

بَصقَ (شيمسيِ بك) من بلده (روجاتيسا) بتلك الكلمات التي ارتطمت بحافاتِ أسنانِه المتَكسِّرةِ ، وعلقت بعض حروفها ببقايا أسنانه ففقَدَت تَمَاسُكها وتَرَابُطها وخرجت مبعثرة متناثرة .

وقد استجاب المزيد من البوسنيين لدعوتنا للهروبِ إلى المنطقة الجنوبية الغربيةِ . عدد قليل فقط من بيننا اختار البقاء ، كانوا يتبرَّمُون ويتَذَمَّرون في انْزِعاج بسبب تصرفات (شيمسي بك) . وأخذوا يُتَمْتِمون ويتهامَسُون فيما بينهم بأنَّ (شيمسي بك) تحدث بتلك الطريقة لينْتَقم ويثْأر من إخوتنا السلافيين ، وأنَّه كَانَ يُشَاغِب ويَبْحثُ عن مشكلة وقد نال ما يستحقُّ .

إلى أين كان علينا أن نذهب ؟ وكيف نسعى للوُصُول إلى هناك ؟ لا مناص من ركوب القطار ! القطار من جديد .. لا بد أن نَركب القطار ... كنا لقد نلنا من ركوب القطاراتِ ما يكفينا بقيَّة أعمارنا .. ركبنا القطارات لساعات تكفينا مَدَى الحَيَاة !! .

وَجدنَا خط من خطوط السكك الحديدية يتجه صَوْبَ القبلة . كانت هناك عربات شحنٍ مكشوفة وكانت حَرَارَة الفحمِ تنطلق منها .. هل يُمْكِنُ لأي شخص أَنْ يَتمنَّى من الحياة أكثرَ من ذلك في مثل هذه الظروف ؟! .

إما أننا كنا نائمين عندما كان القطار ينعَطِف في مكان ما ، أَو أننا لم نَستطع أَنْ نتذَكَّرَ متى كَانَ القطار يغير اتجاهه تدريجيًا ، أَو أننا قمنا بحساب اتِّجاهِ القِبلة كما لو كنّا في البوسنة ، بينما كان اتِّجاهِ القبلة في (تُمسك) ليس إلى اليسار كالبوسنة وإنما إلى جِهَةِ اليمين ! وقد أدخلنا الدفء المنبعث من حرارة الفحمِ إلى مملكة النوم العميق ، ورحنا نغط في سبات ثقيل .

هذا القطار لا يتوقف ولا يهدأ قليلًا ليرتاح ويلتقط أنفاسه ... إنه يُسافِرُ ليلًا ونهارًا دون توقف .. ولأننا كنا مُرْهَقين جِدًّا ومُتْعَبين إلى أقْصَى حَدٍّ ، فقد كان السبيل الوحيد المتاح أمامنا لمعالجة الإعياءِ هو النوم ، كان النوم سلاحنا الوحيد للتغلب على الإجْهاد المُضْني ودفع الإرْهَاق الشَّدِيد . وعلى إيقاع ذَبْذَبَة واهْتِزَاز عرباتِ الشحنِ شعرنا بالخَدَر الذي أسلمنا تدريجيًا إلى حالة من الهُمُود والخُمُود ، وبسبب صرير العجلاتِ الحديدية على طول خط السكة الحديدية اللانهائي وشعورنا بالدفء المنبعث من البُخَار المتصاعد عن احتراق كومة الفحمِ ، فقد نِمْنَا نومًا غير صحِّي ، نوم إنسان مخدر أو مشلول ، بل نوم إنسانٍ ميتٍ تقريبًا . نِمْنَا كالمجانين . كنا أشَدَّ ما نَكُون شبهًا بالمخْبُولين والمَعْتُوهين ، ولا أظن أننا كنا ندرك ما إن كنا بوضح النهار أم أننا في عتمة الليل .. لقد نِمْنَا وحسب .

وأخيرًا أيقظنَا البرد القارص ، كانت الحرارة لا تزال تنبعث من تحتنا ، بينما كان الثلج يتساقط من فوقنا ، بالأحرى كانت طبقة سميكة مِنَ الثلجِ قد استقرَّتْ على صدورِنا ! .

يَبْدو أنَّنا كنا طوال ساعات الليل والنهار نَهْربُ في الاتِّجاهِ المعاكسِ ، كنا نتجه أكثر وأكثر باتجاه الشرق الأقصى وأكثر عمقًا وتوغلًا نحو الشمالِ .

تُرى كَمْ يلزم من الإعياء لقَهرِنا ؟! .

لَكنَّنا في الوقت ذاته ، كنا سنصبح ضعفاءَ وعاجزين تمامًا بل وقد نسقط في غيبوبة تامة لو أننا لم نأخذ قسطًا من النوم .

كان القطار يتحرك بسرعة كبيرة ، لا بد وأنها نفس السرعة التي كان يتحرك بها أثناء نومنا . لم نَجرؤ حتى على مُجرد التفكير بالقَفْز مِن القطار أثناء اندفاعه بمثل تلك السرعة الرهيبة ؛ كانت أجسامنا – أنا ورفاقي البوسنيين مِن الفوجِ الرابعِ – ما زالت تشبه أجسام الأولاد الصغار ، الذين كنا نشبههم ليس فقط في حجم أجسادنا ولكن في بُكائنا وصراخنا ، كنا نَجْهَشُ بِالبُكَاء كأولاد صغار . أخذنا ننتحبُ ونجهش في البكاء بأنفاسٍ تُنْتَزع انتزاعًا من صدورِنا ، وكأن صيحات عويلنا تُختطف من قلوبنا لتتحوَّل إلى نوبات من البُكاء التشنُّجي . وما أن تَباطأت سرعة القطار لكي يتمكن

من تَبْدِيل مساره في المحطةِ التاليةِ حتى قَفزنَا مِنْه دفعة واحدة .

– أين نحن ؟

في (فرهوفسك) .

ياله من اسم ! وما (فرهوفسك) تلك ؟ وأين عساها أن تكون ؟ .

إنها بالقُرْب من (فلادفُستُك) .

مزيد من الأسماء السيئة !! حتى إنه أسوأ من الاسم الذي سبقه .. وَمع أنَّه اسم زادَ الطِّين بِلَّةً لكن أين يكون ؟ أين نحن ؟ .

أين هي (فلادفُستُك) تلك ؟

إيه يا أمي العزيزة .. لماذا جئت بي إلى هذا العالم ؟!! (فلادفوستك) هي أبعد ما يكون عن الاتجاهِ المقصودِ ، إنها في نهايةِ العالمِ .. عند آخر طرفٍ من الكرة الأرضية . بل إنها أبعد من ذلك .. أبعد من (سَيْبِيريَا) ! إنها قُرْبَ (اليابان) تَقْرِيبًا ! .

هَلْ يُمكنُ أَنْ تقوم حياةٌ هناك ..فيما وراء (سَيْبِيريَا) ؟ !

وقبل أن تمر علينا لحظة حُرِّية واحدة ، وقعنا في الأسر من جديد .

– « مَنْ أنتم ؟ »

– « بوسنيون ! »

– « بوسنيون ؟! »

« نحن مِنْ مكان بعيد جدًّا »

« لا يُمكنُ أَنْ تَكُونَوا مِنْ مكان بعيد عنْ هنا ، و تَكُونَوا في نفس الوقت هنا ، هيا أخبرونا من أنتم ؟ »

« حسنًا ، نحن نمساويون [1] ! » .

---

(١) عندما انسحبت الدولة العثمانية من إقليم البلقان نهائيًا إبَّان معاهدة برلين سنة (١٢٩٦للهجرة / ١٨٧٨م) وقعت أعداد كبيرة من المسلمين تحت حكم غير المسلمين الذين استولوا على بلاد ذلك الإقليم وبحكم الاختلاف العرقي والديني تم التنكيل بالمسلمين وذاقوا الكثير من المآسي والويلات . وقد أسند أمر البوسنة والهرسك إلى حكم إمبراطورية النمسا والمجر وكان حكمهم قاسيًا متبعًا سياسة التشريد والاضطهاد والتنكيل مستخدمًا أسلوب التنصير القسري . وكذلك التجنيد القسري لصالح الإمبراطورية ولهذا زُج

– « نمساويون ؟!! وما الذي يَعْمله النمساويون هنا ؟ »

– « أجل نمساويون » .

– « لا يُمْكِنُ أَنْ يوجد نمساوي واحد في (غوبرينا) بإقليم (فلادفُستُك) ! وفوق ذلك ، إنكم حتى لا تَتحدثون بالألمانية ! لا بُد أنكم جواسيس » .

– « نحن بوسنيون ! »

– « أيُّ بوسنيين ؟!! »

– « إننا حمقى .. « باتشوشكا » [1] ... أجل نحن حمقى . لسنا إلا مجموعة من الحمقى الأصدقاء ، نحن حمقى هذا العالمِ ، هذا هو بالضبط ما نكون ! » .

قلتُ ذلك بلغة روسية طَليقِة مُستفيدًا من بعض المُفردات التي كُنْتُ أَستمعُ إليها لعدة شهورٍ في الخنادقِ الروسيةِ ، تَلَفظْت بتلك الكلمات التي سَلَّتْهم وأضحكتهم :

– « أها ، « دوراكي » .. دوراكي [2] من البوسنة (حمقى من البوسنة) ؟ أها »

بدأنَا بتَوضيح الأمور ببطء شديد ، أُوضَحنا لهم أنَّنا كنا مُجندين في الحرب العالميةِ على جبالِ الكربات [3] و (جاليتسيا) ، ثم وقعنا في أيدي الروسِ الذين قاموا بأسرنا وحَشرونا في عرباتِ الماشيةِ ، وشرحنا لهم بهدوء أنَّنا كُنَّا في (تُمسك) ، ثم فررنا مِن (تُمسك) ، ولكننا هَربنَا في الاتجاهِ الخاطئ .

« ممَنْ كنتم تهَربون ؟ مِن الحُمرِ أم من البيضِ ؟! » [4] .

كنا قد هَربنا مِن الحُمرِ ، لكنَّنا أقنعنَا آسرينا الجددِ بأنَّنا كنا نهْربُ مِن البيضِ . ولم يصدقونا بالطبع .. وبدأ الاستجواب الظَّرِيف يفقدُ نغمتُه الفُكاهَية ولم يعد الأمر مُسَليًا فقد تَحوَّلَ الاستجواب الهَزَليِّ إلى تَحقِيق صارِم وعَنِيف وأسئلة من الطراز الغَليظ .

وما ساعدنا أثناء التحقيق أننا جميعًا أدلينا بنفس تاريخِ الهروبِ مِنْ (تُمسك)

بالعديد من البوسنين المسلمين في الحرب تحت لواء الإمبراطورية النمساوية المجرية – (المترجمة)

(١) باتشوشكا (Bachushka) : كلمة روسية تعني « أصدقاء » .

(٢) دوراكي (Duraki) : كلمة روسية تعني « حمقى » .

(٣) جبال الكربات (Carpathians) : سلسلة جبال تقع في وسط أوروبا وتُشرف على المجر (هنغاريا) – (المترجمة) .

(٤) الحمر والبيض : كناية عن الجيش الأحمر ، أي الشيوعي حيث يحمل جنوده الرايات الحُمر .. والبيض كناية عن الجيش الأبيض وهو جيش إمبراطورية النمسا والمجر الذي يحمل جنوده الرايات البيض – (المترجمة) .

خلال التحقيقات الفردية حيث كنا منعزلين عن بعضنا البعض . كانوا يعْرفون التواريخَ بالضبط ويعْلمون بدقَّةٍ شديدة أنَّ الحرَس الأبيضَ كان قد استولى بالفعل على (تُمسك) في ذلك اليومِ . وبعد ذلك ، عندما استعدنَا شيئًا مِنْ ثقتِهم ، بَدأ الاستجواب مِنْ نقطة البِداية مجددًا .

كَان المُحققون يَرتدونَ المعاطف الجلدية الطويلةَ . ويضعون مُسَدَّساتهم [1] الضَّخْمَة أمامهم فوق المنضدة .

وبينما يجلسون في الظلامِ كانوا يسلطون علينا شعاعًا قويًّا مِنَ الضوءِ ينطلقُ من مِصْباحٍ كَهْرَبائِيٍّ وضعوه أمامهم .

- « متى أُسرتُم ؟ »

ومرةً أخرى ، أدلينا جميعًا وبشكل مستقل عن بعضنا البعض بنفس التاريخ ، ومع ذلك فَشلْنا في إقناعهم ولَمْ يُصدقوا أيَّ شيء مما قُلنَا ، وهذا ما يحدث عندما تسوء الأمور . وقد أصروا على أننا جواسيس يَدَّعونَ أنهم نمساويون ويَتكلَّمونَ بلهجة مجهولة ، لا تشبه على الإطلاق اللغَة الألمانية وتشبه إلى حَدٍّ كَبير اللغة الروسية ، وأننا فرقة من المُرْتَزَقة تم توْظِيفها لاختراق الحرسِ الأبيضِ .

- « إلى أي الأمم تنتمون ؟ »

أجاب كل واحد مِنَّا بأفضل طريقة بوسعه استخدامها ..قلنا لهم : إنَّنا جنود ، نمساويون ، بوسنيون ، مسلمون مِنْ أوربا .

- « ليس هناك مسلمون في أوربا . أوربا في الشمالِ . والمسلمون لا يحبُّون الطقس البارد . لا يوجد المسلمون حيث يوجد الجليد » .

تذكرتُ (عبد الرَّحمن) وأجبتُ قائلًا : « نحن مسلمون مِنْ جنوب أوربا . نحن المسلمون الوحيدونَ الذين تغطي الثلوج مآذن مساجدهم » .

وحتى يتجنبوا الوقوع في متاهات التشَوُّش والإرباك ، أعادوا توجيه التحقيق

(١) المُسَدس أو (الطبَنْجَة) : سِلاحٌ نارِيٌّ خَفيف - (المترجمة) .

بحيث يتحول الاستجواب عن إقليم غَريب ومنطقة غَيْر مَألُوفة بالنسبة لهم ، إلى موضوع أقل غرابة ومألوف بالنسبة إليهم .

– « لا يمكن بحال أن تكونوا قد أُسرتم في العاشر من نوفمبر / تشرين الثّاني للعام (١٩١٧م) ، في ذلك اليوم لم تكن (روسيا) في حرب مع إمبراطورية النمسا والمجر [1] . فالإمبراطورية الروسية كانت قد انهارت بالفعل قبل ذلك التاريخ . كان ذلك في اليوم الرابع والعشرينَ مِنْ ثورة أكتوبر العظيمةِ . نعم بدأت الإمبراطورية الروسية في الانهيار في شهر آخر هذا صَحِيح وحَقِيقِيٌّ تمامًا ، لكن ذلك طبقًا للتقويمِ الأرثوذكسي القديمِ . وقد نُبِذَ التقويم الديني القديمِ المُتَخَلِّف وتخلى الناس عنه وبَدأَ عَهْد جديد من التأريخِ الإنساني . ولكن حتى وفقًا للتقويمِ القديمِ ، الذي لم يُستخدم في (النمسا) مُطلقًا ، لا يمكن أن تكونـوا قـد أُسرتم في ذلك التاريخِ . لا يُمكنُ أَنْ تكونَ (روسيا) في حرب مع إمبراطورية النمسا والمجر في ذلك الوقت .

– « ولكننا أُسِرنَا في ذلك التاريخِ ! »

– « هَلْ تُشكك في سِجِلّاتِنا ؟ ! »

لحسن الحظ لَمْ نكن نَعْرف الكثير من اللغة الروسية ، ولم يكن هناك أي طريقة لنعرف ما الذي كانت تعنيه كلمة « سِجِلّات » ، كنا محظوظِين ؛ لأننا لم نكن

---

(١) إمبراطورية النمسا والمجر : تم الاتفاق بين النمسا والمجر (هنغاريا) في أكتوبر (سنة ١٨٦٧م) على إنشاء إمبراطورية واحدة تتألف من دولتين مستقلتين . حيث أقام دياك (ملك المجر) مع بيست (مستشار النمسا) المملكة الثنائية وبمقتضى هذه التسوية قام النظام الثنائي للنمسا والمجر وأطلق على الإمبراطورية اسم « النمسا والمجر » (موسوعة تاريخ العالم م٥ ، ص ١٧٩١) وبعد انسحاب الدولة العثمانية من البلقان (سنة ١٨٧٨م) وقعت إمارة البوسنة والهرسك تحت سيطرة الإمبراطورية النمساوية المجرية التي اضطهدت المسلمين وضيقت عليهم فبدأ الصراع المرير بين الشعب المسلم الذي لم يستطع تحمل ذلك الاضطهاد وبين الإمبراطورية المتسلطة وقامت عدة ثورات وضاعفت الثورة تحركاتها فتألفت حركة من الشباب سميت بحركة « البوسنة الفتية » التي خرج زعماؤها لاغتيال الحاكم النمساوي المجري أثناء زيارته لمدينة (سراييفو) ولكن الرصاصة أخطأته لتصيب ولي عهده إصابة قاتلة وترتب على تلك الحادثة أن أعلنت النمسا والمجر الحرب على أهل الصرب والبوسنة وبذلك اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٤م) والتي أدت في النهاية إلى سقوط وانحلال إمبراطورية النمسا والمجر التي نشأت (سنة ١٨٦٧م) وانتهت بنهاية الحرب العالمية الأولى – (المترجمة) .

نعرف طريقة نقُولُ بها : « سِجِلَّاتِنا » باللغة الروسية !!

هَلْ كان من الحظِّ الجيد أيضًا ، مجيء ذلك المحقِّق من (غوبرينا) في إقليم (فلادفُستُك) إلى (فرهوفسك) لتولِّى أمر فرقةِ الجواسيس البوسنيين الحمقى . تُرى هَلْ كان وصول ذلك المحقق جزءًا من ذلك الحظِّ الطَّيِّب ؟ .

في بادئ الأمر ، بَدا أنَّ مجيء ذلك المحقق لم يكن مجرد مسألة حظ . بل كَانَ منحة وهبة من اللّٰه !

لَمْ يَستجوبْنا بشكل منفرد . بل دَخلَ إلى زنزانتِنا وأوْمَأَ إلى الحرَّاس مُشيرًا إليهم بالخُرُوج .

كان يعْرِفُ أين تقع البوسنة ، بل وكان بوسعه أيضًا أن يَتحدث ببضعة كلمات بوسنية . وقد تحمس (شيمسي بك) واستجمع شجاعته بعد أن أحس بابتهاج المُحقق عندما سمع بأنَّنا مسلمون وأن من بيننا شخص مِنْ (روجاتيسا) ..

– « هَلْ كُنْتَ في (تشاينيتشه) ؟ »

– « بالطبع كنت هناك ! كنت هناك كما كُنْتُ في (روجاتيسا) ، ولنا ممتلكات وعقاراتٌ هناك أيضًا » .

– « ما اسمكَ الأخير ؟ ما اسم عائلتك ؟ »

– « (شيهوفاتس) »

– « هَلْ تَعْرِفَ عائلةَ (فريز) مِنْ بلدة (تشاينيتشه) ؟ »

– « هَلْ من المحتمل أن نكون أقارب ؟ »

– « هَلْ تَعْرِف (موريز فريز) ؟ »

– « إنه عمِّي » .

وقف المُحقق مَذْهُولًا كمن أصابته صاعقة بشكل مُفاجئ وسأل :

– « عمُّكَ ؟! »

وبدت عليه كلُّ علامات الدهشة والذهول ... كان مَبْهُوتًا ومَبْغُوتًا لدرجة

كبيرة ، وهو ما دفع (شيمسي بك) للبدء بالاعتِذار فورًا :

– « المعذرة .. فأنا لا أَستطيعُ أن أنطِقَ الكلماتِ بشكل صحيح بعد أن هَشَّموا أسناني » .

– « لست بحاجة لأن تَعتذرَ . إنني مندهشٌ فحسب .. لأن (موريز فريز) هو عمك » .

أجاب (شيمسي بك) مؤكدًا :

– « أجل »

ولكنه أضاف تصحيحًا بسيطًا :

– « نعم إنه عمِّي ، فهو بالتحديد زوج عمتي .. أخت أبي » .

– « ليس عليك أن تُوضِّحَ لأي أحد ما الذي تعنيه كلمة « عمِّي » ؟ دع أولئك الذين لا يعرفون يَتعلَّمونَ بمفردهم فهذا شأنهم هم . وأنتم بوسنيون وليس من الضروري أن تشرحوا لكائنٍ من كان مِنْ أين أنتم . وإن كان أحدهم صديقك فاترُكه يَتعلَّم على طريقته الخاصة .. فالعدو فقط هو من يقبل ويوافق على أن تشرح له من تكون أمة من الأمم بأسرها . أنا أَعْرِفُ ذلك . وأنت بفعلك هذا لا تعدو أن تجعل من نفسك مجرد لعبة بأيدي العدو ... » .

كان يؤنِّبنا ويُوَبِّخنا بالطريقة التي يُوَبِّخُ بها الأطفال الصغار . زَجَرَنا وانْتَهَرَنا كما لو كنا أطفالًا بالفعل ، وهكذا اتَّخَذَ التحقيق – الذي لم يكن تحقيقًا بحق – مَسَارًا مختلفًا .

ومن جديد عاد ليسألَ (شيمسي شيهوفاتس بك) عن عائلتِه في بلدة (تشاينيتشه) .

– « وماذا يعمل (موريز فريز) ليَكسب عيشه ؟ » .

– « لا أَعْرِفُ ما الذي يُمكنه أن يعمل الآن إن كان قد نجا من الحرب وبقيَ حيًّا بعد حربٍ ضارية كتلك . ولكنه كان قبل الحرب يعمل قاضيًا في (تشاينيتشه) » .

– « مَضْبُوط !! كان قاضيًا ، هذا صحيح ! » قالَ ذلك كما لو أنه يوشك على البكاء » .

ولكن لماذا يبكي الرجل البلشفي القادم مِنْ (فلادفُستُك) في (فرهوفسك) على ذكر قاضٍ مِنْ (تشاينيتشه) ؟!! كان من المستحيل اسْتِيعَابُ الإجابة عن هذا السؤال وعن كل ما حَدث لنا ، تمامًا كما كان من المستحيل أيضًا ذِكْر اسم بلدة

(تشاينيتشه) والتَلَفُّظ بِهِ في (فرهوفسك) . إذا كان هذا العالم ينتهي في مكان ما ، ولا بد أَنْ يكون له نهاية ، فيَجِبُ أن تكون (فلادفُستُك) هي تلك النهاية .. إنها بذاتها نهاية هذا العالم . أنا نفسي رَبطتُ بشكل مُؤَقَّت بين (فلادفُستُك) ونهاية العالم . والآن ، يبكي هذا الرجل ذو المعطف الجلدي الطويل ودون أن يضع قبَّعته - قبَّعة ثكنته العسكرية - ذات النجمة الحمراء ، التي يثير ظهورها الشائع في (فرهوفسك) نوبات من الفَزَع والذُّعر والهلع ... ذلك الضابط الكبير في الشرق الأقصى لروسيا البلشفية [١] يَبكي لأجل (تشاينيتشه) - التي هي بذاتها تُمثل آخر منطقة مأهولة بالسكان في هذا العالمِ بالنسبة إليه .

سَألَنا الضابط الكبير إلى أين نريد أن نذهب وما الذي نرغب في عمله . ولكننا بقينا صامتين .

ثم كَسرتُ حاجز الصمت قائلًا : « أنا أوَدُّ أَنْ أَذْهبَ إلى (خُراسان) .. أوَدُّ أَنْ أَرى (بُخارى) [٢] و (سمرقند) [٣] . أتمنى أَنْ أحقق ذلك قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ ، حيث

---

(١) البلشفية : مصطلح مشتق من كلمة « البلشفيك » والتي تعني في اللغة الروسية الكثرة أو الأكثرية وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري ، من أنصار لينين ، في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها (عام ١٩٠٣م) . وكانوا يشكلون الأكثرية في الحزب بينما سمي البقية بالمونشفيك (أي الأقلية) وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري بينما الأقلية تسعى للتغيير السلمي ، وقد ظلت تلك الجماعة تعرف بهذا الاسم حتى بعد نجاح ثورة تشرين الأول / أكتوبر (عام ١٩١٧م) التي عرفت باسم الثورة البلشفية - (المترجمة) .

(٢) بخارى : أكبر مدن جمهورية أوزبكستان (إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق) . يقطنها نحو ٢٥٠ ألف نسمة . وتشتهر بموقعها النفيس الغني بالبساتين حيث تقع في سهل منبسط فسيح تحيط به الخضرة والمياه والبساتين وتشتهر أيضًا بمساجدها ومدارسها العلمية الأثرية التي تعود إلى القرن الثاني عشر . كما تشتهر بصناعاتها التقليدية التي تعتمد على المهارة اليدوية والتفنن في صنع الأواني النحاسية والسجاد الفاخر . وتعد (بخارى) مدينة قديمة من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها وهي بلد الإمام الجليل البخاري صاحب « صحيح البخاري » - (المترجمة) .

(٣) سمرقند : أعظم مدن آسيا الوسطى تقع في جمهورية أوزبكستان (إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق) . ويبلغ عدد سكانها حوالي ٦٥٠ ألف نسمة تقريبًا . وتعد من أهم المدن في هذه الجمهورية نشاطًا زراعيًا وتجاريًا وصناعيًا . والصناعات اليدوية الخفيفة التقليدية كصناعة الألبسة الموشاة والعباءات والبسط والسجاد والأواني النحاسية والتحف الشرقية النادرة الفن والإتقان - (المترجمة) .

إنني سَأَمُوتُ بعيدًا عن بَلَدِي على أية حال . وإذا كان الموت - ممثلًا في مَلامِحك ومُحَيَّاك - يَلاعبُنا ويعبَث مَعنا بأن يعرض علينا فرصة أخيرة في الحياةِ ، فأنا أرغبُ ، قبل كل شيء في أن أصل إلى (خُراسان) وأن أموت هناك » .

سَأَلَ وهو يحدق بعينين نصف مغمضتين :

- « وماذا عن البوسنة ؟ » .

- « البوسنة بعيدة جدًّا !! »

قال بأسلوب لم أفهم منه ما إن كان يَسْأَلْ أم لا :

- « إلى (خُراسان) ، تَقُولُ إلى (خُراسان) ؟ » .

ومرة ثانيةً سَأَلَ وكأنه لَمْ يَسْأَلْ :

- « وكَيفَ عرفت (خُراسان) ؟ » .

وعندما بَدأتُ بإخْباره عن (عبد الرَّحمن) لم يكن يَستمع إليَّ ولم يكترث لكلامي .

ولكن الكلمات التي كانت تناقش مَصِيرِي والحدثَ الأهم في حياتِي تطايرَت في الزنزانةِ كشظايا الحطبِ .. كانت كلماتي تافهة وأقل أهمية بالنسبة إليه من نُشَارَة [1] طارت بها الريح مِنْ تحت مِنْشار أثناء تقطيعه للخَشَبِ المثبَّت بقوة على حصان الخشب [2] .

لم يكن ليَستمعَ لأهم قصَّة في حياتي ، ويصرف النظر عن تعاطفه ومشاعر المودة التي أبداها ، إلا أنه في النهاية كبير المحقِّقين في (غوبرينا فلادفُستُك) . ووظيفته أن يستمع إلى ما يُرِيدُ أن يسْمَعه .

سَألَني ما إن كان بيننا من يحفظ القرآن ؟ هَتَفَ صارخًا بنفس السؤالِ مرة ثانية ، وكانت هناك ذبابةٌ تطنُّ في زنزانةِ (فرهوفسك) التي تقع في مَكَانٍ مُظْلِم تَحْتَ الأرْض ! على الرغم من أنَّه بالتأكيد لم يكن هناك أي ذُباب . كان هناك براغيث !

(١) نُشَارَة : قِطَعٌ صَغِيرَة تتطاير أثناء تقطيع الخشب بالمِنْشَار - (المترجمة) .

(٢) حصان الخشب : حامل يوضع عليه الخشب أثناء تقطيعه يدويًّا - (المترجمة) .

أطنان مِن البراغيثِ ، ولكن البراغيثَ لا تطنُّ ولا تئز . ومع ذلك كانت هناك ذبابة تَزِنُّ في الزنزانةِ .

ومن جديد ، وجه سؤاله إليَّ :

- « هَل يُمكنك أَنْ تَقْرأَ شيئًا من القرآنِ ؟ هَلْ تَحفظ منه أي جزء عَنْ ظَهْرِ قَلْب ؟ » .

لو أنه كان يعرف أيَّ شيء عَن الإسلامِ ، لعَرفَ أنَّني حتمًا أَحْفَظُ عَنْ ظَهْرِ قَلْب جميع السور التي ينبغي أن يتلوها المُسلم أثناء الصلاة ، ولو أنه كان يعرف أيَّ شيء عن بلدة (تشاينيتشه) وعن الإسلامِ في البوسنة لَعَرف أنني كبوسني سأَختارُ أن أقرأ « سورة يس » المحْفُوظَة في ذَاكِرَتي ، أطلقت صوتي بالتلاوة وبدأتُ أَسْتَظْهِر السورة :

- « بسم اللّه الرَّحمن الرحيم »

بدأتُ بالتلاوة ، وحسَّنتُ تلاوتي قدر استطاعتي .. تلوتُ « سورة يس » بأفضل طريقة أعْرفها . رتلتُ بالطريقَة الوحيدَة التي أعرفها .

وفي منتصف السورة .. وكأنني أفقت من غَيْبُوبَة ، أدركت بأنَّني لم أكن أقرأ « سورة يس » ، لكن بدلًا مِن ذلك كان لساني يلهج بالنغم الرائع لـ « سورة يوسف » .

حدثت نفسي أثناء تلاوة السورة ... « يا إلهي إن مقاليد الأمور بين يديك ، تقلبها كيف تشاء ، كل شيء تحت سيطرتك وضمن قوَّتِكَ ، أنت العالم بكل شيء ، وأنت وحدك أحاط علمك بكل شيء ، ما كان وما سيكون ، وكل شيء معلوم مسبقًا بالنسبة إليك ، كل ما حدث لي كان مقدرًا في علم الغيب عندك ، وكل ما سيحدث لي تعرفه أيضًا ، وتعرف أيضًا لماذا قرأت « سورة يوسف » بدلًا من « سورة يس » ، أما أنا فلا أَعْرفُ لماذا ؟ أنا لم أعد أَعْرفُ أيَّ شيء » .

لم أفكر بشيء بعد ذلك ، بقيتُ أقْرأ وأتلو تلك الآيات الرائعة التي تتحدث عن حياة نبي اللّه (يوسف) ﷺ ، ذلك النبيُّ المُذهِش الذي تَغلَّبَ على كُلِّ المحن والشدائد ، وتغلب على الإغراءات والفِتَنِ التي يخرُّ أمامها مُعظم الناس ... تخطى كل تلك الأهوال ليَجِدَ في النهاية طريقه إلى الوطن .

وَقفَ مُحَقِّق (فلادفُستُك) المكْسُوُّ بالجلد في زاويةِ الزنزانةِ ، وعندما كانت

ذبذبات صوتي تتردَّدُ في جنبات الزنزانة الحجرية كُنْتُ قادرًا بالكاد وللحظات خاطفة على التقاط رجع صداها ، كنت أَسْمعُ - بدلًا مِنْ طنين تلك الذبابةِ التي من المُحال أنها كانت تطنُّ ؛ لأنها ببساطة ليس لها وجود ، ولو أنها كانت موجودة لكُنَّا قد التهمناها كما ينقض كلبٌ على ذبابة في الهواء ليبتلعها - عوضًا عن صوت تلك الذبابة المسكينة ، كنت ألتقط صوت نحيب يأتي من الزاويةِ . كان ذلك النَّشيج الحزين يصدر عن ذلك الطاغِيَة المُسْتَبِدُّ الذي استبدل العباءة السوداء [1] بمعطف جلدي طويل ووقف خاشعًا في زاوية الزنزانة كما يقف أتقى الأئمة وأكثرهم استقامة في محراب مسجد إسطنبول .. وَقفَ ذلك المُتَجَبِّرُ المُتَكَبِّر ، بتواضع بالغ بين يدي اللَّه مستقبلًا القبلة وهو يلهث بِأنْفاسٍ سَرِيعَة ويجهش بالبُكَاءِ !!

في (فلادفُستُك) عرفنا أين يكون اتجاه القبلة ، في ذات الزاوية التي يقف فيها ذلك الطاغِيَة الذي يُدير ظهره إلينا . قام من كان منا لا يزال قادرًا على الوقوف على قدميه - بعد أن قذفوا بنا بقسوة على ظهورنا عقب التحقيق - بأخذ موقعه كمأموم .. قمنا بتسوية صفُوفنا خلف الإمام .. رُبما أملًا في أن نستعيد أنفسنا ونسترد ذواتنا ، لم نرغب في أن تفوتنا الصلاة .. لَمْ نشأ أن نحرم أنفسنا مِنْ مُتعة الصلاةِ .. كنتُ أتلو :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

واقتربت من نهاية السورة .

كُنْتُ قد قَرَأْتُ « سورة يوسف » مئات المرات حينما كُنْتُ في « المكتب » [2] ..

---

(١) العباءة السوداء (الجبّة) : زَيُّ رجل الدين أو الإمام في الصلاة - (المترجمة) .

(٢) المكتب أو الكُتَّاب : مدرسة مسجدية (تساوي مرحلة المدارس الابتدائية اليوم) تعلم الصبيان مبادئ الإسلام ويعود أصلها إلى الدولة العثمانية ، وكانت المكاتب (الكتاتيب) الإسلامية تُقام في أجنحة خاصة داخل المسجد ، ثم فصلت فيما بعد وتم إلحاقها بمساكن لمبيت التلاميذ . وكانت الدولة العثمانية تحرص على فتح المكاتب أو الكتاتيب لتنشئة أبناء المسلمين في البلاد التي تُضمُّ إليها ويوجد بها مسلمون . وكان الكثير مِن كبار رجال الدولة يتنافسون في تشييد الكتاتيب ويوقفون الأوقاف التي يُصرَف من ريعها على شؤون الكُتاب ومن يقوم بمهماته . وكان التلميذ يلتحق بالكتاب حين يبلغ السابعة من عمره ، وتبدأ

لذا يمكنني استظهارها من الذاكرة عن ظهر قلب كما لو كنتُ أمسك بالمصحف بين يدي ، كنت أتمنى أن ألتقط سريعًا صدى الحروف التي كانت تذوب في صوتِي ، تمنَّيتُ أن تُعيد جدران الزنزانة ترديد الآيات لأستمع إلى رجع صداها .. أردتُ الإصْغاء أكثر لأتحقق من مصدر النَّشيج ، هل كان ذلك الصوت يأتي بالفعل من المحراب ؟ ولكن سرعان ما تحوَّل الطاغية التائبُ من جديد واستعاد شخصيته المشوَّهَة وصَرخَ قائلًا :

- « حسنًا أيها البوسنيون .. لا يُهم ، لماذا تجمَّدون من الخوفِ هكذا ؟ ! أنا سَأُريكم ، لعنة اللّه عليكم ! » .

كانَ رجلًا مُريبًا مُثِيرًا لِلْعَجَب ، رجلًا مُتَنَاقِضًا وغَيْرَ مُتَنَاغِم حتى مع نفسه !!

هَلْ نحن مَوتى ؟ .

إما أننا كنَّا أمواتًا ، ولكنَّنا لم نكن ندرك ذلك - فالإنسان عندما يَمُوتُ لا يَتذكَّرُ متى مات ويظنُّ بأنَّه ما زالَ من الأحياء - وهذا الرجل هو الملكُ المُوكل بالجحيمِ وهو فقط يقتل الوقت معنا . أو أننا كنا أحياء ، وهذا هو الشيطان يُظهرُ نفسه في شكلٍ محقق ليَخْدعَنا ويسخر منا . إنه لا يعدو أن يكون أحدهما .. الشيطان أو الملكُ المُوكل بالجحيم .. إما هذا وإما ذاك ، لا يُمكنُ أَنْ يَكُونَ أي شيء آخر . لا يُمكنُ لإنسان أن يتَجزأ على هذا النحو أو أن يُعاني من الانفصام لدرجة أَنْ يتظَاهَرَ بِذلك النَّحيب والخشوع وهو يَستمعُ إلى كلماتِ اللّه ، وفي نفس الوقت ، يُهدِّدُنا بإخْبارنا بأنَّه سوف يُرينا اللّه ، حاشا للّه !!

وعلى الجانبِ الآخرِ مِنْ بابِ الزنزانةِ ، كان بوسع المرء أن يستمع إلى صليل الحلقات المعدنية لأحذية الحراس بينما كانوا يبتعدون عن البابِ .

الدراسة في المكاتب في الصباح الباكر كل يوم عدا يوم الخميس بعد الظهر ويوم الجمعة كله ، وأيام الأعياد الرسمية . وإذا انتهى التلميذ من دراسته بالمعهد وأراد أن يواصل دراسته التحق بأحد المدارس (المعاهد العالية) . وقد بلغ عدد تلك المكاتب من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إلى التاسع عشر في جمهورية البوسنة والهرسك أكثر من ألف وخمسمائة مكتب - . (انظر : المسلمون في يوغسلافيا والأرناؤوط والإسلام تأليف : د / رجب يشار بويا . ص : ١٤١ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

« حاشا للّه اللّهُ ! أستغفرُ اللّهَ ! أستغفرُ اللّهَ ! » .

لم أكن أنا من قال ذلك بصوت مسموع ، بل الشخص الذي كَانَ يضع وجهةُ في زاوية الزنزانةِ .

« إنهم يَتجسَّسُون عليَّ أيضًا ؟ هَلْ يَتجسَّسُون عليَّ ؟ ! أَعْرِفُ بأَنَّهم كانوا يَتجسَّسُون عليَّ ! »

وعند نهايةِ الدِّهْلِيز ، تَلَاشَى صوت أحذية الحُراس العسكرية الغليظة ، لم نشعر بهم عندما كانوا يَقتربونَ منا ويتسللون بهدوء نحو زنزانتنا ، ولم نُحس بالأذنِ التي كَانتْ ترتكز على بابِ زنزانتنا . ولكنَّه أحسَّهم بهم ، أم تُراه قد سمع شيئًا ما ؟ أنا لاَ أدري ما إن كان قد سَمعَهم قَبْلَ أَنْ أَبْدأَ بقِراءة السورة أم عندما اقتربتُ من نهايتها ؟ لكنَّه منع نفسه من الصُّراخِ قبل أن أصل إلى نهاية السورة حتى لا يقطعَ قِراءة القرآنِ وأيضًا حتى يُسمِع الجواسيسَ المُلتصقون على الجانبِ الآخرِ من الباب صوت صُراخه بوضوح ...

في ذلك العَصْر كان المسيخ الدجال قد ظَهرَ في هذا العالم . فالشُّيُوعِيَّة ليست ديانة الشيطانِ فحسب . بل إنها علامة من علامات يَوْمِ القِيَامَة كظُهُور المسيخ الدجال تمامًا ، فالمسيخ الدجال يدَّعي أنه اللّٰه ويوهم الناس بأنه يمتلك صفات الألوهية والربوبية وكل ما هو من اختصاص اللّٰه ﷻ ، وكذلك الأفكار والأطروحات الشُّيُوعِيَّة تهدف إلى سحب السلطات من الإله ومنحها للنظام الشيوعي ، وحيث إنه لا وجود للإله في الشيوعية فلا بد أن تحل الدولة محل الإله . ولهذا اضطر الشُّيُوعِيُّون إلى أن يَنسبوا للدولة خواصِ اللّٰه ﷻ وأن يُلصقوا بالسلطة الشُّيُوعِيَّة جميع أسْماءِ اللّهِ الحُسْنَى ، ولأن من أسماء اللّٰه « العليم » ، فلا بُد أن يكون النظام الرسمي الشُّيُوعِي كذلك ؛ لذا يُصرُّ النظام الرسمي للدولة الشُّيُوعِيَّة على أن يعرف ما يفكر به كل فرد في الدولة ، وأن يكشف عن عقيدته وإن أخفاها في أعمق تلافيف دماغه ، ولأنهم لا يقدرون على ذلك ، فقد كان من الأيسر أن يتركوا للدولة مهمة تحديد ما يعتقده الإنسان ، وأن يرغموا الناس على عقيدتهم . إن كل ما أفعل من خير وكل مَعْرُوف أقدمه في هذه الحياة الدنيا تُسجله الملائكة لترفعه

إلى الله ﷻ – حيث تقوم الملائكة بدور المحَقِّقِ في هذا العالم – هناك ملكان كريمان يَعْرِفَان بحق كُل ما يفعله الإنسان بل وما يفكر في فعله . مَلَك على الكتف الأيسر وآخر على الأيمن . أما نحن فقد ننشئ أجهزة الاستخبارات ، ونُطوِّرُ شبكة المعلومات ، ونجمع الأدلَّة ، لكنَّنا نعلم جيدًا بأنَّنا لا نَستطيعُ معْرِفة كُلِّ شيء وأننا نُصدرُ الأحكام بموجب ما نَعتقدُ حُدوثه أو بموجب الطريقة التي نَعتقدُ بأنَّها يَجِبُ أنْ تَحْدثَ . ولهذا بَدأ الإنسان بالتَّجسُّس . وهكذا نشأ علم الجاسوسية .

قال الضابط ذو الشخصية المحيرة :

« في ظل المُعْتقَد الشيوعي لا بد أن يَتجسَّسَ كُلُّ شخصٍ على الآخر ، بل إننا نَتجسَّسُ حتى على أنفسِنا ، وقد نعلم أو لا نعلم بأنَّ زوجاتِنا .. حتى زوجاتِنا .. يَتجسَّسنَ علينا في غرف نومنا .. في مضاجعنا ! ، وقد نعلم أو لا نعلم بوجود جهاز تنصُّت في فرشَاة الأسنان الخاصة بكل منا ، تم تركيبه بواسطة نفس العامل الذي ائتمنَّاه على وَضْع جهاز تنصُّت في مقعدِ مرحاض رئِيسنا ... وقد حكمنا عليكم .. إنكم لهالكون ... إنه يوم الحساب ... حِسابكم الأخِير في هذه الدنيا ! ولكنكم نجوتُّم بفضل قِراءة « سورة يوسف » !! عندما أخبروني بوُجُودكم ، جِئتُ لعل بإمكانكم أن تُلطفوا من حِدة مزاجي السيئ ولأتسلى بكم قبل أن تُرسلوا إلى فِرقَة الإعدام . وبعد ذلك فكرتُ في إنقاذكم جميعًا وأن أترككم تنفذون بجلودكم لأن (موريز فريز) قاضي بلدة (تشاينيتشه) كَانَ عمٌّ (شيمسي بيك) . وعندما بدأت بِقراءة سورة يوسف ، أيقنتُ بأنَّها إشارةٌ أخرى تُخبرني بأنني يَجِبُ أنْ أَدعكم تَذْهبونَ جميعًا . لكنِّي سأُطلق سراحك أنت وحدك لأنك قرأت « سورة يوسف » . سأدعك أنت و (شيمسي بك) .. ولأن لقائي بكم جميعًا قد لطف من مشاعري وحسَّن مزاجي ، فإن البقية سوف تُعدم على يد فِرقَة الإعدام . أجل لندعْ العدالةَ تَأخذ مجراها بالطريقة التي اخترتها وعزمت على تنفيذها بينما كُنتُ في طريقِي إلى (فرهوفسك) . ولكن لماذا يُريني اللّه علاماتِ رحمته ويُظهر لي أنا إشارات لطفه وحَنَانه ؟ لماذا يظهرها لي بعد أن ضللت بعيدًا وسحبني طريق الضلالة لنقطة أبعد من أن يُعيدُني منها ؟ ... لقد تهتُ في طريقِ اللاعودةِ . لا بُد أنه الشيطانُ يُعلنُ لي عن حضوره ... أجل إنه الشيطان .. رفيقي الحقُود يسخر مني تلك السُّخرية المُهينة .. يُوبخني ويُعنِّفني بصوت مرتفع .. لقد خدعَني ، وقادني كأعمى إلى حيث أراد ، وأغواني بعمَل كُلِّ ما يُمكِن لرجل سيئ أن يعمل . والآن أنا يُمكِنُني أنْ أَخدعه !! » .

استمرَّ بالحديث كما لو كَانَ يَتحدث معي . ولكنه كان يتَكلَّم مَع نفسه . كان يُحدث نفسه كما لو أنَّه كان بحاجة إليَّ وإلى وجودنا جميعًا ليخفف قليلًا من شعوره بالوحدة . إنه لَيسَ ضَعِيف العَقْل وليس أحْمَقًا أو مُغَفَّلًا ، وحتى إن كان كذلك ، فاللَّه ﷻ رحيمٌ حتى بأولئك الذين لا عقلَ لهم ، حتى الأبْلَه والسَّفِيه سيجد اللَّه تعالى طريقًا لإنقاذهم من حماقتهم ويجيرهم من غبائهم ، لكنه كان ضحيَّة الإلحادِ .. لقد تسرَّع كثيرًا في تَقبل النظام الذي نصَّب « الحِزْب » مكان « الإله » . وأنْزَلَ تعاليم الحزب مَنْزِلَة الوَحْي الإلهي . فقد اسْتَوْلَى التَّجَمُّع الحِزْبيُّ على التشريع الإلهي وقاموا بتحريف البيان الإلهي وتشويه معالمه . وحاولوا جاهدين أن يطمسوا أنواره من خلال بعث الأفكار المادية ومحاولة تحويل الغيبيات إلى أشياء مادِّيَّة حِسِّيَّة ، في محاولةِ لجَعْل كُلِّ الأشياء تبدو مادية ملموسة ، فلا وجود لشيء غيبي ، ولأن اللَّه تعالى غيب لا تدركه الأبصار ، فكل ما يُنسب للإله يجب أن يتحول إلى شيء يُدْرَكُ بِالحِسِّ أو الحَوَاسِّ ، إنها محاولة « لأنسنة » فكرة الإله ، وإلصاق صفات الألوهية بالإنسان ، وهكذا يتسنى للإنسان أن ينهَضَ بِمهمة إدَارَة الكون ، وعندما يأخُذُ الإنسان على عاتِقِهِ تلك المهمة فلا داعي لوجود إله !!

– « وماذا لو أنّي تَركتُ (شيمسي بك) يذهب وحده وتَركتك أنت لتموتَ هنا في (فرهوفسك) ؟ » .

– « يُمكِنُك أَنْ تفعل ما تشاء ، لكنَّك قُلتَ كلامًا مختلفًا ! » .

– « حقًّا ؟! هل قُلتُ كلامًا مختلفًا ؟ يُمْكِنُني أَنْ أَقُولَ ما أُريدُ ؟ » .

– « أَعْرِفُ » .

– « ماذا تَعْرِفُ ؟ ! » .

– « أنا نفسي لا أَعْرِفُ ما أَعْرِفُ » .

– « أَعْرِفُ بأنَّك لا تَعْرِف ، لكن اعْتَرِف لي بِشيءٍ واحد .. أنا الرَّجُلُ الكافر المُلحد ، أناشدُك باسمِ اللَّه أن تصارحَني وتصدقَني القول .. لماذا اخترت أن تقرأ « سورة يوسف » ؟ ! » .

– « كُنتُ قد نويت أن أَقْرأَ « سورة يس » ؟ » .

– « أنا أيضًا ظننت أنك ستَتلو « سورة يس » ! » .

وقد شجعه اعْتِرافي فقال :

- « ولكن ما الذي جعلك تُغيِّرُ رأيك ؟ » .

- « لا أَعْرِفُ ! » .

- « بل تَعْرف ! » .

- « لا أَعْرِفُ ... !! » .

- « إنك تَعْرف !! ! » .

- « في الحقيقة أنا لَمْ أُغيِّرْ رأيي .. ولكني كُنْتُ أظن بالفعل أنَّني أَقْرأُ « سورة يس » ، ثم أدركتُ بعد ذلك أنني أَقْرأُ « سورة يوسف » » .

- « إذن ، هذا ما حدث ؟ » .

- « أجل يا سيدي .. ذاك ما حَدثَ بالضبط ! » .

- « هكذا فقط .. ذاك ما حدث فحسب ! » .

- « هكذا فحسب ! » .

- « هكذا فحسب ! » .

- « إي واللّه .. أقسم باللّه هكذا فحسب » .

ثم أطلق سراحنا جميعًا وتَركنا نَذْهبُ ، ولم يرغب البعض في المجَيء مَعي ، لم أَعْرف لماذا أرادوا البقاء لا أدري ما الذي حَدث لهم !! لا أظن أن الجميع كان يرغب في العودة ، أعتقد أن بعض أولئك الذين تخلفوا هناك ولم يعودوا معنا ، قد نجحوا في الإفلات من الفِخَاخ التي نصبها لنا الزمن وأنهم قد ألفوا زمانهم الجديد وأمضوا بقية حياتهم هناك . وأعتقدُ أنَّ عوائلهم في البوسنة كانت تظن أنهم قد ماتوا وتعدُّهم من الموتى ، ولهذا السبب أنا لا أَعْرِفُ كَيفَ أَحْسبُ عدد أولئك الذين كان بإمكانهم أن يعودوا إلى الوطن بعد الحربِ ، ولكنهم لم يفعلوا ...

انطلق (شيمسي بك) في الرحلة مَعي . بعد ذلك التحق بنا سبعةٌ آخرون . وقد ودَّعَنا المحقِّق فردًا فردًا ، بالطبع لَمْ نُرحب بالرُّكوب في عربات الشَّحنِ ، ولكن لم يكن أمامنا أي وسيلة أخرى ، وهكذا صعدنا فوق عربات شَحنِ الماشية بالرغم من أنَّها لَمْ تكن مُخَصَّصة للماشيةِ ، بل كانت مُحمَّلة بالفحم .

« ياللعُصبة المجنونة ! ياللعُصبة المجنونة ! » قالها مجنوننا الطَّيِّب بتعَجُّبِ ودهشة ، ثم أَمر رئيس محطةِ السِّكَّة الحَدِيدِيَّةِ أن يلحق بالقطار عربة مفتوحة من عربات الشحن وأن يثبِّتها في القطار بكُلَّاب [١] ، كما لَو كُنَّا شُحنةً من الألواح الخشبية ، وقد أَلْحَق معنا الوَثَائِقَ المُرفَقَة بالشُّحنة ، مُوضِّحًا بأنَّنا سَنلتحق عند مُلْتَقى خُطُوطِ السِّكَّة الحَدِيدِيَّة بالقطارات التي تحمل العَناوينِ التي قررها لنا ، حيث سيتم تثبيت كُلَّاب عربتنا بالقطارات التي ستنطلق في الاتِّجاهِ الذي أراده لنا .

تَجرأتُ لِدرجة الوقاحَة وقلتُ :

- « وماذا عن (خُراسان) ؟ » .

استمر يردد :

- « ياللعُصبة المجنونة ! » .

صرخت صُراخًا يُشبه العويل .. كُنْتُ أَعْوي قائلًا :

- « أُريدُ الذِّهاب إلى (خُراسان) ! » .

- « لا تقلق . سَتَكون حيث يفترضُ أن تَكُونَ ... » .

تلاشى ذلك الصوت سريعًا .. فقد ذاب صوته وسط صليل احتكاك العجلاتِ بقُضبان القطار الفولاذيةِ .

بدأتْ القاطِرَة [٢] بالتحرك ببطء مُحْدِثَةً صوتًا يشبه فحيح الأفعى ، وتَحرَّكتْ عَرَبَتَنا المقطورة ببطء أيضًا ، ثم بدأت سرعة القطار تتزايد تدريجيًا كما لو كان القطار يقضم الأرض قضمًا وكلما ابتلع منها المزيد ازداد نشاطًا وحماسة .. كنا نبتعد تدريجيًا عن الشرق الأقصى المجنونِ !!

* * *

---

(١) أداة للتثبيت أو التكليب تتألف من خُطَّاف مُلتَوِى ، أو صنارة لربط عربة إضافية بالقطار .

(٢) القاطِرَة (وابُور) : العَرَبَة الأولى من القطار التي بها المُحرك وهي العربة المُتَحَرِّكة التي تتبعها بقية عربات القطار .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

سَتُشَنُّ الحربُ على البوسنة في الفترة التي بين العِيدَيْن .. عندما تَبْدأُ براعم الأزهار بالتفتُّح . وسيكون هناك أيضًا الكثير من الدماء المُراقة ، حيث ستمطر سماء البوسنة دمًا ، لدرجةٍ يحتاج المرء معها إلى أَنْ يرتدي مِعْطَف المَطَر [1] أثناء المشي في الحقولِ . وستقوم أرواح الصالِحِين مِنْ قبورهما لتَصِيحَ بالأولياء :

– « انهضوا .. أفيقوا ! المسلمون يُقتلون ! » .

وسَيَكُونُ الجواب :

– « لا ، لقد قُتِلَ واحدٌ منهم فقط » .

وسَتَستمرُّ الحرب التي لم يسبق لها مثيل . ومرة ثانيةً سيصيح الصالحون بالأولياء :

– « انهضوا .. أفيقوا ! المسلمون يُقتلون ! » .

وسَيَكُونُ الجواب :

« لا ، لقد قُتِلَ اثنان فقط » .

وسَتَستمرُّ الحربُ ، كما لو كانت لا نهايةَ لها . وعندما يَصِيحُ الصالحون بالأولياء للمرَّة الثالثة ، وسيكون هناك أزهار أيضًا بدأت براعمها بالتفتُّح . سيحدث ذلك عندما تَظْهر قوة عظيمة خارقة ، تضع قدمًا على جبلِ (تربفيتش) [2] والقدم الأخرى على بَعْض الصخور المدبَّبةِ . ولثلاثة أيامٍ ستغرق (سراييفو) في الظلامِ . وفي صباحِ اليومِ الرابعِ سيُسمع صوت الأذان . ومِنْ ذلك اليومِ وإلى يوم الحسابِ ، ستشرق الشمس كل يوم على مسلمي البوسنة !!

* * *

لقد أُصبتُ بداء الخوف من الموت في الوقت الذي أَصْبَحَ المَوت فيه عادَتنا الطَّبيعية وأكثر الأحداث أُلفةً وشيوعًا بيننا . لكم حدَّقتُ في نفسي وتأملتها وهي محشوة بالموت وقد امتلأت به حتى فاض عن الحد الكافي لموت إنسان ! ، كنت

(١) مِعْطَف المَطَر (المِمْطَرَة) : مِعْطَف من الجلد أو المُشَمَّع يَقِي مِنَ المَطَر – (المترجمة) .

(٢) (تربفيتش) Trebevic : جبل فوق مدينة سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك – (المترجمة) .

أراقب بنَظْرَة محدقة كيف يتحلل جسدي .. لقد تسلل شعوري بالموت إلى معدتِي ، كُنْتُ مريضًا مسممًا بجرعة كبيرة من الموت !! كنت قد فقدت الإحساس بذلك الألم الحزينِ الذي يشعر به الأشخاص الطبيعيون عندما يموت شخص ما ويرحل عن الدنيا .. لم يعد لذلك الحزن النبيل وجودٌ بداخلي . فقَدْ اختزل لغز الموتِ بأكمله في داخلي وتَحوَّل إلى شعور بالفتور واللَّامُبَالَاة ، تلاشى الشعور بهيْبة الموت - وهو شعور غيبيٌّ - وسط كثافة المادِّيَّة الثقيلة .. كدخان خفيف تصاعد فوق سوقِ البلدة وتبدد في أفق السماء دون أن يكْتَرِث به أحد ، وإلى اللحظة التي يتم فيها إثْبات وتَأْكِيد ذلك ، سيُغيِّب الموتُ شخصًا آخر من جديد .. شخص لَنْ يَقدر على العودَة إلى هذا العالم ولن ينتمي إليه بعد تلك اللحظةِ .

مرَّ عليَّ زمانٌ كان الموتُ يُمثل تجربةً مؤلمة بالنسبة لي . في ذلك الوقت كان موت أي إنسان يُشكلُ صفعة قاسية وعذابًا حقيقيًا بالنسبة لي . وهكذا كان الحال في كل القرى والبلداتِ البوسنية الصغيرةِ . فعندما كانوا يقطِّعون أشجارَ الحَوَر [١] التي تَنْمو على جانبي الطريقِ ، لم أكن الوحيد الذي عليه أن يعاني وقتًا عصيبًا قبل أن يعتاد على الفراغ الذي يخلفه غياب الأشجار المُرَوَّضة حديثًا ... وقبل أن يألف الثغرة التي حلت محل الأشجار المألوفة . وعندما قام رئيس الدائرة الانتخابية - وهو أحد الصرب الذين انحدروا من الجبل - بتقطيع كل أشجار التنوب [٢] التي زُرعت في زمان الحُكْمِ النمساوي المجري أمام القاعةِ الكُبرى للقسم الإداري للدائرة الانتخابية التي احتفظت باسمها (كوناك) الذي تسمَّت به قبل الحُكْم النمساوي المجري ، عندما قام رئيس الدائرة الانتخابية بتقطيع تلك الأشجار ، كانت النتيجة خَرَابًا حَقِيقِيًا في (سربرينيتسا) . وكأن دَمَارًا كَوْنِيًا مُصَغَّرًا قد ضرب (سربرينيتسا) . وكان الفراغ الذي حلَّ محلَّ الأشجار المُقطعة يُشعرنا بالغُرْبَة والوَحْشَة .. وكانت

---

(١) الحَوَر (Poplar) : شجر كالصفصاف أوراقه متدلية قلبية الشكل أو مثلثة أو بيضاوية مستطيلة مسننة الحافات يعرف منه نحو العشرين نوعًا ستة منها تعزى إلى أوربا وما بقي إلى أمريكا . الحور الأبيض يبلغ طوله من ٢٥ إلى ٣٠ مترًا بعد مضي ٦٠ أو ٧٠ سنة . وخشبه يشغل جيدًا ويكتسب صقلًا جميلًا فتصنع منه الدواليب والأبوابُ ، وهناك حور سنجابي وحور أسود وجميع أصناف خشب الحور تستعمل في الصناعة - (المترجمة) .

(٢) التنوب (Spruce) : شجرة ضخمة من فصيلة الصنوبريات - (المترجمة) .

(سربرينيتسا) تبدو مُوحِشةً أكثر بعد أن يغادرها أحد سكانها ويرتحل إلى العالم الآخر .. حتى أُولَئِكَ الذين لم أكن أعرفهم جيدًا ، لدرجة أنني لم أُوجه لهم التَّحِيَّة من قبل ولا قمت حتى بإلْقاء السَّلام عليهم يومًا ، بل إنني لم أُومئ لأحدهم يومًا برأسي ولم تصدر عني حتى تلك الحركة البسيطةِ للذراعِ التي تفيد الاعتذار بعد الاصطـدام بأحدهـم . حتى أُولَئِكَ الذين كنت أجهلهم لهذا الحد ، لم أتخلف عن تَشْيِيع جَنَازتهم وَحضور مراسم دفنهم أبدًا .

وأثناء الحربِ حاولتُ الإبْقاء على عادتي في حُضُور الجَنَائز ومُرَاقَبَة مراسم الدفن . كنتُ أذهبُ إلى الجنائز في جميع الأوقات ليلًا ونهارًا .. حينما وحيثما يكُن إنْجَاز عملية الدفنِ ممكنًا في أجواء الحرب القاسية . ولوفرة الموت في زمان الحرب ، لم تقتصر عملية دفن الموتى على ساحة المقبرة بل اجتاحت القبور كل الأماكن في البلدة . كَانتْ شواهد القبور الخشبية تنتصبُ شاخِصة على امْتِداد الحدائقِ والأفنية الأماميةِ للدور والمنازل كعيدان الفاصوليةِ في نِهايَةِ شهر تَمّوز / يُولْيُو ، على جنباتِ الطريقِ .. في المتنزهاتِ .. وأحيانًا في المقابرِ ذاتها . كانت شواهد القبور تتقافز أمام العين بشكل مفاجئ كما تفرْقع حبات الذرة « البوشار » . في البداية كنت أشاركُ في الجنائزِ لأنها بادِرَةٌ إنسانية لَطِيفة تُعَبِّرُ عَنْ عاطِفَةٍ نبيلة ومَقْصِد طَيِّب . ولكن فيما بعد فكَّرتُ وتَأمَّلتُ مليًا في الحكمة وراء إصرار أهل البوسنة على حُضُور الجنائز وتشييع الميِّتِ وهي عادة بوسنية راسخة تمامًا ، وقد توصلتُ إلى أنهم يقومون بذلك حتى يشعر أهل الميت بالاضطرار لرد الجميل وفعل المثل مع من يحضر جنازتهم ، وصرت أشارك في الجنائز حتى أُظهر لأهل المتوفى أنني أحترم مشاعرهم وبأنني جئت أُقاسمهم حزنهم وأشاركهم ألمهم ، وحتى يَتذكَّرني بعضهم فيحضر جنازتي ، وما دمتُ لا أستطيع أن أختار أين ومتى أموت ، ولا أدري ما سيحدث لي غدًا وبأي أرض ستأتي مَنِيَّتي ، فعلى الأقل يمكن أن يتذكر شخص ما أن يحضر جنازتي وسأربح وجود إنسانٍ واحد على الأقل يُودِّعني إلى مثواي الأخير حتى لا أَمُوت هكذا كما يموت كلب ضالٌّ !! .

يا إلهِي ، مرةً أخرى ، من بين كُلِّ أُولئك الذين خططوا ونجحوا في إيذائي ، أجِدُني أَحملُ الحقد والضَّغِينَة على أُولئك الذين لم يتعرضوا لي بأي أذى – الكلاب !! . تأملتُ في تلك الخاطرة للمرة الثانيةِ أثناء كتابتي .. عندما كنتُ أسطر

ألمي الأخرس على الورق وأستخدمُ الكلمات للتعبير عن وجعي الذي ليس بوسعي التلفظ به .. فعلى الرغم من أنَّني ، كنتُ قبل هذه الحربِ أرفضُ أن تُقارن الحيوانات بالبشر . إلا أنني بعد الحرب أيقنتُ أن الكلاب مخلوقات للَّه أيضًا . وأنه سبحانه قد منحهم درجاتٍ متباينة من العَقْل ... بل درجات عالية وراقية جدًّا من الفَهْم والتَّمْيِيز ، لدرجة أنهم لا يَستطيعونَ - حتى إن أرادوا - أن يؤذوا أي إنسان بكلمةٍ واحدة . في الوقت الذي يَغْرس فيه البشر أنيابهم - بل وطواقم أسنانهم الاصطناعية [١] إن كانوا قد فقدوا أسنانهم الحقيقية - في قلوبِ بشر آخرين ، ويُمزِّقُونها إلى قِطَع كما تفعل الكلاب الجائعة بجثَّة متَفَسِّخة [٢] !! .

كانت عملية الدفن تتم ليلًا ، تتابعتْ الجنائز الليلة الواحدة تلو الأخرى . ولوقت طويل ، لم يكن بوسع أي أحد أن يفوز بلحظةِ سلامٍ واحدة أثناءَ النهار تكفي حتى لأكثر عمليات الدفن خفاءً وسرية ، لم تتوفر خلالَ النهار فترة آمنة تضمن عملية الدفنِ السرية للغاية . فقد كَانتْ القذائف تَتساقط بغزارة حتى على تلك الأماكِنِ التي يُمكن أن تصلح بالكاد كمكان للدفنِ وعلى أي مكان يَتجمَّع فيه الناس . ولهذا بدأ الناسُ بدفن الموتى دون جنازة ، كانوا يغطون الجثث بالتراب وحسب ، أثناءَ اللَّيلِ ودون أي مظهر من مظاهر الجنازة التقليدية ، بل وحتى بدون إمام يُؤدي صلاة الجنازة . فأي شخص يتصادف وجوده قرب الجسد الميت هناك كَانَ يتولى عملية الدَّفن . وكانت عملية الدفن تتم بشكل آليٍّ وسط نوبة من الذهول التام وفي أجواء من الغَيْبُوبَةِ والتشنج العقليّ كما لو أن البلدة بأكملها منوَّمة مغناطيسيًّا .. كنتُ مندهشًا لمشاهد الدفن الصامت ومُخَدَّرًا بفعل الذهول الذي لا وقت لمحاولة فهمه ، لم أستطع أن أفهم لِماذا كَان الناس ينجزون عملية الدفن بتلك الحَمَاسَة وبسرعة فائقة .. لم يكن لدي أي تفسير لذلك الحماس والشَّغَف بمواراة الموتى ودفنهم تحت التراب .

لا بد أن بعض الناس يعرفون !!

---

(١) طواقم الأسنان الاصطناعية : أسنان تعويضية تُستخدم بديلًا عن الأسنان الطبيعية التي تتعرض للكسر أو للسقوط بسبب الشيخوخة - (المترجمة) .

(٢) يُشبه المؤلف أولئك الذين يتعرضون للناس بألسنتهم بالكلاب التي تنهش جثة مُتحللة في استعارة بليغة لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] وهي دلالة واضحة على إلمام المؤلف بالقيم التربوية الإسلامية وتأثره بالثقافة القرآنية - (المترجمة) .

وقد حَصلتُ على الجوابِ سريعًا جدًّا . كانت هناك على جانب الطريقِ الرئيسي جثةً لامرأة مجهولة لا يعْرِفُها أحد ، ولا حتى أحد أولئك الذين جاؤوا مَعها ضمن السِّرْب البشري الهارب مِنْ بلدة (كونيفيتش بوليو) ، وقد تحلل جسد المرأة وَتفسَّخ منذ أيام . كانت الرائحة كريهةً لا تطاقُ ومنتِنة لدرجة لا تُحتمل . فلا شيء في هذه الدنيا يَبْعثُ رائحةً كريهة كتلك التي يبثها جسد إنسان ميت !! وهكذا توصلتُ إلى السبب وراء التعجيل بدفن الموتى .. تبين لي أنَّ في ظرُوف كهذه ، حيث يجثم المَوتُ الكثيف فوق مدينتنا وينتشر في أجوائها كالهواء .. واسعًا متمددًا يغلف كل شيء - في مثل هذه الظروف يُسرعُ الناس بدفن الموتى ليحموا أنفسهم من رائحة الموت الـمُنتِنة ، كانوا لا يخافون من أي شيء آخر أكثر من خوفهم من رائحة موتاهم !! .

في ذلك الوَقْتِ كان اللاجئونَ قد بَدؤوا يموتون من الجوع . كان كلٌّ من الأب والابن يَسْرق أحدهما قطعةَ الطعام الأخيرةِ مِنْ فم الآخر .

وفي الصَّباحِ ، كنا نعثر على جثث المَوتى الذين لَمْ يلقوا حتفهم برصاص القنَّاصين ولا بقذائفَ القصف الجوي ، كَانت علامات العِراكِ والمُقَاوَمَة تبرز بوضوح على أجسامِهم . لا بد وأن الجُناة الـمُجْرِمين كانوا من أصدقاء الموتى الحَميمين أَو من أقاربهم المقرَّبين . فلو لم يكونوا كذلك لما وافق الضحايا على قضاء الليلة برفقتهم . وربما أنهم - في لحظة من لحظات الضعف الإنساني- قد ائتمنوهم على المكان السري الذي خبأوا فيه لُقيمَات الطعام الصغيرة جدًّا !! .

كان الموت وحده يحَكمُ مدينةَ الأشباحِ البشرية . لكن لحد الآن لم يبسط الموتُ سُلْطَته عليَّ أنا .. لم يُفلح الخوف من الموت في أن يتَحَكَّمَ بي . لم يتمكن من ذلك . بل على العكس تمامًا ، فقد تَخلَّيتُ عن عادةِ مُرَاقَبَة الجنائزِ . بعد أن أدركتُ بأنِّي سأكون أفضل حالًا بدونها ، تمامًا كما أقلعتُ أثناء الحربِ عن عادات أخرى سيئة مثل التدخين وشرب القهوة .

من الجيدِ أنني قد نجحتُ - بعيدًا عن كُلِّ ألعاب القمار التي تعلمتها - في أَنْ أُصبحَ ماهرًا ومُحترفًا في لعبةِ المرُبَّعات التُّركيَّة فقط ، ولكنني نَسيتُ الآن قواعدَ تلك اللعبةِ أيضًا . كما أنني أعرف تقريبًا لعبةَ « العسكرَ واللصوصِ » لا في الحقيقة ،

أنا لَا أعرف تلك اللعبة ، إنني أعرف قواعدها ولكن ليس كلعبة البِطَاقَات الورقية . إنها لا تُلْعَبُ بالبطاقاتِ . فهي لعبة أطفال تُلْعَبُ بدون بطاقات : فريق من الأطفالِ يلعب دور اللصوصِ ، والفريق الآخر يلعب دور العسكر الذين يُطارِدُون اللصوصَ أي أفراد الفريق الأول . بينما تعتمد لعبة البطاقاتِ الورقية على العسكر فقط . كل ما أَتذكَّرُه أن الجوكر فقط كان يفوز بكل البطاقات ويكتسح الجميع ، أما باقي قواعد اللعبة فقد نَسيتُها . حتى إنني لا أَعْرِفُ كم يساوي اثنان من البستوني [١] ، أَم أنه يُحْسبُ كأيٍّ بطاقة أخرى ، ولا كم عدد النقاطِ التي يتَحْصلُ عليها من يربح أكبر عدد من البطاقاتِ ؟ على أية حال ، لقد نَسيتُ قواعد تلك اللعبة على الرغم من أنني حاولت جاهدًا أن أَتذكَّرها .

لم أسقط حتى الآن في مُستنقع الكحوليات .. لم أنحدر بعد لذلك المستوى .. ولَكنِّي خشيت أنْ أُطْلقَ العنَان لنفسي وأبدأ بالشُّرْب . وماذا سأفعل إن شرعت بذلك أيضًا ؟ إنني أفضل أن أتعاطى المخدِّراتَ على أن أشرب الكحول ، أو أن أتعاطى الكحول والمخدِّرات معًا . فعلى الرغم من عدم توفر الأدوية المطلوبة بإلحاح لعلاج المرضى ، على الأقل هناك وفرَة من الحبوبِ التي تُستخدم فقط من قِبل أولئك الماهرين في إِعْداد كوكتيل [٢] من الكحول والحبوبِ يُستعمل للتَخْدِير .

لقد اعتدتُ الآن على مُرَاقَبَة الموتِ بهدوء . ما عاد الموتُ يُذهلني ويجعلني أقفُ متيبسًا كمسمار من الحديد الصُّلْب ، فقد الموتُ كل سطوته ولم يعد له أي تأثير عليَّ بأي شكل من الأشكال ... ليس بعد الآن !! فبالنسبة لرجل مثلي يعتاد على كل شيء بسهولة .. رجل بإمكانه أن يكتسب عادات كثيرة ، رجل بهذا الطَّبْع النفسي وهذه السَّجِيَّة - دعك عن شخص آخر - يمكنه ببساطة أن يعتاد في النهاية على كُلِّ شيءٍ وأن يألف الموت كشيء من الأشياء ، يمكنه حتى أن يعتاد على موتِه الخاص .. سيَعتادُ عليه ببساطة !! .

---

(١) شكل معروف في ورق اللعب أو (الشدَّة) - (المترجمة) .

(٢) كوكتيل "cock tail" : خليط أو مزيج وهي كلمة إنجليزية معناها « ذيل الديك » .. وسُمي المزيج المُركب من عدة أشياء بذلك لأن ذيل الديك ملون وتختلط ألوانه مع بعضها البعض - (المترجمة) .

إن كان على المرء أَنْ يَعتاد عَلى أيِّ شيء في (سربرينيتسا) .. فسيكونُ الموت .

صار الموتُ حدثًا مألوفًا جدًّا في (سربرينيتسا) .. كما لو كان عادة شائعة يلتقطها المرء من بيئته بشكل طبيعي جدًّا .

بالنسبة لي ، كان تدخين السجائرِ مُجَرَّد عادَة .. ولكنني بسبب تلك العادَة بَدأتُ ببَيْع التُّحَفِ القَديمة الموجودِة في بيتي [١] . وكنتُ أدفع مائة مارك [٢] مقابل عُلبة سجائر . كَانتْ التُّحَف الأَثرِيَّة القَدِيمة تَفْقدُ قيمتَها تمامًا عندما تتحوَّل إلى ماركات . حتى إنني في النهاية اضطررتُ لأن أرْهن أثمن التُّحَفِ التي في منزلي وأقيِّمها .. نسخة أَثرِيَّة من القرآنِ الكريم مَكْتُوبَة بِالْيَد ..تلك المَخْطُوطة العَتِيقة كَانَت أثمن كُنُوزنا العائليةِ ، كانت تلك المخطوطة عزيزة جدًّا بالنسبة لعائلتي .. وعبر الأَجيال المُتعاقبة في عائلتي كانت بمثابة حِجَاب أو حِرْز [٣] قيِّم وكانت تُعامل باحترام شديد . قمت برهنها فقط لكي لا أُرغم على تَدْخين الشيكيبا [٤] ، التي كان نِصْف محتواها على الأقل مجرد جذورٍ . ولا بأس بتلك الجذور لو أنها كانت جذور التبغِ .. لو كانت كذلك لقبلت بها ، ولكنَّها كَانت خليطًا من جذور مجموعة من الأَعشابِ المختلفةِ . رهنت المصحف واستلمت صندوق السجائر ، وعندما طَويت لَفِيفَة السيجارة ووَضعتُها بين شفتي ، لم أشعر بشيءٍ .. لا شيء !! لِهذا شعرت بالخزي والندم وسألت اللَّه أن يَغْفرَ لي .. أجل قُمتُ برَهنِ المصحف مقابل صندوق سجائر !! استبدلت القرآنَ بعشر عُلَب مِن السجائرِ الأصلية !! إلى هذا الحد كنتُ

(١) الشعب البوسني برجاله ونسائه مُدخن شره ولذلك كانت السجائر من أكثر السلع غلاءً وأسرعها في معدلات الارتفاع أثناء الحرب . إذ تضاعف ثمن العلبة أربعين مرة خلال فترة الحرب ، حتى وصل إلى ثمان ماركات وأحيانًا عشرة . وهو مبلغ مُعتبر للغاية ، إذ يتجاوز راتب الوزير في الشهر ، الذي يتقاضى سبع ماركات . وحينما يعمل الشرطي أو موظف الفندق طيلة الشهر ، ويتقاضى لقاء ذلك علبة سجائر فإنه يصبح محسودًا بين أهله ومعارفه (انظر مقال بعنوان سراييفو المدينة المصلوبة : فهمي هويدي) - (المُترجمة) .

(٢) المارك : وحدة النقد الألماني وقد حلَّت محل العملة المحلية التي انهارت شأن بقية عملات دول يوغوسلافيا السابقة (كانت كلها بالدينار) ولم تعد وسيلة مقبولة للتعامل ولذا حلَّ المارك الألماني محلها - (المترجمة) .

(٣) الحِجَاب أو الحِرْز (التَمِيمَة) : تَعْوِيذَة أو رُقْيَة مكتوبة تستعمل كوقاية من الحسد والسحر والشياطين - (المترجمة) .

(٤) الشيكيبا (shkiya) : خَلطة من أنواعِ مختلفةِ من الأعشابِ الممتزجة مع بعضها تُدخن كبديل عَن التبغِ - (المترجمة) .

غَارقًا في بحر الحماقة . صحيح أن جاري الذي يتاجر في السوق السوداء كان قد وَعدَني بألا يَبِيعَ رَهْني إلى أي شخص ، لكن كلمته لم تُشكل ضَمَانَة بالنسبة لي ، كَانتْ أقل من أن ترقى لمستوى العَهْد ، بل كانت أقل حتى من أن تعزيني لحماقتي أو أن تواسيني لرُعُونَتي وطَيْشي !

* * *

هل هناك ما يُشير إلى أنَّ (أرغنتاريا) كانت مَنْجَمًا لاسْتِخْراج المعادن في إقْلِيم منْطقَة (دومافيا) ؟ أو ما يُشير إلى أنَّ (أرغنتاريا) كانت محطَّة تقع على الطريق إلى (دومافيا) ، في بُقْعَة ما حيث كانت توجد بلدة (كونيفيتش بوليو) ؟ هل هناك ما يُشير إلى أنَّها .... لم يَجِد علماء الآثار جوابًا على أي من تلك الأسئلة ، أو بالأحرى لم يَبْحثُوا عنها كثيرًا ، ربما لأن علماء الآثار قد اكتفوا بأثر قديم يُؤدي الغرض ويكفي فقط لتعليم التلاميذ الإشارة على الخارطة إلى المكان الذي وُجدت فيه مدينة (أرغنتاريا) ذات يوم . المهم أنهم لَمْ يَعثروا على أيِّ معلومة إضافية عنها ، ولم يجدوا تفسيرًا واحدًا يُمكن أن يشرح كيف اختفت (دومافيا) عن سطح الأرض ولا أين تقع آثارها ومُنْشَآتها التي نجت من أصابع الزمن وبقيت دون تدمير . لا تتوفر أيُّ معلومات عن مدينة (دومافيا) على الرغم من أنَّها كَانَت أكبر مدينةٍ في إقْلِيم البلقانِ . ولم تكن (سربرينيتسا القروسطية)[1] وهي (سربرينيتسا الثالثة) أوفر حظًّا من (دومافيا) ، بل وربما ليس لها من المعلومات حظٌّ يُذكر .. لم يبحث أحد من علماء الآثار في تاريخ تلك المدينة ولم يفتش أحدهم عن ماضيها بما فيه الكفاية ، لم يوجد من بين علماء الآثار من يتعجل الحصول على إجابات لتلك الأسئلة الحائرة ، يبدو أن أحدًا لم يتحمس لذلك البحث بشكل كبير ، أو بالأحرى لم يرغب أحدٌ في ذلك البحث .

صحيحٌ أنَّ (سربرينيتسا الثالثة) أصغرُ كثيرًا من المدينتين السابقتين التي قامت على أنقاضهما بعد اختفائهما الغامض تمامًا ، لكنها مدينة هامة يزيد عدد سكانها عَنْ ثلاثة وأربعين ألف ساكن ؛ لذا لا بُد أَنْ يتساءل المرء : كيف يُمكنُ أنْ تختفي مدينة كتلك بهذه البساطة ؟ أين يمكن أن تقع تلك المدينة الكبيرة ؟ وإذا كانت

---

(١) البوسنة التي وجدت في القرون الوسطى - (المترجمة) .

مدينة (سربرينيتسا) الرابعة والأخيرة أقصد (سربرينيتسا المعاصِرة) التي كانت قائمة قبل هذه الحربِ مُباشرةً ، قد ضَغَطتها يدُ الزمان وحشرتها بإحكام في شِعبِ ضيق بين التلالِ ، ويُمْكِنُها بالكاد أَنْ تتسع وبصعوبة بالغة لأقل من عدد سكان (سربرينيتسا الثالثة) بسبع مرات ! فكيف يمكن أن تختفي مدينة كبيرة كتلك ؟ وأين اختفت معالمها ؟ ...

ليس هناك أي تحقيق تاريخي يشرح كيف ومتى اختفت تلك المدن الثلاثة البائدة .

لقد اختفت مدينة (أرغنتاريا)

ومدينة (دومافيا) لم يعد لها أي وجود .

و(سربرينيتسا القروسطية) أو (سربرينيتسا الثالثة) قد دُمرت .

وتم سحب آخر جنود الحراسة من (سربرينيتسا المعاصِرة) .

هل ستلحق (سربرينيتسا الأخيرة) بأطلانتا [١] ؟

.. أطلانتا البوسنية !!

* * *

وقع الاختيار عليَّ لأُخبر السيد (صبريا ميهانوفيتش) بوفاةِ ابنِه (فيهان) .

« شخص ما يَجِبُ أَنْ يُخبرَه ، لكي يعلم بأنَّ الخبر قد جاءَ من عندنا ، هذا هو الشيءُ الوحيد الصحيحُ الذي علينا أن نفعله ، شخص ما يَجِبُ أَنْ يَفعل ذلك ، ومن يقوم بهذه المهمة إن لم تفعل أنت ؟ وليكن بمعلومك ، هذا أمر . أما الباقون .. ، لا أَعْرِفُ كَيفَ أُوضِّحُ لك ، حَسنًا أنت تَعْرِفُهم ، ليس لديهم الشجاعةُ الكافية ليفعلوا ذلك ، لا يمكنهم استجماع قواهم لإخْباره ، لذا فكَّرنَا في الموضوع جيدًا واستنتجنَا أنَّك أقلُّنا خوفًا من الموتِ ، كما أنك كنت إمامًا أيضًا » .

كيف يمكن لأحدٍ أن يُوافق على ذلك ! من بين كُلِّ الناس اختاروني أنا ؟ رُبَّمَا

---

(١) أطلانتا (أطْلنتيس) : جزيرة خرافية يقال : إنها كانت موجودة منذ زمن بعيد في المحيط الأطلسي ثم ابتلعتها مياه المحيط واختفت من الوجود - (المترجمة) .

لأنني كنت أكثرهم تَرَدُّدًا على الجنائزِ .. ولأنني شاهدتُ العديد من الجنائز .. ولا أخفي أنني كُنْتُ أفعل ذلك تحت تأثير اعتقادي بأنَّني إن قمت بذلك فسوف أكْسب احترامَهم . في الحقيقة ، كانوا يرهبونني لِهذا السبب ويخَافون منِّي إلى حَدٍّ ما .

إن كان هناك أيُّ شيءٍ يمكنني أن أعْرفه جيدًا ، فهم فتيان كتيبتي . أَنا مُتَأَكِّد من أن العديد مِنْهم لَمْ يكونوا يأبهون بالموت ولم يهابوا منه أبدًا . كانوا ينْقَضُّون بحماسٍ لحمل السِّلَاح ويتسابقون على أسلحةِ الموتِ كما يتسابق الأطفال في الشُّوارع . كانوا يُقبلون على الموت بحماسٍ عجيب دون تراجع غير مبالين بخطر الموت المُتربص بهم في كلِّ مكان ، لَمْ يخْشَوا المُخَاطَرَة بالتقدم لعشرات مِن الكيلو متراتِ باتجاه القِسْمِ الخَلْفِيِّ من قوات « التشيتنيك » الصربية . كانوا قد عادوا للتو من المهمات العصيبة التي كانت فرص الموت فيها أقرب كثيرًا من أي فرصة للنجاة . ولكنهم تعرفوا في هذه المهمة على نوعٍ مختلفٍ من الخوفِ من الموت .. خوف من نوع آخر ...الخوف من الموت الذي لا يخُص أحدهم بصفةٍ شخصية .. عرفوا الخوف من موت أشخاص آخرين . ربما كان خوفهم من موت الآخرين هو الذي يُذكرُهم بموتِهم الشخصي كانت تلك الهواجس تخيفهم أكثر من كلِّ اللحظات الرهيبة التي كانوا يتعرضون فيها للموت بالفعل .

فكَّرتُ برَفْض الأمر . فتنفيذه أصعب من أن أيَّ عقوبة للتمردِ يمكن أن أتعرض لها . (فيهان) هو الابنُ الثالث لـ (صبريا) وقد قُتِلَ وهو يحمل بُنْدُقِيَّة في يَده .

أنا الذي لا زِلتُ حيًا ، بأَيِّ حقٍّ يمكنني أن أَقُولَ أيَّ شيء لـ (صبريا) ؟ كان (صبريا) هذا هو من أنقذ حياتي . وبمجرد أن لحظ وجودي على بابِ غرفتِه ، خفض رأسَه نحو الأرض وقالَ :

– « أَعْرِفُ .. أعْرِفُ لِماذا جِئتَ ؟ ادخل . هذا لَيسَ خطؤك ، إنها مشيئة اللَّه » .

خيَّم السكون على كلينا لمدة ساعة تقريبًا ، وربما لمدة ساعة ونِصْف .

لفَّنا الصمتُ وسكتنا سكوتًا مُطبقًا .. لم ينطق أحدنا بحرف واحد ، بل لم يسعل أحدنا سعلة واحدة ، لم نَستطع أَنْ نَسْمعَ حتى همس أنفاسنا ، وجلسنا ننصت لصوت الصمت ...

سَألته بينما كُنتُ أَنْهض :

- « هَلْ أخبرَك أحدٌ آخر قَبلي ؟ » .

- « بمجرد أن رَأيتُك ، عَرفتُ » .

قُلتُ :

- « رحمة اللّه عليه » .

أجاب العجوزُ المُرْهَق بتنهيدة مشوبة بالحَسْرَة والألم :

- « آه .. نعم » .

تُرى هَلْ بدأت أُشْبهُ الموتَ إلى حدٍّ كبير ؟ هل بدأت ملامحي تأخذُ شَكْل الموت ؟ هَل اكْتَسَبْتُ ملامح الموت أم أنني أنْتَحِلُ شَخْصِيَّةِ الموت ؟ هل تعرَّف (صبريا ميهانوفيتش) على الموت في تقاسيم وجهي ؟ حيث إنه قد تم اختياري وترشيحي لأن أكون رسولًا للموت ، فلا بد أن يكون في ملامحي شيء ما يوحي بالموت .. إشْعار كئيب أو إنْذار عابس بالموت .. إنني أشبه ما يكون برسالة شؤم تُذَكِّر بالموتِ !!

ولكن كيف احتفظ الأب المفجوع (صبريا ميهانوفيتش) برَبَاطَة جَأشه وبقوَّةِ أعصابه وهدوئه ؟ كَيفَ استطاعَ أن يرتفع فوق عتبات ألمه وأن يعض على جرحه ؟ من أين يَحْصلُ أبٌ مثله على مثل ذلك الصُّمُود الأسطوري ؟!

كُنتُ قد تعرضت - مرةً واحدة فقط - لتجربة كهذه في طفولتي المبكرةِ ، كَانَ ابن عمِّ أمِّي قد مات ، ولا أدري لماذا أحضرني أبواي إلى الجنازةِ في بلدة (زفورنيك) ، كان المتوفى قد تَركَ وراءه خمس بناتٍ وزوجة ضعيفة عَلِيلة لا تعمل . لا أتذكَّرُ ما إن كانت ابنتُهم الصغرى قد بدأت بالْمَشي بعد . وكَانَت الفتاتان الأكبر سنًّا توأمتين ، وكانتا تتقدماني وتسبقاني على سُلم التعليم بدرجة أو اثنتين ، كانتا في الصف الرابع أو الخامس في المدرسة الابتدائيةِ . أذكرُ أن بلدة (زفورنيك) بأكملها حضرت الجنازة إما لأن الميِّت كان يحظى باحترام بالغ جدًّا . أو أن الناس قد حَضروا الجنازةَ بالملابس الرسمية في مثل هذا الحشد الكبير ، لكي يشاركوا أهل المتوفى ويتقاسموا الألم معهم ، وحتى يُبدوا حُزنَهم لأولئك الذين

تركهم ماسِحُ الأَرَاضِي (أحمد) من ورائه ؟

ومنذ ذلك الوقت وإلى أن قامت هذه الحرب لم أحس بمثل تلك الكميةِ من الألمِ العَنِيف !!

وبينما كان الألم يفتك بالجميع .. كَانَ الشخص الوحيد الذي نجح في الاحتفاظ بهدوء أعصابه والذي بقي مُطمئنًا ثابتًا وفي سلام تام مَع نفسه ، هو ذات الشخص الذي كان عليه أنْ يَتحمَّل ذلك الحمل الثقيل الذي خلفه (أحمد) وراءه .. إنه الشيْخ الهَرِم ضَعِيفُ البِنْيَة (حسين بك بورروغوفاتتش) والد (أحمد) .. رجلٌ طويل القامة يضع الطرْبُوش دائمًا على رأسه ومسلم جَلِيل ذو وجهٍ منير يُشرق بالنور من أثر الوضوء .

بعد أن علم الأب العجوز بوفاة ابنه قال بهدوء لم أَستطع أَنْ أفهمه :

- « إنها مشيئة اللَّه »

ببساطة أنا لا يمكنني أن أتفهم مستوى هدوئه ، ولا أَستطيعُ أَنْ أَستوعب درجة ثَبَاته . كان ذلك واضحًا وضوح الشمس في كبد النهار وقد عزز ثبات ذلك الرجل من إيماني وساعدَني في أن أُدرك حتمية وأهمية وجودِ اللَّه ولم يدع لي أدنى مجال للشكِّ في ذلك . لقد تعلمتُ حقيقة الإيمان على يد ذلك الرجل النحيل وقد أفلح في تعليمي أكثر مِما فعل كُلُّ الرجال المتعلِّمين مِنْ عائلتِي وكُلُّ الدعاية الشيوعية المُكثفة المعادية للإسلام ... تفوق الرجل العجوز على هؤلاء وهؤلاء !

فيما بعد ، عندما تقدمت بي السنُّ قليلًا ، وبينما كنتُ أعبر سنوات المُراهقة (١) بكل ما تحمله تلك المرحلة من العمر من اشتِهْواءات وإِغْرَاءات ، كنت كلما تذكرتُ اسْتِسْلام (حسين بك بورروغوفاتتش) لمشيئة اللَّه وخُضُوعه التام لأمر اللَّه ، تجتاحني الأفكار الضالة وتجد الهَرْطَقات طِريقها بيسر إلى عقلي ... مجرد ضلالات فكرية كان

---

(١) المراهقة (Adolescence) : هي مرحلة الانتقال من الصبا المتأخر إلى سن الرشد وتمام الرجولة أو الأنوثة وتمتد من سن الثانية عشرة إلى العشرين ، وهي أهم مراحل النمو التي يمر بها الفرد وأخطرها وتبدأ مع النضج الجنسي الذي يعرف بالبلوغ وتمتاز بالقلق والرغبة في الاستقلال عن الكبار - (المترجمة) .

الشيطان يقذفُ بها في قلبي جعلتني أفترض أن إيمان ذلك العجوز يعودُ إلى شعوره باقتراب أجله وكنتُ أقولُ لنفسي أن ذلك الرجل العجوزَ لا بد وأنه كان ضَحِيَّة لخوفه وذُعره من الموت الذي كان قد اكتسح بالفعل كل جزء من جسده ، ووقع باسمه على لوحة وجهه المجعد ، وتوصلتُ إلى حقيقة مفادها أن كبار السن وأولئك الذين تكيفوا مع شَيْخُوخَتهم وتصالحوا مع عجزهم هم وحدهم الذين عليهم أن يقدموا مثل ذلك الاسْتِسْلام والـخُضُوع .. بالطبع توهمتُ ذلك وظننتُ أنني على حق .

ومرَّت خمس عشْرة سنة تقريبًا ، ثم ماتَ أبي أيضًا . وقام (حسين بك بوروغوفاتتش) أيضًا بأداء صلاة الجنازة عليه قبل دفنِه .

وقد نجح الشيْخ الهَرِم في تربية جميع حفيداتِه تربية جيدة ووَضْعهن على المسارِ الصحيحِ . لَيستْ بينهن واحدة بدون درجة جامعية ولم تتَزوَّجْ إحداهن برجلٍ مُلْحِدٍ . وكذلك لم تتزوَّج أمُّهن- كنَّته - مرةً ثانية !!

لا شك أن الزمان يمنح الرجال العجائز فترة زمنية أطول من غيرهم تسمح لهم بالتحَرُّك لمسافة أطول على طريق الحقيقةِ ؛ ولهذا السبب تتوفر لديهم فرصة أكبر من غيرهم من صغار السن لفَهْم الحَقِيقَة وتَمْيِيز الواقِع وإدْراك الحقائق الكبرى في الحياة . هذا صَحِيحٌ تمامًا ولكن هذا لا يعني أن إيمان العجائز باللّٰه واطمئنانهم لقدره ورضاهم بمشيئته سببه اقترابهم من الموت ، فإيمانهم العميق باللّٰه لا يَنبغي أنْ يُنْسَبَ إلى خوفِهم من دنو الأَجل وشعورهم بالاقتِراب كل يوم مِنْ لحظة الاستقالةِ النهائيةِ من الحياة .

* * *

حتى لو أَشْهَرَ أحدهم سلاحًا بوجهي وهددني بسَحْب الزنادِ إن لم أَتذكَّر الاسمَ الكاملَ لـ (نامق الأسود) ، ما كنت لأتذكر أي الأسماء كَانَ اسمَ عائلته . بالرغم من أنَّه من الشعوب التي يُنادى أبناؤها بأسماء عائلاتهم . كَانَ (نامق) لاعبَ كرةِ قدم . وعندما كَانَ يَلْعبُ في فريق (غوبر سربرينيتسا) كانوا ينادونه بـ (نامق الأسود) . لم يكن أسمر البَشرة . كما لم يكن لون شَعره مختلفًا عن بقية البوسنيين ، لم يكن أسود .. في الحقيقة لم يكن لون شعره من أي الألون المعروفة .. ولم يكن له أي صفة مُحددة .. بل إنني لا أعرف حتى ما إذا كان (نامق) هو اسمُه الأولُ !

وعندما انتقل إلى نادٍ مصنف من الدرجة الأولى ، كان كُلُّ سكان (سربرينيتسا) يَهتفون ويهللون من فوق أسطح البيوتِ عندما تَظْهرُ مقالة في الصحف تتحدث عنه . فقط لو أنني انتبهتُ لذلك لكان بوسعي أن اكتشف اسمه الحقيقي واسْم عائِلته من خلال تلك الصحف . ولكنّي في العادةِ لم أكُنْ مُغرمًا بقراءة الصفحات الرياضية ولم أهتم يومًا بالقسم الرياضي في أي جريدة . كُنْتُ مُؤَيِّدًا متحمسًا لنادي (غوبر) ، وعندما وَصلَ (غوبر) إلى المباريات التصفيات شبه النهائية في الكأسِ اليوغوسلافي بعد فوزه - في مباراة أُقيمت في (سربرينيتسا) - على نادي (فيلز) مِنْ (موستار) ، وكان قد تَغَلَّبَ سابقًا على نادي (بودوشنوست) في قلبِ (تيوغراد) وأزالَه من طريقه . وعندما حقق فريقي المُفضل (غوبر) كل تلك الانتصارات كانت التفاصيل تُنشر على صفحات القسم الرياضي فقط ولكني على الرَّغْمِ مِنْ ذلك ، لَمْ أتخَلَّ عن عادتي في قراءة الصحُفِ ..وكالعادة تخطَّيت صفحات القسم الرياضي ... تجاوزتها كعادتي ولم أقرأْها رغم كل ذلك .

وبينما كانت (سربرينيتسا) تمرُّ بنوبة مُؤَقَّتة من الجُنُون والهوس الشدِيد بكُرَة القَدَم ؛ ذلك الاهْتِيَاج المسعور الذي بالكاد كدت ألحظه في جريدتي ، عَرفتُ أثناء تلك الفترة بِأَنَّ هذا النجاح سَيعيق نادي (غوبر) ويؤخر تقدمه . وقد تَحدَّثتُ عن تنبؤاتي تلك في المقاهي وفي الشارعِ ، وفي كل مكان يتَجمع فيه مجموعة من المُولَعين الخبراء - بالطبع - بكرةِ القدم ليبدؤوا في مُناقشة سياسة كرةِ قدم . ولَمْ أعتبرْ نفسي شَدِيد الذَّكَاء لأتنبأ بذلك .. فالوصول لهذه التوقعات لا يحتاج إلى كثير من الدهاء والفِطْنَة ... فهذا الاستنتاج من البساطة والوضوح بحيث لا يمكن لأحد أن يُخطئه ، ولا مجال للشك في صحته . ولكني ما زالت أتلقى كل الثناء والمديح على بصيرتِي الثاقبة وفِطْنَتي النادرة من قبل زملائي ، كما أن معرفتهم الأكيدة بأنني لَا أَقْرأ صفحات القسم الريَاضِيِّ في الجريدة جَعلَهم يَندهشون أكثر ويتَعَجَّبون لدِقَّة تَكَهُّني وإحْكام نُبوءتي . وكانوا يَعرفون أيضًا أنَّني لَمْ أَسافرْ لحضور المُبَارَاة في (تيوغراد) ، على الرغم من أنني حضرتُ المُبَارَاة مَع (فيلز) فقط حتى لا أبدو كشخصٍ شاذٍّ بدرجةٍ كبيرة ورجل غَرِيب الأطْوَار جدًّا في نظر أنصارِ النادي الحقيقيين المُولَعين بِالفعل بكرة القدم ... فحتى أسوأ المشجعين وأولئك الذين لم تقع عيونهم على ساحة ملعب لكرة القدم في يوم من الأيام جاؤوا ليشهدوا بأمِّ أعينهم

فوز (سربرينيتسا) وتَغَلُّبَها على نادي (فيلز) مِنْ (موستار) . وقد تَلَقَّفت النوادي الكبيرةُ المصَنفة من الدرجة الأولى والثانية لاعبينا المحتَرِفين وقامت باصطيادهم كصفقات رابحة ؛ ولهذا السبب لم يتحسَّن أداء أي فريق من (سربرينيتسا) بشكل ملحوظ ، كمل لم يبرز لاعبٌ واحد مِنْ (سربرينيتسا) في ناديه الجديدِ ، أما نادي (غوبر) فقَدْ ضعف بشدَّة وتدهور سريعًا - كما تَوقعت حينها - واستشرى فيه الوهن الذي لم يبرأ منه بعد ذلك أبدًا .

كان (نامقُ الأسودُ) قد تَركه أيضًا .

* * *

قامت مليشيات « التشيتنيك » بقتل (نامق الأسود) في الـميْدان الرئيسِيِّ لبلدة (براتوناتس) [1] .. وقد نفذوا عملية الإعدام بسعادةٍ اسْتِثْنَائِيَّة أمام أعين البقية الناجية من البوسنيين .. كانوا يمارسون فرحهم السادي [2] وطقوس الموت الوحشيّ التي يعشقونها .. وقد أعلنوا عن تجمُّعٍ حاشد في الـميْدان الرَّئِيسِيِّ بقصد إثارة حماسة الصرب .

---

(١) براتوناتس (Bratunace) : مدينة يبلغ عدد المسلمين بها أكثر من ٢٥ ألف نسمة ، لم يبق فيها الآن أي مسلم حي ، ففي بداية أحداث الحرب تم توقيع اتفاق بين المسلمين والجيش الفيدرالي على أن يقوم المسلمون بتسليم أسلحتهم ويقوم الجيش بحماية المدينة من الصرب المتطرفين . وبعد أن أخذ الجيش الأسلحة طردوا جميع المسلمين من أشغالهم وبدؤوا في فرزهم إلى مجموعتين : الأولى قادوها إلى معسكرات جماعية ، والأخرى للاستجواب والضرب ولاستعمالهم كرهائن وخلال ثلاثة أيام تم قتل ٣٠٠ مسلم وإلقاء جثثهم في نهر (درينا) وحفروا للبعض الآخر حفرًا دفنوا فيها بعد أن مثَّلوا بهم ، وقد تم العثور على عدد كبير من جثث النساء والفتيات المسلمات وهن عاريات ، وقد اغتصبن عنوة ومُثل بهن . كما قاموا بقتل إمام المدينة الشيخ (مصطفى ميجوكوفيتش) . (انظر : دموع سرايفو : ملحمة البوسنة والهرسك ، بقلم /حمدي شفيق ، وهو صحفي مصري قام برحلة جريئة إلى العاصمة المحاصرة سرايفو أثناء الحرب واستطاع أن ينقل صورة دقيقة ومعبرة عن مأساة المسلمين المستضعفين هناك وقامت لجنة الإغاثة الإنسانية بمصر بطباعة الكتاب عام (١٩٩٣م) وجعلت صافي حصيلة بيع الكتاب لصالح الأيتام وأسر الشهداء في البوسنة) - (المترجمة) .

(٢) الساديَّة : مرض نفسي يتلذذ صاحبه بعذاب الآخرين ويجد في ذلك مُتعة غامرة وراحة نفسية كبيرة - (المترجمة) .

لم يكن بوسعهم تجاوز حقيقة أنَّهم لَمْ ينجحوا في إطلاق شرارة الحربِ في هذه البلدةِ الصغيرةِ قبل الآن . وأنهم لم يستطيعوا استفزاز أجواء الحرب فيها . كانوا قد حاولوا ثلاث مرات على الأقل : أولًا عن طريق إصدار بيَان بأن الصرب معرضون للخطر ، ثم باستدعاء جيش مِنْ صربيا لتسوية حسابهم مع الأهالي لإخْفَائهم سجلات المجنَّدين المتطوِّعين ، وأخيرًا بتوظيف خائِنٍ غَدَّار لقتل اثنين من الشبان البوسنيين في كمين .

كان على آخر من بقي على قيد الحياة من البوسنيين في (براتوناتس) أَنْ يشاهدوا (نامق الأسود) وهو يَمُوتُ بدلًا مِنَ الاستماع إلى الخطاباتِ وصَيحة الشعاراتِ . فقد تحولت مليشيات « التشيتنيك » بهذا الحادث من الكلام إلى الفعل وانتقلت من استخدام الخطابات والشعاراتِ إلى ارتكاب الجرائم ، بل كانوا في الحقيقة يُتَمِّمون جرائمهم ويكملونَ مشوارهم الآثم ، كانوا قد افتتحوا حملاتهم الدموية بمذبحة في (براتوناتس) ، ثم انطلقوا بعدها مباشرة للهجومِ على (بيلينا) [١] ، كما لو كانوا يقومون بنزهةٍ مرحة .

وما كان ذلك ليتم بدون شعارات وخطابات أيضًا ؛ إذ لا يَسعهم أَنْ يَقوموا بتلك الجريمة دون إلقاء خِطَاب أو حتى بيَان مُقْتَضب . كانت الأصوات تنطلق مِنْ مُكبِّرات الصَّوْت المثبتة على منصَّة في ساحةِ الميْدان الرئِيسِي للبلدة ، تمامًا كما اعتاد نفس هؤلاء الذين نظَّموا مراسم قتل (نامق الأسود) أن يفعلوا وفي نفس المكانِ - ولكن اليوم بدون حضورِ أغلبيةٍ من البوسنيين - حينما كانوا يستخدمون نفس مُكبِّرات الصَّوْت للاحْتِفَال بـ « مَشْعَل الشبيبة » [٢] التابع للقرية ولإدارة البَلدِيَّة و « مشعل الشبيبة » الجمْهُورِيّ كذلك والاتحادِيّ (فِدرالِي) ، تعبيرًا عن حبّهم

(١) بيلينا (Bijeljina) : مدينة يسكنها نحو ٤٠ ألف مسلم حدثت بها مجازر في ثاني أيام عيد الفطر المبارك لم يشهدها التاريخ في أي دولة في العالم ، وقد دمرت أغلب مساجد المدينة وسويت بالأرض . (انظر : دموع سراييفو : ملحمة البوسنة والهرسك ، بقلم / حمدي شفيق (١٩٩٣م) - (المُترجمة) .

(٢) مَشْعَل الشبيبة : في عصرِ الزعيم اليوغوسلافي « تيتو » ، كان الشباب في كل أنحاء يوغسلافيا يحمِلون الهِرَاوَت بعد أن يشعلوا النيران في أطرافها ويجوبون بها كافة أنحاء البلاد كل سَنَة لإحْياء ذكرى عيدِ ميلاده وكانوا يعرفون بحملة المشاعل - (المترجمة) .

وولائهم لزعيمِهم العظيمِ ؛ إلا أنهم في هذه المناسبةِ لم يَهْتفوا بحياة الرفيقِ [١] (تيتو) ، لم يهتفوا : « يعيش تيتو .. يعيش تيتو » ، لكنَّهم هَتفوا بابتهاج لحياة الجيشِ اليوغوسلافي ، الذي لم يبخل عليهم بأسلحته التي استخدموها على نطاق واسع وقتلوا بواسطتها عشرات الآف من أولئك الذين تَرَبَّوا على الولاء الأعمى لجيشِ (تيتو) والذين كرسوا حياتهم لخدمته .

قالوا :

« لا تتفَرَّقوا ... لدينا إعلانٌ مهم بعد أن تسنت لكم مرةً أخرى فرصة مُشاهدة ما يَحْدثُ للخونةِ جزاءً لهم ، تودُ القيادة الصربية أن تُخبرُكم بأننا سَنُرتِّبُ لدفنِه غدًا رَأفَةً وشَفَقةً بأولئك الذين لم يخذلوا الشعبَ الصربي منكم . وفي نفس الوقت ، نودُّ أن نُخبرَكم بأنه لأجل سلامتكم وأمنكم أنتم ، فقد تم إلغاء قرار السماح بالتجول لهذا اليوم ؛ ولهذا تُعلن الشرطة من جديد أن حظرَ التجول لا يزال ساريًا . وسَنَتولى نحن عملية الدفنِ وسنشارك في الموكب الجنائزي بأنفسنا . وفيما بعد ، سَنُعلمُكم متى وعلى أي محطة تلفزيون صربية يمكنكم أن تشاهدوا تقريرًا مُصورًا عن عملية الدفن » ، استمر المتحدث يتَشَدق وتتَعَثَّرالكلمات على لسانه ، حتى قام أحد الرجال المهَنْدَمين ذوي الملابس الأنِيقة المتواجدين فوق المنصَّةِ بسَحْبَه من كُمِّه وهمس إليه بشيء ...ودوت صيحةٌ مُدويَّة من مُكبِّرات الصَّوْت :

« استمعُوا إليَّ هنا ، أصغوا إلى أمْري .. التزموا بتَعْلِيمات القِيَادَة .. إنها نِهَائِيَّة ، هيا انصرفوا » .

وتفرق الأهالي البوسنيون عن الميدان الرئيسي وساروا على ضفاف نهر (درينا) مَتْبوعين بالحرَّاسِ المسلَّحين الذين انْطَلَقوا خلفهم على إيقاعِ اللحن العَسْكرِيِّ المدويِّ .

* * *

هَذَا اليَوْم ، قابلتُ القائدَ (ناصر) [٢] للمرة الأولى ..

---

(١) الرفيق : زَميل أو عضو في الحزب الشيوعي - (المترجمة) .

(٢) ناصر أوريتش (Naser Oric) : قائد وبطل مقاومة مسلم من (سربرينيتسا) - (المترجمة) .

وقد أُصبت بالدهشة والذهول ، لم أُصدق أن ذلك الأسطورة عمره أقل من خمسة وعشرين سنةً .

كنتُ أظن أن خمسة وعشرين سنة لا تكفي لإنتاج أسطورة كـ (ناصر) وأنَّ صناعة « الرجل الأسطورة » تحتاج بالتأكيد إلى أكثر من خمسة وعشرين عامًا ، أجل لا شك أن إعداد قائدٍ كالقائد (ناصر) يحتاج إلى العديد من السنوات .

لم تكن تلك الأسطورة إلا شابًا غضًّا ، شابٌّ صغير جدًّا لدرجة أنه يُفترض ألا يكون لديه لحية ، إلا أنه كان يمتلكُ لحْيَةً كثيفة وطويلة بعض الشيء على طِرَاز المجاهدين المسلمين ، كما كان يلتزم بزي المجاهدين .. كان قد دَخل ميدان الحرب في عُمرِ الثالثة والعشرين .

وفي نفس الوقت ، كان البوسنيون لا يحبونه ، لكن ذلك لم يُقلِّلْ من وهج الأسطورة ، بل على العكس تمامًا .. زاد من غموضها وحول الأسطورة إلى لغزٍ مُعْضِل .

كان الزوجُ القديمُ مِنْ « أحذية الجرْي » - الذي اشتريتُه مِنْ أعضاء قوات الحماية الدولية - ملفوفًا بصفحة من جريدة ، كانت الصفحة تتضمن مقالةً حول أسبابِ سُقُوط المِنْطَقَة الحرَّة في شمال شرق البوسنة .. كما لو كنتُ قد كَتبتُه بنفسي ، فقط لو كان لديَّ بعض الأوراق البيضاء .. قطعة ورق بيضاء أقل حتى من حجم الورقة التي لَفُّوا بها ذلك الزوجَ القديمَ مِنْ « أحذية الجرْي » .. لو أنني وجدتُ تلك الورقة لأرسلتُ رسالة إلى كل البوسنيين داخل المدِينَة المحاصرة (سربرينيتسا) .. المدِينَة المحكوم عَلَيْها بالموت . ولضيق المساحة المتوفرة على ورقةٍ صغيرة ، كنتُ سأقتصر على ذكر الشروط الثلاثة الأكثر أهميةً اللازمة للنجاة من هذه الحرب ، كنت سأكتب إليهم ما يلي :

« نحن شعبٌ له جذور ضاربة في عمق التاريخ .. كما أننا مشاركون في هذه الحرب التي ستُحقق لنا الشرط الأخير اللازم لقيام أُمة فقط لو أننا استطعنا أن نحافظ على سيرة أبطالنا بعد هذه الحربِ . فهل يعلم أي أحد ما إن كَانَ هناك بطل حقيقي اسمه (مويو هرنيتسا) أم لا ؟ كما أن حِكاية (ليتسانين) الذي عُرف فيما

بعد بـ (ليتسانين الأبْلَه) مَشْكُوكٌ فِيها لدرجة كبيرة . وحتى العَمَلِيَّات الحقيقية لـ (علي جرزلز) مُشْتَبَهٌ فِيها ، بل ومُثِيرةٌ لِلْجَدَل أكثر من غيرها . والأدهى من ذلك أن « تِنِّين البوسنة » وهو اللقَب الموَقر للبطل (حسين غراداشتيفتش بَيَك) قد أُطلق كماركَة تجارِيَّة لبراندي [١] البَرْقُوق الذي كان يُنتج ويُعَبَّأ في مسقطِ رأسه (غراداتشاتس) . وهكذا وبكل بساطة يمكن لسيرة بطلٍ حقيقيٍّ أن تتحول إلى قصَّة خُرافِيَّة يتندر بها الناس .. إننا لَمْ نحافظ على الحقيقة التاريخية حتى لأنفسنا عندما كنا نجري المبَاحَثَات والمناقشاتِ العَقْلانِيَّة ونتَشَاور حول ما إن كانت شَجَاعَته في سبيل البوسنة ، وعندما كنَّا نقارن بُطُولَته وبَسَالَته بعمالَة وخِيانَة (علي باشا ريزفانبيجوفيتش) تمامًا كما غسلوا ذاكرتنا وحَرمونا حتى من ذِكْر البَسَالَة والبطُولَة البوسنية في الحرب العالمية الأولى [٢] . لكن في النصف الثاني من هذا القرنِ ، كـانت الأمهات البوسنيات يَحْملنَ في أحشائهن الأطفال الذين كَبروا مع أفول شمس هذا القرنِ ، واشتد عودهم مع هذه الحربِ ليصبحوا أبطال البوسنة الجدد الذين لا يتطَرق الشَّكُ إلَيهِم ولا مَجَالَ لِلطعْنِ في إخلاصهم ولا جِدَالَ في بسالتهم . وبدونهم لن تكون هناك أيٌّ بوسنة .. فعندما يُمحى الأبطال من ذاكرة البوسنة لن تكون هناك أيٌّ بوسنة .. إنني أخْشى أنه حتى ما قَدْ يَبقى من البوسنة

---

(١) البراندي (كُونياك) : شَرَابٌ مُسْكِر - (المترجمة) .

(٢) الحرب العالمية الأولى : حرب نشبت بين الحلفاء ودول الوسط عام (١٩١٤م) وانتهت بانتصار الحلفاء عام (١٩١٨م) ، وقد اندلعت شرارة الحرب عندما قام أحد شبان البوسنة بإطلاق طلقة نارية على وليِّ عهد النمسا وأدت تلك الطلقة إلى مقتله وترتب على تلك الحادثة أن أعلنت النمسا والمجر الحرب على أهل الصرب والبوسنة وبذلك بدأت الحرب العالمية الأولى . من أسبابها البعيدة نمو النزعة القومية في أوربا ، والصراع السياسي والاقتصادي والاستعماري بين الدول الكبرى ، وتصميم الفرنسيين على استرداد الألزاس واللورين من ألمانيا ، والديلوماسية السرية التي أدت إلى قيام معسكرين متناحرين في أوربا : معسكر التحالف الثلاثي الذي ضمَّ ألمانيا والنمسا - المجر - وإيطاليا ، وقد انحلَّ بدخول إيطاليا وروسيا . وقد لقي مسلمو البوسنة في هذه الحرب ضربات أليمة وخسروا خسائر كبيرة في العدد والعتاد حتى إذا انتهت الحرب وسقطت إمبراطورية النمسا والمجر ، فرح المسلمون فرحًا عظيمًا لهذا الحدث ، فقد كان هدفهم التخلص من الاستعمار النمساوي المجري ، وفي أعقاب الحرب نشأت مملكة الصرب والكروات والسلوفين عام (١٩١٨م) ، وأعلنت المملكة الجديدة دستورها الجديد الذي يضمن حرية الاعتقاد والاشتراك في الحياة الوطنية العامة ؛ ففرح المسلمون بذلك كثيرًا لكن سرعان ما تغير الدستور وحرم المسلمون من التمتع بالمساواة والحقوق بعد التغيير - (المترجمة) .

سيكون بوسنة محرومة من قوَّةِ الذاكرة والقدرة على التَذَكر ، بوسنة اعتادت النسْيان والبحث عن زَلَّات وهَفَوَات أفضل أولادها الذين قُدر لهم النجاة . أَخْشى أنْ الموت وحده يُمكنُه أنْ يحافظ على أبطال هذه الحربِ بالذات من التقاليد البوسنية الموغلة في القدم التي حرمتنا لقرون طويلة من حقنا في أن يكون لدينا أبطالنا التاريخيين .. الأبطال الذين يشرفون تاريخنا نحن بشكل خاص .. لعل الموت فقط يمكنه أن ينقذ هؤلاء الأبطال من أن يجرفهم طوفان النسيان .. » .

لكن ، حتى إن توفر في قطعةِ الورق تلك مجالٌ أكبرُ يسمح لي بمحَاوَلَة الإشارة إلى شرط واحد من الشروط الثلاثة الأساسيةِ الضرورية لإنقاذ البوسنة ، فإنني أشك بأن ذلك الجندي التابع لجيش الأمم المتَّحدة قد يستردُّ حذاءه الممزَّق – حتى وإن قدمته إليه كهدية – وهو بالتأكيد لن يُقدِّمَ رسالتي إلى العالم .. كما أنني أشك في أن أحدًا سيعتقد أنها رسالة مُهمَّة .

إنني أخشى على (ناصر) ... كم أخَافُ على هذا الشابٌ اليافع ، سيقول الناس عنه كل الأشياء الممكنة .. سيقولون ما فعله ، وما لم يفعله ، وما كان يجب عليه أن يفعله .. ولكنهم سَيَنْسونَ عُمرَه الصغيرَ وكيف أنَّه أبلى بلاءً حسنًا .. وكان شُجاعًا أكثر مِما يُمْكِنُ أن يتخيَّله أي عقل .

سامحوني يا إخوتي البوسنيين ، ولكن الحقيقة أنَّ عددًا قليلًا جدًّا من أهل البوسنة استطاع أن يُقاوم ويصمد أمام « التشيتنيك » أكثر مما فعل القائد (ناصر) ، وتلك المقاومة الباسلة التي أشعرت الصرب بأن المقاوم البوسني لا يزال مُحتفظًا بشجاعته ولا يخاف منه مطلقًا .. هي وحدها كانت السبب – بعد اللّٰه – في تحقيق إخفاقات هائلة في أطماع الصرب التوسعية وبفضلها بدأ الصرب يخسرون الحرب ، وفي النهاية أرغمتهم تلك المقاومة الشجَاعة على إبْرام اتفاقية السلام . وافتراض أي سبب آخر غير المقاومة أو اقتراح أي تفسير آخر لا يعدو أن يكون خداعًا تاريخيًّا للذات ولذاكرة الوطن ، لا يَجِبُ أنْ تَقْبلَ الأجيال القادمة ذلك النوعِ مِنَ الاحْتِيَال على الذاكرة وذلك المكرِ التاريخي .

إنني لَستُ قلقًا لأن البوسنيين كانوا بالفعل لا يحبُّونَ هذا الشابَّ الصغير ،

ولكني قلق ؛ لأنهم يُريدونَ تَحْطيم الأسطورةِ الحقيقية من خلال مزجها بالهراءِ واللغْو الفارغ - وهو ما يُعد أسطوريًا في سَخَافَته وحمَاقَته - ولكن الناسَ ما زالوا يَستمعُون إلى ذلك الهراء دون لحظة تأمل أو تفكير واحدة [١] .

قبل أيام قَليلة قام القائد (ناصر) بتنظيم سباقٍ للخيل . والناس في (سربرينيتسا) يحبون سباق الخيول ويُحبُّونَ كذلك مصارعة الثيران التي يحبها أيضًا البوسنيون في الجهة الغَرْبِيَّة من البوسنة - في الجبهة المقابلة لـ (سربرينيتسا) - أولئك الذين يُدافعُون عن البوسنة ويحمون أطرافها الغربية .

وفي أوقاتِ السلم ، ما كان لأي حدثٍ آخر غير مصارعة الثيران وسباقِ الخيول أن يجمع تلك الحشود الهائلة من الناس كل يوم ، كما تتجمع الآن تلك الحشود البشرية في (سربرينيتسا) وتتزايد أعدادها يَومًا بَعدَ يَومٍ أثناء هذه الحرب .

مِنَ المحتَمَل أن ذلك الشاب الملتحي قد تذكَّرَ الحِكْمَة القديمة التي لا بدَّ وأنها كانت صحيحةً تمامًا في أيام العصر الروماني وكان يتم العمل بها في (سربرينيتسا) الرومانية .. كانت تلك الحِكْمَة المأثورة تقول : « إن الشعب بحاجة إلى الخبز والألعاب » ، ويبدو أنه لهذا السبب قرر أن يُقدم الألعاب للشعب الذي لم يكُنْ يمتلك حتى كِسرة خبز .

---

(١) تحدث السيد الرئيس (علي عزت بيجوفيتش) في كتابه الرائع « هروبي إلى الحرية » عن ظاهرة « صناعة الأساطير » التي لا تكف الشعوب عن صناعتها واختلاقها حتى في حال غيابها تمامًا من الواقع وعن رغبة الشعوب وحاجتها إلى الأبطال : « جميع الناس ، حتى الناس غير الواعين لذلك في دواخل أرواحهم يعشقون الشجاعة ، وعدم الأنانية ، وعدم الاستغلال ، فلماذا اخترعوا من دون جهدٍ أبطالًا يتحدون بشجاعة المصير والموت ؟ كل الناس ، هم شعراء وصوفيون وورومانسيون ، فلماذا يتبدى هذا الضعف الجماعي أمام الرايات والرموز والأناشيد الوطنية والأبطال الرومانسيين . والذين يموتون بدون أسف من أجل أوطانهم أو امرأتهم الحبيبة من هي تلك المخلوقات التي تملأ دور السينما . التي يعرض فيها الأبطال الذين يشبهون ذواتهم أكثر مما يشبهوننا ، فإذا كانت الحقيقة أن مثل هؤلاء الناس لا يوجدون في الحياة أو أنهم موجودون في الأدب . يبقى السؤال لماذا يخلقهم بلا انقطاع خيال كل الشعوب منذ القدم ؟ إننا لا نقدم إعجابنا لما نحن فيه . وإنما لما لسنا فيه ، ولكل ما أردنا ، أو من الضروري ، أن نكونه » - (المترجمة) .

والمشكلة أنه في إحدى سباقات الخيل رَبحَ حصان القائد (ناصر) وكان قد أعطاه بَعْض السُّكرِ . وهذا ما فعله أصْحاب الخيول الآخرين ، بل وحتى الخيولِ الأخرى التي لم تربح كانت على الأغلب قد تناولت أيضًا بَعْض السكرِ . وما نوع سباق الخيل الذي يُمكن أن يتم بدون إطعام السكرِ للخيولِ ؟! ولكن الإشاعة كانت قد انطلقت سريعًا لتملأ الآفاق ، أشاع الناس أن حصان (ناصر) فقط هو الحصان الوحيد الذي أعطي السكر قبل السباق ، بل إنه في الحقيقة قد تناول كمية من السكر أكبرَ من تلك التي رَأتْها كل الجدَّات في (سربرينيتسا) أثناء فترة الحربِ .. الجدات اللاتي لا يَستطعن أن يتخيَّلنَ الحياةَ بدون قهوة [١] .

وأيًا كان مِقْدار السكر الذي تناوله حصان (ناصر) فالمَوْسُوعَة [٢] تقول : إن جسد الحصان الحي لا يَستطيعُ أن يتناول أكثر مِنْ عشْرة غرامات مِنَ السكر في اليوم الواحد وأن جسد الحصان بشكل خاص لا يَستطيع أن يُعالجَ أكل الكثير من السكر كل يوم لمدة شهرٍ واحد .

لا أَدري كم عدد غرامات السكّرِ في المكعَّب الواحد ! .

* * *

كُنْتُ في الخندقِ ، على الخطوط الأمامية باتجاهِ (غلوغوفا) ، عندما ظَهرَ (نامق الأسود) أمام عيني فجأة ... كُنْتُ بمفردي فقد كان الخندق خاليًا .. في الحقيقة كان خندقًا وهميًا تم حفره لتمويه الأعداء . ولم يكن هناك أحد من عصابات « التشينتيك » بالقرب من المكان ، وقد ذَهب اثنان مِنْ رفاقِي في السلاح للقيام بجَولة حول تلك القريةِ التي سُلِبتْ ونُهِبت أكثر من أي حي آخر من الأحياء البوسنية المجاورة .. لم تكن هناك حاجة للصعُود من الخندق والجري من مكان لآخر بشكل سريع ومتعاقب ، ثم النزول لأسفل الخندقِ حتى يُخْدعَ العدو بإطلاق النارِ المتعاقب مِنْ مواقع مختلفة . فحتى قبل أن تبدأ الحرب في النصف الأوَّلِ من عام (١٩٩٢م) ،

---

(١) يتناول المسلمون في جمهورية البوسنة والهرسك القهوة المعروفة بالتركية بكثرة إلى جانب الشاي - (المترجمة) .

(٢) المَوْسُوعَة : دائِرَةُ مَعَارِف - (المترجمة) .

خرجت عصابات « التشيتنيك » - السيئة السمْعَة - من (كرافيتسا) ، وقامت بحرق القرية أولًا ثم تسويتها بالأرض على سبيل الاحتياط خوفًا من أن تنزَلِقَ القرية من بين أيديهم وتحسبًا لأن تخرج عن سيطرتهم . ولستُ أدري هل قُتِل أناس أكثر في أي قرية أخرى أم لا ؟ لكنني أعتقد أنه لا توجد قرية أخرى فقدت عددًا أكبر من الضحايا ، وكنا قد استولينا على تلك القريةِ المهْجُورة والمدَمرة بالكامل مع بِداية السَّنَة الجديدة . وفي ذَلِك الوَقت ظَهرت الأغنية التي تقول :

« من ذاك الذي يَمُرُّ من خلال (كرافيتسا) في يوم عيد الميلاد ؟ » ، وكنت أدندنُ وأقُولُ : « (ناصر أوريتش) وليَسَ (كرقراجورجا) .. »

وعندها ظهر (نامق الأسود) من حيث اللامكان .. لا أدري من أين انشقت عنه الأرض ليقفز أمام عيوني فجأةً .

لَمْ أكن مُجهدًا لدرجةٍ كبيرة ، بل كنت في حالتي المعتادة وبكامل قوتي البدنية .. ولم يكن هناك أدنى سبب يدعوني لأن أفْرك عيونِي فقد كانت حاسة الإبصار لدي مثالية تمامًا . لكن المشهد كَانَ لا يُصدق .. من وسط المرْجِ ، ومِنْ عمقِ الأراضي المهجورة المقفرة على الجانبِ الآخرِ لقريةِ (غلوغوفا) البوسنية .. كان (نامق الأسود) يمشي باتجاهي !!

كان قد أُلْقِيَ القَبْضُ عَلَيْه في قريته (براتوناتس) ، في الحقيقة فاجأه الصرب في شُقَّتِه . ولم يجدوا لديه أي شيء يُمْكِنُ أن يُعرضه للشبهة أو يُدينه ، كما لم يعثروا على أي شيء يصلح للمُسَاوَمَة وفقًا للمعايير الصربيةِ . ولم يكن لديه أدنى صلة بالسياسةِ ، كما لم تكن لَه علاقة بالمسجد أو بأي شيء آخر ، لم يكن لديه أي علاقة بأي شيء غير كرة القدم . ولكنهم قالوا :

« أها .. ها قد عثرنا على واحدٍ منهم لَنْ يَسعه أن يقَول : إنه لَيسَ بريئًا » .

وفي حضورِ من بقي من البوسنيين في (براتوناتس) ، قاموا بتقطيعه إربًا في الميدان الرئيسي .. وبَعْدَ ذلك - وكما أعلنوا فور تنفيذ الإعدام في الميدان العام - منحوه جنازة شعبية عامة ، وفوق ذلك ، فقد تشكلت لجنة تنظيمية خاصَّة لأجل تلك المناسبةِ . كما وَصل بَعْض ضبَّاطِ الجيشِ اليوغوسلافي خصيصًا مِنْ (كنين) ،

كانوا يرغبون في مشاهدة مراسم الجنائز عند المسلمين وحضور جنازة إسلامية وقد تصادف في ذلِك الوَقت وجود طاقم صحفي لمحطة تلفزيون أجنبية في (براتوناتس)، وكذلك وجود (يوفان غلافونيتش) الذي عُرف اسمه حديثًا كمراسل محلي لتلفزيون (نوفي ساد) [1] ، كَانَ مكلفًا على نحو خاصٍّ بمهمة إعداد تقرير حول هذا الحدثِ يُظهر كيف أن المسؤولين الرسميين في الحكومة الصربية والمنَظمين القائمين على مراسم الجنازة يعملون بلطف على رعَاية العادات والتقاليد الإسلامية ويتعَهَّدَون بحماية الأعراف الإسلامية الأساسيةِ في قلبِ أوربا ، وأنهم يقومون بذلك فقط لاستِمَالَة إخوانهم المسلمين ولأجل الوصُول إلى تعايش سلمي ين الصرب والمسلمين .

منذ ذلك الحين ، وحتى أثناء الحرب ، كان على ذلك المراسل التلفزيوني أنْ يُؤدِّي واجبَه ، فقد كان مثقفًا ناشطًا في الجامعةِ الأهلية منذ أيام السلم ، وكان من المقرَّرِ له أن يَهتم بتَوَظيفِ بقيَّة أعضاء فِرْقَة هواة المسرحِ السابقةِ أيضًا في هذا العمل التطوعي . كما صدر أمرٌ أيضًا إلى الصليب الأحمرِ بإصْدار ثلاثمائة إيصال مَخْتُوم للمراسل ، لتوزيع فائِض صَناديق الإعانة الخاصة باللجنة العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدةِ على المواطنين الذين وافقوا على أن يتعَطفَوا - بصناديق الإعانة الزائدة عن حاجتهم - على المسلمين المنْكوبين الذين - أقعدهم الحزنُ .

وقد تعجب المصوِّر الأجنبي - الخبير بآلة التصوير والتابع لطاقم التلفزيون - عندما رأى قَسًّا [2] في زِيٍّ رجل الدين المسلم ولَمْ يُحاول السَيْطَرَة على نوباتِ الضحك التي انتابته ، وكانَ يَهز ذراعيه ويأرْجحهما كثيرًا . فقام بلفت انتباهِ زميلِه المراسلِ . وبدوره سَألَ المراسلُ العالمي المحنك عن تفسيرِ لذلك ، وقد كشفت له الإجابة عن حقيقة مثيرة .. قالوا له : إن ذلك القَسَّ هو أحد أعضاء فِرْقَة إسلامية طقوسها مختلفة بعض الشيء ، وهو شيء يمكن تَمييزه مِنْ خلال المؤكِب الجنائزي الذي كان فيه بَعْض البوسنيين الذين يرتدون زيًّا أسود !!

---

(١) نوفي ساد (Novi Sad) : إحدى أهم المدن الصربية - (المترجمة) .

(٢) القس : أحَدُ رِجَالِ الكَهَنُوت في الدين المسيحي - (المترجمة) .

كان عدد كبير مِنَ الأرامل الصربياتِ قد سُجِّلن كإضافيات في كشوف المِنْحَة الإنسانية ، وقد فسر المراسلُ المحليُّ ذلك لمشاهديه قائلًا بأنَّ التعايشَ مَع بقية المسلمين الموالين للصرب قد ازْدهَر ليصل إلى هذا الحد ، لدرجة أن أمَّ لاعبِ كرةِ القدم (الذي مات سابقًا نتيجة لأسبابٍ طبيعيةٍ) قد لَبِست الثياب السوداء أيضًا واتشحت بالسواد احترامًا للعديد مِنْ أمهاتِ الجنود الصرب اللاتي يتحَرقن لَوْعَة وحزنًا على مقتل أولادهن المخلصين للقضيةِ الصربيةِ واللواتي انضممنَ إلى الموكب الجنائزي . وقد تَواصلت تلك الصور المتَوالِيَة عن انتصار الإخَاء وغَلَبة الوحدةِ الوطنية ، بعد انهيارِهما تمامًا على أرض البوسنة والهرسك السابقة وتجلت بوضوح أكثر من خلال صورَة فُوتُوغْرافِيَّة التقطت مُؤخرًا أثناء إحدى الجنَائز الصربية العديدة .. صورَةٌ مُقرَّبة لوجهِ باكٍ لسيدة عجوز في ثوب الحِدادِ !!

وعلى شاشاتِ التلفزيونِ العالمية ، احتلَّ التقرير حول مراسم الدفن الجنَائِزِيَّة في (براتوناتس) مِسَاحَة خمس عشْرة ثانية بأكملها ، وإلى جانب المديح والإطْراء الذي نالهما مراسل تلفزيونِ (نوفي ساد) لجهده المهني ، فقد حصُل أيضًا على التَّأنيب والتوْبِيخ ؛ لأن تقريرَه لَمْ يتضمن صورًا لقبور المسلمين الشاعِرِيَّة والبديعة المظهر الموجودة في البوسنة .. وقد احتجَّ مراسل التلفزيونِ بحدَّة ، وقال - مجادلًا المسؤولين عن التلفزيونِ الإقليمي الرسمي : إنه كَانَ عليهِم أن يكونوا على علم تمامًا بحقيقة أن المقبرة الإسلامية في (براتوناتس) كَانتْ من أوائل معالم المدينة التي تم محوها وطمسها كليًا ، بعد المسجدِ الأولِ في البوسنة في مدينةِ (ولاسنيتسا) [1] المجاورةِ ، الذي تم هدمه تمامًا وتحول إلى حُطَام في (٢١ أغسطس / آب ١٩٩٢م) .

---

(١) ولاسنيتسا (Vlasenica) : مدينة تقع في شمال شرق البوسنة بجوارِ (سربرينيتسا) مباشرة ، وفي المنطقة الملاصقة لها تمامًا . يسكنها أكثر من ١٥ ألف مسلم جرت فيها معارك طاحنة أدت إلى تخريب مساكن المسلمين وهدم جميع مساجدها بحيث لم يعد بإمكان المسلمين أن يسمعوا الأذان وأن يقيموا شعائرهم الدينية ، وقد انتزعت أسلحة سكان المدينة بالقوة ، وفي أحد شوارعها الرئيسية وأثناء مرور مجموعة من الصحفيين الأجانب تم العثور على عشرات الجثث الهامدة على قارعة الطريق ، والتي لا تجد من يكرم مثواها . كما أرغم سكان القرى المسلمة المجاورة لمدينة (ولاسنيتسا) على إخلاء قراهم والخروج منها وأثناء خروجهم تم القبض عليهم ووضعهم في معسكرات جماعية . (انظر : دموع سرايفو : ملحمة البوسنة والهرسك . بقلم / حمدي شفيق (١٩٩٣م) - (المُترجمة) .

وبالإضافة إلى تقرير التلفزيونِ كان هناك أيضًا شهود غَيْرُ مُتَحَيِّزين أيضًا حضروا الأحداثَ كاملةً وشهدوا مراسم إعدام ودفنِ (نامق الأسود) .. كَانوا قد وصلوا إلى (سربرينيتسا) بشكل مستقل عن بعضهم البعض ، وكل على حِدة وبالمفرداتِ نفسها ، أكدوا بأنَّه قَدْ تم تقطيع جسده بالفعل إلى قطع وأنه دُفِنَ أيضًا كقِطَع مُبعثرة . وبَعْدَ أن بلغوا (سربرينيتسا) الحرَّة كانوا بين الحياة والموت لا أحياء ولا أمواتًا ، كانت القصص التي يروونها عما شاهدوه في (براتوناتس) تُحكى مرةً لتُحكى من جديد ، وكانت حكاياتهم التي يروونها حديث الناس الذي لا ينتهي ؛ لأن بطلها كَان لاعب كرةِ القدم السابق بنادي (غوبر) .. كان اللاعب المحبُوب (نامق الأسود) !! .

والآن ، ها هو (نامق الأسود) بنفسه ، يَمْشي هائِمًا على وَجْهِه فوق الأرض المهجورة التي كانت ذات يوم القرية البوسنية البائدة (غلوغوفا) .. ها هو يَتجه نحوي مباشرة .. إنني في خندق مَحْمي بشكل جيد .. وأتتَّبعه من خلال منْظَار بندقيتي النصفِ آليةِ مُحاولًا أن أستكشف ما إن كان هو (نامق الأسود) بحق ، في ذات الوَقْتِ كنت أقرص خدي لأتأكد من أنني لم أكن أحلم وأنني لم أنعس أثناء مكوثي في الخندقِ .

صَرختُ مُعبرًا عن ابتهاجي وسعادتي العارمة بلقائِنا :

- « لا يُمكنك أن تتخَيَّل كَمْ أَنا سعيد لأنَّك لا تزالُ حيًّا ! » .

- « أنا أيضًا تفاجأت وسعيد أيضًا لرُؤيتك ! » .

- « أنا لا أَمْزحُ . إنني حقًّا مسرورٌ جدًّا .. لقد قِيلَ كلامٌ كثيرٌ عنك .. فقد تحدث الناس عن أنهم شاهدوا « التشيتنيك » وهم يَقْتلونَك حتى بعد أن مِتَّ . والعديد مِنَ الناس تَحدَّثوا عن جنازتِكَ وكيف أنها أصابتهم بالمرض ! » .

- « أَعْرفُ ، أعْرفُ . الناس يَتحدَّثونَ عن كافة الأشياءِ في هذه الحربِ ... لقد حَدثَ الكثير ، وقِيلَ الكثير حول هذه الحرب . وحتى ذلك الكثير الذي قيل غير كافٍ لإعطاء هذه الحربِ حقها من الوَصْف . وقد حدث نفس الشيء بالنسبةِ لقصة موتي .. لكنِّي أنا أيضًا صُدِمتُ لموتِكَ البطيء . خاصة عندما بَدؤوا بتعذيبك أثناء التحقيقاتِ الطويلةِ ! » .

أدهشني كلامه .. لكني تصورت أنه يقصد بالموت البطيء بقائي في (سربرينيتسا) .. قُلتُ مُتعجبًا :

- « تحقيقات ! » .

- « أنت تَعْرِفُ ، التحقيقات أسوأ مِن الموتِ .. وخصوصًا عندما تستجوب من قِبل أهلك وذويك .. عندما تُستنطق بواسطة أهل بلدك .. على أية حال ، كلانا يَعْرف ذلك تمام المعرفة .. كل منا يدرك ذلك جيدًا » .

قُلتُ وأنا أجبرُ نفسي على ابتسامة مُصطنعة :

- « أَعْرِفُ ، أَعْرِفُ .. أنا أفهمُك .. أنا و (سربرينيتسا) قد متنا معًا في سبيل الحرية .. هذا ما تحاول أن تقوله .. إنني أَتفهم ما تحاول أن تقول » .

- « أنت لا تَفهم أيَّ شيء . إن موتي لا يساوي شيئًا إذا ما قورن بالطريقة التي ماتت بها (سربرينيتسا) .. ولكنَّك نجوت من الموت في (سربرينيتسا) وفي النِّهَايَة قُتِلتَ بالتحقيقاتِ ! » .

- « هل أنت مُشوَّشٌ أو مُضْطَرِب ؟ هل تميز جيدًا الزمان والمكان ، أَم أنك مجرد شَبَح ؟! أو ربما أنك تخلط بيني وبين شخص آخر ؟ أو تخَلط بين (سربرينيتسا) و (براتوناتس) التي لم تكن تحتَ حِمَايَة قوات حفظ السلام ؟ » .

- « بل إنني لا يُمكنُ أَنْ أكُونَ حيًّا أكثرَ من هذه اللحظة .. لا يمكن أن أكون أكثر وعيًا من الآن . بالطبع أعْرِفُك وكيف لا أعرفك ، ومن الذي لا يعْرِفُ (مرجو) الطويل ؟! وما قُلتَه بشأن (براتوناتس) لا يُحدثُ أيَّ فرق .. سواء (سربرينيتسا) و (براتوناتس) كلتاهما واحدة ، كلتاهما نفس الشَّيء » .

- « حَسَنًا ! .. على أي حال من الجيِّد أن تكون مَعنا . أجل إنه لأمر طَيِّب أَنْ تَكُونَ هنا . كم جميل أن تكون بيننا ! ولكنك تَحتاجُ لفَتْرَة راحَة ، هنا .... اجلسْ هنا ، اجلسْ .. أرجو ألا تَنزعج لأنِّي لا يمكنني أن أتركك تتجول في أرجاء (سربرينيتسا) بمفردك ... عليك أن تَنتظرَ عودة رفاقي في السلاح . إنهم في (غلوغوفا) . سيعودون في الحال .. سَيَكونونَ هنا في أيَّة ثانية الآن ... وسَتَذْهبُ مَعهم إلى (سربرينيتسا) .. بل إنهم « سيأتون بك » إلى هناك ! » .

قاطعَني (نامق الأسود) قائلًا :

- « لو أنني قد مِتُّ ؟ » ... لو كنت ميتًا ، لما عَرفتُ بأن رجالنا أيضًا « يأتون » بأبناء شعبهم .. إلا أنّني عرفتُ ذلك الآن مِنْ تجربتي الخاصةِ ... لو أنني قد مِتُّ ... » .

وفي تلك اللحظة عاد الجنديان .. وصلوا كنَجْدَةٍ من السماء .. أنقذاني مِن هَذَيَان (نامق) ، وأغاثاني من حديثه المفكك وكلماته المبعثرة . إنهما (حاسو) و (مويو) العائدان من جولتهم حول (غلوغوفا) .. بالكاد أمْكنَني أن أنتظرَهما لِأسْلِمَ لهما (نامق الأسود) .

قُلتُ لهما :

- « خُذاه ... » .. « قوما بتسليمه إلى قيادةِ القسم .. وكُونا لطفاء معه ..لا بدَّ أنه قد مَرَّ بالكثير . إنه يهذي .. لم يعد قادرًا على الاحتفاظ بقدراته العقلية أكثر من ذلك .. رجاءً أحسنا إليه وانْظرا إليه بعين الرأفة .. عاملاه كإنسان قدر استطاعتكما ... أَعْرِفُ ... أنهم يَخترقونَ صفوفنا من خلال تجنيد العديد من أبناء شعبنا ولكن ما لا يُصدق بشكل خاص هو أنَّهم قد نجحوا في استدراجه وتوظيفه وأنهم نفذوا إليه أيضًا .. هذا الرجل بالتحديد لا يُمكن أن يكون عميلًا لهم ... هل تعرفانه ؟ هَلْ تَعْرفا (نامق الأسود) ؟ » .

صاح كلٌّ من (حاسو) و (مويو) في دهشةٍ :

- « ومَنْ لا يعرفه ؟ ! » .

* * *

في مركز قيادةِ القسم ، بَعْدَ أن وصلت الإغاثةُ إلى (غلوغوفا) .. وفور عودتي إلى (سربرينيتسا) قمتُ بفحص السجلات وتفتيشها قبل الغُرُوب مباشرةً وتأكدتُ من أنَّ (نامق الأسود) قَدْ سُلمَ إلى القيادةِ ذلك اليوم .

وحتى ضابط القسم لم يُسجل اسمَه بالكامِل كتب - (نامق الأسود) - فقط .

وقَدْ كُتِبَ في السجلِ أنَّه قام بتسليم نفسه إلى الجنْدِي (مَرْجَان جوزو) في الخط الأمامي في (غلوغوفا) ...

إذن لديَّ الدليل على أنني لم أُصب بالجنون وذلك السجل هو البرهان المادي

والدليل على أنني لست مخبولًا !

إنني أُفضلُ أن أتحمَّل كُلَّ هذيان (نامق الأسود) وأن أتعايش مع كل الفوضى التي جلبها عليَّ ظهوره المباغت ، على أن أتحمَّل شعوري بأنَّني - كبقيَّة الأشياءِ الأخرى في هذه الحربِ - قد أُصبت بالخبل والجنون !! .

لكني عبثًا أحاول .. لا فائدة ... ظلَّ (نامق الأسود) يُلاحقني .. كان التفكير به يطَاردني في كل مكان .

لكنَّه مع ذلك .. لم يكن يظهر في أي مكان ، وكما قفز أمام عيني فجأةً عندما كنت في الخندق على الجانبِ الآخر لـ (غلوغوفا) .. وكما خرج من حيثُ اللامكان .. اختفى بنفس الطريقة التي ظهر بها .. تلاشى في اللامكان !! .

* * *

وَصلتْ قافلة محملة بالمساعدات الإنسانيةِ .. بدت قافلة الشاحنات كما لو كانت أعْجُوبَة .. كانت شديدة الجاذبية كآيَةٍ بالغة الفتنة ، بل كمُعْجِزَة آتت مِنَ العالم الآخر ، وقد أيقظ مشهدها مشاعر أكثر بكثير من مجرد كونها شيء نافع . حيث شرع الناس في تلقُّفِ الطعام والمواد الغذائية التي جَلبَتها القافلة حتى قَبْل أنْ تتوقف الشاحنات ويتم إنزال حمولتها من الطعام .. كان الأهالي الجياع ينهشون المواد الغذائية وينتزعونها بسرعة بينما لم تزل الشاحنات تتحرك . وهكذا اختفت حمولة الشاحنة من الغذاء بشكل مفاجئ ، وفي صُورَةٍ خاطِفَةَ اختفت المواد الغذائية بأسرع مما تختفي حبة مِلح في مياه المحيط .

يالسَّذَاجَةِ والبَسَاطَةِ التي أَتلاعبُ بها بالألفاظ .. يا له من أسلوب مجازي وبسيط للتعبير . في الحقيقة لم يكن هناك أي مِلحٍ ... ولا حتى حبةٍ واحدةٍ منه !! .

* * *

وظل شبح (نامق الأسود) يُطَاردُني .. والتفكير به لا يُفارقني لحظةً واحدة ... لكنه موجود في ذهني فقط .. في أفكاري فقط ولا وجود له في أي مكان محدد بحيث يُمكنني الذهاب في أثرِه . بمجرد أن وَجدتُ حادثة تسليم (نامق) إلى قيادةِ القسم مُدَوَّنَة في محاضر القسم ، أدركتُ بأنَّني سقطتُ في براثن التشَوُّش العقلي

والاضطِراب النفسي مبكرًا جدًّا .. كل الحقائق التي حاولت – في سعي مَحْمُومٍ – أن أثبتها وأبرهن على صِحَّتها كَانتْ تُظهر بأنّني على خطأ !!

* * *

إنهم يَجْلبونَ المساعدات الإنسانية مِنْ (زيبا) ثم يُعيدُون بيعها في (سربرينيتسا) ، وقد عَرفَ سكان (زيبا) كَيفَ يحتالون على الأمر وكيف يحصلون على فائضٍ من المعونات الإنسانية ثم يقومون ببيعه في (سربرينيتسا) .. كانوا يُدوِّنون في السجلات عددًا أكبر من العدد الفعلي للسكان الذين كَانوا متواجدين آنذاك في (زيبا) .

إنهم يُعيدونَ بيع السجائر أيضًا – السجائر التي لَمْ تكن من ضمن المساعدات الإنسانية – هؤلاء الصرب يبيع الواحد منهم أباه مقابل دولار واحد .. وبشكل خاص مقابل المارك الألماني .. لذلك كانوا يَبيعونَ السجائرَ أيضًا إلى سكانِ (زيبا) .

وكان عدد سكان (سربرينيتسا) الذي تم إحصاؤه وتسجيله في إحصاءات المعونة مساويًا للعدد الحقيقي للسكان المتواجدين بالفعل في ذلك الوقت داخل (سربرينيتسا) .. ولكن الصرب لم يشتغلوا بالسوق السوداء مع أهالي (سربرينيتسا) ، فقد كانوا يعرفون أن هنا في (سربرينيتسا) ستأتي الحرب على كل شيء .. وعلى كل البَشَر .. حتى آخر إنْسانٍ فيها !!

* * *

ادَّعَى كلٌّ من (حاسو) و (مويو) أنَّهما لم يكونا مَعي في نوبة الحراسة في (غلوغوفا) ... قالا : إن (حوسو) و (سوليو) هما اللذان كانا حارِسين معي في نوبة الحراسة ذلك اليوم . حقًّا إنها مِنْ أسوأ النكاتِ أن يكون (سوليو) و (مويو) قد ظَهرا معًا ، ثم تحولا بعد ذلك إلى (حاسو) و (حوسو) ولكن يكفي ذلك ... فعند هذا الحد .. يتبين بوضوح أن هناك خلطًا بالأسماءِ !

* * *

أعتقد أنَّ سكانَ (زيبا) قد أخطؤوا بمَجيئهم إلى سوقِنا المحليِّ . فالقوافل لَمْ تَعُدْ تأتينا بالبضائع كما لم تعُد القوافل تأتي إليهم أيضًا . وسيكون عليهم الآن أن يقبلوا ،

بل وأن يرحبوا بدفع الضعف ثمنًا للسلع التي كانوا قد باعونا إياها في السابق .. لكنِّي كنْتُ مخطئًا . فقد استمروا في التدفق إلى (سربرينيتسا) . وبالإضافة إلى السجائر الصربية كانوا يَجْلبونَ معهم كل أنواع السلع الأخرى . واكتشفتُ فيما بعد أنَّهم كانوا يُتاجرونَ مَع جنود قوات الحماية الدولية الأوكرانيين !!

.. البعضُ يخوضون غمار الحرب وآخرون يتاجرون .. أنا لا أُحاولُ أن أقول بأن (زيبا) لم تكن تقاتِل ، ولكنِي أقول بأن بعض الأهالي في (زيبا) كانوا يتاجرونَ بينما كان البعض الآخر يُحاربونَ . كانوا يُتاجرونَ مَع الصرب ومَع جنود قوات الحماية الدولية الأوكرانيين . لكن لم يكن لدَيهِمْ ذرة مِلح للبيْع ، لم يكن الصرب يَبِيعونه حتى إلى أهالي (زيبا) كانوا يحظرون بيعه بصرامة . فقد كانوا يخشون أن يبيعه أولئك الذين يسكنون في (زيبا) إلى سكان (سربرينيتسا) .

إنَّ مياهَ (سربرينيتسا) فقيرة باليود [١] الذي يؤدي نقص معدلاته في الدم إلى الإصابة بمرض « جويتر » [٢] ، وقديمًا تفشت في (سربرينيتسا) العديد من حالات الإصابة بذلك المرض وراجت كما لو كانت آخرُ صَيْحَات الموضَة ، إلى أن تم اكتشاف أن ذلك النقص في معدلات اليود بالدم يُمْكِنُ أن يُعَوَّض بسهولة بواسطة المِلحِ .

---

(١) اليود (Iodine) : عنصر لا فلزي ، سام ، داكن اللون حتى السواد ، من مجموعة (الهالوجينات) رمزه (I) . ورقمه الذري (٥٣) . ووزنه الذري (١٢٦,٩) نقطة انصهاره (١١٣,٥) مئوية . نقطة غليانه ١٨٤ مئوية . ثقله النوعي ٩٣,٤ . اكتشف عام (١٨١١م) ويتواجد اليود بمقادير ضئيلة في أجسام الحيوانات والنباتات ومياه البحر ، وفي الصخور ، كما يتواجد بوفرة في الأعشاب البحرية . وتعتبر (تشيلي) أكثر بلدان العالم إنتاجًا له . واليود أساسي جدًّا بالنسبة للغدة الدرقية ، وقد يؤدي نقصه في الطعام إلى الإصابة بمرض جويتر . ويستخدم في الأغراض الطبية ، وفي التصوير الفوتوغرافي ، وفي صنع الأصباغ ، ومبيدات الجراثيم - (المُترجمة) .

(٢) الجويتر (Goiter) : مرض يتميز بتضخم الغدة الدرقية . وهو نوعان : « الجويتر البسيط » وينشأ في الغالب عن نقص في مقدار اليود في الماء . وفيه تتضخم الغدة الدرقية بعض الشيء ، في المراحل الأولى ، ثم تتصلب ، وقد يؤدي التضخم إلى إعاقة عمليتي الازدراد والتنفس . « والجويتر الجحوظي » ، وينشأ عن فرط في إفراز الغدة الدرقية يؤثر في الأعصاب الودية أو السمبتاوية . ومن الأعراض المصاحبة لهذا النوع من الجويتر العصبية ، وجحوظ العينين ، وخفقان القلب بسرعة وقوة . والجويتر الجحوظي يعالج بالراحة التامة وبمحاولة القضاء على مخاوف المصاب أو مصادر قلقه ، كما يعالج الجويتر البسيط بإعطاء المريض مقادير مناسبة من اليود . فإن لم يُجد ذلك يتعين على الطبيب إجراء الجراحة - (المُترجمة) .

والآن .. عاد « جويتر » ليظهر من جديد ..

فعندما يُحرم الجسم البشري من الملح لفترة طويلة تبدأ اضطراباتٌ نفسية وعصبية معينة بالظهور .

على الرغم من أنني أشُكُّ في أن هناك أحد في (سربرينيتسا) لم ينل حظه من الاضطراباتِ النفسيةِ والعصبية ، لكنَّ تلك الاضطرابات كَانَت أكثرَ وضوحًا لدى المصابين بمرض « جويتر » .

كان الناس في طريقهم إلى الجنون !!

ولكن الجنون العادي يكون إمَّا مُستديمًا أَو مؤقتًا .. إلا أنه ليسَ قاتلًا إلا إن كان ناجمًا عن نقص اليودِ !!

في بداية الحربِ ، عندما تم الاستيلاء على أرشيفات [1] مقر المنطقةِ العسكريةِ السابعةِ للجيش اليوغوسلافي في (سراييفو) ، عُثر على الخطة (BIO-16) في حافظة الأوْراق الخاصة بكبير الجنرالات بالإضافة إلى معلومات عن حرب من نوع خاص ستُشنُّ على (سربرينيتسا) بالتحديد . كانت تلك المعلومات تُقدم بشكل تفصيلي وتشرح بإسهاب كيف يُمكن أن يُصاب سكان (سربرينيتسا) المسلمين بالضعف والإرْهاق من خلال حرمانهم من المِلح !!

بَعْدَ أَنْ تم الحصولُ على هذه المعلوماتِ ، كان على أولئك الذين في (سراييفو) أن يتذكروا ما حدث سابقًا في (سربرينيتسا) .. كان عليهم أن ينتبهوا إلى ما يعنيه نقص الملح في مخازن (سربرينيتسا) وأن يعملوا على تأمين الملح لها .. وعلى أي حال من المفترض أن يكونوا على درايةٍ تامة بما يعنيه نقص المِلح في مياهِنا . خاصةً أن مقر القيادة العليا لجيش البوسنة والهرسك لمنطقة (سربرينيتسا) كان في (توزلا) .. بجوار مَنْجَم اسْتخْلَاص المِلح الشهير !!

كان توفير الملح وإحضاره إلى (سربرينيتسا) لا يزال ممكنًا أثناء السنةِ الأُولى من الحربِ بأكملها .. فلماذا يحتاج أي أحد إلى الملح ، ولماذا يعاني فرد واحد من

(١) أرْشِيفات : مَخْفُوظات ، أو سِجِلَّات - (المترجمة) .

الحرمان منه ؟ .

كان الجميع يعرفُ كل شيء . لكن « التشيتينيك » كانوا يعرفون أفضل مِنْ أي شخص آخر ولمْ يَسْمحوا لجرام واحد مَن الملحِ بالوُصُول إلى (سربرينيتسا) المحاصرة .

ولهذا كان « جويتر » يسرح ويمرح ويستفحل سريعًا في (سربرينيتسا) الحرة .. كان ينتشر بها انتشار النار في الهشيم .. وبدأ الناسُ يموتون على نطاق هائل مُختنقين بالجنون !

هَلْ بَحثَ أحد ما في الحقيقة التي تقول بأنَّ (سربرينيتسا) اللاتينية أي (أرغانتاريا) قد اختفت بسبب تفشي مرض جويتر بها وتضخم الغدة الدرقيةِ [1] لسكانها ؟ هل تحرى أحد عما إن كان السبب وراء إخفاء تلك الحقيقةِ التاريخية وعدم الكشفِ عنها هو الخوف من أن يُساء توظيفها واستخدامها ذات يوم ؟ بالضبط كما يحدث الآن !! على أية حال ، وراء كل محاولات التدليس والغِش التاريخية ، وخلف كل الحيل المبذولة لطمس الحقائق والتمويه عليها بوسيلة أو بأخرى .. وراء كل ذلك الزخم من الخِدَاع والكَيْد العظيم تقبع دائمًا الحقائق البسيطة !!

ليس من المعقول ألا يعرف أحد أي شيء مطلقًا عن ظُهُور أكبر مدينة من مدن البلقانِ في العصور الوسطى .. إنه أمر لا يُصدق . وعلى أي تقديرٍ ، فإن تاريخ البوسنة القروسطية على نحو خاص يزخر بالنَّظَرِيَّات والتخَمينَات التاريخية . ومَعَ ذَلِكَ ، فَإن على علم التاريخ - إن رغب في تسمية نفسه عِلْمًا فيما يتعلق بهذه الفصولِ مِنْ كِتَاب التاريخ - أن يرجع بعيدًا وعميقًا بمقدار تلك الفترةِ للوصول إلى الحقائق المطمورة تحت ركام النظريات .

* * *

(١) الغدة الدرقية (Thyroid gland) : غدة صماء تقع في العنق ، تحت الحنجرة مباشرة ، وتتألف من فصين ، وتفرز هرمونات تحدد مستوى النشاط الأيضي أو الاستقلابي في الجسم ، وتؤثر تأثيرًا كبيرًا في نمو الجسم ، وتؤثر في تكوين العظام والأسنان ، وفي النمو العقلي ، ونشاط الغدد التناسلية ، وهي تشتمل على كامل كمية اليود الموجودة في الجسم تقريبًا . وإنما يؤدي تزايد نشاط الغدة الدرقية إلى إصابة المرء بمرض جويتر ، وإلى الحصر النفسي ، والهياج العصبي ، والهزال ، والتعرق ، وجحوظ العينين ، وسرعة خفقان القلب . ويعالج اليوم باليود المشع وبالجراحة إذا دعت الحاجة - (المُترجمة) .

كان بوسع أي أحد - حتى من الصرب الذين كانوا يقذِفون القَنَابِلَ من بعيد - أن يرى أن هناك صفحة قَدْ انتزعتْ من سجل قيادةِ القسم ... وعلى الصفحة التالية لم يكن هناك أي أثر حول ما حَدَث في الجانبِ الآخرِ مَن (غلوغوفا) . !

إذن .. حتى الأمل الذي كُنْتُ أَتشبث به بصورة عمياء اختفت ملامحه تمامًا ولم يعد له أي أثر . لا أحد يُمْكِنُه أن يتأكد بعد الآن من أنَّني أنا الذي كُنت أُعرف بـ (مرجو الطويل) - هكذا دعاني (نامق الأسود) - لا أحد يمكنه أن يتيقن من ذلك . وقد أخبرت فيما بعد بأنَّ هناك شخص آخر اسمه (ميشكوليتش) يلقب بـ (مرجو القصير) . وفقط حتى أكف عن إزعاج أصدقائي .. أحضروا لي (ميشكوليتش) شخصيًا ، وقد أَكدَ لي أنه يُعرف بـ (مرجو القصير) وأن أهله وأصدقائه ينادونه بذلك اللقب .

سألته بشكل هستيري كالمشعُور :

- « مرجو قَصِير ؟ أم (مرجو القَصِير) ؟ » .

- « هذا يَعتمدُ . على ما يستلطفه الناس » .

- « لا تَخْرج عن الموضوع . إمَّا أن تكوْن (مرجو قَصِير) أو (مرجو القَصِير) ؟ لا يُمكنُ أن تَكونَ الاثنين معًا .. فهكذا سَيَكُونُ لك لَقَبان ، بل في الحقيقة ، خليط من أربعة أَلقَاب » .

قال (ميشكوليتش) مفصلًا وموضحًا :

- « أنا لا أكترث بماذا يَدْعونَني ، لا يهمني ذلك . إنهم يَدْعونَني بكلا اللقَبين ، كلاهما سواء بالنسبة لي .. دعْهم يَدْعونَني بالطريقة التي يُريدونَها . وأما بالنسبة لك ، فأنا لم أسمع مُطلقًا أي أحد يُناديك بـ (مرجو طويل) أو (مرجو الطويل) » .

وبعد أن شعر (ميشكوليتش) أنني أَثْقَلت عليه وأَزْعَجته بإلحاحي طلبًا لمزيد من التفسير والتوضيح .. استأذن للانصراف بشكل مؤدب وانصرف وهو مُتعجب ومُنْدَهِش جدًّا .

ولم يظهر ثانيةً ، بل ولم يكن يرغب في مجرد أن يسمع عن اللقاء بي مرة أخرى . واستمرَّ أصدقائي في محاولاتهم المستميتة لإقْناعي بأنَّهم لم يطلقوا عليَّ أي

كنية أبدًا ، وبأنّهم لَمْ يَدْعوني بأي لقب آخر من وراء ظهري . وبأنهم كانوا ينادونني (مَرْجَان) فقط . قالوا : إنَّهم رُبَّمَا أزْعَجَتهم حقيقة عدم وجود لَقَب لي .. وأنهم لو أطلقوا عليَّ لقبًا ما لكَانَ ذلك من دواعي سرورهم وإن لم يسْتعْملوا ذلك اللقَب في حضورِي . ولكن حتى بهذه الطريقة فسيكون لي لقبٌ واحد فقط . لَكنَّهم لمْ يفعلوا .. ولم يتَصوروا أن أمرًا بسيطًا كهذا يُمكنُ أن يَكُونَ مُهمًّا وخَطِيرًا .

لا أعتقد بأنَّني فقدت عقلي ، أو أنني أصبحت مَجْنُونًا أو مَعْتُوهًا ، كنت أتحسس لُغدي كُلَّ يوم .. حتى لو أنني أصبت بالفعل بتضخم الغدة الدرقية (مرض جويتر) فسيكون ذلك بسبب جَسِّي المتكرر لموضع غدتي الدرقية وكثرة لمسي لها مرارًا وتكرارًا ، كما أنني لم أصبح أكثر ذكاءً أيضًا .. ولم تعاودني الهلاوس من جديد .. لم أعد أتَخيَّل (نامق الأسود) .... ولم أعد أراه في أحلامي .

لماذا عليَّ أنا ألا أَحْلم بأي شيء عدا (نامق الأسود) ؟ لماذا أنا ؟ لا يوجد سبب واحد يفسر لي لِماذا يَجِبُ عليَّ أنا فقط من بين كل الناس أنْ أحْلمَ بـ (نامق الأسود) ... لقد سَمعتُ عن الطريقة الوحشية التي قتل بها . وقد هزني موته وسبب لي صدمة كبيرة .. ولكنِّي سَمعتُ عن مقتل مئات ومئات مِنَ البوسنيين ، سمعت عن حالات قتل كثيرة جدًّا لم تكن أقل وحشية من حادث مقتل (نامق الأسود) ...وقد نلت من مناظر القتل ما يكفيني .. رَأيتُ نَصِيبي مِنْ مشاهد الموت .. وكان وفيرًا جدًّا .. كانت حِصَّتي كبيرة وهائلة جدًّا لدرجة أنَّني فَقدتُ القدرة على إحصائها .. لا أدري كم عدد الموتى الذين رأيتهم .. كما شاهدت العديد من جثث البوسنيين الممثل بها بأبشع أنواع التمثيل . ورأيت العديد من المذبوحين بطريقة بربرية متوحشة ، وتشوهت جثثهم بحيث لم يَعُدْ ممكنًا حتى مجرد تَخيُّل تحت أي نوعٍ من التعذيبِ لقوا حتفهم .

ولا أحد يُنكرُ بأنَّ (نامق الأسود) كَانَ قَدْ أُعدم بالطريقة البشعة التي يعرفها الجميع . كما لا يُنكر أحد ذلك السيناريو المرعب في ساحةِ البلدة الرئيسية في (براتوناتس) . كما لا يُنكر أحد أن الجنازة قد نظمَت لأجل الكاميرات وآلالات التصوير التلفزيونيةِ .

وهم لا يُنكرونَ حتمية وجود سبب ما وراء ظهور (نامق الأسود) لي أنا بالذات وأنه لا بد أنَّ هناك سبب خاصٌ يفسر ذلك .. كما أنهم أيضًا لا يُنكرونَ أنه لم يكن لديَّ أبدًا أيُّ علاقة خاصَّة أو اسْتِثْنَائِيَّة بيني وبين (نامق الأسود) يمكن بسببها أن أَحْلم به وعلى أساسها أتخيَّل أنني ألتقي به خاصة وأنني قد شاهدتُ مؤخرًا وفيات كثيرة لأشخاص أعرفهم جيدًا وهم أكثر قربًا مني ، هذا بالإضافة إلى علمي التام ومعرفتي الدقيقة بعددِ الوفياتِ .

كما أنهم طمأنونني أيضًا بِأني مقاتل جيد ، وبأنني لم أرتكب أيَّ خطأ أبدًا ... لم يتَخَيَّل واحد من أولئك الذين كانوا يَستجوبُوني وينهالون عليَّ بالأسئلة كما لو كانوا مسعورين أنَّني يمكن أن أغفو وتأخذني سِنةٌ من النوم في ذلك الخندق القائم على خَط الانْسِحاب في الجانبِ الآخرِ من (غلوغوفا) .. بل لم يخطر ذلك ببالهم مطلقًا .. ولكنهم فهموا أنني مُنهَك وشديد الإعياء وأن الحياة قد أرهقتني كثيرًا ... وسمحوا لي بأخذ إجازة لأستريح وتهدأ أعصابي .. قالوا لي : إنهم - إن شئت - فسَيعطونَني إجازة ...وللمدة التي أحتاجُها .. ولكنَّهم طلبوا مني بلطف بالغ ألا أزْعجَهم مرة ثانية بحكايتِي عن المرْحُوم (نامق الأسود) !! .

* * *

أَخذتُ إجازة ... وقمت خلالها بزيارة كُلِّ الأئمَّة وعلماء الدين الموزعين في أرجاء الأراضي البوسنية غير المحتلة والتي لا زالت حرة ، كما زُرتُ أيضًا أولئك الذين سمعت بمجيئهم بين اللاجئين والذين كانوا يدَّعون أنهم قد تلقوا على الأقل بَعْض التدريبات الشرعية التي تؤهلهم لأن يصبحوا أئمَّة .

كنتُ أتساءل : هَلْ خَطوتُ على شيء ما ؟ هَلْ خَطوتُ على موضع مسحور [1] ؟ هَلْ وَطأتُ موطأ أزعج الجني جدًّا لينتقم مني بهذه الطريقة ؟ هل أصابني بالعين الشريرة ؟ هَلْ فعلت الجن ذلك ؟ وما زِلتُ أسأل نفسي : لماذا يَظْهرُ لي (نامق الأسود)

(١) موضع في الأرض يُعتقد بأنه مسحور حيث تتجمع الجنُّ أو الأرواح الشريرة التي قد تتقمصُ شكلَ إنسان أَو حيوان لتُؤثِّر على الإنسان بواسطة القوى الخارقةِ ، ويُعتقدُ بأنَّ الشخص الذي يطأ خَطوة على مكانِ تجمعهم هذا يُمكِنُ أن يُزعج الجني الذي يُمكِنُ أَنْ ينزعج جدًّا ؛ ومن ثَم يُسبِّبُ الأذى إلى الشخص الذي أزعجَه وينتقم منه .

بالقُرْب من (غلوغوفا) .. وأنا مستيقظٌ تمامًا ؟ أم تُراه ظَهرَ لي في منامي ؟ هل كان ذلك مجرد حُلم ؟ هل زارني (نامق الأسود) في حلمِي ؟! هل كان حُلمًا فحسب ؟!

* * *

قامت المرأة العجوز (بيدا) بتغطيتي بوشاح [١] أحمر متسخ وَبدأتُ بالتعْزيم وقراءة الرُّقْيَة والتَّعاويذ فوق رأسي لطَرْد الأرْواح الشِّرِّيرَةِ . كنتُ أعرف كيف تُؤدى طقوس الـ (سترافا) [٢] وتوقعتُ أنَّ ذلك الوشاحَ الأحمرَ الذي تَغطَّى به كل هؤلاء الناس الذين يجيئون إليها كان لا بُدَّ وأنْ يتسخَ ؛ حيث إنها بالتأكيد لم يكن لديها متسع من الوقت - أمام ذلك الطوفان البشري مِنَ الفقراء البؤساء - لغَسْل ذلك الوشاح البائس . ولأنني أعرف الطقوس جيدًا وحتى لا أخل بقواعد أداءِ طقوسِ الـ « سترافا » فقد سَحبتُ وشاحًا أحمر اللون مِنَ الجيب الداخلي لمعطفِي ناولته لـ (بيدا) العجوز .. كنتُ حريصًا على ألا يُفسد أي شيء تلك الطقوس التي ستجعلني أتأكد من أنني لم أَخْطُ على موضع مسحور للجني ، وما إن كان الجني قد أصَابَني بِسِحْرِه .

لم تُفَاجأ (بيدا) العجوز عندما ناولتها وشاحي فجأةً .. بل استكملت عملها وتناولت مني الوشاح بهدوء .. كانت هادئةً ليس من السهل إثارة أعْصَابِها ربما بفضل مناظر الرصَاص المنصهر المفزعة التي تراها كل يوم .. قامت بهدوء بتغطية رأسي بوشاحي الخاص .. وانطلقت بثبات في إتمام التعويذة كعادتها .. وبسَكِينَة وطمَأنِينَة تامة استمرَّتْ بالتعزيمِ وقراءة الرقية .

كان الماءُ يُرش .. والرصاص المنصهر يلفظ بالحمم ويصدر صوتًا يشبه طشطشة الزيت المغلي .. كانت (بيدا) تقوم بتعديل مَوْضع وشاح الرأس وتُتمتم الـ (سترافا) فوق رأسي ، وقلبي ، وسيقاني . كانت تَقذف بالكلمات من فمها وترشق بها كل

---

(١) الوشاح : مِنْدِيل أو غِطَاءٌ لِلرَّأسِ - (المترجمة) .

(٢) سترافا (Strava) : طقوس وثنية تُؤَدَّى لمعَالجَة الحسد « العين الشريرة » أو لطرد الخوفِ بعيدًا عن الشخص المصاب بالخوف والهلاوس ، بسبب الخَطو على موضع مسحور للجن . وقد اكتسبت هذه الطقوس بعض الملامح الدينية بمجيء الإسلام إلى البوسنة .

موضع في جسدي .. وكان لديها تبرير وتفسير لما تفعل .. أخذت تُوضحُ الأسبابَ وهي تَتلو التمائم وتتمتم بالتعاويذ .. قالت : إنها تطرد عني (عين إبليس) تلك العين الشريرة التي أصابتني ... كانت المرأة العجوز تحاول أن تبدو واثقة بنفسها قدر الإمكان !

قالت (بيدا) :

- « المعذرة ... إنني أَعْرِفُ مَنْ أنت ومن أي سُلالَة ينحدر نَسَبك .. أعرفُ جيدًا من أي نوع من البيوت أنت ، وبأنَّك متعلم . ولكن عليك أن ترْفَعَ من رُوحي المَعْنَويَّة .. وألا تتكدر أو تنزعج لحديثي أو حتى تَشْعر بالإهانة لاعتقادك بِأنني - المرأة الجاهلة - أعطيك مُحاضرة .. ولكنَّ كل هذا سَيَنتهي ... لا بد أن ينتهي ... »

سألتها :

- « ما الذي سينتهي ؟ » .

- « كُلُّ الأشياء يَجِبُ أَنْ تَنتهي يومًا ما .. لكل شيء نهاية وكذلك الجرائم التي يَفعلونها بنا يَجِبُ أن تَتوقفَ يومًا ما . حقًّا إنها تبدو وكأنها لن تتوقف .. لكنَّها حتمًا ستنتهي . عليك فقط أن تحافظ على رُوحك المَعْنوِيَّة وأن تبقى مُتفائلًا .. حاول أن تحتفظ بروحك متقدةً ومنتعشة ! » .

- « لا لا ، لَيسَ ذاك .. أنا لا أَعْرِفُ ما تَعنين .. ولكني لَستُ خائفًا .. إن كنت تُحاولين أن تُريحيني وتطمئنيني وأن تقذفي الشجاعة في قلبِي ، فاعلمي أنني لَستُ خائفًا ، بل إنني لا أبالي بالخوفِ .. ولكن أخبريني فقط برأيك أنت .. ما الذي تفكرين به ؟ هيا أخبريني ما الذي تودين قوله أيًا ما يكون ؟ » .

قالت (بيدا) العجوز مشعوذة الحيِّ الذي أسكن فيه :

- « هناك ؟ » .

وصمتت برهة ثم تابعت تقول :

- « هناك عِبَارَة ما .. عِبَارَة قديمة ... في الحقيقة هناك العديد مِنَ العِبَارَاتِ القديمةِ .. أذكرُ بعضها وبعضها نَسيتُه ... » .

- « أَعْرِفُ ، أَعْرِفُ ... لقد قُلتَ ذلك بنفسك قبل قليل ..قلت بأنَّ عليَّ أن أرفع من روحك المعنوية وأن أمنحك شيئًا من الشجَاعَة وأن أمدك بالعَزيمة والثقة

بالرغم من أنَّكَ أنت من يتَعَقَّب الخوف ويلَاحقه ليَطردَه من نفوس الآخرين » .

– « أجل شخص ما يَجِبُ أن يَفعل ذلك . ولكنني أخشى أن تَظن بِأنني أتمتم بالرُّقى والتمائم الصعبة وأنني أحاول عبثًا أن أدخل الراحة والسَّكِينَة على كِلينَا . كل شيء يَجِبُ أَنْ ... هناك تلك العِبَارَة .. ! إنها لَيسَت تلك التي أَستعملُها ... إنها عِبَارَةٌ قديمة ، لكنِّي ما زلت أظن بأنَّها تُقال في هذا السياق وأنها مناسبةٌ تمامًا لهذا الحديث .. إنه أوانها بالضبط : « كل الحادثات ستنقضي » ... »

– « وأنت ، أيتها العمَّة (بيدا) ..هَلْ تَعتقدين حقًّا بأنَّني قد جُننت ؟ » .

– « ليس من الجيد ألا تكون كذلك .. صدقني من الأفضل لك أن تكون قد جُننت ، فلو لم تكن مُصابًا بالجنون فلَنْ يَكُونَ ذلك جيدًا ؛ لأن المجنون الحقيقي فقط هو الوحيد الذي يُمْكِنُه أن يحتفظ بعقله وسط هذا الجنونِ .. ليس لديَّ شيء آخر أقوله لك .. وما عساني أن أقول لك أيضًا إنني لا أعْرف شيئًا غير ذلك . إنني مهما قُمت بصَبِّ الرصاص في الطاسة المعدنية .. فلا يمكنني أن أصُبَّ الشجاعة في قلبك أو أن ألقي بقلبك في الرصاص المصهور ليخرج صلبًا كسبيكة معدنية .. فأنا لا أعرف رجلًا يُمْكِنُه أن يَعيش بدون قلب ! » .

– « أنا لَستُ خائفًا ؟ » .

– « أجل يُمْكِنُني أَنْ أَرى ذلك في وجهك .. ولكني لا أَستطيعُ أن أراه في قلبكَ ... ! » .

* * *

فيما بعد وجدت نفسي في مقر قيادة كتيبتنا المؤسَّسِ حديثًا .. كُنَّا في حالة نفسية جيدة . فقد كان المخبأ آمنًا كليًا ومحصَّنًا بشكلٍ جيد .. كما أنه قد بُنِي في سريةٍ تامة .

وفَجْأةً سمعنا قوات « التشيتنيك » ينادون علينا عبر جهاز اللاسلكي النقال (الوكي – توكي) [1] :

(١) الوكي – توكي (Walkie-talkie) : جهاز راديو صغير يُرسل ويستقبل الموجات الصوتية ، ويعمل بالبطارية ومعد لكي يحمله المستخدم أثناء تنقله – (المترجمة) .

- « هيه .. أنتم أيها (الباليه) [١] ، هل تفضلون أَنْ نَرشقكم بقُنْبُلَة [٢] لكي تصدقوا أننا نَعْرفُ بالضبط أين تقع فُوَّهَة [٣] جحركم الجديد ، أم تفضلون أن نُسمعكم الآن في هذه اللحظة أسماء جميع الموجودين منكم هنا في هذا الجحر ؟ هل تُفضلون أن نلقي عليكم أسماءكم في صورة مُونُولُوج [٤] أم تفضلون أن نسردها سردًا على طريقة تَسْمِيع الدروس ؟! » .

أجبناهم ونحن نقَهْقه ضاحكين :

- « هيا تقدموا أيها الإخوة ، اختاروا أنتم ، الأمرُ يعود إليكم ! » .

وهم بدورهم سَخروا منا وقالوا وهم يضحكون :

- « إذن ستحصلون على مُونُولُوج ! » .

وفي نفس اللحظة .. تلقينا ضربة عنيفة .. انفجرت قنبلة قوية قذفوها علينا بعزم قوتهم .. بأعظم ما يملكون من قوة ..

- « هيه أيها (الباليه) .. هل أنتم هنا ؟ نأمل أن نكون قد أطلقنَا القنبلة كَمَا يَجِب وبأنكم تسمعوننا الآن وأن يَسْمع بعضنا البعض . لو كنا لا نرغب في سماع أصواتكم من جديد ، لأطلقناها حَسَب الأصُول ولسقطت على الهدفِ مباشرةً ولو فعلنا ذلك لما سمعناكم بعدها . ولكننا تعمدنا أن نخطئ الهدف بنحو عشرة أمتار .. عشرة أمتار كانت كافية جدًّا لكي لا نَسْمعَ أصواتكم مرَّةً ثانيةً . بعبارة أوضح .. لو فعلنا ذلك لما سمعكم أي أحد مرة ثانيةً ولاختفت أصواتكم إلى الأبد ! » .

بقينا صامتين .. وليَظنوا ما يشاؤونَ .. كانوا بالفعل قد أخطؤونا بعشرة أمتار ... ولكنَّهم من المستحيل أنهم قاموا عن قصد بتجنب ضربنا مباشرةً ولا يُمكن تصديق أنهم يفوتون فرصة التخلص منَّا إن كان بوسعهم بحق أن يصيبوا الهدف .. وحتى

---

(١) باليه (balije) وتجمع (باليا) balija : كنية مذمومة للمسلم البوسني عبارة عن لَفْظ أو تعبير انتقاصي يستخدمه الصرب بقصد ازدراء مسلمي البوسنة .

(٢) قُنبلة : قَذِيفَةٌ مَحْشُوَّةٌ بِمَوَادَّ مُتَفَجِّرَة - (المترجمة) .

(٣) فُوهَة : فتْحَة - (المترجمة) .

(٤) مُونُولُوج : مشهد مسرحي يؤديه ممثل واحد (مناجاة المرء نفسه على المسرح) ، والمونُولُوج الأدبي هو حديث طويل يحتكر فيه شخص واحد الكلام - (المترجمة) .

لو أنهم فعلوا وأصابوا الهدف بشكل مباشر ... فأي قنبلة لا تَستطيعُ أن تَعمَل أيَّ شيء لهذا المخبأ .

يُمكنُ لصارُوخ فقط أَنْ ينسف المخبأ إن كان ذلك الهدف يستحق - من وجهة نظرهم - إهْدار صارُوخ ، وهذا يعتمد بالطبع على القائمة التي تحتوي على أسماء الأشخاص المتواجدين في مَرْكَز قيادتنا والتي كانوا سَيَقْرؤونَها علينا باستهزاء وسخرية في حال تجاوبنا معهم ، حيث سيقومون بسرد أسمائنا وهم يُكشرون عن أنيابهم بابتسامة صفراء عريضة !! .

لو أنهم كانوا يعرفون بدقة أين يقذفون القنبلة ، إذن لكان من اليسير عليهم أَنْ يَعْرفوا أيضًا من الذين كانوا في المخبأ . وهذا يَعْني أنَّ أسرارَنا العسكرية سهلة المنال بالنسبة إليهم . لكنَّهم لا يَعْرفونَ كل شيء . فلو كانوا يعرفون كل ما يريدون معْرِفته ، لما أعلنوا ذلك لنا ، وبدلًا مِن ذلك ، كَانوا سَيَسْحقونَنا ويحولوننا إلى كومة من التراب ... ولكنَّهم مع ذلك يَعْرفونَ الكثير عن الأشياءِ التي لا نَرغب نحن أن يَعْرفوا أيَّ شيء عنها . وهم بهذه الطريقة يُحاولونَ على الأقل أن يقذفوا الرعبَ في قلوبنا ويصيبونا بالفزع .

وهذه لَيسَت المرة الأولى ، بل المرةُ المائةُ التي يعرفون فيها معلومات يُفترض ألا يَعْرفوا أيَّ شيء عنها ، وغنيٌّ عن القول أنَّه يَجِبُ ألا يُسْمَح لهم بمجرد الاقتراب من معلومات كهذه ، ولكنهم - إلى الآن - لا يزالون غير قادرين على الحُصُول حتى على مجرد قبضة ريح من المعلوماتِ البالغة السرية . وهم بالتأكيد يُدركون تلك المعلومة أيضًا ، ويُحاولونَ بتلك التصرفات أن يرْبكونا بهدف التشويش علينا . ولكن ما من شكٍّ أيضًا في أنهم يَعْرفونَ الكثير من أسرارنا .

لِهذا السبب بدأنا ندقق أكثر في الوافدين الجُدد وتم تشديد إجراءات التَّحَرِّي عن جميع الوافدين ؛ إلا أنه من الصعب أن نحدد بدقة من هم الوافدين الجُدد ، كان الناس يَهْربونَ مِنْ جحيم (سربرينيتسا) . كانوا يَهْربونَ سِرًّا وبدون ذلك لن يتمكنوا من الهرب ، ولو كان هناك أيَّ طريق آخر غير الهرب سرًّا ، فلن يكون أمامهم سوى أن يتخلوا عنه ... كانوا يهربون مع عائلاتهم . وإذا قبض « التشيتنيك » عليهم

وعلموا ألا أحد يعرف بأن هؤلاء الناس هاربين من (سربرينيتسا) . فإنهم يَبتزُّونَ الأب ، بل وأحيانًا ، حتى الأمّ ، ويساومونهم على حياة أطفالِهم . فيقومون بتَهْدِيد الأب أو الأم بقتل أطفالهم ما لم يقوموا بالتجسس ونقل المعلومات لصالحهم ، كانوا يستَبقونَ الأطفال ويُرسلوا الآباءَ للتجَسُّس لهم .

وعلى الرغم من أنَّ مساحة أراضي البوسنة غير المحتلة قد اختزلت وتحوَّلتْ إلى رقعة من الأرض على شكل هلال تتوسطه (سربرينيتسا) . فلم يكن هناك قوة بشرية تكفي للسيْطَرَة على كامل حدودِ تلك الأراضي الحرَّة .

هذه الطريقة في التجسس ليست إعادة استخدام لعملاء وَكَالَة الاسْتِخْبارات الاتحادِية (KOS) [١] ، وليست توظيفًا لسكان (سربرينيتسا) السابقين الذين أصبحوا يَعِيشُون في الخارج بعد أن لجؤوا إلى هناك في وقت سابق ويتسللون الآن كجواسيس إلى (سربرينيتسا) ، بل إنها « لعبة الغدر » والطريقة الأكثر غدرًا وخيانةً التي يمارسونها مَع هولاء التعساء والمساكين الهاربين من الجحيم الذين تم القبض عليهم وراهَنُوا على هروبهم بحياتِهم وحياةِ أسرهم ، وهؤلاء التعساء يُواصلُون الآن الرهان والمقامَرَة ، ويأملون أنهم حتى وإن تم كَشفهم كجواسيس فهم على الأقل سَيُنقذونَ حياة أطفالهم .

كان « التشيتنيك » يقبضون على عائلاتٍ بأكملها . يستَبقونَ النساءَ والأطفالَ ويُعيدونَ الآباء - هذا إن كانت تهمهم حياة أغلى الناس بالنسبة إليهم - للتجَسُّس لصالحهم .

تُرى ما الذي بوسع المرء أن يفعله مَع مثل هؤلاء الناس حتى إن تم اكتشَافهم والقبض عليهم ؟ هل يَضعهم أمام فرقة الإعدام رميًا بالرَّصَاصِ ! لكن بأيِّ حقٍّ ؟ بسبب الخيانةِ ، حقًّا ... ! وعلى أي أساس يجب أن يُعاقبوا ؟ ولو أن الأغلبية أمكنها أن تُغادر لفعلت متى أمكنها ذلك ، غير أن قلة قليلة فقط من الناس تتحمل أعصابهم مغامرة الهُرُوب ، وهؤلاء القلة لا يخرجون عن فئةٍ من اثنتين : إما فئة من الذين لديهم قدر هائل من الشجاعة يُمكنهم من السيطرة على مخاوفهم أو من الذين يهربون وهم مُسْتَغْرِقون في غيبوبةٍ بعد أن اسْتَحْوَذَ عَلَيْهم الرعبُ والفزع !!

(١) KOS : اختصار لوَكَالَة الاسْتِخْبارات الاتحادِيَّة (الفِدرالِيَّة) في يوغسلافيا السابقة .

وما العمل مَع هؤلاء الناس إذا تم اكتشافهم ولم يتم إرسالهم إلى الإعدام رميًا بالرَّصَاصِ ؟ لو كانوا بالفعل على هذا القدر من الشجاعة .. فيَجِبُ أن يُرسَلوا إلى خطوط الجبهة الأمامية حيث يُمْكِنُهم أن يُثبتوا قوَّةَ شكيمتهم وأن يُظهروا حَمَاسَتهم وهِمَّتهم حيثُ ينبغي أن تكون بالفعل ... وإن كانوا في نوبة ذعر وفزع .. فيَجِبُ أن يتم إرسالهم إلى الخطوط الأمامية أيضًا لكي يُقتلوا هناك ويتم التخلص منهم . ولكن ماذا سَيَحْدث لعوائِلِهم المرتهنة في الأيدي الصربيةِ إن لم يعودوا إليهم بأي معلومات ؟ وماذا سَيَحْدث لعوائِلِهم إن هم رجعوا إليهم بمعلوماتٍ خاطئة ، بينما يقوم الآخرون - الجواسيس غير المكتشفون - بإرسال المعلومات الصحيحة ؟

حسنًا ، إنها حربٌ وَحْشِيَّةٌ وقاسية .. حربٌ لا تَرْحَم .. ويجبُ ألا تأخذنا شفقةٌ أو رحمة بالخونة المندسين في صفوفنا .. فكل الخيانة بيننا يجب أنْ تُستَأصل بلا أي رحمة .. ولكن من الجيدِ أنَّني مجرد جندي فقط ، وأنني لست مضطرًا لحل المشكلات التي لَيس من شأني التفكير فيها وليس عليَّ حلها .

أنا أَعْرفُ أولئك الجواسيس جيدًا ، فقد رَأيتُ أحدهم بأم عيني بعد أن تم اكتشافُه والقبض عليه . إنهم يَتجسسون حتى على أنفسهم ، ومن بينهم رجال مُختَّنون [(١)] ، كالمسلمين ، ومنهم أيضًا أولئك الذين لا يَعْرفون حتى كيف ينطقون تحية الإسلام « السلام عليكم » بشكل صحيح ولكنَّهم يَعْرفونَ جيدًا كَيفَ يتلون ثلاثة أو أربعة من الأدعية البسيطة التي يَعْرفها أهل البوسنة ؛ لذا حاول أن تَكتشفهم إن استطعت ، حاول أن تلتقط واحدًا منهم ، وبعضهم تم اكتشافه ، ولكن يَبْقى السؤال ، كم منهم لَمْ يُكتَشفْ بعد ؟ من المدهش فعلًا ذلك الحد الذي بلغته هذه الحرب .. إن المرء ليتعجَّبُ منذ متى تم التحضير لهذا السيناريو ، كم من الوقت احتاجه الترتيب لهذه الحرب ؟ ياه .. رجُلٌ صربي .. ويرغبُ في لِعْب دورِ المسلم ؟!

وكيف لأحد أن يحتفظ بسلامةِ عقله بعد كل ذلك ؟

* * *

(١) مُختَّنون : جمع (مُختَّن) : وهو الشخص الذي أُجريت له عملية (الختان) وهي قطع الجلدة التي تغطي الحشفة ، والختان من سنن الفطرة كما ذكر النبي ﷺ وهو من الشعائر التي يفرق بها بين المسلم والنصراني - (المترجمة) .

لماذا ذَكَرَ (نامق الأسود) أنني قَدْ استُجْوِبْتُ ؟ أنا لم أُستجوب مِن قِبل أي أحد ولا في أي مكان . رُبَّمَا كان يتنبأ أو أنه استَشرف ما يمكن أن يَحْدث له ، وقد يكون رجالنا في (سربرينيتسا) قد استجوبوه . ربما حدث ذلك حين كان الحذاء ضيِّقًا يَقْرِصُ على قدميه فتمكنوا من اقْتِفاء أثره .

رُبَّمَا كَانَ (نامق الأسود) مريبًا بالنسبة إليهم ... وأن المحقق قد سدد - بالقبض عليه - ضربة خرقاء لم تُصب الهدف .

أخذتُ أُقْنع نفسي بأنَّ كل ذلك هراء ، وبأنه على الرغم من أنني لم أجن بعد - ولا عجب إن فعلت - فإنني سأصاب بالجنون قريبًا إذا واصلتُ التحرِّي بشأن (نامق الأسود) .

على أية حال ، لقد ذَكَرَ (نامق الأسود) موتي وأَنا - إن لم يكن غير ذلك - ما زلت حيًا . هذا لَيسَ عَزَاءً ولا مُؤَاسَاة ، بل إنه دَلِيل وبُرْهَان ... بُرْهَان واهٍ ومُتَدَاعٍ ، ولكنه مع هذا يبقى برهانًا على أي حال . حتى لو أنني كنت أكذبُ على نفسي وأزعم أنني حيٌّ فأنا لا يُمكنني أن أكُونَ حيًا وميتًا في نفس الوقت . إنني أواسي نفسي بالتَّفْكير بأنني لَست خائفًا من الموتِ . أنا مُتأكدٌ تمامًا ومقتنعٌ بأنني أشعر كذلك .. لَست شجاعًا ولم أصبح كذلك ولكني فقط ليس لديَّ أيُّ خوف من الموت .. ومع ذلك فإن القلقَ بشأن الموتِ لا يُفارقني .. إنه دائم الحضور .. أعترفُ بِأنني عندما قام (مويو) و (حاسو) بأخذِ (نامق الأسود) باتجاه (سربرينيتسا) .. أحسستُ برطوبةٍ في حذائي . كانت أقدامي مُشَبَّعَة بالبلل .. كما لو كانت مَنْقوعةً في الماء . ولم تكن السماء تمطر .. بل إنها لم تُمطر منذ وقتٍ طويل . ولم يكن في داخل الخندقِ ولا حتى أصغر بركة من الماء . كما أنني - لا سَامَحَ اللّٰهُ - لم أتبول حتى أبلل سِرْوالي الداخلي ... وأخيرًا أدركتُ مصدر ذلك البلل .. ولم يكن سوى قطرات من العرقِ .. حبات من العرق فحسب .. حبات كالخرز أكبر مِنْ تلك التي تظهر في رسوم القصص والحكايات الأسطوريَّة .. بل أكبر مِنْ حبة البازلاء .. كانت تنْزَلِق على ظهري كما لو كُنْتُ أستحمُّ في العرقِ ... كان جسمي ينضح بالعرق الذي أخذ يَسيل بغزارة مِنْ وجهِي ومن جسدي بأكمله ، وكان حذائي من الداخل يغرق في

العرق ومبتلًا تمامًا أكثر من حذاء طفل صغير بلَّل نفسه من الخوف !

* * *

بمرور الأيام أصبحت غرفتي في الطابق الأرْضِي مِنَ البيتِ « قبري » الذي يوفر لي الأمانَ . كانت غرفتي تلك بمثابة مَلاذ آمِن .. أو مَلْجَأ تحت الأرْضِ . ابتعدتُ عن غرَفِ الطابق العلوي مِنَ البيتِ . كان نظام التهويةِ المحكم التصميم ما زالَ يعمل بشكل مثالي مع وجود المدخنة المرتفعة قليلًا والباذْزا [1] في السقفِ والفتحاتِ الصغيرةِ على الإفريزِ [2] التي يفصل بينها مسافات متساوية . غير أن هذا النظام العتيق لتوجيه التياراتِ الهوائية والمبَرمَج منذ عهد بعيد كَانَ قَدْ تحطَّمَ بسبب تَفكيكي لسقفِ العُلية . لَمْ يتصور النجارون المشهورون مِن بلدة (أوسات) - وهم أشهر بُناة البيوتِ حتى على نطاق أبعد بِكَثِيرِ مِن البوسنة - نوعَ الوريثِ الذي سيَظْهرُ في عائلةِ (جوزو) العَرِيقةِ ، ولا نوع الحرب التي سَتُجبرُ حفيدًا مِنْ ذلك البيتِ على تخريب نظام التهويةِ المحصَن جيدًا الذي قاموا ببنائه ، لم يدر بخلدهم مجرد تصور لذلك الاحتمال ! والآن ، ومع وجود تلك القاعدةِ المجوَّفةِ في هرم السقف ، كان الهواء يَنْدَفِع سريعًا على نحو خارج عن السيطرة ، وكَانَتْ التياراتُ الجويةُ الموَجَّهةُ بدون انتظام تتسبب في حدوث الزوابع والدوامات .. كان تيارُ الهواء الرطب الذي تَسَلطَ على الغرَفِ العليا لا يَسْمحُ لي بالدُّخُول !!

كَانَ التيار قَوِيًّا جدًّا وعَنِيفًا للغاية ...

يعتمدُ ارتفاع السقوفِ في البوسنة على ارتفاع الثلج وشدة الرياح . في المناطق الأقل جليدًا ، وحيث تضعف الرياح تبنى السقوف بطريقة متينة وقوية ، وبدرجة ميل منخفضة مع أربع مُنْحَدرات يَضْغطُ كل مِنْها بثقل شديد على كل حائط من حوائط البيتِ . من الناحية الأخرى ، كان بيتنا مُعرَّضًا لنَفحَات هائِلة مِنَ الريح . لمْ تَكن الريح تهب مِن اتجاه واحد كما لم تكن مِنْ نوع واحد ... وكانت الرياح

---

(١) البادزا (badza) : فتحة مرتفعة على السقفِ تستعملُ بغرضِ التهويةِ ، وتسريب الدخانِ والسماح بدخول المزيد من الضوءِ .

(٢) إفْرِيز (طُنُف) : مصطلح في فن العمارة يعني حواف السطح البارزة - (المترجمة) .

تصدر صوتًا يشبه العواء .. فقد كانت الرياح تتلاطمُ كالأمْواج فوق سقفِنا ، وكان السقف بغرفته العلويةِ العاليةِ مُستعدًا لذلك الانْقِضاض العظيم ، بل وكان يستقبل تلك الرياح العاتية بسرور ويسر ، ويعمل على ترويضها وإعادة توجيهها وَكبح نفحاتها وكان ينجح دائمًا في كسر حِدة العاصفة على المنحدراتِ العاليةِ المرتفعة . لقد كان بيتنا منصوبًا بإحكام ومثبتًا بقوة على نحوِ يجعل الرياح القويَّة تنساب وتَنزلقُ ببساطة تحت أو فوق السقفِ .

واعتمادًا على نفس القاعِدَة .. فإن سقفنا لَا يَعْكسُ ارتفاعَ الثلج في (سربرينيتسا) ؛ لأن الثلج لا يَسعه البقاءَ طَوِيلًا فوق السطح .. بل يتدحرج ليسقط عن منحدراتِ السقفِ الحادَّة . فبمجرد أن يسقطَ على السقفِ بغزارة ، ينزلق سريعًا على المنحدرات الحادة ويهبط ليستقر تحت الإفريزِ .

كَانت الديناميكا الهوائية لسقف بيتِنا ترتكز على عِلْم توازن القوى (ستاتيكا) فقد تمت دراسة الأطوال بعناية وصُممت بطريقة تضمن بقاء البيت مُنْتظمًا ومَتوازنًا . فمسافةُ الحزْف [١] في أرضيةِ الغرفة العلويةِ تساوي ثلثي الارتفاع الكليِّ للبيتِ . وبقياس جميع أطوال البيت نجد أن طرح طول السقف من طول الحزْف يساوي ارتفاع الجزءِ العمودي للبيتِ في الغُرَفِ السَّكنيَّةِ الخاصة بِالسُّكنى والمعيشة .

وبالنظرِ إلى البيت من الخارج ، كان يبدو مثاليًا وكان كلُّ شيء فيه يعمل بشكل سليم تمامًا .. أو على الأقل كان كذلك إلى أن هبطت القذيفة الأولى عليه ، إلا أن اعتدائي على أقوى وأمتن جزء في الإطارِ الهيكلي للبيتِ قد أربك ميزان البناء وأخل بانسجامه ونظامه المتناسق ، ولهذا ظهرت التياراتُ الهوائية الخارجة عن السيطرة داخل غرف الطابق العلوي ، وقد عبرت تلك التيارات عن نفسها بأنواع متباينة من الصفير والصرِير .. ومع ظهور أشعة الشمسِ كَانتْ خطوط التيارات الهوائيةِ المتقَاطعة تُرى بالعينِ وبوضوح تام . وعن طريق تلك التيارات الهوائية يمكن لطالب طموح في كلية الطبِّ أن يضع يده على الدليل الملموس لوجودِ التيارِ الهوائي وجودًا حقيقًا داخل الغرفة .. وبالتالي يُمكنه أن يُفنِّد النظريةَ التي يستند عليها خريجو الكليَّةِ

(١) الحزف : خَط التَّقَاطُع الأعْلَى بَين سَطْحَين مُنْحَدِرَيْن - (المترجمة) .

الطبيةِ في زمن الحكم الشيوعي ، والتي تقول بأن الشعور بوجود تيار هوائي رطب في الغرفة هو مُجرد وهم ينتجُ عن عقول المرضى ويؤثر عليهم نفسيًا وأنه مُعتقدٌ خُرافيٌّ .
كان تيار الهواء في الطابق العلوي من بيتي يرْتَطمُ بِأقدامي ويُوقعُني أرضًا ..

على أية حال ، لم تكن لديَّ حاجة للدخُول إلى غُرَفِ الطابق العلوي .. كنتُ قد اختزلت كل المساحة السكنية إلى غرفة واحدة .

حتى الآن لم تهبط قذيفة واحدة على سقفِ بيتِنا . فهم لَا يتعجلون القيام بذلك . ما زال السقفُ يَقِفُ شامخًا وسط الأهدافِ التي لا يُمْكن أنْ يُخطئوها والتي لا تخفى عليهم ، وسَيَضْربونَه عندما يروق لهم ذلك .. بحسب هواهم وحالتهم المزاجية .

* * *

في ضوءِ الغرفة الخافت ، وبدلًا مِنْ أن تلتقط يدي المصحف مصحوبًا بمُلاحظات جَدِّي (رحمن بك جوزو) رَحِمَهُ اللهُ .. وقعت يَدي على وَثِيقَة تتحدث عن مدينة (دومافيا) .. ها أنا أقْرأ تحت وَهَج فتيل مَغْمُوس في زيت الطهْي [١] :
I ovi optiom maximo ... I unini Reginae .
هذا النصُّ كَانَ منقوشًا على الحجارةِ تحت أقدام تمثال لـ (فينوس) [٢] ، عند مَدْخَل الأبرشية [٣] . وكان الإمبراطور (داسيوس إيلوس) قد قام قبل وفاته مباشرةً بتوَثيق وَصِيته إلى وريثه (إنبيو) في دار البلدية وصدَّقَ عليها لَدَى كاتِب العَدْل .
وبينما كان يحْتَضر في (دومافيا) أو (سربرينيتسا العتيقة) - التي كَانَت تحرص هي الأخرى على موتِها الشخصي - كَتبَ (داسيوس إيلوس) أن الموتَ وَجدَه في (دومافيا) التي تقع بين (روما) و (سرميوم) .. (دومافيا) التي لا شيء مِنْ

(١) عبارة لاتينية معناها : « يحرم على الملوك الشرفاء أكل لحوم الشاة » - (المترجمة) .
(٢) فينوس (Venus) : إلهة الحب والخصب في الميثولوجيا الرومانية . تقابلها أفروديت عند اليونان . تزعم الأسطورة أنها ابنة كبير الآلهة جوبيتر ، وأنها تزوجت من فلكان إله النار والبراكين ، وأحبت مارس إله الحرب وعطارد رسول الآلهة ، وأنجبت كيوبيد إله الحب . وغالبًا ما يتم تمثيلها في الفن عارية أو شبه عارية وكاسية في بعض الأحيان - (المُترجمة) .
(٣) الأبرشية : مقاطعة كَنسية لها كنيستها الخاصة وقسيسها الخاص - (المترجمة) .

ثرواتِه الشخصِية فيها ؛ ولهذا فهو لا يَعْرِفُ ما إن كان سيحظى فيها بمجرد مقبرة صغيرة - ليدفن فيها .

وَأخيرًا توصل الخوري [١] (دومافيان) إلى قرار يحسم حيرته بشأن دفن جثمان الإمبراطور الميت .. قال : إن هذه المدينة لنْ تُوفر بعد الآن مدافنَ على نفقتِها لمن ليس لهم أموال أو مُمتلكات ذات قِيمَة على أرضها . سواء أكان أولئك الذين لقوا حتفهم فوق أرض (دومافيا) شعثًا غبرًا يرتدون الثياب الرثة كالمتشردين أم كانوا من أولئك الذين يرتدون أفضل الملابس .

وكان (داسيوس إيلوس) قد أوْصى بثروته الواسعة في (روما) و (سرميوم) إلى وريثه (إنبيو) وصدَّق على الوصية في دار بلدية المدينة .. في نفس المكانِ الذي سلبه حقه في أن يُدفن !! .

* * *

(١) الخوري : القسيس أو راعي الأبرشية - (المترجمة) .

الفَصلُ الرَّابِعُ

هكذا عايش (رحمن بك جوزو) سقوط الإمبراطورية النمساوية – المجرية المذكَرات الثانية لجدِّي [زمنيًا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الأولى] :

جلَّ الخالق ... يا للروعة يا لتلك المخلوقات الرقيقة ... إنها تهْتَزُّ .. تطفو .. تعوم ... تسبح .. تطير ... بل إنها تتلألأ .. تلمع مثل السطح الأخضر لماء بحيرة مسته للتو الأنامل الناعمَة لنَسِيم لطيف مرَّ مع أول الغَسَق [١] .. كما لو أن همسات النسيم العليل تُتوِّجُ كؤوسَ زهرةِ الكرزِ وبتلاتها [٢] الشفَّافةِ ... تلك الكائنات الناعمة تتمايل وتترَنح في الهواءِ في حالة من انْعِدام الوَزْن وفي خرق تام لقانون الجاذبية الأرضية ! .

« يا إلهي .. لماذا خَلقتني في تلك البوسنة اللعينة ؟! .. ولكني أعود مرةً ثانية وأقولُ من جديد .. إنك أنت اللّٰه القوي القدير المقتدر ، وما أنا إلا (رحمن جوزو) فحسب .. مجرد رجل بوسني جاحِدٌ للْجَمِيل وناكِرٌ للنعْمَةِ ... رجل ظالِم غليظ القلب تَجاسرَ على التمَرد على بلاده .. إنني ذلك المتَكبِّرُ ، المتَغَطرس الذي يسبُّ بوقاحة وبوَجْهٍ صَفِيق وَطَنه الأَصْلي وأرض أجداده ومسقط رأسه . إنني أعلم يقينًا أنَّك تذلُّ من تشاء وتعز من تشاء متى شئت وكيف شئت ، وأنك ترفع مَنْ تُريد وتضع مَنْ تُريد حينما تُريد . هذه الحقيقة واضحة أمام عيني تمامًا بحيث لا يُمكنُ أن تكونَ أوضح من ذلك ، وأنت يا رب فعلت نفس الشيء مَعي ، أنت سبحانك قدرت على هذا البوسني كل الأحداث التي مر بها .. ثم هنا في (فينا) ، أنعمت على (رحمن جوزو) – عَبْدكَ الجندي لدى صاحب السمو الملكي (فرانز جوسيف)[٣] بجمال صنعك البهيج ، وروعة فِرْدَوْسك وجَنَّتك الموجودة حتى هنا في هذا العالم الأرضي ! » .

---

(١) غسقٍ : حمرة الأفق عند غروب الشمس ، وهو بَقِيَّةُ ضَوْءِ الشمْسِ بَعْدَ غُرُوبِها .

(٢) البَتَلَات : الأوراق التوَيْجِيَّة ، جمع بَتَلَة (تُوَيْجة) وهي جزء من أجزاء الزهرة .

(٣) فرانز جوزيف الأول (Franz Josef-I) : إمبراطور النمسا والمجر (انظر : الترجمة الكاملة لحياته ص ٢٣١) – (المترجمة) .

هذا هو الإنسان .. ضعيف القلبِ وجاحد بِنِعْمَة ربه دائمًا ..

وها أنا أَدْعوك باسمكَ من جديد ، وأَنا ما زلت - كعادتي - عاقًا وجاحِدًا لِلْجَمِيل والنِّعْمَةِ .

انظر إليَّ الآن ، وقارن ذلك الرجل بما كنتُ عليه قبل الآن ؟!

يا له من فَرْق !!

وكَيْفَ لي أن أُقارنَ حالي الآن بحالي عندما كُنْتُ أناجيك وأَدْعو باسمكَ عند نهر (سوتشا) ! إنني الآن مختلف بقدر تلك المسافةِ العظيمةِ ، هناك مسافة هائلة تفصلني عن ذلك الشخص وعن ذلك المكان أيضًا .. مسافة عظيمة كالمسافةِ مِنْ هنا إلى السماءِ ! .

لقد عدتُ إلى الحياة من جديد بعد أن كنت في عداد الموتى .. في الحقيقة لم أكن لا حيًا ولا ميتًا ... كُنْتُ غافلًا ومغيبًا بالكامل عن مثل تلك الروعة وذاك الجمال البهي والحسْن البَهيج الموجود في هذا العالم .

لكنِّي بالفعل لم أكُنْ لا حيًا ولا ميتًا .. بل ربما كنتُ ميتًا أكثر من أن أكون حيًا .. فقد كنتُ مُصَابًا بِجُروحٍ مُميتةٍ هناك على سفح جبل (رومبون) .. ذلك الجبل الذي يقع على امْتِداد مجموعة من الصخور الجليدية والجبال الباردة التي تُعرف بجبال الألب .. يا إلهي .. هل كُنْتُ مُمَدَّدًا على ضَفة نهرِ (سوتشا) البارد السريع عندما كُنْت أتضرعُ إليك وأدْعوك باسمك ؟ .

« لقد قررت أن تدعوني للقائك .. يا عزيز يا قوي ، تعلم يا إلهي أنَّني أعلمُ أنَّك دَعوتَني وقررت أن تأخذني إليك .. إن كل شيء مُمْكِن بالنسبة لك .. فلا تحرمني أمنيتي ! إنني أتَضَرَّعُ إليك بوجهي الشاحِب وأستجدي رحمتك ببصرِي الذي خَفَتَ لتعتِّمَ الدنيا في عيني .. أتوسل إليك أن تنقذ عبدَكَ الآثم (رحمن جوزو) مِنْ عذابِ هذا العالمِ ! ... لا يُمكِنُ ألا تكونَ قد دَعوتَني وناديتني للقاء وجهك الكريم .. تَعْلم يا اللّه أنني أعْرِفُ أنَّك قد اخترتني ودَعوتَني . لقد أتحتَ لي الفُرصَةَ لأن أعرف الموتَ عن قرب .. أسلَم مِئات من الناسِ أرواحَهم أمام عَيْنَيَّ مباشرةً . لم أكُنْ

في سكرة الموت مثلهم ، لكنَّك كَشفتَ لي ما كَانوا يَمرُّونَ به ، إنها ذات الأعراض التي أشعرُ بها الآن على ضَفَّة نهرِ (سوتشا) ، لَم يتعَافى أي أحد مِنْ حالة تشبه تلك الحالة . إنهم يحْتضِرون .. تدور أعينهم ببساطة ويسر وسط رؤوسهم ... يئنُّونَ ويتَأوَّهونَ .. ينَدبُون أو يُولولُون بصوت يشبه العواء .. ولعلهم يبدؤون بترديد الشهادة ، وقد يَتبسمونَ فحسب . وربما يُبللون سراويلهم الداخلية وهم في سكرات الموت ومعاناة الاحْتضار . أو يشهقون شهقةً واحدة ثم تقطَع أنفَاسُهم .. أو يزفرون ببساطة نفسَهم الأخير للخارج . لكن كل الذين رأيتُهم في حالةٍ تشبه الحالة التي أنا عليها .. أسلموا أرواحهُم .. بهذه الطريقة أو بتلك ، بشكل أسْرَع أو أكْثَر سُرعَةً ، كلهم قَضَوا نَحْبَهُم ... ومَضَوا إلى باريهم .. لقد انتهوا . إلا أن روحي العنيدة ما زالت تُكافحُ .. لم تزل تناضل الموت !! . لقد اكْتَسَحَ الألمُ كل جزء من جسمِي وقهر كل قواي .. لم أعد أشعر بأي شيء خارج جسدي و كل شيء داخل جسدي لا أحسُّ به كجزء مني . ولِهذا السبب أنا أدْعوك ...

أَعْرفُ يا إلهي بأنَّك قد دَعوتَني للقائك وأنك ستقبض روحي ، فامض قضاءك ولا تتركني هنا . لا تفعل أرجوك ! أبْتَهِل إليك .. أتوسل إليك كما لم يستجدك أحد من قبل ، ألا تدعني هنا . أنقذْ عبدك (رحمن جوزو) من هذه الحياة .. فقط أجرني من الحياةِ في هذا العالم .. نجني وخلصني من العيش في هذا العالم .. وسواء إلى الجنة أو إلى الجحيم ... مهما يكن قضاؤك ومهما تكن مشيئتك يا إلهي ، فقط أخرجني من هنا .. أبعدني عن هنا ! أسألك بحَنَانك ورأفَتك ولُطْفك .. وأستجدي منك حصتي من رحمتِك الواسعة ، يا رحيم ... يا أرحم الراحمين .

وفي تلك اللحظة تَوقَّفَ كل شيء .. في البداية اعتقدتُ بأنَّ اللَّه قد أجابَ دعائي وأنني متُّ بعد أن تقبل اللَّه ضراعتي .. ولكن بمجرد أن أدركتُ أنني أعْتَقدُ وأن عقلي ما زال يفكر ، غَمَرَتني موجة من العرق البارد .. وأدركتُ بأنني ما زِلتُ أصارع في هذا العالم .. بعد ذلك خَفَتَ ذلك الشعور أيضًا .. بَهتَ تمامًا ... كما بهت كل شيء ... كل شيء باهِت وشاحب تمامًا ..

كنت قد غبت عن الوعي ... اختفى إحْساسي بكل شيء .. كُنتُ حيًّا بشكلٍ ما ولكنني لا أشعر بشيء ولا أعي أي شيء من حولي ... دخلتُ في غيبوبةٍ

تامة ونقلتُ على تلك الحال إلى مستشفى ميداني في قريةِ (لوغ) الصغيرةِ ، على سفح جبل (ماغرتا) ، وأنا على نفس الحالة نُقِلتُ إلى مُسْتَوصَف طِبيٍّ في بلدةِ (كوبارد) الصغيرةِ ، ثمَّ إلى المستشفى العَسْكَرِيِّ التابع لنُقْطَة [١] مدينةِ (كراني) . ودون أي تحسن في حالتي ، نُقِلتُ إلى المستشفى العَسْكَرِيِّ الرئيسي في مدينةِ (غراز) ، ولمْ أنْقَل مرة ثانيةً .. وهناك في تلك المدينةِ - وليس قبل مرور شهر على بقائي في المستشفى - تعافيتُ وعدتُ إلى الحياة من جديد ... بعثتُ ككائن حيٍّ ، بل ونابض بالحياة ... كنتُ أرفرفُ في أروقة المستشفى كطائر سمان مُفعم بالحيوية والنشاط . وعلى اللوح الجداري وقفت لأقرأ الرَّسْم البَيَانِيَّ الذي يُحدد المحطاتِ الوسط التي ستتخللها رحلتي البحريةِ عبر نهر (سوتشا) ، كنتُ في حالة صحية جيدة ولا أشعر بأي شيء غير طبيعي !

كَان الأطباء يَقُولونَ في دهشةٍ بالغة :

« ذاك الوغد البوسني .. يا له من عنيد شَدِيد البَأسِ ! » .

ولكنهم - بعد مدَّة طويلة من الموتِ السريري - لمْ يُعيدوني إلى الجبهةِ الغربيةِ لألتحق بالفوج العَسْكَري الرابع ، كما لم يطْلقوا سَرَاحي أيضًا ولم يخْلوا سَبِيلي . بالطبع لمْ يرغبوا في فَقْد ذلك البوسني العِمْلاق الجسِيم ، وكيف يُفرطون في ذلك الرجل الضخْم القَوي البنية الذي يصل طوله إلى المترين والذي يتمتع بقوام رشيق يشبه الكَمَنْجَة [٢] ؟! كانوا يتحسرون لرُؤية نفس الطراز من البوسنيين الأشداء الأسطوريين من ذوي القوة الاستثنائية - الذين اختلفوا عنِّي فقط في أنَّ حالتهم الصحية لمْ تتدهور أكثر ليَقُعوا مثلي في حالةِ الموتِ السريري - وقد ضعفت صحتهم وذبلوا أثناء أدائهم للخِدْمَة العَسْكريَّة في حراسِة صاحب السُّمو الملكي ، أما المجنَّدون الأضعف منهم بنيةً على نحو لا يُقارن والأقل إعدادًا وتهيئة فكان عليهم أن يَنْزفوا دماءهم في جميع أنحاء أوربا في سبيل النظام المَلَكِيِّ لإمبراطورية النمسا والمجر !

ومِنْ (غراز) أعادوا تكليفي إلى (ڤينَّا) ضمن الفوج العسكري البوسني الثاني .. وهناك استلمتُ عملي الجديد .. كـ « حارس الشرفِ » .

---

(١) نُقْطَة (مخفر) : مَرْكَزٌ عَسْكَرِي - (المترجمة) .

(٢) الكَمَنْجَة أو (الكَمَان) : آلة موسيقية لها شكل إنسيابي رشيق - (المترجمة) .

انظر إليَّ الآن !

« يا إلهي المفدى ، اللهم لك الحمد في الأولى والآخرة ! » .

إيه ، إيه ، إيه !

والآن ها هي الفراشات تُصفِّقُ بأجنحتها والبجعات تَعُومُ .. وتلك الحوريات .. الحور العين [١] بعيونهن الواسعة وثِيَابهن التي وُصفت في القرآنِ الكريم - المعذرة يا إلهي فأنا لا أقصد الإساءة إنني فقط لستُ من أولئك الذين أذنت لهم بالاقتِراب أكثر مِنْ كل حقيقة من حقائق الإيمان ، ولم تكن تلك الحقائق الربانية يومًا في مُتَنَاوَل يدي .. حيث لم تكن سهلة المنال .. ولم أجرؤ يومًا على سؤال أي أحد عن تلك الحقائق الإيمانية .. ولو فعلت فحتمًا كنت سأصْفع فورًا على أذني مِن قِبل الشيخ العجوز (طارق أفندي) أو كنت سأتلقى لَطْمَة مِن قِبل أبي (ثاقب أفندي جوزو) رحمه الله ؛ لأن مثل هذا الاسْتِفْسار كان سيحظى بالازدراء والاحتقار حتى مِن قِبل أكثر طلاب المدارس الشرعية مرونةً وقدرةً على الجدال والمناقشة .. ولو كَانَ لديَّ ما يكفي من الوقاحةِ لأن أسأل القاضي (آدم آغا مهردار) فسوف يُكلفُ أحد رجال الدَّرَك لتتبعي ومنعي من الاستمرار في هذا الجدل طوال عمري . وعبر مراحل حياتي كدارس في المدارس الشرعية وكخريج في مدرسة (الغازي خسرو بك) [٢] في (سراييفو) .. وإلى الآن وبعد أن تجاوزت

---

(١) حور عين : (حور) نساء شديدات سواد العيون وبياضها (عين) ضخام العيون ، كسرت عينه بدل ضمها لمجانسة الياء ومفرده عيناء كحمراء (تفسير الجلالين) - (المترجمة) .

(٢) الغازي خسرو بك (٩٩٥ - ٩٢٨ هـ/١٤٨٠ - ١٥٢١م) ؛ كان والده من رجال الدولة العثمانية وأمه سلجوقية ، وهي بنت السلطان (بايزيد الثاني) ، وقد حظي خسرو بك برعاية مميزة وتعليم عالٍ في قصر السلطان بالأستانة مقر الخلافة العثمانية . وشغل منصب والي منطقة البوسنة من (١٥٢١م) حتى (١٥٤١م) ، وقبل مجيئه إلى البوسنة كان واليًا على (سميديريفو) أو صربيا ، وقاد حملات عسكرية على دالماسيا وكرواتيا والمجر . ولم يشتهر الغازي (خسرو بك) بوصفه الرجل السياسي فحسب ؛ بل اشتهر كذلك بكونه رجل الأعمال الخيرية ؛ والمؤسسات الثقافية ، وكان من مفاخر الدولة من ولاة المسلمين الذين ضربوا المثل في الإنشاء والتعمير ؛ فهو الذي أسس مدينة (سراييفو) وانشغل ببنائها وتعميرها ومما يدل على شدة تعلقه بها أنه عندما وافته المنية أوصى بدفنه داخل ساحة المسجد الذي يحمل اسمه في (سراييفو) . لا تزال معالمه وآثاره ماثلة للعيان ، ويعتبر مسجد الغازي خسرو بك المنشأ عام (١٥٣١م) من أكبر وأجمل مساجد البوسنة وإلى جانبه بنيت مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم و (خانقاه) أي مدرسة لدراسة

سنوات البلوغ والنضج وأصبحت خبيرًا في عِلْم تَفْسِير القرآن الكريم لم أجرؤ على سؤال أي أحد عن تأويل للوصف القرآني لملابس الحوريات في الجنة ، لكن ما أراه الآن أمام عيني يُمْكِنُ أن يَحْملَ ما يشبه الجواب عن ذلك الفضولِ القديمِ !! .

إيه ، إيه ، أيها الجندي البوسني المحتَرَم .. وجمعت بينهما معًا ! .. كيف تجرؤ على تلك الوَقَاحَة .. بل كيف تُقدمُ على مجرد استعراض ذلك المجون في عقلك .. كيف تقارن هذه الليْلةَ التي تشهدها كمُجند يرتدي الزِّي الرسْمِيَّ للجنود .. بنعِيم الجنَّة .. بالفِرْدَوْس ؟! يا لك من أحْمَق ! .. وحتى إن كان هناك أي وجه للتشابه بين ما تراه الآن ونعِيم الجنَّة – فلا تقلق – فلَنْ يَكونَ لك هناك موضِعُ قدم تَقف فيه كما تَقف الآن في نوبة الحراسة – منتصبًا كالبُنْدُقِيَّة – في تلك الوضعية المصطنعة حيث تردُّ زنْدُ بُنْدُقيتك بعضلاتِك المتشنجةِ إلى الوراء استعدادًا للرمي .. وحتى إذا لم تَفقد وعيك تدريجيًا ، ثم تذوب وتسقط كالشمْعَة .. فإن كل جزء من جسمِك سَيؤلمك ولن تَقدر على تَرْك سريرك لمدة خمسة أيام على الأقل بعد إنهاء مناوبتك كحارس شرف ... أما في الجنَّة فبدلًا مِن تلك التعاسة ... فإن الحظ السعيد سيدركك أنت أيضًا .. وستحصل على قسطٍ وفير من السعادة والنعيم تمامًا مثل أولئك الذين يتَبَخْترون ويخْتالون كالطواويس حول تلك الطواويس من الإناث المزْهُوَّة بأنوثتها .. وسَتَتكبَّرُ أنت أيضًا كما يفعل البارونات والأمراء وسوف تمعن في الزهو والتَّبَاهِي أثناء الحفل الراقص الذي ستقيمه داخل بَلاطك الملكِيِّ ... ستتألق هناك وسط أولئك الجميلاتِ الفاتنات اللواتي سَيَلتففنَ ويُحلقن من حولك كالفراشات .. حولك أنت أيها الجحش البوسني .. يا لك من غَبِيٍّ أبْلَه !! .

إيه ، إيه ، ولكن مع وجود مثل هذا المشْهَد البديع أمام عيني ، وفي حضور تلك المخلوقات الناعمة يمكنني أن أقف حارسًا – وبكل سرور – مدى الدهر ! بل وإلى عِدَّة دهور إضافية أخرى وعن طِيبِ خاطِر .. يمكنني أن أقف إلى أبَد الدهر !! .

أوه ، انْظر إليهن .. وهن يَضْحكنَ ويقهقهن ! تخيَّلْ كم المساحيق المتنوعة التي احتجن إليها لتبدو وجوههن بهذا الإشْراق والبَيَاض .. تُرى أي أنواع مساحيق

التصوف . وقد بلغت حجة وقف المدرسة الدينية سنة (١٥٣٧م) سبعمائة ألف درهم . (انظر : محمد بن محمد الخانجي البوسني : « الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة » . (ص ٩٤ – ١٠٠) – (المُترجمة) .

التجميل يمكن أن يجعل وجوههن هكذا .. مضيئة متلألأة كالبدر المنير ! وما نوع الكحل الذي استعملنه لِكي تبدو عيونهن بهذا الاتساع .. جميلةً ونجلاء إلى هذا الحد !! .

إيه ، إيه ، أيها الجندي البوسني البائس كم يسرني أنك عِشتَ لترى هذا !

وأثناء اسْتِغْراقي في تلك الضلالات الجميلة ومن بين تلك الصور الخيالية .. قفزت صورةٌ حقيقة مِن عالم الواقع .. برقت أمام عيني صُورةٌ خاطِفَة مرت كلمح البصر .. صورةٌ لذكرى قديمة قفزت من عهدها البعيد وامتثلت الآن أمام عيني صورتي وأنا أسقط عن شجرة كرز في (سربرينيتسا) كنت قد تَسلقتها أملًا في الفَوْز بـ (تنزيلا) ابنة القاضي (آدم أغا) كنت قد فعلتُ ذلك لاسْتِمَالَتها واجْتِذَابها ..

وقد رَتبْت لذلك بشكل صحيح .. تَسلقت الشجرة بَعْدَ أن توقف المطر وصَعِدت إلى أعلى قمة فيها - حتى إن كان هناك من هو أكثر غَباء وأشد حُمقًا مني فما كَانَ ليُقدم على فعل شيء كهذا - وعندما انزلقَت قدمي فوق غُصْن الشَّجَرَةِ ، ثم انكسرَ الغصن تحت قدمِي الأخرى ، أخذت أسقط وأسقط .. وأستمر بالسقُوط أكثر دون أن أصل إلى الأرض ... وهنا فقط أدركت المعنى الحقيقي للسقوط من فوق شجرة !! كما لو أنني لم أسمع ولم أشاهد بأم عيني شخصًا يسقط من فوق شجرة كرز .. في الحقيقة أنت تسمع ذلك المسكين فقط عندما يُطلق تلك الصيحة الصغيرة من فوق الشجرة .. صيحة ابتدائية كان ينوي أن يُتبعها بسيلٍ من الصرخات طالبًا النجدة ، ولكنك بعد ذلك لا تسمع شيئًا ولا ترى غير مشهر ارْتِطَامه بالأرض ! . وقد لا يجد الوقت الكافي حتى لإطلاق تلك الصيحة الابتدائية .. لكنه بدلًا مِن ذلك يرَفْرف بذراعيه - كما يفعل الديك بأجنحتِه - متخبطًا بأوراق الشجرة ثم يرتطم بعنف فوق الأرض .. وكل ذلك المشوار من أعلى الشجرة إلى الأرض يتم في لحظة وجيزة من الزمن ... وكل الذين نجوا ممن شاهدتهم بأم عيني وهم يسقطون مِنْ شجرةِ الكرز - كما تسقط ثمرة كمثرى متعفِّنة مِنْ شجرة الكمثرى - وكذلك كل الذين سمعت فقط عن سقوطهم ، أخبرَوني لاحقًا ، بأن السقوط من فوق الشجرة لمْ يَبْدُ سريعًا وخاطفًا بالنسبة إليهم كما يبدو بالنسبة إلى أولئك الذين يُشاهدونَ

مشهد السقوط وهم على الأرضِ . أخبروني أنهم أيضًا رأوا أحداث حياتِهم بالكامل تَمُرُّ مباشرةً أمام أعينِهم بينما كَانوا يسقطووووووووووووووووون ببطء شديييييييييييد ليهبطوا إلى أسفل الشجرةِ . وهذا بالضبط ما حدث بالنسبة لي . رَأيتُ كلًّا من أمِّي وأبي ، وجَدِّي (رحمن بك جوزو) رَحِمَهُ اللَّهُ الذي ذبحه الصرب في بلدة (تاسليجا) .. وظهرت أمام عيني مباشرةً صورة - لم يسبق لي أن رَأيتها - تظهر كيف كَانوا يَنْحرونه نحرًا ويَقْطعونَ عنقه ... وكذلك (تنزيلا) ابنة (آدم آغا) رَأيتُها أيضًا !! لَكنِّي لمْ أرها ، كما كنت أراها مِنْ قمةِ الشجرةِ وهي تَنتظرُني في الأسفل . رَأيتُها وهي تَقف عند نافُورَة ماء ... ثمَّ وهي تطل من نافذة . ثمَّ رَأيتُها وهي تركض عبر مَرْج من الزهور وتبتسم لي ... ورَأيتُ أيضًا انْضِمامها إلى حلقة الـ « كولو »[1] في ثاني أيام عيد الفطر ، في حفل بقريةِ (زوتيسا) التي تقع على المرْج على الجانبِ الآخرِ للنهرِ يدعى (زيليني يادار) . لم تكن حلقة الـ « كولو » اعتيادية ، ولكنها كانت « كولو » خاصة بالفتيات ولا ينضَمُّ إليها سوى الفتيات الصغيرات اللواتي دَخلنَ عالم الأنوثة حديثًا ، وهكذا يُعلِن للشباب بأنهُن قد نضجن الآن وأصبحن في سن مناسبة تسمح بأن يتَحَبَّب الشبان الصغار إليهن وأنهن الآن يصلحن للتوَدُّد والمغَازَلَة ... راقبتُها وهي تنضمُّ إلى الـ « كولو » وتحلق فيها مع زميلاتها على شكل دوائر .. لم تكن رقصة الـ « كولو » أكثر من دوائر أو حلقات من الفتيات يُحلقن فيها فحسب .. بدون موسيقى أو رقص .. فقط كن يدرن في دوائر .. ولا يُسمح لفتى واحد بالانضمام إليها ... وبينما كنت أسقط من فوق الشجرة رَأيتُها في حلقة الـ « كولو » تلك على الرغم من أنها لم يسبق لها الانضمام إلى تلك الحلقة .. كانت (تنزيلا) حتى ذلك الوقت لم تلتحق بالحلقة بعد .. كان ذلك قبل العيد بفترة طويلة .. ولكنها كانت قد أخبرتني قبل أن يبدأ رمضان بأنها ستَنضمُّ إلى حلقة الـ « كولو » بإذن اللَّه ، وبأنها تعهدت بأن تكون لي ! .. وعدتني بذلك .. ولماذا لا تَنضمُّ إلى الحلقة الـ « كولو » ما دامت تلك هي الطريقة التي تعارف عليها الناس منذ زمن ، وما دمتُ أَعْرفُ بأنها وَعدتْني بأن تكون لي ! .. ورَأيتُ أيضًا نافذةَ (تنزيلا) التي كانت تُطل منها عندما طلبت مني المجيء لرُؤيتها في تلك اللَّيلة ..

---

(١) كولو [Kolo] : رقصة فلكلورية تؤدى على شكل حلقة حيث يلتف الراقصون ويدورون على هيئة حلقات - (المترجمة) .

كنت سعيدًا جدًّا .. أتمنى لو طرت صاعدًا إليها كطائر القُنْبُرَة [١] .. وأخبرتها وقد أسكرتني الفرحة ، أن تنتظرني أولًا لفترة قصيرة جدًّا تحت شجرةِ الكرز حتى آتيها ببَعْض الكرزِ مِنْ أعلى قمة في الشجرةِ ... ثم رَأيتُ نافذةَ (تنزيلا) وشاهدت السلم أيضًا ولاحظت أنني لم أكنْ فوق السلم . ورَأيتُ المعلم (صالح) وتلاميذ المدارس الدينية المتعصبين ذوي الطباع الحادة ، والقاضي الوَقُور الهادئ (آدم آغا) .. ورَأيتُ كلبنا (غروف) أيضًا ، والمزارعين وهم يحصدون الحَصاد بينما كنتُ أَقودُ الحصان في شكل دائرة وأساعدُ في درس [٢] القَمْح فوق الكتاب على السهل الواسع المرتفع المعروف بـ (هارمان) حيث المكان الذي يُعْتَقَد بأنه بقعة تَتجمَّعُ فيها الحوريات [٣] ليَرْقصن . رَأيتُ كل هذه المشاهد ورصدتُ أيضًا امتلائي بالأشياءِ التي تداعت سريعًا أمام عيني والأشياء التي لم أسْتَدْعها ولا أتَذَكر أنها حَدَثَت ، ولم أرغب يومًا في حدوثها ولم أتمنها أبدًا ! كَانَ لديَّ الوقتُ الكافي لتقدير واختيار الغصن الأفضل والمناسب أكثر لكي أتشبث بِه ، وفكرت بأنَّ عليَّ أن أجَرِّبَ أن أجذبَ جسمي بشِدة ، لأنتزع نفسي من هلاك محقق إذا أوشكتُ على الارتطام بجِذْع الشَّجَرَة الذي سيقسمُني بالتأكيد إلى نصفين ... قرَّرتُ أن أرمي بنفسي وأمْسكُ بفَرْع الشجرةِ . وحتى إن لم يَدْعم ذلك الفَرْع وزني ، فعلى الأقل سَيُساعدني في تفادي الارتطام بالجذع ... قلت لنفسي : على المرء أن يجَرِّبَ وأن يُحاول التأثير على قَدَره ، خصوصًا إذا كان قَدَري ألا أمُوتَ قَبْل أن أهْبط على الأرضِ !

وبعد ذلك ، كَانَ آخر ما سَمعتُه .. صوت (تنزيلا) وهي تضحك وتقهقه ، ثم بعد ذلك بَدأتْ بتَوبيخي لأنني أفزعتها وأخفتها لدرجة أنها كادت تموت هلعًا :

« أيها الحمار ! لقد أرعَبتَني إلى حد الموتِ ! بسببك قفز قلبي إلى حنجرتي أكثر

---

(١) القنبرة : طائر مغرد من فصيلة القبريات alaudiadae ورتبة الجواثم passeriformes . ويتراوح طوله ما بين ١٣ و ٢٣ سنتيمترًا . وله منقار صغير مخروطي الشكل . يوجد منه نحو خمسة وسبعين نوعًا . ومن أشهر هذه الأنواع skylark التي تتواجد أكثر ما تتواجد في أوربا ، وقد سميت بذلك لأنها تغرد وهي منطلقة نحو السماء في اتجاه شبه عمودي - (المُترجمة) .

(٢) درس : خبط أو ضرب القمح لفصل الحبوب عن القشور ، وهي عملية يقوم بها الفلاحون في بيادر (حقول) القمح - (المترجمة) .

(٣) الحوريات : جمع (حُوريَّة) وهي عَذْراء خُرَافِيَّة جَمِيلَة - (المُترجمة) .

من مائة مرة ! ولا عشر صَبات مِن (السترافا) يمكنها أَنْ تُعيدَني كما كنت . والآن أنت تَضْحكُ وتَتأرجحُ على ذلك الغصنِ ! ألا تَستطيعُ أن تَكون أقل حرصًا واهتمامًا ، يا لك من حمار ! عار عليك ! » .

كَانَت (تنزيلا) تَصْرخُ شاحبة الوجه .. وهي تركض مُبتعدةً عنْ شجرةِ الكرز ...

وقد تفاجأتُ - أكثر مِنْ صدمتي بردة فعلها - عندما أدركتُ أنني معلق على أدْنَى غصن في الشجرة وأقرب أغصانها إلى الأرض وأن ساقاي تتدليَان من ذلك الغصن على ارتفاع لا يزيد عن ثلاثة أقدام فوق سطح الأرضِ ! .. تملكني الخوف لدرجة أنه خدَّر ذراعي .. واسْتَحْوَذ عَلَى الهلع وشعرت بأن ذراعيَّ قد تَيَبَّسا تمامًا ، ثم سقطت بشدَّة لأرتَطم بالأرض مِن ارتفاع أقل مِنْ ثلاثة أقدام ، لكنني سقطت على نحو مؤلم جدًّا وبطريقة أسوأ مِن حالي لو أنني كنت قد ترَدَّيت مِنْ قمةِ شجرةِ الكرز وتَشَقْلَبَت في الهواء عدة مرات ! .

ولم ترني (تنزيلا) بعد ذلك لعدة أيام ، وبعد أن هدأت وانْحَسَرَت عنها موجة الغضب ، بَدأتْ تسترق السمع لما يقال عني ، وعندما سمعت بأنني لم أخرج من البيت لأسبوع كامل لأنني كنْتُ طريح الفراشِ ، تصورت أنني قد انسحقت وتهشمت تمامًا عقب سقوطي من شجرة الكرز بعد أن أخفتُها إلى حد الموتِ (في تلك اللحظة لم أكن قد سَقطتُ على الأرض بعد) وبعد أن انفجرتْ بذلك النوع من الضحك الذي لا يعرف المرء ما إن كَان ضحكًا أَم بُكاءً !! .

عندما أحس أهلها بخُمُودها وسُكونها المريب .. قاموا باستدعاء الأئمَّة والصالحين وجلبوا لها الأولياء من كل مكان .. كما أخذوها على حصان وطافوا بها في كل مكان يوجد فيه أحد الأئمة أو العلماء الصالحين الذين أخذوا يصيحون باسمها وينادون عليها لتتحدث وتجيبهم .. وما أن فتحت فمها لتبدأ بالكلام حتى سألت عن (رحمن بك جوزو) .. كانوا يميلون عليها محاولين تَهْدِئتها ... وأخذوا يُصبرونها ويواسونها بحقيقة أن اللّٰه قادر على كل شيء وبوسعه أن يُعيدَ (رحمن بك) إلى وعيه ... والحقيقة أنه قد أصبحَ محطمًا ومدمرًا كليًّا .. كان كل جسده مسودًّا ومُزْرَقًّا تمامًا بِسَبَبِ الرضات والكدَمَات .. كَانَت معجزة حقيقية أنه بقي حيًّا وعاش

بعد تلك الحادثة !!

ومن جديد ، أخذت (تنزيلا) تضحك من خلال الدموعِ وتبكي من خلال الضحكات .

وحتى الرجل الحَليم (صالح أفندي) كَانَ سَيتخلّى عن تلاوة الأدعية لولا أن أمَّ (تنزيلا) كَانتْ تَتوسَّل إليه وتناشده باسمِ أمِّهما ، ألا يَخْذلَ طفلتها وألا يتركها تترنح وتتمايل لتسقط في هاوية المرض ويدركها الهلاك .

وبعد أن هَدأَت أعصاب (تنزيلا) قليلًا ، طلبت وبطريقة جافّة وفَظَّة من كل شخص يَعْرف ذلك الأحمق « مُتسلق شجر الكرز » أن يبعده عنها نهائيًا وألا يذكره أحد أمامها بعد الآن .. وألا يُفكر أحد مجرد التفكير بوصفها « عروسه المؤعُودة » ... وعندما اجتمعنَا عرضيًا عند نافورة الماءِ ورَأتْني .. بَدأتْ تَصْرخ في وجهي :

« أنت أيها الوغد القذر ! يا لك من ساذج مثير للشفقة ، انظر ماذا فعلت بي ؟! أما كَانَ يكفيك أنني قصرت طرفي عليك وحدك وأنني لم أختلس حتى نظرة واحدة لأحد سواك ورهنت نفسي لك ؟ ألَا يكفيك أنني جُمِّدتُ من الخوفِ تحت شجرةِ الكرز تلك وأنت مُتدَلٍّ من الشجرة مُعَلَّق من ذراعيك في أدنى غصنٍ فيها .. وبقيت تتأرجح وتتأرجح كما لو كُنْتَ أرْجُوحَة ؟! إن لم يكن الشيطان بنفسه يسكن بداخلك ، فإنك لا ريب الأسوأ من بني جِنْسك ، أنا لا يهمني ولا يعنيني إلى أي (جوزو) يتصل نسبك ... فأنت لا تنتسب إلا إلى الشيطانِ الذي بداخلك ، أيها الوغد القذر ! يا لك من ساذج مُثِير للشفقة ! لا أستطيعُ أن أتصور كيف كُنْتُ سأهدرُ شبابي عليك وأَقضي الباقي من حياتي معك .. معك أنت أيها الوغد القذر ! أيها الساذج التعيس المثِير للشفقة !!! » .

... تَذكَّرتُ تلك الفتاة الرائعة ابنة بلدتي التي مَا نَسيتها يومًا والتي تَزوَّجت من أول شابٍّ جاءها مِنْ قرية بعيدة فقط لكي تطردني من حياتها وحتى تبعدني عن نَظَرها .. وتَذكَّرتُ سقوطي بالحركةِ البطيئةِ مِنْ فوق شجرة الكرز في (سربرينيتسا) !!

مرَّت كل تلك الخواطر والذكريات أمام عينيَّ .. عندما كنتُ في غابةِ (شنبرون)

أحرسُ ذلك الحفل الراقص والفتيات والسيدات الفاتنات يرقصن ويدرن مُسرعات أمام عيني .. يقفزن بوثبات رقيقة على أطراف أصابع أقدامهن ويحلقن بلطف ... يدرن رُوَيْدًا رُوَيْدًا في الهواءِ ... كفراشات جميلة .. استغرقت في الذكريات وكأنني دخلت في نوبة من الهذيانِ .. تَذكرتُ وتَذكرتُ .. وما زال أريج أشياء كثيرة من ذلك الزمن البهيج يعبق في أرجاء نفسي ويعلوني بمسحة من الحزن والحنين .. ما زال شيء يفوح بعطر تلك الذكريات البعيدة .. صورٌ من طفولتِي وصورٌ من أحزانِ ومباهج شبابِي المبكر .. عصفت بذهني تلك الريح المسْرِعة مُثقلةً بذكريات الوطن .. عبرت ذهني بسرعة فائقة .. أسرعُ من طلقة رصاص مُسْتَعْجِلة !! .

إن كان ما حَدث عند شجرةِ الكرز مجرد لعبة طفولية لمْ تَنتهي بالموتِ ، فإن هذا الجمال الماثل أمام عيني يستحق بالفعل أن أمُوتَ من أجله ... كَمْ هي جميلة (ڤينًا) .. وسيدات (ڤينًا) اللواتي يرَفْرفنَ في الهواءِ برقة وعذوبة كنُدْف الثلج !! .

كما لو كنتُ أراقبُ مِنْ غرفتِي في (سربرينيتسا) كَيف تتلاعبُ الريح برقائقِ الثَّلْج الناعمةِ ؛ أَو كيف يتدحرج جدول (غوبر) الأسود مِنْ قمةِ المنْحَدر الصَّخْريِّ ؛ أَو كيف يشتَميل نسيم الريح الغربية طلعَ [١] النباتاتَ الجديدة بخفة .. وأراقبُ أيضًا تحول تيجان أزهار شجرةِ الكرز البيضاء المتَفَتِّحة إلى اللون الأَخْضَر بشكل تدريجي .. بل إن ما أراه الآن يشبه كل تلك الأشياءِ الجميلة والبديعة مجتمعة ، بل وحتى أكثر قليلًا .. هذا إن كان بوسع المرء أن يُقارن أيَّ شيء بهذه الفراشاتِ الصَّغيرةِ الرقيقة التي تفقس مِنَ الماءِ لتتناثر كضَبَاب رَقِيق فوق كؤوسِ أزهار الكرز المبَللة التي تهتَزُّ وتتَمَايل أمام عيني في حفل الضباط .. ذلك الحفل البهيج المقام في غابَة (شنبرون) .

النساء والفتيات الفاتنات وهنَّ يرقصن ويدرن في دوَّامَة من المَفاتِن والمحَاسِن .. وفي تلك اللحظة ، ومِنْ قلب تلك الدوَّامةِ بالضبط خَرجَت إحداهن وشَقَّت طريقها باتجاهي مباشرة .. إنها البارونة [٢] (فون ديلمينسينجين) . لم أكن لأخطئها كُنْتُ سَأتعرف على طلعتها حتى مِنْ مسافة أطول .. إنها الابنة الصغرى للجنرال (كونراد كرافت ديلمينسينجين) .. أحد اثنين من القادةِ الرئيسيين في (سوتشا) .

(١) طلع النَّبات : أوْراق أو بَرَاعِم جَدِيدَة - (المُترجمة) .

(٢) البارونة : زوجة البارون : لقب شرف بمعنى النبيلة - (المُترجمة) .

كان قد جاءَ إلينا كقائد للجيش الألماني المُلْحَق ... فقد كَانَ على الجنود أَنْ يقتنعوا بأن الضباط من أصحاب الرتَب العليا في (ڤينًا) وفي مجتمع (برلين) مُتَعاطفين مع نضالهم الخارق وصمودهم الأسطوري على الجبهة فوق الجليد والثلج الذي يُسَلْسل جبال الألب ويقيِّدها معًا ... وكَانتْ ابنته البارونة تَأتي لزيارة والدها كنت قد رَأيتُها في أحد المرات عنْ قُرْب .. كَانتْ جميلة وفاتنة حتى وهي ترتدي معطفها الشِّتويَّ الثقيل وتلْتَفُّ بشالها الكثيف ... لم يكن يظهر منها سوى جزء من أنفِها فقط .. بالإضافة إلى عينيها وخُصْلَة من شَعْرها تفلتت من تحت القبعة الصغيرة .. ومع ذلك فقد كان من الصعب إخفاء جمالها .. وعلى الرغم من أنَّ ما يَكْفي منه كَانَ ظاهرًا للعيان .. إلا أن جمالها الطاغي كان يُلزم من يراه بأن يتخيلَه وإن لم يره .. وفوق ذلك ، كانت هناك الطرِيقَة التي مَشتْ بها ! .

والآن ، ها هي وحدها أمامي ، أمام عيني مباشرة ، كانت حركتها أكثر خفة ولُيُونَة .. كانت تمشي برَشَاقَة لا تخطئها العين بعد أن تحررت من ثقل الحذَاءِ ذي الرقبة الطويلة الذي كانت تنتعله في منطقة الألب ، كَانتْ تتحرك بطريقة مُغرية تحمل إيحاءات شَهْوانِية .. تنثر فِتْنَتها التي تخلِب الألباب في كل أرجاء المكان .. فتنة تفوق كل الصور التي قد ينسجها خيال جندي ساذج مثلي .. بل إنها كانت أكثر سِحْرًا من كل الجميلات اللاتي ظهرن لي خلال ساعات طويلة من أحلام اليقظة [١] ... لم يكن ذلك وهمًا ولا حُلمًا من أحلام اليَقْظَة ... إنني لا أتخيل أن مثل هذا الجمالِ يُمْكِنُ أن يظهر لبني البشر ويمكن أن يمثل أمام إنسان ...كما لو أنها حُوريَّة أفلتت من الجنة وضلَّت طريقها لتظهر هنا في هذا العالم ، وما زالت تلك الحورية الحسناء تَتحرَّك نحوي بجرأة وثبات يفصلها عن أضواء الحفل الراقص عشرون .. ثلاثون .. بل خمس وثلاثون خطوة من خطواتها الجذابة التي تسلب العقل ... اقتربت مني أكثر بينما أقف بالضبط على الحافةِ التي تفصل بين الساحَة المعدة للرقص والمرْصُوفة بِالبَلَاط وبين حشائش وأعشابِ المتنزه ، كنتُ ملتصقًا

(١) حلم اليقظة (Day dream) : عبارة عن تفكير متمن (wishful thinking) يحقق المرء من خلاله إشباعًا لرغباته ودوافعه التي يعجز عن تحقيقها في الواقع ؛ فهو عبارة عن هروب من مشكلات الواقع وقساوته إلى عالم خيالي بحت فقد يرى المرء نفسه بطلًا مشهورًا ؛ لأنه يتمنى أن يكون كذلك في الواقع أو زعيمًا أو غير ذلك ، وأحلام اليقظة تحدث في جميع مراحل العمر تقريبًا - (المُترجمة) .

بسارِيَة [١] المصباح الكَهْرَبائِيِّ الذي خفت ضوؤه وَتلاشى وراء ظهري في عتمةِ الليلِ ممثِّلًا آخر حدود الحزام الأمني المضروب لحماية ضيوف ذلك الحفل الراقص . وخلف ظهري كانت المروجُ الخضراء والغابةُ وعتمة ظلام ولا شيء بعد ذلك ... وعن يميني وعن يساري تم تثبيت جنود الحراسة على امتداد المساحة المحيطة بالحفل .. كان كل مِنْهم مَغْرُوز مثلي تحت سارِيَة مصباح كالتي تم تثبيتي عليها بحيث يفصل بين كل جندي مسافة حوالي ثلاثين مترًا .. وعلى بُعد عدة كيلو مترات خلفنا كانت تتمركز المجموعة التالية من الحرَّاسِ التي تلي مجموعتنا مباشرة .. في الحقيقة لم يكونوا من جنود الحرَاسَة ، بل كانت مهمتهم تأمين الحِمَايَة حول سياج [٢] قصرِ (هابسبورغ) أروع قصور (شنبرون) وأكثرها بهاءً وفَخامة .

لم تُغيِّر البارونة اتجاهَها ... فقط خطوات قليلة كانت تَفْصلُها عنِّي ... كانت تَمْشي نحوي مباشرةً .

وبينما كنت أقف متيقِّظًا منتبهًا - فجأة ودون أن أشعر - تَوَتَّرت عضلاتي وتَقَلصت وفي لحظة خاطفة أصبح جسمي مُتَيَبِّسًا وشعرت بأنني تحولت إلى قطعة من الحديد الصلْب تمامًا ، كالحامل الفولاذي الذي يحمل المصباح الذي أقف تحته .. لم أتنفس .. ولم أستطع تَتَبُّع البارونةِ وهي تَقتربُ أكثر ، بل إنني لم أجرؤ على إمعان النظر إليها وتَأَمُّلها في ثوبها الأبيض المنفوش .. كانت تتألق في هالة من البَيَاض الناصِع .. لم تكن تمشي ، بل كانت تتهادى وتتَمَايل كما يرْتَعِش لهب الشمعةِ .. كانت تهْتَزُّ وتتَبَخْتر كغصن مَيَّاس ..

إما أنها مَلَك هبط من السماء .. أو أنها حورية هربت من الجنة !! .

لكنها لا يُمكن أن تكون ملكًا ؛ لأن الملائكة لا جِنْس لها ..المَلَك لا يمكن أن يكون لا ذكرًا ولا أنثى .. وهذا الكائن امرأة تمامًا .. إنه امرأة بكل معاني الكلمة .. امرأة أكثر من اللازم .. امرأة طاغية الأنوثة ، لديها من الأنوثة ما يفيض عن احتياج أي امرأة ..

---

(١) سارِيَة : عَمُود أو قائِمَة - (المترجمة) .

(٢) سياج : سور (دَرابزُون أو دَرابزين) مصنوع من القضبان الحديدية - (المُترجمة) .

أخذت تَندفع بعزم وثبات وكان تقدمها يُصدر صوتًا يشبه الحفيف ..

كان السبب فُستانها الذي يصدر خشْخشةً ناعمة يفوح منها عبق العطر ، وكان نهداها متأهبين ومستعدين - تقريبًا - للوثوب من بلوزتها !! .

يإلهي .. ما الذي يَحْدثُ لي ؟ .

لم يسبق لي أَنْ غرقت في هذا النوع من العرق البارد وأنا أضع الطرْبُوش الرمادي على رأسي - الطربوش الذي اشتبك الرجل القابع تحته مع العدو في قِتال التحامي مُباشر - لم يُداهمني ذلك الشلال من العرق البارد ولا حتى أثناء مناوبة الحراسة على ضفاف نهر (سوتشا) ؛ حيث كان جنود العدو يُدبرون - في الخفاء وبهدوء يفوق سكون النهر الذي كان يتدفق في صمت أثناء الليل - لأخذنا على حين غرة ويحاولُون اقتحام مواقعنا بشكل مفاجئ ... حقًّا لقد كنْتُ مُلطخًا بالدم ومُبتَلًّا بالمطرِ ، وفوق كل هذا كنتُ متجمدًا بفعل الثلج ، وقد أعمتني العاصفة الثلجية .. كما كنت مصابًا بشَظِية أدمتني ، لكنِّي مع كل ذلك لم أشعر بالخوفِ ولم يتدفق العرقُ البارد من جسدي ليغمرني كما يحدث لي الآن !! بل إن جُرْأتي وقُوَّة إقْدامي وبَسالتي هي الأسباب التي جاءت بي إلى هنا ، أجل كانت شَجَاعَتي هي ما أوصلني إلى هنا كجندي في كتيبة حراسة الشرفِ .. جاءت بي إلى هنا لأتحول إلى ذلك الحارس البائس الذي يهتزُّ ويرتجف كوَرَقَة يابسة مُتعلقة بغصن شجرة !! .

وحيث إني لم أكن من أكثر الجنود خوضًا لغِمَار الحرْب واشْتِباكًا بالمعْرَكَةِ ، ولم أكن قد تحولتُ إلى آلة ميكانيكية كأولئك الذين نجح التدريب العسكري الأسَاسِيُّ في برمجة العقلِ اللاشعوري لديهم .. فلم يسبق لي مُطلقًا أن قدمت التحِية العسكرية ، ومع ذلك ، فعندما كَانتْ البارونة على مسافة لا تزيد عن ثلاثة أمتارٍ ، قمت سريعًا بطرق زوجي حِذَائي العسكري ببعضهما وقرعتهما معًا بعنف كما يفعل الجنود عند أداء تحية التمام !! .

وقد أفْزَعَها منظر الظلين الثابتيِن - ظلُّ حامل المصباح الفولاذي وظلُّ الحارس المتخشب الواقف تحته كالمسمار - وأدْهَشَتها تحيتي المفاجئة فرَدَّتْ بتلك النظرةِ الأكثر لطافةً وإشراقًا .. نظرة بَهِيجة مُفْرِحة . أدارت جسدها الذي كَانَ - حتى

تلك اللحظة - يتحرك على إيقاع الموسيقى ... لَمْ تصطدمْ أجسامنا ولكنَّها لم تَستطع أنْ تمنع فُسْتانها المنفُوش من أن يمسَّ جسدي مسًّا عابرًا رفيقًا . كانت نظرتها مُثبَّتة عليَّ .. شعرتُ أنني أغرق في طوفان من العرق البارد لدرجة أنني اعتقدت أن حَبَّة عرق أخرى تَنزلقُ مِنْ تحت طربوشي الرسْمِي الأحمر اللون كَانَت ستجرفني بعيدًا وتقضي عليَّ !! لكنَّها أَخذتْ خطوةً أخرى أو اثنتين جانبًا دون أن تُحول عيونَها الباسمة عِنْ وجهِي .

لم يكن صوت حَفيف ثوبها قد تلاشى بعد ولم ترفع نظراتها عنْ وجهِي عندما تَوقَّفتْ ... كان بوسع أي أحد أن يسمع خطواتها بوضوح حين تَوقَّفتْ خطوتين فجأة بعيدًا عن الجانبِ الذي كنت أقف عليه .. اختفى صوت الخشخشة الصادر عن فُسْتانها المنفوش وبات بإمكاني فقط أن أسْمعَ صوت ارْتطام صدرِها بيلوزتِها وهي تَتنفس نَفَسًا آخر من الهواءِ ... استغرق ذلك مدة زمنية أطول من تلك التي تمكنني - في أحوالي الطبيعية الاعتيادية - من الإبقاء على عيني مفتوحتين دون أن أغمض جفني ... ومع هذا بقيت عيوني مفتوحة على مصراعيها .. تحدق في دهشة وذهول !! .

لم ترتحل عن مجال نظري أو حتى تَتزحزح قليلًا ..كَانتْ قريبة جدًّا ... وعلى الرغم من أنها كانتْ خلفي بعض الشيء ، كانت لا تزال ضمن مجال رؤيتي . وفي تلك اللحظة سمعتُ صوت الحفيف من جديد .. كان الصوت قويًّا جدًّا يشبه رجع الصدى حين يدوي الرَّعْد على المنحدراتِ الصخريةِ لجبال الألبِ . ذلك الصوت الذي يجعل رجلًا وَحِيدًا ومغرورًا مثلي - بغض النظر عن كونه جنديًّا باسلًا وشجاعًا - يَهتزُّ ويرتجف كورقة شجر في فصل الخريف توشك أن تهوي إلى الأرض خوفًا من أن يَنْهَار كل شيء فوق الجبلِ ويهوي إلى النهرِ ، تمامًا كما يفعل صوت إطلاق النار على سفح جبال الألبِ عند بزوغ الفجر ، ذلك الصوت الذي يهزُّ أرجاء الجبل ويؤدي إلى انهيار الجليد حيث تبدأ الكتل الجليدية في التدحرج على المنحدراتِ الصخريةِ .. أوْشَكَتْ طبلة أذني على الانفجارِ بسبب صوت الحفيف الصادر عن انسياب تَنُّورَة [١] البارونة .. يُمْكنُني أن أسْمعَ بوضوح صوتها وهي تنْزلق على خاصرتها بعد أن حلَّت خيوط الخصرِ التي تربطها على الجنبين ، انزلقت التنُّورَة

(١) التنُّورَة (الجونلَّة) : الثوب تحت الخصر أو الإزار - (المترجمة) .

الداخلية الأولى .. ثم الثانية .. فالثالثة !! .

ترى كم عدد التنورَات التي ستنزلق وتنساب على خاصراتها ؟!

ترى كم عدد الفساتين التي يلبسنها الحوريات عمومًا ؟!

ثم بَدأَ فستان الرقصِ الأسَاسِي يحفُّ بشدة أثناء انزلاقه على خاصرتها ... وقد أخذ الحفيف صوتَ شيء يُسْحَقُ بعنف داخل أذني . لم أكُن أستمع فحسب ... ولم أكن أنظر بزاويةِ عيوني فحسب .. بل كنْت أحدِّق !! .

وببطء وتَلَكُّؤ قامت بالتقاط التنُّورَات المتجَعِّدة من فوق العشب .. رفعتها ببطء وفتور الواحدة بعد الأخرى ... ثم رَفعت الفستان الأسَاسِيَّ كذلك .. وهكذا لم يبق أي شيء مَحْجُوب عن النظر .

كان كل شيء مكشوفًا تمامًا ..

ثم تَوقَّفَ الحفيف مع تحرر البارونة مِنْ أغلب ملابسِها ... كَانتْ عارية أكثرَ مِنْ كونها مَكْشُوَّة أو مَسْتُورة بالثياب ... وتحت خصرها لم يكن هناك أي قطعة من الملابس على الإطلاق !!

أخذت تَستعْرِضُ نفسها أمام ناظري ، وقد أتقنت كل حركات الإغراء والغواية .. كانت تقدم جسدها لي بالمجان ..كقُرْبان تطؤه نظراتِي اللاهثة !! .

لم ترفع عينها عني ...

استمر ذلك إلى اللانهاية .. دامَت تلك اللحظة السرمدية طويلًا .. اسْتَغْرَقَت كل الزمان إلى حدِّ الخلودِ ... إنها اللحظة التي لا يمكن أن تنتمي لهذا العالمِ !! .

وفي تلك اللحظة الخالدة بدأت قطرات البول تنهمر بغزارة !!

لا أعْرفُ بدقة ما إن كانت قد جلست القرفصاء أَم أنها قامت ببساطة بِثَني رُكَبتيها قليلًا . لكنَّه بَدأ ينهمر – كماءٍ نجس يُصَبُّ من طَسْتِ غَسيلٍ – كما لو أنه آتٍ من عِجلة [1] تُباعد ما بين رجليها ، أو أنه يخرج مِنْ عاهرة وضيعة في أي بيت

---

(١) عِجلةِ : بقرة صغيرة – (المترجمة) .

من بيوت الدعارة المنتشرة في (ڤينّا) !!

كَانَ البول يتناثر على شكل قطرات فوق العشبِ .. كما لو كان شخصٌ ما يرشُّ العشب برشاش !!

لا أدري ما إن كَانتْ قد قامت بتكرار نفس الحركاتِ الجذَّابة المغرية واستعرضت بجسدها تلك الحركات الرقيعة بينما كَانتْ تَنْزعُ ملابسَها دون حَيَاء ... لا أعْرف أيَّ شيء .. أعْرف فقط أنني لمْ أقف بعد ذلك وقفة الانتباهِ العسكري وبأنني أعطيتُ نفسي أمرًا بالانْقِطاع عَنِ العَمَل « لأجل الراحة » .. وأنني كُنْتُ أحدق فيها ، لا بطرف عيني أو من فوق كتفِي ، بل كُنْتُ أحدق بها وجهًا لوجه ... كل ما أذكرُه أنَّها لمْ تَنْظرْ إليَّ بازدراءِ واحْتِقَار أو حتى بغضب . بل تظاهرت بأنها تفاجأت وأخفتْ مفاجأتَها المصْطَنَعة والمزَيَّفةَ بابتسامة شَهْوَانِية وَقِحة .. لكنِّي لا أتذكر أيَّ شيء مما حدث بعد ذلك .. ولكنني أعْرف جيدًا أنني لمْ أوَد التَّحِيَّة مرة ثانيةً .. ولم أَكترث بها عندما كَانتْ تتَحَرَّش بِي وتَمسني بتنورتِها مسًّا خفيفًا ناعمًا ، أو عندما حاولتْ – في لَحْظَة خاطفة – الوُصُول لشاربي بشفتيها وهي تقف على أصابع قدميها ؛ كما لم أكترث بها وهي تحرك إصبعها نحوي بطريقة مُضحكة وتنطق بشكل لَعُوب وخليع كلمة : « بوسني » « بوسني » ! لم أكترث بها أيضًا وهي تمضي بعيدًا عني وقد شَدَّتْ تنورتها على جسدها كما لو كانتْ تحاول أن تجعلني أفْقدُ عقلي ، وأعتقد بأنَّها دارت حولي دورتين أو حتى ثلاث دورات وأشارتْ بإصبعها نحوي مرة ثانيةً ، ولم يكن بوسعي أن أتجاهل أيَّ شيء أكثر من ذلك ...

قمتُ بتسريح نفسي من واجبِ الحراسِة وانطلقت خلفها .. كان الحفل الراقص في ذروة توهجه فلَمْ أجْذبْ انتباهَ الحرَّاس عند البوابة ، ولم يتفاجأ سائِقُ العَرَبَة عندما لاحظ أحد الحراس يُلوِّحُ له بيديه ويَرْكبُ في عربتِه باتجاه محطةِ القطار ، ولم ينتبه أحد من الشرطة العسكريةِ إلى الحارس الذي كَانَ يَشق طريقَه عبر حشودِ النَّاس ويَستقل القطار إلى (بيست) ؛ كما لم ألفت انتباهَ جميع المومساتِ والبَغايا والعاهِرَات ذوات الجلد الأملس اللواتي كُنَّ يَدْخلنَ سيارةَ المسافرِين التي كنتُ أجلس بها وهن يَضْحكنَ ويقهقهن ؛ كما لم أرغب في أن أبدو – بسبب عدم اكتراثي – رجلًا فظًّا غليظ القلب تجاه السيدات والآنسات اللواتي أبدين القدر

الطبيعي والمألوف من الاهْتِمَام لرجل بوسني باسل يرتدي الزيَّ الرسمي لجندي في كتيبة الحراسة .

وفي مدينة (بيست) نَزعتُ عني الزيَّ الرسمي ، تَخَلَّصْتُ منه وارتديت الملابسَ المدنية ... وأخيرًا ، صرت رجلًا فحسب .. حُرًّا طَلِيقًا .. مُتَحَرِّرًا من ضرورة الاعتقاد القسري بسُمُوِّ وعَظَمَة الإمبراطورية النمساوية ... لستُ مُضطرًا بعد الآن لأن أنتمي لهذا النظام أو أن أتَعَهَّد بأي شيء تجاهه .. لقد انْعَتقتُ أخيرًا من وهم « هَيبَة وأبَّهَة الحكم الإمبراطوري » ولستُ مُلزمًا بالولاء لذلك النظام منذ الآن .. منذ اللحظة التي قامت فيها امرأة في تلك المنزلة النبيلة بذلك الفعل الكريهِ والمثِير لِلاشْمِئزاز .. عندما أقدمت تلك البارونة بأكثر الوظائف الفسيولوجية قبحًا ونُفورًا .. وحينما تدفق البول منها تمامًا كما يتدفق من أي امرأة سُوقِيَّة مُبتَذَلة .. في تلك اللحظة بالضبط - بحسب تقديري الشخصي - انهارت الإمبراطورية النمساوية المجرية وتَفَسَّخ النظام الملكي وتداعت معه كل صَلَاحِيات الرجال بعد أن اختفت كل الامتيازات والخصائص التي ينفرد بها الرجال من الوجود . عندما يُمْكِنُها أن ... عندما كانت ... عندما يُمْكِنُها أن تَعمَل ذلك الشيء الـ ... جدًّا ! .

* * *

الفَصْلُ الخَامِسُ

لم تكن المجاعة في (دومافيا) ... سربرينيتسا العتيقة ... هي السبب في وفاة (داسيوس إيلوس) . ليس من المعقول أن يَمُوتَ بسبب الجوع ، ولكن الصحيح أنه مات ضحية لمرض خبيث .. داء الطاعون [١] الذي داهم العالم في ذلك الحين هو من قضى عليه . وبهذا يكون (داسيوس إيلوس) هو من جَلَبَ مَعه الموت الأسود [٢] إلى (دومافيا) التي ماتت قبل ذلك - في حياة سابقة - حينما كانت تُعرف بـ (أرغانتاريا) .

لم يتعرف الناس على مرضِه القاتلِ ولم يدركوا كنه علته .. لَمْ يَفطِنوا إلى أنه نفس المرض الذي كانوا يعانون منه .. لو عرفوا ذلك لما بقي أي أثر لذكره . ولما سمح له بتوثيق وصيته لوريثِه وولي عهده (إنييو) . لو عرفوا حقيقة مرضه لما علم أحد بوجوده في هذا العالمِ . ما كان لذلك الإمبراطور أن يُعرف خاصة وأنه قد ظَهَرَ ظهورًا خاطفًا وسريعًا في (دومافيا) .. كَانوا سَيحرقونَه حيًا ، ودون الإضْرار على تسديد الرسوم الخاصة بخدمات دفن الموتى ، كَانوا سَيدْفنونَه بعمق بقدر الإمكان ، في أعمق حفرة بجوف الأرض يمكنهم الوصول إليها .. وعلى الأقل ، بتلك الطريقة كان من الممكن إنقاذ (دومافيا) .. حتى على افتراض أنَّ نفس الشيء ما كان ليحدث بالنسبة لـ (أرغانتاريا) .

---

(١) الطاعون (Plague) : داء مُعدٍ يسببه ميكروب (باستوريلا بيستيس) Pasteurella pestis الذي يحمله برغوث الجرذان . والطاعون في الأصل ، مرض من أمراض القوارض ، ولكن براغيث الجرذان قد تنقله من الجرذان المصابة به إلى الإنسان ، ويتخذ الطاعون عند الإنسان ثلاثة أشكال متميزة ؛ هي الطاعون الدبلي (Bubonic Plague) ، والطاعون الرئوي Pneumonic Plague ، وهو يصيب الرئتين بالاستسقاء ، والطاعون الخمجي Septicemic Plague ، وفيه يغزو الميكروب الدورة الدموية قبل أن تتاح للشكلين الأولين الدبلي والرئوي فرصة الظهور ، والطاعون يعالج اليوم بالمضادات الحيوية وعقاقير السلفا - (المُترجمة) .

(٢) بقي مرض الطاعون كابوسًا مرعبًا في الذاكرة الجماعية للجنس البشري ، فلم يحصد مرضٌ عددًا من البشر مثل الطاعون ، فهو الذي قوض دولًا بكاملها ، وأفنى شعوبًا بأسرها ، ومسح مدنًا من وجه الأرض ، وصدع حضارات عظيمة ، وبقي الناس يتذكرونه وهم يرتجفون من هول الفزع ، وكان المصاب بالطاعون يسقط سريعًا في حالة هذيان وهو يغلي من الحرارة بسبب التسمم الدموي الرهيب ، زائغ النظرات متشنج الأطراف مُربَّد الوجه مكفهر القسمات ، وقد ينفث قشعًا مملوءًا بالدم ، وسريعًا تغطي جلده آفات نمشية وكدمات تحوله إلى لون قاتم مسود ، ومن هنا جاء وصف الطاعون بـ (الموت الأسود) - (المُترجمة) .

كانت (دومافيا) قد دُمرت سابِقًا بسبب جثة (داسيوس إيلوس) الحاملة لجرثومة المرض وبسبب تعنت الخوري ورفضه لأن يَدْفنه مجانًا . ولعدة أيام ، بقي الجسد الروماني المصَاب بالعدوى الفتاكة دون دفن . وأخذ يتفسَّخُ ويتحلل على قارعة الطريق ، ناقلاً العدوى المميتة إلى كافة سكان المدينة ، وبدائِه القاتلِ أصابَ المدينةَ بأكملها . وهكذا اختفت (دومافيا) وسط أسوأ معاناة لساكنيها !! .

بعد ذلك بوقت طويل ، كفَّ الناس عن المجيء إلى (دومافيا) تجنُّبًا للعَنَة المدينةِ المشؤومة التي اختفتْ ذات مرة .. ولم يفكر أحد مجرد تفكير بوضْع قدم بالقرب منها فضلاً عن الاستِقْرار والإقامة فيها . لكن صَوت خشخشة النقود الفضِّيةِ المجلجِل وإمكانيةِ تناوُل الطعام في الصحونِ الذهبيةِ المصنعة مِن الخام المحليِّ المذاب ، أسَّسَ لقيام وتَشْييد مدينة جديدة . وأثناء التقدُّم الخجولِ للسكان الجددِ ، احترقتْ بقايا المدينةِ السابقةِ كليًا أو هُدِّمتْ وتحولت إلى أنقاض وحُطَام ، ووسط النيران وبين الحطام اختفى كل أثر للأمراضِ المعدية التي قد تصيب البشر .

كَانتْ رائحة العَطن المنتِنة تَنبعث مِن الأرضِ المحروقةِ ، أما ما بقي بعد الحريق فقد سُحق وسُوِّي بالأرض تمامًا . وهكذا تم اجْتِثَاث المدينة بأكملها واقْتِلاع تاريخها من جذوره ، وطُمِسَ أي أثر يدل على وجودِ مدينة كانت ذات يوم عامرة وآهلة بالسكان .. ولهذا لم تبق أي ذكرى من المدينة التي كانت ذات يوم تنبض بالحياة !! .

* * *

بعد ألفي عام من باكُورَة تاريخ (سربرينيتسا) ، خرج « الفرسان الأربعة » ... أولئك المخرِّبون ... فرسان سفر الرؤْيَا (apocalypse) [1] ... ليجْتاحوا

---

(١) أبوكاليبس (apocalypse) : مصطلح يوناني يعني حرفيًا : الكشف أو رفع الحجاب ، وهو مصطلح يطلق في معناه العام على الإفصاح لبعض الأشخاص المحظوظين عن شيء من الأمور الغيبية ، وفي معناه الخاص يطلق على نبوءات سفر « الرؤيا » الذي كتبه يوحنَّا الرسول باللُّغة اليونانيَّة ، وهو معروف في البلاد الغربيَّة باسم « أبوكاليبس » ، من كلمة « Apocalypse » اليونانيَّة وكلمة « Calypse » باليونانية تعني تغطية و« Apo- Calypse » تعني عكسها ، أي « نزع الغطاء » أو « إسقاط القناع » أو « كشف ما هو خفي » . واليوم غالبًا ما يستخدم المصطلح بمعنى « نهاية العالم » ، واختصارًا أبوكالويس تعني « الوحي في نهاية العالم » . ورؤيا (يوحنا) مُقدَّمة بطريقة معقَّدة للغاية تقوم على استخدام الرموز

(سربرينيتسا) ويمحقوها ويطمسوا أثرها من جديد ... إنها نهاية العالم تبدأ هنا في (سربرينيتسا) .. ولكنهم لم يكونوا أربعة فرسان فقط كما تقول الأُسطورة ، بل كانوا أضعاف ذلك العدد .. فأولئك الذين أقنعوا أنفسهم بأنَّ ماضيهم يَكْمنُ في الأساطيرِ ، يبنون مستقبلهم على هذا الأساس أيضًا ، وبنفس الطريقة تتشكل صورهم عن خططهم للمستقبلِ .. فالذين يؤسسون للمستقبل وفقًا لأساطير الماضي هم دائمًا سبب الغزاة .. ولهذا السبب عادَ فرسان الموت المجهولونَ للظهُور من جديد . يمتطون جياد الموت وينطلقون بأقصى سرعة .. وأثناء عدوهم يتَخَطُّون ويتَجَاوَزن الخيولَ المتَسَابِقة في سباق الخيل الذي ينظمه القائدُ (أوريتش) ويجلبون معهم : الحرب ، الجوع ، الطاعون ، النيران ، البرد ، الملح ، الأسلحة الكيميائية ، والقصف بعشَرات الطرقِ المختلفةِ .

مع انتهاءِ السنَةِ الأولى مِن الحربِ ، كان الجو باردًا على نحو يتعذر وصفه ، وقد دمَّرت موجة الصقيع البوسنة وأدت إلى تخريبها . وفي الأيام الأخيرة مِنْ فبراير / شباط وفي شهرِ مارس / آذار ، كانت الموجات المتلاحقة من آلاف اللاجئين تجتاح بلدةَ (سربرينيتسا) الصغيرةَ . آلاف من اللاجِئين الهارِبين مِنْ بَلْدَتِهم مُسْتَجيرين بـ (سربرينيتسا) .. جاؤوا مِنْ مناطق مُختلفة من (تسيِرْسَكا) ، و (كامينيتسا) ، و (كونييفيتش بوليه) وقُرى أخرى على الطريق ، وكانوا قد عزموا على البقاء والصمُود . ولشهورٍ طويلة ، كَان سكان كل بلدة يُدافعونَ عن بلدتهم ، معتقدين بأنهم أحرار يناضلون لأجل حريتهم ويدافعون عن قراهم وبلداتهم ، لم يتصوروا أن أولئك الجزَّارين كَانوا يوهمونهم بأنهُمْ أحرار ويغذونَهم على ذلك الأمل الكاذب .. ولم يدركوا أن ما كانوا يعتبرونه وطنًا حرًا لم يكن سوى معسكر اعتقال كبير .. كانوا محاصرين من كل الجوانب . والشيء الوحيد الذي لم يكنْ على الجانب الآخر أن يَقْلَقَ بشأنه هو تزويدُهم بالغذاءِ .. وبدلًا مِن ذلك تَركوهم يَتضوَّرونَ من الجوع ، كَانوا جائعين لحد الموتِ ، وكَان الجزَّارين يُبيدونهم ببُطْء من

فالفرسان الأربعة الوارد ذكرهم فيها (رؤيا ٦ ، ١ - ٧) يعادون « الأحياء الأربعة » الموجودين حول العرش (رؤيا ٤ ، ٦ - ٧) ويمثِّلون الإنجيليين الأربعة . وكل إنجيلي يسمح لواحد من الفرسان أن يتقدَّم على فرسه إلى العالم صارخًا له : « تعال » . لقد وهب الإنجيليون الأربعة الحياة للعالم ، أما هؤلاء الفرسان الأربعة فقد « أعطوا القدرة على ربع الأرض ليهلكوا بالسيف وبالجوع وبالموت وبوحوش الأرض » (رؤيا ٦ ، ٨) - (المُترجمة) .

خلال قصفهم عن بعد . وعندما قرَّرَ العالم أخيرًا أن يَمنحهم بَعْض الطعام ، كشَرَ السفَّاحون عن أنيابهم وقاموا بإخراجهم وإبعادهم عنْ بيوتِهم المهَدَّمةِ .

والآن ، يبحث اللاجئون عن مأوى وملاذ لهم في (سربرينيتسا) .. ولكن ومهما انعقدت آمالهم بـ (سربرينيتسا) فلا يُمْكِنها أن تكون أكثر من قارب إنقاذ .. أو طوق نجاة مؤقت !! .

ها هم أبناء الشعبْ البوسني الذين اشتهروا بالجمال والحسن وعُرفوا بالملامح الوَسِيمة .. حفاة عراة .. شعثًا غبرًا .. بوجوههم الطاهرَة البَهيَّة المشرقة بنور الوضوء . يرفلون في سراويلهم الرثة المتهدِّلة [١] .. حفاة مجردَون حتى من أحذيتهم البلقانيةِ الريفية [٢] ، المصنوعة من المطاط والتي تحمل العلامة التجارية لماركة (باتا Bata) لقد فقدوها وهم يمشون على الطريقِ المغطى بالثلجِ . كما فقدوا أطفالهم الذين كانوا أصغر من أن يَركضوا أمام عصابات « التشيتنيك » الصربية ، أو الذين كانوا أكبر من أن يُحْملوا .. فقد تجمَّد هؤلاء وهؤلاء على الطريقِ !! .

تلك الأشباح العارية هم شعب البوسنة .. الحفاة .. العُراة بعد أن تجردوا تدريجيًّا من كل شيء حتى لم يبق لهم سوى حياتهم . كانوا يُنْحرون ، وتُسحق عظامهم من الضربِ ، مضرجين بدمائهم ، مُنْهَكين ومُجْهَدين لحد الإعياء ، وقد أضناهم الضعْفُ والهُزَالُ واستنزفَ طاقتهم النصَبُ والتعَبُ .

كنت أرقبُ وُصُول اللاجئين وأتأمل بؤسهم وشقاءهم ، وقد خُيِّلَ إليَّ : ألا أحد ، منذ الأزَل وعبر كل تاريخ البشرية ، قد عَانى يومًا بقدر ما عانى هؤلاء الناس .

إنهم لا يجدون أيَّ مَأوى لهم أو مَلاذًا آمِنًا في (سربرينيتسا) .. لقد عرجوا إلى البلدة التي ما كانت لتتسع قبل هذه الحربِ لأكثر مِنْ خمسة آلاف ساكن .. وفي بِداية العدوانِ ، وبعد اجتياح مدينتي (بيلينا) و (زفورنيك) [٣] ، هاجمَ الصرب

---

(١) سراويل متهدِّل تركية الأصل تعرف بالديميه (dimije) .

(٢) أحذية (صنادل) الفلاحِين في البلقان وتعرف بالأوباناك (opanak) .

(٣) زفورنيك (Zvornik) : مدينة يسكنها أكثر من ٧٠ ألف مسلم دخلتها المليشيات الصربية المتطرفة

(سربرينيتسا) أيضًا ... قتلوا .. نهبوا وسَلَبوا وأحْرقُوا ؛ كل شيء طالته أيديهم فعلوا كل ذلك على عَجَل وبسرعة خاطفة دون أن يصطدموا بأدنى مقاومة .

ومن عادَ منَّا إلى البلدةِ بعد استردادها لم يكُن لديه أي شيء يُدافع به عن (سربرينيتسا) لم نكن نملك سوى إيماننا بالحريةِ . وعندما عدنا وجدنا البلدة مَنْهُوبة ومشْتعِلَة .

لقد تغيرت (سربرينيتسا) منذ أن اجتاحها « التشيتنيك » في مايو مِنْ عام (١٩٩٢م) .. تَدهورتْ أوضاع البلدةِ واضطربت أحوالها ، فقد تبعثر أهلها في كافة أنحاء الغاباتِ وأخذ اللاجئون يَتدفقون عليها مِنْ كل حدب وصوب ، راجين أن ينجوا من السفاحين وآملين على الأقل ألا يُذْبَحوا على حين غرة ، كَانوا يَزْحفُون كسرب متواصل في اتجاهِ (سربرينيتسا) التي تزايد عدد السكان فيها أكثر فأكثر ، وفي ذات الوقت كانت أماكن اللجوء تتناقص أكثر فأكثر ، كان هناك عجز كبير في الأماكن التي تصلح كمَلَاذات آمِنة تقي من القذائف وقصور حاد في أبسط أشكال المَلاجِئ التي توفر الحِمايَة ليس فقط من تَسَاقُطِ القذائفِ والقنابلِ الجويةِ ، بل ومن أشياء أخرى تهبط من السَّمَاءِ أيضًا ..كالمطر مثلًا ! .

ومَع وصول أعداد كبيرة من اللاجئين حديثًا ، سجلت البلدةُ رقمًا قياسيًا فيما يتعلق بعدد السكانِ ، رقم لم يتحقق في تاريخِها بأكمله ، فقد تجاوز بنحو الألف أعلى حد لعدد السكان تم تسجيله مِن قبل . ليس أقل مِنْ خمسة وثلاثين ألفًا من الأحياء الذين لا يزالون على قيد الحياة ! أو على الأحرى الذين كانوا يمارسون الموت الحيَّ ! .

« التشيتنيك » ، وهي تحت تأثير المخدرات والمواد الكحولية ، وقاموا بهدم وحرق بيوت المسلمين بعد أن قاموا بقتل نحو ألف مسلم وهدموا ثمانية مساجد وجمعوا ٧٠٠ مسلم ووضعوهم في معتقلات مؤقتة ، وتم العثور على مجموعة من جثث النساء والأطفال والشيوخ التي قاموا بإلقائها في نهر (درينا) . كما أمسكوا ببعض الصحفيين الذين وصلوا إلى المدينة وقاموا بقتلهم ؛ ولم يسلم المسجد الكبير من تدميرهم ؛ حيث أضرموا فيه النيران ورفعوا العلم الصربي على مئذنته . . وفتحوا مكبرات الصوت وأذاعوا أغانيهم القومية الفاشية ، وفي إحدى القرى المجاورة للمدينة عثر على ٤٠ جثة تم التمثيل بها على نحو بشع ؛ كما اقتادوا ٣٥٠٠ مسلمًا إلى صربيا والجبل الأسود للعمل عندهم كعبيد (انظر : دموع سراييفو : ملحمة البوسنة والهرسك بقلم / حمدي شفيق (١٩٩٣م) - (المترجمة) .

كان هؤلاء الناس يموتون موتًا مريعًا ، بل إن الموت الذي لاقوه أكثر فزعًا من الموت الذي تكبده سكان (أرغانتاريا) .. أقصد أن سكان (سربرينيتسا الحديثة) ماتوا بطريقة أكثر قسوة ووحشية من الطريقة التي تصورت أن سكان (أرغانتاريا) أو (سربرينيتسا العتيقة) قد ماتوا بها ! آلاف مؤلفة من البشر - أكثر من خمسة وعشرين ألفًا - لم يتمكنوا حتى من حماية أرواحهم ... لم يجدوا حتى الحواف البارزة من أسطح ما تبقى من منازل ليحتموا تحتها .. أخذوا يوقدون النيرانَ على طول الطريقِ ، كانوا يَخْدعُون أنفسهم ظانين بأن نيرانَهم الضعيفة يُمْكِنُ أن تمنحهم بعض الدفء . آه لو ترى فقط كيف ينْهار .. وكيف يسْقط أحد اللاجئين ! قد تظن أنه ببساطة يتراجع للخلف ويسقط أرْضًا بعد أن يفقد توازنه أثناء نومِه .. لكن واقع الأمر ليس كذلك .. كان اللاجئون ، بالفعل يعانون مِنْ أسوأ أنواعِ الإرْهاق والإعياء ، لكنَّه لم يَتغَلب عليهم بحيث يُمْكِنُهم أن يَنَاموا أو حتى أن تأخذهم سِنَة من النوم في ذلك الصقيع القاسي .. هؤلاء الناس ليس بوسعهم أن يغرقوا في النوم لدرجة تدخلهم في مرحلة الأحلام ... إنهم يَمُوتونَ من البرد بجوار اللهَبِ الهزيل لنيرانِهم الصغيرةِ التي تحاول عبثًا أن تتوَهَّج في وجه الريح التي تموج في قلب البلدة الحرَّة والمتجمِّدةِ (سربرينيتسا) ! .

كان كُلُّ متر مربع في (سربرينيتسا) يتوهج بشعلة من النيرانِ الصغيرةِ ... بدا منظر (سربرينيتسا) مِنَ السماءِ وكأنها متوقدة مشتعلة .. كانت كُلُّ تلك النيرانِ الصغيرةِ مجتمعةً تَبْدو كحَريق هائل لم يسْبِقْ لأحد أن رآه من قبل .. نيران يمكن اعتمادها كعلامة أكيدة ومَوثُوقة تهتدي بها الطائرات . كان الغزاة يَصِلونَ مِنَ الضفة الأخرى لنهر (درينا) ويطلقونَ قنابلَهم ، ومِنْ تلك القنابلِ كانت نيران (سربرينيتسا) تَندلع !! .

مِنْ بعيدٍ ، رأيت سقفَ بيتي يحترق . ومِنْ مسافة أقرب ، تبين أن البيتَ لم يُقصف بقذيفة ؛ ولكن ألسنةَ اللهب المتصاعدة من البيتِ المجاورِ الذي تم قصفه بالفعل قد مَسَّتْ بعض الألواح الخشبية الصغيرة التي تُكسى بها أسقف المنازل على نحو متداخل . وعلى الفور أخذ اللاجئون الذين استضفتهم في بيتي - الذين كانوا قبل ساعة واحدة يعربون عن عظيم امتنانهم لي إذ وافقت على إيوائهم تحت سقفِي - يهربون ويركضون في كل اتجاه كما لو أنهم قد فقدوا عقولهم ... كانوا يريدون

الفرار من ألسنة النيرانِ ، لكنَّهم لَمْ يَعْرفوا كَيفَ ؟ أرادوا النجاة بحياتِهم ، لكن لم يَعْرفوا في أي اتِّجاهٍ يهربون ؟ كنتُ أغالب شعوراً قاسياً بالحرج ، وقد سَيطَرَ الارْتِباك والخجل على مشاعري ؛ لأن بيتي - مع وجود ذلك التيار الهوائي الرهيب في غُرفِ الطابق العلوي - لم يستطع أن يوفر لهم مَلاذًا آمِنًا ، أو مَلْجأ يستكينون فيه لمدة أطول نوعًا ما ... وغدًا ، في مكان البيتِ لن يكون هناك أي أثر لبيتنا .. وبدلًا من البيت ستتطاير بقاياه المتفحِّمة وتذهب مع الريح العابرة !! .

بسُرُور وابتهاج استقبل اللاجئون بزوغ الفجر الجديد مَعي في بيتي .. كان البيت المجاور قد اشتعل بسرعة هائلة لدرجة أن ألسنة اللهب لم تتمكن من أن تَبلغ الألواح الخشبية المتجمدة والمثبتة بقوة على سقف بيتي .. ولو أنها فعلت لصرتُ أنا أيضًا لاجئًا في بلدتِي ومَسْقَطِ رأسي !! لو أن النيرانَ قد وصلت إلى الجزءِ الداخلي من الألواح الخشبية لاشتعلت الطبقات الجافَّة من العوارض [1] الموجودة في سقف غرفتِي الصغيرة كما يشتعل البارودُ . فطبقة السُّخام [2] التي تبطن الطبقات الداخلية للألواح الخشبية والتي تشكلت من تراكم الأوساخ والقاذورات على امتداد عقود من الزمن ، كَانتْ كفيلة بتحويل بيتِ عائلة (جوزو) إلى شُعلة هائلة من النيران ، كانت سَتَجْعلُ من بيتِ (جوزو) أكبر مَشْعَل في هذه الليلَة « التشيينتيكية » من ليال (سربرينيتسا) .. ولهذا السبب كانت ألسنة النيران تمس سقف البيت مسًا سريعًا مِنَ الخارج فقط .. أي أنها اكتفت بأن تلْعق السقفَ بدلًا من ابتِلاعه ! .

هَلْ هذه اللَّيلة هي ليلة « سانت بارثولوميو » [3] ؟ وهَلْ لَدَيهمْ « بارثولوميو » ؟ في

---

(١) العوارض : جمع العارضة ، وتعرف أيضًا بالجائز أو (الكمرة) ، وهي دِعَامَة صلبة تدعم أسقف المباني والأرضيَّات - (المترجمة) .

(٢) السُّخام أو السحام : السُّناج أو السُّناج ، وهو طبقة قَذِرة ملوَّثة بداء من أمراض النبات . (المترجمة) .

(٣) سانت بارثولوميو (St.Bartholomew) : يوم المجزرة الهائلة التي وقعت في (فرنسا) ، وقام بها الكاثوليك ضد البروتستانت يعتقد تقليديًا أن المجزرة تمت بتحريض من (كاترين دي ميديسي) والدة (تشارلز التاسع) ، وقد اشتعلت الأحداث ابتداءً من ٢٤ آب / أغسطس ١٥٧٢م ، حيث بدأت بقتل أحد أبرز الهوغينوتيين (البروتستانتيين الفرنسيين) وهو الأميرال (غاسبار دي كوليغني) ، ثم انتشرت المجازر في (باريس) ، ثم إلى المدن الأخرى والأرياف ودامت لعدة أشهر . والعدد الدقيق للضحايا لم يعرف أبدًا ، ولكنه بلغ عدة آلاف ، ربما عشرات الآلاف من الهوغينوتيين الذين لقوا مصرعهم في أحداث العنف ..

تاريخهم أسماء عديدة لكثير من القديسين ، أكثر مِنْ كُلِّ أسماء الأنبياء التي ذكرتْ في كل الكتب السماوية المقدسة مُجتمعة ، لكن ليس لديهمْ « بارثولوميو » ، أم أنهم في هذه الليلة يدَّعون أن هذا القدِّيس من حقهم أيضًا ؛ ولهذا فهم يضرمون النيران في (سربرينيتسا) على شرفِ ذلك القديس وابتهاجًا واحْتِفَاءً بعيدهم الدينيِّ ؟

مع بزوغ الفجرِ بَدأَتْ العملية التطوعيَّة - الإلزامية (سقف ٩٣) .. قمت مع اللاجئين المتواجدين في منزلي بجَمع بَعْض الأكياس البلاستيكية وقِطَع من ورق القطرانِ ، وبَعْض الألواح الخشبية ، بل وحتى بلاطة [١] أو اثنتين من بلاط التَشْقِيف [٢] ، بهدف دَفع تلك الأشياء وحَشْرِها في السقف بقوة مِنْ داخل العُلِّيَّة - حيث توضع الأشياء الأقل طلبًا - ولكن تلك الأشياء أصبحت اليوم الأكثر طلبًا .

وقد حذَّرتُهم بأن عليهم ألا يتعجَّلوا . وأننا يَجِبُ أن نَعْملَ ببطء لعلنا نُوفِّرُ سُعرًا حراريًّا واحدًا أو اثنين ؛ حيث إنني لا أستطيعُ أن أوفر لهم حتى لقمة لطعام الفطورِ .

وحتى لِي أنا لم يكن هناك حتى لقمة واحدة من الطعام لآكلها !! .

* * *

على امتداد الشهورِ الأخيرة ، تنبهتُ إلى حقيقة أنَّ « الجوع أعمى » وأن البطن الجائع لا يرى .. لَيْسَ لهُ عيون .. كنت قد نَسيتُ ذلك بالفعل ولم يلحظ أحدٌ ذلك في الشهورِ الأولى مِنَ الحرْب .. حيث لَم يكن الكثيرون مِنَّا يذهبون إلى الجبهات للقتال والاشتباك المباشر مع العدو ، فقط أولئك الذين كانوا يؤمنون بأن عليهم أن يذودوا عن حياتِهم وأن يُدافعوا عن حريةِ البوسنة كانوا يتطوعون للجهاد . ولكن نظرًا لأن مَؤُونَة الغذاءِ المخصصة لنا في الخنادقِ قد ضَمُرَت وأصابها الهزال .. كما تَلاشت سريعًا كل أصناف فَطَائِر الحلوى المستديرة التي تصنعها ربَّات البيوت وأصبحَت

وهذه المذبحة وإن لم تكن فريدة من نوعها إلا أنها كانت « أسوأ المذابح الدينية في ذلك القرن » .
(H. G. Koenigsberger, George L. Mosse, G. Q. Bowler, “Europe in the Sixteenth Century”, Second Edition, Longman, 1989) . (المترجمة)

(١) بلاطة (قِرْمِيدَة أو آجُرة) : بَلَاط مكسو بالآجر : أي رقائق من الطين - (المترجمة) .
(٢) التَشْقِيف (مَصْدَر سَقَفَ) : فَرْش السطح بالبَلَاط - (المترجمة) .

ذكرى من الماضي .. فقد ازدادَ عدد المتطوعين في خطوط من الجبْهَة [١] الأمامية للجَيْش كما ارتفعت الأصوات المتحمسة من الخلف وازداد التشجيعُ والتحفيز مِنَ المؤَخِّرَة [٢] .. واشْتَدَّ الإصرار على أن « الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع » ... فقمنا بشنِّ الغارة وهجمنا على العَدُوِّ .. أطلقنا هُجُومنا باستخدام بضعة بنادق من الجبْهَة الأمامية تبعتها الفؤوس والبَلْطَات والمعازِق وكافة أشكال الأدوات المستخدمة لحرث الأرض .. فبعد الطلقات الأولى انْقَضت جَمَاعَة الرجالِ غير المسلَّحين من المؤخِّرةِ .. هجموا بجرأة وجَسَارة .. أقْدموا ببسالة مدهشة .. كانوا يسَابقون الريح ، بل إنهم تجاوَزوا أولئك الذين يحملون البنادق في المقدمة .. وقد أفزع العدو ذلك الكرُّ المباغت .. واضطر المعتدين – الذين سَرَقوا ونَهَبوا ، ونَحَروا [٣] المدنيين كالخراف ، وعملوا على إذْلالهم وامْتِهان كرامتهم – إلى الفرار هربًا بحياتهم .. هرب الأعداء الذين لم يحسبوا حسابًا لعنصرِ المفاجأةِ عند اسْتِيلائهم على البَلدِة واحْتِلالهم لها .

وهكذا قامت البطون الفارغة لأهل البلدة غير المسلَّحين بفك الحِصار عن (سربرينيتسا) .. وكسر الجياع الحصار الذي طَوق به العدو (سربرينيتسا) واستردُّوا قُراهم والقرى المحيطة بهم بعد أن تمكنوا من سحق هجمات العدو خلال سلسلة من الغارات الجريئة ..

ظَهرتْ المشكلةُ عندما تعين علينا أن نؤسس خَط الدفاع الجديد . أولئك الذين كانوا أسرع من العَاصفة في الهجومِ على العدو كانوا الأوائل من الخلف .. انْكَفَؤوا متَقَهْقرين إلى الوَرَاء ... للإنْصَاف ، لَمْ يَكن ذلك هربًا أو فرارًا .. لم يهْربوا ... حتى إنهم لم يركضوا . وكيف يركضون تحت وَطْأة كُل تلك الأحمال الثقيلة ؟ كَانوا يجرونَ أنفسهم ببطء ومشقة وهم يتَرَاجَعون إلى الوراء ، فقد كانوا يسحبون على الأرض – بجهد وصعوبة – المواد الغذائيةَ التي نجحوا في اختطافها وانتزاعها بِسُرْعَة ..كانوا يأخُذونها لأعزائهم وأحبابهم .

---

(١) جَبْهَة : خَطُّ مُوَاجَهَةٍ حَرْبِي ، خَطُّ النَّار – (المترجمة) .
(٢) مُؤَخِّرَة الجيش : القِسْمُ الخلفِيُّ – (المترجمة) .
(٣) النَّحْر : القَتْل ذَبْحًا – (المترجمة) .

وبعَوْدَتهم إلى (سربرينيتسا) جلبوا معهم العديد من المتطوعين الجددِ إلى المقدِّمَة في طَلِيعَة خَط الموَاجَهَة - ذلك الخط المؤسَّسِ حديثًا والهزيل الذي تقدم إلى الأمامِ - ولكن هؤلاء المتطوعين الجدد عادوا بخُفَّيْ حنين ... انقلبوا خائبين بأيدٍ فارغة ... فالذين جاؤوا من قبلهم قاموا بجَمع البقية الباقيةِ مِنْ كل ما سرقه ونهبه « التشيتنيك » وقَدْ أخذوا معهم كل ما يصلح للأكل ! .

كَانَ الجوع يفتك بصفوف الوحداتِ المنْبثِقة من جيشِ البوسنة والهرسك والتي لا تزال في مواقعها على الأراضِي الحرة . ولم يَجرؤ الأهالي على الإقْدام على المزيد من الفتوحاتِ الجديدةِ بمفرده .. كان الناس في حاجة لشخص يُطلقُ طلقة أو اثنتين كإشارة ويحتاجون أيضًا من يُحدد لهم أفضل اتجاه للهجوم . من ناحية أخرى سيُدرك « التشيتنيك » ما يجري ولن يولوا هاربين ببساطة ... ولِهذا ، كان علينا لكي ننفِّذ هجومًا جديدًا في عُمق المنطقة المحتلةِ ، أن نَبْدأ بالتفكير في تشكيل هيكل عسكري جديد .. وتنظيم خطة جديدة للهجوم .. ومَرَّةً بَعْدَ أخْرَى ، كان هناك المزيد مِنَ الأهالي غير المسلحين .. المزيد منَ الرجال بدون بنادق إلا أن أعدادَ أولئك المسلحين بالبنادقِ كَانتْ ترْتَفع أيضًا وَتزْدَاد مع الوقت ... وفي القُرى التي خضعت لسيطرتِنا العسكريةِ مرةً أخرى ، وَجدنَا من الذخائر الحرْبيَّة والأسلحةِ كميات أكثرَ من كميات الطعام التي عثرنا عليها ، لقد هرب « التشيتنيك » هروبًا أسطوريًا .. فروا فرار الأبطالِ !! .

ولكن مع مجيء الرجال الجدد .. جاء المزيد من الأفواهِ الجائعةِ .

ومع كُلِّ غارَة جديدة من غارَاتنا ، كان عدد غير المسلَّحين ينْمو ويتَفَاقَمُ . كَانَ ذلك بمثابة سِبَاق للعَدْو باتجاه القرية التي توشكُ أن تُحرر سريعًا ! مُسَابَقَة « من يَصِلُ إلى القريةِ أولًا » ... أولئك الذين سيَصِلون إلى القريةِ أولًا سيحصلون على طعام أكثر .

وشيئًا فشيئًا ، شكلنا معًا جيشًا أفضل . وقد نَما جيشنا على طريقة المتَتَالِيَات [١] الحِسَابِيَّة إذا أخذنا بالاعْتِبار مراحلَ نشأته المبكرة حيث بدأ ككتيبة حِرَاسَة .. وبِالمِثْل بدأ عدد الجائِعين المتشوقين للهجوم - الذين يُمكِنُهم بالكاد أن يَنتظروا إشارة البَدْء

(١) المتَتَالِيَات : المتوالِيَات أو المتَتابعات الحسابيةِ - (المترجمة) .

للهجومِ الجديدِ - يتَعَاظَمُ أيضًا على طريقة المتَتَالِيَات الهندسيةِ .

وبمرور الوقت كانت المجاعة تتوغل في أوصال (سربرينيتسا) أكثر فأكثر .. وأصبح الجوع شبحًا يطارد الجميع وبدأ ما غَنِمناه من طعام في النفاد ... كنا قد حرَّرنَا كل القُرى البوسنية الموجودة في المِنْطَقَة وكان علينا أن نَستمرَّ .

البيوت الصربية في البوسنة تفصل بينها مسافات متباعدة .. كانت تلك طَبِيعَتهم التي عرفناها عنهم ... كنا نخدع أنفسنا ونَتندر بذلك .. كنا نقُولُ بأن الأفلاق لَم يكونوا - مثلنا - يفَضِّلون أن يكون لهم جِيران [١] . ولكن في الحقيقة لم يكن تفسير ذلك التباعد في المنازل غريبًا عنا .. كانوا يتعمدون توسيع المسافات بين منازلهم عندما كَانوا عَبِيدًا [٢] يخدمون في الأراضي التي تَعُودُ معظم ملكيتها إلى البكوات والأغوات [٣] .. وبَعْدَ تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي في جميع يوغوسلافيا ... ادَّعو أن تلك الأراضي ملكًا لهم .

لهذا السبب ، كان علينا لكي نستولي على قَرْيَة من قُراهم أنْ نُضحِّي بنفس عددِ الرجالِ الذي يَفْقدونَه هم عند الاسْتِيلاء على خمس من القُرى والضيْعَات [٤] المسلمة معًا . لَكنَّنا مع ذلك لَمْ نتوقَّفْ .. فالبطن الجائع أعمى لَيْسَ لهُ عيون ... أجل « البطن الجائع أعمى » !! .

* * *

(١) تتميز بيوت المسلمين البوسنيين ومنازلهم بمزية لا نجدها عند غير المسلمين ، ألا وهي الميل إلى السكن بجوار بعضهم البعض ، وهذه الظاهرة لا تتوفر في غير المناطق الإسلامية . وهذا بالنسبة للمسلمين الذين يسكنون في القرى . أما بيوت المسلمين الذين يسكنون في المدن فليس لها نمط خاص يتميزون به عن غير المسلمين ، بل هي كغيرها من بيوت الشعوب اليوغسلافية (انظر : المسلمون في يوغسلافيا ، تأليف : د/ رجب يشار بويا ، ص١٥٧ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

(٢) عَبيد : رَقِيق - (المُترجمة) .

(٣) الأغوات : جمع (أغا Aga) ، وهي كلمة معناها الأصلي : السيد أو المولى ، أو الضابط العثماني الكبير . (انظر كتاب : البوسنة ، تأليف نويل مالكوم ، وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م) - (المترجمة) .

(٤) ضَيْعَة : قَرْيَةٌ صَغِيرَة أو كَفْر - (المُترجمة) .

« قُبيل سقوط (سربرينيتسا) مباشرةً ، كان ثُلث الأراضِي البوسنية المحرَّرة تحت سَيطَرتها ونفُوذها .. كان الثُّلث ولَيس فقط العُشر كما ادعى سكان (توزلا) الذين قاموا بترويج تلك المعلومة الخاطئةِ وتعمدوا تزويد أولئك الذين كانوا في العاصمة (سراييفو) بتلك المعلومة الكاذبة حتى يتهَرَّبوا من مُسَاعَدَة (سربرينيتسا) ونُصرتها بمد يد العون لأهلها .

في هذه المنطقةِ ، كان الصرب لا يزالون يُحْكِمون قبضتهم على العديد من المدنِ المحتلةِ .. على (ولاسنيتسا) ، (زفورنيك) ، (براتوناتس) ، وعلى القُرى الكبرى في (شيهوفيتشي) و (ميليتشي) . وبقية المنطقةِ كَانتْ أراضي مهجورة مُقفرة ... كان إحراق القرى البوسنية قَد اكتملَ ، ولأن الصرب - الجبناء - كانوا مرعوبين ومفزوعين ، فقد هجروا قُراهم وفروا مِنْها إلى المدنِ التي كانوا قد استَوْلوا عَلَيها واحتَلُّوها حتى قبل الحربِ ، تكدسوا في تلك المدن حتى ازْدَحَمَت واكْتَظَّت بهم .. وأثناء الحربِ تحولت تلك المدن إلى « بؤر إرْهاب » حقيقية !! .

كان الطعام هو كل ما يلزمنا للحيلولة دون استسلام الأراضي الممتدة مِنْ (تسيرسكا) إلى (زيبا) .. فقط لو وصلنا الطعام مِنْ (توزلا) لما ألْقَت تلك المِنطَقَة سلاَحَها .

يَجِبُ أنْ تصل الأسلحة والذخيرة مِنْ (توزلا) حتى يمكن الاحتفاظ بشمال شرق البوسنة محررًا بالكامل ، كانت هناك فرصة كبيرة وإمْكَانِيَة حَقِيقِيَة لضَمُّ المناطق الواقعة باتجاهِ (جورازده) ووَصلها عن طريق (زيبا) ... فقط لو أنهم أرسلوا السلاح مِنْ (توزلا) !

لو أنهم قاموا بإرسال الجنود الذين تم تسريحهم من جيشِ البوسنة والهرسك مِنْ (توزلا) لخسر « التشيتنيك » الحربَ .

وحتى يصل أيُّ شكل من أشكال الإمداد فلا بُد لـ (توزلا) أن تقطع الطريق بين (تساباردە) و (زفورنيك) مِنْ عندها .. لا بُد أن يُقطع الطريق مِنْ (توزلا) ..

ولكن كانت (توزلا) مشغولة بمفاوضات سرية مع بقيةِ العالمِ حول مسألة

استقلالها والحصول على الحكم الذاتي ، وكَانَت تخشى أنْ يَفْقد أولئك الرابضون فوق جبل (ماييفيتسا) صبرهم فيطلقون قذيفة أو اثنتين على المدينةِ .

« لم تُقدم (توزلا) على قطع الطريقِ مِنْ (تساباردہ) إلى (زفورنيك) ولو لِبضْع دقائق ، وبدلًا مِنَ الانتقام بقذيفة أو اثنتين لو أنهم قاموا بقطع الطريق ، قام « التشيتنيك » بالردِّ عليهم مِنْ فوق جبل (ماييفيتسا) - كمكافأةٍ لهم على تعاونهم - بقذيفة قَتلَت عددًا من الشبابِ أكثر مِنْ عددِ السكان ذوي التوجه الشيوعي في (توزلا) الذين اقتربوا من خطوط الدفاع الأُولى في البوسنة . أطلقت القذيفة بالضبط في نفس اليوم الذي كانت (توزلا) تحتفل فيه بالذكْرى السنوِيَّة لميلاد (جوزيف بروز تيتو) !! » .

قمت بنَقل النَّصِّ السابقِ مِنْ قُصاصة الصحيفةِ البوسنيةِ التي كَانَ الجندي الهولندي ذو الأسنان الصفراء العضو في قوات الحماية الدولية يلُفُّ بها ذلك الزوج البالي من أحذية الركض الخاصة به ... كلَّفني ذلك الزوج من الأحذية ثلاثمائة مارك ألماني .. وهو في الحقيقة لَيسَ بالسعر السيئ ! ..كُنَّا نَدْفعُ ألف مارك ألماني لأجل عُلْبَةِ سجائر « مارلبورو » .. هذا بالإضافة إلى أنني كُنْتُ حافيًا ! .

* * *

سَأذهب لزيارة الطبيبِ (ماهميتس) .. فأنا أُؤجِّلُ تلك الزيارة منذ وقت طويل .. وكنت قد بَدأتُ بالفعل أَتجَنب مُقَابَلَته في الشارع في البداية ، لم يكن أحدنا يعْرفُ الآخر ، بل لمْ نكد حتى نلحظْ بعضنا البعض .. فقط كان كل منَّا يعلم بوجودِ الآخر .. كُنَّا أبناء بلدة واحدة ، ولم تتعدَّ مَعْرِفتنا السطحية ذلك الحد .. وهذا يَدْحضُ الادِّعاءَ بأن الناس في البلداتِ الرِيفِيَّة البوسنيةِ يعرفون بعضهم البعض جيدًا وأن كل شخص في البلدة يَعْرف كل شيء عن الآخرين .. يَعْرفُ من هم ؟ وماذا يعمَلون ؟ وما هي وظائفهم ؟ ... ولكن هذا ليس هو الحال بالنسبة لأولئك الذين يَهْتَمُّونَ بعملِهم فقط ولا يَحشرون أنوفَهم في شؤونِ الآخرينِ .. لكن الثمن الذي دَفعنَاه في هذه الحربِ أثبتَ أنَّنا كنَّا نتوهم ونظنُّ فقط بأنَّنا نَعرف جيرانَنا ؟ الصرب ! .

نظرًا لأن مُعظم الذين ولدوا في (سربرينيتسا) إمَّا أنهم قد هاجروا أو أنهم قُتِلوا ، حيث كان البوسنيون يصلون إلى (سربرينيتسا) مِنَ المحليَّات والبلديَّاتِ البوسنية المجاورة يومًا بعد يوم ... وعلى الرغم من أننا لم نكن نتعرف جيدًا على تلك الأعداد الغفيرة من البشر التي تفد إلينا كل يوم .. ولم نأمل بالتعرف جيدًا على مثل هذا العددِ الهائل من الناس ، فقد بدأ الذين تعَرفوا بالكاد على بعضهم البعض في الشارع بإلقاء التحية فيما بينهم .

فَاجأَني الدكتور (ماهميتس) بإلقاء السلام عليَّ .. ليس السلام بحد ذاته الذي فاجأني .. فقد اعتدنا على إلقاء السلام .. وأحيانًا كنا نضيف كلمة « مرحبًا » [1] إلى « السلام عليكم » [2] عندما ننوي أن نَتوقَّفَ قليلًا بعد التحية الأولى .

- « السلام عليكم ! » .

- « وعليكم السلام .... مرحبًا ! » .

- « مرحبًا ! » .

كانت الطريقة التي لَفظَ بها السلامَ هي التي فَاجأَتني .. لم أتَوقَّع أن ألتقي بطبيب اعتاد منذ سَنَوات قبل الحربِ على أن يُحَيِّي الناس بتحية « السلام » .. ما من شَكٍّ في أنَّهُ كان مُتمَرِّسًا تمامًا على النطْق بتلك التحية الإسلاميةِ ، وأنه قد تعوَّدَ على النطق الصحيح لها ولم يكنْ يَقولها على طريقة المبتدئين . على الرغم من أنني لا أتضَايَقُ مِن المبتدئين .. ولا يزعجني أسلوبهم في إلقاء التحية :

- « السلام عليكم ! » .

---

(١) مرحبًا : كلمة عربية تقال للترحيب . وقد أثرت اللغة العربية في لغات الشعوب اليوغسلافية خاصة في اللغة الرسمية (الصربوكرواتية) ؛ حيث يتكلم بها عامة الشعب ، وقد أخرج بعض الباحثين في اللغة من القواميس كلمات كثيرة أصلها في اللغة العربية ؛ وقد يبلغ عددها حوالي العشرة آلاف كلمة ما بين العربية والتركية . (انظر : شخصية البطل العربي في الأدب اليوغسلافي - مجلة العربي العدد ٢٦٢ - ١٩٨٠م . ص : ١٢٣) - (المُترجمة) .

(٢) في الأحياء الإسلامية في يوغسلافيا السابقة لا تسمع كلمة تحية غير « السلام عليكم » و « مرحبًا » و « في أمان الله » . (انظر : المسلمون في يوغسلافيا تأليف : د / رجب يشار بويا . ص : ١٦٣ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

- « وعليكم السلام .. مرحبًا ! » .

- « مرحبًا ! » .

- « مرحبًا ! مرحبًا ، أيها الجار . يا للرَّوعة .. هذا رائعٌ حقًّا ! انظر أي نوعٍ من المسلمين نحن .. حتى إنَّنا لَا نُلقِي السلامَ على بعضنا البعض » .

لم أَعْرِفْ ما الذي يَجِبُ أَنْ أقولَه فأجبت :

- « إنها الحرب ! » .

- « الحرب أسْقَطَت حَقَّ الجار ؟ ! حَسنًا ، يُمْكِنُنا على الأقل أَن نجري دردشة لطيفة ... تفضل بزيارتي في أي وقت .. أنا لا أجبرك بالطبع ولكن اجتهد أن تزورني .. أن تُفاجئني بزيارة غير متوقعة » .

وقد تكرَّرت الدعوة وتحوَّلتْ إلى إصْرار وإلْحاح شدِيدين ، لكنَّ ذلك لم يُزْعجني .. تقبلت تلك الدعوة على أنها تحمل معانٍ صادقة تمامًا ... عبرت عن شكري وامتناني بهَزِّ رَأسِي بإيماءة موافقة ، وبعد ذلك بالكلماتِ . ولكن نظرًا لأنني لم أذْهب لزيَارَته ، كنتُ أشعر في كل مرة ألتقي به في الطريق على غير المتوقع بأنني رجل أخْرَق وغَيْرُ مهذب .. وحينما كنتُ أمْشي مِنْ وإلى بيتي ، ضَبطتُ نفسي - أكثر من مرة - أَنعطف إلى شوارِعِ فَرْعِيَّة وعدة طرق جانِبِيَّة وأقوم بالالتِفاف والدوران حول البيت أملًا في تَفادي التقاء الدكتورِ (ماهميتس) .. وشعرت أن ذلك المسلك كانَ فعلًا مُهِينًا وسلوكًا خَسِيسًا .. فخجلتُ من نفسي وبعملية حسابية صغيرة توصلتُ إلى قرار بزيارته بعد أن تبين لي أن تلك الحيل الوَضِيعة والخطط اللئِيمة يتطلب تنفيذها عَنَاءً وشقاءً أكبر من القيام بزيَارَته مرة ! » .

ولكن فيما بعد تَبَين أن تلك الزيارة كانت معقَّدة أكثر مِما تصورتُ ... اكتشفتُ أنَّه كان يعيشُ بمفرده في البيتِ . فقد نجحت عائلته في مغادرة (سربرينيتسا) في البدايات المبكرة للعدوان الصربي على شمال شرق البوسنة . ونظرًا لاستمرار تدفق اللاجئين - حتى مِنَ المدنِ غير المحتلة - ولأن أعداد اللاجئين كانت أكثر بكثير مما يمكن أن تقدمه بلدة مثل (سربرينيتسا) لسَكَنهم وإقَامَتهم ، فقد استقرَّت عائلة الطبيبِ - شاءت أم أبت - خارِجَ البِلاد ؛ ولِهذا السبب تحيَّرت وأعْيَتْني الحِيلَةُ ، كنت

أتساءل أين يُفترض أن أَزُورَه ؟ ثم قرَّرتُ بأنَّه في مدينة صغيرة ، إذا أراد أحد أن يقوم بزيارة شخص مشغول دائمًا ويَعْمل ليلًا ونهارًا ، فيَجِبُ أن يزُورَه في مقر عمله .

وفي المستشفى كانت قاعة الانتظار مُزْدَحِمة ومُكْتَظة بالناس . وكان الواقفون أكثر مِنَ الجالسين . ومِنْ خلف الأبواب المغلقة لغرفةِ الطبيبِ كانوا يُنادون على أسماءِ المرضى ... الدُّكتور (ماهميتس) فقط هو الذي يعمل على طريقة الأطباء الكلَاسيكيين القدامى ، فهو طبيب من الطراز العتيق .. يخَرجُ من مكتبِه ويمسك بالباب مفتوحًا بينما يَطْلبُ مِنَ المريض الدخُول . وقد لاحظ وجودي في قاعة الانتظار وألقى عليَّ السلام ... قرَّرتُ الانتِظار . وكان كلمَا ظَهرَ عند الباب يبذلُ جهْدًا ليُحيِّيني بشكل لطيف .. فعل ذلك بنظرة لَطِيفة من عينيه أكثر مِنْ أن ينحني برَأسِهِ في إيماءة ترحيب أو مُلاطَفَة .

استمر في إدْخال المرضى حتى أولئك الذين جاؤوا من بعدي بفترة طويلة . استغرق ذلك عدة ساعات . ولمرات عديدة كُنْتُ أنا المتبقي الوحيدُ في قاعة الانتظار بجوار مكتبه ، ولكن في كل مرة وبَيْنَمَا هو يفحص المريض الأخير كان المريض الجديد يَظْهر وهكذا .

كَانَ الوقت متأخرًا بَعْدَ الظُّهْر عِنْدَمَا صرتُ أخيرًا الشخص الوحيدَ الموجُود في قاعة الانتظار .

ثم ناداني بنفس الطَّريقة التي يُدخل بها المرضى الآخرينَ ، إلَّا أنَّه لَمْ ينَادِني باسم عائلتي .. قال لي :

– « ادخل رجاءً » ...

وقد دَخلتُ على أية حال ... وسألني :

– « حَسنًا ، كَيْفَ يمكنني أن أساعدَك ؟ مم تشتكي ؟ » .

– « لا شيء ... لَيسَ لا شيء تمامًا . يُمْكِنُك أن تجدَ بَعْض العِلل وأن تُشخص بعض الأمراض .. لَكنِّي لم آت لهذا السبب بل جِئتُ لزيارتك . فقد كنت تَدْعوني لزيارتك منذ مدَّة ، فقلتُ لنفسي : إنَّني يَجِبُ أن أزورك زيارة مفاجئة في عملِكَ » .

- « وكل هذا الوقت وأنا أعتقدُ بأنك جِئتَ للفحصِ الطبي .. تَعْرِفُ ، اعتقدتُ أنك سجلتَ اسمك على المنضدةِ الأماميةِ . واستمرت الممرضة تحضر لي قائمة بأسماءِ المسجَّلِين للفحص . تَعْرِفُ .. سَأَلتُ الممرضةَ عنك عدَّة مرات . وحاولنَا إعَادَة النَّظَر والتحقق من احتمال أن تكون قد سجلت اسمك مَع طبيب آخر . ولكن التحري الدقيق والاستعلام لم يكن سهلًا ، مطلقًا ؛ لأننا ، كما تَعْرِفُ ، لمْ نكن نَعْرِف اسمَ عائلتك » .

- « كل ما هنالك أنني ظننتُ أنَّه من المنطقي عند زيارة طبيبٍ يَعِيشُ بمنزله وَحِيدًا أن يُزارَ في المستشفى الذي يعمل به » .

- « انظر ، يالسُوء التَّفَاهُم أنت تَعْرِف ، أَنا (ماهميتس) . » .

- « أَنا (جوزويتش) » .

- « كان لدي شعور بأنَّ بوسعي أنْ أُلقي عليك السلام حتى قبل الحرب . كان لديَّ ذلك الحدس ، هل كنت أعرفُ أنك كُنْتَ مِنْ عائلةِ (جوزويتش) ؟ » .

- « أَنا (جوزويتش) ، لكنني مِنْ عائلةِ (جوزو) ! » .

- « حَسَنًا ، هذا لَطِيف جدًّا ، من الجمِيل أن أعْرِف بأنَّ لدي رَفِيق من أهل بلدتي معترضٌ على تلك الـ « إتش ich » التعِيسة التي يُضيفونها في نِهَايَة اسم العائلة ، تَعْرِف . لكن ، أنت أتَعْرِف ، إنني لَستُ متأكدًا لماذا أنت أيضًا لا تحتَرِم أعْراف عائلتِكَ ولا تُبَجِّل تَقَالِيد العلماء . إنه لأمر مُخْزِ ومُخْجِل ، تَعْرِفُ ؟ » .

- « أنا لا أَعْرِفُ ! » .

اندفعت تلك الكلمات سريعًا من فمي بطريقة خَشِنة .. لم أشأ أن أُجيبَهُ بذلك الردِّ الفَظِّ ؛ ولكنه أغاظَني وأزعج أذنيَّ باستعمالِه ذلك العكازِ [1] اللفظِيِّ « تعرف ! » . لذلك صحَّحتُ نفسي بسرعة قائلًا :

- « تَعْرِفُ ، حتى أكُونَ صادقًا معك ، أنا نفسي لا أَعْرِفُ » .

- « وما نوع العمل الذي تزاوله ؟ ما هي مِهْنَتك ؟ إن كنت لا تمانع أن أَسْأَلك ؟ » .

- « أَنا في عمل يتعلق بالحرب ، ولا يُفترض - كما تعلم - أن أخبرك بالضبط ما هو العمل الذي أقوم به في الحرب . لكن ، إن كنت مُصِرًّا ؟ فلا يمكن أن نصل لدرجة أن نرْتاب بِأي أحد وأن نَشُكَّ في كل الناس . تَعْرِفُ ، يحدث هذا الشيء

(١) عكاز : سَنَد ، دِعَامَة ، رَكِيزَة - (المترجمة) .

مع تسلل الكثير من الجواسيس الصرب ، لكني سَأُخبرك إن كان ذلك يُثيرُ اهتمامك وترغب في معرفته » .

تَرددَ الدُّكتورُ (ماهميتس) وقال :

- « لا ، لا » ... « فقط قصدتُ أن أعْرِف ما وَظِيفَتك » .

- « لم يعد لدي وَظِيفة بعد الآن .. إنني مَسَّاح [١] أراض » .

ابتسمَ الطبيب قائلًا :

- « هذا هو بالضبط ما نَحتَاجُ إليه هذا ما ينقصنا ! » .

- « وما هو ذاك ، إن كان لي أن أَعْرِفَ ؟ » .

قالَ الطبيب :

- « جِيُودِيسِي [٢] ... « جوزيف . ك » [٣] حقيقي في (سربرينيتسا) ! » .

- « هل أنت ضَلِيع في عِلْم الأدبِ » .

أوضَحَ الطبيبُ :

- « ليس بالضبط ... ليس بِكُلِّ مَعْنَى الكَلِمَة ، في الواقع « جوزيف . ك » مثل جدولِ الضرب ومثل الحروف الأبجديةِ . هو جزء من أي تعليم ابْتِدَائِي ... ثم وما

---

(١) مَساح : ماسِحُ الأَرَاضِي موظف يقوم بمُعَاينة وتحديد مساحة الأراضي أو المباني - (المترجمة) .

(٢) جِيُودِيسِي (Geodesist) : عالِمٌ بِالجيُودِيسِيَا ، أي علم جغرافيا المساحات - (المترجمة) .

(٣) جوزيف .ك : بطل رواية « المحاكمة - ١٩١٤م » إحدى روايات (كافكا) الذائعة الصيت التي اقتيد فيها ذات صباح موظف البنك البسيط (جوزيف . ك) من قِبل أشخاص مجهولين ، مُتهمًا بتهمة لا يعلم عنها شيئًا ، حتى أولئك الذين ساقوه لا يعرفون طبيعة التهمة ، فهم ينفذون الأوامر فحسب ، ثم يُدفع إلى ساحة المحكمة بلا ذنب ، ويصور (كافكا) سير المحاكمة بأسلوب مخيف ، فهي تتم تحت سقف منخفض وينحني الجميع من أثره طوال الوقت ، وأخيرًا ينتهي هذا الموقف العبثي إلى أن يُساق البطل إلى الموت كأي حيوان دون أن يعرف التهمة ، والبطل (جوزيف . ك) وهو الشخصية المحورية في الرواية - الذي يعاني الأحلام والهلاوس والكوابيس - يُمثل الفرد البرجوازي الصغير بينما تمثل تلك القوى الأسطورية الغامضة التي تتهدده وتتحكم فيه ، ضغوط النظام الرأسمالي المتحكم ، الذي يتحول فيه الفرد إلى مجرد ترس في آلة النظام دون أن يمتلك أية حرية حقيقية ، فـ (جوزيف . ك) عاجز تمامًا عن الخروج من طبقته الاجتماعية نتيجة لغياب وعيه السياسي ، وهو في هذه المحاكمة الوهمية المفترضة محاصر ومحكوم عليه سلفًا من قبل انتمائه الطبقي - (المُترجمة) .

عساك أن تكون غير « جوزيف . ك » عندما تكون مسَّاح أراض في الوقت الذي لم يبق فيه سوى القليل والقليل من الأراضي في البوسنة لتمسَح ... » .

- « أجل لقد تحوَّلتُ إلى « جوزيف . ك » الذي يُحْصي الأيام الأخيرة لـ (سربرينيتسا) الأخيرة ، الذي أرْهَقَ نفسه وأثقل كاهله بسِرٍّ اسمِه ! دكتور ، أليس غريبًا أنك بعد كل ما حَدثَ لنا تشغل نفسك بعِلْم الأنساب .. ألا يَبْدو أن ذلك أمر مُحتَّم عليك كما لو كان قدرًا مَقْدُورًا .. ألا يبدو لك كنذِير شُؤْم ؟ » .

ضحك الطبيب ضحكة غير مُصْطَنَعة .. وابتسَمَ لي على الرغم من أنَّه كان مُتْعَبًا ... لكني لم أتمكن من تفسير معنى تلك الابتسامة ، ولم يتكون لدي أدنى انطباع بأنه قد فَهِمَ ما قلت .. كما أنني لم أشعر بالذنب لاحتمال أن يكون تفسيرِي لابتسامته في غَيْرِ مَحَله .. وربما كُنْتُ أشعرُ بأنني أكافئه بأمَانَة لإصراره على أن أزُورَه ؛ وذلك من خلال تَلْمِيحي له بانشغالي الخفِيِّ بمُذَكرات جَدِّي - كانت تلك مِهْنَتي السرية - ورُبَّمَا تقبل هو زيارتي كعقاب له لتصميمه وإصراره العنيد جدًّا على أن أزُورَه ... على أي حال كَانتْ ابتسامته غير محددة .. كانت غامضة ولا يمكن تفسيرها !!

* * *

لا أدري هل قربني التعرُّف إلى الطبيبِ (ماهميتس) من الموتِ أكثر أم أنه أبعدَني عنه ؟ إلا أنني بَدأتُ أحسُّ بالموتِ مِنْ وجهة نظر طبية بعد أن فَتحَ دكتور (ماهميتس) أمامي أبعادًا جديدة عن الموت ، لكنَّه فَصلَني عنْ جوهرِهِ .. أصبحتُ أكثرَ عجزًا عن التبَصُّر والتأمُّل العميق في معنى الموت .. وفقدتُ القدرة على التعامل مع رؤى جديدة للموت .. إنني الآن أعْرف أنَّ الناس في (سربرينيتسا) يَمُوتونَ من الجوع .. وأن السبب الطبيّ للوفاة هو اختناق في الأمعاء ينجم عن شلل في الحركة الدودية للأمعاء وهو ما يُسبب الإمساك المزمن [١] . فالجوعُ وسوءُ التغذية يُحَدث انسدادًا بالأمعاء يتبعه توقف كلي لحركة الأمعاء وهنا تحدث الغنغرينا [٢] .. وذلك لأن محتويات الأمعاء

(١) الإمساك المزمن (Constipation) : هو العجز عن التبرز بسبب صلابة البراز حيث يؤدي تأخير تفريغ المستقيم إلى إعادة امتصاص الماء من محتوياته ، فيصلب البراز ويصبح تفريغه عملًا شاقًا مؤذيًا والسبب غالبًا ما يعود إلى الجفاف ونقص تروية الجسم بالمياه أو نقص تناول الأطعمة الليفية أو الجوع الشديد وقلة تناول الطعام - (المترجمة) .

(٢) الغنغرينا (Gangrene) : موت جزء من الأنسجة في الجسم الحي . وقد تقتصر الغنغرينا على مساحة صغيرة

تصبحُ صلبةً وقاسية نتيجة لأكل عرانيس [١] الذُّرَة الجافة وأزهار شجر البندقِ المسحوقة وأوراقِ وقشور الأشجار وفروعِها أيضًا في محاولة لدغدغة غريزة الرغبةِ في الأكل ... وبالنسبة لهذه الحالات من انسداد الأمعاء ليس هناك إمكانية لعلاج الإمساك باستعمال الحقنة الشرجيةِ ، كما أن الجراحة عَدِيمَة الجَدْوَى .

وقد مات العشرات من البوسنيين بسبب الجوع بعد أن ذاقوا تَبارِيح العَذَاب وشدة الكَرْب والألَم في أسوأ معاناة مُمكنة لسكرات الموت .

ويُقال : إن المجاعة دفعت بالناس إلى أكْل لُحُوم البَشَر !! .. أنا لا أَعْرِفُ مدى صحة تلك المعلومة ولا أَستطيعُ تَأكيدها .. لأنني لم أشهدها بعيني ، فكُلُّ أنواع الأقاويل كانت تُقالُ ، هل كان هناك أكْلٌ لِلُحُوم البَشَر حقًّا ؟ لا أحد يمكنه أن يُقِرَّ أو يعْتَرِفَ بِذلك ، وهذا لنْ يُعْرَفَ بالتأكيد . لكن الأحَاديثَ المتَدَاوَلَة ، وكثير من الكلام كان يدور حول ذلك ، يُقال بأن بعض الناس قد بَدؤوا - في غياهب الغابةِ وفي سريَّة تامة - بأكل جثثِ الجنود المقتولين في الغابةِ ... حتى إن القصص المقنِعة والحكايات الموثوق بها والتي يمكن حملها على وجه القَبُول ذكرت أي أجزاءِ الجسم البشري أطيب مذاقًا وأيها ألذ وأشهَى . تم ذكرُ بَعْض الأحشاء الداخليةِ في الجسم البشري على وجه الخصوص .. وهناك الكثير والكثير من القصص التي كانت تُروج وتتنقل بين الناس .. حتى إنه أشيعَ بأن جثث البوسنيين فقط هي التي كانت تُؤكل أما جثث « التشيتنيك » - الذين يُضاهون الخنازير- فقد كانوا يتركونها في الغابة تعففًا .. كانت من نصيب الحيوانات البريَّة .. ولكنِّي لا أستطيعُ أن أكذب أو أؤكد شيئًا من ذلك ما دمت لم أر شيئًا بأم عيني ولم أسمعه مِنْ أفواهِ شهودِ عيان .

أعرف أنَّ الجوع هو الذي دفع بالناس إلى ارتكاب مثل هذه الفظائع ... حيث يتراجع الدماغ البشري بفعل الجوع إلى أبسط أشكال الدماغ في علم الكائنات

من الجزء المصاب ، وقد تتبع لتشمل العضو كله ، وتحدث الغنغرينا بسبب انقطاع ورود الدم إلى الموقع المتأثر ، فالانسداد المفاجئ للشريان ينجم عنه تورم مؤلم في الموضع الذي كان يغذيه ذلك الشريان ، وقد يلتهب الجزء المصاب والالتهابات منع انقطاع ورود الدم يؤدي إلى الغنغرينا ، فتسود الأنسجة المصابة وتصرف القيح (الصديد) - (المترجمة) .

(١) جمع عِرْناس (عرنوس) : الذرة وهو كُوزُ الذُّرَة - (المترجمة) .

الحية .. وفي سبيل تلبية نداء الطَّبِيعَة يُصبح الإنسان أسوأ مِنْ حيوان بري .. وأشد فتكًا من الذئاب الضواري .

مع بدايةِ العملية « باراشوت »[١] ، تَحوَّلنَا إلى فرقة من حاملي المشاعل ... كان هناك الآلاف والآلاف من المشاعل التي لا حَصْرَ لها .. بَدت المشاعل التي كنا نحملها كما لو أنها لانِهَائِيَّة العددِ ولا حَدَّ لَها .

كانت مَسِيرَة المشاعل تلك تجعل من يوم « عيد العمال » اسْتِعْراضًا عَسْكَرِيًّا مشتعلًا بالأنوار ، موكبًا تضمحل إلى جواره صور الاحتفال بعيد العمال أيام طفولتي وتغدو تافهة بالمقَارَنَة باحتفالات هذه الأيام .. ففي أيام طفولتي وعلى الرغم من أنه كان يتم حشد كل التلاميذ مِنْ طلاب الفصول الدراسية الأولى إلى طلاب أعلى الفصول بالمدارس الثانوية وجمعهم معًا ، إلا أننا كنَّا ونحن نشق طريقنا بين الشوارعِ في ظلام الليل حاملين المشاعل ، كنا أشبه ما نكون بجَدْوَل ماء قصير وضيِّق يتدفق مُشتعلًا في ظلْمَة الليل ، لَمْ يَكنْ مُمْكِنًا أنْ نشبه أي شيء آخر أكثر مِنْ جَدْوَل صغير . أما في هذه الأيام فالمشاعل تُحْمَلُ حتى مِن قِبل أطفالِ الصفوف الابتدائية الأصغر سنًّا ، وآبائهم وآباء آبائِهم أيضًا . وكل من له القدرة حتى على مجرد الزحْف . اليوم تشكل مَسِيرَة المشاعل بحرًا طويلًا عريضًا مُتفرعًا تفيض منه العديد مِن الخلجانِ[٢] وتصب فيه العديد من الروافدِ[٣] ، بحر واسع من الضوء يمخر ، وفروعه في سَوَاد الليل الدامس مخترقًا عتمة الحارات[٤] البوسنيةِ الضَّيِّقَة .

قبل أن يغيب ضَوْءُ النَّهَار ، أخذنا مواقعنا على التلال ، وفي الغاباتِ التي تعتبرُ

---

(١) الباراشوت : مِظَلَّةُ الهُبُوط ، وهي أداة شبيهة بالمظلة تستخدم لتبطئ هبوط الأجسام عبر غلاف الأرض الجوي . ابتكرت في الأصل لكي يتخذها الإنسان وسيلة من وسائل الرياضة أو لكي يهبط بها الطيارون إلى الأرض عندما تصاب طائراتهم بعطل أو أذى ؛ ولكنها تستخدم اليوم أيضًا لإنزال الجنُود أو المعدات والمؤن . كانت تصنع بادئ الأمر من الحرير ، ثم صنعت بعد ذلك من النايلون . وقد صنعت مؤخرًا باراشوتات مزودة بأدوات تفتحها أوتوماتيكيًا - (المترجمة) .

(٢) خلجان : جمع (خليج) ، وهو فسحة في اليابسة تحتجز جزءًا من ماء البحر - (المترجمة) .

(٣) روافد : جمع (رافد) ، وهو النهر الصغير يصبُّ في نهر أكبر منه - (المترجمة) .

(٤) حارات : جمع (حارة) ، وهي الممر أو الطريق الضيق - (المترجمة) .

نقاطَ انطلاق مُنَاسِبة لرصد المِظَلاتِ المنطَلِقة في الهواء .. وبالتالي كانت تلك المواقع تمثل نقاطَ الانطلاق للبحث الجنونيِّ والمسْعُور [١] عن المِظَلاتِ المحملة بالمعونات الغذائية ... كانت المشاعل تُصنع مِنْ كافة أنواع الموادِّ الممكنة ، حتى مِنْ لحاء [٢] شجر الكَرز ، وكما يُفعل بالزنابق عشية الاحتفال بيوم القديس (سانت جورج) [٣] احتفظنا بالمشاعل إلى بعد منتصف الليل .. لم نعد نَتحمَّل الانتِظار أطول من ذلك .. وبصرف النظر عن مدى تَحَقّقنا من الوقتِ الذي كَانتْ ستَظْهر فيه الطائرات ، فقد كانت مخاطرة كبيرة ومجازفة خطرة جدًّا أنْ ننتظر حتى نسمع صوتَ الطائرةِ وبعد ذلك نبدأ بإشعال المشاعل .. فالطائرة ستكون سريعة جدًّا ، وكل مَجْمُوعة ستظن بأن أضواء مشاعلها هي التي ستُلفت نظَر الطيار وتجذب انْتِباهَه ليقذفَ بحُمُولَته من الغذاء في منطقتهم ، وليس في أي بقعة أخرى من الأرض .

وقد تَزامنَ ظهورُ الطائراتِ إلى حد ما مع موعد صياح المجموعة الثانية من الديكةِ .. في جوف الليل وقبل بزوغ الفجرِ بقليل ... في تلك اللحظة بدت الغابة كما لو أنها كانت تحترق كليًا ... وحتى ذلك الوقت المتأخر في الليل ظلَّ الناس يُحدِّقونَ في الحلكة القاتمة لسماءِ الليل السوداءِ .. كانوا يَنتظِرُون ظهُور الطائرات في عتمة الليل بأنفاسهم المتقطعة . وحِينَمَا كانوا يسمعون أصوات الطائرات أو حتى يتخيلون سماعها - لشدَّة الكَرْب والألَم كانوا يشعرون بالطائرات وكأنها في الطريقِ إليهم - كان كلُّ واحد منهم يَقْفز بسرعة ويقف على قدميه ويتضرَّعون جميعًا إلى اللَّه ويَتلون الصلوات وكافة أنواع الابْتِهَالات والدعوَات .. يتَوَسَّلون إلى اللَّه ويسألونه أن تفتح المظلة وتُسقط حمولتها بقربهم . كَان مجرد ظهور الطائراتِ في الجو كافيًا لانْتشَار أضواء المشاعل وبَعْثرتها في كل مكان ... يكَفي أن تحوم الطائرات في السماء حتى يبدأ صِرَاع الموت والحياة .. ودون أن يَنتظر أحد ظهور ضوء النهار ... ينطلق السباق .. سباق « من سَيَكُون أولَ من يعثر علي حمولة الكنز الهابط مِن السماءِ ؟ » وإذا تبين أن الطائرات لم تظهر تلك الليلة أَو أنَّهم لم يكونوا دقيقين في إطلاق حمولتِهم ، أو أنهم حلقوا فوق التلالِ التي يَنتظر فوقها الآخرون ، فعند ذلك لنْ يمتلك أحدهم القوة التي تمكنه حتى من أن يَلْعن حظه - أَو حظَّها - سوف يقطعُ الأَمَل

(١) المسْعُور : شديد الاهتياج - (المترجمة) . (٢) لحاء : قشور - (المترجمة) .
(٣) القديس سانت جورج : هو القديس القومي لمسيحي إنجلترا - (المُترجمة) .

والرَّجَاء .. ويسقطُ ببساطة في بئر عميق من اليَأس والقُنُوط .

وفي النهاية - في الشوْط الأخِير من مباراة اليأس - يصيب اليأس حتى أولئك الذين ظهرت المِظَلات فوق رؤوسِهم وتدركهم خيبة الأمَلِ والقُنُوط .

من الجيد أنني لم أكُنْ هناك .. لِهذا فأنا لستُ مُضطرًا لوَصْف نَوْع ذلك الصرَاع الذي دار بين مجموعة من البشر المشعُورين .. يَكْفي فقط رؤية آثار ذلك الصرَاع في اليوم التالي .. كان ذلك المشهد المرَوِّع كافيًا جدًّا ... كُنَّا نمرُّ فوق الجثَث التي تحمل عَلامَات تدل على ضَرَاوة الصرَاع والعُنْف الحادِّ الذي تعرض له أصحابها قبل أن يموتوا .. كان أولئك الذين بَقوا على قيد الحياة يقبضون أيديهم بشدَّة على كِسْرَة مِنَ الغذاءِ أو لُقْمَة من الطَّعَام !! .

بدا جَلِيًّا وواضحًا للجميع أن العالمَ يُساعدُ الصرب - ومنذ وقت طويل - على إجراء التجاربِ في مختبرِ (سربرينيتسا) .. لكن يَبدو أن العمليةَ « باراشوت » قد أُجريت من قِبل العالم كتجربة مستقلة على الخنازير الغينية [١] المحبوسة في (سربرينيتسا) . وحتى على فرض أن الحرب كانت هي البديل الوحيد ، فقد كان من واجب المسؤولين عن هذا العالم أن يُسلِّحونا ويُعطونا جزءًا من تلك الأسلحةِ التي تخلصوا منها بإعطائها جميعًا للصرب على وَجْه الخصوص وحصريًّا [٢] دون سواهم .. تلك الأسلحة التي لنا أيضًا الحقُّ فيها ، حيث كنا - لسَنوات طويلة - نَتخلى عن حِصَّتنا مِنَ المالِ للجيشِ اليوغوسلافي .. أَو على الأقل كان عليهم إجْبار الصرب على السماح بمرور الطعام إلينا .. ولكن بدلًا مِنْ أنْ يوقفَ العالم هذه المعاناة ، بأي وَسِيلَة من الوسائل الألف المتوفرةِ لديهم ، أو ببساطة بدلًا من أن يقمعوا وَحْشِيَّة « التشيتنيك » .. كانوا يَقُومونَ بإجراء تجربة من خلال رَمي المواد الغذائيةِ علينا مِن السماءِ ! .

كانت الصورة التلفزيونية الأخيرةِ التي أتَذكَّرها :

مروحية أمريكية تندفع بخفَّةٍ وقوة في طيران كاسِح فوق منطقة الثوَّارِ الأكرادِ في

---

(١) الخنزير الغيني : حيوان أكبر من الفأر قليلًا يستخدم لإجراء التجارب المعملية - (المترجمة) .

(٢) حصريًّا : مقصورًا على شخص أو جماعة - (المترجمة) .

(تركيا) ، كانت تكتسح سماء المنطقة بالكامل بينما يركض الناس في خرقِهم البالية ، وهم يرفعون أيديهم على أملِ الحصول على الشبكاتِ المعلّقةِ بالمروحيات والمحملة بالمواد الغذائية .

ولم تُتح لي فرصةُ مُشَاهَدَة التلفزيونِ مرة أخرى .. فكل ما رأيته بعد ذلك كان بَعْض الومضاتِ المفاجِئة (الفلاشات) التي كانت تظهر على شاشةِ التلفزيون المزود بما تيسر من الكهرباء التي تولدها تُورْبينات [١] صغيرة كانت تُنتج من الطاقة الكهربائية ما يكفي لإشعال مصباح أو اثنين ، ولكوننا تحت الحصار ، فقد فقدنا إشارات الإرسال مِنْ تلفزيونِ البوسنة والهرسك ، وأصبح بوسعنا أن نشاهد جميع محطات تلفزيون الولاياتِ الصربيةِ المتَّحدةِ فقط . كانت (سربرينيتسا) موضوعَهم المفضَّل .

لو لم أكن مُحاصرًا في (سربرينيتسا) .. ولو لم يكن عليَّ أن أَقْرص نفسي لِأتحقق مما إن كُنْتُ لم أزل على قيد الحياة أم لا ، لو أنني كنت في ظروف غير هذه لكنت سأتمنى إما أن أغمر جسدي بالماء أو أن أخلع جلدي كلما وقعت عيني مصادفة على محطة « التلفزيون الصربي » لأتطهَّرَ من النجاسات التي كَانَ يعرضها ما نسميه « تلفزيونهم » .. كانوا يُقدمون أقبح الأكاذيبِ وأكثرها بشاعةً حول كل ما يتعلق بالبوسنة وخصوصًا (سربرينيتسا) ، تلك الأرَاجِيف الشنيعة عُرِضَت كما لو كانت حقائق جَلِيَّة لا تَقْبَل الجِدَالَ ، قاموا بتشويه الحقيقة لتظهَرَ تلك الأباطيل كما لو كانت واقِعًا حقيقيًا ناصع الوضوح . ولكنهم بذلك لا يُرْعِبوننا ولا يخيفوننا ، بل يثبتون أنهم أنفسهم خائِفون بل ومَذعورون منَّا .. وهم بترويج تلك الأكاذيب يُقيمون الدَّلِيل والبُرْهانَ على فَزعهم وذُعْرهم . إنهم يُحاولونَ اسْتِجْماع شَجَاعَتهم ويشحذون عَزيمتهم ، وفي ذات الوقت هم يتكرون حُجَّةً ويقدمون لأنفسهم عذرًا يبرر أفعالهم ويعملون على ترويج تلك المبررات فيما بينهم .

بقيت صورة الأكراد وهم يَصْعدونَ التلَّ بحثًا عن شِبَاك الإمدادات الغذائية المعلَّقة بالمروحياتِ تطارد ذاكرتي لوقت طويل ، وأثْناءَ مشاهدتي لتلك الصور برقت

(١) التورْبِينة (العنفة) : محرك صغير ذو دولاب يدار بقوة الماء أو الهواء أو البخار لتوليد الكهرباء - (المترجمة) .

بذهني فكرة أننا يَجِبُ ألَّا نَتوقَّعَ شيئًا أفضل مِن العالم فيما يتعلق بالحرب التي كانت قد بدأت تلك الأيام في البوسنة . لَكنِّي كُنْتُ مُخطئًا جدًّا في تَقْدِيري وتَخْمِيني بأن نفس المصير كان يَنتظِرُنا ... فبالمقَارنَة بما حدث في (سربرينيتسا) ، فإن مشاهد الأكراد لا تعدو أن تكون مجرد مشاهد رَدِيئة من فيلم لِرُسُومٍ مُتَحَرِّكَة مِنَ الطِّرَازِ العَتِيق .

أُنزلت صناديق [١] الإمدادات الغذائية على (تسِيْرسَكا) قبل أيام قَليلة من إلقائها على (سربرينيتسا) . لم تكن الصناديق مُلْتَفَّة بالشباك ولَمْ تهبط مِن المروحياتِ ، لكن بدلًا مِن ذلك أنزلت مِن الطائراتِ عن طريق المِظَلاتِ . انتظروا حتى تصل المقاومة في (تسِيْرسَكا) إلى نقطةِ الانهيارِ وتفقد كل خطوط دفاعاتِها . كان « التشيتنيك » يطوقون (تسِيْرسَكا) ويُحكمون قبضتهم الخانقة عليها ، وهاهم يمارسون ضغطتهم الأخيرة ويضَيِّقون قبضتهم القاتلةِ حول رقبة (تسِيْرسَكا) . كانوا أيضًا يُوقدون النار ليُرشدوا الطائراتِ إلى الموقع الذي يَجِبُ أنْ تُسقط فيه حمولتها . بينما لم يجرؤ سكان (تسِيْرسَكا) على أن يفعلوا نفس الشيء ؛ لأنهم إن فعلوا ذلك سيَفضحون مواقعَهم ويكشفونها لـ « التشيتنيك » الذين سينطلقون ككلاب الصيْد من نوع « الدُّموم » [٢] المتعطشة للدماء وسَيُذْبَحونَ على الفَوْر بجوار النَّار التي أوقدوها .

وقد تم الإعلان عن العملية بشكل مُدَوٍّ في كافة أنحاء العالم ؛ لذلك انتعشت آمال البوسنيين من سكان (تسِيْرسَكا) لأنهم على الأقل لن يموتوا جوعى .. استبشروا لأنهم على الأقل سيَمُوتُون وبطونهم ممتلِئة !! .

ثم تبدل شكل عُبوات الإمداد الغذائي وأصبحت حُمُولَة الغذاءِ على شكل قُبَّة [٣] لامِعة بدلًا من شكل الصندوق المربع ، هَبطَت الإمدادات الغذائية على الأماكنِ التي أشارَ « التشيتنيك » إليها من خلال إشعال النيرانِ .. في تلك اللحظة هجم العديد مِنْ سكان (تسِيْرسَكا) باندفاع شديد في تلك الاتجاهاتِ ... وعلى الجهة الأخرى قوبلوا

---

(١) صناديق : جمع صُنْدُوق وهو العُلْبَة الكَبِيرَة - (المترجمة) .

(٢) الدُّموم : كلب بوليسي دموي وشرس يستعمل لمطاردة المجرمين - (المترجمة) .

(٣) قُبة : سقف مستدير له قاعدة دائرية - (المترجمة) .

بوابل من رَشَقَات البنادق الآلية ...لكن الناسَ - في نوبة من الهذيان [١] بسبب الجوع - واصلوا الاندفاع .. واستمرُّوا في الهجوم على نفس المنوال في شكل موجات متعاقبة ، كما لو كَانوا فراشات ليلية تندفع بجنون نحو بريق طلقات « التشيتنيك » الآلية الذي كان يتألق ويتوهَّج كَنيران سِحْرِيَّة يُمكنها أن تضع حدًّا لعذابهم وتقضي على حياتهم المُوْجِعة ..كانوا يتساقطون كما تتهاوى سنابل القمح تحت وطأة الطقسِ القاسي - الذي لا يَرْحَم - الذي تتعرض له تلك المناطق كل ثلاثين إلى خمسين سنة .

إيه .. أيتها العجوز الغالية (تسِيْرسَكا) !

سَتَبْقى (تسِيْرسَكا) زَخْرفة بديعة وحُليةً رائعة وسط نقوش البسَاط [٢] البوسني المزَرْكَش .... (تسِيْرسَكا) زينةُ البساط البوسني التي من المستحيل تجاهلها . وأيًّا كان نوع البساط ومهما يكن كبيرًا ، فإن (تسِيْرسَكا) نَسجَت عليه زَخْرفتها البديعة ..الخيَالية - كما الحلم - نَسجَتها على مِنْوال [٣] البوسنة اليدوي وهي تتفَجَّع مِنْ لَوْعَة الألَم وتتَحَرق حَسْرة وكمدًا .

وجرح (تسِيْرسَكا) الذي في قلبي لَنْ يلتئم أبدًا .. لن يتحرر قلبي من هذا الألمِ أبدًا ...

وحتى قبل فترة طويلة من هذه الأحداث كنت أشعرُ دائمًا بذلك الحنِين والقرب من (تسِيْرسَكا) .

فقد اعتدتُ منذ عهد بعيد أن أصلي بالمسلمين في (تسِيْرسَكا) .. كنت الإمام في صلاة التراويح طيلة شهر رمضان المبارك حتى قبل أن أتخرج وأنهي دراستي في المعهد الإسلامي ... في ذلك الوقت ؛ كنت قد تَخرَّجتُ للتو مِن المدرسة [٤] ، وكان

---

(١) هذيان : اضطراب فكري بسبب الجوع أو المرض - (المترجمة) .

(٢) البسَاط : سَجَّادَة - (المترجمة) . (٣) مِنْوال : نَوْل أو مِنْسَج (الحائِك) - (المترجمة) .

(٤) يلتحق الطالب بالمدارس بعد إتمام مرحلة التعليم الإلزامي في مدارس الحكومة ومدتها ثماني سنوات ، وتعتبر هذه المرحلة الابتدائية والإعدادية معًا ، والمرحلة التي يلتحق بها الطالب بالمدرسة الشرعية هي المرحلة الثانوية ، والدراسة فيها أربع سنوات ، فيكون الطالب الذي أتم المرحلة الثانوية قد قضى اثنتي عشرة سنة في الدراسة . ومواد الدراسة هي : القرآن الكريم واللغة العربية والفقه والحديث والتفسير وتاريخ الإسلام وسائر العلوم الدينية مع التوسع في المعلومات الحديثة الضرورية التي تلقاها الطلاب في مدارس الحكومة ، والطالب مؤهل بعد التخرج من المدارس للالتحاق بكلية الدراسات الإسلامية في البوسنة أو في

لدي خطاب توصية رسمي من رئيس العلماء الأعلى يُجيز لي أن أعِظ الناس .. كنت واعِظًا رسميًّا أملك إجازةً وتصريحًا بالوعظ [١] .. ولم أكُنْ أصلي بالمسلمين التراويح فحسب ، بل كنتُ الإمامَ في الصلوات الخمس كما كنْتُ خطيب المسجد أيضًا [٢] ... كانت تلك الفترة أفضل الأيام في أفضل سَنَواتِ عمري .. آه .. لقد تركتُ نِصْف قلبِي في (تسِيْرسَكا) ... تركتها وبَقي قلبي مُعلقًا في سمائها !! .

* * *

إمَّا أنهم قد رضوا عن المسْتَوى الذي تَحَقَّق من التجْرِبة واكْتفوا بالنتيجة التي حصلوا عَلَيْها ، أو أن صدورهم قد ضاقت بعمليات الإبَادَة ، ونفذ صَبْرهم ، أو أن المدة الزمنية التي منحها العالم لهم قد انتهت .. وسواء أكان هذا أم ذاك .. فالنتيجة أن « التشيتنيك » قد احتشدوا حول (سربرينيتسا) مِنْ كل الاتجاهات وتمت تعبئتهم

الخارج ؛ فبعضهم يواصل التعليم العالي في كلية الدراسات الإسلامية بسرايييفو وبعضهم يُكمل دراسته في الأزهر أو غيره من الجامعات الإسلامية خارج البوسنة . وقد تخرج من تلك المدارس أو المعاهد العالية علماء خدموا العلم والإسلام وقاموا بالدعوة خير قيام وتركوا للأجيال القادمة تراثًا إسلاميًّا ضخمًا . وكان المسلمون مهتمين جدًّا بالمحافظة على إسلامهم وتلقينه للأجيال القادمة عن طريق المسجد والمدرسة ؛ وكانوا يحافظون عليهما رغم الأحداث القاسية التي مرّت بهم . (انظر : المسلمون في يوغوسلافيا تأليف : د / رجب يشار بويا . ص١٤٤ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

(١) يبعث المسؤولون في المجالس الإسلامية إمامًا إلى مساجد الأقاليم لأداء صلاة التراويح وممارسة مهام الوعظ والإرشاد الديني خلال شهر رمضان المبارك ؛ وفي القرى التي ليس فيها مساجد تُصلى التراويح في البيوت ؛ حيث يأتي أهل القرية التي ليس فيها مسجد إلى المجالس الإسلامية في الأقاليم فيُعيِّنون بيتًا واسعًا لأداء الصلاة ؛ والمسؤولون عن المجالس يعطون لهم تصريحًا ويبعثون إليهم إمامًا لأداء مهامه هناك . والإمام المبتعث لا بد له من تصريح رسمي من قِبَل رئيس العلماء للجماعة الإسلامية ؛ ويتعهد المرَخَّص له بالقيام بالمهمة ؛ وهذا التعهد يَنُصُّ في تصريحه على الكلمات الآتية : « يجب عليك العمل بجانب وظيفة الإمامة ؛ والخطابة ؛ والوعظ على تعليم الصغار والكبار مبادئ الإسلام ؛ وقراءة القرآن باللغة العربية » . (انظر : المسلمون في يوغوسلافيا تأليف : د / رجب يشار بويا . ص : ١٤٦ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

(٢) تهيئ المدارس الشرعية الطلبة وتدربهم من بعد السنة الدراسية الأولى على الإمامة والوعظ ، ثم توزع القادرين منهم في شهر رمضان المبارك ليؤموا المصلين في المساجد في صلاة التراويح وقيام الليل ، وهذا تدريب لهم على حمل الدعوة في المستقبل (انظر : تحركات إسلامية . تأليف : عبد الله كنون . ص ١٩٩ - ٢٠٦) - (المترجمة) .

بكامل قوتهم وعُنْفُوانهم ... كَانَ الموت يُحكِم قبضته على (سربرينيتسا) ويُضيق خناقه عليها .. يُطبق ضَغطَته الأخِيرة على صَمِيم قلبِها ... إنها قبضة الموت تحيط بقلب قلب البلدةِ ذاته .. الموت الماحِق قادم .. إنه يقترب .. يزحف نحونا .. يقتِرب أكثر .. صار قَرِيبًا .. قريبًا جدًّا .

كَانَت عملية اسْتِقْطابهم وجَمْعهم للزحف إلينا هي فقط ما أَجَّلَ موتي وسمح لي بأن أقوم لمرة أخرى بزيارة الدُّكتورِ (ماهميتس) . وللمرة الثانية ، في المستشفى . دخلتُ إلى نفس قاعة الانتظار التي انتظرتُ فيها سابِقًا حتى يدعوني الدُّكتور (ماهميتس) إلى مكتبه . إلا أنني كنت أرقُد هذه المرة مُمَدَّدًا على سرير في تلك القاعة . ولم أكن في انتظار أن يسمحَ لي الدُّكتور (ماهميتس) بالدخول . لم يكن في الغُرَفِ أمَاكن لاستقبال المرضى ، حتى إن مكاتب الأطباء أيضًا كَانتْ قَدْ تحوَّلتْ إلى غُرَفٍ لاستقبال المرضى ، هذا بالإضافة إلى قاعة الانتظار ... كنت قد أحضِرت إلى المستشفى مع جاري (شعبان) .. وكنت فاقِد الوَعْي مَغْشِيًا عَلَيَّ .. كُنْتُ أنا وجارِي شعبان نمثل آيَة إلهية ومُعْجِزَة مِنْ تلك المعجزاتِ التي تحدث في الحروب .. أعْجُوبَة من عَجَائِب الحربِ ، فقد كُنَّا معًا في مخبأ مُحَصَّن بشكل جيد جدًّا ، عندما هَبطتْ علينا قذيفة مُضَادَّة لِلدَّبَّابات وسقطت بيننا . مستنا مسًّا خفيفًا .. كَشطت جلودنا واندَفعَت نحو الأرض لتشقَّ طريقَها بقُوَّة في الطينِ ... كل ما أَتذكرُه هو فقط شدة توهج الوميض المفاجِئ لتلك القذيفة وانهيار المخبأ بعد سقوط القطع الخشبية المغطاة بالتراب ، وأننا قُذِفنَا لمسافة بعيدة بقوةِ الدفع الناجمة عن القذيفة .. قوة عظيمة قذفت بنا جميعًا .. نحن ومخبأنا معًا .. طرنا تقريبًا ... وكأن الأرض قد تقيأتنا ولفظت بنا خارج جوفها !!

بعد ذلك كنت في المستشفى ، وقد أحضروا لي قَمِيصي الذي كنت أرتديه في المخبأ أثناء القصف ... عرَضوه عليَّ لأراه ... بدا كما لو أنه قد صُنِعَ من أجود أنواع جلدِ النمورِ . كَانَت الصورة السلبية [1] لجلدِ النمر قد طبعت على جلدِي . بعد أن تَطَايَرَ البارود وانتشرَ من خلال ثقوب القميصِ ليتجمع ويلْتصقَ على جسدِي ،

(١) الصورة السلبية : النيجاتيف في علم الفوتوغرافيا - (المترجمة) .

وقد فعل الحادث فعلته مع (شعبان) بشكل مختلف .. كانت ألسنة اللهب قد لعِقَته ولحست النيران جلده .. وكَانَ يرقد مُمَدَّدًا على السريرِ المجاوِر لي ، جلده مُحْمَرٌّ [١] - كما لو كَان هنديًا من الهنود الحُمْر - وقد احترق شَعره بِالكَامِلِ وحَوَاجِب عينيه أيضًا !!

هناك احتمال واحد في الألف ألا تَنفجر قذيفة مُضَادَّة لِلدَّبَّابات . لكنها في حالتِنا ، انفجرت فقط لأنها أُطلقَت مِنْ مسافة قصيرة جدًّا . لو أن قذيفة مُضَادَّة لِلدَّبَّابات قد أطلقت مِنْ بُعد أربعمائة مترٍ ، فإن الحرارة التي تَنْبَعِث منها يُمْكِنُ أنْ تُذيب الفولاذ الصلْب كما يمكنها عند انْفِجارها أن تنسف دبابةً بأكملها وتعصف بها في مهب الرِّيح ... وقد أطلقَت تلك القذيفة الفتاكة علينا مباشرة مِنْ مسافة أقل مِنْ خمسين مترًا ! .. فَشطرتْ مخبأنا المصنوع من قطع الخشب والمخبأ بطبقة عليا من التراب ، وقطعته بسرعة ويسر كما تقطع السكين الجبن ، لكن لم يكن لديها من الوقت ما يسمح بارتفاع درجةِ الحرارة لتحرق مترين مكعَّبين (٢م٣) مِن الطينِ وتحيلهما إلى رماد ، وبانفجارِها ، حفرت الأرض وشَقَّت فيها مخبأ أعمق من ذلك بكثير .

* * *

كان على (شعبان) أنْ يَبْقى في المستشفى .. بينما خرجت أنا في اليوم التالي على مسؤوليتي الخاصة ، حيث أرغمتُ على التوقيع على تصريح بالخروج من المستشفى في حضورِ الطبيب المتَجهم [٢] الوَجْهِ (ماهميتس) .

بالإضافة إلى القذائف المضَادَّة لِلدَّبَّابات ، كَانَ لدى أولئك القائمين على إبادتنا وفرة في كل أنواع المقذوفاتِ ... كَانت القذائف تَسقطُ في قلب البلدةِ ذاتها ، بِمَا في ذلك القذائف التي كانت تُطلق مِنْ مسافة غير كافية .

كنا نَقتربُ مِن اللحظةِ الحاسمةِ في الدفاع عن (سربرينيتسا) .. وإن كان لا مفر من أن يَخترقوا خطوطَ دفاعنا ويَقتحموا البلدةَ .. فعلى الأقل لا يجب أن ألقى حتفي

---

(١) مُحْمَرٌّ : أصبح لَوْنه أحْمَر - (المترجمة) .

(٢) مُتَجَهِّم الوَجْهِ : عابِس مُقطبُ الحاجِبَيْنِ والجبين - (المترجمة) .

مذبوحًا في سريري .. لم أشأ أن أنهي حياتي مَنْحورًا في سريرٍ داخل قاعة انتظار في مستشفى !! ولهذا السبب وقَّعتُ ذلك الإقرار لأخرج من المستشفى على مسؤوليتي الخاصة وتَطَوَّعتُ في الجيْش – على الأقل – حتى أجعلهم يَدْفعونَ ثمنًا باهِظًا لحياتي ..

وفي الجِهَة المقابِلَة ، باتجاهِ نَبع [١] (غوبر) وصل تَقْرِير يشير إلى أن ثلاثمائة من « التشيتنيك » قد اخترقوا خَط الدفاع الأخير .. هذا التقرير تبعه بَيَان آخر على جهاز « موتورولا» [٢] يقول : إنه لا أحد من أولئك « التشيتنيك » خَرجَ حيًّا ، وإنه لم ينجح أحدٌ منهم في اختراق البلدةِ ، بل إنهم حَتَّى لَمْ يُقاتلوا ليدخلوها ... بل سُمِحَ لهم بدخولها ، فقد تُرِكوا ليجتاحوا البلدة وأُخْلِيَ لهم الطرِيق عَنْ قَصْد .

ولكن على المرء أن يتشبث حتى بالأملِ الأخيرِ ...

لهذا شرع خمسون من رجالنا في تسلق التل المرتفع [٣] ... كنتُ واحدًا منهم وانطلقنا لنصعد التلَّ زاحِفين .. كنا نحمل البنادق في إحدى يَدينا وبين أسنانِنا قُنْبُلَةٌ [٤] يَدَوِيَّة .. وفي اليَد الأخرى كنا نحمل ماسُورَة [٥] تصريف دخان المواقِد [٦] وقد عزمنا على أن نُطلق قذائف بنادقنا داخل مواسير تصريف الدخان . وبهذه الطريقة المبتكرة – وكمن ينفخ بالبوق عاليًا – سَتُصدر بنادقنا البسيطة صوت انْفِجار مخْتَلف عن صوت أيِّ سلاح معروف – صوت فرقعة مدوية كتَفْجِير صاروخ – وسَيَعتقدُ « التشيتنيك » بأن كل واحد منَّا مُسلح بسلاحٍ فَتَّاك ، سلاح أشد بطشًا وضَراوة مِنْ رشاشاتهم الآلية !!

كان العدو يُعلنُ عن وجوده المِميت فوق التلِّ بإطلاق قذائفهم القاتلةِ ، وفي كل مرة كانوا يَستعملون أسلحة أكثرَ دمارًا .

---

(١) النَبع : عين مياه متفجرة أو يَنْبُوع – (المترجمة) .

(٢) موتورولا :جهاز لاسلكي مُتحَرِّك يشبه الهاتف النقال – (المترجمة) .

(٣) التل : هَضْبَة مرتفعة – (المترجمة) .

(٤) قُنْبلَة : قَذِيفَةٌ مَحْشُوَّةٌ بِمَوَاد مُتَفَجِّرَة – (المترجمة) .

(٥) ماسُورَة : أُنْبُوب – (المترجمة) .

(٦) المواقِد : جمع (مَوْقِد) جهاز أو آلَة للطَّبْخ (فُرن) أو للتدفئة (كانُون أو مِدْفَأة) يتم توصيلها بمداخن المنازل الخارجية من خلال مواسير أو أنابيب حتى لا يتسرب الدخان الخانق إلى الداخل – (المترجمة) .

أخذت الأرضَ تُدوي وتَهتزُّ تحت أقدامنا . وقد صُمَّت آذاننا بسبب صوت المفرقعات المجلجِل وضجيج القذائف المروِّع . كنَّا - من خلال أجسادنا - نحسُّ بصرير [١] جنازير [٢] الدبابات الفولاذيةِ . لم نكن نرتج أو نَهتزُّ ، ولا نَتذبذبُ ، بل كانت أجسادنا تئز أزيزًا مُدَوِّيًا بسبب الجلبَة الناجمة عن تحرُّك الدبابات وارتطام جنازيرها الفولاذية بالأرض .. كانت ضربَات الجنازير على الأرض تصدر صَوْتًا غَلِيظًا ترافقه مجموعة أخرى من الأصوات المكتومة ، كانت أجسادنا على اتصال بتلك الضَّربَات من خلال فِرَاشنا الترَابِي المشتركِ على هذا التل .. كانوا قد نجحوا في تَسَلُّق التل بالدباباتِ - السلاح الوحيد الذي لم يطلقوا مِنْه حتى الآن .

وبَعْدَ ذَلِكَ ، سَيُطلقونَ جُنُود المشَاة ، وكما تُحرر الكلاب التي جرحت أعناقها الجنازِير الغليظة ، سيقْتَحمون أسفل التل كزَوْبَعَة [٣] هائِجة ، وقد جَرَّدوا حِراب [٤] بنادقِهم من غمدها ووضعوا سكاكينهم بين أسنانِهم .

وفي أيِّ ثانية سَيَندفع السفاحون كالفَيَضَان أسفل التل الذي نَزْحفُ نحن عليه .

ما الذي بوسعنا أن نَعمَله ؟ كان عددنا لا يتجاوز الخمسين رجلًا في مقَابل فَيالق [٥] الجيش الصربي المسلحة بالأسلحةِ الثقيلةِ .. والقادمة مِنْ (نوفي ساد) ، (فاليفو) و (أوزيتسه) ، مَشْفُوعةً بعصابات « التشيتنيك » وهم من السُّكانِ المحليِّين الذين يَحْملون السكاكينَ المشحُوذة [٦] الجاهزةَ للذَّبح ! لم يكن بوسعنا أن نفعل الكثير ولكننا قررنا أننا - على الأقل - سنتْحفَهم بِمُقَاوَمَةٍ وجِهَادٍ حتى الموت . وليكُن ما يكون !

وبينما كنا نزحف فوق التل .. كانت الكلمات تنتقل على امتداد تَشْكيل

---

(١) الصرير : صوت حاد يصدر نتيجة الاحتكاك - (المترجمة) .
(٢) جنازير : جمع (جِنْزِير) ، بِلْسِلَة وهي حلَقَاتٌ (مَعْدِنِيَّةٌ) مُتَّصِلَة - (المترجمة) .
(٣) زَوْبَعَة : إعْصار أو عاصِفَة - (المترجمة) .
(٤) حربة البندقية (سونكي) : حربة قصيرة تُركب على رأس البندقية - (المترجمة) .
(٥) فَيالق : جمع (فَيْلَق) وهو فئة أو قطعة مِنَ الجيْش تتكون من فرقتين - (المترجمة) .
(٦) مَشْحُوذ : مَسْنُون - (المترجمة) .

مَجْمُوعَتنا ، الذي تَحوَّلَ إلى سِرْبٍ مِنَ البنادقِ الزاحِفَة ، أخذت الكلمات تتَدَفَّق ..

- « مرِّروها : استعدٌ للتكبير ! » .

- « مرِّروها : استعدٌ ! » .

- « مرِّر ... » .. وانْسابَت الكلمات أسفل التلِّ ، أخذت تتطاير فوق أجسادنا الزاحفةِ .

كُنا أسفل التلِّ ... على مسافة عشرة أمتار من قمته عندما سمعنا صَوْتَ القائد يهدر كهَزِيم الرعْد :

- « تكبير ! » .

لَمْ أتصور أبدًا أن أي رجل يُمْكِنُه أَنْ يَصرخَ بهذا الصوْت الهادِر والمرْتَفِع جدًّا . هذا الصوت لا يمكن أن يصدر ولا حتى من رجل أضخم ثلاثة مرات مِنْ قائدِ القوَّاتِ الصغِير الحجْم جدًّا (فريز) ! وعقب أن دَوَّى نداء (فريز) توالت الآلاف من الصيحات المدوية :

- « **اللَّه أكبر** ! » .

لم يكن الخمسون منَّا فقط هم الذين ارتفعت أصواتهم بالتكبير ، بل صدحت الغابة بأسرها من حولنا بالتكبير المجلجِل وتردد صدى « **اللَّه أكبر** » في التلال المحيطة أيضًا .

وقد أنستنا صرخات التكبير المروعة صوت مِدْفَعِيتهم الثقيلة وضجيج الصوت المكتوم لارتِطام جنازير الدبابات بالأرض !

كَانَ شَعري يَقِفُ منتصبًا حتى نهايات أطرافه .

لم أسمع بهذا الصوت في حياتي من قبل .. وساورني الشك .. هل أنا حيٌّ فعلًا ؟ .

جاءَت صرخة « **اللَّه أكبر** ! » مِنْ خلف ظهورنا ... مِنْ داخل قَبْر (سربرينيتسا) ..

لم أسمع أبدًا بمثل هذا الصوتِ الباعث على الصمم ، من المستحيل أنْ يَصدر ذلك الصوت عن خمسين حنجرة أو حتى أكثر بغض النظر عن حقيقة أن كُلًّا منًّا صَرخ بأعلى صوته ومِنْ أعماق رئتيه تمامًا كما صرخ (فريز) الذي أعطى الأمر بالتكبير عاليًا .

كُنا نركض منحدرين أسفل التل ، ووَجدنا أنفسنا بالفعل على الجانب المعاكس منه . لم نكن نحن الخمسين فقط من جعل الصوت عاليًا لهذه الدرجة بحيث يُسمع له ذلك الدويُّ الهائل . لقد تردد صدى التكبير عبر التلالِ المحيطةِ منطلقًا من مئات ومئات .. وآلاف مِن الحناجر البوسنية .

أنا لا أَعْرفُ بالضبط ما الذي حدث - ولن يَعْرف أي واحد أبدًا - لا أَعْرفُ ما إن كَان من الممْكِن في ذلك الوقت تَنسيق خطة دفاع حاسمة عن (سربرينيتسا) ، لكن ما أعرفه تمام المعرفة وبدرجة أكيدة أن كل مَنْ كان يسمع صوت التكبير كان يلْتَحق في ذات اللحظة بقافلة المكبرين ..وأن صوت التكبير عندما كان يظهَر في مكانِ ما كان كل من يسمعه يضَمُّ صوته إلى صوت التكبير الجماعي المجلجل .. أعتقدُ أن نواميس الكون قد اسْتَجَابَت لمالك الأكوان وتحولت في تلك اللحظة إلى أدوات طيعة تحقق اسمين من أسماء اللّٰه الحسنى على هذه الأرض .. « اللطيف » و « الرحيم » ... هذا كل ما أعْرِفه بحسب ما سمح لي اللّٰه أن أعْرف ... كما أعرف جيدًا أن الصرب قد دُحروا للخلف وتزجعوا إلى مواقعِهم الأصليةِ .. وأعْرفُ أيضًا أن (سربرينيتسا) كانت مَحْمِيَّة ومَصُونة حتى تلك الليلة !

ولست بحاجَة لأن أعرف المزيد .. ولا يَعنيني أن أَعْرفَ أكثر من ذلك .

* * *

أسأل اللّٰه أن يتَلَطَّف بقلبي المعَنَّى .. وأن يترفق بروحِي المعَذَّبة المعانيةِ ، وأن يكون قد كتب لها - في علم الغيب عنده - أن تلتقي بالرحْمَة في مكان ما في هذا العالم ... فهي تستحقُّها .

* * *

هناك إرهاصات [١] للشهادة .. فالشهداء [٢] يرون في مَنامهم علامة أو إشارة غيبيَّة تُنبئهم بقرب استشهادهم واقتراب مَناياهم .. إنهم يشعرون باقتراب

---

(١) إرهاص : إنذار مسبق أو إشارة غيبية تصدق فيما بعد . أو نذير بقرب حدوث أمر محذور أو شر - (المترجمة) .

(٢) شُهداء : جمع (شَهِيد) وهو المقتول في سَبِيلِ اللّٰهِ - (المترجمة) .

آجالهم [١] .. أجل إنني أعرف أن الشهيد يَرى في مَنَامه رُؤْيَا تُشير إلى اقتراب موعد استشهاده ... وأنا لم أحلم بعد بأنني قد مِت .. لهذا السبب تأكدت أنني ما زِلتُ موجودًا هنا في هذا العالم .. كُنتُ ما زلت على قيد الحياة حِينَمَا استعدت الوعي في ذلك الوضع الهَزْلِيِّ في قاعة الانتظار بالمستشفى ؟ لم أتَذَكر القذيفة المضَادَّة لِلدَّبَّابات . كانت قد مُحيت تمامًا من ذاكرتي ولم أستطع أنْ أتذكرَها .. كانت القَذيفة لم تصل بعد للسرعة اللازمة لتَفعيل قدراتها المدمرة فقد هَبطَت بسرعة هائلة في مخبئنا ... تَذكرتُ المخبأ ومحاولات الهُجُوم المتلاحقة التي شَنَّتها قوات المشاة من « التشيتنيك » للاستيلاء عليه .. وتعَجَّبتُ لأني وجدتُ نفسي في ذات القاعة التي زُرتُها مرَّة من قبل عندما كنت أنتظرُ أن يراني الدكتور (ماهميتس) . لكن أفكاري كانت واضحة وصافية بما يكفي لتَذْكيري بأنني ما زلت على قيد الحياة - ما زلت - أخذتُ أذكر نفسي بأنني لم أر في مَنامي شيئًا يُشير إلى اقتراب موتي .. تشبثت بقوة بتلك الحقيقة ... حقيقة أنني لمْ أر موتي في منامي بعد !

تَركتُ المستشفى والتحقت على الفور بجبهة المقاومة .. انضممتُ إلى عمليات الدِّفاع عن (سربرينيتسا) في ذلك التوقيت الحرج والخَطِير حتى لا أذْبَحَ وينتهي أجلي في سرير المستشفى ، كنت أعْرِفُ بأنني لن أقتل ... حتى حِينَمَا كنَّا نَصْعدُ زحفًا فوق التل الذي بدأت الأسلحة الثقيلة بإطْلاق الموتِ من فوقه .. كان لديَّ ذلك الهاجِس .. كنتُ أقولُ لنفسي بأنَّني لم يكن بمقدوري أن أحلم بأيِّ شيء .. وحتى إن كنت قد حلمت فلم أكن لأعرف أي شيء عن حُلمي .. ما من طريق لتذكر أو استرجاع ذلك الحلم . فأنا لم أكن بكامل وعيي ، وقد فقدت القدرة على تذكر أيِّ شيء حَدثَ بعد القذيفةِ المضَادَّة لِلدَّبَّابات ، بل إنني لَمْ أَتذكَّرْ حتى القذيفة المضَادَّة لِلدَّبَّابات ذاتها ... أذكرُ فقط وميضها المفاجِئ !

لكن ماذا لو ... لو كان الحلم الذي يحمل إشارة لموتي قد برق في ذِهْني حينما كُنتُ أقبض على القنبلة اليدويةِ بأسناني ، حاملًا ماسورة الدخان بيَد بينما أسْحبُ بالأخرى بندقيتي ، وأنا أزحف على قدمِيَّ ومرفقِيَّ .. ماذا لو أن إنسانًا حلُم وهو غائب عن الوعي أو وهو في غيبوبة ، ثم لم يَستطع أن يتَذكر حلمه بعد ذلك ؟ تمامًا

(١) آجال : جمع (أجَل) وهو وَقتُ الموْت - (المترجمة) .

كما يحتاج الموتى إلى قليلٍ مِن الوقتِ ليدركوا أنَّهُمْ لم يَعُودوا أحياء بعد الآن ؟ ماذا لو ؟ لكنني أخذت أطمئن نفسي بأنه إذا كانت علامة الشهادة قد ظهرت لي في حلمِي بينما كُنْتُ فاقِد الوَعْي مَغْشِيًا عَلَيَّ ، فإن اللّه تعالى سيظهرها لي بطريقة أخرى ، سيظهرها اللّه لي بطريقته الخاصة . بالتأكيد سيفعل اللّه تعالى ذلك .حتمًا سيفعل ذلك ! أنا لا أشك في هذا لثانية واحدة .

ولكن ماذا لو كنتُ ميتًا بالفعل ؟

ماذا لو أنَّني كنتُ « شهيدًا » بالفعل عندما كنت أَصْعدُ فوق ذلك التَّلِّ زاحفًا على قدميَّ ومرفقيَّ ؟!

ما زلت أعتقد بأنه من المستحيل لقذيفة مُضَادَّة لِلدَّبَّابات أَنْ تَخْتَرِق مخبأً ، وبينما تندفع وتتغلغل في الأرض لتَنْشيط وتفعيل حَشْوَتها الحرارية ، يتَبدد الانفجارُ وينطفئُ في الطين اللزِج ... إذ ليسَ من المعْقُول أن يؤدي انْفِجار ناجم عن تَسْخِين الحَشْوَة الحرارية [١] فقط - دون أن تنفجر الموادُّ المتَفَجِّرَة أو المادَّة الناسِفَة - إلى القَذْف بنا خارج المخبأ مع القطع الخشبية والطبقة الترابية العليا التي تغطيها .

وبغض النظر عن نوعِ الانْفِجار الذي قَذفَ بي خارج المخبأ - حتى وإن كُنْتُ لا أزال أرقدُ حيًا على سريرٍ في قاعة الانتظار بالمستشفى - فقد كَانَ من المستحيل أن أقفَ على قدمي وأنا في هذه الحالة .

ومن المستحيل أيضًا أن يُوافق أي طبيب على السماح بخروجي من المستشفى وأن يمنحني الإذن بمغادرة المستشفى وأنا في وضعي الراهن . كما أنه من المستحيل أيضًا أن يسمح لي زملائي الجنود بالانضمام إليهم في خط الدفاع الحاسم والحرج ، وأنا على هذا الحال ، ولا حتى أن يسمحوا لي بالاشتِراك في عمل أيِّ شيء .

كان كل ذلك مستحيلًا تمامًا كما كان من المستحيل لصوت التكبير أن يتَرَدَّدَ

---

(١) الحَشْوَة الحرارية : مادة التحمِيَة المحشوة داخل القَذِيفَة أو القُنْبُلَة والتي تعمل على تَسْخِين المَوَادُّ المتَفَجِّرَة ، وبالتالي تفجير القَذِيفَة أو القُنْبُلَة - (المترجمة) .

ويدوِّي صدَاه عاليًا في جنبات (سربرينيتسا) !

مستحيل !

وبشكل خاص ، كان تكرار التكبير على ذلك النحو الأسطوري أمرًا مستحيلًا .. كان المستحيل الأكبر بين المستحيلات العديدة التي حدثت .

ولكنه قد حَدثَ بالفعل ! .

* * *

عندما خَرجَت (تنزيلا) ، زوجة المرْحُوم (قادر قادريتش) رحمه اللَّه ، إلى الساحةِ الأماميةِ من فِنَاء الدَّار قُبيل المغرب مباشرةً ، ظَهرَ لها المرْحُوم (شفيق أوزونوفيتش) أفضل أصدقاء زوجها ظهر بجوار البِئر المدَمَّر .. كان يرتدي الزيَّ العسكري الأخضر اللون . وأخبرَها بأن عليها ألا تَخَافَ .. كان يتَكلم بطريقةٍ مُهذبة . وهي – كما لو كانت في غيبوبة أو مسحورة أصَابَها السحْر – كانت تُحدِّق في هَيْئَته المخضَرَّة [1] ، وصُورَته النصْف شَفَّافة التي تتراقص في قلب الضوْء الرمادي ... أخبرَها أن تبلغ رسالة إلى (فضيل) قائد كتيبتِهم ، رسالة تقول له بأن عليه ألا يُرسلَ المزيد من الهدايا إلى أمِّه (أمِّ شفيق) وأن يأتي لزيَارَتها بدلًا مِن ذلك ، وأن يأخذ إليها نسختين مِن القرآنِ الكريم إن كان يرجو أن يعوضها وأن يُبرئَ ذمته ويتحلل من وزره بَعْدَ أن أرسلَ ابنَها إلى الموت المؤكد .

واصل حديثه قائلًا :

– « نسخة لأمِّي والأخرى لَكِ » .

وعندما بدا لـ (تنزيلا) أنَّ صُورَة (شفيق أوزونوفتيش) النصف شفافَة بدأت تفقد شكلَها ، بَرزَت الصورة من جديد بشكل أكثر وضوحًا في وقت الغَسَق [2] .. ومن غبش الظلام ظهر (شفيق أوزونوفيتش) وطلب منها أن تُخبر القائد بأن التَّلَّة التي تسمى (هَضْبَة هيل) يُمكن أن تسقط وأن تَقع في يد العدو إذا وصلت رسالة

---

(١) مُخْضَرٌّ : اللون الضارِب إلى الخُضْرَة – (المترجمة) .

(٢) غَسَق : بَقِيَّةُ ضَوْءِ الشَّمْسِ بَعْدَ غُرُوبِها وبداية الظلام – (المترجمة) .

إلى المجاهدين (الغازين) [١] المسلمين في مُقَاطَعَة (سُوتيبسكا) تُبلغهم بأن عليهم المجيء إلى (ريتسكا) لأداء صلاة الجمعة في مسجدِها وقضاء الليلة هناك . وأن عليهم في الصباحِ أن يصلُّوا الفجر ثم يَبدؤوا على الفور بتسلُّق التلَّة وهم لا يزالون على وضوئهم .

قال لها (شفيق أوزونوفيتش) رَحِمَهُ اللهُ :

« وإذا أخبرك بأنه يَجِبُ أَنْ يُعيد المقاتلين - الذين حاولوا لأيام وليالي أن يستَوَلوا على (هَضْبة هيل) دون جدوى - لكي يحافظوا على المواقع التي تقع حاليًا تحت سيطرة المجاهدين في مُقَاطَعَة (سُوتيبسكا) وحتى لا يتركوا الجبهة الأمامية غير محصنة ، وبأنه أيضًا لا يَستطيعُ أن يتركَ موقعَهم الحاليَ تحت (هَضْبة هيل) مكَشوفًا وعُرضة للهُجُوم والمدَاهَمَة بينما المجاهدين مِنْ مُقَاطعَة (سُوتيبسكا) يغطون في نومهم ، فأخبريه بأنه يمكنه فعل ذلك - هو يَعْرِفُ جيدًا أنَّه يُمْكِنُه أَنْ يفعل ذلك - ويَعْرِفُ أنَّه قد تَرَكَني وحدي أثناء تنقل الوحداتِ للأمام والخلف - ذهابًا وإيابًا - تركني بدون أي تدخل .. وأسلمني لحشودِ « التشيتنيك » ... ولكن أخبريه بأنه يُمْكِنُهُ الآن أن ينقل القوَّاتَ بأمان تام ... فمع باكُورَة الفجر ، سَيتسلم مجاهدو (سُوتيبسكا) خط المواجهة الأمامي - المحِميَّ [٢] جيدًا أسفل (هَضْبة هيل) - منَّا ، ونحن سَنتولى الدفاع عن خطِّهم الأمامي في مُقَاطَعَة (سُوتيبسكا) أثناء غيابهم » .

وفي آخر لحظة من اللحظات الأخيرةِ .. استجَمعتْ (تنزيلا) زوجة (قادر قادريتش) رَحِمَهُ اللهُ الشجاعةَ الكافيةَ لتصرخ بالسؤال عن زوجها ! ولتسأل عما إن كان زوجها (قادر قادريتش) قد صار شهيدًا أيضًا . وجاءَها الجواب من ذلك الحيِّز من الفَضَاء الذي كانت تشغله صورة (شفيق أوزونوفيتش) قَبْلَ لحظة .. جاءها جواب غريب وغامِض على نحو لا يُصدَّق ولا يُمكن تخيله مُطلقًا ... سَمعتْ (شفيق أوزونوفيتش) يقول بأنه سيَجيءُ مرة ثانيةً إلى البئرِ ويُحْضَر معه الشهداء الذين يَعْرِفُهم !! وبأنه سوف يَكتشف هو أيضًا ما حَدثَ ... لم تستطع (تنزيلا) أن تفهم شيئًا !!

(١) يطلق أهل البوسنة المسلمون على المجاهد اسم « الغازي » تأثرًا بالثقافة العُثمانية ؛ حيث كان الزعيم أو الرئيس يلقب بالغازي أى المجاهد فى سبيل الله على سبيل المثال « الغازي خسرو بك » الذي سبقت ترجمته - (المُترجمة) .

(٢) المحِميُّ : الذي يقع تَحْتَ الحِمَايَة - (المترجمة) .

كانت (تنزيلا قادريتش) مفزوعةً وخائفَة إلى حد الموتِ .. حدث ذلك يوم الاثنين ، وقد قامت الليل بطوله إلى موعد صلاة الفجر يَوْم الثُّلاثاء وهي تدعو اللّٰه وتتضرع إليه بكل ما تستطيع من خشوع وتوسل . وحتى يوم الأربعاء لم تكن لديها الشجاعةُ الكافية لتروي لأحد ما حَدثَ لها قُرْب البِئر في الساحةِ الأماميةِ من فِنَاء الدَّار ، وفي يوم الخميس طرقَتْ على بابِي :

قالتْ :

- « المعْذِرَة .. أَنا آسفة ، لقد أمضيت الليل بطوله وأنا أُفكِّر ، ولكن كما لو أنَّ هناك شيء ما يدفعني لأن أثق بك .. قد لا تَتذكرُني . أَنا (تنزيلا) .. (تنزيلا) مِنْ (تسِيِرسَكا) ... وجدتي مِنْ (سربرينيتسا) كَانَت تحمل نفس الاسم رحمها اللّٰه . أعْرفُ بأنني قد أزعجتك حقًّا . بالطبع أنت لا تَعْرفُ بأنَّني كنْتُ هنا في (سربرينيتسا) .. جِئتُ مع حُشود اللاجئين مِنْ (تسِيِرسَكا) ... وقد تعَرفتُ عليك حتى دون أن أسأل أين تعيش وكيف تبدو سحْنتَك وهَيْئتَك الآن .. لكنِّي فضلت ألا أعلنَ عن وجودي .. بالأحرى لم أجرؤ على ذلك .. زوجي هو (قادر قادريتش) .. أرجو أن يكون بوسعك أن تَتذكَّرَ اسمَه ... لقد كنتما معًا عندما قُتِلَ . هذا هو مطلبي .. أود أن أسألك : هل كُنتما معًا ؟ هل كنت تَعْرفُه ؟ لقد مرت سَنَة تقريبًا على وفاته .. وقد سألْتُ كل من حولي ، لكن القصَّة تبقى مجرد قصة ... خصوصًا عندما تَتحدَّثُ عن هذه الحرب ... حيث لا يَستطيعُ المرء تَصْديق حتى ما تراه عينيه ! وقد فَكَّرت مليًا ، ورأيت أنَّني لا يَجِبُ أنْ أضيفَ المزيد إلى مَتَاعِبكَ ، لكن هناك شيء ما دفعني رغمًا عني وأوصلَني إلى بابِكَ . ربما لأنني لا أعرف أحدًا غيرك وسط كل هذه الفوضى الجنونيَّة في (سربرينيتسا) ، وأيضًا لأنك رجلٌ مستقيم ومُؤتمن وسليل إحدى عوائل علماءِ البوسنة الشهيرة والمحتَرَمةِ ؛ لذا قلت لنفسي : إنَّك ستَتفهم ... » .

ثم حَكَت لي كُلَّ شيء ..

كَانَ لدي نسخة من القرآن .. مُصحفٌ مكتوب باللغة العربية وبخط اليد [1] ..

---

(١) بعد الفتح العثماني أصبحت البوسنة جزءًا من الدولة العثمانية ، وقد كان للغة العربية مكانتها الخاصة في بلاد المسلمين كلها ، حيث حظيت بالعناية من العثمانيين الذين نشروها في بلاد البلقان بعد فتحها ،

وإلى جانب النصِ العربي كُتبت نسخَة مترجمة باللغةِ البوسنيةِ . كان شخص ما في عائلتِي ، جَدِّي أَو أبي ، قد أمِرَ بنَسْخ هذا القرآنِ مباشرة بعد أن تم نشر ترجمةِ معاني القرآنِ إلى البوسنية مِن قِبل رئيس العلماء [١] (تشَاؤوتْشَيفيتْش) و (بانجو) ، رحمهما اللّه . ومن المحتمل أن تكون هذه النسخة هي النمُوذَج الأخير في البوسنة لمخطوطة قرآنية مكتوبَة بخط اليد ، ومن المحتمل أكثر أنَّها كَانَت النموذجَ القرآني الأخيرَ المكتوب باليد وبأسْلوبين مختلفين في الكِتَابَةِ – الأصْلِيّ والبوسني جنبًا إلى جنب – تلك كَانَت هي نسخة القرآن الوحيدة التي أمتلكها ، والتي رَهنتها في أحلك لحظاتِ الضعفِ والحاجة المستميتةِ لنكهة التبغِ ، رَهنتها حتى يُمْكِنني أن أَشتري بَعْض السجائرِ ! .. فَقدَ كل شيء قيمته في (سربرينيتسا) حتى الذهب . كان هناك نَقْص وعَجْز في كل شيء ، ولكن كان الافتِقَار أشد ما يكون إلى الماركات الألمانية .. كانت تلك الماركات هي السلعة الأكثر نُدْرَة وشُحًا في (سربرينيتسا) .. حيث احتفظ المارك الألماني دون غيره من العملات بَشيء من قيمته ، لكن لم تكن هناك أي وسيلة يتمكن من خلالها الأقارب الذين يعيشون خارج (سربرينيتسا) من إرْسال الماركات إلى أفراد عوائلِهم التي تعيش داخل (سربرينيتسا) ، كان ثَمَن عُلْبَة سجائرِ « المارلبورو » يساوي ألف مارك ألماني !! وقد اقْتَرَضت ذلك المبلغ ، وكانت الضمانة أن أرهن المصحف لجارِي – أحد المتَاجِرين بالحرب واسْتِغْلاليٌّ من الطراز الأول – وبذلك قدمت له ضمانًا أكيدًا بأنَّ

وانتشرت المدارس التي تعلم العربية في تلك البلاد وكثرت الدراسات والمؤلفات التي كتبت بالعربية آنذاك باعتبارها لغة العلوم الشرعية والعلوم الدنيوية ، كما كان كثير من العلماء والشعراء يتنافسون من باب إثبات الذات والاعتزاز بالقدرة على التأليف باللغة العربية – (المُترجمة) .

(١) رئيس العلماء (الريس Reis ul-ulema) : كبير أو شيخ الجماعة الإسلامية والرئيس الديني الأعلى للأمة الإسلامية في اتحاد الجمهوريات في يوغسلافيا ، وهو على رأس الرئاسة الإسلامية العليا ، وأكبر شخصية مسؤولة عن الحياة الإسلامية لأفراد الجماعة الإسلامية في يوغسلافيا (السابقة) ؛ وينوب عنه أحد أعضاء الرئاسة الإسلامية الذي تُعينه الرئاسة العليا ؛ وأحد واجباته إعطاء التصريح الشخصي لرؤساء رئاسات الجماعة الإسلامية الإقليمية وخطباء المساجد لقيامهم بأعمالهم الدينية وإصدار القرارت بشأن تعيين موظفي الرئاسة الإسلامية العليا ، ومؤسساتها وإنهاء وظائفهم ومن مهامه أيضًا إصدار التعليمات للعمل والنظر في الإنجازات وأعطال رؤساء رئاسات الجماعة الإسلامية الإقليمية في الجمهوريات ومديري المدارس الدينية . (انظر : دستور الجماعة الإسلامية الذي صدر عن الرئاسة العليا للأمة الإسلامية بيوغسلافيا ؛ وقد نشرته مجلة « غلاسنيق » التي تصدرها المشيخة الإسلامية لسراييفو) – (المُترجمة) .

أُعيد إليه نفس الكميةِ من نفس الصنفِ ونفس الماركة التجَارِيَّة للسجائر . وما كنت لأغادر بيتي قبل أن أدَخِّن السجائرَ كلها ، الواحدة بعد الأخرى ، إلى آخر سيجارة . أردتُ أن أهرب بالتدخين . لكنِّي لَمْ أستطع .

بعد أن تم استبدل جنود قوات الحماية الدولية الكنديين بالهولنديين ، هَبطَ سعر السجائرِ إلى حَدٍّ كَبير ، لَكنِّي حَصلتُ بالمقايضَة مَع أحد الجنود الكنديين على علبتين مِنْ الـ « مارلبورو » مقابل كانُون [١] نحَاسيٍّ مُوَشًّى ومُزَرْكَشٌ بالفضة ، كانون جديد لم يُستخدم ولم تمسَّه جَمْرة واحدة - ولا حتى رَمَاد الجمْرات - منذ شرائِه .. وأعطيتُ السجائر لجاري الذي قام بدوره بإعادة مُصحفي إليَّ وهو يقول : إن « الجار للجار » وبأنه كَانَ ينوي إعادة الرهْن لي على أية حال . قال ذلك بينما كان يتفحص السجائرَ بعناية ليحدد ما إن كانت ماركة « مارلبورو » الأمريكية الأصلية أَم أنها الماركة الروسية أو البلغارية ، التي تُروَّج في السوق السوداء مِن قِبل جنود قوات الحماية الدولية الأوكرانيين [٢] .

وهكذا ، عاد لي مُصحفي من جديد .. المصحف الذي تعُودُ ملكيته إلى جَدِّي الحاج الحافظ (رحمن بك جوزو) رحمه اللّٰه ، والذي وَجدته تحت أرضيةِ غُرَفِ الطابق العلوي مِنْ بيتنا .

---

(١) كانُون : مِجْمَرَة ، مَوْقِد - (المترجمة) .

(٢) يصف الكاتب الكبير (فهمي هويدي) السوق في البوسنة أثناء الحرب فيقول : « أما الأسواق فكانت من أعجب ما يراه المرء في زماننا . حيث لا يخطر على بال إنسان أن يجد سوقًا مفتوحةً في مدينة مغدورة ؛ لا تنتج ولا تستورد ؛ وإنما تقتات على هبات العالم وعطاياه . وأكثر من ذلك فقد انهارت عملتها شأن بقية عملات دول يوغسلافيا السابقة (كلها بالدينار) . ولم تعد وسيلة مقبولة للتعامل وحل المارك الألماني محلها . وكان التعامل في السوق بشيئين ثمينين هما : المارك والسجائر . وبضائع السوق أهمها سلع المعونة المهربة ، والقوات الدولية - الأوكرانية خاصة - هي التي تتولى التهريب إلى عصابات تقوم بالبيع في السوق السوداء ، وهذه السلع تتراوح بين علب الدقيق والسمن والزيت وقطع الجبن وبعض الخضر والفاكهة التي يزرعها البعض حول بيوتهم . والمقايضة بالسجائر هي الأساس ؛ ولذا تجد أناسًا جالسين ، وقد رفعوا ورقة كتبوا عليها عبارة « سجائر كرانا » أي نستبدل الطعام بالسجائر . غير أن السلع القديمة كانت تحتل المساحة الأكبر من السوق ؛ وهي خليط من الملابس والأحذية المستعملة والأدوات الطبية ؛ بل إنني وجدت رجلًا طاعنًا في السن يعرض للبيع صنبورًا للمياه لم تعد له به حاجة في ظل انقطاع المياه » (انظر : مقال بعنوان سراييفو المدينة المصلوبة : فهمي هويدي) - (المُترجمة) .

لم يخل هذا البيت من مصحف لم يكن يومًا بدون مصحف ... فمنذ أن اعتنقَ الإسلام أول فرد من أسلاف عائلة (جوزو) البعيدين جدًّا جدًّا وعبر الأجيال كانت تلك العائلة الشريفة تلد حافظًا من حُفاظ القرآن الكريم في كل جيل ... ومن البديهي أنها كَانَت دائمًا تمتلك نسخة من القرآن أيضًا . واليوم وفي عهد الجيل الأخير من عائلة (جوزو) العريقة - التي صار اسمها الجديد (جوزيتش) وفقًا لقائمة الإحْصَاء السكانيّ [1] الذي قام به الموظفون الرسميون في الإمبراطورية النمساوية - المجرية - للإحْصاء السُّكانيّ - السيَاسيّ لـ (بنيامين كاللاي) [2] بهدف تحديد تعداد سكانِ البوسنة ... حيث أدرجَ اسم والدي تحت اسم (جوزيتش) في ذات الوَقْتِ الذي كَانَ فيه أبيه وجَدِّي الحاج الحافظ (رحمن بك جوزو) يُريقُ دمه في سبيل صاحب السُّمو الملكي أمير النمسا وملك المجر - أتَصَوَّر أنني سأكونَ ذلك الشخص من عائلة (جوزو) الذي سيحرمُ هذا البيت من القرآنِ ...

ياللمستوى الذي انحدرت إليه تلك العائلةُ العريقة ! أنا ، ابن العائلة الذي يعمل كمسَّاح أراض فحسب ، والذي لم يحفظ القرآن الكريم أفرط في النسختين المتبقيتين مِن القرآنِ الكريم !

لو لم أضطر لانتزاع الألواح الخشبية من أرضية الطابق العلوي حتى أُلقمها للنيران خوفًا من أن يقتلني الصقيع في بيت العائلة القديم ، لبقي مصحف الجدِّ محفوظًا في البيتِ . ولما انزلقت إلى أسخف طريقة للّهو والتسليةِ وتمضية الوقت بِلا جَدْوَى ، من

---

(١) الإحْصَاء السكّانيّ : جداول تعداد السكان - (المترجمة) .

(٢) بنيامين كاللاى (Benjamin Kallay) : مؤرخ وخبير في التاريخ السلافي الجنوبي ، ومؤلف لتاريخ مُعتمد عن الصرب . وهو أيضًا دبلوماسي وأحد أبرز صناع السياسة في إمبراطورية النمسا والمجر ؛ تولى وظيفة وزير المالية المشترك من (١٨٨٢ - ١٩٠٣م) . وكانت له سياسة بوسنية عامة ، تنحصر في عزل البوسنة عن الحركات السياسية القومية بكل من صربيا وكرواتيا ، وتطوير الفكرة الداعية إلى قيام القومية البوسنية كعامل منفصل وداع إلى توحيد الصف . وعندما طُرحت فكرة استيلاء إمبراطورية النمسا والمجر على البوسنة للمناقشة في (١٨٦٩م) كان ضدها وعارضها هو ووزير الخارجية في ذلك الوقت جيولا أندراسي (Gyula Andrassy) ؛ وكان يشغل آنذاك وظيفة القنصل النمساوي في بلجراد . ولم يكن يريد للنمسا والمجر أن تبهظ عاتقها بثقل مليون أو ما يقارب المليون من السلاف (انظر : شوجار : Sugar Industrialization of Bosnia ص : ٢٠) - (المُترجمة) .

خلال محاولة حَلِّ رموز الشفرة الخاصة بوثيقة كُتبت بلغة قديمة تنتمي لعصور بائدة ، لو لم أنتزع تلك الألواح الخشبية لما انشغلت بتلك التسلِيَة التافِهة بينما كنت أنتظر الموت في الوَقْتِ الذي كانت فيه (سربرينيتسا) المحاصرة تحْتَضر وتُنازع سكرات المَوْت .

لو لم أعثر – بمحض الصدفة – على مصحف جَدِّي ، لكُنْتُ قد فرطت في النسخة الوحيدةِ من القرآن المتَبَقِّية بالبيتِ بعد أن أعطيت نسخة القرآن المزودة بترجمةِ (تشَاؤوتُشَيفيتْش) و (بانجو) لـ (تنزيلا) مُعتقدًا بأنَّ تلك كَانتْ النسخةَ الأخيرة المتَبقِّيَة بالبيتِ .

لو أنِّي لم أترك لنفسي العنان لتمضي الوقت بِلا جَدْوَى في محاولة فكِّ مغالق تلك الوثيقة القديمة واكتشاف معاني رموزها الغامضة التي كُتبت بلغة قديمة كانت تستخدم منْذ عصور سحيقة ، لفقَدت –منذ وقت طويل –كُلَّ معنى لبقائي على قيد الحياة بينما كانت (سربرينيتسا) تحتضر .

عزرت قراءتي المتمعنَّة لمذكرات جدي من اعتقادي بأنني – بِاعْتِباري الناجي الأخير وآخر من تبقى في الحلقة الختامية من مسلسل نجاة عائلةِ (جوزو) العريقة – يَجِبُ عليَّ ألا أدمغ سيرتي بختم الكُفْرِ وألا أختتم حياتي بالانتحار ؛ لأن آخر فرد من سلالة (جوزو) يَجِبُ أن لا يَختفي مِنْ هذا العالم مُنتحرًا ... وَلولا قراءتي لتلك المذكرات لرُبَّمَا كُنْتُ سَأقدم على إنهاء حياتي بيدي .. هذا إن لم يكن هناك رصاصة الآن تحمل اسمِي بِالفِعْل .. وتنتظر أن توقفَ قطار حياتي .

ربما أنني أَخْدعُ نفسي باعتقادي أن ذلك هو السبب الوحيد الذي منعني من الانتِحار . وأن قراءتي لتلك المذكرات كانت سبب بقائي على قيد الحياة حتى الآن .. وقد يتكشفُ لي شيء آخر ، تمامًا كما كانت (شهرزاد) تُطِيل أحداث القصَّةِ وتمطُّها لتمُدَّ من عدد الأيام المتبقية لها في هذه الحياةِ ، ثم أنقذت حياتها بهذه الطريقة ... رُبَّمَا كانت تلك المذكرات تحمل إشارة أو عَلامَة .. لا بدَّ أن يكون في ظهورها نوع من الإشارة – كما حدث مع (شهرزاد) – وكالإشارات التاريخية

التي فُقِدتْ - أو بالأحرى التي قاموا بإخفائها وطمسها - حول موت أكثر من (سربرينيتسا) عبر قرون من الزمان !!

وهذه المرأة أيضًا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ إشارة المرأة التي كَسرَت قلبي منذ عهد بعيد ، والتي بسببها غيَّرت مسار حياتي وقررت بعد التخَرُّج مِنْ مدرسة العلوم الشرعية ألا ألتزم بتحقيق أمنيةِ جَدِّي وألا أنفذ وصيته التي أوصاني بها وهو يحتَضر .. أردتُ أَنْ أقوم بشيء آخر ... أن أقوم بالأشياء على طريقتي الخاصة . أردتُ أن أكُونَ مَعها ؛ أن أتزَوجها وألا أواصل تعليمي .. أردت البَقاء كإمامٍ في مسْجد في قريتِها ...

أَعْرِفُ بأنَّ ظهور تلك المرأة كان إشارة ... وأنه لَيسَ من قبيل الصُّدفَة أن تأتي إليَّ بقصَّتِها الغريبة .. فأنا الوحيدُ الذي يَعْرِفُ أنَّ قائد الكتيبةِ (فضيل) قد أرسلَ (شفيق أوزونوفيتش) رحمه الله إلى موتِه المحتم ؛ كنت ثاني اثنين يعرفان تلك الحقيقة .. أنا وقائد الكتيبةِ فقط من يَعْرِف ذلك في هذا العالم ... وكذلك (شفيق أوزونوفيتش) رحمه الله كان يعرف أيضًا . ولست أدري ما الذي قصده (شفيق أوزونوفيتش) عندما كان يقول لـ (تنزيلا قادريتش) بأنه سَوف يستَكشفُ الأخبار حول ما إن كان زوجها شهيدًا .. لا أعْرفُ ما الذي سَيَراه عندما أخبرَها بأنَّه « سيَرَى » ، لكن الشيء الوحيد الذي أَعْرِفُه وعلى نحو أكيد هو أنَّ (قادر قادريتش) ليس بشهيد . وأنا أعْرِفُ بِأن هذه المرأة قَدْ أرسلتْ إليَّ لكي أزيل هذا الالتباس وأصحح سوء الفهم ، ولهذا يمكنني أن أعْطيها المصاحف المطلوبة . قلت لها :

- « خذي هذه المصاحف إلى قائدِ الكتيبة وأخبريه أنني قد أعطيتُهم لك . أخبريه على نحوٍ عابِر أنني أعطيتُهم لك . وكما فعلت مَعي ، أخبريه بكل شيء كما حدث بالضبط ... وتأكدي من أن تُخبريه بأنني أعطيتُك المصاحف ولكن بشكل عابر وسَرِيع ، فبهذه الطريقة فقط سَيَكون أسرع كثيرًا في تقبل قصَّتِكَ وتصديقها . ولنْ يَرْفض الاستِماع إلى قصَّتِكَ ولن يتشكك في صحتها أو يَسمح لنفسه بالتدقيق والتحقق من القصَّةِ . ليس هناك وقت لإهداره . غدًا الجمعةُ .. صلاة الجمعة . و (سُوتيِيسكا) بعيدة عن ذلك التل الذي من الضَّرُوري أن يتم الاسْتيلاء والسيطرة عَلَيْهِ ، حتى بالنسبة للمجاهدين » .

وقد أَخذت المرأة بنصيحتي . وكذلك فعل قائد الكتيبة .

وعقب صلاة الجمعة أمضى المجاهدون من (سُوتيبسكا) ليلتهم في مسجد (ريتسكا) ، وفي صباح يوم السَّبت ، ومع انبلاج نور الفجر ، لمْ يَجدوا « التشيتنيك » تحت التل أمام خط دفاعنا الأمامي . وقاموا بالزحف في الخفاء وعلى نحو مُستتر بامتداد المنطقة المقطوعة الأشجار في الغابة (الفسحة) أمام الخنادقِ وبعد ذلك تَسلقوا الجانبَ المنْحدر من التلِّ .

لا يُمْكن أنْ يرونهم مِنْ ذلك الجانب من التل ، ولم يَتوقَّع « التشيتنيك » مَجيئهم مِنْ ذلك الاتجاهِ . وفوق القمةِ ، على السهل الواسع المرتفع من التل ، توقعوا أن يلتقوا وجهًا لوجه مَع « التشيتنيك » ... ولتسقط الشظايا حيث شاءت !

لكنهم لم يجدوا أحدًا على قمةِ التلِّ !

ومع بزوغ شَمس النَّهَار ، رَأى « التشيتنيك » المواقعَ البوسنية الفارغة .. وانطلقوا بسرعة فائقة –كما لو كانوا يطيرون – إلى أسفل التل ، ظنًّا منهم بأنهم سيحظون أخيرًا بمواقع المدافِعين عن (سربرينيتسا) ، وسوف يستولون عليها ويحْتَلُّونها .. كانوا قد انتظروا ليلة بطولها قبل أن يظهرَ لهم أن الحراس قد تَخَلوا عَنْ الخنادق وأنها الآن مهجورة وخاوية لا أحد بداخلها ، ثم انتظروا إلى مَطْلَع الفَجْر ، حتى يُمْكِنهم أن يَثقوا تمامًا بما تراه أعينهم وهو أنه لم يكن هناك أحد بتلك الخنادقِ ، وبعد ذلك هَبُّوا مُسْرعين – طاروا تقريبًا – إلى أسفل التل .

في تلك اللحظة ، سيطرَت إحدى مجموعات المجاهدين مِنْ (سُوتيبسكا) على موقع « التشيتنيك » الذي تَخَلُّوا عَنْهُ للتو واختبأ جزء من المجموعة خلف الأسلحة الثقيلة المتمركزة فوق التل ، وركض الجزء الأكبر المتبَقي من المجموعةِ خلف « التشيتنيك » أسفل التل . وبدأ أفراد « التشيتنيك » يتسَاقطون أمَامَ المجاهدين كما تتساقط عيدان القَصَب المجزُوزة [1] ... وعلى طول الطريق ، كان الأولاد في (سُوتيبسكا) يَتعثرونَ بجثثِ « التشيتنيك » ... ولكن نظرًا لأنهم كانوا مُسرعين

(١) مَجزُوز : مَقْطُوع أو مَقْصُوص بآلة حادة – (المترجمة) .

وعلى عجلةٍ من أمرهم - ليضمنوا عدم هروب « التشيتنيك » وليتأكدوا من أنهم لن ينجوا بحياتِهم - فلم يكُنْ لدَيهمْ وقت للتفكير أو ليتساءلوا عما كان يفعله من نجا من « التشيتنيك » والذين نجحوا منهم في الْهَرب على المنْحَدَر .. لم يُفكروا فيما يحدث عند ذلك الجانِب المائل من التل !! .

* * *

سواء أكُنْتُ حيًّا أَم أنني كُنْتُ ميتًا بالفعل ، فليس لديَّ أدنى شَكٍّ بأنَّني كُنْتُ شهيدًا .

في حالتي هذه عاينت مرحلة جديدة مِنْ تجربتي الشخصيةِ للموتِ ... أَم أنها محاولة عبثيَّة للتلاعب بالغيب والأسرار القدسية ؟ تلك الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الخالق العظيم ، والتي ليس عليَّ أن أقحم نفسي في غياهب أسرارها وأزج بها فيما تعجز عن إدراكه ، فتلك أمور من اختصاصات الإله وليس لأحد أن يتَجَاوز حدود معرفته البشرية أو أن يحاول انتهاك الغيب بأي حال ؟ وعلى الرغم من أنني لَستُ بريئًا ولست على الحيَاد تمامًا بهذا الخصوص وأنني أبدو متورطًا في التجديف بكلام كفر قد يُخرجني من المِلَّة ، إلا أنني أثق بنواياي الشريفةِ التي لا يُمكنُ بأي حال أنْ تَكونَ كافرةَ . وأثق باستقامة مُعتقدي وإيماني .. إِنَّني أؤمنُ باللَّه ، وملائكتهِ ، وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره ؛ ولذا فإنني أضَعُ ثِقَتِي المطلقة في لُطْف اللَّه ورَأفته ، وأسْتندُ بكل يقين إلى رحمتِه الواسعة .. إِنني أفوض أمري لمشيئته وأذْعن لأمره .. أنا أثِقُ تمامًا برحمة ربي .

أَتذكَّرُ حادِثَة حدثت في أيام طفولتِي .. كنت أجلس - نِصْف نائم - في جلسة أو حلقة مع مجموعة من الناس ، واستمعتُ إلى حكاية تحكي كيف أن اللَّهَ عاتب الدرويشَ [١] (جُنيد) [٢] بلُطف وأبلغه بأنَّه يُمْكِنُه أن يَكْشفَ للناسِ

(١) الدُّرويش (واحد الدَّراويش) : وهو المتصوف الزاهد ، والمقصود هنا العارف باللَّه الجنيد - (المترجمة) .

(٢) جُنيد البغدادي : هو أبو القاسم الجنيد بن محمد من أعلام التصوف وربما عند جمهرة المتصوفين ، هو رائد حركة التصوف وشيخ زمانه ، ونسيج وحده ، أصله نهاوند ، ومولده ومنشؤه ببغداد . صحب جماعة من المشايخ ، واشتهر بصحبة خاله السري ، والحارث المحاسبي . ودرس الفقه على أبي ثور ، وكان

افتِتانه وولعه بالذكر وذلك من خلال استمالته إلى المشى في الشارع وهو نَشْوان - في حال الجَذْب [١] - وعندما يَراه الناس وهو يَتمايل ويترنح ، سيَعتقدُون بأنَّه ثَمِل [٢] ، فأجابه الزاهِد المتَقَشِّف المتَنَسِّك :

« يا إلهي ، وكيف إن كشفت للناسِ مدى رحمتك .. وكيف وسعت رحمتك كل شيء ، كيف لو أنهم عرفوا عظمة رحمتِك .. لن يسجد لك أحد أبدًا ! » .

إنني أثِقُ برحمة اللّه التي لا تحدها حدود ، وأسأله أن يغفر لي عدم رضاي بقضائه مهما يكن خيرًا أم شرًا .. وأن يسامحني لأنني لست مُبرأ من الاجتراء على الخوض في علم الغيب الذي يخص اللّه وحده ، ولأنني حاولت أن أنتهك قُدسية الأسرارِ الإلهية التي ليسَ بمقدور أي إنسان الوصول إليها ؛ إنني أصلّي وأدعوه أن يسامحني لاعتقادي بأننا في (سربرينيتسا) - بعد كل ما تعرضنا له مِن قِبل الصرب - قد وَصلنا إلى أعمق أعماق جَهَنَّم .. وأن الشيء الوحيد الذي قد يَتكشف لنا بعد أعمق دركة من دركات النار هو الجنةُ ... فليس بعد الجحيم سوى الجنة !! .

ولكن ماذا لو لَم تكن الجنة أيضًا لَنا ؟ ماذا لو أنَّها لَيْسَت من نصيبنا ؟

وماذا لو أنني الآن بالفعل في جهنم .. وأنني أَكْتبُ هذه السطور وأنا ميت إلا أنني لا أدرك أنني قد مت وصرت في عالم الأموات ؟

* * *

ما حقيقة (سفيرنيوس فيراتوس) وامه (دوميتيا) ؟ هل كانا حقًّا من آل (أوريليوس) ؟! ... هل تسمَّى (سفيرنيوس فيرانوس) باسم الإمبراطور

يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة ، وهو المسؤول عن نقل التوحيد من ميدان علم الكلام بجفافه ومزالقه إلى الميدان الصوفي بوهجه واستنارته أو هو من نقل التوحيد من ميدان النظر العقلي إلى ميدان التجربة الروحية ، توفي عام (٢٩٧هـ) . ومن أقواله : « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام » . وقال : « من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » - (المترجمة) .

(١) الجَذْب : حالة من الوَجد والانْجِذاب الصوفي يصل فيها المجذوب إلى مرحلة النشْوَة والابْتِهاج غامِر والانفصال عن الواقع من فرط الوله والسرور - (المترجمة) .

(٢) ثَمِل : سَكْران أو مَخْمُور - (المترجمة) .

(ماركوس أوريليوس)[1] الذي وحَّد جميع المدن في إقليمي (دالماشيا) و (بانونيا)

(١) ماركوس أوريليوس MARC AURELIUS (١٢١ - ١٨٠م) : هو الإمبراطور الروماني (ماركوس أوريليوس أنينوس أوغسطس) ، ولد في (روما) في (٢٦ نيسان / إبريل من عام ١٢١م) . اسمه الحقيقي (ماركوس أنيوس فيروس) وهو سليل أسرة عريقة من أصل إسباني . والده هو (أنيوس فيروس Annius Verus) والدته (دوميتيا Domitia) . يُعدُّ واحدًا من خمسة حكام حكموا الإمبراطورية الرومانية يسمون « الأباطرة الطيبين في روما القديمة » . حصل جده القُنصل على ولايته الثانية التي عقدت في تلك السنة وامتدت على التواصل إلى مدة ثالثة في عام (١٢٦م) ؛ وهو حدث نادر في التاريخ البرينكيباتي يدل على منزلته لدى حاكم المدينة (هادريان Hadrian) . وقد أقبل الشاب (ماركوس) المحب للعلم على علم البيان واللغة وكل الكلام والفلسفة بطريقة جادة ؛ وقد لفتت موهبته الفكرية العميقة ومحبته المخلصة للفلسفة كل من حوله حتى إن الإمبراطور (هادريان) اهتم به وطلب من (أنتونينوس Antoninus) أن يتبنى الشاب (فيروس Verus) الذي سيصبح اسمه (م . إيليوس أوريليوس فيروس M . Aelius Aurelius Verus) . وأطلق عليه اسم « فيريسيموس Verissimus » وهو اسم يشبه اسمه الحقيقي مع تلاعب بسيط بالحروف ومعنى الاسم (الأكثر صدقًا Most truthful) ؛ وقد حظي (ماركوس أوريليوس) باحترام الشعب في سنه المبكرة ويبدو أنه ظلَّ في ذهن هادريان (Hadrian) كخليفة مُحتمل لفترة طويلة . وقد نجحت ترتيبات الإمبراطور (هادريان) للتخطيط لخليفة له ؛ وكان قد طلب من (أنتونينوس Antoninus) أن يتبنى الشاب (فيروس Verus) الذي سيصبح اسمه (م . إيليوس أوريليوس فيروس M. Aelius Aurelius Verus) وكذلك نجل خليفته (كومودوس Commodus) الذي سيصبح اسمه (ل . إيليوس أوريليوس كومودوس L. Aelius Aurelius Commodus) . كان عمر الأول يتجاوز قليلًا السبعة عشر عامًا والأخير كان ثمانية ، ثم خلف العرش بعد (أنتونينوس بيوس Antoninus Pius) الذي تبناه بناء على طلب الإمبراطور هادريان (Hadrian) . وعندما كان (كييونيوس كومودوس Ceionius) جزءًا من خطط (هادريان) للخلافة كان ماركوس خطيبًا لابنه الأخير . ولكن عندما توفي (كييونيوس) وأصبح (أنتونينوس) خلفًا لـ (هادريان) تم إلغاء هذا الترتيب وتم اختيار (ماركوس) لابنة الإمبراطور الصغرى (وستينا Faustina) التي كانت أصغر منه سنًّا بثماني سنوات . وقد تزوجا في (١٤٥م) ؛ الزواج الذي استمر ثلاثين عامًا . وقد ولدت له ثلاثة عشر طفلًا مات العديد منهم صغارًا . وقد حكم الإمبراطورية الرومانية من عام (٩٦م) إلى وفاته في (١٧ آذار / مارس عام ١٨٠م) كانت فترة حكمه طويلة ومضطربة وأظهرت بشكل أو بآخر ضعف الإمبراطورية الذي أدى في نهاية المطاف إلى « التدهور والسقوط » ومع ذلك فإن السمعة الشخصية لماركوس - بل قداسته - لم تسقط يومًا في عيون المعجبين به . وكان يُلقب بـ (ماركوس أوريليوس الحكيم) و (الملك الفيلسوف) ؛ حتى إن سمعته كفيلسوف فاقت اسمه كإمبراطور ؛ وتعود شهرته إلى كتاباته التأملية وفلسفته وأقواله الحكيمة . كانت حكم (أفلاطون) تتردد دائمًا على شفتيه وكان يردد دائمًا : « إن الدول لا تزدهر إلا إذا حكم الفلاسفة أو إذا كان الحكام فلاسفة » . وهذه السمات الشخصية لماركوس الإمبراطور هي ما أضفت عليه طابعًا فريدًا ولونًا مميزًا في صفحات التاريخ

وضمَّ إليهما مدينة (سربرينيتسا) التي لم تكن في أيٍّ منهما ، هل ينحدر وأمه من أصول ليبيرية ؟! ... هل كانوا من العبيد ثم تحرَّروا من الرِّق ؟ وما الذي تَعْنيه الكتابات المُبَعْثَرة : dicit, quiescere, aeturna sedes ، ماذا ؟ أم تُراهم ينتمون إلى أعراق أخرى إلى (Barbi باربي) ، أو (كاميني Caminii) ، (كاتيلينس Catilines) ، أم أنهم كَانوا من السلاف ؟ وماذا عن زوج (دوميتيا) ؟ وأبو (سِفيرينوس فيرانوس) ؟ .

* * *

ياللارتباك والالْتِباس ! إنني مشوَّشٌ تمامًا ومضْطرب من جميع الوجوه ... وربما أنني ببساطة قد أَلِفتُ كل شيء ولم أعد أحس بشيء ! ببساطة قد اعتدتُ على كل شيءٍ ! .

* * *

الروماني حيث كان أول إمبراطور يكرس حياته للفلسفة وحب الحكمة والبحث عن الحقيقة (الإمبراطور جوليان هو الثاني والأخير) . وتعود شهرته وسمعته الذائعة إلى مساهمة فلسفية ضئيلة الحجم كانت بمثابة يوميات سجلها أثناء المشاركة في الحملات العسكرية ؛ كانت عبارة عن كتاب « تأملات » صغير الحجم يمكن وصفه بأنه « الكتاب الذهبي الصغير » . ويعتبر أيضًا واحدًا من أهم الفلاسفة الرَّوَاقِيين (الذين يتبعون المذهب الروَاقِي) . فكان يؤمن بتقاسم السلطة ويميل إلى الصفح والتسامح ويعترف بصحة معتقدات الآخرين حتى إن تعدد الديانات في المدى الشاسع للإمبراطورية لم تسبب في عهده أي صعوبات للسكان أو الحكومة ؛ إلا أنه اضطر إلى خوض حملات عسكرية لا نهائية ضد البربر (الهمج المُغيرين من الشرق ، وقد أفشل في النهاية محاولة التمرد في الشرق بقيادة أفيديوس كاسيوس (Avidius Cassius) حاكم سورية . كما اتسمت ولايته بالحروب في آسيا ضد محاولات استعادة الإمبراطورية البارثيانية وضد القبائل الجرمانية على امتداد الأراضي الجرمانية (الألمانية) إلى بلاد الغال (فرنسا) وعبر نهر الدانوب – (المترجمة) .

الفَصْلُ السَّادِسُ

هكذا نجي (رحمن بك) مِنَ الموتِ الروسي بالدعاء في ساعة احتضاره

المذكرَات الثالثة لجدِّي [زمنيًا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الثانية]

كنا قد اعتدنا على صوت الطلقات النارية ، فقد كانوا - ولا شك - يُطلقون الرصاص .. يُخطئون تارةً ويُصيبون أخرى .. وكان الناس إما يُقتلون على الفور أو يُجرحون .. والبقية تُركت بحيث لا يمكنها أن تفعل أي شيء سوى مواصلة الحياة ... أما المدافعُ - وما أدراك ما المدافع !! - رُبَّمَا لأن صوتها أشد دَويًّا ولأنها تضرب الهدف من زاوية أوسع . فلا يُمكنك أن تعتاد عليها ، ولكنْ يُمكنك أن تَفقد سمعك وتصبح أصمَّ بسببها . ولكني أقول مُجَددًا : إنه من الصعب أن تُحدد أيهما أسوأ ، أَن تكون مُعرضًا لكُلِّ هذا الوابل من الطلقات النارية أو لتلك الحرب المسْلُولة من غمدها والهراوات [1] المُصلَتة بلا رحمة ، أم أَن تبقى محْميًّا في خندق مع بضعة من الرفاق ؟!

وعندما يحين وقت الهُجُوم فقط ، يتم تَكْلِيفكم بالأوامر .

أحيانًا كنا نَبْدأُ حَمْلَة الهجوم بواحد وثلاثين صفًّا مُزْدَوجًا مِن البَشَر . يتكون كُل صف من سبعين أو مائة أو خمسمائة منا . وأضْعَاف أضْعَافِ ذلك العدد من تلك الصفوف المزْدَوجة . أكْثَر بنحو ثلاثين مرة من عدد تلك الصفوف المزْدَوجة .. الصف تِلْوَ الآخر . وفي بَعْضِ الأحيان كان خمسمائة وخمسة عشرَ شخصًا مِنْ جانب واحد فقط يَتقدمونَ للأمام ... وتتراشق الشظايا عليهم من كل حدب وصوب .. وتسقط الطلقات حيث شاءت وكيفما اتفق ، وفي نِهَايَة اليَوْم تكون النتيجة النهائية مزيدًا من الجنود القتلى في جانب واحد أكثر منه في الجانب الآخر . وبهذا يصبح عدد الناجين في الجانب الآخر أكثر مِنْهم في الجانب الأول ... ولكن ليس هناك جانب منتصر .. فأولئك الذين انتهى إليهم العدد الأكبر من الجنود الأحياء ليس لديهمْ من القوة ما يكفي لأن يُكلفوا بمهمة أبعد مِنَ الخندقِ الذي

---

(١) الهراوات : جمع (هِرَاوَة) وهي عَصًا ضَخْمَة غليظة وقصيرة تعلق في خاصرة العسكر وتستخدم للضرب - (المترجمة) .

استولى عليه سابقًا ؛ أولئك الذين نجحوا في التراجُع إلى موقعِهم خلف خطوط الجبهة (لأنهم كَانوا أصحاب العدد الأقل من الجنود الأحياء) . في حرب الجبهات الأمَامِيَّة ليس هناك منتصرون . فأنت لا يمكنك التقدم أكثر عندما تُهاجم بحشد كبير من القُوات المسَلَّحَة المتباعدة والمنتشرة على نحو واسع . سلسلة بشرية استسلم بَعْض أجزائها وتفَسخَت أجزاء أخرى وانفصلت حلقاتها عن بعضها البعض . على أي حال ، كنا نصدُّهم وندحرهم للخلف . وهم بدورهم يَدْفعونَنا للخلف .. حتى اختلط الأمر علينا وعليهم فلم يدر أحد ما إن كان يجري لملاقاة العدو أم أنه يفر منه .. وفي كل مرة كان عدد الجنود يتناقص على كلا الجانبينِ . وليس في الأفق أي بارقة للنصر . فقط مزيد من الهراء والتفَاهَة اللامُتَناهية التي لا حَدَّ لَها !! .

عندما يجلس الصفُّ المزدوج القُرْفُصاء يُطلقُ كُل جندي رصاصتين ، وتلقائيًا وفي نَفْسِ الوَقْت يُطلقُ كُل جندي من جنود الصف المزدوج الثاني رصاصَتين وهم واقفون فوق رؤوسِ الصف الأول ، ويبقى الجنود في الصف المزدوج الأولِ في وضع القُرْفُصاء وقد تسلحوا بحِرابِهم .. وأولئك الذين من خلفهم ، إمَّا أن يَستطيعُوا التقَرْفُص لأسفل مرة أخرى وأن يطلقوا النار من جديد أَو أنهم قد لا يتمكنون من شحن أسلحتِهم بالذخيرة مطلقًا . بينما الرُّتب [١] والدفعات الجديدة من الجنود تهدر كهَزيم الرعْد وراء ظهورهم ، هذا يُظهر كَمْ كانت المسافة التي تَفْصلُ الجيشين المتقاتلين قصيرة ؛ ولهذا كانت الحراب دائمًا مُستعدة ومَسْحُوبة قبل أوانها .

رأيت عددًا هائلًا من الرجال يموتون أزواجًا أزواجًا ، كان الرجل منا يطعن رجلًا منهم بالحربة ، وفي ذات اللحظة يغمد رجلهم حربته في الرجل من عندنا ... لم يكن هناك ما يكفي من الوقت ليتمكن أحدهما من سَحْب حربته مِنْ جسد الجندي الآخر . بقيت الهراوات فقط . ولكن لم يكن هناك مُتسَع يسمح لأحدنا على الأقل بأن يستدير .. ولهذا السبب كَانت الحربة - مِنْ بين أسلحة العصور الوسطى - هي السلاح الأخطر والمميت في الحرب العالمية .

شَرَاب الرُّوم [٢] يملأ مخازن تموين الجيش ونحن يملؤنا الأملُ الكاذب في البَقاء

---

(١) الرُّتب : مجموعة مصفوفة من الجند - (المترجمة) .

(٢) رُوم : شَرَابٌ كحولي مُسْكِر - (المترجمة) .

على قَيدِ الحيَاة .

سأظل أعاني وأكابد وأتَحَملُ في هذا العالم حتى آخر الزمان وإلى يومِ الحساب ..
والخنادق ؟ يا للخنادق ! ... تلك القبور الحيَّة .. حيثُ يقبع الجنود في صمتٍ كامل بانتظار صدور الأوامر التي ستحملهم إلى الموت !! .

يبدو أن العالم قد تمدد هنا في شِبهِ جَزيرَةِ (جَلِيبُولِي) [1] بِالفِعْل – تمدَّد بِكُل ما في الكَلِمَةِ مِنْ مَعْنى – كما لو أن شخصًا عملاقًا قام بمط الأرض من أطرافها ! . ليس هناك أي تضاريس من تلك الموجودة في البوسنة . ولا أي معلم من المعالم يُمكن أن يَلفت انتباه العين . لا جبالَ ولا تلالَ أو أكوام ترابية ... لو كان هناك على الأقل أي شيء يرتفع قليلًا عن الأرض لأفسح المجال أمام الأمل بوجود أي شيء خلفه .. ولكان بوسع المرء أن :أمل بأن يلتقي ببقية هذا العالمِ المختبئ خلف ذلك الكيان المرتفع ... ولكن لا شيء هناك يمكنه أن يرتفع عن سطح الأرض .. لا وجود لغير تلك الأرض المسَطحة التي لا نهايةَ لها .. أرْض مُنْبَسِطَة مُتَرَامية الأطراف ولا يُمْكن أنْ تُدرك العين البشرية نهايتها ... مع العلم بأن مجال الرؤية لدى العين البشرية يمتد ليَصِل إلى مسافات أبعد قليلًا مِنْ تلك التي تصل إليها رصاصة بندقية أو قذيفةِ مدفع . كما أن عين الإنسان تسمح له بالرؤية بنفس المدى على امتداد كل الاتجاهات . وعلى امتداد الأفق ؛ ذلك الخط المتصل الذي يطوق الكرة الأرضية والذي تلتقي عنده الأرض بالسماء – سواء أكانا يجتمعان عنده ليلتقيا أم ليَطمس أحدهما الآخر ويمحو أثره – لم يكن هناك تَلة أو هضبة أو أي شيء مرتفع يُمكِنُ للمرء أن يتَسلى بمجرد التفكير في أن بقية العالم قد تكون مُختبئة وراء ذلك المرتفع .. وأن لهذه التلةِ أو الهضبة منحدرًا على الجانب الآخر ، وأن هناك أملًا بأن العالم قد يَتجلى من ذلك الاتجاهِ في لحظة ما .

الناس في البوسنة يعيشون بين التلالِ .. وكأنهم مَضْغُوطون ومَحْشُورون بإحكام

---

(١) جَلِيبُولِي أو جاليبولي (Gallipoli) : شبه جزيرة تقع على بحر إيجا ، في نهاية (ذي الحجة ١٣٣٢هـ = أكتوبر ١٩١٤م) دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا ضد روسيا ، فقام الحلفاء بحملة عسكرية ضخمة على شبه جزيرة جَلِيبُولِي بهدف إنشاء ممر بين البحرين الأبيض والأسود ، والاستيلاء على القسطنطينية لإنقاذ روسيا من عزلتها ، وتطويق ألمانيا ، غير أن هذه الحملة فشلت وانهزم الأسطول الإنجليزي وكانت كارثة كبيرة للحلفاء – (المُترجمة) .

بين تلك التلالِ أو كأنهم محتجزون وسط التلال والهضاب .. تطوقهم التلال .. تَلة وراء الأخرى .. وهم يسكنون في بيوتٍ مُتَرَاصة في أسفل تَلة وفوق التلة الأخرى . وكُلُّ مَعْلَم جغرافي يُعلنُ عن منطقة ريفية مختلفة ... أما في (جاليتسيا) [١] فليس هناك في أي مكان من العالم سماءٌ مكشوفة ولا أرْضٌ مُسْتَوِيَة بَطْحاء أكثر منها هنا في (جاليتسيا) . وكل هذه المساحة الجامِدة من الفراغ السخِيف بالإضافة إلى الارتفاع الهائل للسماءِ يُغرقُ المرء في غيبوبة من الإحساس الزائف بالراحةِ .. ذلك الإحساس الراكد الذي تمنحه تلك الأرض عندما تمتد بلا حدود ! .

ربما كان قَدَرنا أن نَجِدَ أنفسنا معزولين وَحدنا في هذا المكانِ المنْعَزِل الذي يبدو كعالم مُنْفَصِل عن العالم – عالم اسْتَقَل بذاته وتحول مؤقتًا إلى جحيم أرضي – حيث يعم الهدوء على أرض مدرجة بدماء جنود بائسين تؤثر قصتهم في جميع من سمع عنهم وعلم بأنهم كانوا يسيرون على جثث رفاقهم في مسيرة الموت بعد أن سقط الكثير من الرجال دون اعتبار لكيانهم ... هل قامت قيامتنا هنا في هذه المعْمعَة .. هذا البيمرستان [٢] .. هذا المَسْلَخ [٣] ؟ هل نحن هنا لنعاقب على كل الجرائم التي ارتكبها بقية العالم البعيد عن هنا ؟ في البوسنة وأماكن بعيدة أخرى ، قَدْ نُدرك أن مكاننا يُسمى (جاليتسيا) ، وبأننا دون الحاجة لأن نقول ، نَمُوت ، لكن حتى ذلك لا يُمكن تَخَيُّل كيف يمكن أن يحدث ؟ إنه كلاهما معًا ، عقاب اللَّه ورحمته معًا .

لَمْ يَعُدْ من المُمكن تمييز النقطة التي تنتهي عندها أطراف السماءِ ويبدأ مُسْتَنْقَع الوحل .. السماء مُكفهرة وعابسة .. ولا زال المطر ينهمر .. نوع من المطر لم نعرفه ولم نره في البوسنة . مطر يسقط بشكل لا نهائي ولا يتوقف أبدًا .. كان المطر الغزير

---

(١) جاليتسيا أو جاليشيا Galicia (أو روسيا الحمراء) : المنطقة الجنوبية الغربية من روسيا ، وقد ضُمَّت إلى النمسا بعد تقسيم مملكة بولندا في الفترة (١٧٧٢ – ١٧٩٥م) ، وكان التقسيم الأول عام ١٧٧٢م ، حيث ضُمَّت إلى روسيا المنطقة التي تعرف باسم روسيا البيضاء (بيلوروسيا) في شمال شرق بولندا . أما الأجزاء الجنوبية الغربية المعروفة باسم جاليتسيا أو جاليشيا (أو روسيا الحمراء) ، فضُمَّت إلى النمسا – (المُترجمة) .

(٢) البيمرستان : مستشفى المجانين – (المُترجمة) .

(٣) مَسْلَخ : مَذْبَح : مَجْزَر ، مَكَان لذبح الحيوانات – (المُترجمة) .

يمحو خَط الأفق حيث تلتقي السماءُ بالأرض ؛ ويُقلص مجال الرؤية ويختزل العالم في سَيْل مِنْ رصَاص البنادقِ وصوت دَوِي المدافِع .. والغناء ! حيث كنا نلجأ إلى الغناء كإشارة إلى أننا ما زلنا أحياء .. كنا نغني فقط ليعْرف كل منا الآخر بأنه على قيد الحياة .. وكذلك لنقطَع صوت المطرِ الرتيب ونعَطله قليلًا بصوت الغناء ... وهكذا كان اليوم يختلط بمزيج من الأصوات ... صيحات الغناء والانفجارات .. ثم المطر وما أدراك ما المطر في (جاليتسيا) !! ..

أخذت السماء تُمطر وتُمطر وتُمطر . ولا أي صوت آخر يُمكن سماعه غير صوت المطر . ولا شيء آخر يمكن رؤيته عدا المطر .. وسواء أحاول أحدنا أن يختلس نظرَة من خلال ثقب الخندق أم لا ، فهذا لا يحدث فرقًا .. فليس هناك سوى شيء واحد : مطر .. ومطر .. ومزيد من المطر ! .

ولِهذا بدأ الغناء ؛ ينطلق صوت الغناء من عندنا أو من عندهم . إذا بَدَأنا نحن بالغنَاء ، فإنهم يَستمعونَ للحظة وبعد ذلك يَبدؤونَ بالتصويب وإطلاق الضربات باتجاهِ صوت الأغنيةِ ... وبعد ذلك نُنصت نحن لبُرهة ونبدأ بإطلاق النار باتجاهِ ضرباتهم - لنُعلمهم بأننا لَسنا مُطْرِبين وأننا هنا للقيام ببَعْض عمليات القَتْل - وبعد ذلك ، يَبْدؤونَ هم بالغِنَاء . ونحن نَبْدأ بإطلاق الرصاص ... ثم صوت المطر . ولا شيء سوى المطر ... ثم يأتي الليل ويهبط الظلام ، وبعد ذلك يَتحول الليل ثانيةً إلى نَهَار وهكذا يتعاقب الليل والنهَار ... والمطر لا ينقطع في كليهما ... الثلاثي الرتيب .. الليل والنهار والمطر !

« إيه يا بوسنة .. يا بوسنتي الحزينة

وتلك تلالك وهضابك ..

يا أمَّنا العزيزة ..

ونحن .. أولادك حَسْرتك ولَوْعَتك ؟

أشهدُ أن البسمة ما عادت تعرف وجهك

وأن الأحزان الكبرى ملأت قلبك ..

وأن أمطار العالم لا تغسل حزنك ..

وأن أفراح البشر لا توقف دمعك .. »

ثم يَبدؤونَ بإطلاق النار .

ونحن نرد ببضعة طلقات .

ثم يُضيفونَ المزيد من الطلقات .

ثم المطر ...

ثم ، لا شيء ...

وبعد ذلك يحطمون الصمت بأغنيتهم :

« فولجا ، فولجا [١] ..

يا نهرنا الأم .. فولجا

يا أيها النهر الروسي

أوه ، فولجا ؟ » [٢]

ثم نَبدأُ نحن بإطلاق النار .

ثم يُجيبونَ ببضعة طلقات من جانبهم .

ثم نحن .

ثم هم .

ثم الأغنية .

ثم إطلاق النار المتَقَطع .

وبعد ذلك ، لا شيء ...

ومَرةً بَعْدَ أُخْرَى : تَعلَّموا هم أغنيتَنا ، كان بوسع أي شخص أن يلحَظَ الفَرْق بين

---

(١) نهر فولجا : نهر طوله (٣٦٨٤كم) ؛ وهو أطول أنهار أوربا في روسيا الأوربية ؛ وتسمى المنطقة باسمه - (المترجمة) .

(٢) أغنية شهيرة من الفولكلور الروسي تتغنى بنهر (فولجا) في روسيا ، وهي من أشهر الأغنيات التي ما زال يتغنى بها البحارة ، وقد أصبحت قصيدة نهر الفولجا من الأغاني الشعبية التي تردد في كثير من النوادي والحانات عندما يأخذ الطرب من روادها كل مأخذ - (المترجمة) .

أدائنا وأدائهم وأن يُميزه بشكل واضح وهم يقلدون إيقاع الأغنيةِ . كل ما هنالك أنهم كانوا يُخطئون في نطق كلمة (بوسنة) .. كانوا يقولون (باسنيا) ، لكن لا ذلك يهمُّ :

« إيه يا باسنيا .. يا باسنتي »

ونحن ، أيضًا ، تَعلَّمنا أغنيتَهم :

« فوجا ، أوه فوجا ؟ »

لَمْ يعُدْ بوسعي أَنْ أُمَيزَ مَن الذي يُغني تلك الأغنية نحن أم هم ؟ فنحن لَمْ نَعُدْ نحن . وهم لَمْ يَعُودوا هم .. وكل ما حولنا فضاء فسيحٌ من الغُربة .. كلا الطرفين غَرِيب .. كلنا غرباء في هذه الأرض الموحشة .. ترى كم هي المسافةُ مِنْ هنا إلى البوسنة ؟! وأين هي البلدات والقُرى في هذه المنطقة ؟! أوه .. إنها مُبعثرة على كل مساحة روسيا الشاسعة ... ويا لها من مساحة ... إيه يااااه !

لقد كنا نحن مجرد ملكية عامة لسمو الإمبراطورِ (فرانز جوزيف الأول) [1] ، وأعداؤنا كَانوا الملكية العامةَ لصاحب السمو قيصر روسيا (نيكولاي رومانوف الثاني) [2] .

---

(١) فرانز جوزيف الأول (Franz Josef-I) (١٨٣٠م - ١٩١٦م) : إمبراطور النمسا والمجر الذي حكم الإمبراطورية الثنائية خلال الفترة من (١٨٤٨م إلى ١٩١٦م) أي مدة تقرب من ٦٨ عامًا . وهو صاحب أطول فترة حكم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهو الذي كفل للنمسا دستورًا برلمانيًا لأول مرة في (١٨٦١م) . وفي أواخر حياته اغتيل ابنه (فرانز فرديناند) في (سراييفو) في (٢٨ يونيو ١٩١٤م) فأعلن الحرب على (صربيا) وقامت الحرب العالمية الأولى التي كان الجميع يظن أنها ستكون حربًا قصيرة إلا أنها امتدت لأربع سنوات وقتل فيها ثمانية ملايين إنسان - (المترجمة) .

(٢) نيكولاي رومانوف الثاني (Nikolaj Romanov - II) (١٨٦٨ - ١٩١٨م) : ولد في (١٨ مارس عام ١٨٦٨م) في مدينة (بوشكين) . وتوفي في (٢٩ تموز عام ١٩١٨م) في مدينة (سفيردلوفسكي) . تزوج عام (١٨٩٤م) من امرأة تنتمي لعائلة كبيرة وهي الأميرة الألمانية (ألكساندرا) . ووصل إلى العرش عام (١٨٩٥م) وادعى بأنه الحاكم ذو الحق المقدس . وبعد هزيمة بلاده في الحرب الروسية اليابانية عام (١٩٠٤- ١٩٠٥م) أجبر على الموافقة على الدستور . وفي عام (١٩١٧م) وعندما تبين حتمية النصر الألماني على روسيا نشبت ثورة أكتوبر (عام ١٩١٧م) ، ثم أعدمه الثوريون البلاشفة هو وأفراد أسرته عام (١٩١٨م) - (المترجمة) .

ومَنْ هؤلاء الذين نُطلقُ النار عليهم ؟ ولأي سبب ؟ يا إلهي ، لماذا أتيت بنا معًا إلى هنا ؟ لماذا نحن من بين كل الناس ؟ وهنا من بين كل الأماكن ؟ ما نوع الذنوب، التي اقترفناها لتُزهق أرواحنا هنا لأسباب لا علاقة لنا بها ؟ وإن نجا منا أحد ، فمَتَى يُمكنه أن ينسى كل هذا ؟ متى يُمكن أن تختفي كل تلك الأهوال من ذاكرته ؟ وسوف تنتهي هذه الأحداث سريعًا وستتناقَلها الأجيال على شكل نُكْتَة .. هذه المأساة سيتم تداولها كأضْحُوكَة لا أكثر .. كنكتة فَظة تشُقُّ طَرِيقَها عبر الأجيال وسيتندرون بها كما لو كانت مَسْخَرَة أو مَهْزَلَة !! .

لم يكن بوسعي أن أحملَ أي شيء على مَحْمَلٍ حَسَن .. لم أكن مُتفائلًا بالطبع .. ولم أتوقع أن يحدث لي أي شيء طَيب أو جَمِيل ... لا أستطيعُ أن ألوم القدر .. فأنا الملام الوحيد .. كَانَ عليَّ أنْ أعرف .. كَانَ عليَّ أَن أعرف مُسبقًا بأنني سأنتهي نهاية كهذه ... وبأنني - عاجلًا أم آجلًا - كنت سأُقع في الأسر .. إما أنني سأقع في الأسر أو أنني سأوقع نفسي فيه ؛ وحيث إنني فررتُ من الخدمة العسكرية في كتيبة الحراسة في (فينا) ، كان الشيء الوحيد الذي يُمْكِنُ أن أتوقعَه هو أنني سأُرسل إلى هنا إلى الجبهة الشرقية . هل تستحق خمس ليالٍ من الفُجُور في فندق G'nery بمدينة (بست) كل هذا العقاب .. ليلتين مع اثنتين من عاملات النظافة في غُرْفَة الفندق ، وليلة مع الخادِمَة وليلتين مَع سَيدَتِها ، هل في تلك الليالي الخمس ما يَكْفي من العِقَاب والجزَاء على هروبي مِنَ الحرَس الإمبراطوري ؟ وهَل يكفي وجودي في (جاليتسيا) للتكفيرِ عن ذنوبِي ؟ لا أَعْرِفُ . أنا لا أعْرفُ أيّ شيءٍ . على أية حال ، هذه الحرب مُقَامَرَة بالحياةِ .. والثمن الذي يتعين علينا دفعه في لعبة القِمَار تلك هو وجودنا البائس هنا في (جاليتسيا) . وهَل بإمكان (جاليتسيا) أن تغير ما كتبه اللّٰه على كل شخصٍ منذ البِداية ؟ أن تغير القَدَرَ والمصيرَ ؟ هَل كُتِب على (جاليتسيا) أن تكون المحطة الأَخيرة في حياة كل منا ؟ هَلْ قُدر لها أن تكون نهاية المطاف للجميع ؟

اللهم ارحمْنا وتلطّف بنا ؛ حيث لا يمكن أن يكون هناك أي خير فيما نحن فيه .

ثم قررنَا البَدْء بالتحرك .. موجات من صفوف الجند ، منا ومنهم ، بَدأتْ بالتقدُّم للأمام .كانت (جَلِيبُولي) مغمورة بالجنود . وبدأ الاقتتال المباشر بالأيدي ،

ولا شيء بعد ذلك .

استولينا على خنادقهم ... فتَراجعوا إلى خنادق خَط الاحتياط الخاص بهم ، ثم قمنا بدَفعهم للخلف أبعد من ذلك أيضًا ... وما زلت لا أرى أي تلال ولا حتى تَلة واحدة على مرأى البصر ... .فقط (جاليتسيا) ... ولا شيء سواها !! وبعد ذلك سيَعُودونَ إلى خنادقِهم ، ويُطاردوننَا وسيدفعون بنا إلى جَوف خنادقِنا ، التي حُفرَت قَبْلَ نِصْف سَنَة . وخلف خطوطنا - تمامًا كأمامها - هناك (جَلِيبُولي) !! ، ثم اشتبكنَا ثانيةً . وتبادل الأحياء منا مواقعهم . أَخذنَا خنادقَهم . وهم أَخذوا خنادقنا . قمنا بتغيير مواقعنا واتجاهات الهجوم ... يا لها من فَوْضى !! .

حملة من تلك الحملات التي تبدأ بالمذابح وتنتهي بالهزيمة ، من هذه الوجهة التاريخية يمكن أن نرى في حملة (جَلِيبُولي) مسرحًا لآخر الرجال الذين قضوا ضحية لنظرية خاطئة ... دون اعتبار لوجدهم وحياتهم ، كما كان يحدث في الحرب العالمية الأولى .

الخنادق والقبور . هما شيء واحد .. نفس الشّيء .

الخنادق ثم القبور .. القبور ثم الخنادق .

وهكذا تمامًا ...

فقط هكذا وعلى نفس المنوال ..

ويتكرر نفس المنوال ..

نفس المنوال وحسب ...

لا شيء سوى نفس المنوال اللعين ..

نفس الشيء وحسب ...

إلَى أنْ حَدثَ ذلك الشيء معي أنا . !!

أثناء حَمْلَة من الحملات يَعْلم اللّه وحده أي حملة كانت وإلى أين اتجاهها ؟ للأمام أم في الاتجاهِ المعاكس ؟ رُبَّمَا كُنا نُدافعُ عن الأرض التي اسْتَوْلَينا عليها ، أو نُحاول اسْتِرْداد الأرضِ التي فُقدتْ . المهم أنني كنتُ في منطقة اكتسحتها النيران .. أنا ومَعي

البندقية التي كُنْتُ أطلق منها الرصاص أو بالأحرى التي لم أستطع إطلاق الرصاص منها ... مَع البندقية التي قد تستطيع أن تطلقَ رصاصة وقد لا تَستطيع ... مَع بندقية مَشدُودة ومكسورة ... مَع بندقية في حالة تَشرِيح مِنَ الخِدْمَة ... بندقية كانت موضع نزاع فهي إما نمساوية ، أو روسية ، أو مجرية .. فقد أخذت كغنيمة أثناء الحرب وضاع نسبها الحقيقي ؛ كانت بندقية مَنْبُوذة مَرْمِية وقد استغنى عنها الجميع ؛ كنتُ أنا مَع تلك البندقية البائسة التي تبرق الحربة في نِهَايَتها !! .

كَيفَ حَدثَ ذلك ؟ ما هذا الذي يحدثُ ؟ أحدهم يقفُ فوقي . كُنْتُ مُمدًّا على ظهرِي ، غَارقًا في الوَحْل والطينِ . وكَانَ الرجلُ يلَوح بسَيْفه ويوجهه بالفعل نحو عنقي . ولكن كانت حربة بندقيتي فوق وجهِي وهذا ما مَنعَه من أن يرشق سيفه في حنجرتِي . كَانَ الشيء الوحيد الذي استطاع فعله هو أن يُدير سيفه بزاوية عريضة ويَشج رأسي . ثم استمرَّ في التَّلويح بِسَيْفِهِ ..

« أشهد أن لا إله ..

أشهد أن لا إله ..

أشهد أن لا ..

أشهد أن ..

أشهد ..

أش ..

.... »

كانت أحرف الشهادة تضطرم وتتذَبْذَب وفي جوفي ، كانت ترتج ، وقد تفككت وتقطعت أوصالها وذابت بداخلي .

حسنًا ، على الأقل ، سأتمتم بالشهادة قبل أن أموت وستكون تلك الحروف النورانية آخر كلامي من الدنيا .. وبهذا – فعلى الأقل – لَنْ أمُوت شريدًا بعيدًا عن موطني ككلب بائس !!

ظننت أنني كُنْتُ أرددُ الشهادة لنفسي وأنني كنت أقولها في سري . ولكن بدلًا

مِن ذلك ، اكتشفت أن الشهادة كَانَت تُدوي وتعلو من داخلي .

تَوقفَ السيفُ عن التلويح والتذبذب في الهواءِ . وسَألَني الرجل :

- « مسلم ؟ » .

وفي ساعة احتضاري اعترفت أمَامَه بأنني مسلم ...

- « مسلم ، مسلم ! » .

- « أشهد أن لا إله إلا اللّٰه » .

أخذتُ أعْلنها وأُكررُها وأجهرُ بانتمائي إلى دين الإسلام في آخر ساعة من حياتي ، بينما كَانتْ دموعي تجرفُ حبات المطر التي سقطت فوق وَجْنَتي [1] .

واستعمل الرجل الذي يقفُ فوقي نفس الكلماتِ ليعلن إيمانه باللّٰهِ :

- « أشهد أن لا إله إلا اللّٰه ... » .

حاولتُ أن أوضحَ وأن أشرح له بتحريك عُيوني نحوي وأنا أحاول أن أنْظر إلى نفسي قائلًا :

- « أنا رحمن » .

وأراد أن يوضح لي أنه مسلم وأن يُظْهرَ إسلامه أكثر ، فقال مُشيرًا إلى نفسه :

- « أنا عبد الرحمن » .

أحملُ أنا اسم « الرحمن » . وهو يحمل الاسم الذي يَعْني « خادم الرحمن » . ولكن كان كِلانَا في موقف لا يعكس معاني أسمائنا ، وكأن أسماءنا قد انقلبت بخلاف معانيها تمامًا ؛ على أي حال كِلانَا كان في حمايةِ وأمان أسماءِ اللّٰه الحسنى .

وهكذا وقعتُ في الأسرِ الروسي ، كُنْتُ تحت رحمة خادم أرحم الراحمين (عبد الرحمن) .. نجوت وبقيتُ على قيد الحياة وأصبحتُ خادمه العسكري . هو كَانَ سيدي (عبد الرحمن) ، هو خادم الرحمن وأنا كنت خادم خادم الرحمن !!

(١) وَجْنة : جانِبُ الوَجْه أو الخَد - (المترجمة) .

وقد عاملني (عبد الرحمن) بلطف وبشكل رائع وقَضيتُ وقتًا سعيدًا مَعه . حتى إن اتساعَ (جاليتسيا) الموحش بدا لي بشكل مختلف في صحبته ، وقد فتنت بقصصِه الساحرة عن (بخارى) و (سمرقند) .. لكنني كنت قد فُتِنتُ بدرجة أكبر - بقدر افتتاني بالبوسنة - بموطنه الأصلي (خُراسان) .

كان (عبد الرحمن) مِنْ بلاد فارس .. ! من (إيران) .. الأرض الأكثر بهاءً وجمالًا في خيال كل البوسنيين من بين كل الأماكنِ البعيدةِ . إنه مِنْ (خُراسان) ! ومِنْ هناك انتقلَ والده إلى (بُخارى) . وَقد أغرِم (عبد الرحمن) أيضًا بالأرض الجديدة ووقع في حبِّها ، وأخذ يتحدث عنها بلهفة عارمة وحماس متوقد ، وكان الحنين يتوهج في نبرات صوته ونظرات عيونه . لكنِّي كنت مفتونًا بـ (خراسان) ؛ لأنه تَكلمَ عنها أولًا . وأيضًا لأنه تَكلمَ عنها بلَوْعَة وحَنِين أكثر . ولكني في الحقيقة فُتنت بها أكثر من أي شيء آخر ، لأنني اعتقدتُ بأن عيني لن تقعا على حبيبتي (البوسنة) مرة أخرى مطلقًا .

« يا إلهي ، مَنْ يَعْرِفُ في أي أماكن أخرى من هذا العالم بذر اللّٰه بذور الإسلام ؟! »

ترى كم هي المسافةُ مِن (البوسنة) إلى (خُراسان) ؟! يااااه ، إنها أكثر مِنْ نِصْف المسافة عبر العالم ! .

ثم انتشرت الأخبار انتشار النار في الهشيم : انْتقلت سُلْطَة الجيش التابع لصاحب السمو قيصر روسيا (نيكولاي رومانوف) إلى القواتِ المنظمةِ لجيشِ روسيا السوفيتية !!

وعلى الفور خرَّ (عبد الرحمن) ساجدًا للّٰه ، وفي وَضْع السجود حيث يكون العبد أقرب ما يكون من اللّٰه ، بدلًا مِنْ أنْ يَقُولَ الحمد للّٰه .. تلفظ بالاستعاذة قائلًا :

- « أَعوذ باللّٰه من الشيطان الرجيم ! » .

وأضافَ :

- « يا إلهي .. كِلانَا يعتصم بك ويحتمي بقوتك .. كِلانَا عبيدك .. أنا وهذا البوسني (رحمن) .. ، الذي ظل يَتجوَّل ويجوب في أرجاء هذا العالم ليَمُوت من

أجل بلدان الآخرين وفي سبيل أديان أخرى - أرجوك يا إلهي أن تنزل رحمتك على عبديك وأن تتغمدنا بلطفك ورعايتك ! » .

وفي ذلك اليوم بالتحديد أصبحنا جنودًا في الجيش الأحمرِ ... صِرنا من الشياطين الحمر .

اللهم ارحمنا واحفظنا من الشياطين ! ومِنَ الشرِّ والمصائب ! اللهم قدِّر لنا الخير واجعل عاقبة أمرنا خيرًا ! آمين !!

كانت الإمبراطورية الروسية إلى زوال على أية حال .. فقد كانت تحتضر على فراشِ الموت ... كَانَت تخسر الحرب لصالح الحكم الأكثر قوة .. لصالح الإمبراطورية النمساوية المجرية ... واكتشف الروس - أولئك الـ (باتشوشكا) [1] - بأنه مِنَ الأفضل التخَلُّص مِنَ القيصر والانقلاب على ملكِه ، بدلًا مِنَ التخلي عن كل هذه البلادِ الكبيرةِ ... ولا يَهُمُّ أن تبقى (روسيا) نظامًا مَلَكِيًّا يحكمه القيصر أو أن تتحول إلى دولة شيوعية ، فالأهم هو الحفاظ على حدود (روسيا) .. كان الشيء الأكثر أهميةً أنْ تبقى حدود (روسيا) ... وهكذا اشتعلت الحرب بين الروس أنفسهم .. وبدأ الروس في الاقتتال مع بعضهم البعض .

كان صديقي (عبد الرحمن) يتوقع حدوث شيء ما .. ويشعرُ بأن أمرًا ما كَانَ يُدبر .. لكنه لم يكن قد عرف بعد بانسحاب (روسيا) من الحرب العالمية عندما قام بتسريحي مِنَ الخدمةِ العسكرية ومَكنني من الهرب ... رافقَني إلى الجانب الآخر من (جليبولي) تحت حماية رجالِ سلاح الفرسان « الخيَّالة » ، وتركني مَع زملائي البوسنيين على الجانب النمساوي .

قال (عبد الرحمن) :

- « ألاعيب روسية » ... إن انسحاب (روسيا) من الحرب ليس إلا « صفقة روسية ! » ... « إننا مُصابون بلعنة الروس ... ستُطاردنا لعنتهم على أي حال .. سَوف يستعيدونَ السلامَ فيما بَينَهم بسرعة ... بل وسَيَنتفعون من ذلك الاقتتال فيما بَينَهم .

(١) باتشوشكا bachushka : كلمة روسية تعني « أصدقاء » .

وبعد أن تضع الحرب أوزارها وينتهوا من تقتيل بعضهم البعض .. سَيَكُونُ من الأسهل توفير الغذاء لعدد أقل من الأفواه ، ومع ذلك سَيَبْقى عددهم أكبر منا بكثير ، وسَوف تَتحول كراهيتهم المتبادلة لبعضهم البعض في اتجاهنا .. وستنقلب الأحقاد والضغائن الدفينة فيما بينهم علينا نحن وبالتالي سيوجهون حِرابهم ضدّنا . لَنْ يَكُونَ هناك أي مسيحيين أرثوذكس إذا لم يكن هناك مسلمون !! إنهم يعيشون على كراهيتهم لنا .. فكراهيتهم لنا هي الوقود الذي يمد بقاءهم ووجودهم بالحياة .. إنهم يقتاتون ويتغذون على ضَغائنهم وأحقادهم علينا . صحيحٌ أن هناك اختلافًا صَغيرًا بين الصليب الأرثوذكسي والكاثوليكي ، لكن إن كان على المرء أن يختار بين شرين ، فعليه أنْ يَختار أقلهما شرًا ، عليه أن يختار أخف الضررين . وهذه الحرب التي تَبتلعُ (روسيا) لَيستْ حربَك . وهي ليست حربي أنا أيضًا ... لكنها ليست حربك أنت على وجه الخصوص . فبلدك بعيدة جدًّا مِنْ هنا . ابْق مَع النمساويين ... فأنت مَعهم ستكون أقرب إلى بلادك وسَتَصِلُ إلى البوسنة بسرعة أكبر » .

* * *

الفَصْلُ السَّابعُ

هذا الصباح لاحظتُ أن خاتم الزواج قد أصبح واسِعًا يتحرك بحُرية وسلاسة حول إصبعي . قبل الآن كان إصبعي مُكتنزًا باللحم ولم يكن بوسعي أن أخلع الخاتم منه . وها هو الآن يَدُورُ حول بنصرِي حتى مَع أقل حركة أو إشارة تقوم بها يَدي .

* * *

كان جَدِّي يتمنى دائمًا أن أذهب لاستكمال دِراسَتي في (فينا) .. فقد كان على علم بالاتفاقيةِ التي تسمح للبوسنيين بالدراسَة في (فينا) مجانًا لمدة مائة عام كمنح دراسية دون الحاجة لدَفْع مصروفات الدراسة . كانت هذه الاتفاقية قَدْ وُقعَت مِن قِبل النظام الرسمي للإمبراطورية النمساوية المجرية . وكان جَدِّي يشعر بالغُبن بسبب ذلك النظام الذي جرح مشاعره وأحزنه كثيرًا .. فعلى الرغم من أنه قد حاز على نِيشان [1] الحرب من النمسا ، إلا أنه بعد أن استلمَ الميدالية الذهبية تقديرًا لخدماتِه وشجاعته على جبهةِ (سُوتشكوم) ، اكتشف أن الميدالية لم تكن ذهبية ، بل كانت مطلية فقط بالذهب ، وقد استلم معها ضمانًا كتابيًا مِنْ (فينا) يتعهد بأن يتم استبدالها بعد انتهاء الحرب بأخرى من الذهب الخالص أو بما يعادل قيمتها نقدًا .. ولكن على الرغم من ذلك كان جَدِّي على قناعةٍ تامة بأن البلادَ التي يُمكِنُها أن تُنظمَ جيشًا كذلك الجيش الذي خَدمَ فيه والتي كان يعرف سُمُوها وعَظَمَة أمجادها حتى قبل أن يخوض تجربة الخدمة في جيشِها .. مثل تلك البلاد لا يمكن أن تَنهارَ بَيْنَ لَيلَةٍ وضُحَاها .

لم أكن أعلم بعدُ بوجود مذكرات جَدِّي بين صفحات المصحف الذي عثرت عليه تحت أرضية الطابق العلوي .. ولم أتوقع أو أشك للحظة بأن الحكم الملكي النمساوي كان قد انهارَ بالفعل في نظر جَدِّي ؛ لكن المرء يُمْكِنُ أن يُجازفَ وأن يُخمن أن جدِّي ببساطة أراد – على استحياء شديد – أن يحتفظ بكِبْرِيائه القديم ولم يرغب في أن يُظهر لأحد رأيه الحقيقي في ذلك النظام الذي أحبطه وخيب آماله .. لقد كتم ذلك الإحباط في نفسه منذ عهد بعيد .. وظل يتألم في صمت .. أتصور أنه كان يشعر بالخجل من إيمانه الساذج بذلك النظام – تمامًا كما ترغب العَرُوس الأكثر خجلًا بالقريةِ في أن تعرف حماتها بأنها ستدبر الأمور بطريقتها

(١) نِيشان : نَوْط أو مِيدَاليَة أو وِسَام .

الخاصة - وبالفعل كان جَدِّي (رحمن بك) كان خجولًا كعروس قروية وحييًّا كالعذراء في خدرها .. وكان كل سكان (سربرينيتسا) يعرفون ذلك عنه .. وكانوا يعتقدون أن عينيه لم تقعا يومًا على أي امرأة أخرى غير زوجته .. والحقيقة أن جدتي (تشَاميلا) زوجة (رحمن بك) ماتَت من الغيرةِ عندما عَرفتْ أنه قد تَزوجَ عندما كان في الأسرِ الروسي .

كانت جدتي تشتكي وتقول :

« وما كُنت لأبالي لو أنه ذَكرَ (مُنتيسكيرا) فقط .. المرأة التي لم يُنكر وجُودها في حياتِه ، ولم يُخفها عني عندما جاءَ لطَلَب يدي ، لكن هناك الكثيرات غيرها اللاتي يَذْكر أسماءهن ويتحدث عنهن وهو نائم !! » .

كان العجوز الطيب (رحمن جوزو) يَتصرفُ كما لو كان طفلًا ضُبِط متلبسًا بفعل لا أخْلاقِي .. كان يشعر بالخجل من عمره الذي أهدره هباءً في خدمة النظام الإمبراطوري السابق ويحاول التخَلص مِنْ عقدة الذنبِ وشعوره بالخوفِ من المستقبل .. فقط حتى يُقنعنا بأن عائلتنا لم تفْقدْ كل شيء بعد أن سقطت البوسنة تحت الحكم الصربي ، وبأن أهْل البَيْتِ من أفراد أسرتنا لا يَجِبُ أنْ ينسوا كل ما قدمه من تضحيات ، وبأنه لَمْ يُنفق كل تلك السنَواتِ دون جدوى ، وحتى يُقنعنا بِأن عليَّ الذهاب إلى (فينا) .

وقد اعتاد (رحمن بك جوزو) أن يقول :

- « ليس النمسا .. إنهم المجريون .. المجريون هم السبب ... لقد أفْسَدَ المجريون الميدالية الذهبية ، لذا فهي لا تبرق وتلمع كما يلمع الذهب .. لم يوف المجريون بما التزموا به بموجب الاتفاقية المشتركة مَع (فينا) ، ولم يُسلموا - من (بودابست) - كميات الذهب المتفق عليها مع (فينا) كما تعهدوا بذلك في تلك الاتفاقية التي يُفترض أن تُوقع من قِبل الطرفين .. وما لم تتشرف الوثيقة بتوقيع أحدهما فإنها تفقد صفتها الشرعية والقانونية ولا يجرِي العَمَل بموجبها . لم يكن السبب عدم وجود الذهب في (فينا) . ولكن النمساويين - كعادتهم دائمًا - لا يُمكن أن يُخلوا بالاتفاقية ويُشَوهوا سمْعَتهم بإنتاج ميدالية ذهبية ليست مِنَ الذهب الصافي . أنا لست بحاجة لأنْ يُخبرني أي أحد عن (فينا) . فأنا أعرف (فينا) جيدًا . بالنسبة لي فإن الحكم النمساوي المجري قد انهارَ منذ زمن طويل . ولي كل

الحق في انتِقاده ... لتسع سَنَوات كُنْتُ أخدم تحت العَلَم ذي اللونين الأصفرِ والأسودِ ... خمس سَنَوات مِنَ الخدمةِ المنتظمةِ في نقطة ثابتة ، وأربع سَنَوات مِن الخدمةِ المتنقلة أثناء الحربِ .. بالإضافة إلى خمس سَنَوات في الأسرِ الروسي . وقد خططتُ لحياة حفيدِي (مَرجَان) وفكرت في الطريقة التي ينبغي أن يُنشأ عليها .. في البداية سيُنهي مرحلة التعليم الابتدائي ثم يُسجِّلُ في المدرسة (معهد العلوم الشرعية) في (سراييفو) ، ولكن بعد أن يُتم دراسته في المدرسة سَيَدْرسُ في (فينا) إن شاء اللَّه . وبالمجان !؟ أجل ، على كل شخص أن يَتدبرَ شؤونه الخاصة بنفسه .. وأن يخطط لحياته .. وأنا أريدُ أن أتدبر الأمْرَ على طَرِيقَتي وبأسْلوبي الخاص .. وأعْرِف بأن هناك اتفاقية تسمح للبوسنيين بأنْ يدْرسوا في (فينا) لمدة مائة سَنَة مجانًا . وقد وقع عليها النمساويون فقط . ولم تُوقع الاتفاقية من قِبَل كل من النمساويين والمجريين معًا . فقد قام النمساويون بتوقيع الوثيقة من جهة بينما قام المجريون بالتوقيع من الجهة الأخرى ... لم يكن أحد من الجنود البوسنيين يقول أبدًا بأنه جندي مجري ، كان كل المجندين البوسنيين يقُولونَ أنهم جنود نمساويونَ ... كنا نَعْرِفُ ما الذي تعنيه كلمة « نمساوي » وما الذي تعنيه اتفاقية النمساوي . والحقيقة أن الحكومة الحزْبية أخفتْ تلك الاتفاقية عنِ البوسنيين ، أو أنها استعملتها لأغراضِها الخاصة ، فتلك المعاهدة كانت تُزعج (بلغراد) [1] وتُقلقها وليَست (فينا) . ولا يُمْكِنُ مُقَارَنة (بلغراد) بـ (فينا) !! والآن تَعتقدُ (بلغراد) بأنها استراحت وأنها في مأمن ، لم يكن ذلك خطأ (فينا) !! على المرء أن يحسب دائمًا حسابًا للمستقبل

---

(١) بلغراد (Beograd) : هي عاصمة صربيا وأكبر مدنها . تعد واحدة من أقدم مدن أوربا على الإطلاق ؛ إذ كانت مَحِلّة عامرة منذ عصور ما قبل التاريخ ويعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الثالث قبل الميلاد على يد قبائل كلتيون قبل أن تصبح مستعمرة رومانية تدعى باسم (سينجيدنم) . ولأهمية موقعها الإستراتيجي كانت تسمى (مفتاح البلقان) منذ عهد الرومان . وهي تقع فوق مجموعة من تلال حيث يلتقي نهر (سافا) من الجنوب الغربي بنهر (الدانوب) ؛ وكانت دائمًا مركزًا للمواصلات على الطرق التي تعبر شرق أوربا إلى شرق البحر الأبيض المتوسط . وكانت عاصمة لصربيا منذ عام (١٤٠٤م) وعاصمة ليوغسلافيا بين عامي (١٩١٨ و ٢٠٠٣م) ، كانت بلغراد آخر بقعة مسيحية دانت للمسلمين العثمانيين في البلقان ، وكان ذلك في القرن الخامس عشر الميلادي ؛ حيث استولى عليها الأتراك عام (١٥٢١م) وانسحبوا منها سنة (١٨٦٧م) . وقد ازدهرت منذ عام (١٩٢١م) من بلدة صغيرة إلى مدينة أوربية حديثة ذات مبانٍ كبيرة وشوارع واسعة ومنتزهات عديدة ؛ وتضطلع بوظائف إدارية وتجارية وصناعية مهمة ومختلفة - (المترجمة) .

وأن يُفكر دائمًا بشأن الغد . وإن كان عليه أن يَختار بين (فينا) و (بلغراد) فيَجِبُ عليه دائمًا أن يَختار (فينا) » .

يا لجدِّي العجوز الطيب .. لم يُظهر كل تلك المشاعر أمامنا .. فقد أصر بعَزْم - وعلى طريقته المتَقَلبة - على أن يقمع خيبة أمله الهائلة في الحكم النمساوي المجري . وقد نجح في كبت شعوره بالإحباطِ الفادِح والخذلان الأليم بعد أن خذله النظام الذي ظل يثق به منذ باكورَة شبابه وطوال أيامِ عمره .. هذا بالإضافة إلى ما تكبده في خدمة هذا النظام بعد أن قُبض عليه كهارب من الجندية في (بودابست) وبعد أن أرسل إلى جبهةِ (جاليتسيا) وطيلة السنَوات الطويلة التي قضاها كأسير في الاتحاد السُّوفيتي .

وربما أدركَ جدي بأن بيت عائلةِ (جوزو) سيَنهارُ في النِّهَايَة على يد سليلِها الأصغرِ ، وفوق الأكتافِ الضعيفةِ لأصغر فرد في ذريتها . كما كان يعرف أيضًا أنه لن يكون لديه شيء مادي يُورثني إياه .. وأنه لن يُسْلِمني سوى ميراث العائلة من العلم ، ولهذا فقد أوصاني بالالتِزام بمنهج العلماء ، وأخذ عليَّ العَهدَ بالحفاظ على ميراث وتَقَاليد « عائلة العلماء » . وقد عَرفَ أيضًا مِنْ تجربتِه الشخصيةِ ، أن الشيوعيين لن يَسْمحوا لي بأن أعمل كإمام في مسجدِ (ريتسكا) . وبأن عليَّ أن أنتظر لسَنوات طويلة حتى أعمل كإمام للقريةِ ... سنوات تساوي الوقت الذي سنقضيه في ترجٍّ وانتظار لحظة انهيارِ الشيوعيةِ . كان جدي يُفكر في طريقة للإبْقاء على حالة من الاسْتِقْرار والأمان المادي في العائلةِ والحفاظ على مَنْزِلَتها ومَكانَتها العلمية في نفس الوقت ، ولكن كيف لحفيده أن ينْجز الهدفين معًا ؟ ولهذا أراد أن أتم دراستي في المدرسة (معهد العلوم الشرعية) - وبهذا لنْ أتجاوز التقاليدَ « عائلة العلماء » العريقة - ثم أُكْمل دِراستي في (فينا) التي سَتُوفر لي الأَمَان المادي إلى أن تحصل البوسنة على سِيَادَتها واستقلالها ويصبح بإمكاني الوقوف بشموخ في محراب مسجدِ (ريتسكا) [1] .

---

(١) قبل أن تحكم الشيوعية وتُهيمن على شؤون الحياة في البوسنة كانت المدارس (المعاهد الدينية) تمنح الطلاب الذين أنهوا دراستهم الإجازة أو الشهادة فيُعين في مناصب الدولة في ذلك الزمان ؛ أو الوظائف الدينية ؛ كوظيفة الإمام أو الخطيب أو المدرس ؛ أو القاضي أو شيخ الإسلام . ولكن في العهد الشيوعي لم يعد هناك أي مجال لتوظيف خريجي المدارس حيث مُنع المسلمون من ممارسة شعائرهم الدينية ولم تعد هناك مساجد أو مدارس يمكن أن يمارس فيها الخريجون مهمتهم التي تم إعدادهم لها - (المُترجمة) .

جَدِّي لم يكن يهتمُّ بأي شيءٍ سوى اللَّه ... فقد برهنت له الأيام وخبرته الطويلة بالحياة أن كل الأشياء في هذه الدنيا فانِية ؛ ولذا فقد كان إيمانه عميقًا جدًّا بحقيقة أن كل شيء في هذا العالم في طريقه إلى الزَّوال .. وأن كل الأشياء تعبر أمامنا كالحلم .. تمر بنا مُرورًا فقط .. ولا شيء يدوم ... وقد أكدت له تجربته الشخصية ذلك اليقين . وقد يكون هو البوسني الوحيد في البوسنة الذي لم يُساوره الشك مُطلقًا في حتميَّة سقوطِ الشيوعية .. وأنها لا بُد أن تنهار وتُلقى مع نفايات التاريخ ذات يوم ... وقد اعتاد أن يَقُول مرارًا وتكرارًا بأن الشيوعية ليست إلا اختراعًا إنسانيًا ، مجرد اخْتِلاق وتَلْفِيق بَشَري وأن الروس قد ابْتدَعوا فكرة الشيوعية عندما أدركوا أنهم يخسرون الحربَ مع الألمان .. فبَدؤوا الحرب بين بعضهم البعض بعد أن اختلقوا قصة الانقلاب الشيوعي حتى يوهموا الأوربيين بأن الروس غارقون في مشاكلِهم الداخليةِ . وبهذه الطريقة أعلنوا عن قيام نظامٍ جديد في بلادِهم القديمةِ ... نفس النظام ولكن فقط في عُبوة مختلفة ... عُبوة أطلقوا عليها اسم « الشيوعية » !! .

كانت حياة جَدِّي محكومة بفلسفة تقول : إن كل اللهو والعبث الذي يصنعه الإنسان ميتٌ على أي حال .. وقد اختبر في تجربة حياته أن كل ما يختلقه البشر يعلو قليلًا ، ثم لا يلبث أن يسقط ، لأن اللَّه وحده هو الخالقُ الوحيد في هذا الكون .. سبحانه هو الواحد الأحد . وكان رَحِمَهُ اللهُ يرى أن الإنسان عليه فقط أن يَتحمل تُرهات البشر ومن بينها الشيوعية ، وأن يَجِد طريقة تجعله يَتحمل ... على الإنسان أن يصبر وأن يجد طريقة للتصبُّر .

« لا أقصد أن أَقول بأن الشيوعيين الحمر [1] أحد علامات نهاية الزمان وقيام الساعة . فما هم إلا خدم الشيطان ، والشيطان لا يتخذ قَرارًا بشأن الخَلْق أو الفناء . ولكنه يكتفي بتحريض الإنسان فحسب . وكم هو عَسِير ومُرْهِق أن تحرض روسيًا أو أن تحمله على فعل شيء ما ، فحتى يتحَرك الروسي فإنه يَحتاجُ دائمًا إلى شيء جديد يُمكنه أن يَرْبح ويسْتفِيدَ مِنه . فهو اليوم يقوم بعمَل الأشياءِ بطريقة معينة ، وغدًا سَيَسْأمُ منها ... وعندما لا يكون الإنسان مؤمنًا باللَّه ولا يتبع الإرشاد الإلهي .. فإنه يُرحب بكل أنواع التخريبِ ! » .

وبقي جدِّي يَتذكرُ ذلك المحقق مِنْ إقليم (فلادفُستُك) - قائِد الشيطان في

---

(١) الحمر : كناية عن النظام الشيوعي الذي اتخذ اللون الأحمر رمزًا له - (المترجمة) .

أقْصَى أطراف (سَيْبِيريَا) - كان يذكر عنْجهِيته وغَطْرَسَته ، ويذكر كذلك (بيبي هاديدز) ابن (يوسف التاي خان) [١] ... دائمًا ما كَانَ يذكرُ ذلك المسلم في تلك البلاد البعيدة الذي انضم إلى الحمر (الشيوعيين) للاسْتِفادة منهم ، وتاه بين رغبته في الثأر والانْتِقام وبين الشيوعيةِ .. وضل الطريق بين كليهما !! .

« قَدْ يكون هو المسلمَ الوحيدَ في هذا العالم الذي أدركَ أنه يَجِبُ أَنْ يلتحقَ بالشيوعية ليتمكن من استخدامها لأغراضِه الخاصةِ ، وعلى طريقتِه الخاصة . وقد عَمِلَ كل شيء ليكسب ثقتهم حتى يمكنه شيئًا فشيئًا أن يَضعَ نفسه فوق رؤوس أولئك الذين كانوا أسوأ أعدائه ، وبعد ذلك ، وامتِثالًا إلى قواعدِهم وعملًا بقيمهم ، سينقلبُ عليهم ... وبهذه الطريقة استطاع أن يُحقق مقصده الأصلي ! وهو أن يثْأر وينتقم لنفسه بشكل مستمر ! وقد فعل ذلك بكل قوته بكل ما أتي من قُوة وجَبَروت » .

لَكنَّهم كانوا يُقاطعونَ جَدِّي في منتصفِ الجملةِ قائلين :

« على الأقل ليس أمام الولد .. لا تقل ذلك أمام الطفلِ ... لا تفعَل ذلك أمام (مَرْجَان) .. لقد عِشتَ أنت حياتكَ .. فلا تجن على حياة حفيدك .. إنه عِزُّكَ ومَفْخَرتُكَ ورجاؤك من هذه الدنيا ... وسوف يثرثِرُ بحديثك هذا ويُفشي ما تقوله أمام الناس ، وهذا بالطبع كفيل بأن يَذْهب برأسه . وحتى إذا لم يَفْقد رأسه ، فسَوف يتهم بمعاداة الشيوعية ويُوصَم بتلك الجريمة مدى الحياة ! » .

« نحن مَوْصُومون على أية حال ... لقد قاموا سريعًا بطردنا بعنف من دارنا ، وأرغمونا على التوجه إلى الساحة الأمامية لدارنا وأجبرونا على العيش في تلك المساحة فحسب ، وحتى هناك أيْضًا قاموا بهدم السور المرْتفِع الذي يحيط بفناء الدار ، أسقطوا ذلك السياج المكون من الألواح الخَشَبِية . والآن أنتم أيضًا تُريدُون أن تفرضوا عليَّ أحكامهم في عُقر داري » .

وكانوا يجيبونه بعد ذلك :

« دعك من هذا .. عليك أن تعتني بشؤونك فقط » .

وهنا ينكمش جَدِّي ويتَرَاجع منسحبًا إلى غرفتِه وينْكفئ على الكتابة ...

هَلْ على هذا النحو بَدأ جدي بكتابة مذكراته ؟ هل هذا ما حدث عندما قررَ أن

(١) الخان : لقب بمعنى الزعِيم أو الأمِير أو السُّلْطان - (المترجمة) .

يُخْفي ما كَتبَه عن الجميع ؟ أن يخفيه أو أن يلقي به بعيدًا إلى أبْعَد مكان يُحْتمَل أن يعثر عليه أحد ؟ إلى حيث يستحيل العثور عليه ؟ أم تُراه كَانَ يَتمنى في سرِّه أن تُكتَشف يومًا ما وأن يعثر عليها أحدٌ في المستقبل ؟ .

* * *

لم يكن هناك في (فينا) كلية إسلامية .. وبالطبع لَمْ يكن جَدِّي يتوقع حتى وجود كلية إسلامية واحدة هناك ؛ لذلك فقد دَرستُ علم الجِيُودِيسيَا [١] .. وكنت قد واظبت على حضور حصص المدرسة (معهد العلوم الشرعية) في (سراييفو) بانتظام . المدرسة الوحيدة المتبقية في كل أوربا . وحتى أستكمل دراستي وأتخرج في المدرسة يتوجب عليَّ أن أتم تدريبًا عمليًّا لأداء مهام علماء الدين في الإسلام .. وقد تم انتدابي إلى (تسِيرسكا) لممارسةِ واجبي الميداني كطالب للعلم الشرعي .. كواحدٍ من الـ « سُوفتا » [٢] .. كان عليَّ أن أكون إمامًا لسكان (تسِيرسكا) في صلاة التراويح طوال أيام شهر رمضان المبارك .. و (تسِيرسكا) هذه لَيسَت مجرد قرية ، بل عنقود كبير مِن القُرى البوسنية الصغيرة المتلاصقَة . تلك القُرى الصغيرة المُتجَاورَة تشبه الأحياء السكنية في بلدة رِيفِية أصغر من (تسِيرسكا) حيث تتكون البلدات الريفية الصغيرة من عناقيد من البيوتِ المتَراصَّة التي تَأسسَت وبنِيت معًا [٣] . بينما تتألف (تسِيرسكا) من عناقيد مِنَ البيوتِ تفصل بينها مسافات مُتَبَاعدة . كَانَ

---

(١) الجِيُودِيسيَا (Geodesy) : عِلْمُ دراسة شَكْلِ الأرْضِ ومِسَاحَتِها . وهو فرع من الرياضيات التطبيقية ، يعنى بالدراسة الجيولوجية لحجم الأرض وشكلها ، وقياس أجزاء واسعة من سطحها ، ليس هذا فحسب ، بل إن الجيوديسيا تدرس التفاوت في الجاذبية والمغناطيسية الأرضية أيضًا . والجيوديسيا الحديثة تقسم إلى أربع شعب : الجيوديسيا الهندسية والجيوديسيا الطبيعية والجيوديسيا الفلكية وجيوديسيا الأقمار الاصطناعية ؛ وذلك تبعًا للوسائل التي تستعين بها لقياس المساحات . ولم تنشأ جيوديسيا الأقمار الاصطناعية إلا بعد إطلاق القمر الصناعي الأول عام (١٩٥٧م) - (المترجمة) .

(٢) سوفتا (Softa) : طُلاب العلم الشرعي في المدارس الدينية ، وقد يكون أصل الكلمة في « صوفي » أي متصوف أو زاهد - (المترجمة) .

(٣) تتميز بيوت المسلمين البوسنيين ومنازلهم بميزة لا نجدها عند غير المسلمين ، ألا وهي الميل إلى السكن بجوار بعضهم البعض ، وهذه الظاهرة لا تتوفر في غير المناطق الإسلامية ، وهذا بالنسبة للمسلمين الذين يسكنون في القرى ، أما بيوت المسلمين الذين يسكنون في المدن فليس لها نمط خاص يتميزون به عن غير المسلمين ، بل هي كغيرها من بيوت الشعوب اليوغسلافية . (انظر : المسلمون في يوغسلافيا ، تأليف : د . رجب يشار بويا . ص ١٥٧ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

المسجد الوحيد المتبقي في منطقة (تسِيرسكا) يقع في قرية (تشيليبيتسى) .

إذا نشبت الحرب ، فلا بد أن أكُونَ قائِدًا للجَيْش حتى أفوز بجَمِيلَة جميلات (تسِيرسكا) ... الآنسة (تنزيلا مُهوردار) .. وقد مرَّت فترة طويلة من الهدوء بعد الحرب العالمية الثانيةِ [١] . وكُنْتُ شابًا حديث التخرج من مدرسة (غازي خسرو بك) الإسلامية [٢] ؛ وبالإضافة إلى كوني أحد خِريجي تلك المدرسة العريقة - ولأبلغَ قمةَ الشرف - فقد كنْتُ سليل إحدى عوائل علماء البوسنة الشهيرة ! ولأرتقي ذرْوَةَ الفخر وأوْجَ المجد فقد كنْتُ مِنْ (سربرينيتسا) أيضًا . وفوق كل هذا .. كنْتُ إمامًا في صلاة التراويح - الرجل الذي تقيس به الشابات قيمة أي شاب - أضيف إلى كل هذا أنني كنْتُ وسيمًا أيضًا . وقد كان هناك الكثير من الشابات الجميلات في (تسِيرسكا) أووه ... يااااه ، كان هناك بعض الجميلات الأخريات علاوة على (تنزيلا) لكن كان من اليسير على أي أحد أن يَعْرف مُسبقًا أنني كُنْتُ سَأختار (تنزيلا) .. كانت أكثرهن جمالًا وحُسنًا ؛ ولِهذا ونظرًا لحداثة سني واستنادًا إلى تجربتِي الحدِيثة العَهْد والمتواضعة جدًّا في ذلك الوقت ، فقد تصورتُ أنه إذا نشبت الحرب مع « التشيتنيك » ، فإن قائد الجيْش المدافع عن (تسِيرسكا) فقط هو من يستحق الفوز بيَدها . وهكذا وبدون أي قتال .. دون أي معارك .. وبهدوء يُشبه سُكون تلك القريةِ الإسلاميةِ القديمةِ ، كنت أنا الإمام الشاب القادم مِنْ (سربرينيتسا) على وشك أن أفوز بأفضل وأجمل فتيات (تسِيرسكا) المؤهلات للزواج !! فقط بعد أن يمر شهر رمضان سَيُمكنها أن تَنضمَّ إلى حلقة (الكولو) في (زوتيتسا) في ثاني أيام عيد الفطر .. ومِنْ هناك سوف تَتَسَلل (تنزيلا) خفية وتأتي إليَّ ... تلك

(١) الحرب العالمية الثانية : حرب نشبت بين الحلفاء ودول المحور عام (١٩٣٩م) وانتهت بانتصار الحلفاء عام (١٩٤٥م) . من أهمِّ أسبابها البعيدة توق الألمان إلى غسل عار الهزيمة التي أنزلت بهم في الحرب العالمية الأولى ، وظهور الأنظمة الفاشية في أوربا ، وسياسة التوسع التي انتهجتها ألمانيا وإيطاليا واليابان ، وإخفاق عصبة الأمم في حل معظم المشكلات الدولية - (المترجمة) .

(٢) أسست هذه المدرسة من قرابة الخمسمائة سنة باسم صاحب المنشآت الخيرية الكثيرة (غازي خسرو بك) البوسنوي المولود سنة (٨٨٥هـ /١٤٨٠م) ، وظلت هذه المدرسة المباركة تخرج جيلًا بعد جيل من طلبة العلم حتى اليوم رغم تقلب الظروف وتدهور الأحوال ، وهي تحتل الدرجة الأولى من بين مدارس المسلمين الدينية في يوغسلافيا ، والمدرسة تقع في مدينة (سراييفو) عاصمة الرئاسة الإسلامية العليا لمسلمي يوغسلافيا . (انظر : المسلمون في يوغسلافيا ، تأليف : د / رجب يشار بويا . ص١٤٣ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

كانت عادة أهل القرية وأنا لم أشأ أن أحرمها من فرصةِ الاحتفاظ بذكرى تلك اللحظات الجميلة .. اللحظات الأخِيرة التي تُودع فيها أيام الطفولة .

بدأ الاستعراض ... الفتيات أخذن يَتحرَّكن ويدُرن في شكل دائرة بدون عَزف على الآلات الموسِيقيَّة . كانت الفتيات اللواتي ودعن سنوات الطفولة ويقفنَ الآن على عتبات عالم الأنوثَة يلتحقن بحلقة الـ « كولو » ، ويَتحركن ببطء أمام أعين الشباب ، حتى يُمْكِنهم أن يُحدقوا فيهن بملء أعينهم ، وليتمكنوا على وجه التحقِيق من إلقاء نظرة فاحصة عليهن . وبحلول العيد القادم ، سيكن هؤلاء الفتيات قد تَزوجن بالفعل ، وسيكُن هناك مَع بقية النساءِ يحدقن مِنْ بعيد بعيونِهن الحالمةِ في الفتيات الصغيرات اللواتي نضجن ودَخلنَ حديثًا إلى عالم الأنوثَة بينما الشبان الصغار يُرَاقبون ويتتبعونهن بنظراتهم المحدقة التي ترصدهن من أعلى لأسفل ...

تلك الـ (كولو) لم تنضمَّ إليها أبدًا الفتاة التي كانت الحبُّ الأول لجدِّي (رحمن بك جوزو) .. وقد كَانَ اسمها (تنزيلا) أيضًا .

كَانَت حبي الأول (تنزيلا مُهوردار) هي حفيدة الجدةِ (تنزيلا) ... حفيدة نفس المرأة التي لمْ تنضمَّ إلى « الكولو » يوم العيد في (زوتيتسا) نِكَايَة بـ (رحمن بك جوزو) ، ولأنها كانت تريد إغَاظَته ، فبدلًا من الالتحاق بالحلقة استغلت انشغال الجميع بمراسم الاحتفال بالعيد [1] ، وفي معمعة اليوم الأول للعيد هَربَت إلى عمتِها التي تسكن في قرية بعيدة ... وهناك في (تسِيرسكا) ، تَزوجتْ وأنجبت أطفالًا وهبت حياتها لأجلهم ولتَرْبِيتهم وتَنْشِئَتهم .

لا بد أن الجدَّة (تنزيلا) كَانتْ شيئًا خطيرًا .. لا بُد أنها كانت شيئًا ذا بال حتى يقع جَدِّي في حبها ! لا بُد أنها كانت فائقة الجمال .. وهذا لا يحتاج إلى بُرهان .. كَانتْ حفيدتها (تنزيلا) أكبر برهان .. في قسماتها آثار واضحة لجمال منذ عهد بعيد تصل جذوره إلى تلك الجدة التي أحبها جدي .. جمال أصيل ... حتى إن

(١) يحتفل المسلمون في يوغسلافيا بعيدي الفطر والأضحى ؛ فيُزيِّنون بيوتهم وينظمونها استعدادًا للعيد ؛ ويلبسون الثياب الجديدة ؛ ويذهبون إلى المساجد مهللين مكبرين لأداء الصلاة . وبعد ذلك تأتي الزيارات للأهل والأقارب والجيران والأصدقاء ؛ وفي عيد الأضحى يذبحون الضحايا تقربًا إلى الله ويتصدقون بلحومها على الفقراء ؛ والفائض من تلك اللحوم يُحتفظ به في الثلاجات ؛ ثم يُطعمون منها طلاب المدارس الشرعية طوال العام . (انظر : المسلمون في يوغسلافيا ، تأليف : د . رجب يشار بويا . ص ٩ - دار السلام - ٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

الحياة القاسية التي عايشتها في (تسِيرسكا) - بعد أن أفقرت الشيوعية الشعب ودَفعتْ بهم إلى ضَنْك الفاقةِ وبُؤْس الحرْمان - لم تَستطع أن تسلب منها أصالة نَسَبها أو أن تَطمس حقيقة أنها تنحَدر مِنْ أصْلٍ نبيل .

لم أكن أعرف ما الذي حَدثَ بين الجدة (تنزيلا) وبين جَدِّي .. لم تتوفر لدي أي وَسِيلَة قبل الآن لأعرف بها .. أما الآن فأنا أعْرف .. ولَيسَ بوسعي وأنا أكتبُ هذه السطور ، أن أُفصل بين طبيعة مشاعر الخوف وهواجِس القلق والترقب في زمنين مختلفين ... يصعب عليَّ أن أفصل بين الحادثتين لفرط التشابه بينهما .

قامت الجدةُ بتحقيق رغبة حفيدتها وإرضائها ، واستجَابَت مرة أخرى لنَزْوَة من نزواتِ حفيدتِها .. وحتى دون أن تنتظر حلول العيد .. في آخر يوم من أيام رمضان وقبل أداء صلاة التراويح ، قامت بدَعْوَة نِصْف أهل القرية لتناول طعام الإفطار معًا [1] .. فقط حتى يتمكن الإمام الشاب من الحضور لتقديمِ نفسه إلى أصهار المستقبل ... وقد تفاجأت عندما رَأتْني ... ماتتْ تقريبًا ! .

- « من أي البلدات أنت ؟ » .

- « مِنْ (سربرينيتسا) » .

- « مَنْ يكون أبوكَ ؟ » .

أخبرتُها ...

- « لَمْ أكن بحاجة حتى لأن أسألك ! »

لم أفهم بالضبط ماذا قصدت بقولها ذلك ..

- « لهذا ، قمت بخطبة حبيبتي (تنزيلا) » .

- « نعم ، خَطبتُها ! » .

- « دون أن تسأل أي أحد » .

- « لقد سَألتُ (تنزيلا) » .

- « القَرَار ليس قرار (تنزيلا) وحدها » .

---

(١) اعتاد المسلمون في البوسنة - وكل يوغسلافيا السابقة - على إعداد حفلات الإفطار الجماعية الحافلة بأصناف الطعام في رمضان ؛ والتي يحضرها الموسر والفقير تأكيدًا على أواصر الألفة والمحبة بين المسلمين وابتهاجًا بشهر رمضان المبارك - (المترجمة) .

- « أَعْرِفُ ذلك ، ولكنْ يُمكنُ أن يَكونَ قرارَها . لقد تغير الزمان ! » .

- « أنت طالب في معهد العلوم الشرعية .. أنت من الـ « سوفتا » .. هل هذا ما يُعلمونه للطلاب في المدارس الدينية ! » .

- « أنا لَم أعد طالبًا في المدرسة .. لقد جاء رمضان بعد أن أكملنا السنة الدراسية . وأنا الآن إمام ومُعلم وخطيب » .

- « أنت متهورٌ وَعنِيد ... إنك تُذكرُني بأحد الأشخاص . كلاكما له نفس السحنَة ونفس الصفات .. نفس قسَمات الوجه ونفس العِنَاد .. كلاكما عنِيد وصَعْبُ المِرَاس كالبغل » .

في ذلك الوقت ، لَمْ أكن أَعْرِفُ مَنْ هو ذلك الشخص الذي ذكرته جدة (تنزيلا) به .. فهي لَمْ تُخبرْني بنفسها . ولم يكن من اللائق أن أبدأ باسْتِجْواب السيدة العجوز المتَعَنِّتة ... قالتْ لي فقط بأنه من الأفضل أن أذهبَ لقضاء العيد مع عائلتِي في (سربرينيتسا) وألا أنتظر في (تسِيرسكا) حتى يُمْكِنني أن أنطلق مِن هناك إلى (زوتيتسا) ، في ثاني أيام العيد .

- « (تنزيلا) لَنْ تأتي إلى (زوتيتسا) في اليوم الثاني للعيد . فهي لَم تزل صغيرة وليست مؤهلة للزواج بعد » .

هذا ما قالته لي .

وكما جرت العادةُ ، غادرتُ في أولِ أيام العيد لرُؤية عائلتِي في (سربرينيتسا) بعد أن أخبرتُ (تنزيلا) أنني في اليوم التالي سأكون في (زوتيتسا) .

ولَمْ تظهرْ (تنزيلا) في (زوتيتسا) ... كانت عيوني تحدق باهتياج شديد .. تبحث عنها بين الفتيات .. دارت « الكولو » وأوشك الاسْتِعْراض على الانتهاء ولم تظهر .. قامت الفتيات باسْتِعْراض أنفسهن دون أن تظهر .... واكتملت الحَفْلَة حتى النهاية ولكن فتاتي لم تظهَر .. كنتُ مُغْتَمًا وحَزِينًا .. وقد لَحَقَ بي أترابي [١] مِنْ شباب (تسِيرسكا) ، الذين قضيتُ معهم رمضانًا لا يُنسى سواءٌ من حيث الصلاةِ والعبادات أو من حيث طَيْش الشباب البَرِيء ومجونهم الساذج .. وفي غمرة الابتهاج والسرور بفرحة العيد وتَهْلِيلًا وتَرْحِيبًا بعودة إمامهم والتقائهم به بهذه السرعة .. قاموا بانتزاع معطفي عني .

---

(١) أتْراب : مجموعة متقاربة في السن ، جمع (تِرْب) وهو النظِير أو النِدُّ أو المثيل - (المترجمة) .

قالوا بفَرَح وبَهْجَة :

– « هيا تعال ، دعنا ندير معطفَكَ ونقَلبُ الجزء الداخلي منه (بطانته) للخارج ! » .

– « أنتم على حقٍّ ! أنا مُثقل بالفعل ... مُثقل بجميع ملابسي لكني مُثقل بحزني وحَسْرَتي أيضًا ... في يوم جميل ولطيف جدًّا كهذا .. أجدني مُكتَئِبًا وحزينًا .. ممتلئًا بالغَمِّ ومُحملًا بالكآبة كسماء مُعْتِمة ملبدة بِالغُيُوم ! » .

قاموا بقلب أكمام معطفِي من الداخل للخارج .

قلتُ متذمرًا وقد بدأتُ بالضحك :

– « ما الذي تَفعلُونه ؟! » .

أجابوا جميعًا وهم مُبتَهجون :

– « تلك هي العادة في (تسِيرسكا) ! » .

– « هيا انهض أيها الأفندي ، المهم أن صحتكَ بخير ! » .

– « هيه [١] يا أنت ، قد تذهب فتاة .. ولكن بالتأكيد ستأتي فتاة أخرى .. » .

– « هناك المزيد من الفتيات الجميلات في (تسِيرسكا) ! وكل واحدة مِنْهن ستقبلك على الفور ومن أول نظرة .. بل ستتزوجكَ في الحال ! » .

– « كل ما هنالك أن (تنزيلا) صَعْبةُ المِرَاس قليلًا وعَنِيدة ، لأن جدتها تَنحَدرُ مِنْ أصْلِ « بكوات » .. ولكنك أنت أيضًا « بك » .. بك حقيقي – إن كان قد بقي في البوسنة بك واحد ! » [٢] .

– « هيا تعال ، باللَّه تعال وابتهج .. افْرَح لأجل اللَّهِ ! » .

لَمْ أكن أَعْرف أن من عادة الشباب في (تسِيرسكا) .. أن يمارسوا شيئًا من المرح والابتهاج مع شاب في مثل عمرهم بات حزينًا لفقد حبيبته .. وأن يَمزحوا معه من خلال قلب معطفِه من الداخل للخارج ليُحاولوا إخْراجه من حالة الحزن والإحباط التي أصابته بسبب الأنباء السيئة التي تقول بأن فتاته قد تَزوجتْ وصارت من نصيب

---

(١) نداء للفت الانتباه – (المترجمة) .

(٢) حيث لم تعد القوانين الإقطاعية التقليدية تهيمن على علاقات السيد صاحب الأرض بالفلاح بعد أن صادرت قوانين الإصلاح الزراعي ملكية الأراضي من بكوات العهد القديم .. وبالتالي لم يعد لقب « بك » يدل على صاحب ملكية ولم يعد له وجود – (المترجمة) .

رجلٍ غيره .

* * *

وهكذا كان قدري !! .. آه ... كانت لوعةُ الحب قدري المحتم ! إنه وَهَج الحب القديم .. نيران تَتوَقدُ وتتوهج في داخلك منذ زمن بعيد ! يظل لَظى لَهيبِها يلسع الروح ويدميها بتلك الجراح التي لا يُمكنك أن تبرأ منها .. وكما يتراقص لهب الشمعة ويتوهج من حينٍ لآخر .. كذلك تتَرَجْرج شُعلة الحب القديم بصورة متقطعة .. تتوهج تارةً وتذوي تارةً .. لكنها أبدًا لا تنطفئ .. تَستمرُ تخفق ولو كوَهَج ضعيف .. لكن نورها الباهت يبقى قابعًا في زاوية ما في خبايا النفس .. وتبقى تشتعل هناك طوال العمر ... تبقى هناك في تلك الزاوية البعيدة طوال حياة الإنسان ! .

* * *

ولم تظهر (تنزيلا) مرة أخرى ...

وانتظرتها ..

والأشياء تأتي في النهاية لمن يَنتظرها ...

لمن بقي يَنتظرها .. لمن انتظر .... وانتظر .. لوقت طويل ...

وأخيرًا جاءتْ ... أتت إليَّ لتروي لي ذلك الحلم العجيب الذي رأته بقُرْب البئرِ في فناء البيت الأمامي بينما لم تكن نائمة .. الحلم الذي رأته وهي مُتيقظَة تمامًا ..

جاءت (تنزيلا) التي لم أنسها أبدًا .. ولم تنسنيها الأيام يومًا ...

وحتى حِينَمَا كُنْتُ أطردها من أفكارِي وأقاوم ذكراها ... وعِنْدَما لم تكن تَخْطرُ على بالي .. بل وعندما كانت أبعد ما يكون عن خاطري وعندما كانت آخر شيء يخطر على بالي .. حتى في كل تلك الأوقات كَانتْ مَعي أيضًا ... كَانتْ تُطوق ذلك الإصبع في يدي اليسرى ... كانت هي حلقة خاتم الزواج الذي لم يُفارق إصبعي منذ عرفتها ..

جاءتْ إليَّ مرةً ثانية ... بعد أن اطمأنت لكون (سربرينيتسا) تَحتَ حِمَايَة منظمة الأمم المتحدة .. كانت هجمات « التشيتنيك » قد انحسرتْ ... جاءتْ لتبْدي امتنانها لي بَعْدَ أَنْ أعرتها بعض الدعم لقصتها التي بَدت مُفككة تمامًا وغير مترابطة .

ولتخْبرني أيضًا بما حَدث بعد ذلك .

- « أنت تَعْرِفُ كيف بَدأ كُلٌّ هكذا ؟ لقد أخبرتك بما رأيت سابقًا ولهذا أشْعرُ الآن بأنني مُلزَمةٌ بإخْبارك بما حدث بعد ذلك أيضًا ! » .

مرة أخرى ، وللمرة الثانية .. مع بزوغ الفجرِ ، في الوقت الذي لا يتميز فيه الليل من النهار .. ومن وسط غبش الليل وغَشَاوَة الضبَاب ظهرَ لها (شفيق أوزونوفيتش) . وضَربَ النافذة التي تنام تحتها بقَبْضَة يَده ضربة عنيفة .. وقد أفزعَها ذلك نوعًا ما .. حيث لا أحد يَستطيعُ أن يضرب بقَبْضَة يَده إطار نافذة في الطابقِ الثاني دون الاستعانة بشجرة قريبة أو بمساعدةِ سُلَّم !

ناداها (شفيق أوزونوفيتش) وطلب منها ألَّا تَخاف ، وأن تنزل إلى الأسفل عند الفناء الأمامي .

وقد نَزلتْ .

رأت مجموعة من الجنود يرتدون الزي العسكري الرسْمِي .. في لِبَاسٍ مُوَحد من الحرير الأخضر .. كانوا يتأَلقونَ كالبلور ويتلألأ النور من حولهم .

كان الجنود الخُضر يصطفون في صفين أمام (شفيق أوزونوفيتش) .. وكانت هناك هالة نورانية تتوهج من حولهم .. هالة من النور الأخضر !!

- « لا تَخافي ... انْظري إليهم » .

مَشتْ (تنزيلا) وهي تنظر إليهم .. مِنْ جندي إلى جندي ... كَان الجنود المتراصون يقفون جامدين .. كانوا فاتِرين كجبالِ الثلج ... تعرفتْ على بَعْضهم .. منهم جنود من سكان (تسِيرسكا) ... وبَعْض الشبابِ مِنْ (كامنيتسا) ... وبَعْض اللاجئين الذين وجدوا في (تسِيرسكا) مأوى لهم . ومِنْهم من كانت تأمل أن يكون قد نجا من عملية اقتِحام (سربرينيتسا) . ومِنْهم من كانت تعتقد بأنهم قُتِلوا قبل سنتين ، وقبل ستة أشهر ، أو أثناء الاقْتِحام الأخير لـ (سربرينيتسا) ... وقد دُهشتْ لأنهم كَانوا لا يزالون على قيد الحياة .

- « ها قد رَأيت ما تحتاجين لرؤيته وما طلبت أن ترينه . وَقد وعدتُك بأن أُريك الشهداء بعد أن نَعود مِنَ الجبهة الأمامية ... وقد أَخذَ المجاهدون مِنْ (سُوتيسكا) مَوْقِعَنا في الحال ... لهذا ، استطعنا نحن أن نأتي إلى هنا ! » .

- « وما الذي يُفترضُ أن أراه ؟ » .

- « أنَّ (قادر) الذي تسألين عنه لَيس بيننا » .

- « لكن إن لم أره بين جنودك ، هَلْ يَعْني ذلك أنه لم يُقْتل ؟ » .

- « هؤلاء الجنود لَيسوا أحياءً ... ما رَأيته كان جيشًا من الموتى ... . وأنت لَم تجدي زوجُك المقتول بين الشهداء ! » .

كان نور الصبح قد انبلج .. وبدأ صوت (شفيق أوزونوفيتش) يتلاشى .. وبهتت صورته وذابت في نور النهار .. اختفت صورته مع كتيبة الشهداء .. ذاب النور الأخضر واختفى وسط أنوار الصباح الجديد !!

هذا ما حَدثَ ..

وفي نهايةِ روايتها كررتْ نفس الكلمات التي افتتحت بها حديثها :

- « أنت تَعْرفُ كيف بَدأ كُل هكذا ؟ لقد أخبرتك بما رأيت سابقًا . ولهذا أشْعرُ الآن بأنني مُلزَمةٌ بإخْبارك بما حدث بعد ذلك أيضًا ! » .

- « لم أفعل شيئًا اسْتِثْنائِيًا أو جميلًا خاصًا يُوجب أن تكوني مَدِينَة لي بِالفَضْلِ أو ممتنة لي » .

- « لا أحد يَعْرِفُني هنا ... وأنا لا أَعْرِفُ هل ما زال لديَّ أحد أقاربي مِنْ عائلةِ جدتِي في (سربرينيتسا) ؟ إن المرأة تَلِدُ الأحفادَ وتُنجبُ الذُّرِّية ، لكنها تَفْقدُ الحلقة التي تصلها بأصولِها - تَفْقدُها كليًا ومُبكرًا جدًا - بمجرد حلول الجيل الثاني - إنني لا أعْرِف حتى اسم عائلة جدتِي .. لا أعرف اسمها الأخير .. ولا أسماء أقاربها أولئك الذين - على افتراض وجود أي منهم هنا - لن يَهتموا بمعْرِفة أي شيء عني . خصوصًا بعد العار الذي جلبته لهم جدتِي والخزْي الذي ألحقته بهم .. رحمها اللّٰه .. » .

- « كنت تعرفين ما حَدث بين جدتِك وجَدِّي ؟! » .

- « بالطبع كنت أعرف ... لقد كَبرتُ ونشأت على تلك القصةِ ... لَمْ تُخبرْني بها جدتي ، لكنها كانت حديث كل أهالي (تِسِيرسكا) الذين اعتبروها مَفْخَرَة وبطولة .. ثم كبرت القصة وتحولت إلى أسطورة » .

- « أنا لَمْ أكن أعْرف ... لقد اكتشفتُ تلك القصة مؤخرًا فقط » .

- « أنت لَمْ تكن تعرف ؟! لم تعرف كُنْتُ حفيدة مَن ؟ » .

- « ولا حتى خطر على بالي ! »

- « اعتقدتُ بأنك كُنْتَ تَتظاهر فقط بأنك لَمْ تكن تَعْرفُ ؟ » .

– « لكنَّك كنت تعرفين تلك القصة ، كنت تعرفينها منْذ البِداية ، تعرفينها منْذ اللحظة الأولى التي ظَهرت فيها في (تسِيرسكا) » .

– « نشأت على سماع تلك القصة عن فرارِ جدتِي ، وقد عَرفتُ مَنْ تكون حتى قبل أن تصل إلى (تسِيرسكا) . فقد كان وصولُ إمام التراويح إلى القرية حَدَثًا مهمًّا يترقبه كل أهالي (تسِيرسكا) ... الذين كانوا يتَدخلون دائمًا في عملية اختيار إمام التراويح .. وقبل رمضان كانوا يتوجهون إلى المدرسة الدينية في (سراييفو) ويُحددون اسم الإمام الذي سَتُرسله المدرسة إليهم أثناء شهر رمضان [1] ... وقد تقدموا بمذَكرَة التماس يُنَاشدونهم أن تأتي أنت على وجه الخصوص ؛ لأنك مِنْ (سربرينيتسا) ولأنك مِنْ بيت صالح ! » .

– « كُنْتِ تعرفين عائلتي .. ومِنْ أي نوع من البيوت أتيت ؟ » .

– « بالطبع كنت أعرف ... لكني لَمْ أكن أعْلم أنَّني سأميل إليك . لكنِّي كُنْتُ بالفعل أتمنّى أن تكُون وسيمًا » .

وهكذا كان قدري ! لكي تُغيظ جدتها التي مَنعتها من الزواج بحفيد (رحمن بك جوزو) ، هَربَت (تنزيلا) مَع أول شاب يصلح للزواجِ وجدته أمامها ... ذَهبتْ إلى ذلك المدعو (قادر قادريتش) وقالت له :

– « لا تُضيع وقتَكَ بالذهاب إلى (زوتيتسا) في ثاني أيام العيد .. فسوف أَتزوجُك أنت ! » .

– « متى ؟ » .

– « في اليومِ الأولِ للعيد » .

– « اليوم هو اليومُ الأولُ للعيد » .

– « إذن سَأَتزوجُك اليوم » .

– « متى ؟ » .

---

(١) مع اقتراب شهر رمضان المبارك ؛ يعمل المسؤولون في المجالس الإسلامية في الأقاليم على إعداد أئمة ودعاة أكفاء للقيام بمهمة الدعوة ؛ ثم توزعهم على مساجد المدن والقرى النائية وتُنظم برامج المحاضرات والمواعظ والإرشاد وتلاوة القرآن الكريم – (انظر : المسلمون في يوغسلافيا ، تأليف : د/ رجب يشار بويا . ص : ١٥٩ – دار السلام – ٢٠٠٤م) – (المترجمة) .

- « الآن . وفي هذه اللحظة ؟ إن كنت تُريدُني ؟ » .
- « ولماذا لا أريدك ؟! » .

لقد جنت عليه ودمرته ، ودمرت جدتها .. ونفسها ودمرتني ! أصَابت الجميع بِنَكْبَة .

كَانتْ جدتها قَلِقة جدًّا بشأن الأخبارِ التي تقول بأنها قد جُنت وصارت مجنونة تقريبًا .

لم أَنتظر إلى أن ينتهي فصل الصيف ، ذَهبت إلى (فينا) على الفور ، لأحقق أمنية جَدِّي الأخيرة ووصيته التي أوصاني بها وهو على فراش الموت .. وكمحاولة لترميم روحي المهدمة وتضميد جراح قلبي النازفة .. غادرت إلى أبعد حد مُحتمل وقررت دِراسَة أي شيء .. لا يهم مطلقًا .

لقد حطمت حياة (قادر قادريتش) أيضًا ببساطة لم يستطع أن يتماهى مع أصلها النبيل وأن يقترب ولو قليلًا من رقي طباعها ودماثة أخلاقها التي ورثتها عن عائلتها .. فبَدأ باحتساء الخمور واستمر بالشرْب لسَنَوات عديدة ... وجَلبَ العار على نفسه وعلى كُل (تسِيرسكا) ، وعلى زوجته (تنزيلا) بالطبع . ولكن ما أن تحقق من حتمية الحربِ وأنه لا مفرَّ من خوضها ، وأدرك أن الصرب الآن لا يُسْتَهَانُ بِهم فقد تَضَخموا ومن جديد أصبحت لهم أجساد هائِلة وضَخْمة جدًّا مقارنة بسراويِلهم القصيرة !! وبالنظر إلى حرابهم المسلولة فوق عَجِيزة [١] بنادقهم والسكاكين والمناشير التي في أيديهم فإنَّهم لن يَستسلموا حتى يذبحوا كل شيء يُمْكِنُ أن يُذْبَح ؛ حتى يُلحقوا الضرر بكل شيء يُمْكِنُ أن يتضرر ؛ حتى يُدمروا كل شيء ينْتَمِي إلى البوسنيين ، لن يَستسلموا حتى يُحطموا كل ما يُمْكِنُ تحطيمه مما يخص البوسنيين ويطمسوا أي أثر للمسلمين فوق تلك الأرض . عندما أدرك (قادر قادريتش) كل ذلك ، لمع معدنه الأصيل وسط ظلمات المحن ، وكان أول من حمل البندقية . صار مُجاهِدًا ... وتَوقفَ عن الشرْب أيضًا . ولبطولته وشجاعته تحول إلى أسطورة شعبية.. كان الناس يقولون إنه لم تكن هناك رصاصة في تلك الحرب تحمل اسمه وأن القدر لم يكتب اسمه على أي رصاصة في تلك الحرب التي لم تدخر رصاصة لأحد .. بل قيل : إن جسده لم يكن قابلًا لأن يخترقه الرصاص وأن ليس

(١) عَجِيزة البندقية : مِغْلاق أو مؤخرة البندقية - (المترجمة) .

هناك أي رصاصة يمكنها أَنْ تؤذيه وتخترق جسده . كما قيل بأنَّه كان يعود بعد المعركة ويَهزُّ معطفَه الطويل لتتساقط منه الرصاصات اليائسة التي فشلت في اختراق جسده .. وأصبحَ (قادر) الجديد مِنْ قرية (أوسمَاتشه) .. كانت هناك قصص وأساطير وحكايات كثيرة تُروى عنه أيضًا ولا تزال تُروى حتى الآن ، ولا تزال روحه القتالية موضع إعجاب وتقدير ... وحتى الأغاني الشعبية التي كانت تتغنى ببطولات (قادرِ قادريتش) كانت تُلحن وتُغنى وتنتشر بين الناس . ولكن الموسيقيون [1] كانوا يَتسكَّعون ويحومون حوله .. وشيئًا فشيئًا بَدأَ بالشرْب من جديد ... مرَّ عامٌ تقريبًا على مقتله ... وقد كان ثَمِلًا عندما حَدثَ ذلك .

ولا أدري ما إن كانت (تنزيلا) قد دمرت نفسها أيضًا ..

لا يُعقل إلا أَنْ لا تَكُونَ قد دمرت نفسها أيضًا .. ولحق بها شيء من الضرر ، لكني تَعَجبتُ كثيرًا – بَيْنَمَا كنتُ أتَأملها وأَتَمعن فيها – لكونها لم تتغير ولَمْ يَذْبلْ جمالها وبهاؤها .. وقد أدْهَشَني ذلك .. وسرني لدرجةٍ كبيرة أيضًا .

كانت تَقِفُ أمامي ... كنا متواجهين .. نقفُ وجهًا لوجه في صمتٍ مهيب .. بقينا صامتين ... أنا الرجلُ المحُطَّم المُستفذ القوى ... وهي المرأة الجميلة .. الفاتنة على الرغم من أحزانها .. على الرغم من الأسى والحُزنِ المُضاعف لكونها أصبحت أرملة .. كَانَت جميلَة حتى وهي تعاني وجَعَ الوحدة وضَنْك حياة اللاجئين القَاسِية .. وَقفنا ونهر الزمان يتدفق بيننا .. النهر المُسْتَعْصِي على الكبارِي والجسور .. النهر الذي ظلَّ دائمًا يفصل بيننا ..

بقينا صامتين .. يلفنا صمتٌ عميق ..

ثم بدأت صورتها تَبْهت وتتلاشى أمام عيني .. لَم يكن ذلك بفعل السنَواتِ التي باعدتنا طوال تلك الفترةِ مِن الزمن ، بل إنها كانت تذْوَى بالفعل ... أمام عيني مباشرة .. تتلاشي وتختفي فجأة ... أَم تُراها بدت كذلك في عيني فقط .. ؟

خشيت أن ألَتهمها بعيونِي ... لِذا أخذتُ أطَقْطِق أصابعي وبينما كنت أضغط بقبضة يدي على مفاصل أصابع يدي الأخرى أدركتُ أن خاتم الزواج كان يدورُ ويلف بحرية حول إصبعي !!

---

(١) مُوسِيقِي : آلآتِي ، أي عازِف يقوم بالعزف على آلة موسيقية في الطرق – (المترجمة) .

إما أنني أصبحت نحيفًا جدًّا بسبب مَتْرَبَة [١] الحربِ وهو الهدف الذي لم أتمكن من تحقيقه خلال عشرين سنة من السلام بالرغم من أنني كنتُ أَمتنعُ عن الأكل بشكل مُفرط – أَو أنها كَانت إشَارَة أو عَلامَة على نحو ما ، وسواء أكان هذا أم ذاك فقد كان خاتم الزواج يدور بحرية حول إصبعِي ...

شعرت بالنجاة والخلاص بَعْدَ أَنْ قطعتُ الصمت بكلماتي قائلًا :

– « اذهبي من هنا (تنزيلا) ! » ... « خذي خاتم الزواج هذا ... لَيْسَ لديَّ شيء غيره لأعطيك إياه . لم يبق لديَّ أي شيء ! قومي ببيعه وبالتأكيد سوف تجدين الكثيرين من المُسْتَغِلِّين وتُجار الحرب المولعين بشكل خاص بالمجوهراتِ العائليةِ ! اشْتَري بثمنه شيئًا ما ... أي شيء . فأنت في حاجة إلى كُلِّ شيء . سيُصبحُ ملكك وسَتستفيدين منه ... خُذيه .. فأنا لا أعطيه لك بل إنني فقط أُعيده إليك ... فقد كَانَ لك في الأساس . إنه يخصك أنت .. يَعُودُ إليك في المقام الأول ... أظنُّ أنها كانت مشيئة القَدَر ؛ إنني لم أكُنْ قادرًا قبل الآن على خلعه من إصبعِي ! » .

شرعتْ تقول :

– « أنا لم أُعد إليك خاتمك ؟ » .

لكنها غيَّرت رأيها ، وأَخذَت خاتم الزواج في صمت .

توقفت عن الكلام .. فقط اضْطَرَبَت واخْتَلَجت [٢] أوداجها وارْتَعَشَت يداها وبقيت ساكنة لم تتكلم . كان بوسعي أَنْ أَسْمعَ صوت صمتها .

كُنا وحدنا .. وحدنا تمامًا عند نهايةِ العالم ... بدت عارية .. كالحقيقة العارية في (سربرينيتسا) !!! كان جمالها يتلألأ تحت ثيابها الرثَّة مُبددًا سوادَ الليل الحالك ... كان الشيء الوحيد الذي ما زال بوسعي أَنْ أَفهمَه ويمكنني إدْرَاكهُ بوضوح هو أن المرأة التي كانت فتاتي منذ عهدٍ بعيد والتي لم أنسها يومًا كانت تقترب مني وتستميلني إليها .. كانت تعرض نفسها عليَّ .. وتُقدمُ نفسها لي .

لقد تحررتُ أخيرًا مِنْ كُل شيء .. من الحرية ... من الأمل .. وتخلَّصتُ حتى من خاتم الزواج ... والآن أصل أخيرًا إلى النهايةِ ... الآن ، يُمْكِنُني أَنْ أَكُون من

---

(١) مَتْرَبَة : فَقْر أو فاقة أو عَوز – (المترجمة) .

(٢) اختلجت : ارتعشت أو تَشَنَّجت – (المترجمة) .

جديد على نفس الهيئة التي جِئتُ بها إلى هذا العالمِ ... نزعتُ قميصي .. ملابسي الداخلية ... وجواربي .. كل شيء ..

عاريين كما كُنا يوم دخولنا إلى هذا العالم ، بريئين من كُلِّ الخبائث والآثام التي حولنا .. جاهزين لارتكاب جميع الخطايا .. على أُهْبَة الاستعداد للسقوط في كل أشكال الذنوب .. لأن نأثم في كل شيء ..

* * *

بَقيت (تنزيلا) في غرفتي ... لَمْ تَظْهرْ طوال النهار ... بَقيتْ مَعي في داخل البيتِ الذي انتُزِع منه القرآن ...

إنه كان زمن الإلحاد اللجُوج [1] يُحاصر (سربرينيتسا) ويطوقها من كل مكان !

لطالما اعتقدتُ بأنَّني لن أملَّ البقاء معها ، وبأنني لن أَسْأم أبدًا مِنْ وجودها مَعي .

و لَمْ يحدث ذلك ... ولكنِّي كُنْتُ أولَ من أذعن لذلك العالم القائم خارج بيتنا ... كنتُ قد دُختُ وأصابني الدُّوار بسبب ذلك التكَتُّل الصاخب من الناسِ الذي احتشد حول بيتِنا حيث لم يدعني صُراخهم وضَجيجهم أنعم بلحظة سلام واحدة ... كما جذبتني هتافاتهم المُنَادية بالحرية ومُطَالَبَتهم بالاستقلال .

ولبُرْهَة قصيرة بقيتُ أنا و(تنزيلا) صامتين في جوف الظلام ... ثمَّ قرَّرتُ أن أدعوها للخروج بصُحبتي .. وأن أدعها تُمسك بي من ذراعي ... فنحن لا نَهتمُّ لشيء !! وهذه فُرْصَة مُناسبَة للخروج ... أحد الأيام الاحْتِفَاليَّة في (سربرينيتسا) يُقدَّم إلينا مجانًا .. إنه احتفالنا ! .

رَفعتُ عني مُلَاءَات [2] الفِرَاشِ الدافِئة ونهضتُ وقد عزمت على نيَّة معينة ، سأستعملُ بدَّال [3] الدرَّاجَة الهَوَائِية لعلي أتمكن من سماع ما يؤكد الأنباء التي سمعناها تحت نافذتِنا حول مراسم لاحْتِفَال رَسْمِي في (سربرينيتسا) .

هنا في (سربرينيتسا) تتناغم تلك الوضعية المقلوبة - رأسًا على عقب - للدرَّاجَة الهَوَائِية مع صورةِ العالمِ المَقْلُوبة في هذه البلدةِ .. (سربرينيتسا) هي البلدة الوحيدة

---

(١) اللجُوج : مِلْحاح أو مُلِح - (المترجمة) .

(٢) مُلاءَات : جمع (مُلاءَة) وهي شَرْشَفٌ أو غِطَاءُ السَّرِير - (المترجمة) .

(٣) بدَّال : دَوَّاسَة أو (دَعَّاسَة) الدراجة الهوائية التي تدور بِالقَدَم - (المترجمة) .

التي يُدفع فيها بدَّال الدراجة باستعمال الأيدي وليس الأقدام !! حيث المقبض اليدوي والمقعد مُثبتين على الأرضِ ... والشخص الذي يَدْفعُ البدال يَرْبضُ فوق الدراجة المقلوبة ويُدير البدَّال بيديه بينما يجلس القُرْفُصاء مقربًا إحدى أذنيه من جِهَاز الاسْتِقْبَال [1] الخاص براديُو تَرَانْزِسْتُور [2] ... وهكذا تبدأ العجلات المُشرعة نحو السماء بالدوران سريعًا واللفُّ بسرعة فائقة في الهواءِ . ومن لا يمتلك دِينَامُو [3] فستصبح الدراجة عديمة الفائدة بالنسبة إليه ؛ لأن قنَّاصة « التشيتنيك » الذين يتربصون بالمارة - ولا يرقبون في عابر سبيل إلًّا ولا ذمة - يستهدفون راكِبي الدَّراجَات بشكل خاص ويجدون ضالتهم الكبرى عندما يكتشفون دراجة تتحرك في الطريق .. وبمجرد ظهور راكِب للدَّراجَة في الشارع يَبْدأُ خمسة أو ستة منهم بإطلاق النار في نفس اللحظة ... ومن الصعب جدًّا ألا يُصاب راكب الدراجة فضلًا عن أن يفقد حياته ... ولِهذا السبب كانت الدراجات في (سربرينيتسا) لا تُستعمل إلا للاستِماع إلى النشْرات الإخْبارِية في المحطات الإذاعيةِ التي يتمكن التَرَانْزِسْتُور من التقاطها ..

التَرَانْزِسْتُور الذي أمتلكه من ماركة « بيونير Pioneer » وله مُهَايِئ [4] ارْتِجالي ؛

---

(١) جِهَازُ اسْتِقْبَال أو الْتِقَاطِ (Receiver) : جِهَازٌ لاقِطٌ أو مُسْتَقْبِل للموجات الصوتية . يقوم بنقل الإشارات الكهربائية واستقبالها لاسلكيًا بواسطة الموجات الكهرومغناطيسية (Electromagnetic Waves) . حيث تتولد الموجات الكهرومغناطيسية في جهاز مرسل ثم تنشر في الفضاء عن طريق الهواء . ويشتمل كل جهاز مرسل على مذبذب وعلى مكبر للصوت - واحد أو أكثر - ووظيفة المذبذب هي توليد إشارة حاملة ذات ذبذبة معينة ؛ وهذه الإشارة هي عبارة عن حقل كهرومغناطيسي يحدث تيارًا في جميع (الهوائيات) الواقعة في نطاقه . ولما كانت ثمة محطات إرسال كثيرة فإن عدد الإشارات الحاملة التي تصدم الهوائي أكثر من أن تحصى ، والمهمة الرئيسية لجهاز الاستقبال هي اختيار الإشارة المطلوبة ونقلها إلى مكبر الصوت حيث تحول إلى نفس الأصوات التي انطلقت من محطة الإرسال - (المُترجمة) .

(٢) التَرَانْزِسْتُور (Transistor) : أداة إلكترونيَّة صغيرة تستخدم في أجهزة الراديو المستقبِلة لتضخيم الإشارات الكهربائية وتوليدها والسيطرة عليها . ويصنع الترانزستور من مادة نصف موصلة ، هي الجرمانيوم أو السليكون عادة . ومن مزاياه أنه صغير الحجم ، خفيف الوزن وشديد الفعالية ، بالإضافة إلى أنه طويل العمر ورخيص الثمن وقليل الاستهلاك للتيار الكهربائي . والواقع أن اختراع الترانزستور أحدث ثورة في الحقل الإلكتروني بعد أن حل محل الصمام المفرغ في أجهزة الراديو . وهو يستخدم اليوم أيضًا في صناعة التلفزيون والأقمار الاصطناعية - (المُترجمة) .

(٣) دِينَامُو (Dynamo) : مُوَلِّد كَهْربائِي - (المترجمة) .

(٤) مُهَايِئ أو مُكَيف (adapter) : جهاز يعمل على ضبط وتهيئة التيار الكهربي - (المترجمة) .

لذلك فهو يعملُ بمولِّد الدراجة على ترددات مُخْتَلِفة وبجميع لغات العالم وعلى نحو مستمر ودون انقطاع .. وقد تحدثت الإذاعات - التي كنت بالكاد أستمع إليها وتلتقطها أذني بصعوبة بالغة - عن ذلك الاحتِفَال التشْرِيفي والاستقبال الرسْمِي .. تحدث العالم عن ذلك النبأ المُدَوِّي في (سربرينيتسا) ... كان العالم بأكمله يُعلنُ عن الوصول المُظفر والمُكلل بالنصر للجنرالِ الفرنسي (موريلون) [1] :

« اليوم فقط ، ولن يحدث مرة أخرى - وقد لا يتكررُ مطلقًا بعد اليوم - سيُقام (سيرك موريلون) في بلدتِنا .. يا أهالي (سربرينيتسا) .. ستدفعون ثمنًا باهظًا جدًّا إن فاتتكم مثل هذه الفرصة الفريدة ... والشيء الأساسي الذي سيفتنكم ويجذبكم في هذا السيرك ، هو حضور النجم الإعلاميِّ الأوَّلِ على مستوى العالم .. مُهَرِّج [2] باريس (فيليب موريلون) شخصيًا ورسميًا ... وسترُافقه كُبرى المحطات التلفزيونية المُختارةِ بعناية ... وسَيَعدُّ مراسلو الحربِ الأكثر شهرة في العالم - الذين شهدوا الحرب في فيتنام وأفغانستان وإيران والعراق والكويت والصومال - قصَّة مُختصرة في عشرين ثانية حول أحداثِ الحربِ في (سربرينيتسا) ... وستظهر أثناء بث التقرير المُتلفز لقطات قصيرة جدًّا لمساحات تعادل بضعة أقدام من أرض (سربرينيتسا) ؛ لأن المراسلين يجب أنْ يظهروا - في بداية تقاريرهم و كذلك في لحظة انتِهاء البث - في لَقْطَة [3] مُقرّبة ومُكبرة وذلك بالطبع على حساب الصورة في خلفية المُراسل ... وإذا طرحنا من الثواني التسع المتبقية ، ثمان ثوان لصورةِ (موريلون) ، فسَيَبْقى من الوقت ما يُتيح الفرصة أمام صور (سربرينيتسا) لكي تجوب العالم وتصل إلى كل مكان ! وهو بالطبع ما يرفع من قدر سكان (سربرينيتسا) !! لذا عليكم أن تستفيدوا إلى أبعد الحدود مِنَ الثانيةِ الأخيرة المُتبقية من التقرير .. وأن تُقدِّموا أنفسكم إلى العالمِ على أفضل وجه ممكن ! » .

أَحسست بأنَّ (تنزيلا) كانت تتبَسَّم في الظلام من الطريقة التي كنت أُقلد بها

---

(١) الجنرال فيليب موريلون (Ph. Morrillon) : قائد القوات الفرنسية المشاركة ضمن قوات حفظ السلام الدولية - المقاتل سابقًا في حرب الجزائر - والمتهم بالتستر على ما قام به الصرب من مذابح جماعية، وعمليات سميت بالتطهير العرقي ، بالإضافة إلى دوره في إعاقة خطط التدخل الإنساني لتوصيل المواد الإغاثية بالقوة إلى المناطق المسلمة المحاصرة ، بحسب ما نصَّت عليه قرارات الأمم المتحدة - (المُترجمة) .

(٢) مُهَرِّج : مُضَحِّك الجماهير أو البِلْيَاتْشُو - (المترجمة) .

(٣) لَقْطَة : صُورَةٌ فُوتُوغْرافِيَةٌ أو شَمْسِية (وبخاصة في التصوير السينمائي أو المُتلفز) - (المترجمة) .

رسائل الإذاعة .. تبسمت لأدائي الساخر .. لَكنَّها قرَّرت أَنْ لا نخْرج مِنْ جُحْرنا !

* * *

كنَّا نتوقعُ أَنْ يصِلَ (موريلون) مِن اتجاهِ (براتوناتس) لكنهم خَدعوه في (براتوناتس) ... فبينما كانوا يهتفون بشعارات مثل : « تحيا الصداقة المُتَوارثة بين الشعبين الفرنسي والصربي » .. أخبروه أيضًا بأنَّ المسلمين قاموا بتفجير جزء من الطريقِ المؤدّية إلى (سربرينيتسا) - التي تقع تحت سيطرتِهم - وأرسلوه إلى (سربرينيتسا) من طريق آخر .. قذفوا به عبر الطريق الدائِري [1] الذي يمر على (ساشا) ... وقد تأخرت بقدر ما لزمه من وقت ليُصبح جنرالًا !! وكذلك تأخرت مراسم الاحتفال ... تم تأجيلها !!

ولكن النساءَ - في سراويلهن التقليدية المُتهدلة التي أصبحت رثةً وبالية - صمَّمنَ على انتِظاره في خارج ... كُن يغطين التّلة الصغيرة التي تُمثل الشّارِع المُمتد مِنْ مكتبِ البريد - الذي تهدَّم بعد أن تعرض للقصف - إلى المستشفى الحربي .

وفي المبنى الأخير - المستشفى الحربي - ، كَانَ الدُّكتور الإنجليزي (ستيوارت) - زميل الدكتور (ماهميتس) - يجْهَش بِالبُكَاء .. لم يَستطع أَنْ يُصدِّقَ عينَيه ... كان الجرحى يَمُوتونَ أمام عينيه مباشرةً ، أما الباقون على قيد الحياة فكَانوا يأْكلُون ما تبقى من قشْرور خبزِ الشوفان مع الشاي غير المحلي ، ويأملون أن يَمُوتُوا سريعًا بسبب جراحهم قبل أن يقتلهم الجوع ... أعتقد أن القرار الذي بموجبه بَدأت المظلات بإلْقاء الإمدادات الغذائية كان قد صدر - غالبًا - نتيجة لجُهود الدُّكتور (ستيوارت) ... وأعتقد بأنَّه لم يعبأ بحقيقةِ أن أغلب محتوى العبوات الغذائية كان عبارة عن مسحوق (بودرةِ) لحم الخنزير !! أو أنه لم يكن على علم بتلك الحقيقة أصلًا . أَو أنهم اعتقدوا بأننا - نحن الذين أجبرنا في مَدارِس شمال شرق البوسنة على تَعَلُّم اللغة الروسية فقط - لن نعْرفَ ما الذي كنا نَأْكله أَو أنهم حسبوا أننا في غمرة الجوع المُهلك سننقضُّ على تلك الأكياس الصغيرة التي تَحتوي على مسحوق لَحْم الخِنْزير كالوحوش الضارية ؟! ولكن نظرًا لأن الناس كانوا غير مُعتادين على لونِ ذلك المسحوقِ - الذي يُفترض أن يُؤكل - ونظرًا لجهلهم - أو عدم اكتراثهم - بكيفية

---

(١) طريق دائِري : طريق على شكل دائرة يطوق عدة مناطق أو بلدان متباعدة ويصلها ببعضها - (المترجمة) .

قراءة الكتابة الصغيرة المطبوعة بالإنجليزيةِ على تلك الأكياس الصغيرة والتي تُوضِّحُ مكونات المسحوق وتعليمات التحضيرِ ، فقد خمَّن الناس بأن ذلك المسحوق موضع الخلاف والتساؤلات لا بد أَنْ يَكُونَ - مع الحَسْرَة والأَسَف - مَسْحُوقًا للتَّنْظِيفِ أو لِغَسْلِ الثِّيَابِ . خصوصًا ؛ لأنه كان زَلْجًا ودُهْنِي الملمس . وانتَشرتْ أخبار ذلك المسحوق سريعًا بين الناس .. ولهذا السبب لَمْ يأكلْ أي أحد مِن ذلك المسحوق !

انتقل البريد الشفَهِي مِنْ أذن إلى أذن في سرعةِ الضوءِ ... في ذات اللحظةِ التي تُلفظ فيها الرسالة في (سربرينيتسا) ، كانت تُسمع أيضًا في (بوتوتساري) و (سُوتْيِيشكا) . كيف حدث ذلك ، أنا لا أعْرف ؟ لقد خلَّفت هذه الحرب وراءها الآلاف من علامات الاستفهام .. آلاف من الـ « كيف ؟ » و« لماذا ؟ » بقيت مُعلقة دون إجابات ... وأيًّا كانت طبيعة ذلك المسحوق - وليكن ما يكون - فقد عرف الناس بأنهم لا يُفترض أن يأكلوا مَسْحُوق التنْظِيفِ أو الغَسِيل الخاص بالكفار [1] !!

وَصلَ (موريلون) أخيرًا ... كان مصدومًا بل وأصَابه الذُّعْر والهَلَع بسبب الكميةِ الضخمةِ من الأسلحةِ المكدسة التي نصَّبها « التشيتنيك » وقاموا بحشدها على طول الطريقِ الموصل إلى (ساشا) ، وقد فَزِع بدرجة أكبر عندما رَأى أن أهل (سربرينيتسا) يدافعون عنها بأيديهم العاريةِ مُجَرَّدِين تمامًا من أي شكل من أشكال السلاح ؛ لذا قرر الجنرال أن يتَرَاجع .. كان يحاول أن ينفذ بجلده وينجو بحياته ... وفي طريقه للهرب - وبشكل عَرَضِي - استمر في إعطاء نفس الوعودِ التي أعطاها للنساءِ من قبل فِي (تيِيرسكا) و (كونيفيتش بوليو) ... ظل يوزع الوعود حتى آخر لحظة قبل أن يرفع كعب حذائه عن موضع قدمه الأخير في (سربرينيتسا) ويلوذ بالفرار تاركا أهلها تحت رحمةِ الجزَّارين [2] !!

---

(١) يتضح هنا حب أهل البوسنة للإسلام وإصرارهم على التمسك بتعاليمه فقد كانوا يرفضون أكل لحم الخنزير على الرغم من أنه كان المُتاح في الوجبات التي يقدمها الكروات (انظر : البوسنة والهرسك .. أمة تذبح وشعبٌ يباد /تقرير حول زيارة وفد لجنة الإغاثة الإنسانية للبوسنة أثناء الحرب . إصدار خاص عن هيئة الإغاثة الإنسانية بمصر) - (المترجمة) .

(٢) بعد أن أُعلنت مدينة (سربرينيتسا) مدينة خاضعة لحماية منظمة الأمم المتحدة أعلن الجنرال (فيليب موريلون) ، قائد القوات الفرنسية المشاركة ضمن قوات حفظ السلام الدولية ، أنه سيدافع عن أي شخص مقيم في المناطق الموجودة تحت علم الأمم المتحدة . ومن ثم توجه آلاف من المسلمين إلى المدينة تاركين قراهم للاستفادة من هذا الإعلان ، فنزعت قوات الأمم المتحدة أسلحة الأهالي بحجة أن المجتمع الدولي سينوب عنهم في حمايتهم . وبعد ٤٨ ساعة شنت القوات الصربية هجومًا على المدينة ، فهرب

لكن المئات من النساءِ والأطفالِ الفارين مِنْ (تسِيرسكا) لَمْ يَعدْ بوسعهم أن يحتملوا الاستِماع إلى نفس الكلمات في (سربرينيتسا) ... فمِئات من الناسِ مثلهم فَقدوا حياتَهم بعد أن استمعوا إلى نفس الكلماتِ في (كونيفيتش بوليو) . المئات من النساءِ الناجيات اللواتي لم يثقن بكلماته في (كونيفيتش بوليو) وهَربن إلى (سربرينيتسا) ... لم يعد أمامهن أي مكان آخر يهرعن إليه هربًا من الذبح . كانت الدائرة قد اكتملت وتم حِصار وتطويق (سربرينيتسا) بالكامل !!

كَانَ الحصار قد اكتملَ أيضًا حول الجنرالِ الفرنسي .. لم يكن النساء ليَسْمحنَ له بمغادرة (سربرينيتسا) .. ومن بعيد ظهر الرجل الفرنسي ... كَانَ طيف الفَضِيحَة الأكبر في حربِ البوسنة يلوح في الأفق ..

تم الترحيب بالرجل الفرنسي واستُقبل بالأعلام والراياتِ التي لَمْ تُشبه مُطلقًا الرايات والهُتَافات التي كانت تظهر في مسيرة « مَشْعَل الشبيبة » أيام (تيتو) وكالهُتَافات المُزيفة والمُلفقة باسم « الأُخوّة .. الوحدةِ .. الجيشِ » بل تم استقباله بهتافات أخرى غير مُلفقة وجَدِيرة بالهتاف وتستحق الاسْتِمْرار في رفع الصوت بها ... قُمتُ بنَقل تلك الهتافات ونسختها هنا :

« نحن جياع ! »

« لا تدعهم يَقْتلونَنا ! »

« لا تخذلنا وتَترُكنا وحدنا »

« إن غادرتنا ، فسوف يَنْزل الصرب علينا مِنَ التلالِ ويَذْبحونَنا ! »

لَمْ تتجه الكاميرات وآلات التصوير التلفزيونية نحو النتائجِ المعاصرةِ التي أفرزتها تلك الهتافات التي ازدهرت في عهد (تيتو) : « الأخوّة .. الوحدة .. الجيش » ... لم تلتفت الكاميرات إلى الناس ولم تُصوِّرهم مطلقًا ... فقد كان مراسلو الحرب يقفون أمام عدسات المصوِّرين من زاوية قريبة جدًّا لا تترك مجالًا لظهور الناس في واقعهم الحقيقي .. كانت الكاميرات مشغولة بتصوير المراسلين وهم يتغنَّونَ -

(موريلون) ومساعدوه في سيارة أجرة ، الأمر الذي اضطر اللاجئين إلى وضع أنفسهم تحت حماية القوات الهولندية التي تعمل تحت علم الأمم المتحدة ، إلا أن هذه القوات ردت المسلمين وبقيت في معسكراتها ، فأصبح المسلمون فريسة مكبلة في مرمى الميليشيات الصربية المتعطشة للدماء ؛ مما مكنهم من تنفيذ المذبحة التي راح ضحيتها الآلاف من البوسنيين - (المترجمة) .

بِأصواتٍ ليِّنة ونغمات هادئة - بِإنْسَانِيَّة (موريلون) وحُبه للخَيْرِ والإِحْسان .. وأخذت وسائل الإعلام تنقل تلك الترانِيمَ [١] الناعمة التي تُعبر عن إنْسَانِية (موريلون) وقلبه الحنون !!

لكن الكاميرات لم تَستطع أن تُسجل بشكل آنِي - وفي نَفْسِ الوَقْتِ - ما كان يجري في الخلفيةِ ... فقد كان المراسلون المُحترفون يُصرُّون على تكرار لقطات تم بثها مُسبقًا وعلى إعادة عرض أجزاء مُتقطعة من تقاريرهم السابقة المُصورة من زاوية مُقرَّبة جدًّا ، بالرغم من كونهم قد تحدثوا عن كُلِّ شيء بشكل تام ومثالي في التقرير الأول الذي تم تسجيله في مرحلة مبكرة جدًّا ... إنَّ فَضِيحَة العدوانِ الأكبر والحرب على البوسنة والهرسك يُمكن أن تَصِل ذروتها بسبب مهارة مراسلي الحربِ المُدربين ومصوريهم المُحترفين من ذوي الخبرة ، كما يمكن تَجَنبها وتفادي ويلاتها بسببهم أيضًا ... لَنْ يَكتشفَ العالم شيئًا عما كان يجري في ذلك الوقت وراء ظهور المصورين وأمام عيونِ المراسلين المُثبتة على مشهد الدخولِ المُظفر لقائدِ قوات الأُمم المتحدةِ إلى (سربرينيتسا) .. كان المُراسلون مُنهمكين في إعداد تقاريرهم التي تقوم على التكرارِ المستمر لمشاهد مُتَعَاقِبة حول الوصول الميمون لقائدِ قوات الأُمم المتّحدةِ إلى (سربرينيتسا) .. وأنَّى للعالم أن يكتشف شيئًا عن أسوأ ما يمكن أن يَحْدث خلف تلك الكاميرات من خِزْي وعار ؟!

تم أُسرَ (موريلون) في (سربرينيتسا) .. أُسِرَ مِن قِبل نِساءِ (تسيرسكا) !!

لقد حَدثَ ذلك بالفعل ، وكما لم يحدثْ من قبل مُطلقًا ... كان هناك كُلُّ أنواع الأحداث التي يُمكن أن تُعرض على شاشات التلفزيونِ .

استعادَ المصوِّرون المُحترفون والمراسلون المُدرَّبون على إعداد تقارير المعارك هُدُوءَهم واتزانهم عندما أرغم - دون أن يملك أيَّ اختيار - جنرال الجيشِ البائِد على الصعود إلى سَطْح مبنى مكتبِ البريد .. التقطتْ عدسات الكاميرات - بعناية فائقة وعلى نحو مَدْرُوس - مشهد المَأزِق [٢] الدراماتِيكِي [٣] المثير للجنرالِ المُتورط ... حيث تم تصويره وهو تخبط في مُعْضِلَة حمل العَلَم .. لم يستطع أن يحدد : هل يَجِبُ عليه أَنْ يَحْملَ عَلَمَ الأُمم المتحدة بيده اليمنى

---

(١) تَرْنِيمَة : أُنْشُودَة - (المترجمة) . (٢) المَأزِق : الوَرْطَة - (المترجمة) .

(٣) الدراماتِيكِي (درامِيّ) : تَمْثِيلي أو مَسْرَحِي - (المترجمة) .

أم اليسرى ؟ ثمَّ تلَفظَ بجملة وحيدة .. جملة واحدة . واستنادًا إلى فَهْم المراسلين الذين نقلوا بَيَانه وقدرتهم على التمْيِيز ، فقد قالَ الجنرال ما يلي :

« سأبقى هنا لأموت مَعكم !

تحيا الحرية « قالها بالفرنسية » !

لَنْ تسقطَ (سربرينيتسا) !

ولا حتى شبر واحد منها !

لا تَقلقوا .. لا تخافوا .. سَأعود !

يَجِبُ أَنْ تَنزِعَ الأُمم المتحدة سلاح (سربرينيتسا) ..

ولَنْ أغادر مِنْ هنا قبل أن يُنفذ ذلك ! »

وبينما كَانَ (موريلون) يَتلفظ بواحدة من أخطاء التهجية المختلفة التي تكررت في خطبته التاريخيةِ التي ألقاها فوق سطح مبنى مكتبِ البريد المُتهدم جراء القصف ، انطلقت صرخة مفجوعة من إحدى النساء اللاجئات مِنْ (تسِيرسكا) .. كانت المرأة تقف على الأرضِ المتجمدةِ أسفل المبنى وتحت قدميه مباشرةً .. دوت صرختها الهائلة في جنبات القبر الكبير الذي يضمنا .. « قبر سربرينيتسا » ، وتسبَّبَت في إحداث حالة من الصمت التامِّ سمحت للجميع بأن يسمعوا الصوت المكتوم الذي صدر عن سقوط المرأة هامِدة وقد غابَت عن الوَعْي بعد أن أدركت أنَّ طفلها الرضيعَ الذي كانت تحمله على صدرِها لَمْ يَعُدْ يَتنفسُ ... فقد ماتَ الطفل الصغير ضَعِيف البِنْيَة مِنْ شدة البرودةِ وفرط الجوعِ ... !

لَمْ يشتَرْعِ انتباهي ولم يستَوْقف نظَري الأسلوب الذي مَلأَ به المصورون ثوانيهم الثمانية باللقطةِ المُقربةِ لـ (موريلون) ولم أكْترِث بالطريقة التي ركَّزوا بها عدساتهم الجَرِيئة – وبشجَاعة باسلة – على العَلَم الذي كان في يَده . هل سيحمله بيساره أم يمينه ؟ حسنًا لقد حمله باليمين ! ولكنَّ ذلك العلم يُمْكِنُ أَنْ يَنتهي به الحال في يساره أيضًا ، وسواء ، لأنه كان على عَجَلَة من أمره أَو ما عدا ذلك ، فالفيلم يُمكن أن يُعدَّل على نحو عَكسِي في مَعْمَل تحضير الأفلام ويُصبحُ مَعْكُوسًا !

انْسَحَبتُ من ذلك المشهد الدرامي الذي لم يُسجَّل تلفزيونيًا ... تاركًا وراء ظهري حلقات مُتتابعة من النساء الأسيرات تحيط بمبنى مكتبِ البريد المُتهدم .. كنَّ

يُطوِّقنَ البنايةَ على شكل موجات وقد صمَّمن على المضي في عزمهن ... لن يفلت السيد (فيليب) من أيديهن .. لا بد أن يُصبح أسيرهن !!

عُدت إلى البيت .. كُنتُ أشعر كما لو أنني أَشقُّ طريقي عائدًا مِنْ تَشْيِيع جنَازَة .. لَمْ أَنْظرْ للوراء نظرة واحدة بل ذهبت باتجاه البيت مباشرةً - كما لو أنني لم أعد للتوِّ مِنْ مقبرة بالفعل - كُنتُ أركض باتجاه البيت . ولكنني لم أكُنْ أغنِّي .. فذلك لم يكن ملائمًا على الإطلاق .

صِحتُ قائلًا :

- (تنزيلا) ! .. « الحرية .. يا (تنزيلا) ! » ... « الحرية ! لقد أُعلنت بلدتنا (سربرينيتسا) كمنطقة خاضعة لحماية منظمة الأمم المتحدة .. وأعلن (موريلون) استقلالنا أمام العالمِ ! » .

لكن (تنزيلا) لَمْ تُفاجأ بذلك .. يبدو أنَّ السبب لم يكن فقط ؛ لأنها عرفتْ أنني كُنْتُ أَكْذبُ عليها ... فقد أخبرتني - بينما كنت أَدْفعُ بدال الدراجةِ - بأنها اكتشفتْ ذلك قَبلي . والآن ولمدة ساعة بأكملها ، ظلت تَستمعُ بانتباه شديد إلى ما قاله (موريلون) من خلال مستقبل الراديو الترانزستور الصغير الخاص بنا والذي يعمل بواسطة مولِّدِ « دينامو » الدراجةِ .

قالت لي :

- « إذا لم يكن مُولِّدنا قد أصَابَهُ التَّلَف ، فلا بد أن كُلَّ محطات إذاعة العالمِ سَتَصدح بالتصريحات التي أدلى بها (موريلون) في (سربرينيتسا) ! ... ولكنَ بهذه الطريقة ، فإن مستقبل الراديو الترانزستور الصغير الخاص بنا بالكاد سيمكنه التقاط الإذاعات وبالتالي فإننا سنستمع إليها بصعوبة بالغة ! » .

- « (تنزيلا) .. إصغي إليَّ ، إن (موريلون) لَمْ يُلق خطابه قَبْلَ ساعَةٍ من الآن ... بل لَمْ تمض حتى خمس دقائق منذ أن تَكلمَ ، والجملة الوحيدة التي قالها فوق مبنى مكتبِ البريد المُتهدم - والتي لم يتمكن أحد منْ سماعها - لا يمكن أن تكون قَدْ أُرسلتْ إلى العالم ! » .

قالت (تنزيلا) وهي تتأفَّف وتتذمر :

- « ربما أنك لا تَعْرفُ الكثير حول فروق التوقيت الزمنية في المناطقِ المختلفة . في

(باريس) ينْتَصفُ النهَار وِيحل وقت الظهْر هناك قبل أن يحل الظهرُ هنا في (سربرينيتسا) . أنسيت أنَّ البوسنة قد تحولت إلى التوقيتِ الأوروبي وهذا يسري أيضًا على (سربرينيتسا) ، ومنذ ذلك الحين لَم يعد الظهر ظهرًا .. لم يعد الظهر يأتي في وقت الظهر ! » .

- « بحق اللّه ، لا تهتمي لذلك ، إنهم يَكْذبونَ ! ما الذي يستطيع أن يقوله (موريلون) ؟! عندما كان فوق سطح مكتبِ البريد لَمْ يَفْتح فَمه لمدة تكفي لنُطْق أربع أو خمس كلمات . ماذا يمكنك أنْ تَقولي في بضع كلمات معدودة ؟! ماذا عساك تقولين ؟ لا شيء ! » .

- « أنت مُخطئ ! هنا ، على موجات محطة إذاعة (باريس) وفي برنامجِها الإذاعي العام ، كان الخطاب الذي ألقاه في (سربرينيتسا) اليوم يُقْرَأُ طيلة الدقائقِ العشْر الماضية وباللغتين الصربية والكرواتية أيضًا ! » .

قررتُ أَنْ لا يكُونَ رأسي عنيدًا كرأس خنزير في هذا الشأن .. فقُلتُ لـ (تنزيلا) وأنا مُبتَهِجٌ ومُنْشَرِح الصَّدْرِ :

- « أنت محقَّة ! ليس من المَعْقُول - أو حتى من المَقْبُول - أن يستمر خطابه لمدة قصيرة فقط ، لَيس من اللائِق أن يستمر خطابه لمدة أقل من خمس عشْرة دقيقة . أجل ليس من المناسب ألا يمتد الخطاب لمدة خمس عشْرة دقيقة على الأقل ! » .

ولستُ أدري ما إن كَانتْ تَسْخرُ مِني أَم من (موريلون) ، أَم مِن الصرب والكروات الذين كانوا في تلك اللحظة يَجْلسونَ معًا في محطة (باريس) الإذاعية ويَقْرؤونَ الخطابَ مِنْ (سربرينيتسا) .

ولكن ما أبهجني وسَرَّني بشكلٍ خاص هو قولها : « مولِّدِنا » و « الترانزستورِ الصغير الخاص بنا » .. لكَمْ سرتني وأبْهَجَت روحي وهي تتحدث عن « أشيائنا » عن شيء خاص بنا معًا .. عندما أشارت إلى راديو الترانزستور الهرمِ بـ « الخاص بنا » وبوَصْفها مولِّد الدراجةِ المُهترئ بـ « مولِّدنا » أيضًا !!

وحتى إذا انتهى بنا الأمر بدون ترانزستور أو مولِّد ، فيكفي أننا معًا .. أنا و (تنزيلا) معًا .. يكفي أن لدى كلٍّ منا الآخر ... أنا و (تنزيلا) لدينا بعضنا البعض وهذا يكفينا .

في اليومِ الذي وصل فيه (موريلون) إلى (سربرينيتسا) ، دبَّت الحياة في أوصالي وغدوت أكثرَ نشاطًا وحيوية ؛ لأنها كانت مَعي ... فقد أعادني وجودها

معي إلى الحياة من جديد ...

وقد ذكَّرني ذلك اليوم الذي وصل فيه (موريلون) إلى (سربرينيتسا) بقصةٍ قديمة حدثت في زمان آخر ..

لَستُ عرَّافًا ولا أزعم أنني أعلم الغيب ، لَكنْ يَبْدو لي أنَّ هذا اليوم قد تكرر في التاريخ وأنه قد حدث بالفعل في فَتْرَة زمنية سابقة .. بالتحديد في تلك اللحظة التي قام فيها ذلك الإمام بإطلاق ريح داخل المسجد ؟ !!

ولكنني لم أكن عرَّافًا ولَم تكن لدي القدرة على التنبؤ .. لم أستطع أن ألقي نظرةً على المستقبل لأعلم أن أيامًا أسوأ مِنْ هذه ستمر على (سربرينيتسا) ... لم يَدُرْ بخلدي أن مصير هذه البلدةِ سيتم تحديده على يد جنرال فرنسي أسوأ مِنْ ذلك الإمام !

يا لغطرسة الإنسان ! .. يا لضعفه وغروره ... ذلك المخلوق المُتَعَجْرِف المُتَكَبر الذي لا يُمكنه أن يرى -على أبعد تقدير - أبعد مِنْ أنفِه .. ودائمًا ما ينسى أن الحَقِيقَة - التي غالبًا ما تكون الأسوأَ - لا يُمكن إخفاؤها .. ولا يُمكن أن ينساها الناس حيث لا يمكن أن تَنزلق وتنساب ببساطة من أذهان الناس أو أن تختفي من صفحات التاريخ !!!

* * *

ذات يوم كان هناك أحد الأئمة ... ذلك الرجل كَانَ إمامًا لإحدى الجماعات (١) منذ وقت طويل . وبالطبع ذلك الـ « أحد » لَيسَ اسمَ الجماعة ، تمامًا كما أن « ذلك » لَيسَ اسمَ الإمام فذلك الإمام وتلك الجماعة يمكن أن تتكرر في أي زمان ومكان مختلفين . كَانَ ذلك الإمام رجلًا صالحاً طَيِّبَ القَلْب لدرجة أن المصلين ببساطة شديدة لم يرغبوا يومًا في تغييره ولم يطلبوا يومًا أي إمام غيره ؛ لذلك بقي إمامًا لتلك الجماعة إلى أن كَبرَ في السنِّ وصار عجوزًا . ولكن مع تَقدُّمه في العمر .. وفي إحدى الليالي بينما كان يؤم المصلين في صلاة العشاء .. أطلق ريحًا !! ولحسن الحظ ، كان ذهن الرجل العجوز لم يزل حاضرًا وجاهزًا لتحضير ردة فعل سريعة تنقذ

---

(١) الجَماعات (j'amat) : جمع (جماعة) وهي جماعة من المصلِّين أو تجمع لحَشْد منَ الناس من أجل الصلاة .

الموقف ، وحيث إنه قد أدرك أن الفعل المشين الذي صدر عنه لم يكن من النوع الصامت ، فقد استطاعَ وفي نفس اللحظة تقريبًا أن يُمثل أنه كان يجلو صوته ويتنحنح لينظف حنجرتَه ... فعل ذلك مرتين . وبالصوت الصادر عن مُحاولة تنقية صوته وتنظيف حنجرتِه نجح في التغطية على ذلك الصوت المُحرِج الذي صدر عنه ... ولكن ضميرَ الإمام العجوز لم يهدأ .. ظل يقلقه ويُؤرقُه طوال الليل ... ومع صباح اليوم التالي حَزمَ أمتعته وغادر القرية مَع زوجتِه وأولاده بعد أن طلب من مؤذن المسجد أن يُخبر المُتولي (١) بأنه استلمَ رسالة مِنْ أهل بلدته الأصْلية ومَسْقَط رأسه أخبروه فيها بأنَّهُمْ يَحتاجونه كإمام لبلدتهم وأنَّ عليه الوُصُول إلى هناك بِأسرع ما يمكن ... وقال لأهل القرية : إنه ما من شك في أنَّ كُلَّ البوسنة تُعد مَوْطِنًا له ، لكن الإنسان يطمئن أكثر وتقَر عَيْنه بالعودة - قَبْلَ أَنْ يُغادرَ هذه الحياة الدنيا إلى الآخرة - إلى المكان الذي بَدأتْ منه رحلة حياتِه .. حيثُ يُمكنه أن يختتم حياته من حيث بدأها . وبعد ذلك ، طلب منهم المَعْذِرَة واستودعهم طالبًا منهم أن يسامحوه بعد أن أعلن أنه هو أيضًا قد سامحهم . وأخبرهم بأنَّ عليهم أَنْ لا يتعجَّلوا في البحثِ عن إمام جديد ؛ لأن مؤذن المسجد جَدِيرٌ بِالثقَة ويُمكنهم أن يعتَمدوا عَلَيه ... ثم استأذن بالانصراف وغادر القرية دون أن يَنْظرَ نظرة واحدة إلى الوَرَاء .

على أيَّةِ حال ، بَدأ الإمام الكبير يستعيد شبابه مُجَدَّدًا في قريتِه الأصلية ... كَانَ الفَزَع وَهاجس الخوف من المَوت بعيدًا عنْ موطنه - البلدة التي كانت مسقط رأسه والتي نما وترعرع فيها لسَنوَات - قَدْ طُرِد نهائيًّا من ذهنه ومُحي مِنْ خاطِره تمامًا ... وكأن الرجل العجوز قد وُلد من جديد .. كان يقول : « لا يكون الرجلُ هو ذاته الحقيقية .. لا يكون نفسه إلا في موطنه الأصلي ! إنني أرفع قبعتي للجماعة السابِقة، لكن ليس هناك مكان مثل الوطن ! » .

وقد استقبلتْه الجماعة الجديدة في قريتِه القديمةِ بشكل رائع . فقَرَّتْ عَيْنُهُ وانْشَرحَ صَدْرُهُ وعادت البهجة إلى وَجْهه .. وشعر الإمامُ بأنه صار شابًّا من جديد .. وبأنه الآن بعيدٌ جدًّا عن المَوت ... بشكل أوضح ، كان قد مُنح فرصة جديدة للعيش والتفاؤل .. عادت الحياة تبتسم إليه من جديد .. تزينت له وبدت خَضرةً حلوة مرة ثانيةً ... وفي أحد الأيام ، أراد أن يذهب إلى تلك البقعة البعيدة من أرض البوسنة

(١) المُتولي : حارِس الوقف أو القَيِّم وَالوصِي عليه .

حيث تقع البلدة التي خَدمَ فيها لوقت طويل والتي طالما اعتقد بأنه سوف يَمُوتُ فيها ... وتَاقت نفسه لأن يرى مرة أخرى الناسَ والأماكنَ التي ألفها واعتاد عليها ... أراد أن يذهب إلى هناك مرة أخيرة قبل أن يموت ، كان ذلك كل ما يطمح إليه ، وبعد ذلك يُمْكِنُه أَنْ يَمُوتَ بسلام ولكن ، كيف له أنْ يحقق تلك الأمْنِية بعد فعلته التي فعلها داخل المسجدِ ؟ ولكنَّه تنحنح بعد ذَلِكَ أيضًا ! لقد فعَلَ ذلك مرتين . المرة تلو الأخرى ، أجل لقد تنحنح عندما عَمِلَ ذلك « الشيء » . وحتى إن كانوا قد سَمعوه .. فقد دَفَعَ ثَمَنَ غلطَتِهِ . وتَرَكَ البلدة على الفور . وحتى لو أنهم كانوا قد أدركوا ما فعله في ذلك الوقت .. فلا بدَّ أنهم الآن قد نَسوا تلك الحادثة ..

ولكن مع هذا ، قرر الإمام أن يعود في السرِّ ... تنكَّر في لباس مختلف ... وقام بوَضع نَظَّارات على عينيه ... ولم يرتد عباءته [١] أو الأحمدية [٢] .

وَصلَ إلى الطرف الأقصى من البوسنة .. إلى حيث جمعته السابقة .

وجد كُلَّ شيء في القرية قد تَغيَّرَ .. كَانَ المسجد – على الحال التي رآه عليها – قَدْ تم طلاؤه قبل خمس أو ستٍّ سنوات ... كما تم تَرْمِيم سقف المسجد أيضًا . وبـدلًا مِن المُعلمة (ستيفانكا) ، كَانَ في المدرسة معلِّمة جديدة (يَوْرُوسيمة) ، وفوق ذلك ، أصبحتْ كنة لسكان البلدة المحليين . فقد تَزوجتْ من شاب من أبناء البلدة اسمه (فضيل) . وقد سَأل الإمام بلا مبالة : ابن من يكون (فضيل) ؟ وبعد أن أخبروه ... استطاع غالبًا أن يتذكَّر والد (فضيل) ... لكنَّه كَانَ سعيدًا لأن أحدًا لَمْ يكتَشفْ هويته .. وواصل جولته في أرجاء القريةِ .

كان هناك لافتة جديدة فوق الدكّان القائم في مدخل القرية ... كانت تبرق وتتألَّق .. تذكر الرجل العجوز كيف كان الناس فيما مضى يسمونه « دُكَّان » .. والآن صار اسم الدكان يُكْتَبُ بطريقة عصرية وأكثر حداثةً : « سوبر ماركت » [٣] ..

على أية حال ، مَرَّ الإمامُ المُبتَهِج أمام الدكّان أو « السوبر ماركت » .. وعلى الرصيف بجوار سياج من الخشب المدبَّب قام فَتىً أشْعَث الرأس رث الثياب بإلقاء التحية على الإمام متمنيًا له يومًا طيبًا ... كان فَتىً لَطِيفًا .. حلوًا وذكيًا .. وقد أجابه الإمام العجوز

(١) عباءة الإمام : الجبة أو القفطان – (المترجمة) .

(٢) الأحمدية : غطاء للرأس أو عمامة يضعها الإمام أثناء الصلاة – (المترجمة) .

(٣) مَتْجَر أو مَحل تِجَارِي – (المترجمة) .

بتحية « السلام » ، وأجاب الولدُ الصغيرُ « السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته ! » .

قال الإمامُ وهو يُداعبُ الصبيَّ ذا الشعر الفوضوي ويضمه إليه :

- « أحسنت .. ! .. وما اسم أبيكَ مرة ثانيةً ؟ (فضيل) ؟ .. هَلْ هو (فضيل) الذي تَزوَّجَ المعلِّمَةَ (جروزدانا) ؟ » .

- « لَيسَت (جروزدانا) ، بل (يوْزُوسيمة) مِنْ (سبرزوفينيتسه) ، بالقُرب من قريةِ (ديفيتو) ، بجِوار (ولاديتسين هان) إنها في (بلغاريا) تقريبًا » .

- « أعْرِفُ ، أعْرِفُ . ولماذا لا أعْرِف ؟ وهل تَذْهبُ هناك لزيارَة جدتك ؟ » .

- « أنا لا أناديها جدتي ... أناديها « نانا » .

- آه .. همم مَرْحى مَرْحى ! ، أحسنت يا ولدي « برافو » [1] ، و« برافو » خاص إلى أبيك (فضيل) الذي تزوج من (يوْزُوسيمة) ... » .

- « أنا لَستُ ابنَ (فضيل) ذلك ! » .

- « ماذا تَعْني بأنَّك لست ابنه ؟! » .

- « أَنا لَستُ ابنه وكفى ... لَستُ ابنه وحَسْب . ولماذا يُفترض أَنْ أكُونَ ابنه ؟! أَنا فَقَطْ أُخبِرُك بالاسم الصحِيح لمعلِّمتنا ومن أي بلد جاءت معلِّمتنا التي تَزوَّجَت مِنْ (فضيل) ... حتى إنه لا توجد أي علاقة تربط بينه وبين والدي ... نحن فقط مِنْ نفس القريةِ . والدي هو ابنُ (مِهمت) » .

داعبَ الإمام ذلك الصبيَّ البوسنيَّ الصغير وأخذ يربِّت على شَعره غير المرتب وهو يقول :

- « أهاا ، أهاا ؟ أحسنت أحسنت .. برافو ! » .

لكنه لم يَستطع أَنْ يتذكَّرَ أنه كان هناك أيّ شخص اسمه (مِهمت) يعيش في القريةِ .. إنه اسم شائع ومألوف ، ولكنَّه كَانَ متأكِّدًا بأن القرية لم يكن من سكانها أحد يحمل اسم (مِهمت) .

ماذا عساه أن يفعل .. لقد نَسي ؟

ثم تَنبه الإمام إلى الطريقة التي عادةً ما يسأل بها المرء ليحصل على مزيد من

---

(١) برافو : صيحة إعجاب بمعنى مرحى ! - (المترجمة) .

الكلمات التي من شأنها أن تعمل على إطالة الحديث من أجل الحصول على بضع كلمات إضافية يُمْكِنُ أَنْ تُقالَ .. فَسأل الفتى البوسني الألْمَعِي [١] :

- « وأنت متى وأين ولدت ؟ » .

- « هنا في قريتنا ، جرت العادة بأن نقول : وُلد هذا الطفل في موسم جمع الذرة ، أو أَثْناء الحصادِ ، أو في موسم سحق ثمار التفاح لعمل المربَّى ، أو في الوَقْتِ الذي يتم فيه عمل مخللِ الملفوف [٢] ، أو في فصل الشتاءِ الذي كان باردًا إلى أبعد حدٍّ ... أما في حالتي أنا فقد دأب الناس في القريةِ على القول بأنني ولدتُ في تلك الفترة التي تحول فيها أبي من مؤذنٍ إلى إمام للمسجد فجأة بَيْنَ لَيْلَةٍ وضُحَاها ... كان الإمام الحقيقي قد هَربَ مِنَ القريةِ مع باكُورَة الصبْح .. أسْرَعَ بالفرار خوفًا من الخزْي والعار ... هاك القصة سأرويها لك : ذات يوم .. أثناء صلاة العشاء .. وبينما كان الإمام يقف في المحراب .. أطلق ريحًا ... ولِهذا السبب ما زال الناس يقولون لي أنني ولدتُ عندما أطلق ذلك الإمام ريحًا داخل المسجد ! » .

* * *

لست مُغرمًا بالتواريخ ؛ ولِهذا سجّلتُ ملاحظة تقول بأنه عندما وَصلَ (موريلون) إلى (سربرينيتسا) .. كان ذلك في يوم **٢٤ من مايو / ١٩٩٣م !!** .

كان ذلك اليوم في بِداية الربيعِ الذي أوشك على الوصول .. الربيع الذي يأبى أن يَجيءَ في السنَةِ الثانيةِ مِنْ عقد التسعينياتِ ولكنها السنَة الأولى فقط مِنَ الحربِ .

* * *

بدأت القذائف تسْقطُ على (سربرينيتسا) . وتوالى قصف المدافع من حولها من كل ناحية ..

كتبتُ في دَفْتَر يَوْمِيّات الفِرْقَة العَسْكَرِية ما يلي :

« اشتعلت إحدى القذائفِ التي أطلقَها المُعتدون مِنْ صربيا في ملعب نادي كرة القدمِ (غور) .. في ذات الوقت الذي كَان من المُفترض أن تُقلع فيه مروحيات الأمم

(١) أَلْمَعِي : ذَكِي شَدِيدُ الذكَاء - (المترجمة) .

(٢) مخلل الملفوف : أكلة ألمانية تصنع من أوراق الملفوف المتبلة - (المترجمة) .

المتحدةَ بالمُصابين ذوي الإصابات الخطيرةِ .. في تلك اللحظة بالضبط ! وعلى مسافة لم تتجاوز حتى المائتي متر مِنْ مبنى مكتبِ البريد المُهدَّم الذي يقف (موريلون) فوق سطحه المُستَوي .

أُخِذ الأسِير (موريلون) إلى (كراجليفوده) - لعله يَرى بأم عينيه أن عصابات « التشيتنيك » ما زالت تُواصل حشد الأسلحةِ حول (سربرينيتسا) وتطوقها بالكامِلِ - فمِنْ هناك ، بوسع المرء أن يرى بوضوح جزءًا جيدًا من مساحة (صربيا) دون حواجز أو عراقيل .. حتى مطار (بُونِيكوه) - حيث تُقلع الطائرات مِنْ ذلك المطار باتجاه (سربرينيتسا) - يُمْكِنُ أنْ يُرى بوضوح من هناك ..

أُسقِطت على (سربرينيتسا) عشرات الآلاف من دانات المدفعيةِ وآلافِ القنابلِ والقذائف الجوية .. أمطرت السماء كافة أشكال القذائف على واحةِ [1] (سربرينيتسا) الحرَّة - الخاضعة لحماية منظمة الأمم المتحدة - الشيء الوحيد الذي لم يقذفوا به علينا هو القنبلة الذريَّةُ ..

وبَعْدَ غَدٍ سيغادر (موريلون) (سربرينيتسا) مَع وعدٍ قوي وتعهد صارم بأن يَعُود إلى (بلغراد) وأن يَتولى رعاية الأمر هناك » .

واشتعلت أيام الجحيم .. التي كَتبتُ عنها في دَفْتَر يَوْمِيَّات الفِرْقَة العَسْكَرية ... كُنْتُ أنفذ الخِدْمَة العَسْكرية تحت سُلْطَة القِيَادَة ، وقد حَدثَت حادِثَة أخرى مروعة على إثرها خاصم النوم أجفاني .. وكانت ليلة كاملة من الأرق والسُّهاد تنتظرني ... وبدلًا مِنْ إدْراج [2] جملتين ونِصْف ، أَو بدلًا مِنْ كتابة الروايةِ بأكملها ، وجدتني مُرغمًا على كِتابَة ما يلي .. أو ربما كَانَ هناك شيء ما دفعني لكتابة شيء يشبه التالي :

« هذا اليوم ، قامت طائرة بإسقاط قنبلة استهدفت ملعب المدرسة الثانوية .. لم يكن الطيار بحاجة لمعلومات حول الهدفِ مِنْ قبل الجواسيسِ داخل (سربرينيتسا) .. فالبلدة مليئة باللاجئين الذين صدقوا الأخبارَ التي بَثَّها الإِذَاعَة عبر راديُو الترانزستور والتي تقول بأن الصرب قبلوا المفاوضات ووافقوا عليها وبأنَّ نزع سلاح منطقةِ (سربرينيتسا) سيتبع ذلك مباشرة . لقد أجبرتْهم الهزائم على قبول التفاوُض ،

---

(١) واحَة : أرْضٌ وَسْطَ الصحراءِ ذات ماءٍ وشَجَر - (المترجمة) .

(٢) إدْراج : إدْخال ، تَضْمِين ، تَسْجِيل - (المترجمة) .

لكنَّهم لم يَرغبوا في أن يبدؤوا المفاوضاتِ كخاسرين ولذا فهم يصرونَ على خوض عملية التفاوض وإنجازها حتى يظهروا بصورة الطرف الرابح الذي لا يعرف الرحمة . إنهم يَستغلُّونَ أعمال الشَّغَب والاضْطِراب الناجمة عن وقف إطلاق النار ليثأروا لأنفسهم .. ويستفيدون من وقت الهَرْج والمَرَج لينتقموا للهزائمِ التي لحقت بهم حول (سربرينيتسا) الصامدة .

لو كانت تلك القنبلة قنبلة عنقودية لكَانتْ سَتُسببُ إحداث نفس المذبحةِ بغض النظر عن المكان الذي سَقطتْ فيه على (سربرينيتسا) ... هذه القنبلة قَتلَت سبعين بوسنيًا وأصابت ضعف ذلك العدد بجروح عديدة » .

إنني أَستمعُ الآن إلى الراديو في غرفةِ المُجندين بالخِدْمَةِ العَسْكَرِية . هذا الراديو يعمل بالكهرباءِ المتولدة مِنَ النهرِ حيث يُنتجُ نهر (تُوريينيتسا) بالكاد كمية قليلة فقط من الكهرباء تسمح - بعد فقد بعض الكهرباءِ خلال تَدفُّقها عبر السلكِ المعدني - بتشغيل هذا الراديو .

كانت كُلُّ المحطات الإذاعية تتحدث عن (سربرينيتسا) .. ما زال العالم يتَغَنَّى بشجاعة (موريلون) .. ما زالوا يُثنون على تصميمه وإصراره على فَضِّ النِّزَاع ... ما زالوا يسَبِّحون بِأمجاده التليدة وبطولته الخالدة !!

ولكن لم يَأت أحد على ذكر المذبحة !

بدأ العالم يتنبه فقط بَعْدَ مرور سَنَة .. عندما سقطت قذيفَة على سوقِ (مَارْكَاله) في العاصمة (سراييفو) .. كانت الضربة عنيفة وقاسية .. وأدت إلى مقتل نفس عدد الضحايا الذين قُتِلوا في (سربرينيتسا) .. وللمرة الأولى ذُهل العالم بالمدى الذي بلغه النزاع في البوسنة ..

* * *

تم فرض حصارٍ كليٍّ على (سربرينيتسا) ... ومع وقف إطلاق النارِ ، دخلت (سربرينيتسا) في حالة من الشلل الدماغي .. وقعت في غيبوبة « توقع سلام دائم » تحت رعاية الأمم المتّحدة وإلى ذلك الحين ، سَتُواصلُ (سربرينيتسا) طريقها نحو المَوت ... ستبقى تحتضر .. ستَختفي بهدوء وتتلاشى شيئًا فشيئًا وسط معاناةِ البوسنيين ونضالهم من أجل استعَادَة الحرية .

ولم يَعْرِف العالم بما يحدث لنا !!

ثم بدأ مراسلو الإعلام يفرون من قبضة شبح الموتِ الهائج في (سربرينيتسا) ... كان المراسلون يلتحقون بزملائهم على الطريقِ إلى (توزلا) .. كما سَبَقَهم على الطريق المراسلون المُبتعثون حديثًا .. !

كنَّا نُعلن أننا في خطر .. ونُرسلُ نُذُر الموتِ بلا جدوى ...

وقد تمكن أحد المراسلين من اختراق الحصار والوصول إلى (توزلا) ... كَانَ ذلك أثناء الفَتْرَة التي يمكن أن يُطلق عليها اسم « الأوقات الطيبة » أو « الزمَن الجميل » بالنسبة لـ (سربرينيتسا) ... لم ينجح فقط في الوصول إلى (توزلا) بل إنه وصل إلى المكان الصحيح بالضبط في اليوم الثامن من مارس / آذار وفي فندق - خمس نجوم - اسمه (توزلا) أيضًا حيث صادفَ أن التقى هناك بقِيَادَة الفيلق الثاني لجيشِ البوسنة والهرسك في احتفال مرح .. كانوا مُنهمكين في نشوة الخمر التي كانوا يحتسونها احتفالًا بعيد الأم ... وهناك وَجدَ القائد وأوصل إليه الرسالة :

« قائد (سربرينيتسا) يُبلغك هذه الرسالة : بعد أن سقطت (تسِيرسكا) في أيدي « التشيتنيك » ، فإنه يُعلمُك أنه من الأفضلِ أن تَستعمل هديتَه بنفسك ، لذلك فليس عليه أنْ يأتي إلى (توزلا) » .

وداخل مُغَلّف من الورق كَانتْ هناك رصاصة .

لَمْ يرجع المراسل مِنْ (توزلا) بأيِ إجابة أو رَدّ .. إمَّا لأنه قد اعْتقل ، أَو أنه قد هَربَ من البلادِ وسافرَ للخارج ، أَو أنه قد اغتيل وتم قتله في طريق عودته إلى (سربرينيتسا) ..

ولم يُقدم أحد في (توزلا) على الانتحار ... فقد كانت (سربرينيتسا) بعيدة جدًّا جدًّا . كما أن البطل البوسني العظيم قابيطان [1] (خايرو) - المناهض لتقسيم البوسنة وأعظم المعارضين لهيمنة (توزلا) ومحاولتها لفرض الوصاية على

(١) قابيطان (Kapetan) : مدير عسكري على منطقة حدودية (التخوم) ؛ والمعنى الأصلي لهذه الكلمة في التاريخ البوسني : مدير لأحد المناطق أو الأقاليم التقسيمية في البوسنة ؛ وكانت له سلطات واسعة جدًّا في أواخر القرن السادس عشر ؛ وكان عليه أن يجمع الجند وأن يفحص الجنود الذين يعبرون الحدود ويحافظ على أمن الطرق من عصابات قطاع الطرق ؛ فضلًا عن أدائه واجبات مماثلة ومنوعة أخرى شرطية وإدارية . كانت وظيفته وراثية . والقابيطانية (Kapetanija) هي المنطقة التي يحكمها القابيطان - (المُترجمة) .

(سربرينيتسا) - كَانَ قَدْ قُتِلَ بالفعل !!

* * *

ما زالت (تنزيلا) تستمعُ - على الترانزستور - إلى الأخبارِ التي تقول إن قوات الأُمم المتحدة أوشكت على الدخول إلى (سربرينيتسا) . وبأذنِها الثانية كانت تَستمعُ إلى أشد وأعنف ضربات القصف المدوِّي التي لم يسبقها مثيل أبدًا ... وكنتُ أنا في الجبهة على الخطوط الأمامية ... وكان خط دفاعنا الأول يُختَرقُ ...

* * *

استمر مائة أو مائتان أو ثلاثمائة من عصابات « التشيتنيك » في التدفق والتدافع .. ونجحوا في التسلل إلى (سربرينيتسا) .. وانتشروا إلى أقْصَى حَد في جميع أرجاء بلدتنا ... وقد أُغْلق خَطُّ دفاعنا عند (كراجليفوده) من ورائهم ، ومن جديد قمنا بسد تلك الثغْرة بعد دخولهم .. وفي تلك اللحظة ، وعندما سُئِل القائد (ناصر) ما إن كان بوسعه أَنْ يَتماسكَ أو أن يصمد لمدة ساعة أو ساعتين إضافيتين .. أرسل القائد (ناصر) تأكيدًا من خلال الراديو إلى القائدِ في (سراييفو) يقول فيه إنَّه يُمْكِنُه أَنْ يَصمد لمدة يومين أو ثلاثة ... في تِلْكَ الأَثْناءِ وفي مطارِ (سراييفو) .. كان القائد (سفر) يَتفاوضُ مَع قائِدِ « التشيتنيك » المدعو (ميلاديتش) [١] ، وعندما سمع القائد (سفر) تلك الأنباء من القائد (ناصر) ، دخلَ إلى غرفة المفاوضات مُبتهجًا مُتَهَلِّلًا وقد انفرجت أساريره .. وقد بُهِتَ قائد « التشيتنيك » وشعر بالاضطراب والإرباك عندما رأى ابتهاج زميلِه البوسني وروحه المتوقدة .. نهض وعاد إلى غرفة القيادة الخاصة به واتصل بقائده الذي كان في شمال (سربرينيتسا) بالضبط . واستلم تأكيدًا للتقريرِ السابقِ حول كسر خَطٍّ (باليبا) في (كراجليفوده) ، ولكنه أُعلِم أيضًا بأن الخَطَّ كَانَ قَدْ غُلِقَ أيضًا منذ

(١) رادجو ميلاديتش (Mladic) : قائد صربي وهو مجرم حرب مشهور ومطلوب الآن للعدالة الدولية . وقف على أرض مصنع قديم مسيَّج من كل جانب أمام ستة آلاف لاجئ أغلبهم نساء وأطفال وبعض من الرجال ليقول لهم إنهم لا يخشون شيئًا ما داموا تحت حماية قواته ووعدهم أيضًا بأن « باصات » سوف تنقلهم من الأماكن الخطرة إلى أخرى أكثر أمنًا ، غير أن هذا الوعد سرعان ما تحول إلى كابوس مرعب ، أعيد اللاجئون إلى نفس المكان وحشروا في تلك الغرف وهناك عُذب من عُذب وقُتل من قُتل واغتصب من اغتصب . تم كل ذلك تحت سمع العالم وبصره - (المُترجمة) .

ذلك الحين . وأن ثلاثمائة من الجنود المغاوير « الكوماندوز » مِنْ مدينة (نِش)[1] لم يرجعوا . وعندما سمع تلك الأخبار ، أجبر نفسه على الابتسام .. ورسم على وجهه ابتسامة مُصْطَنَعة ، وعادَ إلى غرفةِ المفاوضات ومدَّ يَده إلى قائدِ الجيشِ البوسني قائلًا :

– « هيه ، لم يكن الصربي يومًا لاعِبًا شريرًا ... ها أنا أُوقِّعُ لأجل السلامِ في (سربرينيتسا) ! » .

وفي اليوم التالي ، دَخلَ الجنود الكنديون إلى (سربرينيتسا) .. وعزمنا على مُطاردة أولئك المغاويرِ الثلاثمائة القادمين مِنْ (نِش) ، قمنا بتتبع وملاحقة كل واحد مِنْهم حول أشجارِ الزان – كما يلْعب الأطفال لعبة الاختفاء – لم نكن نملك أكثر مِنْ خمسمائة رصاصة .. وكَانَت التعْليمات : « رصاصة واحدة / مغوار واحد ! » .

وكان قائد « التشيتنيك » في مطارِ (سرايفو) يعلم ذلك .. وكان بإمكانه أنْ يَطْلب إرسال ثلاثمائة إضافيين مِنْ مغاويرِ (نِش) .. كان يعرف تمامًا أنه لو دخل مائة منهم فقط إلى البلدة .. فلن يكونَ لدَينا أي رصاصات لهم .

لكن الخسارة المُبكرة والسريعة ... الخسارة الكبيرة جدًّا في الأرواح كَانَت مطلوبة وحتميةً حتى مِنْ وجهة نظر جنرال !! .

* * *

التقيت بالطبيبِ (ماهميتس) مصادفة على الطريق . للمرة الأولى لم يتهرب أحدنا من الآخر ، ولم نختبئ بجوار إحدى البنايات أو خلف شجرة حتى نكتفي بمجرد إلقاء تحية السلام .. وبعد أن كان علينا أن نعبر بعض المناطق في معظم الشوارع ركضًا وبأقصى سرعة ممكنة في محاولة للإفلات من نيران القناصة المجنونة قدر الإمكان .. الآن تَوقَّفَ الناسُ عن الفرار والركض حتى في أكثر الأماكنِ تعرضًا لطلقات القنَّاصَة ... فقد بَدأَت هُدنة السلام ...

لكنِّي كنت أَسْألُ نفسي : « متى سَتَنتهي الحرب ؟ » .

– « لمَ تظهر مُنذ مُدَّة يا سيد (مَرْجَان) ! .. تفضّل بزيارتي في أي وقت .. سَيَكُونُ من الجيد أن تقوم بزيارة لي حتى بدون موعد مسبق .. أنا لستُ مختصًّا بعلم النفس والأمراض العصبية ولست جرَّاحًا أيضًا ، أَو طبيب تخدير ، أَو طبيب

(١) نِش (Nish) : مدينة في جنوب صربيا تقع بالقرب من الحدود البلغارية – (المُترجمة) .

امتياز [١] ، أَو مختصًا بطب أمراض النساء ، أَنا طبيب أطفال فحسب . ولكني كُنتُ كُل أولئك الأطباء معًا أثناء الحربِ .. والآن أثناء فترة السلام وإلى أن يتم رفع الحصارِ عن (سربرينيتسا) سَأُصبحُ طبيبًا مختصًا بعلم النفس [٢] وخصوصًا علم النفس الفسيولوجي [٣] والأمراض العصبية .. فهذا هو التخصص الطبي الذي تحتاجه (سربرينيتسا) هذه الأيام أكثر من أي تخصص آخر ! » .

- « لا أَدري ماذا أقول لك .. » .

- « فقط تفضَّل بزيارتي .. سَأَبذل كل جهدي وسأُوظف كُلَّ ما أَعْرِفُ لمُسَاعَدَتك ... فأنت تَحتاجُ إلى مساعدة عاجلة .. أنت بحاجة إلى تدخل علاجي وسريعًا ! » .

- « أنا ! ؟ ما بك يا دكتور ؟! يبدو وكأنك لم تكن مُهيئًا أو لم تتوقع أن تنتهي الحرب أو أنك لم تكن مُسْتَعِدًّا لنهايةِ الحربِ ؟ » .

- « أنت تَعْرفُ ، الناس يَتحدثونَ ويخوضون في كُلِّ ما يُمكن الحديث عنه .. واليوم كُلُّ أنواع الإشاعاتِ تُروج عنك ، وكثير من الألسنة تتهامس حولك . كُنت سَأُلقي اللوم على هلوسات الحربِ وأقول : إن الناس يهذون ويهدرون بتلك الإشاعات بسبب الخوف الشديد والفزع من الحرب ، لولا أن الكلامَ الخبيثَ الذي يتردد عنك لم يتَوقَّف حتى بعد أن توقف التهديد الفوري بالحربِ وبدأت هدنة السلام ! » .

---

(١) طبيب امتياز : طبيب حديث التخرج يقيم في المستشفى للتمرين على علاج الحالات المرضية المختلفة - (المُترجمة) .

(٢) علم النفس (Psychology) : العلم الذي يدرس سلوك الإنسان سواء كان هذا السلوك ظاهرًا أو باطنًا فهو يدرس السلوك الظاهر كالأفعال التي يقوم بها الفرد ، والسلوك الباطن كالتفكير والتخيل والتذكر . وينقسم علم النفس إلى فروع كثيرة منها : علم النفس العام ، وعلم النفس التربوي وعلم نفس النمو وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس العسكري وعلم النفس الجنائي وعلم النفس المهني - (المترجمة) .

(٣) أما علم النفس الفسيولوجي (Physiological psychology) : فهو فرع من فروع علم النفس يهتم بدراسة الأساس الفسيولوجي للسلوك الإنساني ، ويعتني بدراسة الجهاز العصبي ووظائفه المختلفة ويحاول أن يعرف مثلًا كيفية حدوث الإحساس وانتقال التيار العصبي في الأعصاب والكيفية التي يسيطر بها المخ على الشعور والسلوك - (المُترجمة) .

- « هَلْ تَعتقدُ بأنَّ التهديدَ الفوري بالحربِ قد انتهى ؟ » .

- « أرجوك ، لا تحدثني عن الحرب الآن ! نحن نَتحدَّثُ عنك . أَنا أعتبرك صديقي .. نحن أصدقاء بالطبع ، وكل ما نَحتاجُ إليه هو فقط أَنْ نتحدث معًا . قد يكون الأمر مجرد افتراءٍ مُتعمد لتَشوِيه سمْعَتك .. أنا أيضًا لُفِقَتْ لي كُلُّ أنواع التُّهم وكل الإشاعات قيلت عني أيضًا ، بل وانتشرت خارج (سربرينيتسا) أيضًا . فقد تلقت عائلتي - التي لجأت إلى السويد - أنباء تقول بأنني قد تَزوَّجتُ ! بل وأنني قد أنجبتُ طفلي الثالث !! على الرغم من أنه لا يوجد شخص واحد في (سربرينيتسا) لا يَعْرفُ بأنَّ ذلك لَيسَ حقيقيًا . وكذلك أنت .. الناس في (سربرينيتسا) يَتحدَّثونَ عنك بالطريقة نفسها . هَلْ تَزَوَّجت ؟ الكُلُّ يَعْرفُ بأنَّك تعيش بمفردك ؟ وحتى إن تَزَوجت ، فذلك أمر لا ينبغي أن يشغل اهتمام أهل البلدةِ .. إلا أنك أعزب .. ولكن المشكلةَ أنك أنت وحدك تَظن غير ذلك .. وقد أقنعتَ نفسك بأنك مُتَزَوج .. وأخذت تتصرف كما لو كنت مُتزوجًا .. ولا تفتأ تَذكُر اسمًا نسائيًا معينًا ؟! » .

وأخرج الطبيب من جيبه دَفْتَر مُلاحظات صغيرًا واستأنف حديثه - أو تحقيقه - قائلًا :

- « نعم نعم .. (تنزيلا) ؟ كُل الإشاعاتِ تدور حول وجود امرأة بمثل هذا الاسمِ ... يَقُول الناس بأنك تسببتَ في موت زوجِها ، وبأنك ، بسبب شعورك بالذنبِ وعذاب الضمير ، تَدَّعي أنك تَزوجتَ أرملته ... انتظر رجاءً ! » .

وعاد الطبيب (ماهميتس) مرةً أخرى إلى دَفْتَر مُلاحظاته الصغير :

- « أرجوك ، المعلومات المُؤكدة تقول : إن تلك المرأة كَانَ اسمها ؟ أوه .. نعم (تنزيلا قادريتش) وأنها قَدْ قُتِلَت في مخيِّمِ اللاجئين في (كونفيتش بوليو) ، أثناء محاولةِ العُبُور مِنْ (تسيرسيكا) إلى (سربرينيتسا) .. إنك تعيش في الضلالات والهلوسات .. أنت تتخيَّل أشياء لم تحدث .. وأنت شابٌّ ... » .

لَمْ أَرغب في استِماع المزيد :

- « دكتور ، أتدري ما الذي سأُخبرُك به ؟! » .

- « قل سريعًا ، أرجوك ! » .

- « أتَعْرفُ ماذا يا دكتور ! إنه من الواضح أنك قرأت رواية « المحاكمة »

ل (كافكا) [١] ، ولَكنَّك تخلط بينها وبين رواية « القلعةِ » .. أَنا (جوزيف . ك) . مسّاح الأراضي مِنْ (سربرينيتسا) .. لذا عليك فقط أن تدعني وشأني وأن تَهتم بشؤونك الخاصة ... فقط دعك مني ... لا تشغل نفسك بي » .

وقد تورد وجهُ (تنزيلا) الشاحب خجلًا عندما قصصت عليها الحديث الذي دار بيننا في مقابلتي بالدكتور (ماهميتس) . كان جمالها يُومض ويتلألأ في عتمة

---

(١) فرانز كافكا (Kafka) : وُلِد في ٣ يوليو ١٨٨٣م ، ومات في نفس اليوم - مفاجأة قدرية - بعد ٤١ عامًا في مدينة (براغ) عاصمة (التشيك) ، كان منتميًا إلى يهود الطبقة الوسطى التي تتحدث الألمانية ، وقرب دخوله المدرسة أرسله أبوه « هرمان » تاجر التحف الثري إلى المدرسة الحكومية ، ثم إلى الجامعة الألمانية في براغ ليدرس القانون ، وصفه المقربون منه بأنه كان يستعين أثناء حديثه بأعضاء جسمه ووجهه كاملة ، وكان بسيطًا خجولًا ، يائسًا ، معذبًا ، وكانت سمة حياته البارزة هي الغضب الذي يولده القلق . عاش (كافكا) معظم حياته في عزلة ، فالتشيك يرونه ألمانيًا ، والألمان يرونه يهوديًا ، واليهود الأصوليون يرونه علمانيًا ، أما الإحساس الأعلى بالعزلة لدى (كافكا) فكان بسبب علاقته المتوترة دائمًا بمن حوله سواء أبوه أو أمه أو المجتمع ككل ، وقد اهتم منذ صباه بالأعمال الأدبية التي تناولت العمال المقهورين بالآلات ، والمعذبين بالتشريعات فقرأ (دستويفسكي) ، و (تولستوي) ، و (جوركي) . وكان يشعر بالقهر ، لكنه لم يكن يسعى لتغيير هذا القهر وإنما يكتفي فقط بفضحه وتعريته . ومنذ سبتمبر عام ١٩١٧م بدأت أعراض مرض الدرن الرئوي تظهر عليه ، وقد كتب عن مرضه يقول : « آلام الرئة ليست سوى انعكاس لآلامي المعنوية » ، ويعتبر (كافكا) رائد الكتابة « السوداوية » أو « الكابوسية » التي يعرفها القاص المصري المخضرم يوسف الشاروني بأنها « تصوير الأحداث غير الواقعية بطريقة تبدو واقعية للغاية كما يحدث في الكابوس » ، والبطل في كافة أعمال (كافكا) الأدبية يعيش الحدث الكابوسي ؛ حيث تتزاحم عليها التفصيلات الواقعية ، ولكن بشكل يومي بأن هناك قوى ما تتخذ موقفًا مضادًّا لها بصورة تتحول معها الحياة الطبيعية لهذه الشخصية إلى ما يشبه الكابوس ، وهذا ما نراه متجليًا في أعمال (كافكا) الشهيرة ؛ مثل : التحول ، الدودة الهائلة ، في مستعمرة العقاب ، أبحاث كلب ، الجحر ، وكذلك أعماله الروائية المنشورة بعد وفاته : القضية (١٩٢٥م) والقلعة (١٩٢٦م) . وهو ما جعل أحد الباحثين يتساءل : ما الذي يغري « كافكا » بالنهايات المفزعة ؟ حيث يموت البطل دائمًا مع اختلاف الأساليب ، فبطل « القلعة » يقتل ، وبطل « المحاكمة » يُعْدم ، وبطل « المسخ » يموت وكأنه حشرة بشعة ، بل إن إحدى المجلات الفرنسية دعت إلى إحراق مؤلفات (كافكا) ؛ لأنه داعية إلى الهدم واليأس ، بل إن أديبًا بقامة الفرنسي « جان جينيه » يقول : « يا له من حزن! لا شيء يمكن فعله مع كافكا هذا . فكلما اختبرته واقتربت منه أراني أبتعد عنه أكثر » ، بل وصل به الأمر لشكه في نفسه وفي قدرته على التحصيل والفهم فقال : « هل ينقصني عضو في جسمي؟ فقلق كافكا وضجره أفهمهما جيدًا لكني لا أقبلهما أبدًا » . (انظر : فرانز كافكا - تأليف : رونالد جراي - ترجمة : نسيم مجلي - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٠م) - (المُترجمة) .

بيتِنا الذي تحول إلى مُستودَعٍ للجُثَث ... كانت أكثر أنوثةً وفتنةً من ذي قبل ... بل كانت أجمل مِنْ أيِّ تلفيقٍ ساذج يُمكن أن يبتكره الخيال ... وتعانقنا كما لو كنَّا ممسوسين أو مسكونين بالجن .. بعنف بالغ .. بشكل همجي متوحش .. كنا نِصْف مجانين .. مجانين هنا في عُزْلَتنا عن العالم .. في قَوْقَعَتنا المُحاصرة ، في نهايةِ العالمِ ... وحدنا في (سربرينيتسا) . أخذنا نَرتشف بهجتنا الأولى والأخيرة في هذه الحياةِ !!

أصبحت بطن (تنزيلا) أكثر استدارة ..

إذا لم تصل الإسْعاف حالًا .. فسَتتوفر للدكتور (ماهميتس) فرصة أخرى لكي يُثبتُ مهارتَه كطبيب أمراض النساء والتوليد بدلًا مِنْ خبرته كطبيب أطفال .. وأنا على يقين بأنه سَيشاركُني ابتهاجي وسروري .. فأنا بفعلتي تلك وإنْجازاتي التي تسْتَحِق الشكر أُمثل دعمًا جيدًا لإحصائيته الدقيقة - الإحصائية السعيدة الوحيدة - التي تتعلق بالمواليد في (سربرينيتسا) .. حيث تم تسجيل ميلاد ألف طفل وطفل في السنَةِ الأولى مِن الحربِ .. وُلدوا جميعًا بكامل صحتهم وفي حالة طبيعية تمامًا . وهذا المُعدل يساوي سبعة أضعاف معدل المواليد في وقتِ السلم . وتقول الإحصائية أيضًا : إن غالبية المواليد الجدد في السنة الأولى من الحرب كانوا من الذكور وإن الكثيرين منهم حملوا اسم (ناصر) !!

وقد لاحظتُ أنَّ الأولادَ الأكبر سنًّا كانوا مُستائين لأنهم لَمْ يكونوا يَحْملون نفس الاسم ، لكنَّهم كانوا يُحاولونَ المَشي بالطريقة نفسها التي كان يمشي بها قائد البوسنة . ولاحظتُ أيضًا أنهم كانوا يَقصُّونَ شَعرَهم بنفس الطريقَة التي كان القائد (ناصر) يقص بها شعره ويُصَفِّفون شعورهم بنفس الطريقة أيضًا !

* * *

في هذا الموضع بالتحديد من تقريري عن (سربرينيتسا) ، رأيت أن أُدخل جزءًا من رسالة وصلتني لاحقًا مِنْ صديقِي (سيزا) .. كَانَ شاعرًا . وقد انتهى به الحال إلى « رجلٍ مُقعدٍ » بمعنى الكلمة .. رجلٌ بدون أقدام .. جذع إنسان لا أكثر !! وفي الأجزاءِ المتبقية مِنْ جسمِه يتفوق عدد القطع المعدنية على عدد القطع العظمِية ؛ بعض تلك القطع المعدنية عبارة عن قضبان معدنية تُزرع بين العظام حتى تُثبت قطع

العظام المُهشمة بعضها ، وبعضها عبارة عن شظايا قنبلة أو لغم أو رصاصات لم يتمكن الجراحون من إزالتها ؛ لأنها محشورة في أماكن حرجة وخطيرة مما يُصعب من فرصة التدخل الجراحي . صديقِي (سيزا) لدَيه ثلاثة أطفال أيضًا . ثلاثة فتيان . كتب يقول لي بأنهم يَعرفونَ الألمانية جيدًا بالإضافة إلى البوسنية .

كتب لي ما يلي :

« سيَعُود أطفالنا إلى (سربرينيتسا) .. وإذا لم يعودوا مُبكرًا في عهد قائدِهم الحالي ، فسوف يعودونَ بعد أن يكون كُلُّ الصغار الذين يحملون اسم (ناصر) قد كبروا وأصبحوا جنودًا .. قَدْ تَمر خمس عشرَة سنة .. أو حتى عشرون سنة . وربما يطول الانتظار أكثر . وفي يومٍ ما ، سيَرجعونَ إلى وطنهم في مَطْلَع حياتِهم وهم في مُقْتَبَل الشَّبَابِ . ويومًا ما سَيدرك أطفال الصرب أنّهم يَمْشونَ على البقايا المُتفَحِّمةِ من بيوتِ أناس آخرين . وسيعرف كل طفل من أطفالهم أنه يَخطو على أرض شخص آخرٍ .. وسوف تُعكر مَعْرِفَتهم بتلك الحقيقة صفو حياتهم .. فإحساسهم بِأنَّ هذه الحدائق وتلك الشوارع قد رُويت وتَشَبعَت بدماء البوسنيين وبأن تلك الأرض المَبْذُورة [1] بعظامِ البوسنيين لَنْ تدعهم يمرحون ويتسلون فوق تلك الأرض طويلًا فالأرض التي ارتوت بدماء البوسنيين ستزهر أزهارًا مسمومة ؛ لَنْ يَهنأوا بلحظة سلام واحدة .. وسينشؤون ويكْبرونَ في خوف من أذانِ الصلاة الذي سَيُسْمَعُ حتمًا مِنَ المكَان الذي كان يوجد فيه مسجد (ريتسيكا) .. إذ لَنْ يكون هناك أي سلام حتى يَظْهر أولئك الذين سيلبون النداء ويأتون لأداء الصلاة . وعندما قام (ستالين) [2]

---

(١) مَبْذُورة : مَزْرُوعة - (المترجمة) .

(٢) ستالين Stalin (١٨٧٩ - ١٩٥٣م) : قائد شيوعي ولد عام ١٨٧٩م في مدينة (غوري) بجمهورية جورجيا في أسرة فقيرة . وقد نشأ في ظل (لينين) وتعرض للنفي مرارًا . استلم قيادة الحزب والدولة الشيوعية بعد (لينين) بعد أن عمل على إبعاد المعارضين المحتملين بدءًا من تروتسكي والذي أرسل من اغتاله في المكسيك . أقام دكتاتورية لا تسمح حتى بالتلميح بالرأي المخالف . قام بتهجير الشعوب المسلمة في آسيا الوسطى . وأعدم كثيرًا من الكُتّاب والسياسيين . وأجرى سياسة تصنيع شاملة ووقّع مع (هتلر) معاهدة لم تدم أكثر من ٢٢ شهرًا . وقد خرج الاتحاد السوفييتي من الحرب العالمية الثانية قوة عسكرية عظمى على أثرها شنَّ (ستالين) حملة تصفية واسعة في صفوف الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية . وفي ١٩٤٩م امتلك الاتحاد السوفييتي السلاح النووي . وقد مات (ستالين) في عام ١٩٥٣م - (المترجمة) .

بإعادة توطين الشيشانيين ليقضي على تمركزهم وعمل على بعثرتهم في كافة أنحاء الإمبراطوريةِ الروسيةِ الشيوعيةِ ، ونثرهم على مساحة أعظم حتى مِنْ مملكتِهم السابقةِ – تمامًا كما تبذرُ الآن عظام أهل (سربرينيتسا) على أرضِهم ، وكما تشتت من بقي حيًا من سكان (سربرينيتسا) وتبعثروا في كافة أرجاء البوسنة وبقية أنحاء العالم – وقد تطلَّب الأمر مرور سَنَوات وسَنَوات من الصبر قَبْلَ أَنْ يعود الشيشانيون إلى بلادهم ، وكذلك سيفعل أهل (سربرينيتسا) إن شاء اللّٰه . هذه أرضُنا . ولا يُمْكِنُ لأحد أَنْ يحبَّ هذا الجزء من البوسنة بقدر ما نحبه نحن . أنا لا أدري ما إن كان هناك من يحب أي جزء آخر من العالم بنفس الطريقة التي نحبُّ بها بلدتنا وموطننا الأصلي (سربرينيتسا) . ولن نقدر يومًا على حُبّ أيِّ رقعة أخرى من هذا العالم أَو من البوسنة بقدر ما نَعشق تُربَة بلدِتنا هذه ! لقد اعتدنا منذ آلاف السنين على لعنة المَناجم والتخوم [١] ... كما تربينا ونَشأنَا أيضًا على مَحَبة قدَرِنا والرضا به .. إنه قدَرُنا ومصيرُنا الذي لا مهرب منه ... تمامًا كما أن قدرنا أن يتعرج نهر (درينا) عند النقطة التي يمرُّ بها ببلدتنا ويُصبح مُلْتَوِيًا جدًّا عند شواطئنا .. حيث يصبح أكثر تعَرُّجًا من أي نقطة أخرى على امتداد مَسَاره ، وكما أن قدرنا أن تكون أرضنا على يسار النهر وليس يمينه .. وأن يَرُش النهر شواطِئنا وضِفافنا بمياه الجانب الأيسرِ منه .. إنه مِرفَقُنا [٢] بالنسبة إلى أولئك الذين يعبرون نهر (درينا) – وأرض (سربرينيتسا) هي الدرْع [٣] البوسني الذي يحمي البوسنة مِنْ قبضةِ يدها إلى مِرفَقِها . ومِرفَق بالنسبة إلى أولئك الذين يعبرون نهر (درينا) – وإذا دعت الحاجة – مِرفَق بالنسبة إلى العالم .. إنها « شعار الدرع » [٤] تلك الشارة المُعلَّقة على أكتاف الزي العسكري لجدِّكَ (رحمن بك جوزو) فوق العَضَلَة ذات الرأسَيْن [٥]

---

(١) التخوم : البلدان أو المناطق الحُدُودِية التي تقع على الحُدُود وهي أطرَاف البلاد – (المترجمة) .

(٢) المِرفَق : المفصل المُوصلُ بَينَ الساعِدِ والعَضُد – والمقصود أن نهر (درينا) باعوجاجه وتغيره لمساره بشكل مفاجئ يشبه مفصل المرفق الذي يمثل انثناء الذراع بين الساعد والعضد (انظر الخارطة رقم (٣) – (المترجمة) .

(٣) الدرْع : تُرس هو غِطَاء خاص بالذرَاعين – (المترجمة) .

(٤) شعار الدرع : شارة معدنية على شكل الدرع ترمز إلى انتماء الجنود لجيش البوسنة وعادةً ما تُعلق الشارة على الكتفين فوق الزي العسكري للجنود والضباط – (المترجمة) .

(٥) العَضَلَةُ ذاتُ الرَّأسَيْن (Biceps) : الاسم التشريحي للعضلة التي تقع في أعلى الذراع – (المترجمة) .

بالضبط .. ذلك الشعار الذي حَملَه معه مِنْ آخر أطراف أوروبا حتى نهاية آسيا . الشعار الذي لم يكن بوسع النظام النمساوي - المجري .. إلا أن يعترفَ بأنه يخُص الكتائب البوسنية ولا يعُودُ لأحد سواها !

ذاك الدرع هو مِرْفَقُ نهر (درينا) الذي يقع إلى جوار (سربرينيتسا) . إنه الذراع الذي أخذ يلوّح بالسيفِ والعصا والبندقية لمدة خمسمائة سنة في ساحاتِ الحرب في أصقاع العالم البعيدةِ ... وقام بكل ما فعل فقط لكي يحافظ على البوسنة .. لكي يُمْكِن للبوسنة أَنْ تَبقى هناك في تلك الزوايا البعيدةِ من العالم . والآن ، تَمكنَ سكان المناطق الحُدُودية من رؤية اليوم الذي سيلوحون فيه بيدهم رافعين عَلَم البوسنة ليخفق حرًا من جديد ! ما من سبب في هذه الدنيا يُمْكِنُ أَنْ يَحول بين أهل (سربرينيتسا) وبين نهرهم (درينا) . ولا بينهم وبينْ شجرِ البتولا [١] .. شَجَرَةُ البتولا البيضاء التي تُمثل إشارة إلى الناسِ بأن رحم الأرض التي تحتها يُخفي منجمًا من الفضَّة . ومع الفضةِ يأتي أيضًا الذهب والرصاص والزنك . ولكن مناجم الفضّة

---

(١) شَجَر البَتُولا (Birch) : شَجَرة جَمِيلَة المَنْظَر مُتوسطَة الطول والحَجْم .. لهَا أفْرُع مُتَهَدلَة حَرِيرية .. تُعْرَفُ بلُحَائِهَا الفِضي اللامِع .. وعِنْدمَا تَتَقدمُ الشَجرة في العُمْر يَتَحولُ لَوْنُهَا مِنَ اللوْنِ الفِضي إلى اللوْنِ البُني المَائِل للحُمْرَة وهُنَاك أيضًا بَعْضُ الأنواع غير الفضية مِنْهَا الأسْوَد والزيْتُوني .. لذَلِكَ تُسْتَخْدَمُ في التَلْوِين والصباغَة وتُعرفُ في بَعْض البِلاد باسْم شَجَرة الكَامُول .. أو شَجَرة القُضْبَان أو الغوش . تَسقُط أوراقها في الخَرِيف .. وتَنْمُو بَدلًا مِنْهَا أوراقٌ جَديدة في الربيع .. و يُوجَدُ حوالي ٤٠ نوعًا مِنْ أشْجَار البَتُولا جَمِيعُهَا تَنْمُو في نِصْفِ الكُرَة الشمَالِي فَقَط .. خَاصّةً في المَناطِق القُطْبية مِثْل (سَيْبِيرِيَا) .. (وكَنَدا) .. و (أوروبا) .. وخَشَبُ هَذِه الشجَرة صَلْد .. لا يُصْنَعُ مِنه إلا أدَواتُ الخِدْمَة الشاقة .. ولا يَصْلُح للأثَاث أو المَكَاتِب .. ولكِنه يسْتَخْدمُ لصُنْعِ ألْوَاح الأبْلكَاش ويستخدم لحَاء أشْجَار البَتُولا الناعِم في صُنْعِ نَوْع فَاخِر جدًا مِنَ الوَرَق . ويُسْتَخْدمُ بَعْدَ ضَغْطِه كسُقُوف للمَنَازِل الريفية ؛ نَظَرًا لأنه مانِع لتَسرب المِيَاه و تُسْتَخْدم الأشْجَار الصغِيرَة مِنْهَا كَشَجَرة عيد المِيلاد في أعْيَاد رَأسِ السنَة . كَمَا يَحْتَوِي لحَاء أشْجَار البَتُولا عَلَى نَوْعٍ جَيد مِن الزيوت يُسْتَخْدمُ في دِبَاغةِ الجُلُود الفَاخِرة في (رُوسْيَا) ومِنْ فَوَائِد اللحاء كَذَلِكَ أنه يُطْحَنُ كالدقيق ويُصْنع مِنه نَوعٌ مِن الخُبْز في شَمَال شَرْق (رُوسْيَا) لاحْتِوائِه عَلى نِسْبَة كَبِيرَة مِن النشَا وكَذَلِك يُسْتخرجُ مِن اللحَاء والخَشَب عُصَارةٌ حُلوة المَذَاق تُصْنَعُ مِنهَا المَشْرُوبَات .. ونَوْعٌ جَيد مِن الخَل . وكُل شَجَرة مِن أشْجَار البَتُولا تَحْمِل حَوالي ٢٠٠ ألْف وَرَقة يَتَبَخرُ مِنْهَا في الظروفِ العَادِية مَا بَيْنَ ١٢ : ١٥ جَالُونًا مِن المَاء في اليَوْمِ الوَاحِد .. وقَد تَصِلُ الكِميّة أَحْيَانًا إلى ٨٠ جَالُونًا مِن المَاء وخِلال مَوْسم الصيف تخرج الشَجرةُ الكَامِلَة النمُو في عَمَلية النتْحِ حَوالي ٢٠٠٠ جَالُون مِن المَاء ، أي ما يُعادل حُمُولة سَيارة ذَات خَزّانٍ كَبِير - (المترجمة) .

هي الأكبر والأضخم من غيرها من المناجم ، خصوصًا لأن عمليات التنقيب عن المعادن واستخراج الفضةِ بَدأت في (سربرينيتسا) قبل ألفي سنة . ومنذ ذلك الوقت لم تتوَقّف عمليات نقل الفضة من (سربرينيتسا) .. أجل ، فـ (سربرينيتسا) هي أقدم وأفضل منجم فضّة معروف في العالم [١] . ولا يمكن الحصول على المَعْدن الخام بطريقة أكثر صعوبةً في أي مكان آخر في العالم .. إن لُقمة العَيْش المُرهِقة هي قدر عُمّالِ المناجم في (سربرينيتسا) .. حيث يأكلون خُبزًا لَهُ سبعة طبقات مِنَ القشورِ اللعينة القاسية كالجحيم . لكنّنا نَشأنَا على حبٌ لعنتنا وشُؤمنا تمامًا كما نَشأنَا على حُبٌ واجبِنا كسكان بلدة تقع على ضفاف نهر (درينا) . ومهما تكن الظروف وأيًّا كان (درينا) ومهما بدا ، فهو لنا.. مثل أشجار البتولا . أسود وأبيض في نفس الوقت .. إن « بتولا » اسم لطيف ، ولَكن نحن لدَينا اسم ألطف لأشجارِ البتولا .. عِنْدَنا التسْمِية الأكثر جمالًا وعُذوبةً لتلك الأشجار . فحيث إن وجود أشجار البتولا فوق الأرضِ يَكْشفُ عن وجود الفضة تحت تلك الأرض .. وبالتالي فإن وجود أشجار البتولا يُشير إلى الكَدٌ وتَعَب السخْرَة [٢] الذي يَنتظرنا تحت الأرض ؛ ولهذا فقد قمنا بتحويل اسم تلك الأشجار .. أطلقنا عليها اسم : « العرائس الفضية » . وقد خَطبنا تلك العرائس خِطبة مؤبدة .. أصبحت خَطِيبة لنا ونحن خاطبوها إلى الأبد ... وبموتنا داخل المناجمِ يزداد لَمَعان الفضة ويتوهج بَيَاضها الذي يشبه تمامًا لحاء شجرةِ البتولا الأبيض . ويشبه أيضًا مرض السُحار الرملي [٣] المعروف بـ « الموت الأبيض »

---

(١) الاسم اللاتيني لسربرينيتسا هو « أرغانتاريا » ويعني « الفضة » ، وذلك لغناها بالعديد من المعادن وأهمها الفضة ؛ لذا فقد كانت (سربرينيتسا) أهم المدن التعدينية والتجارية في كل المنطقة الواقعة شرق البوسنة وغرب صربيا منذ العهد الروماني ، وعندما ظهرت (سربرينيتسا) لأول مرة في السجلات التاريخية سنة ١٣٧٦م ، كانت قد أصبحت فعلًا مركزًا تجاريًّا ضخمًا له وزنه يحوي مستعمرة (راجوزة) ، وقد احتكر الراجوزيون ومعهم الساكسون تجارة الفضة في داخل البوسنة ، وكانت جميع صادرات المعادن تذهب عن طريق الساحل عبر (راجوزا) . وفي المقابل كان الراجوزيون يجلبون البضائع المصنعة مثل المنسوجات العالية الجودة إلى البوسنة . ومع حلول عام ١٤٢٢م كانت البوسنة وصربيا مجتمعتين تنتجان أكثر من إنتاج أوروبا بأجمعه من الفضة (انظر كتاب : البوسنة ، تأليف نويل مالكوم ، وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م) - (المترجمة) .

(٢) سُخْرَة : عَمَلٌ قَسْرِي بِلا أُجْرَة - (المترجمة) .

(٣) السُحار الرملي أو السيليكوزيس (silicosis) : مرض رئوي (صدري) يصيب عمال المناجم وينتج عن إدمان استنشاق غبار السيليكا الموجود في المناجم - (المترجمة) .

الذي كان يصيبنا . وعلى الرغم من أن مرضنا لَيسَ وراثيًا ، فقد توارثناه وانتقل مِنْ أحدنا للآخر ؛ وبعد الساكسون ، لم تعد هناك حاجة لأن يستقر أي أحد في (سربرينيتسا) للعمل في مناجم التنقيب عن الفضة . فقد تكفلنا – نحن البوسنيين – بأداء تلك المهمة في (سربرينيتسا) أيضًا ، فقمنا بأداء تلك الوظيفة على أحسن وجه ! » .

* * *

لقد دافعَت (سربرينيتسا) عن نفسها ... لَكن بدا واضحًا أنَّها حصلت بالسلامِ على أسوأ مما كان بوسعها أنْ تَأملِ يومًا .. ! لَمْ نستعدْ أرضَنا التي استغل « التشيتنيك » وقف إطلاق النارِ واحتلُّوها بدون قتال ... كما حُرمنا مِنَ الأرضِ التي استعدنَاها عن طريق القتال والكفاح – بعد أن تبنينا الإستراتيجية [١] القائمة على حقيقة أن « التشينيكي » لا يُمْكن أنْ يُؤتَمن حتى عندما يَكون في وضع صعب لا يستطيع فيه الدفاع عن نفسه – وبعد انتهاء الحرب وعندما رُسمت الحدود على الخريطةِ الجديدةِ أُدخِلت المنطقة التي لَمْ يقتربْ الصرب منها مُطلقًا خلال هذه الحربِ ضمن حدود الأراضي الصربية .. تمت مكافأة المحتلين الغُزاة بإهدائهم قطعة الأرضِ التي لم تُقهر ... وبدلًا مِنْ نزع سلاح الغُزاة المُعتدين ودحرهم عن (سربرينيتسا) ، تم حرماننا حتى مِنْ بنادقنا العتيقة الخاوية من الرصاصِ .. وبقينا في معسكر اعتقال . وفي ذلك المُعسكر كنا تحت حماية وحراسة الجنود الكنديين ، ومن حولنا كان « التشيتنيك » الرابضون فوق التلال وقمم الجبال المُشرفة على (سربرينيتسا) يطوقون بشكل كامل – بدلًا مِن السلك الشائكِ – المعسكر من كل الاتجاهات .. كانوا يُغطون التلال والجبال من حولنا وهم مُسلحون إلى أسنانِهم .. حتى أسنانهم كانت مُسلحة بالسكاكين والحراب .. كانوا يعضون عليها بأسنانهم في انتظار لحظة الانقضاض على الفريسة [٢] !

* * *

(١) الإستراتيجية : فن الخطط الحربية وإدارة الحرب – (المترجمة) .

(٢) اعترف اللورد (أوين) – الذي اختارته الأمم المتحدة كحكم – بأن تهريب السلاح إلى الصرب من رومانيا وبلغاريا والمجر وروسيا واليونان كان مستمرًا ، وأن مقطورات البترول تجد طريقها عبر نهر الدانوب وعبر الطرق البرية إلى الصرب من كل مكان على الرغم من قرار حظر السلاح .. واعترف بأن الحظر غير عملي وأن مدد السلاح يتدفق طوال الوقت على المتطرفين من الصرب .. ولكنه مع كل هذا رفض أن يرفع الحظر عن إمداد المسلمين بالسلاح حتى لا يتفاقم القتال !! – (المُترجمة) .

بلغنا أن الدورية [١] الكندية رصدتْ عمليات صَيْد وقَنص في قريتنا « جريمة صَيْد بوسنية ! » .. وأن القرية قد أُحيطتْ بشاحِنات النَقْل الطويلة ... وتم تفتيش البيوت واستجواب الناس . وأنهم أحدثوا جلبةً كبيرة وتسببوا في الكثير من الإزعاج والقلق إلى أن تم العثور على الهدف المُتعقب .. وجدوا « بندقية الصيْد » المتهمة ! .

ولهذا أصدر الأب [٢] (غالي) [٣] مِنْ نيويورك قرارًا بحرمَان من تبقى من سكان (سربرينيتسا) الأصْلِيين والمُحتجزين داخلها مِنْ حقِّهم في الصيْد لأجل الحصول على الطعام .

موسم الصيْد مُغلق هذا العام بالنسبة لصَيْد الحَيَوانات البريَّةِ ... إنه الهدوء الذي يسبق استئناف موسم صَيْد « البشر » !

يا إلهي ، هل توجد عدالة في هذه الدنيا ؟!

وداعًا أيتها العدالة !!

بقي العالم بأكمله يُراقِبُ ... إنه يتَظَاهر فقط بِأنهُ مَشْغُول بمراقبة ما يحدث حتى يتمكن من الادِّعَاء بأنه لم يُبق عينَيه مُغْمَضتين وحتى يزعم فيما بعد أنه كان مُهتمًّا !

وأيًّا كان الأمْر .. فمَنْ أكون أنا ؟

هَلْ ما يزال (علي عزت بيجوفيتش) [٤] رئيسي ؟ أم أن كلَّ ما لدي مجرد

---

(١) الدوْرِيّة : جَوْلَةٌ يَقُومُ بِها الحارِس أو الخَفِير - (المترجمة) .

(٢) أب : كاهِن - (المترجمة) .

(٣) الدكتور بطرس بطرس غالي سادس أمين عام للأمم المتحدة ، تولى منصبه في أول كانون الثاني/يناير (١٩٩٢م) حيث تولى مهامه لفترة خمس سنوات . قام بمنع أي تحرك دولي لإنقاذ البوسنيين بدعوى أن القاتل « الصرب » والقتيل « مسلمي البوسنة والهرسك » مخطآن ، وأن الوقت لم يحن بعد للتدخل العسكري لإنقاذ شعب من الإبادة !! (اقرأ جريدة الشرق الأوسط ص ٢٣ بعنوان : بطرس غالي بطل البوسنة . عدد (٥١٦٧) ٢٧رجب ١٤١٣هـ - ١٩٩٣/١/٢٠م) - (المترجمة) .

(٤) علي عزت بيجوفيتش (Alija Izetbegovi) (١٩٢٥ - ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣ م) : أول رئيس جمهورية للبوسنة والهرسك بعد انتهاء الحرب الرهيبة في البوسنة ، ناشط سياسي وفيلسوف إسلامي ، مؤلف لعدة كتب ؛ أهمها كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) . ولد في ٨ أغسطس ١٩٢٥م لأسرة بوسنية عريقة في الإسلام بمدينة « بوسانا كروبا » ، واسم عائلته يمتد إلى أيام الوجود التركي بالبوسنة . فالمقطع (بيج) في اسم عائلته هو النطق المحلي للقب (بك) العثماني ، ولقبه (بيجوفيتش) يعني ابن عزت بك ، تعلم في مدارس مدينة (سرايفو) وتخرج في جامعتها في القانون والآداب والعلوم ،

سكرتير يحمل اسم (بطرس بطرس غالي) ؟ أيُّ مواطن أنا ؟ هَلْ أنا بوسني ؟ أَم أنني مواطن في الأمم المتّحدة فحسب ؟ مواطن استثنائي جدًّا من مواطني الأمم المتّحدةِ ، التي اسْتَعَارت هذا الجزء من أرض البوسنة واقترضته مِنَ الحكومةِ في

عمل مستشارًا قانونيًا خلال ٢٥ سنة ثم اعتزل وتفرغ للبحث والكتابة . وقد نشأ (بيجوفيتش) في وقت كانت البوسنة والهرسك جزءًا من مملكة تحكمها أسرة ليبرالية ، ولم يكن التعليم الديني جزءًا من المناهج الدراسية ، وكان – وهو لا يزال شابًا – واعيًا بأهمية أن يتعرف على دينه وأن يقرأ فيه قراءة مستفيضة فاتفق هو وبعض زملائه في المدرسة أن ينشئوا ناديًا أو جماعة مدرسية للمناقشات الدينية سموه (ملادي مسلماني) أي (الشبان المسلمين) التي تطورت فيما بعد فلم تقتصر في نشاطها على الاجتماعات والنقاشات وإنما امتدت إلى أعمال اجتماعية وخيرية ، وأنشئ بها قسم خاص بالفتيات المسلمات ، واستطاعت هذه الجمعية – أثناء الحرب العالمية الثانية – أن تقدم خدمات فعالة في مجال إيواء اللاجئين ورعاية الأيتام والتخفيف من ويلات الحرب ، وإلى جانب هذه الأنشطة تضمنت برامج الجماعة برنامجًا لبناء الشخصية ، ومن الثابت أن اتجاهات الجماعة وتطورها نحو التكامل والنضوج كانت نتيجة سعيها المستمر لتحسين نفسها ، ومحاولة الاستفادة في عملها بالمعرفة التي توصلت إليها عن طريق تحليلاتها واجتهاداتها الخاصة ، إلى جانب تأثرها بأفكار أخرى جاء بها بعض الطلاب البوسنيين الذين تعلموا في جامعة الأزهر بالقاهرة ، واتصلوا بالإخوان المسلمين وفكرتهم المركزية بأن الإسلام إيمان وعمل ... دين ودنيا وأنه أسلوب حياة بقدر ما هو طريقة في التفكير . وقد تطورت هذه الأفكار في كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) الذي طرح فيه نظرته للإسلام وعبَّر أجمل تعبير عن روح الوسطية الإسلامية المميزة ، حيث يعالجها بمفهومه الخاص في إطار فلسفي يجمع بين الروحي والمادي ، الأخروي والدنيوي وفصَّل فيه الفروق الجوهرية للاتجاهات الفلسفية والحضارية التي أنجزها الإنسان ، وموقع الإسلام منها.. وفي جمهورية يوغسلافيا السابقة – تحت زعامة قائدها القوي (تيتو) – ، كان (بيجوفيتش) معارضًا بارزًا وسجن عدة مرات في عهد (تيتو) ، وكان كثيرًا ما يتهم من قبل أطراف صربية وكرواتية بأنه من داعمي الأصولية الإسلامية . وتُعد إسهاماته الفكرية الإضافة المبكرة التي رفعت من رصيده السياسي ، بدءًا بكتابه الأول « الإعلان الإسلامي » وما تبعه من ملاحقات وحكم بالسجن لمدة ٥ سنوات وحتى كتابه الأهم « الإسلام بين الشرق والغرب » . كان « علي عزت » صلبًا في قلب مأساة البوسنة ، ولم يترك شعبه ليواجه هذا المصير المؤلم ، وأصر على البقاء معه تحت الحصار في (سراييفو) ، وعندما أراد الخروج للبحث عن دعم لقضيته ، قام بمغامرة جريئة حتى يخرج ويخاطب العالم ، فنزل في نفق طويل أسفل المطار الذي يسيطر الصرب على النقاط الإستراتيجية حوله ، وعندما وضعت الحرب أوزارها بعد اتفاق « دايتون » لم يغره بريق السلطة ، فاستقال من رئاسة الجمهورية ، ثم من رئاسة حزبه السياسي متعللًا بحالته الصحية . إلا أن الواضح أن روحه وعقله كانا أكبر من قيود السلطة . وقد حصل (بيجوفيتش) على جائزة الملك فيصل سنة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م ، وعلى شخصية العام للعالم الإسلامي سنة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م . وتوفي في ١٩ أكتوبر ، ٢٠٠٣م – (المُترجمة) .

(سراييفو) ... يا لمَنْزِلَتي المُتميّزة التي أحتلها من بين مواطني الأُمم المتّحدة .. ؟!
إنني مواطن « المنطقة الآمنة » [١] !!
ما الأسماء الأخرى التي أُطلقت على « غرف الاحْتجَاز » أو « معسكرات الاعتقال » التي كان المستعمرون من شتى الأمم يتحفظون فيها على الهنود الحمر ويضعونهم فيها تحت الحمايةِ إلى أن يقوموا بمحوهم وإخفائهم كليًّا بعد ذلك ؟ أولًا الاحْتجَاز .. ثمَّ الهنود الحمر !!
مَنْ أنا ؟ ابن من أنا ؟ حتى آتي إلى كلِّ هذا ؟

* * *

اسمي « المُحمَّد » ...
مِنْ قبيلةِ بني عُذرة [٢] الجميلة ...
الذين إن أحبوا ماتوا ..
الذين يَفْقدون رؤوسَهم لأجل الحبِّ ..
ويَمُوتُون إذَا قبلوا ..
ويَمُوتُون إذَا قبلوا ... !

* * *

إنني أقوم بتمزيق قميصي ... أَتحسس بأطراف أصابعِي الكلمات المنقوشة على صدرِي :

---

(١) المنطقة الآمنة : الأرض المحايدة المنزوعة السلاح التي تقع تحت الحماية الدولية . (المترجمة) .
(٢) إحدى قبائل العرب الشهيرة في التاريخ العربي ، عاصرت ما قبل الإسلام واستمرت إلى اليوم ممثلة في بطونها التي تمتد في شمال الحجاز و (الأُردن) و (فلسطين) و (سوريا) و (مصر) و (السودان) . وإليها ينتسب طائفة من فحول الشعراء العرب أشهرهم (جميل بثينة) ، وعُرفت بالحب والغزل العفيف الذي أطلق عليه الحب والغزل العذري ، وهو وصف فيه معنيان ، فهو نسبة إلى قبيلة عُذرة التي اشتهرت به ، وأيضًا وصف لهذا النمط من الشعر بالعذرية ، أي العفة والبعد عن الأوصاف الحسية والغزل الفاحش ، وهذا النوع من الشعر أجازه الرسول ﷺ واستمع إليه . وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أن أحد شيوخ بني عذرة قال : « نحن من قوم إذا أحبّوا ماتوا » - (المُترجمة) .

الله ربي ..

الإسلام ديني ..

القرآن كتابي ..

الكعبة قبلتي ..

محمدٌ ﷺ نبي ..

أنا مِنْ نسل نبي الله آدم ..

أنا مِنْ أمةِ النبي إبراهيم

أنا مِنْ أمةِ محمدٍ ﷺ

* * *

لا يُمكنني أن أُنكر أن (سربرينيتسا) - البلدة التي تَحَجّر فُؤَادها وفقدت الإحساس بأي شعُور - قدْ فرحت واستبشرت باتفاقية نزع سلاح المِنْطَقَة وتجْرِيدها مِنَ القوات العَسْكَرِيةِ .. كان سكان المدينة الذين يعيشون في العراء بلا ماء أو غذاء أو دواء يبدون كالأشباح من شدة الجوع والعطش والإرهاق .. إنهم العائدون من القبر ... كانت تلك المخلوقات ذات الملامح غير البشرية تهيم في أرجاء المدينة الآمنة وهم بين مريضٍ وجريح .. بدأت تلك الأَشبَاح الصامتة والهياكل المُخَدرة تتجول تزحف ببطء في كُلِّ الاتجاهات داخل « مدينة الموتى » وعيونهم ذاهلة وكأنها لا تصدق ما ترى .. كانوا يَتحركونَ كما لو كانوا مجموعة من الهَوَام [1] المُنهَكة تتراقص على أنغام حفلٍ راقص ... تدريجيًا وببطء كنا نَأْخذُ شكلَ ملامح أسلافنا السابقِين ...

ثم نجحت العملية « باراشوت » في إيقاف المجاعة .. وبدأت الحياة تتدفق في أوصال البلدة من جديد مَع وصول قوافلِ الإغاثة المُحملة بالغذاءِ .. لم تكن الشاحنة الطويلة مغطاة بغطاء من المشمع أو الخيش ، وكانت تحمل لافتة كُتب على جوانبِها المصنوعة من الألومنيوم بلهجةِ الـ « إكافيان ekavian » المحلية : « المُفوضِية العليا

(١) هَوَامّ : (مفردها هامّة) والهامّة جثة أو شبح خرافي يُعتقَد أنها تفارق القبر ليلًا وتجول في الليل لتمتصّ دماء النائمين . وتعرف أيضًا بمَصّاص الدِّمَاء - (المترجمة) .

لشؤون اللاجئين » . وبالأبجدية السيريلكية [١] . وقد شكلت اللَّهجةُ « إكافيان » والأبجدية « السيريلكية » الضربة القاضية لهؤلاء المساكين . فقد تحمّلنا الكثير ، ونلنا ما يكفينا إلى الأبد مِنْ لهجةِ الـ « إكافيان » والأبجدية « السيريلكية » . وكذلك من المعلِّمة (دانيتسا) التي أتت إلينا مِنْ (سُورْدُوليتسا) [٢] !

(فخر الدين) هو زوج المعلِّمة (دانيتسا) ليس أكثر .. وبينما كان البوسنيون - كعادتهم - لا يُمكنهم حتى أَنْ يَتخيلوا ما الذي كَانَ يَنتظرُهم ، كانت المؤامرة تختمر في الخفاء والمكايد والخطط تُنسج وتُحاك بشكل مُحكم حتى إن كُلَّ جدَّة صربية كانت تعرف ما هي مهمتها بالضبط ! تمامًا كما فعلت المعلّمة الطيبة (دانيتسا) التي خضعَت لعمليةِ استئصال لزائدة لحمية نمت في رحمِها ... كانت قد تَركت البيتَ بكامل صحتها وعافيتها وبقوام رشيق كالغزال ورَجعتْ سقيمة وعليلة لدرجة بالغة كما لو كَانتْ تحتضر . في ذَلِك الوَقت وبالتحديد في إبريل / نيسان ١٩٩٢م .. تدفقت قوات « التشيتنيك » نحو (سربرينيتسا) .. جاؤوا كالجراد ينهشون لحمها .. وانتشروا إلى أقْصَى حَدّ في جميع أرجائها .. اقتحموا البلدة التي سقطت دون إطلاق رصاصة واحدة ! . ثمّ تولى « التشيتنيك » - في تلك الموجة الأولى والمُبكرة جدًّا من العدوان - مهمّة قتل وحَرْق كُل ما تصل إليه أيديهم . وفي وَسط البلدة وقلب مركزها قاموا بوَضع أحدَ عشرَ عجوزًا بوسنيًّا من الرجال والنساء كانوا قد احتجزوا مُقَيَّدين من بيوتِهم كأسرَى ثم أضرموا فيهم النيران وقاموا بإحراقهم أحياءً !

أولئك الذين نجحوا في الهرب تمكنوا من النجاة من الموت ونفذوا بحياتِهم .

أما (فخر الدين) فلم يَتمكن منَ الهرب ... فهو لن يُفكرَ مجرد تفكير في تعريض زوجتِه المريضةِ إلى أيّ نوع من الرحلات . ومسألة تركها في مثل هذا الظرف كَانَت ببساطة أمرًا مُستبعدًا وخارج نطاق النقاش . لكنه استطاعَ فقط أن يَتَذَرَّع إلى أخيه وأن يردّ عليه ونجح في إقناعه بأنّه يَجِبُ عليه أَنْ يَذْهبَ هو على الأقل :

« هناك قوائم بأسماء البوسنيين المطلوبين للتصفيةِ .. وهي تُوزَّعُ سرًّا من حولنا . وقد قاموا بتسريب بضعة أسماء لأشخاص لَيسوا على القائمةِ ، حتى يطمئنوا أولئك

---

(١) السيريلكية (cyrillic) : صفة متعلقة بالحروف أو الخط الروسي - (المترجمة) .

(٢) سُورْدُوليتسا (Surdulica) : مدينة صربية - (المترجمة) .

الذين يُريدونَهم حقًّا .. فبهذه الحيلة ستصل إلى المطلوبين رسالة ضمنية مفادها أن لَيْسَ عليهمْ أن يخافوا من أي شيء ... بل إنهم يُظهرون القائمةَ إذا اقتضت الحاجة ... واسمك ليس في تلك القوائمِ وهذا يَعْني أنَّك على القائمة الفعليةِ وأنك من المطلوبين بشكل رسمي للتصفيةِ ... فاسمك هناك في تلك القوائم البالغة السرية .. القوائم الحقيقية ... أنقذْ رقبتَكَ وانجُ بعمرك ... إننا في اللحظات الأخيرة . ولا تقلق بشأني . فلَنْ يسيئوا إليَّ بسبب (دانيتسا) والأطفال . فأنا صهرهم . ولا يُمكن أن يكونوا قد فقدوا صوابهم لدرجة أن يتسببوا في جعل هؤلاء الأطفالِ أيتامًا ؟! » .

وغادر الأَخ ... تَركَ البلدة مستقلًّا الحافلة السريعة « سربرينيتسا إكسبرس » لحق بالحافلة الأخيرة المتجهة إلى (سُوتْييشكا) . كَانَ من أوائلِ المطلوبين للاستجواب .. الاستجواب الذي لم يعُد منه أحد !! . وذات يوم ، خَرجَ (فخر الدين) لزيَارَة أختِهِ في الخفاء أخذ يقفز فوق أسوار الأفنية [1] الخلفية ثم ينعطف عبر ساحات الأفنية الأمامية التي تُميّز المنازل البوسنية وهكذا سلك طريقًا مُتعرّجًا على طول الطّريق هناك ، دون أن يَعْرف بأنَّ هذا الطريق كان طريقًا مُختلفًا للوُصُول إلى الطرف الآخر من البلدةِ . وفي ذلك اليوم قَفزتْ زوجته من سريرِ المستشفى كما لو أَنَّها مَا كانت مريضَة قطُّ . ورَكضتْ إلى مركز القيادة المحلية الصربية . وأبلغتهم بأَنّها قد نفّذتْ مهمتَها - فزوجها لَمْ يَهْربْ - كما أبلغتْ عن نفسها أيضًا ؛ لأنها لم تَستطع أن تُقنع شقيق زوجِها بالعدول عن الهرب ؛ ولأنها لم تبذل جهدًا أكبر لثنيه عن الفرار من (سربرينيتسا) ! .

طلبوا منها أن تقودهم إلى مكان زوجِها ..

لم يكن زوجها (فخر الدين) قد عاد إلى البيت بعد . ولَمْ يَجدوه أيضًا عند أختِهِ التي اختفت بعد زيارتِهم دون أثرٍ يُذكر ... يزعم الناسُ أنّها قَدْ أُحرقتْ حيّة مع مجموعة البوسنيين العجائز من الرجالِ والنساءِ الذين رَفضوا أن يتركوا بلدتهم . أنا لا أَعْرِفُ ما الذي حَدث لها . ولاحقًا ، عندما عُدنَا إلى (سربرينيتسا) لم أَستطع أَنْ أَتحقق من بقايا عظامِها وسط الرمادِ ؛ ولهذا بقي الأمل حيًّا بداخلي ورجوتُ أن تكون قَدْ أُخِذتْ مَع مجموعة من سكان البلدةِ الذين

---

(١) الأفنية : جمع فناء ، وهو مساحة حول المنزل يحيطها سور - (المترجمة) .

أُدرجُوا رسميًا تحت اسم « مَفْقُودون » !!

ثمّ أَخذتْهم (دانيتسا) إلى المخبأ ... كان (فخر الدين) قد هَيّأه وأعده كملجأ طوارئ خاص بالعائلةِ إلى أن ينْتهي العالم من مُرَاقَبته الأثِيمة للعدوان المُسلَّحِ والوحشي على البوسنة .

طلبت منهم قنبلة يدوية . أعطوها اثنتين . قرعت بالقنبلةِ على الأنبوبِ السريِ للتنفس . ومِنَ الأسفل سُمِعت دقتان كرَدٍّ على الدقة الأولى . رمت إليه بَالقنبلتين كما لو كَانتْ تمرر إليه قِنينتَين بلاستيكيتين من المياه المعدنية ... وفي ثوانٍ كان كل من المخبأ السري للعائلة وجسد زوجِ المعلّمة « الطيبة » قد نُسفَ نسفًا كاملًا !

ثم غادرت (سربرينيتسا) في الوقت الذي كان فيه « التشيتنيك » يتَراجعون وعادتْ إلى (سُورذْوليتسا) . كان بإمْكانها أَنْ تَعُودَ إلى (سربرينيتسا) .. ولكن مهمّة العشرين سَنَة مِنَ التعليم في البوسنة التي تم تكليفها بها كانت قد أُنجزت بنجاح وبلغت نهايتها !

لكن من نجا من البوسنيين مِنْ أهل (سربرينيتسا) والذين بقوا منهم على قيد الحياة بَعْدَ أَنْ سَمعوا بما حَدثَ ، لَمْ يُصدقوا جيرانَهم الذين شهدوا كُلّ ما حدث وحكوا كيف تخلّصتْ (دانيتسا) من زوجها ووالد ولديها وكذلك من عمة ولديها . ولم يعودوا يثقون بهم .. بل وعلى النقِيض ، كان البوسنيون مِنْ أهل (سربرينيتسا) العائدون إلى بلدتِهم بعد أن تم دفع « التشيتنيك » ودحرهم إلى الوراء ، يعتبرون أولئك الذين شَهدوا على أحداث الجريمةِ التي وقعت في فناء (فخر الدين) الخلفي من المسلمين المتطرفين :

« لكم تجرفنا هذه الحرب بعيدًا ، عندما نَسْمحُ لأنفسنا بنشر القصصِ الملفّقةِ حول المعلّمة الطيبة (دانيتسا) ؟! نحن لَسنا في دَوْلَةٍ إسلامية ... في هذه الحربِ يَجِبُ علينا أَنْ نُشَيد « الوطن المُوحَّد » وأن نُقيم « جمهورية الشعب » في البوسنة ! » .

وبالمِثْل لم يُفكّر أي أحد مجرد تفكير في قبُول الادّعاء بأن كلًا من - (يانْلان) و (يادرانكو) - أبناء (دانيتسا) كَانا مِنْ أسوأ الجزّارين ، بالرغم من أنَّ « التشيتنيك » أنفسهم كَانوا يَنْشرونَ الدعايةَ حول شجاعةِ كل من (ألكساندر) و (بيرو) أبناء المعلّمة الطيبة (دانيتسا) اللذاين لا يعرفان الخوف !!

كان الناسُ يصرخون باشمئزاز :

« يا لها من أكاذيب بَشِعة وقبيحة ! ... يُريدون أن يلطخوا سيرة المعلمة الطيبة (دانيتسا) وأن يلوِّثوا سُمْعَةَ عَمَلها الذي قدمته للبلدة وصَنِيعها الذي يَسْتَحِق الشكر ! الشعب البوسني المؤيِّد للديمقراطِية [١] والذي يعي معنى الديمقراطية جيدًا لايَجِبُ أنْ يَهْبطَ لمستوى مثل هذه الدعايات والألاعيب السياسية التي ترمي إلى أن ننسى فضل العديد مِنَ المعلمين القادمين مِنْ (صربيا) الذين قاموا بالتدريس في البوسنة لسنوات طويلة وأن نغْفل عن ديننا وامتناننا لهم وأن نتجاهل فضل أُولَئِكَ الذين أهدروا زهرة شبابهم في البوسنة لمحو برامج التفْكير المتخلف من مناهج تعليم أطفالنا وتدريسهم المناهج التقَدّمية والذين جاهدوا لتعليم أبنائنا من أجل النهْضَة والازْدِهار ! » .

لكن حَدثَ أن الابنَ الأصغرَ (أكا) - الذي لم يُعرف أبدًا من قبل باسم (ألكساندر) - قد وقع في الأسر . فبعد وابل من ضربات المدفعيةِ ، اعتقد « التشيتنيك » أنَّ المقاومين قد تخلوا عن مواقعِهم في (توربه) وأنهم لا بُدَّ أنْ يكونوا قد تنازلوا عنها .. كان (يابْلان) يتَرأس حوالي ثلاثين فردًا من « التشيتنيك » ... ثم وَقعوا في الفخ - كانت عناصر المُقاومة قد خططت لكمين لهم - وكما لو أنَّ الأرض انشقت عن مجموعة من العفاريت البوسنيين الذين انبثقوا منها فجأةً ... وعندما تم تفحص جثث القتلى من « التشيتنيك » كان (أكا) هو الوحيد الذي لم يزل حيًّا ... كان قد انبَطَحَ على الأرض - بشكل بطوليّ - فور بَدء إطلاق النار . ولَمْ يُمس حتى برصاصة واحدة . سَقطَ على الأرض ببساطة ولَمْ يُحرّكْ عضلة واحدة من جسده :

« أرجو كم لا تطلقوا النار عليّ .. أَنا واحد منكم . أنا (يابْلان) .. ألم تتَعرفُوا عليَّ ؟ أنا ابنُ المعلِّمة الطيِّبة (دانيتسا) ! » .

رفض أحد المجاهدين الاستجابة لتوسلاته ... كان الصرب قد نحروا عنق أَخيه بعد أن قاموا باغتصابه لعدة أيام متتالية في معسكرِ الاعتقال بـ (سُوسيتسا) ، قُرْب (ولاسنيتسا) ... لم يَستطع أَنْ يَستمرَّ بالاستِماع إليه أكثر !

---

(١) الديمُقرَاطِية : نظام حكم الشعب للبلد عن طريق نواب منتخبين ، وهو نظام يسمح بحرية الكلام والدين والرأي السياسي . ويؤمن بالعدل والمساواة في معاملة المواطنين دون وجود للطبقية - (المترجمة) .

لكن ذلك لم يكن كافيًا .. كانت البلدة المُحاصرة تُشاهد وتستمعُ إلى وكالة أنباء « سرنا srna » – الصادرة من مدينة (باله) القريبة من (سراييفو) – التي نقلت أنباءً مُروعة عن القتل الوحشي لثلاثين من الشُبان الصربِ الأبرياءِ .. فهبَّ سكان البلدة المُحاصرة ينادون بحقوقِ أسرى الحرب ومُطالبين بإحالة قاتل ابن المعلّمةِ الطيبة (دانيتسا) إلى المحكمةِ العسكرية لتلقي القصاص العادل .

فقط عندما أُسِرَ الابن الأصغر (يادرانكو) وأُحضِر حيًّا إلى (سربرينيتسا) ، بدأت مُعدلات التعاطف مع المعلّمة الطيبة (دانيتسا) في الهبوط :

« لَيسَ ذنبي أن المعلّمَة الطيبةَ (دانيتسا) تَزَوّجَت من (فضيل جوزيتش) ! ولا تتذكّروني كما كنت .. ذلك الولد الصغير المهندم (يادرانكو) ... فقد كُنْتُ دائمًا (بيرو) التشيتنيكي ولم أكن يومًا أي شيء عدا ذلك ! » .

سمعتُ بأنّه تلطّف في الحديث – فيما بعد – وأنه لانَ وعاد مُهذبًا وناعمًا كالقطنِ ... لَكنّي لَمْ أهتم بمعْرِفة ما حَدثَ له .. كنت أشعر بالنفُور والاشمئزاز منه بالضبط كما كان رفيقي في السلاح بالقُرْب من (توربه) مُتقَزّزًا ومُشْمَئِزًّا من أخيه ؛ ولذلك لم أهتم بأن أعرف كيف انتهى استجواب (يادرانكو) وما صار إليه التحقيق معه .

ها قد أوشك تقريري البطيء عن « موتِ سربرينيتسا » أن يَنتهي أخيرًا . فِيمَا مَضَى وقَبْلَ الآن ما كُنتُ لأقدر على كِتابَة هذه السطور حول المعلّمة الطيبة (دانيتسا) . ولم أضع في حسباني يومًا أنني سأكتب مثل هذا التقرير عنها .. وما زِلتُ لا أعتقدُ أنّني استطعتُ أن أتدبر ذلك العمَل بشكل جيد ... نعم ، إنني أشْعرُ وأحس تمامًا بوجع البوسنة كُلها ... لكنّي سَأكُونُ كاذبًا إذا لم أعترف وأقر بأنّ الألم الشخصي للإنسان والوجع الذي ينبع من داخله .. مُوجع ومُؤْلِم بصورة أكبر وأشد ضراوة من سيف يُغمد عميقًا في صدرك حتى مِقْبَضه [1] !!

عند هذه النقطةِ رفعت يدي لأتلو الفاتحة على روحِ أَخي (فخر الدين) .. اللهم ارحمه وأدخله فسيح جناتك !! .

* * *

(١) مِقبَض : مَسْكَة أو يد السيف – (المترجمة) .

ما زلت أذكر الأفلام التي تُصور « رُعاة البَقر » وهم يُقومون بملاحقة الهنود الحمر إلى معسكرات الاعتقال ، وكيف يَقُودونَ الماشيةَ الهنديةَ فوق المروجِ المحتلّةِ وهي تنطلق أمامهم في نوبة من الفرار الجماعي بعد أن استولى عليها الذعْر . كنتُ أتساءل دائمًا : ما الذي يفعلونه لكي يُدخلوا الأبقار في تلك الحالة من الذعْر المسعور .. لكنني أعتقد أنهم لم يكونوا بحاجةٍ إلى تقنية خاصة لإثارة تلك البهائم .. على الأرجح أن الأبقار كانت تُقاد بفعل غريزة البقاء فحسب .. كانت غريزة البقاء هي ما يدفعها إلى الهرب المسعور أمام رعاة البقر .. إنها فقط تستسلم غريزيًا إلى فطرة حبِّ البقاء . وهذا ببساطة ما يُدخلها في نوبة من الذُعْر والهرب الهائج ظنًّا منها بأنَّها بذلك تُنقذُ أنفسها مِنَ الموتِ ! .

إنني أُشاهد الآن فيلم « زحف المومياوات » .. أراقب تقدم الأشباح النسائية الباهتة التي فازت - بعد صبر طويل وانتظار مرير - بطعام حقيقي .. ولأول مرة منذ فترة طويلة ظفرت النساء المومياوات بفرصة لتذوق طعام حقيقي ... فقد وَجدت تلك المخلوقات الهزيلة القوّةَ الكافيةَ لاقتِحام الشاحناتِ التي جَلبَت معها الغذاءَ ... لم يتمكن أحد من إيقافهن .. ولا حتى المحاولات العَنيفة لجنود قوات الحماية الدولية ؛ ولا حتى إطْلاق النار في الهواء مِنَ البنادقِ المُخبّأة التي تَعُودُ إلى المقاومة البوسنية ؛ ولا حتى القائد (ناصر) الذي حاولَ مُخَاطَبتهن دون جدوى .. إنها غريزة البقاء التي لا تُقهر ! .

أصبحت جميع الوعود التي تعد كُلّ أولئك الذين يَرغبونَ في السفَر إلى (توزلا) بأنهم سَيُمكنون من القيام بذلك وعودًا عديمة الفائدة لا قيمة لها وفقدت مصداقيتها تمامًا .. بل وكان السفر مُقيدًا بشرط مسبّق ضروري للحصول على إذن بالسفر . لا شيء سوى غريزة البقاء يحْكمُ تلك الكتلةَ من النساءِ اللاتي - بقين لمدة طويلة وإلى الآن - لا يرين سوى الموت أمام أعينهن . كان الاهْتِيَاج الشدِيد ونوبة الجُنُون المؤَقت التي أصابتهن عبارة عن انفعالات يحركها الأمل الأخير في البَقاء واعتقادهن بأنهن لن يَبْقين على قيد الحياة إلا إذا عثرنَ على مكان في إحدى الشاحناتِ ! لهذا كُن يَدُسنَ على بعضهن البعض ويسحقن بعضهن تحت الأقدام ويخْتنقنَ . ويَنْفضنَ عنهن أيدي أطفالهن .. الأيدي الصغيرة المُتَبَّتةِ بقوة في ثيابهن .. بل وكن يتخلّصنَ من أطفالهن الرضع وينزعونهم عنْ صدورِهن ... وبَعْدَ أنْ تَسلقن الشاحنات ،

أخذن يَطْرحنَ أولئك اللواتي اختنقن تحت الأقدام حتى الموتِ ... ولم يفعلنَ ذلك بدافع الشفقة والإحسان إلى المَوتى . كنّ فقط يفرغن مكانًا لأنفسهن ، على أمل الخرُوج من (سربرينيتسا) !

هَلْ هناك حد لانْتِكَاس الإنسانيةَ أدنى من ذلك ؟

هَلْ للقُنُوط [١] اسم أسوأ من القنوط ؟

هَلْ أسفرت كُلُّ دركات جهنم عن نفسها وتبدّت لنا جميعها .. هل تَكشفت لنا كل أعماق الجحيم وأعلنت عن نفسها ؟ لا أَعْرِفُ . لم أكن أعد طبقات الجحيم التي انْكَشَفَت . أَو رُبَّمَا فَقدت العدد الذي بلغه إحصائي ... لكنّي أعتقد بأنّ كُلّ الطبقات السبع لجهنم قد ظَهرت ورأيناها في (سربرينيتسا) .

إلى أين ستغرق (سربرينيتسا) أعمق من ذلك .. أين ستختفي ؟

فقدَ تأثري الحِسِّي بالأفلام السينمائية التي تصور ذُعْر الأبقار الهنديةِ - كل قوته التأثيرية أمام مكابدة ذلك الكابوسِ الواقعيّ .. كابوس المشهد الجُنُوني للنساءِ البوسنيات أمام شاحناتِ المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدةِ ، التي مقرها في (جنيف) . وأين هي (جنيف) ؟ وأين (سربرينيتسا) ؟ إلى هذا الحد اخْتزلت مساحة البوسنة !! .

إنني لا أَرغب في الذهاب إلى البيت .. الآن حيث يُمكِنُني - أخيرًا - أَنْ أَذْهبَ إلى البيت حينما أُريدُ . وحيث يُمكِنُني البقاء في البيت لمدة طويلة حسب ما أُريدُ فأنا الآن لَستُ مجرد جندي مُسرّح بإجَازَة [٢] مثل كل الآخرين في (سربرينيتسا) ، بل جندي مُسرّح من خدمة الجيش البوسني ! وبعد أن أصبح لدي شخص أذهب إلى البيت لأجله لا أرغب في الذهاب إلى البيت ، ولا أودُّ عَمَل أيّ شيء حَسَن ولا أرغب في أي أمر لطيف . ولهذا ، فأنا لا أَرغب في رُؤية حتى (تنزيلا) .. أنا لَستُ بِحاجةٍ إلى طبيب مختص في علمِ النفس والأعصاب . فليس هناك علاج للمنظر الذي شَهدته عيوني ... أنا لا أَلُومُ النساءَ اللواتي فَقدنَ الملمح الأخير مِنْ إنسانيتِهن .. بل اللوم - كل اللوم - على أولئك الذين دفعوا بهن إلى تلك

(١) القُنُوط : قَطْعُ الأمَلِ أو الرّجَاء - (المترجمة) .

(٢) إجَازَة : إذْنٌ أو رُخصة بِالْغِيَاب - (المترجمة) .

الحال المُزرية .. لقد استقبلتُ مشهد الذعر الجماعي أمام شاحنةِ المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة كمشهد لجنازة .. كان المشهد يُمثل - باقتدار - مراسم دفن الوهمِ الأخيرِ حول أُكذوبة (الإنسان والإنسانية) . دقّ ذلك المشهد المسمار الأخير في نعش الجِنْس البَشَرِيّ !

لم أتمكن يومًا منْ فهم الحكمة التقليدية المنتشرة بين البوسنيين والتي تقول « لا تَذْهب إلى البيت مُباشرةً بعد تَشْييع الجنَازَةِ ودفنِ الميِّتِ » . كنتُ أحتقرُ العادات والتقاليد الشعبية المُتعلقة بهيبة الموت .. وكنتُ أزدري كل شيء يرمز أو يُشير إلى الخوف من الموتِ . والآن .. ها أنا ذا أعُودُ إلى البيت باشمئزاز كامل وكره تام للحياةِ ... ولم يكن هناك دفن في الجنازةِ التي عُدتُ لتَّوي منها . ولكنا قد تحوّلَنا - نحن الباقين على قيد الحياة - إلى قبرٍ كبير . هَلْ سَيُنْبَشُ هذا القبر يومًا ؟ وهل سَيُعثر أثناء التنقيبِ على رُفاتنا المُميت وبقايا أجسادنا الفتّاكة والمُهْلِكة التي ستُزكم الأنوف بنَتن الفسادِ والعفن الأوروبي ؟!

لِهذا أنا لا أَشْعرُ بالميل لفعل أيّ شيء لطيف ... وحتى (تنزيلا) لا أُريدُ أن تقع عيناي عليها ..

* * *

ليس هناك جسر فوق البحرِ

ليس هناك دِمَاغ داخل الحجارةِ

ليس هناك شَعر على راحَة [١] اليَد

ليس هناك عُرفٌ [٢] على قفا الثيرانِ

ليس هناك قرون للحصان

ليس هناك بُقَع على جسد الغُراب

ليس هناك عين حسود شرّيرة على (مَرْجَان جوزو)

---

(١) راحَة اليَدِ : باطِنُ اليَد أو الكَفّ - (المترجمة) .

(٢) عُرفٌ : شعر ينبت أعلى الرقبة أو الظهر في بعض الحيوانات كالفَرَسِ والأَسَدِ .. إلخ - (المترجمة) .

هَلْ هناك شخص ما يستَدْعيني مِنْ بين المَوتى ؟!

لتُصرَف .. ولتخْرَج .. السترافا !
لتُطرَد عنك العين الحسودة
العين التي أصابت (مَرْجَان جوزو)
ولتسقط على كلب ..

أَم أن المَوتى هم الذين يُنادونني ؟ ... هل وصلت ملائكة اللّه ؟

لتذهب بالعين الشرّيرة التي أصابت (مَرْجَان جوزو)
إلى جبل بارد ..
إلى عارضة [1] حمراء ..
إلى أعماق وادٍ بعيد ..
إلى سطح جبلٍ عالٍ ..
حيث لا ينبح هناك أي كلب ..
حيث لا يصيح أي ديك ..
حيث لا خُوَار لأي بقرة ..
ولا نعير لأي ثور ..
وحيث لا صهيل لأي حصان !!

كان الرصَاص المُنصهر يُصبُّ فوق الماءِ ، شعرت كما لو أنّه يتدفق فوق رأسي وصدري وفوق سيقانِي ، كان الماء يُبقبق ويفور ويزبد مصدرًا صوت فرقعات تشبه صوت الزيت المغلي !!

العيونُ السوداءُ أصابتك بالعين الشرّيرة
ولكن ملائكة اللّه أزالتها ..

---

(١) عارِضَة : كمرة من الصُلب تُمد عليها الألواح لتدعم أرضية الغُرف - (المترجمة) .

العيونُ الخضراءُ أصابتك بالعين الشرّيرة

ولكن ملائكة اللّه أزالتها ..

عيونُ الصقْر أصابتك بالعين الشرّيرة

ولكن ملائكة اللّه أزالتها ..

العيونُ الصفراءُ أصابتك بالعين الشرّيرة

ولكن ملائكة اللّه أزالتها ..

شعرت أن وجهي مبلّل .. أخذ وجهي يَتعرق . ثمّ صدري . ثم بلغ البلل ذراعي الأيمن مِنَ المرْفَقِ إلى قبضةِ يدي . ثمّ تدفق البَلل على ساقِي اليسرى ، مِنَ القدمِ إلى فوق ركبتي ، والذراع الأيسر ، ثمَّ الساق اليُمنى .

حضر ثلاثة من الساحراتِ ..

قامت ملائكة اللّه بطردهن ..

ذهبن مع الزوْبَعَة [١] ..

مع نفحة ريح عابرة ..

في كافة أنحاء العالم ..

كنحلة تطنّ حول الأزهارِ ..

كغيمة مُعلقة في السماءِ ..

شعرت مرة ثانيةً بأَنني مُبلل ومَغْمُوس في الماء والعرق . ومرةً أخرى استمعت إلى ذلك الصوت الذي يصدُر حين تُطفأ النارُ في الماءِ ، سمعت كيف أخْمَد الماء النار فوق رأسي وصدري وفوق سيقانِي . وما عُدْت أسمع صوت فوران الرصاص عند الغليان . سمعتُ فقط صوتًا يشبه صوت سقوط السوس في الماءِ !

تَجْلسُ العين الشرّيرةُ على العتبةِ

والساحرة تحت العتبةِ

كلُّ ما مسّته العين الشرّيرة

(١) الزَّوْبَعَة : إعْصار ، عاصِفَة - (المترجمة) .

تُزيلُه الساحرة

العين الشرّيرة لَها تسعة إخوة

بقي من التسعة ؟

ثمانية

بقي من الثمانية ؟

سبعة

من السبعة ؟

ستّة

من الستّة ؟

خمسة

من الخمسة

أربعة

من الأربعة ..

ثلاثة

من الثلاثة ؟

اثنان

من الاثنين ؟

واحد

من الواحد ؟

لا شيء

ومع العد التنازلي وكلما صغُرت الأعداد كان صوت هَسْهَسَة [١] الماءِ يُسمع بوضوح أكبر .

العين الحسودة الشرّيرة لَها عينان ..

(١) الهَسْهَسَة : صوت يشبه صوت فحيح الأفعى - (المترجمة) .

عين من نار ..

والأخرى من ماء ..

العين المائية تنفجر ..

وتُطفئ الأخرى النارية ..

أُخمدت العين الشرّيرة

كما ينطفئ الفَحْم الحَجَرِيُّ الحيُّ

كما تنمحي الرغوة على سطح الماءِ

كما يتخلص النبلاء أهل الكرم والجود من الذهب

ستبتعد العين الحاسدة عنك

إلى أعالي الجبال

حيث لا ديك يصيح هناك

حيث لا ينبح أي كلب هناك

وستبقى هناك

أشرفت التعويذة على الانتهاء .. بذلتُ جهدي لعلي أَسْتمعُ إلى بَعْض آياتٍ من القرآن . ولكني لم أَسْمع أيًا منها . سَمعتُ تمتمات التعاوِيذ والتمائم فقط . إن كَانوا يحاولون طرد الخوف والفزع مني ويُؤدّونَ طقوس « السترافا » فيَجِبُ أَنْ يُسْمَعَ الدعاء . وما دام بوسعي أن أستمع إلى إلقاء نصِّ التعويذة ، فيُفترض أن يتبع ذلك قِراءة الآيات القرآنية .

إلى جبل بارد

إلى عارضة حمراء

إلى سطح جبل عالٍ

حيث لا ينبح أي كلب هناك

حيث لا يصيح أي ديك هناك

وحيث لا صهيل لأي حصان ؟

أشعرُ بوجود شخص ما فوقي .. شيء ما يركبني ... شيءٌ هائجَ يَعلو جسدي

العاري .. في البيت الذي ليس فيه قرآن ... في بيتٍ انتزع منه مُصحفه القديم .. شخصٌ هائجٌ أو مجنون وقد يكون شيئًا آخر غير ذلك ... حتى إنه قد يكون شيئًا مُمتِعًا ؟! ورُبَّما يكون ذلك الشيء هو (تنزيلا) .. هَلْ هي حبيبتي (تنزيلا) ؟

أجل إنها هي ...

فقد أُصيبت بِالهَوَس الجنسيّ منذ أن بقيت مَعي في غرفتِي الصغيرة جدًّا .. واسْتَحْوَذت عَلَيْها الرغبَات الشهْوانِيّة كليًّا ؛ لذا فهي لا تفارقني - لخوفها من أن أموت - وخشية أن تَفْقدني ..

لكن هذين الثديين لَيسا لـ (تنزيلا) . هذه لَيستْ أثداء امرأة . وهذا الذي يعلو وجه (تنزيلا) لَيسَ شَعرًا . بل لبْدَة أَسَد يرفع رأسَه بحركة مفاجئة ويتمايل شعر لبْدَته باندفاع متشنّج في الهواء ..

أووه ... . إنه ذلك الكابوس المُؤْلِم .. المُسلَّط على روحي المُعذّبة ... وعلى إيقاعِ اهْتِزازات الجسد المترنح تكرَّرت التنهدات النارِيةَ :

إلى عارضة حمراااااء

إلى جبل بااااااارد

حيث لا يصيح أي ديك هنااااااك

العين المائية تنفجررررر

وتُطفئ الأُخرى الناررررررية

مرةً أخرى أَنا لا شيء ... ليس لي وجود ... فَقدتُ نفسي من جديد ... ولا أدري من أنا ؟ .. ولا أين أنا ؟ .. ها أنا أحاول أن أَتلمَّسُ الطريق دون جدوى ... عبثًا أَخدشُ جلدي بلا مَعْنًى ... بل إنني لا أملك مساحة على جلدي لأَخدشَها ... وليس لديّ أظافر حتى ... لا شيء .. لا نور ... ولا عتمة ! .

ولكن بما أنني بدأت أعي أنني غير موجود .. وبدأت أُحسُّ بعدم وجود أي شيء آخر .. إذن فلا بد أنني موجود في مكان ما .. فالشخص الذي لا وجود له بشكل مطلق لا يُمكنُ أَنْ يُدرك مثل هذه الأشياءِ ..

ومن جديد ، تَترَنَّح حبيبتي (تنزيلا) وتُذبذبُ ببطء . إنها ليست مجنونة في نوبة هياج . الشيء الوحيد الذي ما زالَتْ مَهْووسة مُغرمة به ، منذ أن نجت في

(تسِيرسكا) هو الجنس ! ... لَمْ يَعُدْ لديها أي معنًى فلسفي للحب مطلقًا ، ما عاد الحب بالنسبة إليها شعورًا روحانيًا شفافًا يتجاوز حدود الطَّبِيعَة الحسّية .. شعورًا يسمو فَوْقَ المحسوسات .. لقد اختزلت أهوال الحرب معنى الحبِّ داخل نفسها إلى شيء جسدي .. رغبة جَسَدِيَّة حسيَّة فحسب .. مجرد شعور مادي بحت !

هل تلك الأثداء لها ؟ ..

أجل لها ..

إنها (تنزيلا) ترتطم بي ..

إنها ليست مجنونة ولا تَهذي ...

إنها هي ...

بعضُ الناس يَجِدُون في الانهماك في تناول الطعام شعورًا منعشًا بالتحرر .. ربما يعثرون على الإحساس الأخير بالحريةِ في الانقضاض على الطعام .. والبعض يجده في الجوعِ ، والبعض في الفِرَار والهُرُوب ، والبعض في الانتحارِ ، والبعض في أي شيء آخر .. لكنَّها تَجِدُ ذلك الإحساس الأخير بالحريةِ في الجنسِ ...

و مَرّةً أُخْرَى .. إنها ليست هي ..

هذه ليست (تنزيلا) ...

إلى سطح جبل عاااااالي ..

حيث لا ينبح أي كلب هنااااااك ..

لا تطفو الرغْوَة على سطح الماااااااءِ ..

الذهب على النبلاااااااء ..

العيون الشرّيرة ، الجَمرَات ، الشباب ..

ومَرةً أُخرَى .. أنا لست موجودًا ... لَم يعد لي وجود ...

ومَرّةً أُخْرَى أعي الحقيقة التي تسبق وتتبع الكابوس ... أعي أن صدر (تنزيلا) ينبض ويدقُّ داخل قلبي ... كنت أستشعر تلك الحقيقة الموجعة بعد وقبل الكابوسِ ... حبيبتي (تنزيلا) ...

- (تنزيلا) ... يا قُرّة العَيْنْ !

- « (تنزيلا) . ! » .

إنه صوتي أنا ... إنني أَستمعُ إلى حديثي لنفسي ..

صحتُ :

- « (تنزيلا) ! » .

بدأت أَصْرخُ صُرَاخًا قَوِيًّا وحادًّا ... خرج صوتي من أعماق رئتي :

- « (تنزيلا) .. لا ... لا تَهْربي ! لا تَتْركيني ! لقد ذَهبتُ فقط في زيارة إلى العالم الآخرِ ! لا تخافي ! أنا لم أمت .. ولكني اعتقدتُ فقط بأنَّني كُنْتُ ميتًا ! لكن لعَلّكِ لم تعتقدي ذلك أنت أيضًا ! صدقيني .. أنا لا أقصد أنني ما زلت حيًّا لأَنني مت شهيدًا ... والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ولا أقولُ إنني حي حتى لا تَفزعي ولا تخافي علي ... فأنا ما زلتُ حيًّا بالفعل .. ما زلت هنا في هذا العالم ! » .

- « أيها المسكين ... عسى أن ينزل اللّه رحمته عليك يا عزيزي ! » .

سمعتُ صوتًا يشبه الصّدَى .. صوتًا يشبه تمامًا صوت القرقرةِ التي تنبعثُ مع هبوط الليل على غابات الزان المطلة على (سربرينيتسا) قبل فترة قصيرة من تغيير الطقسِ ... أصغيت السمع .. استمعتُ بتَمَعُّنٍ وانتباه إلى رَجْع الصَّدَى :

- « أيها المسكين ... عسى أن ينزل اللّه رحمته عليك يا عزيزي ! » .

نعم ، إنني أَسْمعُها .. أَسْمعُ أصواتًا من هذا العالم !

إنه لَيسَ صوت (تنزيلا) ..

بل صوت (نينا [1] بيدا) ..

(نينا بيدا) السيدة العجوز مِنْ حَيِّنا التي تؤدِّي طقوسَ « السترافا » ...

إنها تُناديني ..

أجبتها :

- « إنني أَسْمعُك ! » .

وربما لم أجبها ولكني ظننت فحسب أَنِّي أَقُولُ ذلك . إنني أَنهار من جديد ..

---

(١) نينا : اسم محلي يطلق على الجدة .

أغطس في خضمِّ الغَيْبُوبَة وتسحبني موجات اللاوَعْي .. وأنا أُكافحُ للخروج منها .. ها إنني أزحف ... أَتحركُ ببطء على طول الأرضيةِ وأصل إلى المزلاجِ . أصْرخُ . أنادي على الساحرةِ التي تسكن في حيِّنا ...

أَفْتحُ عينَيَّ .. وأَراني ممدًّا في السريرِ كخرقة بالية ! .. وأَرى (نينا بيدا) ..

هذه هي المرة الأولى التي أراني وأنا راقد في سرير .. المرة الأولى التي أشاهد نفسي وأنا نائم .. لَكنِّي الآن أرى من نفسي القدر الذي يراه المرء من نفسه وهو مُسْتَلْقٍ . لَم أعد أرى كل جسدي . إنني الآن أُراقبُ نفسي بعيوني أنا .. أعتقد بأنني كنت في نوبة من الهذيان ، فقد هُيئ لي أنني أراقب نفسي بينما كُنْتُ ممدًّا في السريرِ ، رَأيتُ نفسي مِنْ أعلى .. من فوق .. مِن السقفِ ؟

لا بد أن الموتى يرون أجسادهم على هذا النحو في اللحظة التي يُسلمُون فيها أرواحهم ويغادرون أجسادهم .. على هذا النحو ترى الروح المغادرة الجسد الذي كانت تسكنه .. وهكذا سترى روحي أيضًا مسكنها السابق ...

أنا أَعْرفُ ذلك .. كُنْتُ قَدْ أخبرتُ به في المستشفى قبل الآن ، حدثني بذلك الجرحى الذين كانوا يعتقدون بأنهم قد ماتوا وصاروا في عداد الموتى .. هم أيضًا كانوا يرون أجسادهم ممدة على أسرة المستشفى ..

بدأتُ أتذكر !

في البداية تذكرت فقط وبِصُعُوبَة - أنني كُنْتُ عائدًا إلى البيت ، ثم اجتاحني فيضان من الذكريات .. تذكرتُ أنّني لَمْ أكن أرغب في الذهاب إلى البيت ؛ وتذكرت الأمهات وهن ينزعن أطفالهن الرضع عنْ صدورِهن ... وأنني رأيتُ في هذا العالم الأرضي طبقة من طبقات جهنم .. لا أعرف أي الطبقات السبع بالضبط ولكنني رأيتها ... والآن إنني أراقبُ جسدي الملقى على السريرِ .

- « عسى أن تسير الأمور نحو الأفضل بإذن اللّٰه القدير . ولا يبدو أن الأمور بخير ، يا عزيزي ! » .

تلك هي الساحرة العجوز التي تسكن حيِّنا !!! إنها هي ..

إنها (بيدا) ! لَيسَت (تنزيلا) .

إنني أَسْمعُ صوت (نينا بيدا) . إنها تَتحدث معي ... أجل إنها توجه خطابها

إليَّ .. ولكنها في الحقيقة تتحدث مع نفسها .. فهي تظن أنني لا أسمعها .. وربما تعتقد أنني قد مت ..

يَجِبُ أن تُدركَ أنني لَست ميتًا .. وأنني لم أعد جثة بعد الآن ! عليَّ أَنْ أَتحركَ لكي أعلمها بذلك :

- « نينا ناااا .. بيي داا دااا ! ... . « إنه أنا مرجاااااان .. جااان .. ! » .

إنني أَسْمعُ (نينا بيدا) بالفعل ... يُمْكِنُني أَنْ أَراها وأن أَسْمعَها . وهي تَسْمعُني أيضًا . إنها تبصقُ في صدرِها ..

- « هه ، لقد أفزعتني ، أيها المُؤْذِي الخَبِيث ! واللَّهِ لقد ظننت أنه ليس هناك عِلاج لَك ! قلتُ لنفسي : إنك لن تبرأ ولن ينفعك أي دَوَاء .. بل إنني اعتقدتُ بأنك كُنْتَ ميتًا بالفعل » .

- « يَبْدو أنني لَستُ كذلك ! » .

- « حَسنًا ، أنت كُنْتَ ميتًا تقريبًا ، لكنَّك لَم تعد كذلك . اشكر اللَّه اللطيف ألف مرة ، سواء أكان يَسمعُ أم لا » .

قلتُ لها :

- « إن اللَّه « سميع » ... يَسْمعُ كُل شيء في كل مكان ! » .

- « أَعْرفُ . إنها مجرد كلمة تُقال لا أكثر .. لا تهتم ؛ إنه مجرد كلام . لكنَّك بالتأكيد حي ... ما دمت تَتَشَاجر وتعَارِضني فأنت حي ، إنك تُزعجُ نفسك وترهقها ! » .

* * *

انتهى فصل الربيع . إنه الخريف الآن في (سربرينيتسا) .. لا أَستطيعُ أن أَتَذكر ربيع الحربِ الثانية .. كُنْتُ قد بقيت لشهور في حالة غير مستقرة .. منسيًا في زاوية مهجورة من زوايا الزمن .. في البرزخ .. لا حي ولا ميتٌ .. في هُوة من الفراغ في جوف الزمان ... وكأن الزمان قد انفرج فُرْجَة وهربت منها .. نفذت من تلك الثغْرَة .. وبقيت هناك تلك الفترة التي لا أذكر عنها شيئًا .

خلال تلك الفَتْرَة ، التي يُمكنُني أن أطلق عليها اسم « الفَجْوَة الزمَنِية » .. جَلبوا

لي كل أطباء البلدة .. حتى الأطباء من منظمة « أطباء بلا حدود » . وجاءَ الدكتورُ (ماهميتس) أيضًا .. سَهرَ على رعايتي وظل يراقبني طوال الليل ، ومع عَجْزه عن الدعاء حتى لنفسه وضَعْف خبرتِه الخاصةِ بالأدعية المأثورة ، أخذ يغمغم ويتَمْتم بالأدعية التي ما زالَ يتَذَكرها . كما أحضروا لي مُختلف الأئمة . وقف الإمام (دورميش) من عائلة (سلابوفيتش) على جانبي الأيمن وأخذ يقرأ عليَّ الأدعية راجيًا من اللَّه إما أن يُميتني أو أن يشفيني لأستأنف الحياة ، وعلى جانبِي الآخر كان يَقْلِب كِفة الميزان .. يبدو أنه قد أنجز صفقة عظيمة .. لا بد أنني مع كل تلك المعاناة كنت أمَثِّل صفقة رابحة !! ثمَّ اشترت عمَّتي (زيرينا) كبشًا أسود اللون وقدمته كذَبِيحَةٍ .. كقُرْبان للَّه تعالى . تلك هي العادة في بلدتنا أن تُذبح القرابين تقربًا للَّه عسى أن يبرأ المريض وتعود إليه عافيته . أو على الأقل ، أن يمن اللَّه على المحتضِر بميتة سهلة وألا تتعذب روحه في سكرات الموت بعد ذلك أرسلت عمتي في طلب المشعوذة العجوز (نينا بيدا) وأحضرتها لكي تؤدي عليَّ طقوس تعويذة « السترافا » السحرية .. أهل الحيِّ كانوا قد أخبروا عمتي بأن تلك هي العادة في حيٍّ (جوزيتش) .

- « و (تنزيلا) ؟ أين (تنزيلا) ؟ » .

سألت (بيدا) العجوز :

- « أَين (تنزيلا) ؟ » .

- « أنا لا أَسْأَلُك عما فعَلته بي ... فأنا أَعْرفُ ذلك ... أنا فقط أسألك أين هي » .

أجابت (نينا بيدا) :

- « لا تهتم بذلك ! » .

جاءت العمَّةُ (زيرينا) أيضًا ، في ثوبها التركي المعروف بـ « الكات » .. جاءت في ثوب جديد لم تمسه طلقات الرصاصِ .. إنها تُحركُ شفاهَها من فوقي كما يفعل درويش فوق شيخ ميت .. وقد بُهِتَت وتجمدت من الذهُول عندما رأتني ، وقد تعافيت .. كان ذلك أمرًا غَرِيبًا وخارِقًا لِلْعادَة .. كما لو أنني قد بُعْثتُ من موتي وعدتُ من جديد إلى الحياة ... كانت نجاتي معجزة غَيْر مَألُوفة أثارت فَزعها تمامًا .. كما لو أنها قد صُعِقَت ببرق سريع مفاجئ ... العمة التي واجهتْ شخصيًا مثل هذه الأمور وجربت كافة أشكال المفاجآت لا يَجِبُ أنْ تُفاجَأ بأيِّ شيء ... المرأة التي تحملت كل تلك المتاعب وخاضت كل تلك التجارب القاسية لا يُفترض أن يدهشها

شيء .. ومع ذلك أرْبَكتها تجربتي أنا وَأوقَعتها في حَيْرَة بالغة ... تعجبتُ وأخذت أَتساءلُ : تُرى ما وزن تلك التجارب الأليمة التي لا بدَّ أنني تَحمَّلتُها ؟!

أصَابَتني المِحنَة المفجعَة التي تعرضت لها العجوز (زيرينا) بصدمة كبيرة ، واسْتَغْلَقَ عليَّ الكَلامُ فلم أسْألها عن (تنزيلا) .. كنت أوَدُّ أكثر مِنْ أيِّ شيء في العالمِ أن أسْألَ العمةَ (زيرينا) عن (تنزيلا) .. لا أعتقد أن بوسعها أن تخفي عني الحقيقة . لكنني ما كنت لأفكر مجرد تفكير في المساس بكرامةِ ومقَام سيدة أناضولية ؛ لذا لم أجرؤ على ذِكر امرأة أخرى أمامها . فقط تَسَرَّبت مِنْ شفاهِي أجزاء صَغِيرَة من أغنية عاطفية ... قلت لها :

- انظري إليَّ يا عمتي ، أووه يا للجمال الأناضولي .. سَأغنِّي لَك ... لأجل « محمد » .. وباسم الـ (سيفداالينكه)[1] سَأغنِّي لَك ... وبدأت بالغِنَاء :

سَأطعمك حبات اللوزِ ..

وأهديك أرِيج العطر ..

وسَأقدم لك العصير لتشربيه ..

عسى أن تتحدثي معي عن الحبِّ ...

- « أوه ، أَنا مسرورة لأني عِشتُ لأسمع تلك الأغنية منك ... حتى إذا ... ! حَسنًا ، على أي حال لَم يعد تَوَقُّع الموت يُحْزنني وما عادت عَلاَمَات اقتراب الموت تصيبني بالاكتئاب .. لم يعد تَرَقب الموت يُكدرُني ... » .

من بعد أمِّها (فرح) ، كَانتْ هي أعظم سيدة على الإطلاق تَضع قدمها على أرض شمال شرق البوسنة . كَانتْ طَيبة القَلْب للغاية وإحدى السيدات الحنونات . ضَحّتْ بجمالِ شبابِها وفِتْنَتها لكي يُمكنها أن تَكُونَ قريبة من أمِّها الجميلةِ ، وأمها تَركت عائلتها بأكملها فقط لكي يُمكنها أن تَكُونَ أقربَ إلى أختِها الغيورةِ (زينب) ، وبَقيتْ مَع زوجِ أختِها ، بعد أن اسْتَحْوَذَ عَلَيْها هاجس التكفير عن التصرف الأخرق الذي أقدمت عليه أختها بفرارها من البيت .. بَقيتْ مَع زوج أختِها كذلك بعد أن سحرها جمال البوسنة الذي لا تُخطئه العين .. اختارتْ أن تبقى إلى جوَار البهاء

(١) سيفداالينكه (sevdalinkas) : أغنية حب شعبية معروفة في البوسنة .

الفتَّان والروْعَة الملمُوسة في أرضِ البوسنة البعيدةِ !

* * *

ما أن تماثلتُ للشفاء وبَدا لي أنَّني سأَكُونُ أخيرًا بخير ويُمكنني أن أنهض من جديد ، حتى داهمني الشتاء وجعلني طريح الفراش مرةً أخرى .

أغلقت العمَّةُ (زيرينا) عيونها للمَرَّة الأخيرة في أقل من عشرة أيام منذ أن تمكنتُ من الوقوف على أقدامِي مرة ثانية .. كَانَ ذلك في الربيع . ربيع الحربِ الثالثة ... حتى موتها كَانَ سلميًا . أرسلت في طلبي لآتي إليها على وجه السرعة ودون أدنى تأخير . أخبرتْني بأنها تَمَدَّدَت على الفراش لتموت وبأنها كَانتْ خائفة . وبأنها كَانتْ تراقبُ مرضي منذ وقت طويل جدًا ، وكَيفَ أنها تَعَذَّبَت وتَفَجَّعَت بسبب احتضاري طوال تلك المدة الطويلة ، وأخبرتني أيضًا أنها خائفة بسبب طريقة آل (جوزو) في الموت ... بسبب الطريقة التي يموتون بها !

وبينما كَانتْ تُسلِّمُ الروحَ ، سألتني :

- « أنا أيضًا من عائلة (جوزيتش) . أليس كذلك ؟ أخبرني بأمانة ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟! » .

- « أنت ، سيدتي الأناضولية ، أنت ؟ » .

كان قلبي يخفق بقوة حتى إنني كنت أستطيع التنفس بصعوبة ... صحتُ من أعماق قلبي كنتُ أعتصر صيحة عالية مُجَلجِلة مِنْ صدري المُتَقَلِّص ، وقد جُففَت تفاحة آدم التي في رقبتي بالكامل .

إنني أَبْكي .. أظن أنني أبكي لأول مرة .. هذا بكائي الأول ..

- « أنت كذلك ! ومن يكون من عائلة (جوزو) إن لم تكوني أنت ؟ فقط جَدي عرف كَيفَ يَكُون من عائلة (جوزو) كما عرفت أنت ؟ » .

صممت على تأكيد اعترافي بانتمائها إلى سُلالة عائلة (جوزو) العريقة والشهيرة وكررت إصرار :

- « بل أنت من عائلة (جوزو) يا سيدتي الأناضولية ، أنت حقًّا كذلك ! » .

- « لحسن الحظ أننا الآن قد تحرَّرنا .. وأننا حصلنا على الحرية في الفترة التي

كنت تحضر فيها » .

لم نكن حتى قد اقتربنا قيد أُنملة من حدود الحرية ... لكنَّني لم أَسْمح لمشاعر الاشْمِئْزاز والنفور من الحربِ بأن تُعكر سلام اللحظةِ التي كانت تغلق فيه عينيها إلى الأبد ... لم أشأ أن أزعج روحها المغادرة .

كم كَانَ موتها لطيفًا وجميلًا !! يمكنني أَنْ أَحْزن فقط لعدم قُدرتي على أَنْ أراقب موتها حتى أرتوي وأن أسدَّ حاجَتي من روعة لحظات موتها البَهِي .

ماتتْ بسرعة أيضًا .. في لحظة واحدة .. كما لو أنَّني قد تحملتُ عنها كل حصتها من سكرَات الموت عندما كانت الحمَّى تصرعني ، وبينما كان جسمي يقاوم ويصارع من أجل البقاء ... أَم تُراها ماتت بطريقة أكثر إقناعًا ، بينما كانت تهرب من « التشيتنيك » في (أوجاك) .. ومن الجائز أنها كانت تَمُوتُ طوال حياتها .. كانت تحتضر على امتداد سنوات عمرها بأكمله ، وفي النهاية كوفئت بميتة سهلة ، سهلة جدًّا . ماتت في سلام .. ميتة هادئة ... هادئة جدًّا بالنسبة لأنواع الموت المتوفرة في (سربرينيتسا) ... رحمها اللَّه وأسكن روحها الجنة ...

للمرة الأولى منذ أن أنهيتُ الممارسةَ التطبيقية والتمرين العملي لطلاب العلم الشرعي الـ « سُوفتا » ، حين كنتُ إمامًا لصلاة التراويح طوال شهر رمضان في (تسيرسكا) ، كان تكليفي بتلك المهمة وفقًا لقائمة تَقْسِيم طلاب مدرسة (الغازي خسرو بك) - بحسب الدرَجات - ولأول مرة منذ ذلك الحين لَبستُ العباءةَ من جديد ووَضعتُ « الأحمدية » على رأسي ، وكنتُ الإمام في صلاة الجنازة .

اللَّهم ارحمها واغفر لها ...

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر : ٢٧- ٣٠] .

رحمة اللَّه وصلواته عليكِ ..

لحسن الحظ ، كنا نتنسم عبق الحرية عندما ماتتْ ..

في الحقيقة لَمْ نكن قد اقتربنا حتى من حدود الحريةِ ... ولكنهم كانوا على الأقل لا يُطلقونَ النار على بلدتنا بالتحديد ... لكن المناورات الحربيةَ الغادرة والمؤامرات الخائِنة والناكِثة للمواثيق كانت تحوم حول مُعتقل (سربرينيتسا) ... كانت عجلة

المكايد تدور ... فقد سمح « التشيتنيك » للقوافل بالمرور إلى (سربرينيتسا) عندما أحسُّوا بأن ذلك يلائمهم وأن ذلك في صالحهم .. لكنهم لم يسمحوا بمرور الملح !!! الملح بشكل خاص لم يَعْبر إلى (سربرينيتسا) .. وبقي الملح ممنوعًا تمامًا من الدخول إلى (سربرينيتسا) .. ثم أصْبَحوا في غاية التعَسُّف والاستبداد ، واستمروا في إطلاق النار على نحو متقطع في المنطقةِ المَنْزُوعة السلاح ... بدؤوا يُسيطرونَ على نقاط المراقبة ويستولون عليها من قوات الحماية الدولية الواحدة تلو الأخرى .

* * *

ها أنا أَكْتبُ - على طريقة كتابة اليوميَّات - الفقرات الافتتاحية التي أعتقد أنها يَجِبُ ألا تُحْذف :

« لقد تآلف جنود قوات الحماية مَع الصرب وصاروا أكثر حميمية معهم .. لم يكتفوا بتسليمهم مواقعَهم إليهم .. بل إنهم يَزُورونَ مواخيرهم [١] أيضًا ويترددون على أماكن لهوهم ومجونهم ... لا يُمكنني أن أكذِب وأدَّعي ما لستُ على ثقةٍ منه ، فأنا لا أعْرف من أين تحصَّل الصرب على النساء اللاتي تم توفيرهن لجنود قوات الحماية . هل كُن نِساء صربيات تَطوَّعنَ لأداء تلك المهمة ؟ أم نِساء بوسنيات أرغمتهن الظروف على ذلك ؟ تقول الروايات بأنهم لم يغلقوا بيوت الدعارة التي تستخدم الأسيرات المسلمات في المناطق المحتلةِ شرق البوسنة ... » .

ولم تنجح الدعَارَة في (سربرينيتسا) . صحيح أن جنود قوات الحماية تمكنوا من غواية واسْتِدْراج عدد قليل مِنْ بناتِنا ونِسائِنا . استخدموا أشياء كثيرة كطُعم ، أحيانًا كانوا يَستعملون عُلبة سجائر .. أو عُلبة أو اثنتين من الأغذية المعلبة ، وربما قنينة عطر أَو شامبو . لكنَّنا وَضعنَا حدًّا لذلك . تم إلقاء القبض على النساء المشكوك فيهنَّ ورُمِينَ في السجنِ وأطلق سراحهن بعد أن تم حَلق رؤوسِهن بالكامل .. وخرجن من السجن برؤوس مُخيفة مَحْلُوقة الشعر .. وعلى مَنْ تُريدُ الذهاب للجنود في بيوت الدعارة أن تتوجه إليهم - على هذه الهيئة - في الحال ! ... فما من وشاح [٢] ولا أي غطاء للرأس يُمْكِنُ أن يغطي أو يستر المرأة أو الفتاة المؤسُومة بِالعار . وقد أرسل جنود قوات الحماية رسالة تقول بأنهم سيدفعون أقل إذا اختاروا الاسْتِمْرار فيما بَدؤوا به .

---

(١) مواخير : جمع (ماخُور) وهو بَيْتُ الدعَارَة - (المترجمة) .

(٢) وشاح : إيشارب تغطي به النساء رؤوسهن وشعورهن - (المترجمة) .

إنني أتَعَقبُ آخر الأخبار في (سربرينيتسا) .. ويَبْدو أنني بالكاد ألاحقها ، أحاول أن أتَتَبعَ العَلامَات المميَزة لأحدث الوقائع في (سربرينيتسا) بِشِق النفْس ، بل إنني أفرط في التدْقِيق في السمَات التي تُميز آخر الأحداثِ في (سربرينيتسا) . كما أنني حَزِين ومُكْتَئِب لأجل عمتِي (زيرينا) ، لكَمْ أتوجع وأتحسّر على جمال الأم (فرح) والابنة (زيرين) ... ذلك « الجمال المحتضِر » .. الذي ظل يُكابد الموت منذ زمن بعيد إلى أن لفظ النفَس الأخير . إنني مُلَوعٌ ومَهْمُومٌ لأجل هاتين الجميلتين ... « الجميلات الذابلات » ... زهرات النرجس الذابلة ... الجذور المقتلَعة مِنَ التربةِ الأناضوليةِ والتي بُترت في البوسنة ... الزهرتين : الأناضولية والأخرى النصْف أناضولية ... الزهرات المبتورات المقطُوعات في أقصى شرق البوسنة ... السيدة التي صارت بوسنية بالكامل .. والسيدة الأخرى النصف بوسنية ، لم يتركن أي ذرية من ورائهن .. لم يخلفوا سُلالة من بعدهن . وشرق البوسنة الأكثر توغلًا في غرب هذا العالمِ تُرك للبوسنيين الخُلص فقط ... البوسنة للبوسنيين الأقحاح فحسب .

لقد أنهَكتني المعاناة وأصَابتني بِالهُزَال . أنَا رجل سَقِيم مُعْتَل . إنني أنتمي إلى البوسنيين الأصليين ... من البوسنيين الأقحاح .. نحن البوسنيينَ الشرقِيين – أبناء شرق البوسنة – قومٌ مجانين . لسَنوات وسَنَوات .. ولقرون وقرون كنا على خط الدفاع الأمامي ندافع عن البوسنة على ضفاف نهر (درينا) . نحن نُقتل وهم يَذْبحونَنا . هم يَذْبحونَنا ونحن نُقتل . وعَبْر الأجيالِ تَحملنَا الكثير بينما كنا ندافع عن البوسنة على نهرِ (درينا) .. ومع ذلك فبعد أن تتوقف المذبحة وبعد فرض الهدنة لن يجسر أحد البوسنيين من أهل هذه المنطقة ممن نجوا وبقوا على قيد الحياة – على مجرد التفكير في عدم الرجوع إلى (سربرينيتسا) – ولن يجرؤ أحد أبنائها على الابْتِعاد عنها وهجرها ، ولن يتوقفوا يومًا عن الحلم بالعودة إلى (سربرينيتسا) .. لقد تَجولَ جَدي (رحمن بك جوزو) حول العالمِ لعقدين كاملين فقط لكي يتمكن منَ الرجوع إلى المكان الذي انطلق منه وبَدأت من عنده رحلة حياته . إذا كان هذا العالم صغيرًا جدًّا بالنسبة إليه ، فلماذا لم يستقر في أي مكان آخر غير (سربرينيتسا) ويَبقى في البوسنة في نفس الوقت ؟ لماذا ليس في (سراييفو) [1] ؟ لماذا لَمْ يقتلع جذور عائلة (جوزو) من

(١) سراييفو (Sarajevo) : عاصمة البوسنة والهرسك يسكنها أكثر من (٦٠٠) ألف نسمة ، ٤٩٪

(سربرينيتسا) ويغرس شتلته الجديدة في (توزلا) ؟ أَلَمْ نكن نستحق - لدفاعِنا الباسل عن البوسنة - أن نُسْتَبْقى وأن نُنقذ مِنَ الذبحِ وأن يتم توفيرنا كاحتياطي من البوسنيين لمدة بِضْع مئات من السنين ؟ هل كان يُكلفنا أي شيء أن نحتضنَ بضعة أجيال في (ترافنيك) ونُنَشئها هناك ؟

قاومتْ (تسيرسكا) السقوط لعشرة شهور . وصمدت (سربرينيتسا) ودافعَت عن نفسها لمدة سَنَة ، بعد ذلك ، ولمدة تجاوزت السنتينِ ، كانت تحتضر تحت وطأة اتفاقية نزع السلاح . وهي لا تَبْدو في حالة جيدة ... (سربرينيتسا) الآن ليست بخير .. ولا أحد يحمي ظهرنا .. فالجبهة الخلفية لا تُساعدُنا مطلقًا .

لماذا نحن وحدنا نقدم العون والمسَاعَدَة ؟ لماذا نقدم وحدنا الدعمَ والإعَانَة دائمًا ؟ وبسبب جنونِنا كنا أهلًا لأن نختفي من الوجود .. نحن نستحق الانقراض .

لَكنّي أَخشى أننا - حتى بعد أن نفنى وننقرض - لَنْ يُدرك الناس بأن المدن الثلاثة (سراييفو) و (توزلا) و (ترافنيك) أيضًا ، سَيَجِدنَ أنفسهن في شرق البوسنة . سَتُصبح تلك المدن ما يُعرف بالبوسنة الشرقية . ومع المزيد من الزحف شَرْقًا لَنْ يكون هناك أي بوسنة .. سَتتوقف تلك المدن عند الحدود الخلفية ... سَتَتوقف لتكون المركزَ... سَتُصبح حرسَ الحدود . ولَنْ يَقدروا على التَرَاجع مِنْ أرض المعركة .

أعتقد أن البوسنيين الوحيدين الذين يُشبهوننا نحن الشَرْقِيين ... هم الجزء الثاني الأصِيل من هذه الأمةِ : « الغربيون » : أبناء الغرب .. أبناء الجزء الغربي من البلاد .. أولئك الذين يعيشون على التخوم الغربية للبلاد .. الذين اعتادوا عَلى تسمية أنفسهم بالـ « كرايشنيتسي » [1] .

منهم من المسلمين ، و ٧٪ كروات ، و ٢٨٪ من الصرب ، والباقي من قوميات مختلفة ؛ وتقع حيث يغادر نهر (مليكا) واديه الجبلي الضيق ، وقد فتحها العثمانيون وظلت تحت حكمهم لأكثر من أربعة قرون ؛ ولا يزال الجزء القديم من المدينة يحمل الطابع العثماني المميز . وقد أسسها الغازي (خسرو بك) وانشغل ببنائها وتعميرها . ومما يدل على شدة تعلقه بها أنه عندما وافته المنية أوصى بدفنه داخل ساحة المسجد الذي يحمل اسمه في (سراييفو) . وجدير بالذكر أن (سراييفو) كانت تسمى في زمن الدولة العثمانية « سراي بوسنة » ، ثم قام الصرب بتحويل اسمها إلى (سراي إيفو) نسبة إلى أحد قواد الصرب - (المُترجمة) .

(١) كرايشنيتسي (Krajishnici) : سكان كرايينا (Krajina) ، وهي منطقة في الجزءِ الغربي من

أنا بهذا لا أنْتَقدُ جُبْنهم أبدًا ولست حتى أنْحي عليهم بِاللوْمِ . فشجاعتنا نحن تتجَسَّد في الموتِ ؛ وهذا ليس مديحًا ولا تَقْبِيحًا أو إدانة للجنونِ الأبدي لحرسِ الحدود البوسنيين ، بل مجرد قُشَعْرِيرَة لا أكثر .. مجرد رِعْشَة عادية جدًّا لمقاتل مُنْهَك مُرهَق القوى !!

* * *

كتبتُ هذه السطور في افتتاحية الجرِيدَة .. قمتُ بتَسْجِيلها وتَدْوِينها على طريقة المفَكرَات أو المدَونات اليَوْمِية :

« حتى إن صمدت (جورازده) على نهرِ (درينا) ، وحتى إذا انقضوا علينا مرة ثانيةً وقرروا ترْك (جورازده) وشأنها ، وإذا هاجمنا « التشيتنيك » وتركُوا (جورازده) على الخطوط الجانبية ، فنهر (درينا) لم يكن على حُدُود البوسنة يومًا . وأنا أنْزِعُ قبعتي إعجابًا بـ (جورازده) وتحية لها . فقد شرعت في تسليمه إليهم . لقد عَانوا كثيرًا . لكن (جورازده) ستكُونُ ذيلَ البوسنة فحسب . وعلى الخريطة تبدو منطقة (سانجاق) التي تقع فيها بلدة (نوفي بازار) [1] كذلك أيضًا » .

* * *

وعندما قررت القِيَادَة في قسم (سربرينيتسا) أن تستمع إلى رأيِ أحد المثقفين ، تم استدعائي كعامل في وَكالَة اسْتِخْبارات يحمل تصريحًا أو ترخيصًا مؤقتًا - ذُو صَلاحِية مؤقتة - قمتُ بعرض « تقييم حالة » لمجلس حرب رئاسةِ بلديِةِ (سربرينيتسا) في نموذج آخر يُشبه المدونات اليَوْمِية :

« إن « التشيتنيك » يَضْغطُون علينا بشدة ، لأنهم يَعْرِفونَ بِأنَّ هذه هي المرة الأخيرة التي سَيُتركون لتنفيذ عدوانهم بسهولة . ولم يتعرض أحد الأسرى « التشيتنيك » - الذين تم أسرهم في الأيام القليلة الماضية - للتعذيب بحيث يُضطر إلى إطرابنا بما يجري تدبيره وما يتم إعداده في مطبخهم السياسي .

ولكن لا يَجِبُ أن يكون هناك أي مجال للشكٌ في أن (سربرينيتسا) سَتُهاجَمُ

البوسنة . و (كرايينا) تعني المنطقة الحدودية - (المترجمة) .

[1] نوفي بازار (Novi Pazar) : اسم مدينة تقع في جنوب شرق منطقة أو إقليم (سانجاق) - (المترجمة) .

ثانيةً ؛ إذ لا يحتاج المرء لأن يكون ألمعيًا فطنًا حتى يكتشف ويتيقن بأن العالم سَيغضُّ الطرف من جديد ، وأن النهاية قد اقتربت ؛ ولن يكون هناك المزيد من التلكُّؤ أو التسكع أكثر من ذلك ؛ لأن منظمة حلف شمال الأطلسي سَتَضْرب ، ولأن « التشيتنيك » أيضًا يريدون إنهاء هذه الحربِ حيث بَدؤوها هنا في شرق البوسنة ؛ وبنفس الطريقة التي بَدؤوا بها ؛ بالهجوم والانقضاض على الضحايا العاجزين . إنهم يريدون الثأر والانتقام لحالة التدهور المزرية التي انحدروا إليها ، لقد بَدؤوا يفقدون الحرب التي كَانوا قَدْ ربحوها بالفعل ، ففي الخريف الماضي ، في تلالِ (فرايينا) القاسية دُحِروا مِن قِبل سكان (بوزيم) . وبعد ذلك ، لم يتمكنوا من الاستيلاء على (بيهاتش) بالرغم من أنهم كانوا قد احتشدوا حولها أكثر من احتشادهم في مكان واحد في أي وقت مضى ؛ لهذا فبَعْدَ أن تعلموا مِنْ أخطائِهم على الحدودِ الغربيةِ للبوسنة ، وقع الاختيار على (سربرينيتسا) في الشرقِ ؛ بسبب دعمِ صربيا وجيشها .

كَانَت (سربرينيتسا) قَد اختيرت لأنهم لم يقاسوا ويلات الهزائم في أي مكان آخر أكثر من المنطقة التي تحيط بـ (سربرينيتسا) . لم يعانوا في أي مكان آخر قدر معاناتهم حول (سربرينيتسا) . ولأن عنفوانها قَدْ خفتَ بعد أن أنْهَكها عامان من نـزع السلاح وأضْنَتها ثلاث سَنَوات مِنَ العزلةِ والحصار ، وقد سَئِم الناس من المتَاعِب وأرْهقَتهم المشاق فلجؤوا إلى السكُون والهُمُود وأخذوا يُهدؤون أنفسهم كما يُهَدْهَدَ الطفْل وأسلموا أنفسهم إلى الشعور الزائف بالأمان ، واعتقادًا منهم بأنهم كَانوا تحت حمايةِ المنظمةِ العالميةِ للسلام والتحالفِ العسكري الغربي ، فقد أصبحوا لُطفاء راضين عن أنفسهم مطمئنين كما لو أنَّ الحرب لم ولنٍ تحدث . كان الصرب قد أعلموا أيضًا بأنَّ نظام دفاعنا كَانَ يَنهار ويتداعى وبأننا لن نَكُون قادرين مرة ثانية على المقَاوَمَة حتى النهاية .

كما أن « التشيتنيك » يضْغطُون علينا بشدة أيضًا طمعًا في مَنْجَم البوكْسَيتْ [١] الذي يقع في (ولاسنيتسا) ، لذا لَنْ يَكونَ هناك أي سلام في (سربرينيتسا) ، وسيفي مَصْنَعَ الألومينا [٢] في (كاراكاي) - قُرب (زفورنيك) - بالغرض حيث

---

(١) البُوكْسيت (Bauxite) : صَخْرٌ يحتوي على معدن ترابي شبيه بالطين يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ الأَلُومِنْيُوم . وهو عبارة عن أكسيد الألومنيوم . بعضه قرنفلي اللون ، وبعضه أحمر أو بني أو أصفر أو رمادي . يتواجد في معظم البلدان ، ولكنه يكثر خاصة في المناطق الاستوائية . وهو يعتبر أهم مصدر من مصادر الألومنيوم ومركباته - (المُترجمة) .

(٢) الألومينا (Alumina) : هي أوكسيد الألومنيوم (Aluminium Oxide) وهو الأكسيد الوحيد

سيُستخدم فقط كعَنابر شاغِرة يُحتجز فيها الأسرى البوسنيون ويتم قَتلهم ، وحيث لم يعد يُستخدم في مُعالجة إنتاج الألومنيوم (١) ، فيمكن أن يؤدي وظيفة إضافية إذا يُمكن استخدامه لسحق البوكسيت وتحويله إلى الزيوليتِ (٢) . ولسَنَوات قبل الحرب ، وأثناء هذه الحربِ وعلى امتدادها بالكامل ، كان الزيوليت يُشترى لإنتاج المنظفات مِنَ المصانعِ الخاصةِ في إيطاليا باستعمال الأموالِ الرسمية لدولة البوسنة والهرسك . وهَكذا كان المال العام يُسلب ويُنهب احتيالًا ، إضافة إلى ذلك كانت أموال الدولة تُنقل بشكل غير قانوني وتُهرب إلى خارج دَوْلَة البوسنة والهرسك قبل أن تَبْدأَ الحرب رسميًا ، في الوقت الذي كان فيه تمويل العدوان المسلح على البوسنة والهرسك على أشُده ودعم الإبادة الجماعية للبوسنيين مستمرًا . فما كَانتْ (بلغراد) لتدعم مثل هذا الجيش الضخم بدون مقابل ، وما كان بوسعها أن تهاجم (سربرينيتسا) حتى تلك اللحظة . لولا أنَّ المرتزقة « التشيتنيك » مِنْ (صربيا) وهبوا نفوسهم لإنقاذ الشعور الوطني الصربي الذي لم يذق منذ أن وُجدَ شيئًا يشبه الجحيم الذي ناله فقط على يد (سربرينيتسا) ؛ ولهذا أطلقوا جزّاريهم مرةً أخرى على (سربرينيتسا) المنهوبة والتي تضور جوعًا منذ عهد بعيد . كل تلك الجرائم

الذي يشكله الألومنيوم . ويستخدم في إنتاج الألومنيوم وفي صنع شمعات الإشعال (Spark Plugs) المستخدمة في صنع السيارات - (المترجمة) .

(١) الألومنيوم (Aluminium) : عنصر فلزي فضي البياض . يعتبر أكثر العناصر الفلزية وفرة في قشرة الأرض . اكتشف عام (١٨٢٥م) . وهو موصل جيد للحرارة والكهرباء . يستخدم في إنتاج عدد من الأشابات الصلبة ، الخفيفة ، المقاومة للصدأ . رمزه (AL) . رقمه الذري (١٣) . وزنه الذري (٩٨,٢٦) . نقطة انصهاره (٦٦٠) مئوية . نقطة غليانه (٢٤٦٧) مئوية . ثقله النوعي (٧,٢) . أهم البلدان المنتجة له : الولايات المتحدة الأمريكية ، وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق ، وكندا - (المترجمة) .

(٢) الزيوليت (Zeolite) : مادة كيميائية عبارة عن بلورات ألومينوسيليكاتية مائية مسامية للمعادن القلوية والقلوية الترابية ، ذات تركيب ذري ثلاثي الأبعاد ، تتصف بقدرتها على فقد الماء وضمه على نحو عكسي وتبادل شوارد عناصر محددة دون أي تغير في تركيبها الذري ، وتتميز بمساحة سطحية كبيرة ، ويمكن أن تتحرك جزيئات الماء بسهولة داخل البلورات وكذلك الشوارد الموجبة ، ولهذا السبب تكون هذه الشوارد خاضعة ومهيأة للتبادل مع شوارد موجبة أخرى ، ويمكن أن تزال جزيئات الماء أو تستبدل بطريقة مستمرة وبشكل عكسي . وقد اكتشف الزيوليت الطبيعي في عام (١٧٥٦م) . ويعد الزيوليت حاليًا من أكثر المواد فعالية في عمليات الترشيح ، إذ تطرأ على المياه المرشحة بوساطته تغيرات مهمة مثل : إزالة المواد العالقة الغروية ، وتخفيض كبير في عدد الجراثيم ، وإزالة اللون وحدوث بعض التغيرات في الصفات الكيميائية - (المترجمة) .

كانت مدفوعة الأجر ، هناك من يُسدد فواتير الحرب الصربية بكميات ضخمة مِنَ المالِ وسيَستمرُّ الدفع إلى أجلٍ غير مُسمى [١] ! .

* * *

صادفتُ الدكتور (ماهميتس) . لم أره منذ وقت طويل لكنَّه كان يرَاني ، فقد جاءَ إلى بيتي عدة مرات وحاول إخْراجي مِنْ دوامة الهذيانِ التي ابتلعتني . أخبرني بأنه استلمَ رسالة مِنْ أحد عمال تشغيل الإذاعة الهُواة في (توزلا) تخبره بأن العينات التي أرسلَها أكَّدت صحة ودقةَ نتائج اختباراتِه ، وأن تركيزَ اليودِ في الدم منخفض بشكل ملحوظ عن أقل المعدلات المطلوبة للشخص الطبيعي . كانت نَتائِج المختبر مدهشة ومُثِيرة للغاية ، وقد تم نشرها في المطبُوعات والدوريات الطبية العالمية . وهو ما قد يَعْني - حسب اعتقاد الطبيب - أنهم سيسمحوا أخيرًا بدخول الملح إلى (سربرينيتسا) .

أما أنا فلا أشاركه الرأي . فالعلماء لا يُستَشارون أثناء الحروب ولا يُعتد بآرائهم العلمية . فقط يسْتَعينون بهم حتى يُمْكِن أن يسْتَفيدوا مِنْ نتائج أبحاثهم في الحربِ القادمةِ . لكنِّي ما زِلتُ أرغبُ في تَهْنِئة الطبيبِ (ماهميتس) على الثقةِ التي كَانَت عِنْدَهُ في العِلْم . من اللطيف حقًّا أنني ما زلت قادرًا على تَقديم التهاني إلى شخص ما . فحيث أننا كُنا مَحْرُومينَ مِنْ حقِّ الدفاع عن النفسِ ، لم يكن هناك من يستحق أن تُقدم له أي تهانٍ . لكن الطبيبَ بدا مُغْتَمًّا مُنكس الرأس . ومن الواضح أنه كان يعاني من مزاج مكتئب .

---

(١) تمتاز جمهورية البوسنة والهرسك بغناها بالثروات الطبيعية ؛ حيث يزخر باطن أرضها بالحديد والزنك والفحم والبوكسيت والرصاص والنحاس والمنجنيز والكروم ؛ وتأتي في الدرجة الأولى بين جمهوريات يوغوسلافيا السابقة من حيث إنتاج هذه المعادن ، وتختص بمناجم الحديد والفحم ، وتعمل على تصنيع الحديد والملح ، كما تكثر بهذه الجمهورية الغابات التي يُستفاد من أخشابها في المجالات المختلفة . ويحتل النشاط الفلاحي مكانة أولية في الاقتصاد من خلال زراعة القمح والذرة والشمندر وكافة أنواع الحبوب والفاكهة بالإضافة إلى تربية الماشية وتنمية هذا القطاع على سهول الهرسك ، ولهذا تمتلك جمهورية البوسنة ثروة حيوانية كبيرة بحيث يُصدر منها إلى الخارج ، ولها أهمية سياحية أيضًا حيث تمتلك مساحات على البحر الدرياتيكي وتمتاز أيضًا بوفرة الطاقة المائية . (انظر كتاب : أوربا - دراسة إقليمية لدول أشباه الجزر الجنوبية . د/ إبراهيم شريف ص : ١٤٨ - ١٤٩) - (المُترجمة) .

سألته محاولًا إبهاجه والتفريج عنه :

- « ما الأمر يا دكتور .. أهي علتي المنْحُوسة ؟ » .

أجاب قائلًا :

- « لا يهم ، حتى لو أنني استطعت أن أُثبت ما يحدث لنا علميًا ، ولو أنني نجحتُ في إقامة البرهان العلمي على ما نتعرض له فلن يصدقني أحد .. فمن المستحيل من الناحية الطبية أن يحدث السرطان في صورة وباء [١] .. لأن السرطان لَيسَ مَرَضًا مُعْديًا يسري بين الناس ، ولكن الحقيقة أن (سربرينيتسا) مَنْكُوبة [٢] بالسرطان أيضًا ... » .

احتاج الدكتور (ماهميتس) إلى زُهاء الخمس عشْرة سنة حتى يُكمل تخصصَه الطبي . إنه طبيب أطفال ، ولكنَّه مُطلع وعلى دراية جيدة بالحالةِ الصحيةِ العامة لأهل البلدة من زملائه الأطباء الذين يسكنون معه في بلدته . وقد تتبع أيضًا ظهور الأمراضِ السرطانية . بشكل عام كانت مثل هذه الحالاتِ نادرة جدًّا في (سربرينيتسا) . فعلاوة على اشتهارها بالينابيع الحرارية [٣] ، فهي معروفة أيضًا بهوائِها الصحي الذي جعل منها منتجعًا علاجيًا ؛ حيث تكثر فيها الأشجار والنباتات الكثيفة ؛ ولذا فهي تحتل المركز الأول على مستوى أوربا من حيث احْتِشَاد مجموعة هائلة من الأشجارِ والنباتاتِ في مثل هذه المساحة الصغيرةِ . كان العجائز والطاعنون في السن فقط هم المعرضون للإصابة بالتحولات السرطانية . أما الآن ، فهناك خمسون حالة تقريبًا مِن الحالاتِ المصابة بالأورام الخبيثةِ في المعدةِ والحنجرةِ . السرطان الآن يَبطش بالناس في مَطْلَع حياتهم ... يدق بابهم في مُقْتَبَل العمر ... في الثلاثينياتِ ... ثم يذوون شيئًا فشيئًا وهم في زهرة حياتهم .. يَذْبُلون .. يَنكمشونَ كغصن يابس ، ثم يَسقطون ببساطة ويَمُوتون . والمرضُ يَتقدمُ بسرعة هائلة وينتج عن ذلك انتشار الخلايا السرطانية المهَاجمةِ وتوغلها في أجزاء الجسم المختلفة بشكل كلي . وكُل الإصابات تتزامنُ مع بِداية تدفق المواد الغذائية من خلال المفوضية العليا

---

(١) وباء : مرض مُتَفَش ينتشر في عدد كبير من سكان بلدة أو منطقة معينة - (المترجمة) .

(٢) مَنْكُوب : مُصَابٌ بِنَكْبَة - (المترجمة) .

(٣) ينابيع : جمع (ينْبُوع) وهو نَبْع أو عَيْنُ ماء - (المترجمة) .

لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدةِ . وكُل الوقائع تُشيرُ إلى حقيقة أن الغذاء الذي يَصِلُ إلى (سربرينيتسا) مُشِع [١] إلى أقْصَى حَدٍّ . إننا نَأكل طعامًا مُشعًّا !! .

ولكن الدكتور (ماهميتس) لا يُغالي في إلقاء التُّهم جزافًا ولا يذْهبُ بعيدًا جدًّا باتهاماتِه ، فهو لا يعتقد بأن العالمَ يُرسل لنا مثل هذا الغذاء . ولا يظن أن العالم يتعمد ذلك .

وها أنا أَقتبسُ جزءًا من تقريرِه إلى الوزارةِ ، الذي أرسلَه مع رسول إلى (توزلا) :

« إنهم يُرسلون لَنا الأغذية الفاسدة ، يرسلونها بَعْدَ أَنْ انتهى تاريخ صلاحيتها منذ مدة طويلة في المخازن العسكريةِ لحفظ الأغذية . وهم يُرسلونَ لنا لحمَ الخنزير . ويبعثون الأغذية الصالحة للأكل أيضًا والطعام الجيد . صحيح أن العالمَ يُرسلُ لنا كُل أنواع الطعام . لكن إرسال الأطعمة المشعةِ سَيُمْنَعُ بعد التيقن من فحص شحنات الغذاء في مطارات تلك البلدان .

ـ تهبط الطائرات المتجهة إلى (سربرينيتسا) مُحملةً بالغذاءِ في مطار (بلغراد) . وفي نفس المدينةِ تقع المحطة الغذائية التي تمون (سربرينيتسا) و(زبتش) . والمحطة الأخرى تقع في مدينة (باله) . وليس هناك محطة ثالثة .

لماذا أصرَّ « التشيتنيك » على عدم السماح بمرور الغذاء إلى (سربرينيتسا) إلا إذا كَانتْ مراكز التوْزيع تحت سيطرتِهم التي لا يتطَرق الشك إليْها ؟ الجواب : حتى يصبوا كميات هائلة من المواد المشعة في شُحنات الغذاء التي يستلمونها ؛ ومن ثم يأكلها سكان (سربرينيتسا) لا هنيئًا ولا مريئًا ! « لا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ !! » .

وحتى لو كانت المسْتَوْدَعات [٢] في (بلغراد) و (باله) تحت سيطرةِ ما يُعرف بالمُنَظَّمَة الدوليّة ، فما الذي يمكن أن يَمْنع « التشيتنيك » من تَعْرِيض الغذاءِ إلى النشاطِ المشعِّ بينما الشاحنات تَعْبرُ (صربيا) والمنطقة المحتلة من قِبل الصرب ؟ لا شيء ! » .

* * *

(١) مُشِع : إشْعاعِي النشَاطِ أو الفاعِلية - (المترجمة) .

(٢) مُسْتَوْدَع : مَخْزَن لاستيداع البضائع والسلع - (المترجمة) .

تمكنت (تنزيلا) من التقاط بَعْض المعلوماتِ بواسطة الترانزستورِ ، كشفت تلك المعلومات عن أن « التشيتنيك » قد استعملوا في البوسنة مائة وسبعة وأربعين نوعًا مِنْ أنواعِ التعذيب التي لم تُعرف من قبل . هَل تم تجريبها واختبارها جميعًا على أهل (سربرينيتسا) ؟ هَل سَمعَت (تنزيلا) هذا الخبر على إحدى محطاتِهم الإذاعية ؟ لو كان كذلك ، فلا بدَّ أنهم قد اختزلوا العددَ مرة أخرى . فهم لا يَقدرون على منع أنفسهم من الكَذِب ، ويبدو أنني لا أستطيع حتى أن أتَذكر متى سَمعتْ (تنزيلا) تلك المعلومة . هَل ذُكر ذلك التقرير في هذه السنة أم في السنَة الماضية ؟ على أية حال ، سيَبْقى مجهولًا ما إن كانت « الأغنية المشعة » هي الوسيلة الثامنة والأربعون بعد المائة الجديدة المكتَشَفة لقتل البوسنيين أم أنها الأكثر وحشيةً وفَظاعةً ؟

قال الطبيب : « أنا لا أَعْرفُ ماذا أَقُولُ ؟ » .

* * *

إنني أُهوِّد [١] نفسي حتى أنَام ، أقوم بإجْهاد حاسة السمع لديَّ ، محاولًا التقاط أي صوت ... كنت أخدع نفسي وأوهمها بأن موات [٢] الليلِ سيتَصَدع بِصوت يكسر حاجز الصمت ؛ إما بصوت صياح المجموعة الثانية من الديكة ، أَو بصوت الطائرات الأمريكية التي ستحلق في السماء وتَكسر حاجز الصمتِ ؛ أَو بصوت مؤذن مسجدِ (ريتسيكا) الذي سَيُعلنُ عن حضوره برفع أذانِ صلاة الفجر . فقد اقترب موعد أذان الفجر .. ويوشك الفجر أن يَطْلعَ في أي لحظة الآن .

أنا أعْلَمُ من جفوني المغلَقة - التي تسقط باستمرار عنيد فوق عينيَّ المفتوحتين على اتساعهما تمامًا - بأنني لَستُ نعسانًا ، وأنني لا أَودُّ النوْم مطلقًا .

إنه الشيطانُ فحسب يفرض نفسه على نفسِي المستهلكة وجسدي المُنْهَك ، ويحاول أن يسدل سِتَارًا على عيوني ، ويُغريني بأن أنام نَوْمًا خَفِيفًا ، أو أن تأخذني سِنَةٌ مِنَ النوم أو غَفوة طويلة تكفي لأن أنَام في وقت صلاة الفجر . النوم هو أسوأ عدو عندما يَأتي في الوقتِ الخاطئ . فالشيطان يُقنعُ الإنسان ويُغريه بالنوم بينما لا يشعر برغبة في النوم ولا يُحسُّ بالنعاس ؛ لأن نجاحه الأعظم يتحقق عندما يمنع

---

(١) يُهَوِّد : يَهُز أو يغني للطفل حتى ينام - (المترجمة) .

(٢) موات : خامِد ، ساكِن ، هامِد أو جامد غير ذي حَيَاة - (المترجمة) .

المؤمن من السجود لله وعندما يحول بينه وبين أن يضع وجهه في الأرض أمام خالق الأكوان في لحظة انشقاق الفجرِ .

* * *

ها هي بوابَات الظلام تغْلقُ أمام عيوني ... وحين استغرقتُ في النوم جاءني نفس الحلم الذي رآه (محمد الفاتح) [1] منذ عهد بعيد . إنني الآن أَحْلمُ حلمَه عن الأرْض التي ستقوم عليها (سراييفو) فيما بعد . (Saray ovasi ساراي أوواسي) . وأرى في المنام قلعة تقع أمام تلك الأرض وقبل انبلاج الصبح - في نفس التوقيت الذي غلبني فيه النعاس لأحلم بمَنَامه - يَقْفزُ السلطان على قدميه داخل الخيمةِ السُلْطانية وبحركة من يَده ، ودون أي كلمة ، وكما اعتاد أن يُحرك إصبعه في الهواءِ وكأنه يرسم أو يكتب على الهواء كتابة مُختصرة بعجَلَة وبغير عناية ، وبهذا يَعْرف الحراس بأن عليهم إحضار كبار العلماء وأوسعهم علمًا للمثول أمامه فورًا ؛ وهكذا حاولَ بشكل عصبي أن يَرْوي حلمه لعلمائِه - الذين كانوا لا يزالون يحلمون ؛ حيث صَحوا على أمْره بدلًا مِنْ أن يفيقوا على نداءِ المؤذن لصلاة الفجر - ويَسْألهم عن تفسيرِ لمنامه . ورأيت في منامي أن أحدهم تجاسر على رَفْع يَده - لأنه لا يجرؤ على رفع

(١) السلطان محمد الفاتح (٨٣٣هـ/١٤٢١م - ٨٨٦هـ/١٤٨١م) : يعتبر السلطان السابع في سلسلة آل عثمان ويلقب بالفاتح وأبي الخيرات . حكم ما يقرب من ثلاثين عامًا كانت خيرًا وعزة للمسلمين ، ولد « محمد الفاتح » عام (٨٣٣هـ/١٤٢١م) ، وتولى السلطنة عام (٨٥٥هـ/١٤٥١م) ، فكان عمره يومذاك اثنين وعشرين سنة ، كان محبًا للعلم والعلماء ؛ لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته ، وفاق أجداده في هذا المضمار ، وبذل جهودًا كبيرة في نشر العلم ، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها ، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن والقرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة ، وقد امتاز السلطان (محمد الفاتح) بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل ، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها من شيوخه ومن مدرسة الأمراء الخاصة ، وعُرف بمعرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى إنه اشتهر بلقب (محمد الفاتح) ، لفتحه القسطنطينية . وكان (السلطان محمد) شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته ، ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدينِ من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة ، ويمنحهم مرسومًا مكتوبًا يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يدركوا كيف تساس أمور الدولة ، وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم ، وقد أعطى هؤلاء المبعوثين الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ، ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان - (المُترجمة) .

صوته - راغِبًا في إعْلام السلطان بأن عليه أن يتَوَقف عن الكلام ؛ لأن دَنَس الليلِ يَجِبُ أَنْ يُغْسَلَ بالوضوءِ ، وبعد التطهر يجب اللحاق بالصلاة والوقوف وراء الإمام في أول صلوات اليوم خاشعين للّهِ القوي القدير ، وفقط بَعْدَ أداء كُل ذلك يُمكنه أن يواصل سرد مَنَامه ويبحث عن معناه ؛ ونظرًا لأن السلطان لم يكن قادرًا على رُؤية الذراع المرْفُوعِ للدرويشِ العجوز ، فقد أسمعه المؤذن مِن الجانبِ الآخرِ للمعسكرِ أذان الصلاة ، رأيت في منامي أيضًا كيف أن السلطان (محمد خان) قد استدعى الدرويشَ الذي رفع يده بعد صلاة الفجر وسط حاشيته الهائلة .. كان قد لاحظَ أنه رفع ذراعه - لم يَغفل ذلك ولم يخف على انتباهِه - وطلب من الدرويش العجوز أن يُفسر رُؤْيَاه .

- « لقد رأيتُ في منامي حَضْرَة [1] سيدي (**أبو بكر**) » .

- « يا جَنَاب السلطان ، لقد رأيت منامًا لطيفًا جدًّا . إنها رؤيا طَيبة . فسيدنا (**أبو بكر**) كَانَ - فوق كل فضائله وشمائله التي جعلته أنموذجًا ومثالًا للإيمان الصادق - رجلًا ثريًّا مُوسِرًا كَثِير المال وكان مستعدًّا للتنازل مخلصًا عن كل ثروتِه والخروج عن كل ماله ابتغاء مرضاة اللّه ؛ لذا من السهلِ تَفسير رؤياك . لقد جِئت إلى أرضٍ غنية ، أرض سَتصْبحُ غنية واسِعة النعْمَة ، ولكنها في نفس الوقت ، سَتتنازل عن ثرواتها » .

- « ورأيتُ حضرة سيدي (**عثمان**) ؟ » .

- « يا جَنَاب السلطان ، لقد تَحقق حُسن منامك بالكامل . فسيدنا (**عثمان**) كَانَ - فوق كل فضائله وشمائله وتقواه التي يَتعلم منها المخلصون - حييًّا شديد الخوف من اللّه حتى صار نموذجًا يقتدي به أهل التقوى والورع . ومن السهلِ تَفسير هذا الجزءِ من رؤياك أيضًا . لقد جِئتَ إلى أرض سيبزغ منها نور الإسلام وسينشرُ بَهَاؤه ويتألق سناه من هذه الأرض وأهلها المؤمنينَ الأتقياء لن يَكون لهم نَظِير في هذا العالم » .

- « ورأيتُ حضرة سيدي (**علي**) أيضًا » .

- « يا جَنَاب السلطان ، إن حلمكَ يَصِلُ إلى ذِرْوَة الحسْن وأَوْج البهاء . فسيدنا (**علي**) - كان فوق كل مزاياه التي سَتظل تُلهمُ أجيالًا من المؤمنين المخلصين إلى يوم

(١) حَضْرَة : لقب بمعنى صاحِب الجَلاَلَة المُوَقر ، أو صاحب الفَخَامَة المبَجل العالي المقام .

الحساب - مُجاهدًا عظيمًا . ولَيسَ من الصعبِ إطلاقًا تفسير هذا الجزءِ من مَنامك . فعباد اللّهِ في هذه الأرضِ التي جِئنَا إليها سَيكُونُون من أعظم المقَاتِلين الذين يُمكن أن يراهم هذا العالم يومًا » .

- « ولكني أرى حضرة سيدي (**عمر**) » .

- « يا جَناب السلطان ، لقد تَقَوض منامك الذي رأيته بشأن هذه الأرضِ ... وانهارت الرؤيا وتَدَاعت . فسيدنا (**عمر**) كان - فوق كل مزاياه التي جَعلتْه خليفة وسَتَجْعله مثالًا وقُدوة للمؤمنين إلى أن يرث اللّٰه الأرض ومن عليها - رجلًا مُنصفًا وعادلًا ؛ كان عادلًا قبل كل شيء . وليس من العسير تفسير رؤياك ؛ فالبوسنة سَتصْبحُ بلادًا غنية وتقية ، وأرضًا للمجاهدين ، ولكن ما كان فيها أي عدالة ولن يكون !! هذه الأرض مَحْكومٌ عَلَيْها بالظلمِ يا مولاي !! » .

* * *

اختفى مِنْ حُلمِي « الفاتِحُ » (محمد خان) القائد الباسل ذُو البَأس والقوة .. وعندما أفقت من نومي وبينما أفرك عيوني ، رأيتُ ضوءًا . لا بدَّ أن وقت صلاة الفجر قد مضى ؛ فقد أشرقت الشمس واستقرَّ ضياؤها . هل فاتني صوتُ المؤذن . والصياح الثاني للديكة ؟ وقصف الطائراتِ الأمريكيةِ ؟ هَل من المعقول أنني نمت أثناء أحد هذه الانْفِجاراتِ الصوتِية التي تدُك جدار الصمت الليلي المميت ؟ أم أن الأصوات الثلاثة : الديكة والمؤذن والطائرات قد فاتتني ؟ أم أنها لم تصدر أصْلًا بِأي حالٍ على الإطْلاق ، وأنه ليس واحدًا من بين تلك الأصوات الثلاثة مَنْ قرعَ سكون الليل وفجَّر الفجر .. وأن الشمسَ وحدها هي التي طاردت الظلامَ ودحرته بعيدًا .

لا أذانَ للصلاة ... ولا صياح ثانٍ للديكةَ ... ولا قاذفات القنابل الأمريكية . وسُكون الصبح يُنَبِّئُ عن ميلاد الظلْم الأعظم ويُنذر بأقْصَى حدود الجوْر والاضْطِهاد منذ أن وُجدت البوسنة وعلى امتداد التاريخ البوسني بالكامل .

في الخارج ، هناك ضوء الشمس فقط . إنه **الثُّلاثاء** .

* * *

إنني المُصارع الروماني القديم ، أصارع في حلبة الموتِ من أجل الحرية ، أُحيي مُتَأخرًا الصباحَ الذي جاء باليوم **الحادي عشرَ مِنْ شهرِ يوليو / تموز** ، لخمس سَنَوات قبل

انتهاءِ القرنِ العشرين بعد ولادةِ المسيح عيسى ﷺ ، اليوم الثاني عشر مِنْ شهرِ صفر مِنَ السنَةِ السادسة عشرة بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي محمد ﷺ .

أيها الصبح هَلْ تلقيت تحيَّة مَنْ لا بد أن يلقى حتفه ؟

.. تحية إنسان عليه أَنْ يمُوتَ الآن ؟!

آف ، دومافيا أرغنتاريا

أديو ، بارتيا أرغنتي

Ave Domavia Argentaria !

Adio, patria argenti !

الصلاة والتحيَّة على أرضِ أجدادي الفضيةِ ..

عليك السلام والتحيَّة .. يا أرض أجدادي الفضية ..

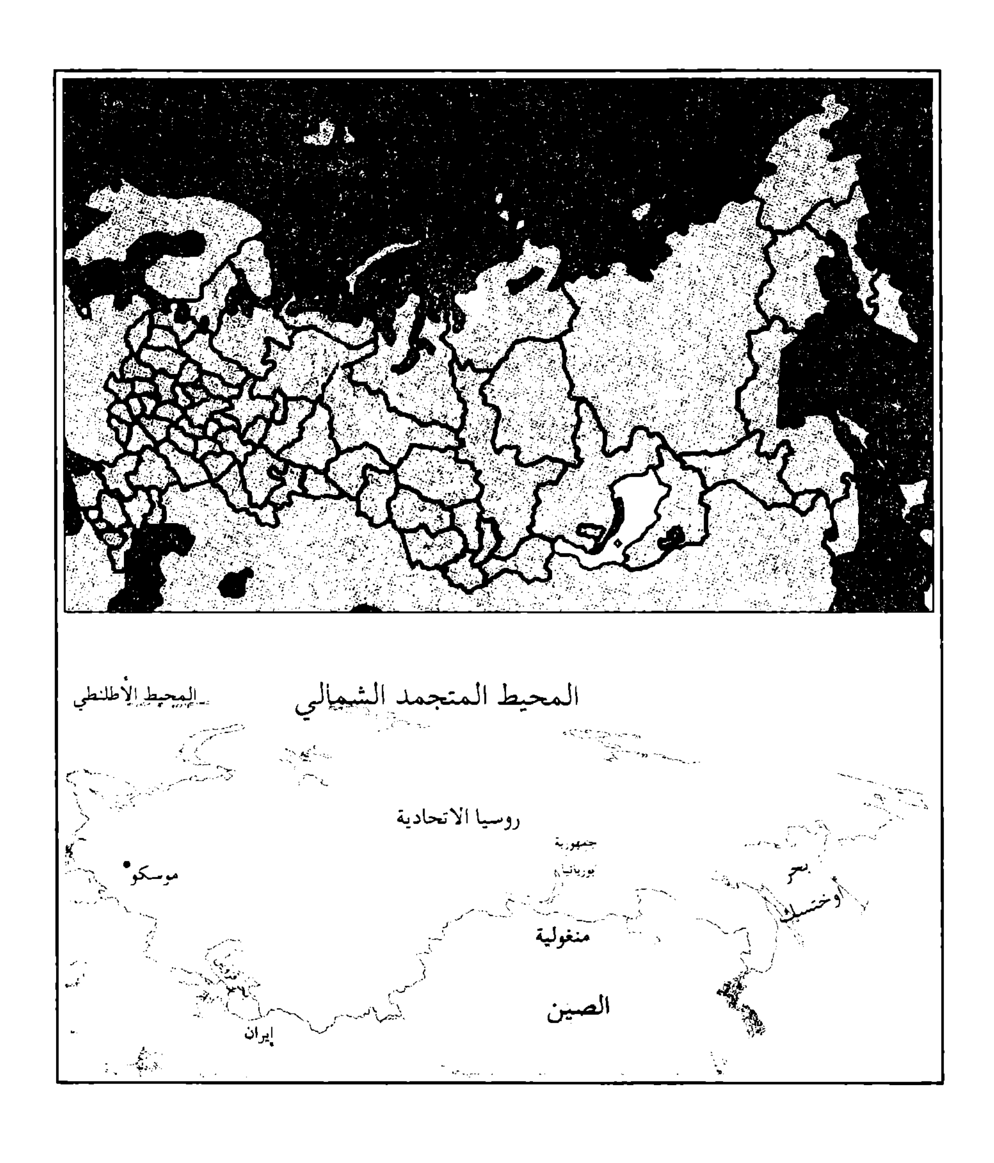
عسى أن تَظلّي مصونة إلى الأبَدِيَّة ..

محمية عبر الخلودِ .. يا أرض أجدادي الفضِّية [١] ..

* * *

---

(١) كلمات لاتينية في حب سربرينيتسا التي كان اسمها اللاتيني أرغنتاريا (Argentaria) ، ومعناها : الفضة ؛ وذلك لغناها بمعدن الفضة وكثرة مناجم الفضة فيها ؛ ولذلك فإن سربرينيتسا تُعرف بأرض الفضة أو الأرض الفضية - (المُترجمة) .



الخريطة رقم (٦)

موقع جمهورية بورياتيا في روسيا

الفَصْلُ الثَّامِن

(رحمن بك جوزو) يتخلى عن لَقَبه « أمير خان التاي » ويعود من (مكة المكرمة) إلى (سربرينيتسا) - المذكرات الرابعة لجدي [زمنيًا هي الرابعة أيضًا] :

ما زالت (سربرينيتسا) تحلق في سماء عقلِي لا تبغي ارتحالًا .. ما زالت تظهر كشعاع من النور في عتمة أحلامي .. بل إنني لا أحْلمُ بشيء سوى (سربرينيتسا) .. فقط (سربرينيتسا) تسكن أحلامي ولا أجرؤ على الحلم بشيء غيرها ... ولكنني أَراها في أحلامٍ مروِّعة ... أرى في منامي أنه لم يعد هناك أي أثر للمسجد الذي كنتُ أصلي فيه إمامًا بالمُصلين وأعمل فيه كمُعلم وخطيب .. يبدو كما لو أنه لم يكن له وجود أصلًا ... لَيسَ ثمة أي أثرٍ باقٍ منه ... فقط المُصلَّى [1] الفارغ والأذان ! ... فقط صوتُ المُؤذن الذي يأتي مِنْ مكانٍ ما بَيْنَ الأرْضِ والسمَاء ، مِن ارتفاع مترٍ واحدٍ فوق سطح الأرضِ ، حيث يُفترض أن يكون موضع الـ « أدهان - تاش » [2] التي رفعتُ الأذان من فوقها عندما كنتُ شابًّا يافِعًا حَدِيث العَهْد بمهام الـ « سُوفتا » وقُمتُ بإلقاء خطبة العيد من فوقها كإمام حَدِيث السِّنِّ . كان قلبي يتوجعُ ويكاد ينفطر لأنَّ المسجدَ لم يكن كبيرًا بما يكفي ليتسع لكُل البوسنيين المُبْتَهِجين في نهايةِ شهر رمضان ... ورأيتُ أيضًا في منامي رجلًا رَقِيق الحال ، رجلًا بائسًا وفقيرًا كأشد ما يكون الفقر . كان هَزِيلًا وضَئِيل الجسم رَث الهَيْئَة مُتَهَرِّأَ الثياب يلفُّ حول رأسِهِ قميصًا مُمَزَّقًا ويحمل في يَده عَصًا ، وكان يَخُوضُ إلى ركبتيه في بركة من الدِّماء لا هو بحي ولا ميِّت . وبينما هو يَتلمسُ طريقه في غبش الظلامِ ويخطو شَيْئًا فَشَيْئًا فوق الجثث البوسنية ، مُخلفًا (سربرينيتسا) المَيْتة وراء ظهره - (سربرينيتسا) التي فارَقَت الحَيَاة - ظهرت فوق رأسه شمسان معًا .. شمسان في سماء واحدة وفي وقت واحد !! شمسان لا شَمْسًا واحدة دون أن تنشرَ أي منهما أشِعةً تُشبه ضوءَ الشمس ، بل كانت كل شمس منهما تتألق بضوء

(١) المُصلَّى : مكان مكشوف في الفضاءِ المفتوحِ تؤدَّى فيه الصلاة .

(٢) أدهان - تاش (adhan-tash) : بَلاطة كبيرة منحوتة من الحَجَر على شكل مربع ، تقف على الجانب الأيمنِ مِنْ مدخلِ المسجد وأحيانًا تُستعمل من قِبل المؤذن الذي يَقِفُ عليها ليَرفع الأذان للصلاة عندما يكون لدى الإمام سبب شرعي يمنعه من الصعود على المئذنةِ ورفع الأذان مِنْ هناك .

مشبوب السنا ... كانت شموسًا تُضيء على طريقة القمر ... !!

وفقًا لتقَاليد مسلمي الشرق الأقصى ، فإن ظهور شمسين في السماءِ يُعد إشارة شؤم تُنبئ بحدث مروَّع على وشك الوقوع وعلامة تُنذر باقتراب أمرٍ رَهِيب تَقْشَعِر لَهُ الأبْدانُ ... إنها بالنسبة لهم علامة على قيام يوم « الحساب الأصغر » . وعندما وضَّحتُ لهم أنه ليس هناك يوم حساب صغير وآخر كبير ؛ وأنَّ هناك حدثًا مروعًا واحدًا فقط تظهر فيه أهوال يوم القيامة وفيه نهاية هذا العالم ودماره كليًا ، وأن الشمس ستُشرق في ذلك اليومِ مِن المغربِ بدلًا من المشرقِ ، أجابوني بأننا نَشترِكُ في وجهاتِ النظر مِنْ حيث الدمارِ الكليّ لهذا العالمِ ، وبأن قولهم بظهور الشمسين لا ينفي الفَهْم البوسني لعلامات الساعة ولا يتعارض مع اعتقاد البوسنيين في الإشارةِ الأخيرة لنهايةِ العالمِ ، وبأن الناس في تلك اللحظة - حين تغرُب الشمس من المغرب وتُشرق من المغرب - سوف يَرون نفس الشَّمس مرتين في السماء . وزعموا أيضًا أن يوم « الحساب الأصغر » قد ظهر عدة مرات ، وكان دليلهم على ذلك اختفاء كثير من الأمم عن بكرة أبيها وزوال مُدن بأكملها من الوجود على الرغم من بقاء بقيَّة العالم .. فالعالم بأكمله لَمْ يَختف ولم يزلْ موجودًا إلى الآن على الرغم من زوال تلك العوالم منه إلى الأبد . وقد أجبتُهم بقولي : ذاك من أنباء الغيب ... إنه سِرٌّ من أسرار الكون لا يعلمه إلا خالق الأكوان ومبدعها وباريها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، قلت لهم ذلك خوفًا من أنْ يَكُونوا باعتقادهم ذلك يَرتكبونَ بِدْعَة دِينِية من حيث لا يشعرون ويهرطقون بما لا يعرفون وهم لا يُدركون خطورة قولهم من حيث الاعتقاد الشرعي . لكنَّهم رفضوا الاستماع إليَّ وقَالوا بأنه ليس هناك ما يمنع أن يكشف اللَّه أسراره للناسِ وأن الخالقَ الرحيمَ لم يتوقف يومًا عن كَشْف أسرارِه إلى خلقه ، كما أكدوا لي أن ادِّعاءهم حول اختفاءِ أناس بالكامل ومُدن وأمم بأسرها غير قابل للدحض ولا مَجالَ لِلطَّعْنِ فيهِ !!

أجابوني من القرآن الكريم .. باقتباس الآية التاسعة والأربعين من « سورة يونس » :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

ظهر في مَنامي طَيْف ذلك الشبَح الذي يمشي على هيئة إنسان وأخذ يُناديني مِنْ

بين المَوتى . لكني كنت كلما أمعنتُ النظر إليه عن قُرب أكثرَ ، يبدو أن ذلك الشبَح يشبهني أكثر .. كلما اقتربتُ منه أكثر تحققتُ من أن ذلك الطّيْف يتمثل بصورتِي ، وأنه في نفس عُمري أنا - العُمر الذيِ كان لي عندما وَجدتُ نفسي على جبالِ التاي [(١)] - لَكنَّه لَيسَ أنا !!

كان ذلك الطيْف الهائم يَمْشي وهو يناديني باسمي . وكنت أُجيبُه أثناء نومِي . تبادلنا الحديث . كان اسمه (مَرْجَان) .. يَقُولُ الطيْف بأنه من دمي ... وأنه حفيدي .

مَرْجَان !

مَرْجَان ؟

مَرْجَان !!!

واصلَ حفيدي (مَرْجَان) المسير .. أخذ يمشي .. ويمشي .. وهو يُبحر بخفةٍ فيما يشبه السراب المتألق ناطقًا بكلمات لا تخرج مِنْ فَمه وكان صوتُ الأذان يَرتفع - نفس الصوت الذي سَمعتُه فوق مسجدِي المُختفي - ولم تكن شفاهه تَتحركُ ، ومع ذلك كان صوت تلاوته مسموعًا ... لا بُد أَنه كان يَتلو في سَرِيرَته وأنه كان يقرأ لنفسه ولكنني كنتُ قادرًا على سَماع صوت تلاوته لأن كل ذلك مجرد حلم ، كان يقرأ « سورة التين » :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

لطالما كُنْتُ أخشى من أن يتم القبض عليَّ ذات يوم وعندها ستختفي (سربرينيتسا) من عالم الواقع وسأضطر لأن أراها فقط في منامي .. كنت أخاف من الأيام التي ستبْدأ فيها (سربرينيتسا) بالظهُور في أحلامِي . ولَكنِّي كنتُ أعتقد أنه حتى عندما يحْدثُ ذلك ، فسوف أحصُل على أحلامٍ لطيفةٍ أرى فيها حبيبتي (سربرينيتسا) . بل كنتُ أظن أن جمال الأحلام التي ستظهر فيها (سربرينيتسا) قد يَخْنقُني وأنا نائم من فرط الروعة والبهاء .. كنتُ أعرف أن شوقي لها سَيَسْحقُني تمامًا . ولكن يبدو أن هذا الحلم

---

(١) جبال التاي (Altai) : سلسلة من الجبال الشاهقة تقع في آسيا الوسطى وتمتد من (سيبيريا) إلى (الصين) وتمر (بمنغوليا) وأجزاء من (أفغانستان) - (المُترجمة) .

قد ذهب بثقتي المُطلقة في حقيقة أن (سربرينيتسا) لا بُدَّ أن تُبهج قلبي وتُدخل إلى نفسي فيضًا من المسرات .. وأماط اللثام عن حقيقة جديدة وهي أن (سربرينيتسا) يُمكنُ أنْ تكُونَ مُزْعِجة ومُثِيرةً لِلسخْط بالنسبة لي ! يُمكن أن تكون مُقْلِقة ومَصْدَرًا للكَدر على نحو لا يُمكنُ أَنْ يَكُونَ هناك ما هو أكثر إزْعاجًا منه .. هذا ما فعله بي ذلك الحلم الذي التقطني من بين النائمين ليقبض عليَّ ويُمسك بي كما يُمسك الصياد بسمكة بائِسة !

إنه الليل .. حيث لا يُمكنني التحكم في أحلامي .. حيث لا يُمكنني أن أمنع (سربرينيتسا) من اقتحام عالم أحلامي .. وحتى بعد أن نجحتُ في اقتلاعها من ذِهني طوال النهار ... وطَرَدتها تمامًا من عقلي ... ونفيتها بعيدًا عن مجال تفكيري .. ما زلتُ خائفًا من (سربرينيتسا) ... أخشى من دخولها في عَقْلي وتسللها إلى خواطري ؛ كنت أرتعدُ خوفًا من أن تثير عواطفي وتلهب أشواقي إليها . وعندها ماذا عساني أن أفعل؟ إلى أين يمكنني أن أَذْهب ؟ وكَيْفَ يُمكنني أن أَصِل إليها ؟ فقد كُنْتُ بعيدًا جدًّا ... لا يسعُني تلبية نداء الوطن المقموع في أعماقي .. ولا يُمكنني إسكات صوت الحنين إلى بلادي الذي يضج ويمور في داخلي . فقد أقعدتني المسافات الطويلة التي تفصل بيننا وخَيَّب أمَلي بُعد الشُّقة . وأيًّا كان عُمق الدرجة التي دفنت فيها حاجتي المُلِحَّة وأشواقي المُوجعة لحضن وطني .. وكنتُ قد حاولت - عبثًا - أن أدفن تلك الحاجة في نفسي .. دفنتها عميقًا وبعيدًا في أعمق نقطة من أعماق روحي .. ولكن كانت تلك الحاجة العنيدة تُطلُّ برأسها من حين لآخر لتطفو على سطح ذهني وتُلهب روحي من جديد ، عاد حنيني المكبوت إلى (سربرينيتسا) ليظهر من جديد .. عاد ليؤرق سُهادي .. وها أنا أعودُ لأنصهر تحت لهيب صبابتي وشوقي لمسقط رأسي ... وإن بقيتُ على هذه الحال فسوف يذهَب شعوري بعجزي وقلَّة حيلتي بالبقية الباقية من عَقْلي وسأُصاب حتمًا بالجنون !

استيقظتُ في الصَّباحِ وكانت عيناي مُغلقتين .. فَتحتُهما فقط بعد أن أزلتُ الستائر الكثيفة المصنوعة من الفراءِ [١] عن أبوابِ خيمتي المُطلَّة على منْظر الثلوجِ الأبدية التي لا ترتحل عن جبال التاي ، فتحتُ عينيَّ بقوة أمام ضوء النهار لعل بَريق

(١) فِرَاء : أو فرو (فَرْوَة) - (المترجمة) .

اللمَعان المُنعكس عن بَيَاض الثلج الناصع أن يَجْرفَ ظلامَ الليلِ ويَمْحُو حلمي المُزعج - وَلَوْ أنني على الرغم مِما أقوله ما كُنْتُ أحْلمُ حتى تلك اللحظة - فقد نجحت مُحاولاتي المُضنية لتجاهل أحلامي ، ولم يعد بوسعي أن أتذكرَ الأحلامَ التي رأيتها في ليلتي السابقة تمَامًا ولا حتى الملامح العُمُومِية لذلك الحلم ، كنتُ أنساها تمامًا بمجرد أن أستيقظ ، إلا أنني كنتُ بعد أن أصحو بوقت طويل - غالبًا في منتصفِ النهار أو عند العصرِ [١] - أرى شيئًا يُشبه الحلم .. شيئًا ما كان يبرز من بين تلافيف عقلي على نحو غير متوقع ليُذكرني فجأة بأجزاء متقطعة من حلمِي .. فجأةً يلمع في سماء ذهني شيء ما .. تمامًا كما يظهر البرق فجأةً في سماء زرقاء صافية .. قد لا يكون حلمًا مُستقلًا بل أجزاء مُبعثرة من الحلمِ الأصلي الذي كنتُ أراه وأنا نائم بالليل .. هي بذاتها تلك الأجزاء المُبعثرة كانت تقفزُ فَجْأةً كنحلاتٍ هائجة من عقلي لتلسعني على حِين غِرّة دون أن يكون لديَّ أدنى تَصَوُّر عن تلك القطعة من الحلم التي برقت في خاطِري [٢] وذكرتني من جديد بحُلمي المَنْسِي الذي جاهدتُ طويلًا لأمحو وأطْمسَ أي أثر منه ..

وذات يوم كُنْتُ شاخِصًا بِبَصَري أحَدِّق فحسب في ثلوجِ جبل التاي .. كُنْتُ أحَدِّق فحسب لا لسببٍ مُعين . وما عدتُ أحلمُ بأي شيء يتعلق بـ (سربرينيتسا) . وذاك ما كان يُخيفني بدرجة أكبر .. أخذتُ أُعزِّي نفسي وأقول لها : إن كُلَّ شيء يَحْدثُ مَرةً واحدة وينتهي إلى زوال .. ولا شيء يَدُومُ إلى الأبد ... كُل شيء سينتهي ... الذُّعر .. القَلَق .. الخَوْف .. أن تحلُم وألا تحلُم .. كُل ذلك سيَنتهي ..

في ذلك المكان المعزول عن العالم كنتُ حرًا تمامًا كطيرٍ يُحلق في السماء ... وفي نفس الوقت كنتُ مَحْبُوسًا بالمسافةِ التي يُمكِنُ أنْ تُقـاسَ بالأفكارِ فقط ... أبعدُ الآلاف والآلاف من الكيلومتراتِ عنْ (سربرينيتسا) ... لهذا أرتعدُ خشية أن تتحرك (سربرينيتسا) نحوي وتغمس أظافرها في أحلامِي .. كنتُ أرتجف خوفًا كشجرة حور ترْتَعِش وتتَرَجْرج تحت وطأة الريح ، كانت (سربرينيتسا) تطاردني وتلحق بي دون أن تبالي بعدد المرات التي كنت أقوم فيها بطردها مِنْ أفكارِي حينما أكون مستيقظًا . وقد تيقنتُ من أنَّها ستخْطرُ في ذهني من جديد وستقتحم أفكاري

---

(١) العصر : الجزء الأخير من فترة بَعْد الظهْر - (المترجمة) .

(٢) الخاطِر : البال أو الفِكْر - (المترجمة) .

بإلحاح مُستميت وسلَّمتُ بأن ذلك هو قدري .. كنتُ أعلمُ أن (سربرينيتسا) ستُطبقُ عليَّ في أيِّ وقت فجأة ودون أن أستعد لها .. وستُلحُّ وتطرق أبواب ذهني دون ملل تمامًا كما تَشتهي امرأة حبلى شيئًا يتعذر الحصول عليه ولا يُمكنها طرد تلك الرغبـة المُلِحَّة من ذهنها ...

فالمرأة التي أثقلت ثَمَرَة الحبِّ رحمها ، تتَحَرَّق شَوْقًا إلى كُلِّ شيء تقريبًا . فهي تَشتمُّ رائحةَ البطيخ الحلوةَ الذكية في منتصفِ الشتاءِ ؛ وتَشتهي طعم الكرزِ في الخريفِ . وتتلهف على رشفة من ماء الفاكهة أو الخضروات المخللة في أواخر الربيع .. !

وكذلك حبيبتي الحُبلى (مونتسكيرا) اشتهت أن تشرب مِن الماءِ المُثلجِ مِنْ قمةِ جبل التاي .

قُلتُ لها :

- « أوه ، حقًّا ! » .

- « نعم إنني أرغبُ في بَعْض منه ، حتى لو كَان ذلك هو الشيء الأخير الذي يمكنني الحصول عليه في حياتي ! » .

- « حَسَنًا ! ... سأفعلُ ذلك من أجل سيدتي البورياتية [1] الوحيدة ! » .

- « أوه ، يا بك ! الوحيدة ؟ » .

- « أجل الوحيدة ! » .

طَمأنتُها بسرعة وعجَّلتُ بكلماتي :

- « عسى أن يُصبح ولدها أميرًا ويكون الخان ! » .

قالَت بشكل خجول وهي مُسْتَحية :

- « إنني أرغبُ في الشرب من ذلك الماء المُثلج حتى يكون لدَيكَ أبناء يُصبحونَ أمراء بوسنيين في المُستقبل ! » .

- « ياه .. يا (مونتسكيرا) ، البوسنة بعيدة جدًّا » .

- « أوه ، مُنذ متى لم تَتلفظ بكلمة « البوسنة » ! إنك تُقاوم ذلك ، تَتحمل كل تلك الآلامِ لتمنع نفسك عن ذكرها ، ولكن ما أن يتحرك بها لسانكَ حتى تخرج

---

(١) سيدة من شعب البوريات (Buryat) أي من جمهورية بورياتيا التي تقع في المنطقة الجنوبية والوسطى من سيبيريا على طول الشاطئ الشرقي لبحيرة بايكال - (المُترجمة) .

وكأنها قد انبثقت من أعماقِ روحِكَ ثم تدفَّقت على لسانك ... الحقيقة أن قلبك يلهج دائمًا باسم البوسنة !! .. إذا كانت عائلتي تَعتقدُ بأنَّ المرء يُمْكِنُ أَنْ يُصبحَ خانًا بورياتيًا فقط إذا شربت أمُّه شيئًا من الماء المُذاب من ثلوجِ قمةِ جبال التاي قَبْلَ أَنْ تَلِده ، فسوف أشْربُه لألدَ لك خانًا بوسنيًا ، ولِهذا السبب أوَدُّ أَنْ أشرب مِن الماءِ المُذاب من ثلوج قمةِ جبال التاي ... سنشربه معًا ... دعنا نَأملُ أيضًا بأنك ستذهب إلى البوسنة ! إنني أراقبُك كُلَّ صباح ... فما أن تَصْحو حتى تَبْدأ بإزالة الفراءِ عن أبوابِ الخيمة وتَفْتح عيونَكَ في اتجاهِ البوسنة » .

– « بل إنني أُحدِّقُ مليًا في جبل التاي » .

– « لا .. إنك تُحدقُ من خلال التاي !! لكنك تَنْظرُ نحو البوسنة .. نظراتك المُلتهبة شوقًا إلى البوسنة تخترق الجبل بحثًا عن البوسنة ! » .

– « هذا ليس صحيحًا ، (مونتسكيرا) ! البوسنة لَيستْ في ذلك الاتجاهِ ! » .

– « أعلمُ أنها وراء الجبال ، فيما بعد التاي .. حيث يَنفتحُ العالم البعيد . إن حدود عالم البوريات لا تتجاوز جبال التاي . ولا بدَّ أن تكون البوسنة هناك فيما وراء التاي » .

قلتُ لها :

– « حَسَنًا ! ... حَسَنًا ، (مونتسكيرا) ، سَأَجلبُ لك الثلج المُذاب مِنْ قمةِ التاي . ولكن على أن تعِديني بشيء واحد ... فقط بشيء واحد فحسب ؛ عِديني بأنك – بينما تَرْتشفين مِنْ يديَّ الماء المُثلج الذي سأجلبه لك مِنْ قمةِ التاي وبينما تَأخذين أنفاسك ببطء بين الرشفات – سَتَتمنَّين أن يُصبح ابننا خانًا كما كَانَ جَدُّه : والدكِ (يوسف التاي خان) الذي أرجو أن يَمْنحه اللّهُ العمر الطويل ! » .

ومِنْ بين الوساداتِ الناعمةِ ، على السرير المُكدَّس بأدفأ وأنعمِ قطع الفراءِ ، رَفْرفت (مونتسكيرا) بجفونها فوق عيونِها المُتَوَهِّجة ، وقالت لي :

– « وإن كانت بنتًا ، عِدني بأنك سَتُسميها (مَرْجَانة) ! » .

– « من أين جئت بهذا الاسم ؟ ولماذا عليَّ أن أَختار ذلك الاسم ؟! سَيكونُ لدينا مُتسع كبير جدًّا من الوقتِ لمُنَاقَشَة موضوع الأسماءِ . لَكنِّي أوَدُّ إن كانت بنتًا ، أن نسمِّيها (تنزيلا) . في الحقيقة ذلك ما أرغبُ فيه ! » .

أغْمَضَت (مونتسكيرا) عَيْنيها وهي تتمتم :

– « إيه ، إيه ! » .

انطلقتُ إلى جبال التاي وحدي ... لم يتبعني أحد ؛ فقد كانت تلك هي العادة في قبيلة « البوريات Buryat »[(١)] . ومن فوق التلّة الأولى سمعتُ صوت غناءٍ وعزف موسيقي . كانت هذه أيضًا هي العادة عندما يوشك أن ينطلق أحد لإحضار الثلج من أعلى قمة في الجبل إلى أمِّ خان المستقبل ، فزوجتي ستلد خانًا أي أميرًا . وكذلك الشخص الذي انطلق إلى الجبل - الذي هو أنا - لا بُد أن يكون خانًا في الأساس .. أنا أيضًا سأصبحُ خانًا بالطبع !

وعندما بات معلومًا أنني قد وافقتُ على القيام بالرحلة ؛ صفقت (مَرْجَانة) أخت (مونتسكيرا) بيديها وهي تقول :

---

(١) قبيلة البوريات (Buryat) : قبيلة منغولية الأصل تسكن الأراضي التي تقع إلى الشمال من الحدود المنغولية الروسية بالقرب من بحيرة (بايكال) وتُعرف بجمهورية (بورياتيا) .. وبحسب تقديرات جمهورية (بورياتيا) لعام ١٩٩٥م يبلغ تعداد البوريات حوالي (٢٥٢,٠٠٠) نسمة . ووفقًا لتعداد عام ٢٠٠٢م ، تشكل العرقية البورياتية ٨,٢٧ ٪ من سكان جمهورية (بورياتيا) . وعبر التاريخ كانت جمهورية (بورياتيا) تقع داخل منطقة نزاع طويل بين (روسيا) و(الصين) و(اليابان) (قبل ١٩٤٥م) . واليوم - في حقبة ما بعد العهد السوفييتي - وجدت (بورياتيا) استقلالها وسط منافسة نفوذ أقوى جيرانها . وقد احتفظت جمهورية (بورياتيا) وعاصمتها (أولان أوده) بعلاقات طيبة مع (روسيا) ، التي تشكل جزءًا أساسيًّا منها ، وأقامت روابط اقتصادية وسياسية مستقلة مع (منغوليا) و (الصين) « منطقة منغوليا الداخلية ذات الحكم الذاتي » . وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن شعب البوريات المنغولي لا يسكن فقط في جمهورية بورياتيا بل يعيش أيضًا في أقليات مبعثرة في أراضي (منغوليا) . ومنهم ظهر (تيموجين) وهو (جنكيز خان) في أواخر القرن الثاني عشر الذي استطاع من خلال سلسلة من الحروب مع مختلف القبائل المنغولية أن يوحد جميع الشعوب الناطقة « بالمنغولية » تحت قائد واحد . وأسس إمبراطورية المغول العظيمة . وبخلاف ما يؤكده المؤرخون من الفترة السوفييتية ، الذين حاولوا إنكار الهوية المنغولية لشعب (بورياتيا) ، فهم جزء من صميم الثقافة المنغولية منذ العصور القديمة . وقد أدت الحرب الأهلية بين (الأمراء) المغول إلى تفكك وسقوط الإمبراطورية المنغولية وتوزع شعب البوريات بين بلاد (فارس) و(روسيا) و(آسيا الوسطى) و (تركيا) المسلمة . ووقع جزء منها تحت سلطة الإمبراطورية الروسية في (سيبيريا) النائية بعيدًا عن مراكز القوى الإمبريالية . ولكن علاقتها مع الإمبراطورية الروسية كانت محفوفة بالمشاكل . وأثناء الحكم الشيوعي تم جمع القادة والمفكرين والزعماء الدينيين وذبحهم . وتكرر الهجوم على قبائل البوريات وحظرت الكتابة باللغة المنغولية . وإضافة إلى حملات التطهير جُردت بورياتيا - الجمهورية المنغولية - من نصف أراضيها ، بما فيها الشاطئ الغربي لبحيرة بايكال . وبعد وفاة (ستالين) عام ١٩٥٨م بدأت السياسة السوفييتية تجاه البوريات في التغيير ببطء . وفي عام ١٩٩١م توثقت العلاقات مع (منغوليا) ومنغوليا الداخلية ، وفي عام ١٩٩٢م أعلنت كجمهورية مستقلة داخل الاتحاد الروسي - (المُترجمة) .

- « وبصُعودك جبل التاي ، ستصبحُ خانًا أنت أيضًا ! » ...

واستطردت (مَرْجَانة) بحرارة وبحماس مُتَّقِد :

- « فكلُّ مَنْ تسلق جبل التاي وجلب الماء إلى ابنه الذي لم يُولد بعدُ صار خانًا وأميرًا من الأمراء ، إذًا ستصبح أنت أيضًا خانًا وأميرًا عندما تتسلق جبل التاي » .

لكنني أكذبُ على نفسي عندما أقول : إن أحدًا لم يرني وأنا أَهُمُّ بالصعود إلى جبل التاي ، فقد لمحتُ (مَرْجَانة) قرب شجرة التنوب [1] الصنوبرية خلف المنزل الأخير من منازل القبيلة ؛ كانت قد تسللت خلسةً كي تُقابلني قبل أن أصعد الجبل ... وتعمَّدت أن تُظهر نفسها لي خلف شجرة كما لو أنها مُصادفة ... ثم اختفت عن نظري مرة أخرى ولكن ليس بسرعة تمامًا .. لقد سمحت لنفسها بالبقاء قليلًا داخل حدود مجال بصري .. تعمدت أن تمنحني فرصةً لرؤيتها وإلقاء نظرة جيدة عليها .. بل وقصدت أن يُتاح لي ما يكفي من الوقت لأن أُسدد نظرة مباشرة إلى عينيها .. كانت عيناها ترْتَعشان وتُرَفْرِفان مثل عيني (مونتسكيرا) تمامًا ولكن بطريقة مختلفة . فقد كانت عيون (مونتسكيرا) مُتَوَهجة تُضيء بسنًى هادئ لطيف كما يُضيء القمر وسط العتمة ؛ أما عيون (مَرْجَانة) فكانت مُتَوَهجة على نحو مُختلف .. كانت وَقَّادةً تتَوَقد اشتعالًا كما لو كانت تقذف بألسنة من اللَّهب .. تُضيء كشعلة من النيران وليس كما يُضيء القمر ! .. كما تعمدت أن ألاحظ الوشاح الحريري الأخضر الذي كانت تضعه على رأسها .. وأظهرت نفسها بالكامل أمام ناظري حتى أحتفظ بصورتها في مُخيلتي وأحملها معي كاملةً إلى قمة جبل التاي .. كانت ترغبُ في أن أتذكرها عندما يقهرني الصقيع فوق ذلك الجبل القارِس البرودة ، وعندما تكتسحني العواصف الثلجية .. فهي تعلم أنني في تلك اللحظات القاسية سأُجبر على التفكير في شيء دافئ .. شيء ناعم ولطيف - بغض النظر عن امرأتي التي زادتها الثمرة التي في رحمها جمالًا - يستدفئ به

---

(١) شجرة التنوب (spruce) : تُعرفُ في بَعْضِ البِلاد باسْم شَجَرة البِيسيّة .. أو شَجَرة الراتينجية وتسمى أيضًا التنوب الأحمر أو الأصفر . وهي شجرة ضخمة من فصيلة الصنوبريات (conifer) . يرتفع طولها إلى نحو ٥٠ مترًا فأكثر ، أوراقها مخرازية طولها من قيراطين إلى قدم ، منضمة نحو قاعدتها بغمد صغير وأزهارها زهرية ذات مسكن واحد وطلع الذكور منها كثير جدًّا إذا حملته الرياح إلى بُعد ثم سقط على الأرض ظن أنه مطر من الكبريت ، وثمرها مخروطي ولا ينضج إلا في السنة الثانية - (المُترجمة) .

قلبي المُتجمد فوق الجبل البارد على نحو مرير .. كانت تعلم أن صورتها الدافئة سوف تزور مُخيلتي وأنها ستُطبق عليَّ وأنا هناك .. حيث يكون « وحدي » معي !!

كانت (مَرْجَانة) تعلمُ جيدًا أنني سَأُدركُ - بينما يغمرني الصقيع - أن ذلك ما أرادتْه وأنها عندما كانت تختبئ خلف شجرة التنوب لَمْ تكن تَهْرب ، ولم تكن تخفي نفسها كما تفعل فتاة ضُبطت وهي تختلس نظرةً إلى شاب ؛ أو كما يفعل حيوان مذعور .. كانت تعلمُ أنني سَأفهم - فيما بعد - أنها انسلّت من وراء شجرة التنوب وأخذت تتراقص أمامي وتتلوى بجسدها كما لو كانت تخلع ثيابها عنها لتَبْقى مَعي وحدي ... لتمكث معي فحسب .. وكأنها تُعلنُ لي أنها لي وحدي وأنها ليست لأحدٍ سواي . فعلت (مَرْجَانة) كلَّ ذلك لكي أتَذكرها - عندما تُحاصرني العاصفة الثلجية وتسحقني برودة الجبلِ المُوجِعة جدًّا - وبينما كانت تَختبئ خلف الثلج الذي يُغَطِّي الفروعَ الخضراءَ مِنْ شجرة التنوب السوداءِ ، كانت تعلمُ أنني سَأَتخيلُها - في الوقت الذي سأكون فيه مَسْحُوقًا تحت زمهرير العاصفةِ - في السريرِ نفسهِ الذي تَركتُ فيه (مونتسكيرا) .. وسَأَتصورُها بين ذراعي .. ناعمة .. بيضاء ... تتحرقُ شوقًا إليَّ وتشْتعل شَغَفًا وعِشْقًا !!

وتصورتُ أن زوجتي (مونتسكيرا) أثناء ذلك الوقت ، وفي دفءِ الوساداتِ الناعمةِ الوثيرة ، سَتَلْعنُ أباها (يوسف التاي خان) في سرها وعيونها مثبتة على العاصفةِ الجليدية التي هَبَّتْ على قمةِ جبل التاي ولم تَهْدأ منذ أيام ، ستلعنه مئات المرات لأنه أمرها أن تطلب مِنْ زوجها أن يجلب لها الماء المُذاب مِنْ قمةِ جبل التاي .

وتخيلتُ أنها ستظل تُخْبره بأنني رجلٌ أجنبيٌّ غريب عن بلادهم وليس عليَّ الالتزامُ بعاداتِهم . وسيجيبها بأنني أخ مسلم وصهره ووالد حفيدِه الذي لم يُولد بعد . كما ستلعنُ أخاها (بيبي هاديدز) أيضًا ، الذي اختار صهرَه من أحد الأمَاكن المُظْلِمة تَحْتَ الأرْض .. من تلك الزنزانةِ البعيدة بالقُرْب من بلدةِ (فلادفُستُك) ، وبدلًا مِنْ أنْ يُشير إليه باتجاهِ الطريق المُؤدية إلى (خُراسان) .. وبدلًا من أن يوجهه إلى الطريق إلى الحُرية .. أشارَ إليه باتجاهِ الطريق التي ستُوقعُه في عبوديةِ (يوسف التاي خان) ، لكي يُعوضه عن ابنه ويأتيه بالحفيد الذي لم يُرزق به .. كان مُقتنعًا بأن ذلك المسلم مِنْ بلاد البوسنة البعيدة سَوف يأسره جميل أبيه وسيَسْقطُ صريع إحسانِه ويَرْبحُ قلبَ إحدى أخواتِه بناتِ (يوسف التاي خان) ،

وبهذه الطريقة ستتواصل سلسلة الأمراء (الخانات) بلا انقطاع !!

وقد تستَدْعي أختها (مَرْجَانة) وتَشتكي إليها :

- « كان أخونا (بيبي هاديدز) يعْرفُ بأنه يرسله إلى رحلةٍ لا عودة منها . فهو لَمْ يرغب في أن يترك أبانا بدون وريث ... وكان يعرف أن أبي يرغب في ذلك أيضًا ويأمل أن يكون له وريث ! ولكن ليس لدَيهم الحقُّ في فعل ذلك بي .. لم يهتم لا أبي ولا أَخي بزوجِي . لم يعنهما أمر زوجي بتاتًا .. أرادوا أن يجعلوا مني أرملة ... فحبيبي (رحمن بك) لَيس لديه أي خبرة عن تسلُّق التاي .. إنه ليس كغيره مِن الجبالِ . ولهذا لَنْ ينجح في البقاء حيًا على قمة جبل التاي .. أوه يا لحبيبي المسكين (رحمن بك) إنه لن يَنجو من تلك الرحلة اللعينة . وسوف يَحصلون بالفعل على « خانٍ » مِنْ عائلتِنا ، سيحصلون على الأمير إلا أن ذلك الأمير الطفلَ لن يَكون له أب .. سيكون خانًا يتيمًا . وأنا سَأكمل حياتي دون زوج ... لكن كلَّ ذلك لا يهم بالنسبة لأبينا والشيء الوحيد المهم بالنسبة إليه هو أن يصعد والد ذلك الحفيدِ المستقبلي إلى جبل التاي . أما والد ذلك الحفيد فيكفيه شرفًا - إذا توفي - أنه قد وافَقَ على تحقيق غايَة أمِّ الخانِ المستقبلي ورغبتها في أَنْ تشرب مِنَ الثلج المُذَاب مِنْ قمةِ التاي الثلجية . أما الخاتَم الذي تَركه الأسلاف الذين سبقوه فلَيْسَ هناك حاجة مُلِحة لاستعادته . وقد نَجحَ أبونا في ذلك قبل الآن ، إلا أنه وَجدَ الخاتمَ - الذي يَعُودُ إلى جَدِّه - داخل الكهفِ الخفي .. ولكنه لَمْ يَجدْ خاتمَ أبيه . فقد ماتَ جَدِّي في أثناء عاصفةِ التاي الصيفية . وكان هناك العديد مِنْ أمراء « البوريات » الذين لَا يتذكرون آباءهم . فمن آباء الأمراء مَنْ لقي حتفه فوق الجبل ودفنته العواصف الثلجية ، وكثيرون منهم ماتوا أيضًا بعد أن نجوا من تلك الرحلة المُهلكة . لَكن لم يحدث قط أن ظلَّت ابنة خان أرملة ، ولكن زوجات أبناء الخانِ لا بُد أن يبقين أراملَ دائمًا . فالكِنَّة [1] تعتبر غريبة .. وحزنها ليس في الحُسبان . وكان الحُزْن على الابنِ المفقودِ هو المُهم فقط .. بل إن الأهم من هذا وذاك أن يبقى الوريث الصغير على قيد الحياة . لكنِّي صَلَّيتُ وتضرعتُ إلى اللّٰه ! لماذا يَتوجبُ على (رحمن بك) أَنْ يتمنى أن يكون لَهُ ابن كما تَمنَّى جميع أسلافنا الأمراء ؟؟ وما الذي يُرغمه على تلك الأمنية التي لا تخصه وليست من تقاليد بلاده ... تلك البوسنة البعيدة ؟ » .

---

(١) الكِنَّة : زوجة الابن - (المترجمة) .

وقد أكدت لي (مَرْجَانة) أن ذلك حدث بالفعل .. حينما أخبرتني لاحقًا :

- « أجل لقد فعلتْ ، لقد عَانتْ كثيرًا بسببك ! ... كانت تخشى على حياتكَ . وكان الشيء الأكثر أهميةً بالنسبة إليها أن تَبْقى أنت حيًّا حتى وإن لم ترجع إليها . لِهذا السبب كَانتْ تُحاولُ أن تُقنعك بالذهاب إلى البوسنة بدلًا مِن التاي . لَكنَّها كانت تُعَاني من جهة أخرى أيضًا ... لأنها كَانتْ تخشى أن ينتَهي بك المطاف إليَّ أنا . وعندما بدأت تُحس بآلام المخاض ، شَعرتْ بأنَّها قد تموتُ أثناء الولادة وافترضت أنَّك قد تَعود سالمًا من رحلتك القاسية ... ولِهذا السبب كانت تحاول إقناعك بأن تُسمي ابنتك باسْمِي ... لاعتقادها بأنك لن تَتزوجَني بسبب الاسم ! لأن ابنتك ستحملُ نفس اسمي وهذا سيحول بينك وبين الزواج بي .. وقد طَلبتْ من القابلات أن يُغادرن المكان وأن يَتْركنَها وحدها مَعي فقط ... وقد رفضتُ وعارضتُ ذلك بشدة . وأخذت أردد باستمرار أمام الجميع بأنَّ المخاض أوْشَكَ أَنْ يَبْدأ وبأنها ستَلِدُ في أي لحظة . وصرختُ وأنا أقول بأن القابلاتِ لا يَجِبُ أنْ يَتْركنَها تحت أي ظَرْف وألا يتركنها لحظةً واحدةً لأنَّ ذلك قد يَكُونُ شؤمًا عليها أو على الوليد .. وقد يكون نذير شَرٍّ لكليهما ! ولكن القابلات أذعنَّ لمطلبها في النهاية وامتثلن جميعًا إلى رغبتِها . وعندما أصبحنا وحدنا أخبرتْني بأنها تَعْرِفُ بأنني تَعَلَّقتُ بِحبك مُنْذ اللحظةِ الأولى التي وقعت فيها عينَاي عليك .. وأنها تعلم بأنني عاشقة لك بل وَبأنك قد شَغَفت قلبي حُبًا ، ولكن لم يكن خطؤها أنها وَقعت في حبِّك أيضًا ؛ وأنها لا يُمْكن أنْ تُلامَ لكونها الأكبر سنًّا ولأنها قد سبق لها الزواج . لَكنَّها كانت تتعذّب كثيرًا بفكرة أنك كنت تحبني أكثر .. فقد أشقتها تلك الفكرة وعذبتْها كثيرًا .. أجل ، كانت على يقين من أنك أحببتَني أكثر ! » .

هذا ما أخبرتني به (مَرْجَانة) ...

وقد تهيَّأ لي أنني قد استمعتُ قبل الآن إلى قصة (مونتسكيرا) و (مَرْجَانة) عن جبل التاي ، وربما أنني ببساطة صدقتُ نفسي فيما بعد ، واعتقدتُ بأن ذلك هو ما حدث لاعتقادي بأن ذلك كان مُمكنًا ، ولأنني أثناء وجودي فوق جليد جبلِ التاي قد عايشتُ الموت لِعدةِ مرات .. بعد أن عشتُ في أحضان الموتِ الأبيضِ ، وظللتُ على تلك الحال فترة من الزمن اتسعت فيها حدود فهمِي وتَوسَّعتْ مداركي .. واستطعتُ أن أشعر بالأحداث التي حَدثتْ بالفعل وحتى تلك التي لم تَحْدث بعد ؛ وأصبحتُ مُدْرِكًا للأشياءِ التي تهمني وإن لم يكن لها وجود ، واعيًا

بالأمور التي تشغلني وإن لم تكن موجودة !!

وبينما كنتُ على قمة التاي ، مَحْبوسًا في قبضة العاصفة الثلجية والبردِ الذي لا يُطاق حتى في أيام فصل الصيف ، أدركتُ أنني قد متُّ ولكنني لم أستطع أَنْ أَعْرِفَ بالضبط وقتَ وفاتي ، لم أستطع أن أُميِّز اليوم الذي لقيتُ فيه حتفي ... أكان ذلك اليوم الذي سقطتُ فيه من شجرة الكرز ؟ أم اليوم الذي كان فيه القائد القوقازي (عبد الرَّحمن) يُشهرُ سيفه في وجهي ويُلوحُ به من فوقي ببراعةٍ بالغة ؟ أَمْ أنني قد تلاشيتُ ببطء وذُبتُ على الضفاف الحجريةِ الشديدة الانحدارِ لنهر (سوتشا) وامتصتني الأرض ؟ أو اختفى كلُّ أثر منِّي في الأعماق البعيدة لذلك النهر بعد أن قذفت بي تياراته السريعة إلى غياهب المجهول ؟ أم أنني متُّ في ذلك اليوم القائظ الذي كنتُ أختنق فيه - بسبب الحرِّ الشديد والعرقِ الغزير - داخل عربة نقل الماشية المُغلقة التي كانت في طريقها إلى (فلادفُستُك) ؟ أَمْ أنني - ببساطة شديدة - قد متُّ بعد أن جرفتني الثلوج الغزيرة .. وأنني لا أدري أنَّني لقيتُ حتفي مُتجمدًا مِن البرودةِ ؟ أَم تُراني متُّ في (سربرينيتسا) .. على سريري وفوق المفارشِ المُرتبة الناعمةِ .. متُّ بلحيتي البيضاء الطويلة بعد أَنْ نجحتُ في إتمام مُذكراتي وإنْهاء ما أَكْتبُه الآن فقررت أخيرًا أن أرقد وأستسلم بهدوء للمَوت ؟ كنت أدركُ بأنَّني سأُنجز كتابتي ولكنني كنتُ في نفس الوقت أشعرُ بالانزعاج بسبب « نبوءةِ التاي » .. بسبب ذلك الحُلم الذي رأيته فوق قمة التاي عن موت (سربرينيتسا) .. تلك الرؤية التي كَانَت قد تكشفَت لي - على ما أظنُّ - بسبب وجودي في تلك الأرضِ البعيدةِ النائية ، وربما أيضًا بسبب المرات المتكرِّرةِ التي شَهدتُ فيها الموت والتقيتُ به وجهًا لِوجه .. لم أشهد موتي فحسب بل موتي الشخصي وموتِ أناس آخرين أيضًا ... أَم أنني قد أنقذتُ مِن الموتِ في وقت سابق عندما كنتُ أَستعدُّ لقَتْل رجلِ آخر لَكنِّي لَمْ أَقْتلْه وأمضيتُ ما تبقى من عمري مُعتقدًا أنه الشخص الذي أَدِينُ له بحياتي ؟!

لقد أدركتُ تمامًا كم هي كَريهَة جدًّا تلك الرائِحَة التي تنتج عن تَفَسُّخ الجسم البشري .. رائحة نَتِنَة للغاية ولا تُطاق بأي حال .. أدركتُ ذلك عندما كنتُ في الخندق حيث تيقنتُ أنَّها أخبثُ رائحة يمكن أن تحملها الريح إلى خندقنا وأن لا شيء يُمْكِنُه أَنْ يُزيلها مِنْ ذلك القبرِ المحشو بالجنود الذين لم يلقوا حتفهم بعدو ، لا يزالون على قيد الحياةِ ... وكنَّا نتعرَّض لخطر مُهلك عندما ننقل جثث القتلى

عقب معركة من المعارك ونحاول إبعادها عن الخندق ... كانت تلك مُهمة خطيرة ومُجازفة قد تُعرضنا لِلْمَوْت . وأحيانًا كان هذا الواجب المُهلِك من نصيبي أنا أيضًا . فبينما كنَّا على جبالِ الكربات ، سَقطَ ذلك الواجب على عاتقي مباشرةً ... كَانت المعركة مُشتعلة ولَمْ يكن القائد (عبد الرحمن) قد قرَّبني أبدًا من موقع الفيلق البوسني الرابع .. وحتى هم لَمْ يُدققُوا .. لم يكن لديهمْ ما يكفي من الوقت للتحقق من الكيفية التي ظَهرتُ بها فجأةً في ذلك الجزءِ من الجبهةِ . على أية حال ، كان الاقتتال قد بَدأ وكَانَ وصول جندي إضافي موضع ترحيب أكبر بالطبع ! ولكن عندما تبين لهم أنني قد نَجوتُ من المعركةِ وبَعْدَ أنْ خطر ببالهم - كما كانَت عادتهم - أنَّنا قد نَبْقى في هذا الخندقِ لفترةٍ أطول على الأقل حتى الحربِ القادمةِ ؛ فقد صدرت الأوامر بأن عليَّ - لكوني الوافد الجديد - التطوع بمُجازفة الخُرُوج إلى المنطقة التي تقع بين خنادقِنا وخنادقِهم والتي تكتسحها النيران . وأعلنوا بوضوح عن مُهِمَّتي الجديدة كـ « جامِع مَوتى » ! .. ولهذا السبب زَحفتُ خارجًا من جوف المخبأ الذي اعتدتُ عليه - بعد أن بَقيتُ في البداية هامدًا في ساحة المعركة كأحد الموتى - قمتُ بالزحف فوق جثث الموتى ، وهكذا وقع ذراعي على جثَّةِ شخص ما ... كان أقل جزء من جسدي فقط يُمكنه أن يَمسَّ الأرضَ .. كنتُ مُمددًا فوق جثث الجنود المَوتى .. كان جسدي مفروشًا فوق أرضية من الموتى ! لَكنِّي شعرتُ على نحو خاص بجثة أحد الأشخاص تحت ذراعي الأيمن ، لأنني استشعرتُ شيئًا ينبض تحت راحة يدي ... أحسستُ بنبضَات قلب تعُودُ إلى شخص آخر . ضَغطتُ بيَدي أكثر ، فنطقت الجثة ! .. صرخ الرجل الروسي :

- « أرجوك ، لا تَقْتلني ! » .

كنتُ قد سَمعتُ كثيرًا عن العديد من الوَقَائِع والحَوَادِث التي استمع فيها زملائي من الجنود البوسنيين لمثل هذا الاسْتِعْطاف والاسْتِرْحام ، وبعد ذلك كان ذات الشخص - الذي كان يتَوَسل ملتمسًا العفو والرحمة - يُحاولُ قَتْلهم ! لِهذا السبب ، فقد قررتُ أنه ما لم تُقدم إليَّ تلك المُناشدة باللغةِ البوسنيةِ أو الألمانيةِ ، فقد وقِعت على آذان صماء ، ولا بد أن يتبع ذلك التوسل الموتُ الفوري . لذا أَمْسكتُ بقبضة خنجري وتأهبتُ لأن أجهز عليه ..

ومن جديد تَوسل الرجلُ قائلًا :

- « أسْتحْلفك باللّه ، لا تَقْتلني ! » .

لَمْ أَعْرِفْ بالفعل ما العمل . ماذا أفعل ؟ هَلْ أَقْتلُه أَم لا ؟

سَأَقْتله ، أَخذت أفكر وتَابَعت التفكير أكثر ... سَأَقْتلُه .. حتى إن كان قد خرج مِنْ رحمِ أمِّي فسَأَقْتله !

لكن الرجل تضرع ثانيةً :

- « نَاشَدْتُك اللَّه ، لا تقتلني ! » .

لا أعتقد أنه توسل باسم اللّهِ بالطريقة التي اعْتَدْتُ أن أسمعها من المسلمين . لَكنَّه لم يكن روسيًّا أيضًا .. من يَدري من أي البلاد أتى ذلك الرجل ؟ فعندما كانت الإمبراطورية الروسية تتوسع وتسيطر على المزيد والمزيد من الدول ، كان هناك العديد من الشعوب التي تخضع لإرادة (روسيا) ... كان عدد الجنود من تلك الشعوب يعادل تقريبًا عدد الجنود الروس !

رُبَّمَا لم يكن عليَّ أَنْ أَقْتلَه ؟

أمسك الرجل بصدري وجذبني مِنْ أسفل .. وبينما كان يرفع نفسه لأعلى رفعني أيضًا من الأرضِ وهو يقول :

- « بحقِّ اللَّه ! » .

قلتُ :

- « لَنْ أفعل ! » .

ولَمْ أفعل ..

قرَّرتُ أَنْ لا أَقْتلَه .. وكما لو أنَّ شخصًا ما كَانَ يَهْمسُ لي بألَّا أقتله وبأنه يُمْكِنُ أَنْ يُنقذَ حياتي في يوم من الأيام ؟

وفي اللحظة التي رفعني فيها الرجل عن جسمِه ، اصطدمتُ بشيء ما مِن الخلف .. شعرتُ بوخزة ألم تحت مفصلِ كتفِي . وفجأةً حلَّ الظلام على السهلِ وكنَّا لم نزل في منتصفِ النهار ! وآخر شيء استطعتُ أن أرَاه كان عيون ذلك الرجلِ الذي كَان يحتضر تحتي .. كانت عيناه الشيء الأخير والوحيد الذي رأيته قبل أن تلُفنا العتمة .. كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما في ذلك الوَقْت ... تحدقان في نقطة اللانهاية .. جامدتان كأنهما لم تريا النور مطلقًا .. وفجأةً ظهرت

شمسان في عينيه المُتيبستين داخل المَحاجِر [١] !! .

لم يكن هناك ظلام فوقه ... كَانَ يَنْظرُ إلى الشمسِ وقد انعكست في كُلِّ عين مِنْ عينيه صورة لشمسٍ واحدة ... شمس لكل عين ... ولم يسبق لي أبَدًا أن رَأيتُ شمسين في نفس الوقت إلا عندما رأيتُ ذلك في منامي قبل أن أبدأ رحلتِي إلى جبل التاي ، أما على أرض الواقع فلم أر شيئًا كهذا قبل الآن ... كما لم يسبق لي أنْ رَأيتُ اثنتين من الشموس جنبًا إلى جنب ، ولا حتى في وقت الغروب حيث تذوب إحداهما بعيدًا وتتلاشى تاركةً شعاعها مُنعكسًا على سطح الماء .. بينما الأخرى ما تزال في السماءِ ... إذ ليس هناك نَهْر يَتدفَّقُ في (سربرينيتسا) .. هناك فقط جَدْوَل مائي أو نُهَيْر صغير يحمل اسم نهر . إنه جَدْوَل صَغِير جدًّا وسريع جدًّا أيضًا .. ولا يتسع سطحه لانعكاسات أشعة الشمس الآفلة هناك عند أسفل الأفقِ الغربي .

تقعُ (سربرينيتسا) وسط التلالِ .. وهي أيضًا أحد التلالِ .. فإمَّا أن الشمس تَختفي خلف التلِّ أَو أن (سربرينيتسا) هي التي تختبئ مِن الشمسِ . المهم أن الشمس في (سربرينيتسا) اعتادت دائمًا على الاختِفاء سريعًا وفي وقتٍ مُبَكر . وهو نفس ما يحدث الآن . لقد اختفت الشمس .. رُبَّمَا أحرقَت نفسها ، وَرُبَّمَا لَمْ تفعل ، كل ما أعرفه أنني غرقتُ في الظلامِ ، كما لو أنَّني قد متُّ مرةً ثانيةً . لكن ، في البداية ، بدا لي أنني لم أكُن الوحيد الذي لقي حتفه وأن العالم بأسره قد انتهى ، وأن تلك ولا بد كَانَت بِداية يوم القيامة ، عندما تظْهرُ شمسان في السماء وتنعكس صورتهما في عينين ، إنها علامةٌ فظيعة وإشارة مُرعبة - كما سأكتشفُ لاحقًا مِنْ شعب البوريات - ولكني لَمْ أشاهدهما في السماءِ ، ولم أَرَ قط شمسين في الوقت ذاته واحدة في السماء والأخرى تنعَكسُ على سطح الماءِ ... بل إنني منذ برهة وَجيزَةٍ لَمْ أَر حتى الشمس التي اعتدنا على بزوغها كل يوم في السماءِ .. ولكنني رأيتُ شمسين معًا في عيني ذلك الرجل الذي كان يحْتَضر !!

لَمْ أعد أَتَذكَّر أيَّ شيء عدا تلك النظرة المملوءة بالرعب والشمسين اللتين كانتا تبرقان أسفل مني ... بعد ذلك لم أستطع أن أتذكَّر كَيف تابع الموتُ مسيرته معي .. لا شيء ... تَذكَّرتُ فقط جسدي الرَّخْو وهو يَرتطمُ بألواح من الخشب الجاف المقطع بخشونة ... فَتحتُ عينيَّ ولم أر شيئًا .

(١) مَحْجِر العين : تجويف العين داخل الجمجمة - (المترجمة) .

ثم شعرتُ بشخص يُنزلُني لأسفل .. يُدليني إلى قبري داخل صُنْدُوق من خشب الصنوبرِ .. في عُلْبَة كَبِيرَة من الخشب !

أجل ، لا بد أن أُدْفَنَ في يومٍ ما ، ولكن لَيسَ في تابُوت !! لقد حَشروني داخل الصندوق .. في الحقيقة لقد قاموا بحشو الصندوق بجسدي . وأنا لا أُكْتَرِثُ لكونهم يَدْفنونَني حيًّا ، بل للطريقة التي يَدْفنونَني بها !! على أية حال ، سَأَبقى حيًّا ولو لمدةٍ قصيرة فقط ... وهم حتى الآن لم يدفنوني ... كل ما هنالك أن ارْتجاج الصندوقِ واهْتِزازه قد تَوقُّفَ ولكن حتى الآن لم تبدأ عملية نثر أكوام التراب فوق الصندوق .. حتى الآن لم أشعر بأكوام التراب وهي تنْهالُ عليَّ مِنْ أعلى لتبدأَ بالتَرَاكم فوق الصندوقِ .

لا شيء ..

فتحتُ عيوني مرة ثانيةً ... لا شيء . لم أَرَ أيَّ شيء ولم أَسْمع صوت التراب المنهمر على صندوقِي .

فقط الظلام ... لا شيء سوى العتمة ..

بدأتُ بالسبِّ واللعان ! اللعْنَة على الروس الأشرار !!

أدركتُ أنني هنا .. حيًّا ! في الأسرِ الروسي ، في ليلةٍ حالكة أشد ظلامًا مِنْ أعمقِ نفق في منجم (ساس) ، حيث يتوارى الموت الأبيض في جوف المنجم مُنذ قرون طويلة متنكرًا في شكلِ غبار صخري ، الموت الذي يمكث في حنايا المنجم متَرَبِّصًا برجالِ (سربرينيتسا) الذين كَانوا يبحثون عن عروقِ الفضةِ والذهب التي تَمتدُّ خلال الصخور ... إنه الموت الأبيض ... دائمًا في انتظارنا !

ومرة أخرى ؛ حلمتُ بِأَنِّي أَحتضر وسط الجليد ... لكنني لم أكن أَحْلمُ . في الواقع كنت أحتضر بالفعل مُتجمدًا في أحضان عاصفة ثلجية فوق جبال التاي .. تذكَّرتُ كَيفَ نَجوتُ من حراب الفترة الأخيرة من زمن الحرب .. وكنتُ مُقتنعًا بأنني نجوتُ لأنني لَمْ أُجهز على ذلك الرجلِ الذي لم يكنْ روسيًّا . ولهذا غمرني شعورٌ لذيذٌ بالأمانِ وبأنني سَأتغلبُ على الموتِ الذي يكمن في انتظاري فوق قمم التاي .. حدثتُ نفسي بأنني سأنجو بحول اللّه وقوته .. لا بُد أن يُنجيني اللّه لأنني قد اكتَسبتُ العفو مِن اللّه عندما عفوت ولَمْ أَقْتل الرجلَ ذا الشمسين في عينيه !!

كنت على يقين من أنني - بعد مرور العديد مِن السنوات - سأكون حيًا أُرزق في بلادي البوسنة ، وسوف أُخيفُ زميلي ورفيق سلاحي إلى حد الرُّعب .. زميلي الذي كان معي في ذلك الخندقِ عند منتصفِ النهار .. كان قد جاءَ إلى (سربرينيتسا) قاصدًا نبع (غوبر) (١) لأجل التداوي والمُعَالجَة من مرض فقرِ الدم (الأنيميا) (٢) . وعندما تعرف إليّ وضحَ لي أنّه عندما وصل إلى (سربرينيتسا) كَانَ يُحاول أن يَسْأل عن عائلتِي ، وأخذ يسأل أهالي (سربرينيتسا) عما إذا كانوا يعرفون أين قُتِلت حتى يُخبرهم إن لم يكونوا يعرفون .. لَكنَّه لَم يكن يَعْرف الكثير عني . حتى إنه لَم يَكن يَعْرف اسم عائلتي ؛ لذلك لم يَستطع أَنْ يَستفسر عن عائلتِي ولم يهتد إليها . على أية حال ، كُنّا قد قضينا معًا فترةً قصيرةً جدًّا كمُجندين في فترة الحرب . قال إنه يذكّر فقط أنّني كُنْتُ مِنْ (سربرينيتسا) .. وأنه نسيَ الأسماء لكنه لا يزال يتَذكّر الوجوه ... وأن وجهي بالتحديد هو الأكثر بروزًا على سطح ذاكرته . وكان يتَذكّر جيدًا ما قِيلَ عن الرجل الذي ماتَ بعد المعركةِ الأخيرةِ مَع الروس في الحرب العالميةِ كَان مِنْ (سربرينيتسا) !!

كانت إمبراطورية النمسا والمجر قد أنهت الحرب مَع الروس مُبَكّرًا ، ولكن في ذلك الوقت لم يتيسر وصول تلك الأنباء إلينا - وكيف لها أَنْ تجد طريقًا إلى ذلك الجزء مِن الجبهةِ الذي كنا نتموقع فيه - على أي حال وصلتنا الأنباء لاحقًا - تقريبًا عندما كان قائدي (عبد الرحمن) يقودني على امتداد ذلك الطريقِ الملتوِ في مُؤخَّرَة

---

(١) تكثر في البوسنة ينابيع المياه الطبيعية التي تتميز بغناها بالأملاح المعدنية وبدرجة حرارتها التي تصل إلى خمس وثلاثين درجة مئوية ، وتستثمر هذه المياه في فنادق علاجية لتطبيب عدة أمراض جلدية وعصبية . وكان النظام اليوغوسلافي السابق واعيًا لأهمية ينابيع الماء الطبيعية فأقام بالقرب منها فنادق واستراحات لا تزال تزاول عملها حتى اليوم - (المُترجمة) .

(٢) الأنيميا (Anemia) : نقص كرات الدم الحمراء في الدم أو صغر حجمها جدًّا أو احتواؤها على كمية ضئيلة من الهيموجلوبين بحيث لا يستطيع حمل كمية كافية من الأوكسجين للخلايا ، وكلمة الأنيميا لا تُعبر عن مرض واحد ، بل عن مجموعة الأمراض التي تنتج عن فقر المواد الحاملة للأوكسجين والتي تؤدي إلى شحوب الوجه وضعف الجسم بشكلٍ عام . ولا تعتبر الأنيميا في حد ذاتها مرضًا ولكنها تتسبب في حدوث كثير من الأمراض . وللأنيميا أنواع عدة ؛ منها : الأنيميا الناتجة عن نقص الحديد سببها نقص الفولاسين أو فيتامين « ب ١٢ » أو عجز الجهاز الهضمي عن امتصاص أيٍّ من هذه العناصر وهناك أنواع أخرى من الأنيميا سببها وراثي - (المُترجمة) .

الجَيْش - وبمجرد أن اكتشف رجالنا نبأ انتهاء الحرب - وكَانَ لدَيهم الوقتُ الكافي للتخلُّص مِن الأشياء التي لا حاجة لهم بها وترك المكان بعجلة - بَدأوا بدون لحظةِ تأخير واحدة في التخلي عن ميدان المعركة ، وفي لحظة واحدة كانوا قد تركوا ساحةَ المعارك التي استمرت لسَنَوات .. وقد فعل الروس كما فعلنا .. انطلقوا في طريقهم .. وذهب كلٌّ في سبيله .. وكما عَمِلنا نحن ، جَمعَ الروس جُثث قتلاهم .. وقذفوا بي بسرعة على ظهر العَرَبَة حيث لم يتسنَّ لرفاقي أن يلتقطوا جثتي سريعًا .. كانوا يتعجلون مُغادرة ميدان القتال بأسرع ما يمكن ويبدو أنه لم يكن هناك من الوقت ما يكفي لالتقاط جثتي وقذفها بسرعة فوق العربة التي كانت تجمع الجثث !

لاحقًا ، وبَعْدَ أَنْ أدركَ الروس بأنني لم أكُنْ ميتًا وأنني كُنتُ أتحركُ ، وَضعوني مَع السجناءِ الآخرين ، وبما أنني بقيتُ حيًا ، فقد نجوت . وبالنسبة لهم أن أظل حيًا فذلك أفضلُ على أية حال من ألقى حتفي .. بالطبع فسوف يربحون خادمًا إضافيًا يكدَح لأجلهم ويُلقي حياته تحت نعال أمجادهم .. إذن فلا بأس بمزيد من العبيد !! وهكذا كدسونا في عربة الماشية ودَفعوا بنا إلى مؤخرةِ الاتحادِ المُتَنَامِي للجمهورياتِ الاشتراكيةِ السوفيتيةِ ... قذفوا بنا في قَفا ذلك الاتحاد المُسْتَفْحِل .. في (تو تُمسك مسك غوبرنيا) ! .. وحتى عندما انطلقتُ هاربًا ذَهبتُ بعيدًا جدًّا جدًّا عن موطني .. كنتُ أبتعدُ كأقصى ما يستطيع المرء أَنْ يَبتعد عن البوسنة ... فررتُ مِنْ هناك ، مِنْ (فرهوفسك) قُرْب (فلادفُستُك) مُعتقدًا بأنني كنتُ في طريقي إلى (خُراسان) ، مسقط رأس القائد (عبد الرحمن) .. ذلك العجوز الطيب ، وَلكن انتهى بي المطاف أخيرًا في أحضان جبالِ التاي !

كُنا نُسافرُ لشهور ، على امتداد (منشورية) بالقرب من حدودِ (روسيا) و (الصين) ، ثم بمُحَاذاة (منغوليا) . وقوفًا بالعديد من الأماكن .. كنا نتوقف مرارًا وننتظر لعدة أيام .

وقد استرحنَا تمامًا في المحطةِ الأولى التي مررنا بها . وانتظرنَا لعِدة أيام إلى أن نجحت كتيبة الحراسة المُرَافِقَة لنا في الاتصالِ برَجل المَبَاحِث الذي سيقوم بالتحقيق معنا في (فلادفُستُك) .. أخبروه بأننا قد وافقنَا - بسبب البرودةِ القارسة - على أَنْ نُنقل في عربة الشحن التي تُشبه الصندوق ! ولَم ننتظرْ طويلًا بعد ذلك حتى تصل عربتنا ...

وكان خُطّاف عربتنا يُحلّ ويتم تثبيته ثانيةً في محطات القطارِ المختلفةِ التي كنا نمر بها ... ثم تنحل من جديد وتُثبت في قطارٍ آخر وهكذا باستمرار . لكنَّنا كنا دائمًا نتوقف وبانتظام في كُل محطة .

وبعد أن مَررنَا على طولِ الحدودِ المنغوليةِ الشماليةِ بالكامل .. أدركت حينها أننا كُنا في طريقنا إلى (كازاخستان) ، التي كَانتْ أقربَ مرتين إلى (إيران) مِنْها إلى (فلادفُستُك) .. وما أن عبرنا جبلَ (تانو أولاه Tannu ola) وتَركنَاه خلفنا ، حتى توقفنا للمرة الأولى في مكان لم يكن فيه محطة قطار ... قاموا بحل مقطورتنا وفكوا خُطافها .. وغدت لأولِ مرة حرةً – غير مقطورة – وحدها في الهواء الطلق على خط السكة الحديديةِ الذي يمتد بين (أولان أوده) و (إركُتسك) في الاتجاهِ الغربي .. وشرع القطار الذي كَانَ يجر عربتنا خلفه في التحرك غربًا نحو (إركتسك) .. بدأ يَنسحبُ مُخلفًا عربتنا وراءه ... وكَانَ جنود الحراسة يُلوحُون لنا مِنْ داخل القطارِ المُتحرك .

ماذا هذا الذي يحدث ؟ لماذا اعتنوا بنا طوال هذه المدة الطويلة ؟ كان بإمكانهم أنْ يَحلُّوا سيارتَنا في أي مكان حيثما أرادوا . لَكنَّهم استمروا في سَحْبنا وجر مقطورتنا مَعهم .. يحلونها ويُعيدون ربطها مرارًا وتكرارًا . وكَانوا يترَفقون بنا بل كانوا لُطفاء معنا كألطف ما وسعهم أَنْ يَكُونوا .. وتَصرفوا معنا كما لو كانوا خَدَمًا يعتنون بنا أو حاشِيَة ملكية تعمل على حراستنا وتأمين الطريق لنا ولم يتصرفوا كحُراس قساة غلاظ القلوب !! ويُمْكِنُ للمرء أن يتساءل أكثر .. لماذا كان الكثيرون منهم يركبون معنا في مقطورتنا التي كَانَت الأخيرة دائمًا على الرغم من أنَّهم كان بوسعهم أنْ يَرْكبوا بارتياح أكثر في مُقَدمَة القطارِ ؟! وأحيانًا فقط ، كان البعض مِنْهُمْ ينتقل لعِدة مئات من الكيلومترات إلى مُقَدمَة القطار ... وقد اعتدنَا على بعضنا البعض وأَلِفنا وجودهم معنا لدرجة أننا في نهاية الرحلة لم نلاحظ متى تسللوا جميعًا وغادروا عربتنا ليلتحقوا بالقطار المُغادر ! ..

وهكذا قضينا ليلَتنا في الخلاء داخل عربة مهجورة على الطريق .. داخل العربة التي خلَّفها القطار على خط السكة الحديديةِ .. وانطلق رشيقًا سعيدًا كما لو كان قد تخفف من حمولة لا لزوم لها ..

وجدنا أنفسنا في قلب بقعة من الأرض فسيحة جدًا ومُتَرامية الأطراف ، مسَاحَة معزولة من الأرض الجرداء المُقفرة ، كان المكان مُوحِشًا ومَهْجُورًا يبعث على الغم ويستجلب كل صنوف الكآبة من أصقاع الأرض البعيدة .. وحولنا كَانت الرياح الباردة تصفر ، وما أن يتجاسر أحدنا على إخراج أنفه خارج الباب حتى يتجمد الهواء داخل فتحات أنفه ، ولِهذا كُنا نُفضل أن يُمزقنا القطار المُقبل في اتجاهنا إلى أشلاء وقِطَع صغيرة من اللحم على أن نُغامر بالخُرُوج من عربتنا لبعض الوقت في ذلك الصقيع المُهلك .. واستطعنا بالكاد أَنْ نَنتظرَ إلى بزوغ الفجرِ .. وخوفًا من القطار القادم نحونا ؛ قَفزنَا بسرعة مِن العربة وبَدأنَا بالتحرك باتجاه التلال المرتفعة .. كان كل ما حولنا شاهقًا جدًا .. جبال مُنتصبة وشامخة من كل اتجاه ومن الصعب جدًا الصعود على أيٍّ منها .. لا شيء سوى الجبال وخطوط السكة الحديديةِ ذات الاتجاهين .. ولكن حتى تلك المسارات الحديدية المُمتدة على كلا الجانبين كَانتْ تَختفي وسط التلالِ .. ولا يبقى سوى الجبال .. ثم الجبال ... في كل المكان ... لهذا لم يكن أمامنا من خيَار .. اخترنَا أن نشق طريقنا صعودًا إلى أعلى وكان علينا أن نتسلق فوق جبل شديد الانْحدَار عسير المُرْتَقى ، ولكن بسبب بَرِيق لَمَعان الثلج الأبيض المُتَلألِئ الذي كان يلمع في أَحداقنا تصورنا أنه الجبل الأَقل انحدَارًا وبدا في أعيننا وكأنه الجبل الوحيد الذي يُمكننا صعوده .. وأننا سنَستغرقُ أقل ما يُمكن مِن الوقتِ لكي نصعده ثم نصل فوق التلة حيث سنجد أنفسنا بين أشجار التنوب وسَتَكُونُ البرودة أقل قليلًا ... كَانتْ جفوني تتَثاقل وترْتخي فوق حدقة عيني حتى بمجرد أن أُفكر في أن أميل للخلف إلى جذع شجرة التنوب وكنتُ أتصور كيف سيَقْفزُ الأرنب - ساكن الشجرة - من جُحره الناعِم المُريح .. ويجري هاربًا أمامي .. لأستولي أنا على ذلك الملجأ المفروش بأوراق شجرة التنوب الإبْرية الجَافة والمُغطى بالفروعِ الوطيئة لشجرةِ التنوب ... وهل هناك خيمة ألطف مِنْ تلك المصنوعة من الفروعِ الوطيئة التي تتفرع في الجزء السفلي لشجرةِ التنوبِ ؟!

ولكنني كنت أفيق من نومتي الحالمة عندما أتذكر فجأةً أن تلك الخيمة البديعة توجد في البوسنة .. أما هنا في حضن هذا الجبلِ الضخمِ فقد جمَّد البرد القارس الفروع السفلى لشجرةِ التنوب وسحقها الصقيع تمامًا .. وبَقيتْ فقط الفروع التي على القمةِ ... نجت وحدها من بطش الصقيع .. إذن ما من ملجأ يمكننا اللجوء إليه

لالتقاط أنفاسنا وأخذ قسط من الراحة .. ولِهذا السبب واصلنا المسير .. بقينَا نمشي في انتظار أن يطلع سنا الفجر .

ومع حلول وقت صلاة الفجر ؛ وَجدنَا أنفسنا في غابة مأهولة بعدد ضَئِيل من السكان المُوزعين بشكل متناثر . وكانت أشجار الغابة مُتباعدة تفصل بين كل منها مسافة تُقدر بنحو خمسين خطوة ... والريح باردة جدًّا لدرجة سببت الشلل لأطرافي .. قبل الآن كنتُ أحس بكل جزء مؤلم في جسدي .. كان بوسعي أن أُحدد بالضبط مكان كُلِّ رصاصة وكل شَظِية اخترقت جسدي .. وكان الجرح الأخير الذي أحدثته رصاصة في ظهرِي يُمثل أقل آلامي وأوجَاعي التي أشعرُ بها ... وكأن الرصاصة لَمْ تخدشني ولم تحدث حتى سَحجَة [1] بسيطة في جسمي ، لم أحس بأيِّ ألمٍ ، لدرجة جعلتني أعتقدُ بأنَّ الرصاصةَ خرجت دون أن تُخلف وراءها أثرًا لجرحٍ يدل على مكان خروجها . ولكن في تلك الغابة وبسبب الصقيع الشديد ، كَانَ ذلك الجرح البسيط في ظهري يَلْسعُني ببرودتِه أكثر من أي جرحٍ آخر !

أخبرتُ رفاقي البوسنيين بأنَّنا سوف نؤدي صلاة الفجر جماعة . طلبتُ من كُلِّ واحِدٍ منهم أن يُحَاول الاختباء خلف أقرب شجرة ، وأوضحتُ لهم أن على كُلٍّ منهم أَنْ يلتمس ملاذًا آمنًا وراء شجرة من أشجار التنوب وأن يصلِّي مَحْمِيًا [2] بتلك الشجرةِ .

وافق رفاقي دون أن يتفوهوا بكلمةٍ واحدة ..

كنَّا بحاجة ماسة للتضرع إلى اللّهِ تعالى ... نحن الأغراب المنقطعين في هذه البريةِ الموحشة .. وسط هذه الفلاة النائية نشعرُ بالحاجة إلى الصلاة .. أعتقدُ أن أحدًا منا لم يشعر بتلك الرغبة المُلِحَّة للصلاة وتلك الحاجة العاجلة لمناجاة اللّه قبل الآن ... حتى أولئك الذين كانوا يَتغيَّبونَ عن أداء بعض الصلوات اليوميةِ والذين تفوتهم فروض الصلاة دون عذر مُبررين تكاسلهم بالقول بأنَّهم سيؤدون الصلاة لاحقًا .. حتى أولئك الذين لم يكونوا في الأحوال الطبيعية يكترثون كثيرًا بأمر الصلاة كانوا يتيممون بالثلج ويتهيأون للوقوف بين يدي اللّه تعالى ... وهكذا وقف البوسنيون

(١) سَحجَة : كَشط أو خدش سطحي بالجِلْد - (المترجمة) .

(٢) مَحْمِي : تَحْتَ الحِمَايَة - (المترجمة) .

الثمانية جميعًا في انتظار أن يخروا ساجدين للّٰه تعالى فوق السجادة البيضاء الكبيرة المصنوعة من الثلج .. ثبت كل واحد منهم فوق السجادة الثلْجية في سكون مهيب .. يا إلهي كم كَانَ ذاك المَنْظَر بديعًا .. كم كان رائعًا !!

كان عليَّ أنْ أَبتعدَ أكثر عن بقيةِ المجموعة وأن أتقدم للأمام حتى أعثر على شجرتي ، كنت أبحث عن شجرة تتقدم على أشجار رفاقي لكي يمكنني أن أكون إمامًا وأن أُصليَ بهم صلاة الفجر في جماعة ... أعدتُ النظر للخلف لأرى ما إن كنتُ بحاجة إلى - أَو بالأحرى ما إن كان بوسعي - أن أسوي صفوفَ المُصلين وأصْلحها . حدَّقتُ في رفاقي البوسنيين . أردتُ أن أُلقي نَظْرَة عليهم لينشرح صدري ويُسر قلبِي بمنظرهم وهم يستعدون للصلاة ... وقد نجح ذلك المشهد بالفعل في أن يُزحزح صخرة الوحشة والغُربة عن قلبي .. وتنفستُ شيئًا من الراحة وغمرني الابتهاج ... لقد حرك مشهد التهيؤ لأداء الصلاة وجداني وامتلأت روحي بالعاطفة ... كم كانَ ذلك مؤنسًا وبهيجًا !! كم كان جميلًا ولَطِيفًا أن أنظر إليهم وهم وقوفٌ في ذلك البَلْقَع الموحش .. يفترشون تلك السجادة الثلْجية وينتظرون تكبيرة الإحرام .. وكم آنسني منظرهم المؤثر وهم جاهزون لأداء صلاة الفجر وسط هذه البريةِ النائية .. التي يبدو أنها تُركت هنا خارج العالم ونسيها الزمان ... تلك المنطقة الخُرَافية تقريبًا ! وللحظة ، اعتقدتُ أنني سَمعتُ صوت خشخشة ، شيئًا يُصدرُ حفيفًا من نوع ما .. لا بدَّ أنني كنتُ أتَخيل ذلك أو أنني توهمتُ وجود ذلك الصوت .. طردتُ ذلك الهاجس من ذهني وناديت جاري (شيمسي بيك) ابن بلدة (روجاتيسا) وطلبتُ منه أن يقوم بدور المؤذن .. طلبتُ منه أن يرفع الأذان ...

« **اللّٰه أكبر** ! » ...

وفجأةً دَوَّت الأحراج [١] .. وتَرَدَّدَ صدَى الصَّوْت في جنبات الغابَة !

يا إلهي .. كَم هذا جميل !

كَانَ كافيًا جدًّا أَنْ يُلْفَظَ النداء القدسي « **اللّٰه أكبر** » مرَّةً واحدة فقط حتى تُكمل

(١) الأحراج : أشجار الغابة - (المترجمة) .

التلالَ ترديد النداء ثلاث مرات .. ليس فقط لثلاث مرات لإتمام الأذان .. بل لثلاثين أو لثلاثمائة مرة .. وهكذا دَوت تكبيرات مؤذننا القادم مِنْ (روجاتيسا) في أرجاء الغابةِ البعيدة وتَرددت التكبيرات على بعضها البعض . وأنا أيضًا أطلقتُ لصوتي العنان وتلفظت بالنية :

« بسم اللَّه ، نويتُ أن أصلي صلاة الفجر ! » .

وما إن انتهيتُ من أداء ركعتي السنة وسلَّمتُ عن يميني ويساري ، حتى وقع بصري على تلك الكائناتِ الغريبةِ !! أبصرتها فقط في تلك اللحظة .. لم ألحظها قبل الآن .. وربما تجسدت أمامي فجأةً في تلك اللحظة .. كانت تصطفُّ خلفي ... عن يميني وعن شمالي وبقدر ما يُمْكِنُ لعين الإنسان أَنْ تَصلَ ، كانوا مصطفين في صف واحد مُتصل .. غير محميين بأشجار التنوب .. أجل كانت تلك المخلوقات العجيبة تَقِفُ خلفي مباشرة ...

قلتُ لنفسي : لا بد أنهم منَ الجن ! ، لا يُمكن أن يكونوا شيئًا غير ذلك ... يا إلهي .. يا اللَّه يا رحيم ، لقد أتيت بنا إلى أرضِ الجن !!

كانوا يَلْبسونَ قبّعات غريبة من الفراءِ وكذلك كانت سراويلهم وأحذيتهم ذات الرقاب الطويلة ... كان لِبَاسهم المُوَحّد غريبًا ومُثِيرًا لِلْعَجَب ... مخلوقات مُشْعِرة بالكامل ... كائنات يُغطي الفرو كلَّ جسدها كالدببة تمامًا .. بالكاد يُمكن لجزء صغيرَ فقط من وجوه تلك الكائنات أن يُرى .. ومِنْ ذلك الجزء الصغير كان يُطلُّ شيء .. شيء يَبرق ... يُشبه العيون !! ..

يا اللَّه يا قوي ... ساعد عبدك الضعيف ! نحن عبيدك ودومًا تحت تصرفك ورحمتك ! اللَّهم إن كان قدرك أَنْ نَمُوتَ الآن ، فليَكُن ذلك أثناء الصلاةِ ... بينما نحن وقوف بين يديك .. وكبَّرتُ مُفتتحًا الصلاة : « اللَّه أكبر » ! .. قلتُ لنفسي : ها قد حانت اللحظة المناسبة لإنقاذنا مِنْ عذابات هذا العالم وجاءت لحظة عتقنا منه ... اليوم سيُنهي الموت غُربتنا ... وسيُكافئنا اللَّه بالموتِ أثناء الصلاةِ .. سنلقى اللَّه ونحنُ نُصلي .. ربما لم نكُن محظوظينَ بما يكفي لأن نمَوت في ساحة المعركةِ – وهُو سببٌ كفيل بأن يقذف بنا في غمضة عين إلى الفردوس الأعلى من

الجنة - لم نكن محظوظين بما فيه الكفاية لأن نُصبحَ « شهداء » . ولكن حتى أولئك الذين عَانوا في هذه الدنيا سيحظون بالجوائز السماوية وسيحصلون على الأجْر والثوَاب من اللّه وإن لم يموتوا شهداء ... ونحن أبناء الشعب الذي نال ما يكفيه مِن الألم والعذاب في هذه الدنيا .. بل إنني لا أَعْرفُ أيَّ شخصٍ على قيد الحياة تَحَمَّلَ ما تَحمله البوسنيون في الحرب العالميةِ ، ولا أعلمُ أحدًا عانَى وكابَدَ ما لقيه أهل البوسنة من عذاب في تلك الحرب .. ولكن عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، والخير ما اختاره اللّه لنا . وقد مات كثيرٌ من الصالحين منهم وهم في طريقِهم إلى المسجدِ ، أو في صحن المسجدِ أَو أثناء الصلاةِ .. ولهذا فلن أَقْطع الصلاةَ ولن أقصرها مهما كان عدد ركعاتها ! قلتُ ذلك لنفسي أثناء إقامتي للصلاة واستحضار النية لصلاة الفريضة :

- « بسم اللّه نويتُ أصلي صلاة الفجر ! » .

نهضتُ مِنْ فوق السجادة البيضاء واسْتَرَقتُ النَّظَرَ ... نظرتُ بزاويةِ عينِي ... لم أَرَ أحدًا من الكائنات المُشْعِرة التي كانت تَقِفُ مُنْتَصِبةً خلفي ... حاولتُ أن أختلس نظرة ثانيةً للخلف . إنهم يَتبعونَني ويأتمون بي ! إنهم يُصلُّونَ خلفي !

قُلتُ كعادة الإمامِ عندما يُنهي الصلاة :

- « السلام عليكم إخوتي ! » .

ومددتُ يَديَّ إلى الكائناتِ المُشْعِرةِ مُصافحًا ..

أجابوني :

« وعليكم السلام » .

يا للهول .. إنهم مَخْلُوقَات بَشَرِيَّة ... كائنات بشرية ! ... إنهم بَشَر ... بشر !! ...

بشرٌ يرتدون الفراء ويغطون به كلَّ جزء في جسمهم ... عدا ذلك الجزء الصغير في وجوههم ... ومِنْ ذلك الجزء الصغير البارز من وجوههم المكسوة بالفرو أبصرتُ عيونهم المائلة ... كما لو كانوا منغوليين ... لكنهم لَيسوا كذلك .. ويبدو أنهم كانوا يتظاهرون بأنهم يُصلُّونَ مَعنا ، وبدلًا مِن ذلك فإنَّهُمْ سَيَحزُّونَ رقابنا فورًا ! .

وحتى عند آخر حدود مُصلانا الثلجي وخلف آخر بوسني في صلاةِ الجماعة كان هناك صفٌّ كامل مِنْ تلك الكائناتِ المُشْعِرةِ ... كان هناك زُهاء الخمسين منهم !!

وفي غَمْضَة عَيْنٍ ، هبَّت الكائنات المُشْعِرة وخرجوا جميعًا مِنْ صفوفِ الصلاة وقاموا بتشكيل دائرة حولنا ... قاموا بسَجننا وحَبسنا داخل تلك الحلقة من البشر المكسوين بالفراء كالدببة ! وبَدأوا بالتحَرُّك .. قاموا بدفعنا وسط الدائرة باتجاه أسفل التَلّ . وكلما تقدمنا أكثر كانت الغابة تزداد كثافةً .. ثم أعادوا التجمُّع ثانية في شكل طابُور واحد ووَضعوا تسعة منَّا بينهم ..

حاولنَا التحدث إليهم بالروسية وبالألمانية والبوسنية ، لَكنَّهم لم يَردوا علينا بأي جواب ، ولم يُشيروا إلينا بأية طريقة تُفيد بأنهم فَهموا شيئًا ... أَو حتى لَمْ يَفْهموا شيئًا مما كُنا نَقُولُ .. فقط استمروا بالمشي ... وقد حاولتُ أن ألتقط أي تعبير من عيونهم أو من ملامح وجوهِهم ولكن دون جدوى .. كانت عيونهم - الجزء الوحيد الظاهر من كيانهم - جامدةً لا توحي بشيء .. كما لو كانت قطعًا صغيرًا من الزجاج ... ثم تيقنتُ فيما بعد من أن هؤلاء القوم لا يَستطيعُ المرء أَنْ يَقرأَ أيَّ شيء مِنْ عيونِهم التي لا يُمْكن أنْ تُصفح عن أي شيء أكثر من مجرد وجودها في وجوههم !

لم نكن قد سرنا لمدة طويلة عندما انفتحتْ الغابة فجأةً أمامنا وظَهرَ أمام أعيننا ذلك المَشْهَد الذي جَعلَني أعتقدُ بأنَّ كُلَّ هذا كان من عَمَل الجنِّ ، أو أننا قد مِتنا ونحن الآن في العالم الآخر .. أو أننا كنا نحلم وأننا نمْشي خلال الحلم ؟! انْبَثَقَت أمام أعيننا البلدة الأكثر عَجبًا وغرابة ، بلدةٌ مُكتظة بخِيَم الفراءِ . وكانت ألسنة النيرانِ تتصاعد على نحوِ مُلْتوٍ ومُتعَرج في الهواءِ ... والبَشَر المُشْعِرون المكسوُّون بالفراء يَحومون في أرجاء تلك البلدة ... ويتحدثون . يُمكنني أَنْ أَقُولَ بأنهم كَانوا يَتشاركونَ في كُل أنشطتهم اليومية .. ولكن كيف لي أن أقول كذلك .. إن المرء قد يَفترضُ ذلك في الظروف الطبيعية فقط ... أما هنا فلا مجال لتلك الافتراضات ... إنها « مدينة الجنِّ » تنتصبُ أمامنا !

كَانتْ تلك هي أرض « بورياتيا » [١] ، كما اكتشفتُ لاحقًا ، شعب بَدَوِيّ يرعى الماشية . لَكنَّهم ليسوا من الشعوب الرعوية الرحَّالة ... لم يكونوا يتَنقَّلون ويُسافرونَ بماشيتهم .. بل كانوا يُفتِّشونَ عن الحيوانات البريَّة ويقومون بمُطَارَدَتها

---

(١) جمهورية بورياتيا : تقع شرق سيبيريا . سبقت ترجمتها .

ومُلَاحَقَتَها ثم صيدها ... ومِنْ فرائها كانوا يَصنعونَ ملابسَهم وخِيَمَهم وأغطيتَهم وبسطَهم (١) . إنه موسم الصيْد بالنسبة لهم . حيث يَنْزلونَ مِن الجبلِ في أواخر الربيع ويُتاجرون ويُقايضون بفرائهم . كانوا يتعايشون على الحيوانات البريَّة أيضًا ، لَكنَّهم لا يَأْكلونَ الميتةَ .. فهم مسلمون ! مسلمو أقصى شمال العالمِ . المسلمون الأبعد بِاتجاه الشمال لدرجة أبعد مِن البوسنة . ومساجدُهم كمساجد البوسنة أيضًا ... لها مآذنٌ يكسوها الثلج ... مساجد بيضاء تُحاكي بياضَ الثلجِ !! .

إنهم المسلمون الذين ذَكرهم ذلك الباحِث من (فلادفُستُك) !

ولِهذا السبب لم يؤذونا ولم يمسونا بأيٍّ سوء . لَكنَّهم قادونا إلى تلك القرية وسط الغابة دون أن يشتركوا بأي محادثة مَعنا . وفيما بعد اكتشفت أيضًا بأنَّهم كَانوا على علم بوجودنا منذ أن تَوقَّفتْ عربتنا . وكانت دورياتهم تقوم باستطلاع المِنْطقَة ليلًا ونهارًا . وقد رَأوا أيضًا متى حُلَّتْ عربتنا من القطار . وكانوا يزحفون أقربَ ليرَوا بأم عيونهم أن العربة لم تكن فارغة ، لقد وضعونا تحت المُراقبة . وبمجرد أن تَركنَا العربة - قبل الفجر مباشرةً - أعلمتْ دوريتهم زعيمهم بذلك فأرسل مجموعتين من الرجال ، تتكون كُلُّ مجموعة من حوالي خمسين رجلًا لأَسْرنا . وَقعوا علينا بينما كُنا نصلي ، وابتهاجًا بالمشهد الذي رَأوه ، سَمحوا لنا بإتمام صَلاتنا بسلام .. وبعد أن انتهينَا من أداء ركعتي السنة قبل صلاة الفجر (صلاة النافلة) وبَدأنَا نصلي الصلاة المكتوبة (ركعتي الفجر) ، لَمْ يحرموا أنفسهم مِنْ فرصةِ الالتِحاق بصلاتنا ... لم يفوتوا فرصة الانضمام إلينا في صلاةِ الجماعة .

كان هناك المزيد والمزيد مِنهم ... وليس لدينا أي فرصة للهرب . لِهذا تركونا نُنهي صَلاتنا . إلا أن الشكوك بَدأت تُساورهم . ففي البداية شعروا في قلوبهم بالسعادة والسرور لمقابلة أناس مسلمين ، لكنَّهم لم يسبق لهم أَنْ صادفوا مسلمين بمثل هذه المواصفاتِ ، بالرغم من أنهم لم يستبعدوا احتمال وجود مثل هؤلاء المسلمين خلف جبالِ التاي . ولِهذا السبب لَمْ يَقْتُلونا . ولكنَّهم أرادوا قَتْلنا بالفعل لأنهم رَأوا أننا صَلّينَا صلاة الفجر مرَّتين .. ركعتين ثم ركعتين .. وصلاة الفجر ركعتان فقط .. إذن فلا بد أَنْ نَكُونَ جواسيسَ ، لا بد أننا من الروس المُتسللين ! ..

(١) بُسط : جمع (بِسَاط) وهو السجَّادَة أو الحصِيرَة تُفرش على الأرض - (المترجمة) .

ألم يرتَوِ الروس من دماء قبيلة البوريات بما يَكْفي ؛ لذا جاؤوا لإنْهائهم والقضاء عليهم تمامًا ؟ ولهذا اخترقوا المكان مُتَخَفِّين .. وتَنكّروا في هيئة رجال مسلمين يصلُّونَ فوق الثلجِ وسط الغابةِ ! وقد حَسِبوا أننا - نحن الجواسيس - تعمدنا أن نُؤدي صلاة الفجر مرتين ... وقمنا بإضافة ركعتين إضافيتين لأن ركعتينِ فحسب للفجر لا يكفيان لكي يُعجبوا بوَرَعنا وتَقْوَى قلوبنا .. وظنوا أيضًا أننا قد أُرسلنا إلى أرضِهم لكي نَجمع المعلومات ونكتشفَ كُلَّ شيء حول (بيبي هاديدز) ابنِ الخان ! لا بد أن الروس قد كشفوا أمره وفَهموا لُعبتَه وأدركوا مَنْ يكون ، ولا بُد أنه قد ابتعد وفر هاربًا منهم بعد أن أدرك أنهم قد اكتشفوا حقيقته وبأنهم فضحوا أمره !

وقاموا على الفور بتوضيح المُعْضِلَة التي يواجهونها بسببنا لزعيمِهم .. وفسروا له لُغْز وجودنا في أرضهم ..

ضَرَبتُ ضربةً على الأرض مؤديًا التحية العسكرية لزعيمهم وقلتُ :

- (رحمن بك جوزو) جندي نمساوي ! .

أجابَني الرجل العجوز بطريقته الخاصة .. قام - بحماسةٍ ونشاط - بضمِّ نعلي حذائه المصنوع من الفرو معًا ، ودفع بصدره للأمام واضِعًا قبضتَه اليُمنى على قلبِه ..

سألني :

- « أأنت ترتيٌّ ؟ » .

- « نييت ! » [1] ... « بوسني ! » .

- « بوسني ؟! » .. كرَّرها وهو مُتَجَهِّم الوَجْهِ مُقَطَّبُ الجَبين ..

ثم بدأ يَفْقدُ صبره . لا بد أنَه لم يفهم أن ما نطقت به هو اسم شعبي .

تمامًا كما سَتَكُونُ هذه المرة الأولى بالنسبة لي أيضًا التي أَسْمعُ فيها اسمَ شعبِهِ .

- « مسلم ! » .. قُلتُها بعجالة .. وأردفتُها بـ « مؤمن ! » أيضًا ..

رفض بحدةٍ وصرامة كلَّ ما قُلتُه وصرخ بي قائلًا :

- « نييت ! » ... . « أنت لست مسلمًا ! بل أنت روسي ! » .

وأشار إلى رجاله بإصبعِه ليأخذونا بعيدًا .

---

(١) نييت (Njet) : كلمة روسية معناها (لا) - (المُترجمة) .

حاولتُ المقَاوَمَة ... ورأيتُ أن أفضل طريقة لإيقاف أمر الزعيم هي إصْدار أمر لرفاقي بالتكبير :

- « تكبير ! » .

فهتف زملائي البوسنيون مجتمعين :

« اللّٰه أكبر ! اللّٰه أكبر ! اللّٰه أكبر ! » .

تذكرتُ أنّني قد شَهدتُ مثل قوّةِ هذا التكبير في منامي فقط .. عندما كنتُ أحلمُ بـ (سربرينيتسا) .. كنتُ قد سمعتُ مثل ذلك التكبير القوي يصدح مُدويًا من المكان الذي يُفترض أن يكون فيه مسجد (ريتسيكا) ..

لا يَستطيعُ المرء أن يتَخَيل حجم القوّةِ الكامنة في اسم اللّٰه !!

تَوهَّجتْ عينا الرجل العجوز القاسيتان ... وهدأ الزعيم الشدِيد الصرامة .. وبَرَقت عيناه بشدة .. ثم أشارَ بإبهامِه مرتين أو ثلاث مرات في اتجاهِه وبعد تلك الإشارة تركَنا رجالُه .

أمرَ الرجل العجوز قائلًا :

- « مصحف ! » ...

ورَكضَ أسرع رجالِه إلى أقرب خيمة .

صحتُ متهللاً :

- « قرآن ! » .

وبدأتُ أدُق على صدرِي بقبضة يدي اليمنى ...

أخذتُ أكررُ وأنا لا زلت أُشير إلى صدرِي :

- « القرآن ! » .... « القرآن ! » .

وعلى الفور أحضر الشابُّ نسخة من القرآن الكريم .. وسلَّمَها للرجل العجوز الذي قدمها لي قائلًا :

- « اقْرأ ! اقرأْ مِنْ حيثُ يَنفتحُ المُصحف ، اقْرأ ! » .

قبّلتُ الكتاب المُقدس ووضعته على جَبِيني ، وما أن فعلتُ ذلك حتى فَقدتْ عيونُ الزعيم وهجَها وبريقها فجأةً ... يبدو أنه لَمْ يَفْهمْ ما فعلت ؛ إذ لم تكن تلك

طريقتهم عندما يتناولون المصحف بأيديهم ، فقد أَخذَ الرجل العجوز المصحف مِن الشاب وسلَّمَه لي مُباشرةً ... لم يَمَسه أحدٌ منهم بشفتيه ، ولم يَضعوه على جباههم . لَكنِّي فَهمتُ كلَّ شيء بعد ذلك ... عَرفتُ بأن هناك مسلمين يُصَلُّون بطريقةٍ مختلفة ، يَتركون صلاة السنة ويصلُّونَ الفريضة فقط . ولهذا فقد أربكنا رجالَه وأدخلنا الشكَّ في عقولهم والرِّيبَة في قلوبهم عندما صَلَّينَا ركعتي السُّنة في الغابةِ المأهولة بعدد قليل ومتناثر من السكانِ ، ولهذا السبب اشتبهوا بنا وتَشكَّكوا في كوننا مسلمين حقيقيينَ . وقد أضفتُ المزيد من الشكِّ إلى شكوكهم وأدخلتُ الريبَة إلى قلوبهم أكثر بالطريقة التي استلمتُ بها المصحف مِنْ زعيمِهم .

وقد ابتهجتُ كثيرًا باكتشافي وإدراكِي لسرِّ ذلك الالْتباس ومصدر الاشْتِباه ، بدأتُ أُورجح ذراعيَّ في الهواءِ كنتُ أَبحثُ عن كلمات بالروسية يُمكِنُني بواسطتها أَنْ أوضِّحَ كُلَّ شيء ، لكنني قوطعتُ بفظاظة وبشكل عنيف :

- « افْتح المُصحف ! » .

فتحتهُ وبدأتُ أتلو :

« بسم اللّه الرَّحْمن الرحيم ! » .

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [يوسف : ١] .

كُنْتُ أرتل القرآن بأفضل ما يُمكنني وأجوده - كأجود ما استطعت - تلوتُه بالطريقَة الوحيدَة التي أعرفها والتي تعلمتُها في المدرسة الدينية . وأثناء تلاوتي وعند مُنتصف السورة بالضبط ، تنبهتُ وصحوتُ على حقيقة أنَّني لم أكن أتلو آيات من « سورة التين » حيثُ فُتح الكتاب الكريم بل كان لساني يلهج بآيات من « سورة يوسف » ... أدركتُ أن تلك الآيات الرائعة الجميلةَ كانت تتدفقُ على لساني بيسر وسهولة كما تتدفق قطرات الندى على نصل ورقة خضراء ...

وبينما كانت الحروف المنطوقة تجري على لساني كانت معركة من الحروف المكتومة - غير المنطوقة - تصطرع في داخلي .. كنتُ أُفكرُ في سرِّي وأقول : يا إلهي إن مقاليد الأمور كلها بيدك في كل حين وإلى الأبد وأنت وحدك تحيط بكل شيء علمًا . تعلم بكُلِّ ما حدث لي في الماضي . وتعلم ما يوشكُ أَنْ يَحْدثَ لي . وتَعرفُ أيضًا لماذا تلوتُ آياتٍ من « سورة يوسف » بدلًا مِنْ « سورة التين » ... وأنا

لا أَعْرفُ .. لا أَعْرفُ أيَّ شيء أكثر من أنني قرأت آياتٍ من « سورة يوسف » بدلًا مِنْ « سورة التين » ... ولا أدري لماذا .. أنا لا أَعْرفُ شيئًا ؟ ...

ثم تذكرتُ أنني تعرضتُ لمثل هذا من قبل ، وأن هذا الموقف قد تكرر قبل الآن ، حين أخذتُ أَقْرأُ من « سورة يوسف » أيضًا على الرغم من أنني كنتُ قد نَويتُ القِراءة من « سورة يس » ... تمامًا كما قرأتُ الآن « سورة يوسف » بالرغم من أنَّ المُصحف قد فُتحَ على « سورة التين » . لقد فُتحت صفحات المُصحف على نفس السورة التي كانت في حُلمي عن موت (سربرينيتسا) ... عندما رأيت « سربرينيتسا الميّتة » .. حيث كانت كلمات تلك السورة تَخْرجُ مِنْ فَم حفيدِي (مرْجَان) الذي لم يُولد بعد !! .

وبعد أن أدركتُ ذلك لم أُفكّر في أي شيء آخر ... انطلق لساني في تلاوة تلك الآيات النورانيّة التي تتحدث عن حياةِ ذلك الرسولِ الشاب الوسيمِ الذي تَغلَّب على كُلِّ العقبات والصعاب .. ثم انْتَصَرَ أخيرًا بعد أن تغلب على جميع الاختبارات والإغراءات واجتاز المحن والشدائد .. ليجِد طريقه في النهاية ... ويلتقي بأبويه وإخوته ويصل إلى وطنه بعد مشوار طويل من الغُربة والآلام ...

كان الرجل العجوز المكسو بالفراءِ يقفُ صامتًا كصخرةٍ صماء ... وعندما كنتُ أتوقفُ أحيانًا - حين كان صوتي يَرتعش - كانت أذني تلتقط سريعًا رجع الصدى المُدوي تلك الآيات الرائعة ... كانت الجبال البيضاء وأشجار التنوب الشاهقة تطرب لسماع كلمات اللّه وتطوعت بنشرها وتوزيعها في أرجاء الغابةِ الفسيحة ... كان الصوت يتردد في كلِّ زوايا المكان من حولنا .. سمعت صوت الصدى لكنني لم أسمع أزِيزًا لأي ذبابة ... فما من ذبابة تجرؤ على الطَّنِين في مثل هذه البرودةِ - هذا إن استطاعت أن تبقى على قيد الحياة أصلًا في هذا الصقيع - ولكنني بدلًا مِنْ ذلك سمعتُ صوتًا مُنتحبًا ... إنه نَشيج وبُكَاء .. صوت شخص يتَنَهُّدُ بِأنْفاسٍ سَرِيعَة ... كَانَ ذلك الصوت يَصدر عن الزعيم المهيب الذي استبدلَ عباءته بمعطفٍ طويلٍ من الفراءِ ووقف في خشوع وتواضع بين يدي اللّهِ .. وقف صوب المنطقة الجنوبية الغربيةِ باتجاه القبلة .. انتصب الزعيم في مُوَاجَهَة محرابه الافتراضي داخل مسجده المُتَخَيَّل

وسط الغابةِ - كما لو كَان الإمام الأكثر استقامة في مسجد إسطنبول - وأخذ ينتحب ويجهش في البكاء .

وأدركتُ مرة أخرى أنني شهدتُ هذا الموقف من قبل ، عندما كنتُ أُرتل « سورة يوسف » في (فرهوفسك) ، على مقربة من مدينةِ (فلادفُستُك) البعيدة جدًّا ..
تابعتُ التلاوة كما لو كُنْتُ أقرأ في الكتاب وأمامي المُصحف الذي كُنْتُ قد قرأتُ منه « سورة يوسف » الجميلة مئات المرات في الكُتَّاب والمدرسة حتى حفظتها عن ظهر قلب :
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وعندما شارفتُ على الانتهاء من تلاوة السورة واقتربتُ من ختامها ، توقفت لبُرْهَة وجيزة ... أردتُ أن أستمع إلى صدى تلك الحروف القرآنية وأن أحس بروعتها وهي تَذُوبُ في صوتِي .. توقفتُ لأتحقق أيضًا مما إن كان ذلك النشيج يصدرُ حقًّا مِنْ ذلك الرجل العجوزِ الذي تجمَّد كما الصخرةِ مسحورًا ومفتونًا بروعة آيات القرآن وبهائها .. ووقف صامتًا لفرط إحساسه بالخشوع .. ولكن ما أن توقفتُ عن التلاوة حتى تحركت تلك الصخرة الخاشعة .. فجأةً تَنَاوَل الزعيم - الخاشِع المُتَوَاضِع - سيفه المُعلَّقُ في خصرِه وتحرَّكَ نحوي ... لَوَّحَ بِسَيْفِهِ في وجهي ... كان نصل السيفِ يتوَهج ويتَوَقَّد كما لو كان مُشتعلًا بالنيران .. ثم تَوقَّفَ عند كتفِي ومَسَّني بطرف سيفه .. ثبَّت سيفه على كتفِي الأيمن بلطف ورفق .. وتلَفَّظَ بهذه الكلمات بطريقةٍ أبوية حانية :

- « أنت سَتصْبحُ صهري ! » .

أَدركتُ معنى كلماتِه فيما بعد .. أما عندما قالها فلَمْ أَعْرِفْ ماذا قالَ حينها ... لم يكن ما قاله باللغة الروسية ، وحسنٌ أنها لم تكن كذلك ... فمن الأفضل لكلينا أنها لم تكن كذلك . ولكن لماذا نطق بتلك الكلماتِ بلغةٍ غَرِيبةٍ بالنسبة إلى كِلينَا ؟

ثُمَّ صاحَ بالروسية :

- « كبشان اثنان ... . الذبائح على الفور ! » .

وأمر بذبح كبشين وتقديمهما للترحيب بالضيوف الذين سَيُعاملونَ بما يليق بتقاليد قبيلة البوريات وسوف يتم استقبالهم بالطريقة المَناسبَة .. وإكرام وفادتهم على أكمل وجه ..

حمدًا للّه ... لقد نجونا !

كان اسم الرجل العجوز « يوسف » ! .

إنه زعيمُ البَلْدَة التي تقع في الغابة أعلى الجبل وأيضًا زعيمُ مجموعة من القُرى المتناثرة على سفح الجبلِ .. إنه أميرهم (الخان) ... إنه (يوسف التاي خان) .

وقد ابْتهج ابتهاجًا غامِرًا لأنني كنتُ أقرأ « سورة يوسف » .. بل إنه كان يتوهج زهوًا وإعجابًا ... .. فقد اعتبر تلاوتي لتلك السورة - التي يحمل نفس اسمها - إشارةً من اللّه وفألًا حسنًا .. وقد أدرك أن نَشْوَته العارمة لن تهدأ قبل أن يُكافئني بهدية مميزة ... وهذا هو السبب الذي جعله يُقدِّمُ لي هديته الأثمن وتحفَته النفِيسة !

وأنا أيضًا اعتقدتُ نفس الشيء .. إنه تفاءل بتلاوتي وقرر أن يُكافئني ..

أخذ يُحدثنا عن نفسه ويَسْألُ أسئلة كثيرة عنا . وكان الخدم يَخْدمونَنا ويقدمون لنا الشاي والحلوى الصغيرةَ ، ويَجْلبونَ لنا المعاطف الطويلة المبَطّنة . وكل شيء يُمكن أن يجلب الدفء ويجعل المكان مُريحًا .

وعندما بَدأ الدفء يغمر المكان وبعد أن أُصبح الجو دافئًا تمامًا .. قاموا بإزاحة ستارة من الفراء عند مدخل الخيمة كي تسمح للهواء النقي المنعش بالدخُول .. ومن ناحية أخرى فإن هذا يُسهِّل أيضًا دخول الخدم وخروجهم باستمرار من وإلى الخيمةِ .. كانوا يدخلون مُحملين بالأطعمة والأطايب اللذيذة ويعودون مُحملين بالصُّحون الفارغة .. وأيضًا كانوا يُحضرون معهم المِجمَرَة [1] ذات الجمَرَات المتَوقدة والمتوهجَة بلون اللَّهب الأحمر .. ويَأخذون معهم تلك التي انطفأ فَحْمُها . وفي كل مرة يدخلون فيها إلى الخيمة كانوا يُعلنونَ أثناء دخولهم وخروجهم المكوكي أن الأكباشَ تُطهى الآن وأنها تُوشك أن تُصبح جاهزة بالفعل .

ومن وقت لآخر كنتُ ألتقط صورة لذلك الجمال الملُتفح بالوشاح الأخضر ...

---

(١) المِجمَرَة : الكانُون أو مَوْقِد النار - (المترجمة) .

كانت تتراقص أمام عينيَّ .. بهيَّةً جميلةً كزهرة نرجس برية تتراقص فوق تلالِ (سربرينيتسا) ... تجمدت نظراتي على مدخلِ الخيمة .. كانت عيوني مُثبتة أكثر فأكثر .. وحدي فقط أراها .. لم يَرها الآخرون . كانت تُظهر نفسها لي فقط .. كانت تُشرق فقط من المكان الذي لا يلحظها فيه أحد سواي .. مِن الموقعِ الذي كنتُ أُطلق منه نظراتي المتلهفة باتجاه مدخلِ الخيمةِ المفتوحِ ... كنتُ أختلس النظر إليها .. وكانت تَبتسمُ لي ! وتَنْظرُ إليَّ بنفس الطريقة التي ستنظر بها إليَّ لاحقًا - بَعْدَ تسعة أشهر - عندما كَانتْ تَختبئ وراء شجرة التنوب بينما كنْتُ أهُمُّ بالصعود عاليًا وسط أحضان الغيوم باتجاه قمَّةِ جبلِ التاي الشاهقة .

ربتَ الرجل البورياتي الجالس إلى جواري من على ظهري قائلًا :

- « إنها (مرْجَانة) ! ابنة (يوسف التاي خان) ! » .

بدا سعيدًا بَعْدَ أن اكتشفَ تآمُرنا واحْتِيَالنا ونظراتنا المرَاوِغَة .. !

كانوا يُجهزونَ الأكباشَ المحمَّرةَ ... وليمةٌ جديرةٌ بملك .. لقد احْتفَى بنا الخان وأكْرَمَ وِفَادَتَنا باحْتِفَالِ أميري في قلبِ جبالِ التاي ... كان رفاقي البوسنيون منهمكين بجدية في تقطيع قِطَع اللحم الكبيرةِ المحَمَّرة . كنتُ الوحيد الذي لا يَأكل .. في الواقع لم تخطر فكرة تناول الطعام ببالي مُطلقًا كانت (مرْجَانة) وحدها تجول في خاطِري وتملأ أفكاري ... بقيت صورتها عالقةً في ذهني بحيث لا يمكنني أن أرى سواها ... كما لو كانت صورتها قد التصقت في حدقة عينيَّ .. كانت تلك هي (مرْجَانة) التي جعلت قلبِي يرقصُ طربًا كعصفور أُطلِقَ من قفصه ، ولكنها في نفس الوقت جعلتني أَفْقدُ عَقْلي ! .. تركت شَعرها الحريري يتدلى تحت أطراف وشاحِها .. وأخذت تتلوى وتتراقص لكي تُثبت صورة جسدها بأكمله في مُخيلتي وتلتصق الصورة هناك في أعمق تلافيف دماغي حيث تُقاوم كل المحاولات اليائسة لطردها من خيالي ... تمامًا كما كانت تَفعَل وهي تختبئ خلف شجرة التنوب عندما كُنتُ على وشك الصعود إلى قمة جبل التاي !

ولكنهم أصروا على إعطائي شيئًا يملأ جوفي ويسد جوعتي ، كان ذلك الشيء عبارة عن قطعة اللحم التي تكسو عظام السيقانِ الأماميةِ للذبيحة ... كَانَت تلك هي الهديَّة المتعارف على تقديمها للعَرِيس !

يا إلهي ، اللَّيلة سَأكُونُ الرجلَ الأكثر سعادةً في العالم ... إنني أسعد رجلٍ في العالم .. فكلُّ هذا الجمالِ سيصيرُ ملكًا لي .. !!

وبعد أن قدم (شمسي بك شيهوفاتس) وصفًا بالغ الدقة عن فترة إقامتنا في (فرهوفسك) وعن ذلك المحقق الذي كان يستجوبنا هناك .. تَوقَّفَ الكلام ... وحل الصمت .. ولم يبق شيء سوى السكون ... السكون فحسب . ما الذي حَدثَ ؟

ربت الرجل البورياتي الذي يجلس بجانبي - ذاك الذي ضبطني وأنا أختلس النظر إلى (مرْجَانة) وكَشفَ لي من تكون صاحبة الجمال البديع الذي كُنْتُ أحملق فيه - على ظهري وهو يقول :

« إنه (بيبي هاديدز) ! ابن (يوسف التاي خان) ! » .

طلب (يوسف التاي خان) من كُلٍّ منا أن يروي تفاصيل لقائه بابنِه وأن يحكي طويلًا عن مُقَابَلته مَع ابنِه (بيبي هاديدز) !

أوضح لنا أن الروس قد استغلوا سقوط الإمبراطوريةِ وقاموا بالهجوم على قبيلة البوريات الواقعة على سفح جبل التاي ... وأن الهجوم كان مفاجئًا . وقام الروس بذَبح كل من وجدوه هناك من أولئك الذين لم يستطيعوا الإفْلات ولم يجدوا طريقًا للهرب .

تُرى من كان أولئك الغُزاة ؟ من الحمر أم البيض ؟ ألم تُنْهكهم الحرب الأهلية ؟ ألم يقتتلوا فيما بينهم وتسْتنْزِف الحرب كل قواهم كأشَدّ ما يَكون ؟

ولكنهم يتوحَّدونَ فقط عندما يَجِبُ أن يُهاجموا المسلمين . لقد هاجموا قبيلة البوريات بالذات على نحو بَرْبَرِيٍّ وهَمَجِيٍّ . والبورياتيون شعب مُستقل بذاته ينتمي عِرْقِيًا إلى جنس قائِم بِذَاتِهِ . وليسوا من الروس ، أو الصينيين ، أو منغوليين وليسوا من (كازاخستان) أيضًا . صحيح أن أرضَ القبيلة على تمَاس مع حدودِ تلك البلدانِ الأربعة الكبيرةِ . ولكن جميع أفراد القبيلةِ كانوا مِن البورياتيين المقيمين في جبال التاي ولَيْسَ لهُمْ أي علاقة بالبورياتيين الآخرين الذين عاصمتهم (أولان أوده) . هؤلاء هم البورياتيون التابعون للأمير (يوسف التاي خان) .

وقد خَمَّنَ (بيبي هاديدز) - وريث الخانَ - بشكل صحيح مَن الذي سيَرْبحُ الحرب الأهلية الروسية وانضمَّ إلى فريق الحُمرِ . وفعلَ كل ما يستطيع ليجد الطَّريق

إلى (موسكو) .. وهناك اشتهر كخادم مُخلص للثوْرة وأصبحَ معروفًا كخَصْم عنيد ضد المعارضين للثورة وكل من يعمل ضد الثوريين . وكَانَ قاسيًا وعنيفًا في تَصْفِيَتِهم بلا هوادة .. وقد أعدم بنفسه مئات ومئات مِن المناهضين للثورة والمنْشَقين عن الحزب .. وسواء أكان عميلًا للروس أم مجرد شرطي في بِزته الرسمية المُنكمِشة - التي تَقَلصت لكثرة عدد المرات التي رَفع فيها يَده ضدَّ الروس - فقد وَافق أهله البورياتيين وكَانوا مستعدِّينَ للدور الذي سيلعبه . وقد أخلص ابن القبيلة في القتل وتَمرُّغ في الدماء إلى الحد الذي جعله يستحق بجدارة أن يُعين كمحقِّقٍ رئيسي في أقصى الشمال الشرقي للاتحاد السوفيتي ، ومن هناك ، كان الطائر المهاجر يحمي عُشه الذي انطلق منه .. من هناك كان يُسيطر ويَتحكم القبيلة ... وكان ينتقم لإخوتِه وأخواتِه الذين قُتلوا في التاي . وفوق كل ذلك ، كان الروس شاكرين ممتنين له مُقِرِّين بجميله !

وقد تَزوَّجَ اثنان آخران - مِنْ زملائي البوسنيين - بالإضافة إليَّ أنا - من نِساء بورياتيات وبَقوا مَعي في التاي .. وأربعة منهم لَمْ تَدُمْ إقامتهم في جبل التاي - بين أولئك الصيَّادين المكسيين بالفراء - أكثر من ثلاثة أشهر ... لم يحتملوا البقاء لمدة أطول من ذلك .. فانطلقوا إلى المكان الذي كنتُ أنوي الذهاب إليه ... إلى (خراسان) ... قالوا : إنهم سيُسافرونَ عبر (كازاخستان) ومنها إلى (إيران) ! وربما قالوا ذلك لأجل خاطري فقط .

أما الاثنان المتبقيان ، (شمسي بك شيهوفاتس) ورجل آخر ، فقد بقيا في قبيلة البوريات حتى اللحظة الأخيرة .. وكان (يوسف التاي خان) يرى أنه شرف له أن يُقدِّم جائزة أو مُكافأة خاصَّة إلى (شمسي بك شيهوفاتس) . كان (يوسف التاي خان) - ولَيسَ ابنه (بيبي هاديدز) - هو الذي يعرف (موريز فريز) عمَّ (شمسي بك) قاضي بلدة (تشاينيتشه) . حيثُ اجتمعا معًا أثناء الرحلة التي خرج فيها لأداء فريضةِ الحجِّ ... وتصادف أن كَانوا في نفس الخيمةِ في (مكة المكرمة) ... كان كلاهما مُتعلمًا ؛ ولذا فقد كان بوسعهما أن يَتواصلا بعِدَّة لغات : الفارسية والتركية والعربية . وبينما كانا يَتبادلان الهدايا والتذكارات الثمينَة ، تَبادلوا بعض المفرَدات والكلمات من لغاتِهم الأم أيضًا ... وأثناء طواف الزيارة كانا قد اقتربا من بعضهم البعض كثيرًا والتحما ببعضهما البعض وسط الزحام ... وما أن شرع الحاج البورياتي في نُسك الطواف حول الكعبة - أثناء الشوط الأول - حتى تَعثَّرَ بملابس الإحرام ..

لم يُميِّز ما إذا كانت قطع القماش البيضاء التي داس عليها هي أطراف ملابس الإحرام الخاصة به أم كانت ملابس شخص آخر يطوف أمامه ؟ إلا أنه سَقطَ على أي حال وطُرِح أرضًا على الفور !

وبالطبع كانت نجاته مُعجزةً حقيقية .. فإنْ لمْ تسْحَقه الموجات البشرية المتدفقة من الحجيج وتقضي عليه تمامًا تحت أقدامها ؛ لكَانتْ بالتأكيد ستُصيبه بإصابات تمْنعُه من إنْجاز مناسك الحجّ وإتمام واجبِه المقدَّسِ على النحو الذي تمناه وعزم على تنفيذه .. ولولا أن أدركته عناية اللّٰه التي أرسلت له ذلك الحاج البوسني الذي كان يمُرُّ بجواره والذي كان قد تَعَرَّف عليه سابقًا حين التقى به في الخيمةِ - لكان ولا شك من الهالكين في غمرة تلك الأمواج المتعاقبة من الحجاج .. فقد قام الحاج البوسنوي بحماية الخان المتعثر على الأرض بجسدِه .. جعل من جسده درعًا يتترس به الخان ، ثم حمله وأمسك به تحت ذراعِه جاعلًا من جسده دعامةً يرتكز عليها الخان ، وهكذا ساعدَه على إتمام الطواف حول الكعبة على قدميه وليس محمولًا على أحد الألواح الخشبية التي يستخدمها العجزة وكبار السنّ لأداء ركن الطواف .

ومنذ ذلك الحادث وطوال الأيام المتبقيةِ مِنْ رحلة الحجّ لم يفترقا لحظةً واحدة ... وقد تعززت الصداقة بينهما وتوثقت أكثر كما يحدث في الحياةِ الاعتيادية بين البشر ، تحولت الصداقة بينهما إلى شيءٍ أكبر وأقوى من الصداقة الاعتيادية التي يعرفها الناس ... حيث تحولت الصداقة إلى أخوة في اللّٰه وخصوصًا في ظل الظروف الروحانية التي جَمعت بينهما ... وتاقت أرواحهما للبقاء معًا ، ولمْ يَرغب أحدهما في أن يفترق عن صاحبه . وكان على رفاق الخان أن يَنتظروه في (مكة المكرمة) لأكثر مِنْ شهرين حتى يرجعَ مِن (الإسكندرونة) .. حيث أصر على الذهاب لتوديع صديقه القاضي مِنْ (تشاينيتشه) وانتظر حتى رآه يصعد إلى متن السفينة التي ستحمله في رحلة بحرية إلى البوسنة ... وكشخص يعاند مشاعره حاول على الرغم من الأحاسيس المؤلمة التي كانت تنغز كالإبر في قلبه أن يحبس دموعه في مقلتيه .. ولكن سرعان ما امتزجت دموع الخان الحزين بمياه البحر المالحة .

وكلما تذكرتُ لقاء القاضي (موريز فريز) مع (يوسف التاي خان) ، ولقاءنا مَع

(بيبي هاديدز) في (فرهوفسك) .. أتذكرُ على الفور الحاج (عارف باشال) ذلك العجوز الطيب وحكايته الأثيرة عن رحلة حجِّه التي كان يُكررها لحد الملل ... كان كل شخص في (سربرينيتسا) يعرف تلك الحكاية الشهيرة ، بل ويحفظ كل تفاصيلها عن ظهر قلب .. وكان الجميع يعرف ما سيَقُولُه (عارف باشال) قبل أن يفتح فمه ... فقد كانت حكايته مألوفة بتفاصيلها لدى جميع سكان (سربرينيتسا) .

وكان بوسع أي شخص أن يستمع لنفس الحكاية مِنْ كُلِّ حاجٍّ في (سربرينيتسا) .. تمامًا كما يُمْكِن لأي شخص أن يقْرَأ نفس تفاصيل رحلة الحج في الكتبِ التي تشرح مناسك الحج .. إلا أن (عارف باشال) ظل يُكرر ويسرد تفاصيل رحلته إلى الحج واستمر في رواية تجربتِه الخاصة ليلًا ونهارًا ... وفي البِداية كان الناسُ يستمعون إليه .. فالاستِماع والإنصات جيدًا إلى تفاصيل تجربة حاج عائد من الحج يُعدُّ أقل علامة من علامات الاحترام التي لا يُمكن تجاوزها بحال . وحتى عندما كان يُعيد حكايته للمرة الثانية كان الناس يستمعون إليه في شغف لعله يُضيف شيئًا جديدًا أو يتذكر شيئًا فاته في المرة السابقة ... ثم كان عليهم أن يستمعوا إلى القصَّة نفسها للمرة الثالثة ، والرابعة ، والخامسة عشرة ، والخامسة والخمسين .. جلسوا للاستماع إليه بدافع المجاملة وأدَب اللياقَة .. وقبل كل شيء احترامًا لِلِحْيَةِ الحاج الرماديةِ .

وكانت إعادة رواية القصَّةِ تبدأ دائمًا بالطَّريقة نفسها :

- « إيه ، عندما كُنْتُ على جبل عرفات ... » .

ولكن في إحدى المناسبات ، وخلال شهر رمضان الذي تصادف أن حلَّ في موسم الحصادِ ، وبعد الانتهاء من صلاة التراويح ، كان الناس لا يزالون في المسجدِ ، عندما همَّ الحاج (عارف باشال) بأن يفْتح فَمه ليَرْوي - للمرة الألف - تجربته عن رحلة الحجِّ ، وهنا انْفَجَرَ أحد عُمال الحصاد المنهكين من العمل في الحقول طيلة النهار ، وبموافقةِ غالبيةِ الحضور تلفظ بكلماتٍ لاذعة صوبها كرصاصات متعاقبة باتجاه الحاج :

- « بحق اللَّه يا حاج ، دائمًا تحكي نفس القصةِ ؟ أنت لَيْسَ لَديكَ شيئًا لتعمله ويُمكنك أن تظل مُتيقظًا وأن تجلس في المسجد حتى السحور .. أما بالنسبة لنا نحنُ ، فالليل قصير ويَنتظِرُنا نهار طويل من العمل في الحقولِ .. لهذا نَوَدُّ أن نعود إلى بيوتنا وأن نَذْهبَ إلى الفراش ونَخلد إلى النوم لنرتاح قليلًا » .

عندما سمع الحاج ذلك ، ارتعد واسْتَغْلَقَ عليه الكَلامُ ، وانهارَ فجأةً على أرضيةِ المسجد كمن صعقته صَاعِقَة أو تيَّار كَهْربائِي ... فهرع الناسُ إليه وبدؤوا يزحفون ويتجمعون حول الحاج الذي فَقدَ الوعي في مواجهة هذه الإهانةِ غير المتوقَّعةِ ... أحضروا أقداح العصير وقاموا برَشّه بالماءِ وباستخدام المناشفِ الرطبةِ المبللة مِن الميضأة وقاموا بتَهْوِيَته عن طريق التلويح بالمناشف واستخدامها كمراوح هوائية حول وجهه .. وأخيرًا .. استجاب الحاج وفَتح عينيه ... وما أن شاهد الوجوه القلقة التي كانت تُخيِّمُ عليه والعيون المُترقبة التي كانت تُحملق فيه .. حتى بَدأ سريعًا بالقول :

- « آه ، حينما كُنْتُ على عرفات .... » .

وهكذا لم يكن أمام الجمع البائس أي خيار آخر غير الجُـلُوس مجددًا والاستِماع لحكايته مرةً أخرى .

وكما قُلتُ سابقًا ، لا أَعْرِفُ لِماذا تذكرتُ الحاج (عارف باشال) . وبَدأتُ بالتفكير فيه ربما لأنني على ذكر (سربرينيتسا) ، حاولتُ التأكيد على حقيقة أنَّ الناس في (سربرينيتسا) يَتحدَّثُون عن الحجِّ أكثر من أي شيء آخر في الحياةِ ، وأنهم يستمرون - طوال حياتهم - في سَرْد الحِكايَات والذكريات المرتبطة برحلة الحج بدقة بالغة وأنهم لا ينسون حتى التفاصيل الأكثر دقةً ... إنهم يتذكرون كل كبيرة وصغيرة تتعلق برحلتهم الخالدة إلى (مكة المكرمة) .. ولهذا كان من الطبيعي جدًّا أنْ يَتذكَّرَ (بيبي هاديدز) - وعلى وجه الخصوص - اسمَ أحَد مَعَارفِ أبيه الذين التقى بهم في (مكة المكرمة) ، فلا بد أن والده الحاج قد كرر تلك الأسماء كثيرًا بعد عودته من الحج ، ولهذا كان لا بد أن يعرف اسم القاضي (موريز فريز) وأن يتذكر ذلك الاسم البوسني بالإضافة بضعة دَزينَات [1] من الكلماتِ بوسنيةِ .. استطاع أن يُميِّز اسمه جيدًا من بين مجموعة من المفردات البوسنية .. بالنسبة إليه كانت الكلمات البوسنية تُشبه الكلماتِ التركية أو العربية أو الفارسية ، إلا أنَّها كَانت مختلفة ؛ وهذا لأن تلك الكلمات كانت تستعمل في بيئات إسلامية مختلفة وهو ما جَعلَ منها كلمات أصِيلة ومُميزة على نحو شديد الوضوح ، كلمات ذات مرجعية إسلامية رغم اختلاف الألسنة التي تلهجُ بها .. تمامًا كما كان البورياتيون مختلفين جدًّا ، وفي نفس الوقت يُشبهون

(١) دَزِينَة (دستة) : مجموعة من الأشياء يكون عددها اثني عشر - (المترجمة) .

جدًّا بقيَّة المسلمين من شتى بقاع الأرض الذين يُؤدونَ مناسك الحج .

ولا بُد أن العجوز (يوسف التاي خان) قد تعرف على البوسنة عندما قدمتُ له التحية - أثناء لقائِنا الأول - على الطريقة العسكرية كما يعمل الجندي .. ولا بد أيضًا أنه قد عرف مَنْ نكون بمجرد أن ذكرتُ له اسم الشعب الذي أنتمي إليه بعد أن قدمتُ له التحية مُباشرة ... وكنتُ قد فكرتُ حينها في طريقةٍ تُعلي من شأننا وتوحي بمهابتنا وخطورة شأننا فذكرتُ له أننا من البوسنة التي لم يكن أهل التاي يسمعون بها ولا علم لهم بوجودها أصلًا .. ولأن الخان العجوز يعرف البوسنة ويعرف تمامًا أين تقع البوسنة ، فلا بد أنه أدرك أنه من المستحيل أن يتواجد رجال بوسنيون هنا في هذا المكان البعيد جدًّا عن بلادهم ... ليس هذا فحسب .. بل أن يتواجدوا هنا وفي بزاتهم العسكرية أيضًا !! .. ربما اعتقد أن الروس قد كشفوا اللثام عن حقيقة ابنه وأنهم قد عرفوا أخيرًا كلَّ شيء عنه .. وربما ذهب تفكيره إلى حدِّ افتراض أنَّ العملاء الروس - الذين كان ابنه هدفًا مثاليًا بالنسبة لهم - قد تعَرفوا على جِنْسية القوم الذين التقى بهم في الحج ، فقاموا بإرسال جواسيسهم مُتنكرين في هيئة بوسنيين لكي يثأروا ويَنتقموا من ابنه « سفاح البوريات » ولأجل القضاء على جميع أفراد قبيلة البوريات والإجهاز عليهم بمذبَحَة جماعية تستأصل وجودهم بالكامل !

وقد التحق (شمسي بك شيهوفاتس) - الذي اشتاقَ إلى البوسنة كثيرًا - بموكب الحجاج البورياتيين المتجه إلى (مكة المكرمة) على أمل أن يُقابل الحجاج البوسنيين عند الكعبة المشرفة ويَعُود مَعهم إلى أرض الوطن . وقد سمح له الخان العجوز أيضًا أن يَختار مِنْ بين زملائه البوسنيين الرجل الذي يُريد أن يكون رفيقه في رحلة الحج ... ولم يَستطع صديقي الطيب (شمسي بك) أن يُشيرَ بإصبعِه عليَّ .. واختارَ رجلًا آخر . أعتقد أن اسمه كَانَ (مُظفَّر) .. وأنه كان مِنْ بلدة (نوفا كاسابا) . أنا لا أتذكَّرُ اسمَه بالضبط لَكنَّه كَانَ مِنْ (نوفا كاسابا) .

وعاد موكب الحجاج البورياتيين مِنْ (مكة المكرمة) بعد ستَّة أشهر .. ولكن لمْ يرجع اثنان منهم . فقد ماتَ أحدهما في (خُراسان) .. بل إنه لمْ يُتم رحلته إلى (مكة المكرمة) .. إلى هَذا الحد كان مولعًا بحبِّ (خُراسان) .. وقد قام الحجاج بزيارته في طريق عودتهم . فاستقبلَهم بشكل رائع ولم يُشر مُطلقًا ولا بأي طريقة إلى

أنَّه يعرف أي شيء عن البوسنيين الأربعة الذين كانوا قد انطلقوا في ذات الوقت ، من جبال التاي إلى (خُراسان) ... وفي (خُراسان) لا يُمكن إخفاء أي شيء ، فكل شيء عن أي شخص كان معروفًا ومعلومًا للجميع . ولو أن أولئك البوسنيين قد ذَهبوا إلى (خُراسان) لكانوا قد سمعوا عن الرجل البورياتي الغَرِيب الذي استقرَّ في هذا المكانِ الفارسي الجميلِ .. ولتعرفوا عليه على الفور .. وكذلك لو أنهم كانوا في (خُراسان) لسمع بهم الرجل البورياتي أيضًا .

أما الرجل البورياتي الآخر الذي لَمْ يرجعْ فقد ماتَ في الطَّريق .. ومات في الطريق أيضًا أحد الرجلين البوسنيين اللذين انطلقا مَعهم في بداية الرحلةِ ... أما البوسني المتبقي فقد التقى بزملائه البوسنيين في (مكة المكرمة) والتحقَ بهم في رحلة العودة إلى البوسنة . هل كان ذلك الرجل (شمسي بك شيهوفاتس) أم الرجل الآخر ؟ أيٌّ منهما انطلق عائدًا إلى البوسنة ؟ وأيهما مات على الطريقِ ليُصبح حاجًا حتى قبْل أن يَصِل إلى (مكة المكرمة) البلد الحرام والمدينة التي تحرسها عناية اللّهِ ؟ لم يَستطع الحجاج العائدون أن يُخبروني أيهما مات وأيهما عاد إلى البوسنة .. لم يستطيعوا أن يُميِّزوا بينهما .. ببساطة لأننا جميعًا مُتشابهون تمامًا بالنسبة إليهم ، تمامًا كما نرى نحن أن المسلمين الذين يعيشون على سفح جبل التاي يُشبهون بعضهم البعض .. بالنسبة إلينا كانوا - بعيونِهم المائلة - نُسخًا مُكررة من شخصٍ واحد .. كما لو أن تلك العيون المائلة قد وُزعت كنسخة واحدة عليهم جميعًا ... رجالهم ونِسائهم على حد سواء !!

النساء المسلمات البورياتيات متشابهات تمامًا ، ولا يُمكن التمييز بينهن ، كما لو أنّهن جميعًا وُلدن مِنْ أم واحدة ... أما مُعضلة المعضلات فهي مُحاولة التمييز بين أخت وأختها .. كان ذلك بشكل خاص اختبارًا عسيرًا جدًّا .. ومحنة بالغة !!

وعقب الانتهاء من الوليمة الفاخرة في خيمة (يوسف التاي خان) ، كَانَت المرأة الأكثر جمالًا في العالم تنتظرُني في خيمة أخرى أكثر جمالًا - في خيمة الزفاف - حيث كُنْتُ أقبّل تلك العيون التي كَانتْ تَختلسُ النظر إليَّ .. وأداعب خصلات الشعرِ الناعمة .. تلك التي تسللت بشكل سري لتسترسل بهدوء من تحت الوشاحِ

الأخضرِ الذي كانت جميلتي (مرْجَانة) تُغطي رأسها به .. المرأة الحلوة التي كانت نظراتي مُصوبة باتجاهها عند مدخلِ الخيمة .

- « كانت نَظرَاتي المحدقة تَختفي فقط لتعاود الظهُور من جديد عندما تُشْرق صورتك البهيَّة في مُخيلتي أثناء الليل وتشع بدفئِها وبياضِها ... يا جميلتي (مرْجَانة) ، يا أجمل امرأة بين نساء الكون .. المرأة الأكثر جمالًا في العالمِ ! » .

لا بدَّ أنني قُلتُ لها كل هذا الكلام .. ولا شك أنني ناديتُها باسمِها ، ولهذا فقد أخبرتْني وهي تُشير إلى نفسها بأنها (مونتسكيرا) وليست (مرْجَانة) !

لم أكترث كثيرًا .. فأنا لم أستطع أن أفْهمَ اللغةَ التي تحدثت بها .. وكانت المرَّة الأولى التي سَمعتُ فيها تلك الكلمة ... لَمْ أعرف أن كلمة « مونتسكيرا » هي اسم شخص . وكان آخر شيء يُمكن أن يشغل بالي أو أن أهتم به هو مسألة اللغةِ ! .. ولم أفهم حديثها أو أميِّز شيئًا من كلماتها طيلة الأيام والليالي القليلة التي تلت زواجنا ... وخصوصًا الليالي ، في الواقع أثنَاءَ النهار كنتُ ألتقي بـ (مرْجَانة) على بُعد خطوتين أمامي ، بالرغم من أنني كنتُ قد التقيتُ بها قبل خطوتين إلى الوراء . كَانتْ تحيرني وتُسبب لي الالتباس والإرباك ... لَكنَّها بقيت تبتسم لي بلطفٍ .. كانت ابتساماتها تومض بشكل رائع ... بَدا لي أنَّ عيون (مرْجَانة) كَانتْ قد تغيَّرت قليلًا ... ولكن هيهات أن أميز العيون المائلة لجميلتي بينما تمتلك كل نِساء البوريات نفس العينين !! كُنَّ جميعًا لهنَّ نفس العيون المتشابهة تمامًا بالنسبة لي !! واستمرَّ الوضع كذلك إلى أن التقيتُ بهما معًا أمام خيمةِ أبيهما الخان .

وعندما أحست (مونتسكيرا) بذهولي وحَيرتي .. قَفزتْ بسرعة وسارت باتجاهي ، ثم أمسكت بذراعي وأخذتني للخارج ، وهي تقول :

- « أنَا (مونتسكيرا) ، زوجتكَ ! » .

وقد ماتَت (مونتسكيرا) أثناء المخاض ... ماتت وهي تضع مولودها .. لكنها لَمْ تَلدْ لي صبيًا ولا بنتًا . فقد مات الوليد أيضًا .. وقد رَجعتُ مِنْ رحلتي إلى التاي .. لا ميتًا ولا حيًا . لم أستطع أن أميز ما إذا كنتُ على قيد الحياة أم أنني قد متُّ وأنني بُعثتُ في عالم جديد ... وكنتُ قد نجحتُ في استعادة الخاتم الذي تَركَه (يُوسُف التاي خان) في الكهفِ السِّري بين قمم التاي ، وقد سلَّمتُه إليه بالإضافة إلى الخاتم الذي

كان عليَّ أَنْ أتركَه في الكهفِ السري في جوف أعلى قمة من قمم جبل التاي الشاهقة .

قال لي (يوسف التاي خان) وهو مُغْتَمٌّ وحَزِين :

- « لماذا أعدت خاتمَ الخان الخاص بك والذي يُفترضُ أن تتركه في الكهفِ السري ؟ هَلْ أنت لَسْتَ سعيدًا مَعنا هنا ؟ لماذا تَرغب في أن تتركنا وتغادر بلادنا ؟ (مرْجَانة) جميلةٌ أيضًا . وهي ستُطيع أمري وترضي أمنيتي وستكون زوجتك ؟ » .

- « أيها الخان العظيم ذُو المجد الذائع الصِّيت ، اسْمح لي بالانطلاق مَع رجالِكَ الذين يستعدون لرحلة الحجِّ القادمة .. فلو أنني كُنْتُ في البوسنة الآن ، لكُنْتُ قد أديتُ فريضة الحج بالفعل . كما فعل أبي ، وأبوه من قبله ، وجَده وكل من سبقه من أسلاف عائلتنا وصولًا إلى (جوزو) اسم الجد الذي انحدرت منه جميع عائلتنا .. وبعد أن قدمتُ لك الدليل على صعودي إلى جبل التاي وجَلبتُ معي الخاتم الذي تركته هناك في الكهفِ السري ، فإنني ألتمس بركتكَ وموافقتك على أن تَسمح لي بالذهاب إلى (مكة المكرمة) يا أميري الأشهر ! إن لم أذْهب إلى البوسنة مِنْ (مكة المكرمة) فإن ابنتكَ الجميلة (مرْجَانة) يُمكنها أن تَطمئن وتتأكد من أنها لن تُصبح أرملة ما دمتُ على قيد الحياة ... لأنني إن عُدتُ إلى التاي ، فهذا يعني أنني لم أقدر على الابتعاد عن (مرْجَانة) ولم أستطع الاستغناء عنها .. وأنني لن أرجع أبدًا إلى البوسنة » .

ولكنني لم أتحمل البقاء بعيدًا عن البوسنة .. فأنا لا أستطيعُ العيش بدون البوسنة ... ولهذا فعندما كنتُ في التاي لم أحتمل البُعد عن البوسنة .. وأيضًا عندما وصلتُ إلى البوسنة ، لم أحتمل العيش بدون (مرْجَانة) .. ولهذا السبب منحتُ اسمَها لحفيدِي .. لأمل حياتي وقُرَّة عيني (مرْجَان) ... كَانَ من المفترض أن يُسَمَّى على اسمي أنا ، لَكنَّي أحببتُ (مَرْجَانة) أكثر مِنْ نفسي !

وبعد مرور العديد مِن السنوات ، وبينما أَكْتبُ هذه المذكرات عنْ تاريخ البوسنة أثناء الحرب العالميةِ ، الذي تم نسيانه وتلاشى في البوسنة وبَهتَ من ذاكرة البوسنيين منذ مدة طويلة ، كما لو أنَّه لم يحدث مطلقًا ، ما أزال أذكر الحلم الذي رأيته في التاي .. الحلم الذي رأيتُ فيه حفيدي يتجول في (سربرينيتسا) الميتة .. ما زال ذلك الحلم العجيب حيًا في مُخيلتي كما لو كنتُ قد رأيته الليلة الماضية .. ما زال

ينبض بحرارة في ذاكرتي المُهترئة البالية .. ما زال عالقًا في ذاكرة الرجل الهَرِم الذي يكتبُ هذه المذكرات !!

إنني رجل عجوزٌ الآن ولَيْسَ أمامي الكثير من العمر لأقضيه في هذه الحياة ... والآن .. إنني أصلِّي وأتضرع إلى اللَّه العظيم وحده - كما دعوتُه أمام الكعبة المُشَرَّفة في بيته الحرام - وأسأله بدلًا مِنْ أنْ يَغْفِرَ لي ذنوبي ، أن يُساعد حفيدي (مرْجَان) مرتين ! إنني أمنح حفيدي الحبيب حصتي من الدعاء ليحفظه اللَّه ويباركه مرتين بعد أن يستجيب دعواتي المضَاعَفة .. صحيح أنه لَيسَ حافظًا للقرآن الكريم ولكنَّه متعلِّم ، وقد أنهى تعليمه في المدرسة الدينية أيضًا .. ويَعْرِفُ أيضًا المدينة المحميَّة والمصونة بحفظ اللَّه ... (البلد الأمين) التي تحدثت عنها « سورة التين » .. وأعتقد بأنه يدرك ويفهم معناها أيضًا ... وأتمنى أن يحفظ اللَّه (سربرينيتسا) والبقية في يد اللَّه تعالى !

* * *





صورة توضح الزي التقليدي للخان في بورياتيا





صور لسيدات بورياتيات (من قبائل البوريات)

الفَصْلُ التَّاسِعُ

نزل جاري (شعبان) إلى غرفتي ... بدا وكأنه لَيسَ (شعبان) الذي كان معي في الليلة الأخيرة .. لم يعد (شعبان) الذي أعرفه ... لَمْ يُعلنْ عن حضوره بالضرب على النافذة ، بل ولم يطرق عليَّ الباب أيضًا ... فقط نزل إلى غرفتي .. كان مذهولًا وجامدًا وكأنه جسد بلا روح :

- « كان « التشيتنيك » يُقيمون مع الهولنديين التابعين لقوات حفظ الأمن الدولية في مواقعهم العسكرية .. وبدلًا من أن يُهاجموهم ويدفعونهم إلى الوراء بعيدًا عن الموقع الذي قمنا بتسليمه لهم بناءً على طلبهم .. فإن الهولنديين حتى لا يُخفون تعاونَهم مع الصرب وقاموا بتسليم مواقعهم إليهم ! هذه خيانة مُتكاملة الأركان ! خيانة تامَّة .. لقد خُدعنا ! العالم بأسره خانَ (سربرينيتسا) » .

قلتُ مُزعِجًا :

- « في الساعة ستمائة [1] (٠٠ : ٦ ص) سَتُهاجمُ الطائرات الأمريكية .. حتمًا ستنطلق الطائرات عند الساعة السادسة فأمريكا لن تخوننا ! » .

كنتُ مُزعِجًا للغاية .. كنتُ أُزعجُ نفسي .. وأَشعرُ بالأسف لأنني أزعجت (شعبان) أيضًا .. لقد انهارَ وهمه الأخير .. بعد أن تجاوزت الساعة السابعة والطائرات الأمريكية لم تُحلق بعد في الأفق ..

أنا العجوز المتذمِّر أُزعجُ نفسي ؛ لأن عليَّ أن أقضي بقية حياتي - هذا إن بقيتُ حيًا - مَحْرُومًا حتى من مجرَّد الوهم .. محرومًا من التوهُّم .. أيًّا كان الوقت المتبقي لي في هذه الحياة .. فعليَّ - بعد أن استوعبت الدرس جيدًا - أَنْ أَقضي الباقي من عمري وأنا أعلم وأتفَهم جيدًا أن كُلَّ الادعاءات الكثيرة والشعارات الكاذبة عن تفوق الجنس البشري قد أثبتت زيفها وسقطت تمامًا مع ختام الألفية الثانية بعد ميلاد المسيح عيسى ﷺ .. وأن حلم « **العالم الجديد** » قد تحطَّمَ هنا في (سربرينيتسا) .. أجل هذه نهاية العالم التي تسبق يوم القيامة !!

وسَيتظاهر العالم بأسره بأنه أعمى وأصم وأخرس حتى يحفظ ماء وجهه . وسوف

---

(١) المقصود بالساعة ستمائة الساعة السادسة صباحًا ؛ حيث يستخدم العسكريون والعاملون في الجيش اللغة الرقمية لقراءة الساعة .

تُفْرَض كُلُّ أنواع الضغوط على جمهورية « البوسنة والهرسك » وستُدس كافة أشكال الأكاذيب والافتراءات لإجبار البوسنيين على تشويه الحقائق عن (سربرينيتسا) . كل أنواع الحيل والدسائس ستفرض على البوسنة والبوسنيين لإجبارهم حتى على تلطيخ حقيقة ما حدث لـ (سربرينيتسا) .. وتزييف ذاكرة التاريخ .

يستطيع العالم أن يفعل ما يحلو له ، طالما أنه يريد ذلك .. يُمْكِنُه أن يعمل ما يشاء .. وإلى المدَّة التي يرغب فيها ... والبوسنة كذلك .. البوسنيون أيضًا يمكن أن يقنعوا أنفسهم بالتخلي عن (سربرينيتسا) والقذف بها في بئر النسيان .. كلهم .. يُمْكِنُهم جميعًا أن يستمروا في خداع أنفسهم وهم يَدْفعونَ (سربرينيتسا) إلى أبعد نقطة مُمكنة في ذاكرتهم .. لكن لا العالم ولا البوسنة ولا أي شيء آخر يُمكنُه أن يَظلَّ كما كان قبل هذا اليوم ... لن يكون أي شيء أبدًا بنفس الحالة التي كان عليها قبل هذا اليوم .

ستذوى (سربرينيتسا) وسَتُواصلُ الضعف والذبول في عتمة عقول أبنائها الذين تركوا فيها جثث أحب الأشخاص إليهم أو أجزاء من أجسامهم ... وستذبل ذاكرتها في عتمة خلايا أدمغتهم ... أجل سينساها أولئك الذين تركوها وهم يحملون معهم ذكريات الأيام الخوالي التي عاشوها فيها على نحو طبيعي .. عندما كان لديهم - كغيرهم من البشر- مستقبل .

* * *

في جزءٍ من الثانيةِ ، تذكرتُ رحلتي إلى (زيبا) مع الطبيب (نيدريت مويكانوفيتش) .. برقت ذكرى تلك الرحلة في سماء ذهني بشكل مفاجئ كوميض البرق .

إنه ذلك الطبيب من أبناء (توزلا) . الذي أظهر بطولة فعلية وأصبح أسطورة حقيقية على خطوط الدفاع الأخيرة في (برتسكو) .. وبعد ذلك شَقَّ طريقه سيرًا على الأقدام إلى المستشفى الميداني في (سربرينيتسا) مع أربعمائة وخمسين من المتطوعين المسلَّحين بشكلٍ جيد .

عدد كبير من الجرحى المصابين بإصابات خطيرة من الذين نجحوا في اختراق

(توزلا) والعشرات منّا أيضًا ، نَدِينُ بحياتنا إلى اللَّه ﷻ ثم إلى الدكتور (نيدريت مويكانوفيتش) الجرّاح الوحيد في (سربرينيتسا) .. كان يُعالج الجراح ببراعة كبيرة .. قام بتخييط جراحنا وعمل الكثير من الغُرز الجراحية لنا جميعًا .. واستطاع أن يجمع شملنا وأن يرأب الصدع بيننا ، وفيما يتعلق بعلم « جراحة الحرب » فعل الكثير لتشجيع وتدريب أطباء آخرين أيضًا في (سربرينيتسا) ، و (زيبا) على فنون المعالجة الجراحية لإصابات الحرب .

وقد تبعتُ الدكتور (نيدريت) في عِدَّة مناسبات في سفرياته من (سربرينيتسا) إلى (زيبا) .. شققنا طريقنا كما كان يمشي (نصر الدين حوجا) [1] خلال السجاد ؛ كنَّا نزوغ بين الكمائن تارة ونسير خلالها مباشرة تارة أخرى . وفي بعض الأحيان كنا نخطو فوق الأرض المحررة ، كنَّا صامتين في أغلب الأوقات ، لكن أحيانًا كنا نتحدث لا أدري عن ماذا ، لم أعط لذلك الحديث أهمية كبيرة ؛ لذلك فأنا لا أتذكر الكثير منه . ولكن في إحدى المناسبات دارت هذه الكلمات على لسانه :

« لديَّ إحساس غريب .. كما لو أنَّ شيئًا ما يُنبئني بأنَّه في يوم ما - إن بقينا على قيد الحياة - سيتوجَّبُ علينا أن نُخفي حقيقة أنَّنا كنا في (سربرينيتسا) .. شيء ما يخبرني بأنه سيأتي الوقت الذي نضطر فيه إلى إخفاء تلك الحقيقة » .

أذكرُ أننا كنَّا نمشي في فسحة [2] وسط الغابة لا تتجاوز مساحة منطقة حارس المرمى في ملعب كرة القدم .. عندما كان يتلفظ بتلك الجملة الغريبة ، كنا نمشي على بساط من العشب الأخضر الناعم .. لم يكن ذابلًا ولا ذاويًا لم يكن مُصابًا بأي آفةٍ من الآفات التي تُصيب النباتات .. بل كان أخضر ربيعيًّا ... يزدان بخضرة الربيع الزاهية ...كان طبيعيًّا ، بل كان أبهى وألطف من العشب المهيئ خصيصًا لتزيين المنتزهات وملاعب كرة القدم تمامًا كالعشب الرباني الذي تجده على قمة جبل (أودرتس) . هذا العشب يُعرف باسم (فلاسنيسا) ... أتذكرُ تقريبًا كُلَّ ورقة عشب في تلك المنطقة .. لا زلت أذكر بوضوح كل تفاصيل ذلك المشهد .. ما زالت رائحة الهواء الذي كُنْتُ أتنفَّسُه عالقة في أنفي ... حتى أشعة الشمس الحارة التي كانت

(١) نصر الدين حوجا (Nasrudin Hodza) : شخصية خيالية معروفة في القصص والحكايات الشعبية التي تُحكى في البوسنة وهو شخص مشهور بصنع المقالب ومعروف بمزاحه وخدعه اللطيفة .

(٢) فسحة : منطقة مقطوعة الأشجار وسط الغابة - (المترجمة) .

تَضْربُنا ما زلت أحس بها وأستشعرها ... كانت كلمات الطبيب الغريبة جدًّا هي التي جعلت كُلَّ شيءٍ حولي يعلق ويلتصق جيدًا بذاكرتي .. كلماته الغير عادية حفرت كل تفاصيل تلك اللحظة في ذاكرتي .. وأصبحَ ذهني مَشْحُونًا بكل تفاصيل الصور الحيَّة التي ملأت تلك اللحظة .

لم أستطع أن أمنع نفسي عن السُّؤال :

- « ماذا تقصد بذلك ؟ » .

- « لا يهم » .

أجابَني بتلك الإجابة المُقتضبة وسَكتَ ثانيةً .

سَكتنَا وبقينا صامتين حتى وَصلنَا إلى (زيبا) .

والآن ، وبعد أن داهمَني طوفان الذكريات ... أجلس صامتًا .. مُسْتَغرِقًا في التفكير صامتًا كالقبر- حتى إنني نسيت وجود (شعبان) - كان الخوف قد أمْسكَ بِتلابيبي فلم أنطق بكلمة .. بقيتُ صامتًا ، وقد اسْتَحْوَذَ عَلَيَّ الذعر وتملكني الفزع من تحقق جزء من تلك اللعنة التي تكشفت لنا بينما كنا في الطريق إلى (زيبا) ، فوق تلك المنطقة من الغابة الخالية من الأشجار التي لم تكن أكبرَ من منطقة الجزاء في ملعب كرة قدم !!

سألني (شعبان) :

- « لماذا تصمتُ هكذا وتجلس في سَكِينَة وهُدُوء ؟ » .

- « هَلْ أنا صامِت ؟ » .

- « لم تكنْ تسكتُ أبدًا عندما تسوء الأمور وتَدْلَهِمُّ المصائب ، لم تكن تصمت هكذا في الأوضاع الصعبة والظروف القاسية .. والآن الوضع سيئ جدًّا بالفعل .. على الأقل إذا لم يُؤمَرْ القائد (ناصر) بالعودة إلى (توزلا) ؟ » .

واصلتُ صمتي ؛ لأني شَعرتُ بأنَّ (شعبان) كان بحاجة إلى أن يفصح عن كُلِّ ما في صدره وأنه كان يرغب في تفريغ ما ينوء به قلبه .. ولهذا سكت على الأقل لأمنحه الفرصة لكي يطرح بعض الحِمل عن قلبه . ويبدو أنَّ ظني كان في محله بالفعل وأن ما خمنته كان صحيحًا .. فقد واصل حديثه من حيث تَوَقَّفَ سابقًا :

- « الحديث يدور حول أنَّهُ وضبَّاطَه لم يُؤمَروا بالتوجه إلى (توزلا) ، بل إلى (زينيتسا) . ولم يكن ذلك تلبية لأمرٍ عسكري ؛ ولكن للاشتراك في فك الحصار عن (سراييفو) ... لو كان صحيحًا أن (ناصر) وضبَّاطه كان من المفترض أن يلعبوا دورًا مهمًّا في العمليات المخططة لتحرير العاصمة .. فهل القيادة العسكرية الأعلى من تلك التي في (توزلا) قد قيَّمت مسألة الأمن في (سربرينيتسا) بشكل خاطئ ؟ ولذلك فقد أصدروا الأوامر لهجمات قوات الصاعقة [١] في مؤخِّرة الجيش أملًا في إضعاف القوات الصربية حول (سراييفو) [٢] ... » .

- « فات الأوان ... الوقت الآن متأخر جدًّا لإنقاذ (سربرينيتسا) .. من الصعب على أي رجل أن يُنقذ (سربرينيتسا) بمفرده الآن .. ولكن لو أن (ناصر) بَقي في (سربرينيتسا) ، فلا أظنُّ أنَّه كان سيسمح لهم بخداعه وتضليله وما كان ليسمح بدخول « التشيتنيك » إلى البلدة .. كما لا أعتقد بأنه كان سيسمح لهؤلاء الهولانديين الجبناء بتقرير مصيره ، وما كان ليثق أيضًا بوعد منظمة حلف شمال الأطلسي « الناتو » ، بل كان سيعرفُ كيف يُحاربُ حتى الموت ... ربما سيستمر « التشيتنك » في الهجوم حتى مع بقائه في (سربرينيتسا) ، لكنهم كانوا سيعرفون بالتأكيد ما الذي كان ينتظرهم .. كانوا سيهاجموننا بالطبع ولكنهم سيكتشفون فيما بعد ما كان مُخبأ لهم » .

كنت أتحدث .. ولكن لم يتوفر لديَّ الوقت لمجرد التفكير فيما إن كنت مقتنعًا فعلًا بما أقول أم أنني كنت ببساطة أخدع نفسي ... انفجرت كلماتي وتناثرت بعيدًا مع انفجار القذائف ... إنهم يَقْصفوننا من كل الجوانب .. القذائف تسقط من كل اتجاه .. كانت مدفعيتهم تَقذفنا بوابل من الدانات في لحظة واحدة ... مائة قذيفة دفعة واحدة ... وكل لحظة كانت تسقط مئات ومئات من القذائف التي تتزايد أكثر

---

(١) قوات الصاعقة : رجال المغاوير الفدائيين أو ما يُعرف بفرقة الكوماندوز - (المترجمة) .

(٢) كانت سراييفو هدفًا للقصف المدفعي بمختلف أنواع القذائف ؛ وقد وضعت المساجد والأوقاف الإسلامية كأهداف متعمدة للقصف وحتى مستشفيات الولادة والمؤسسات الحكومية والوزارات ومحطات النقل لم تسلم من القذائف ، وقد تركز القصف على الأحياء السكنية التي يكثر فيها المسلمون واستغل الجيش الفيدرالي الثكنات العسكرية في وسط المدينة وعلى الجبال التي تحيط بالمدينة في إلقاء القذائف . وحتى الطائرات شاركت في قصف مواقع قوات الدفاع البوسنية . ويمكن القول وبكل تأكيد أن معدل القتلى يوميًا في سراييفو قد بلغ الأربعين ضحية يوميًّا . انظر : دموع سراييفو : ملحمة البوسنة والهرسك ؛ بقلم /حمدي شفيق (١٩٩٣م) - (المترجمة) .

وأكثر مع كل لحظة ... واللحظة التي أعنيها ليست « الثانية من الزمن » .. اللحظة هنا ليس لها علاقة بعقرب الثواني الذي يدور في قرص الساعة .. فتلك اللحظات يفصل بينها فاصل زمني يساوي « ثانية من الزمن » ... أما اللحظة التي أعنيها فليس فيها أي فاصل زمني .. كانت المئات من القذائف تَهْبطُ علينا بشكل مستمر دون انقطاع ... لم تكن قبل الآن على هذا النحو أبدًا .. إنها ليست مجرد قذائف عادية - صحيح أن القذائف لا يُمكن أن تَكونَ عادية بأي حال - إلا أنها بهذه الكثافة وبهذه الأعداد الهائلة لم تكن عادية بشكل استثنائي ... هذه القذائف كانت غير عادية أبدًا وغريبة .... ما إن تنفجر حتى تتصاعد منها موجات دائرية من الغبار المحمل بغازات الأعصاب .. ترتفع وترتفع ثم تستقر على بقايا الأسطح .. والأسفَلْت (١) ، وفوق ما تبقى من العشب الأخضر وبراعم الأشجار الواعدة ... اختفت البلدة بأكملها تحت الحطام !

لقد خُدعنا بالوعود .. انطَلَتْ علينا الحيلَةُ .. ونفذنا الأوامر التي تُلزمنا بالتخلي عن سلاحنا ، وألا نُبدي أي مقاومة حتى لا نُعيق تدخُّلَ منظمة حلف شمال الأطلسي لتسوية النزاع .. ولم يعد لدينا مكان لإبداء أي مقاومة .. فقد سمحوا لقوات « التشيتنيك » باجتياح بلدتنا بأكملها .. سمحوا لهم بأن يدخلوا إلى قلب المدينة !!

* * *

وبدأ النزوح الجماعي ...

كان الأهالي والجيشُ يندفعون ويُسرعونَ باتجاه مبنى مكتب البريد السابق ... إنه المخرجُ الوحيدُ للبلدة ..

وتولتْ منظمة « أطباء بلا حدود » العناية بالجرحى والمصابين ، كانوا يأخذونهم إلى القاعدة الرئيسية لقوات الحماية وحفظ الأمن الدولية في (بوتوتساري) .

كانوا يتركون الأطفال والنساء وكبار السن على أمل أن تلتزم قوات حفظ الأمن الدولية بتعهداتها إزاء السكان المدنيين وأن تتمسك بضمان أمن المدنيين وحمايتهم وأنها ستقبلهم في (بوتوتساري) ، لم يكونوا من الأطفال والنساء المسنين فحسب ، بل كان برفقتهم

(١) أسْفَلْت : القِير أو الزفت الذي تُعبد به الطرقات - (المترجمة) .

أيضًا بعض الذكور البالغين .. كان هناك العديد منهم ، يُمكِنُ أن يُحسَب عددهم بالمئات !!

تقدم موكب النازحين ، وعلى أطراف البلدة – على بُعد بِضْعَة مئات من الأمتار إلى الأمام – عند نقطة فرعية من نقاط قوات الحماية الدولية ، حيث يقع مصنع « فيزيونيتسا » ، وعلى أرض ذلك المصنع القديم – المسيَّج من كل جانب – سيلتقون بالخيانة الكبرى من قبل الجنود الهولنديين ، فبدلًا من أن يُحاولوا – على الأقل– أن يَتمسَّكُوا بقناع المنقذ وأن يؤدوا – بشكلٍ مسرحيٍّ – دور الحُماة ، كانوا يُرحِّبُون بالصرب برَفع ثلاثة أصابع ، والصرب – دون خوف من أي عقاب – قاموا بتفجير قنبلة وسط هذا الحشد من النازحين ... لقد بدأت المذبحة ...

إنه الغَدْر .. الخيَانَة !!

أثبت الهولنديون – الذين كان كل ما نعرفه عنهم أنَّهم يَجيئونَ من بلاد جميلة – أنهم يغرقون إلى الحضيض الأكثر خزيًا من الخيانة والجبن وأنهم كانوا بعيدين تمامًا عن الحدِّ الأدنى من الإنسانية ؛ لكن الأهالي لم يَستطيعوا أن يصدقوا ما تراه عيونُهم ولقناعتهم التامة وثقتهم الأكيدة بأنَّ ذلك لا يُمكن أن يَحدثَ .. استمروا في الاندفاع باتجاه القاعدة الهولندية في (بوتوتساري) .

كنا نمشي مصطفين في صف واحد ... طابور من البشر يتحرك اثنان إلى الأمام ثم يتبعهما اثنان آخران .. بلغة الأرقام كنا تقريبًا خمسة عشرَ ألفًا ... هذا بخلاف المجموعات التي كانت تَلتحق بنا من الأماكن الأخرى . كنا نَتوجَّه إلى (توزلا) في مُحَاولة للهُرُوب وكسر الحصار الذي كان يطوق (سربرينيتسا) . حتى مجرد فكرة الهرب كانت مأساوية وتراجيدية على نحو مجنون تقريبًا ؛ لكنني لم أكن خائفًا أبدًا ، بل كنت أَشْعرُ بأنَّنا قادرون على سَحْق أي شيءٍ يَقِفُ في طريقنا – لو كنا تحت قيادة أخرى – لكان الأفضل لنا أن نتوجَّه إلى (ولاسنيتسا) ونُحرِّرُها ، أَو نحو (زفورنيك) بدلًا من التسلل خلال البرية باتجاه (نيزوك) !!

وقع الاختيار عليَّ لكي أكُونَ على رأس الطابور .. وهو ما يعني أنني سأحظى بأقلِّ فرصة للنجاة وأقل احتمال للبقاء على قيد الحياة ، لكنني كنت مقتنعًا بأننا جميعًا كان لدَينا فرصة عظيمة للهُرُوب من الحصار .

كان الدكتور (ماهميتس) يُحاولُ تَحذيرنا من حمل الكثير من الأمتعة .. طلب

منا التخلُّص من كل شيء عدا ما تبقى لدينا من الأسلحة وأخبرنا أن كل ما سوى ذلك مهما تصورنا أن لا غنى عنه - بما في ذلك الطعام - سيعرقل مسيرتنا وسَيُعيقُ رحلتَنا الطويلة .. وقال : إن أهم شيء هو أن نجلب معنا كمية من الملحِ والسكر ، على الأقل نِصْف كيلو جرام من كل منهما :

- « إن كان هناك شيء يُمكنه أن يُنقذ حياتنا .. فهو لعق السُّكر على نحو مُتَقَطِّع وعلى فترات مُتَفَرِّقة .. فهذا ما سَيُعوِّضُ غياب الطعام ، كما أن الملحَ بصفة خاصة مهمٌّ وضروري للغاية ؛ لأن مستوى الصوديوم في جسم الكائن الحي يَهبطُ بسرعة في حالات الإعياء أو الخوف والفزع ، وهو ما يُؤدِّي إلى الإصابة بأعراض الهلوسة [١] ، حتى بدون أن يستعمل العدو الغازات السامة ، ونحن قد تعرَّضنا بالفعل إلى كل ذلك » .

أنا لا أَعْرِفُ كم عدد الذين أرادوا أن يستمعوا إليه لكنني استمعتُ إليه .

كان أقلُّ ما يُمْكِنُني أن أفعله هو الاستماع إلى نصائحه الطبية خارج المستشفى .. فقد كنتُ مريضة على أي حال .

* * *

كان علينا أن نغادر في الساعة ألف وثلاثمائة [٢] (١٣:٠٠) ، لا أدري ما إن كانت الساعة ثلاثة عشر ، صفر - صفر بالضبط ، لكن الصفر الوحيد الأكيد والصفر المُحقق الذي لا يقبلُ الجدال ولا خلاف عليه هو معدل قصف منظمة حلف شمال الأُطلسي « الناتو » ، في تلك اللحظة بالضبط ، ظهرت طائرتان .. وأسقطت كل منهما قنبلة واحدة .. كان الناس يتوافدون في سلسلة من الأُمواج المتتالية وهم ينظرون إلى الوراء نحو (سربرينيتسا) .. كنا نُراقبُ السماء .. ما من أثر ولا إشارة لظهور المزيد

---

(١) الهلوسة (Hallucination) : اضطراب عصبي يجعل الفرد يشعر بأشياء لا يشعر بها الآخرون ، والهلاوس قد تكون « هلاوس سمعية » auditory hallcinations حيث يعتقد المريض أنه يسمع أصواتًا لا يسمعها الآخرون ، وقد تكون « هلاوس بصرية » visual hallcinations حيث يظن أنه يرى أشياءً أو أشخاصًا أو حيوانات بينما لا يراها الآخرون ، وقد تظهر الهلاوس مرافقة لبعض الأمراض العقلية الذهنية كما يمكن إثارة الهلاوس من خلال تعاطي الكحول والمخدرات والعقاقير مثل عقار الـ (LSD) - (المُترجمة) .

(٢) المقصود بالساعة ألف وثلاثمائة : الساعة الواحدة ظهرًا ، حيث يستخدم العسكريون والعاملون في الجيش اللغة الرقمية لقراءة الساعة .

من الطائرات الأمريكية .. التحليق الهزلي الذي قامت به الطائرتان منذ قليل خلَّف لدينا انطباعًا بأن الطائرتين كانتا تقدمان استعراضًا جويًا ارتجاليًا [١] تمامًا على شرف الغزو التشيتنيكي لـ (سربرينيتسا) احتفالًا بالاحتلال الصربي !! أو أنهما كانتا تقدمان التحية الأخيرة من سيد الحرب وزَعِيمها إلى عناصر المقاومة والمدافعين عن (سربرينيتسا) ... استدارت الطائرتان بسرعة واختفت كل منهما في جوف السماء .. ظهرت كل منهما بسرعة واختفت بسرعة كما يلمَعُ جسم معدني صغير في شعاع الشمس ! .

قررتُ ألا أنظر إلى الوراء .. أنزلت عيوني نحو الأرض . وعلى نحو ميكانيكي نفذتُ أمر القيادة بالبَدء بالتحرك ... ومشيتُ كما لو كُنتُ عائدًا من جنازة .. تقدمت للأمام كمن يعود من دفن مَيّت .. قمتُ بذلك فقط لكي أتجنب النظر إلى الوراء .. تقدمت إلى الأمام كإنسان آلي لأني لم أرغب في أن أنظرَ للوراء .

كُنتُ أخشى إن استدرتُ إلى الوراء ، أن تُذكِّرني انعكاسات أشعة الشمس على الطائرات الأمريكية الآخذة في الاختفاء في سماء (سربرينيتسا) بالشمسين المتجاورتين جنبًا إلى جنب . تلك الشموس التي ذكرها جَدِّي في مذكراته عن علامات يوم الحساب الأصغر التي تعلمها من أصدقائه البورياتيين ، أولئك المسلمون الذين يسكنون بعيدًا جدًّا بالقرب من مشرق الشمس ؛ حيث تتحدث التقاليد والموروثات الشفهية لديهم عن شمسين تظهران معًا في السماء كعلامة من علامات يوم الحساب الأصغر . والآن تجد هاتان الشمسان لنفسيهما مكانًا هنا في سماء أقصى شرق البوسنة ! .

إذن إنها نهاية العالم بالنسبة لـ (سربرينيتسا) !!

أجل إنها كذلك ..

نعم ..

أيها الصُبح هل تلقيت تحية مَن لا بُد أن يلقى حتفه ؟ ..

(١) ارتجاليًا : ابنُ ساعَتِهِ ، غَيْرُ مُحضَّر .

.. تحية إنسان عليه أن يموتَ الآن ؟!

آف ، دومافيا أرغنتاريا

أديو ، بارتيا أرغنتي

Ave Domavia Argentaria!

Adio, patria argenti!

الصلاة والتحية على أرض أجدادي الفضِّية ..

عليك السلام والتحية .. يا أرض أجدادي الفضِّية ..

عسى أن تَظلي مصونة إلى الأبدية ..

محمية عبر الخلود .. يا أرض أجدادي الفضية [١] ..

* * *

لم نتوقَّفْ حتى وصلنا (بوليبم) . كانت تلك البلدة جزءًا من أرضنا الحرة - الغير مُحتلة - التي تمتد في عمق الأراضي الصربية ... وهناك كان علينا أن نُودِّعَ الحرية ... وكان أمامنا نحو ثمانين كيلو متر من السير على امتداد القرى البوسنية المحروقة والمُدمرة .. خلال الحقول والغابات ، وعلى طول الجداول ... على امتداد المناطق الوعرة التي أقدم « التشيتنيك » على استئصال البوسنيين منها قبل ثلاث سنوات أو سنتين ونصف ... وخلفنا كانت تَسقطُ الأُراضي الحرة التابعة ا (سربرينيتسا) ... وقوات « التشيتنيك » كانت على بُعد خطوة واحدة فقط من خلفنا ومن أمامنا .. كانوا في كل مكان .. من فوقنا بالمروحيات والطائرات الصغيرة من النوع الذي يستطيع من خلال الطيران على ارتفاع منخفض أن يهرب من رادارات [٢] منظمة

---

(١) كلمات لاتينية في حب سربرينيتسا التي كان اسمها اللاتيني أرغنتاريا (Argentaria) ومعناها الفضة ؛ وذلك لغناها بمعدن الفضة وكثرة مناجم الفضة فيها . . ولذلك فإن سربرينيتسا تُعرف بأرض الفضة - (المُترجمة) .

(٢) الرادار Radar : جهاز يستخدم الموجات اللاسلكية ذات التردد فوق العالي لاكتشاف الأجسام النائية أو غير المنظورة (كالطائرات والسفن والغواصات وغيرها) وتحديد مواقعها . ويعتمد الرادار على انعكاس هذه الموجات عن الجسم البعيد (الطائرة أو الغواصة ... إلخ) في تحديد اتجاه ذلك الجسم والمسافة التي تفصله عن مصدر الإشارات اللاسلكية وأحيانًا في تقدير مدى سرعته أيضًا ، وقد اخترع الرادار في إنجلترا عام ١٩٣٥م ، على وجه التقريب ثم طور وحسن بعد ذلك ، وقد استخدم باديءَ الأُمر لاكتشاف طائرات العدو المهاجمة ، وتمكين المقاتلات من اعتراضها ، ومساعدة الطيارين على اكتشاف

حلف شمال الأطلسي « الناتو » ..كانت الطائرات تُمطِرُنا بالغازات السامةِ كما لو كانت ترش المنطقة بمبيد الحشرات الذي يُستعمل ضد الأعشاب الضارة [١] في الحقول المزروعة .. كان « التشيتنيك » يقصفوننا بشدة من فوق كل تَلٍّ .. وكانوا يترصدُون لنا ويتربصون بنا في المكامِن [٢] .. يكمنون لنا في كَمِين ويَنتظرونا هناك .

هذه هي عملية « صيد البشر » .. حيث يقوم الصيادون بدفع الفرائس إلى الوقوع في الشرك ! .

إذا كان علينا أن نَصطف خلف بعضنا البعض مع ترك مسافة نحو خطوة أو خطوة ونصف بين كل واحد منا ، فسيمتد طول هذا الطابور من البشر إلى ما يزيد عن ثلاثين كيلو متر . سَنشكل قافلة بشرية يتجاوز طولها الثلاثين كيلو متر !

ومثل هذا العدد الهائل من البشر لا يُمكنه أن يفلت للحظة من عيون « التشيتنيك » المُتربصة ...

لقد وقعنا في الفخِّ .. وتم حصارنا كليًا ، فقد كنا نتحرك في حلقةٍ مُغلقة .. بعد أن طوقنا « التشيتنيك » من كل اتجاه ..

وسنبقى على هذه الحال لخمسة أيام وست ليالٍ ...

بعد ذلك - وبحسب ما تسمح به حرية حركتنا - لن ينجو من مخالب الموت أكثر من خمسة آلاف . وكان القائد (ناصر) قد جمع في (توزلا) ثلاثمائة متطوع .. انطلقوا لاختراق الأرض الحرة في (زفورنيك) وساروا إلى معاقل « التشيتنيك » في منطقة (باليكوفيتسي) حيث قام « التشيتنيك » بالفعل بحَفر

الأهداف التي يريدون قصفها بالقنابل . ويعتبر الرادار هو السلاح الذي كسب به الإنجليز معركة بريطانيا في الحرب العالمية الثانية ، كما يستخدم الرادار في الطيران المدني أيضًا ، حيث يوجه الطيارين وينير لهم سبيلهم في الجو ، ويساعدهم على الهبوط بسلام في حلكة الليل أو غمرة الضباب - (المُترجمة) .

(١) الأعشاب الضارة (Weeds) : نباتات غير مفيدة تنمو في التربة الزراعية فتشوه جمال الأراضي الزراعية وتعوق نمو النباتات والمزروعات بامتصاصها الغذاء والرطوبة من التربة إلا أنها قد تكون نافعة في بعض الأحيان ؛ إذ تعمل على منع التعريات في الأراضي غير المحروثة وتزين الأراضي القاحلة - (المُترجمة) .

(٢) المكامِن : جمع كَمِين وهو المكمَن أو الفخُّ - (المُترجمة) .

الخنادق هناك وكانوا ينتظروننا للإجهاز علينا وإنهائنا تمامًا .

والعديد منا كانوا يرغبون في الإشارة أو التلميح إلى أنه قد لا ينجو منا أيٌّ أحد ما لم يصل (ناصر) بالمساعدة .

وأغلب الذين نجوا سوف يُواصلون التساؤل .. وسيستمرون في سُؤال أنفسهم طيلة ما تبقى من أعمارهم لماذا تُرك الممر الحرُّ مفتوحًا لسبع ساعاتٍ فقط ؟ وقد تولى جنودُ الفَيْلَق الثاني - الذين وَصلوا حديثًا بعد أن عادوا من فترات الراحة - السيطرة على الممر ، ولو كانت لديهم أوامر بالسيطرة على الممر لبضع ساعاتٍ أخرى أو ليوم ، لكان من المُمكن إنقاذ الكثير والكثير من المُنهَكِين والمزيد من أولئك الذين لم يستطيعوا أن يُواصلوا مسيرة اختراق الحصار .

لَستُ متأكّدًا ما إن كان أيٌّ منَّا سَيشعر بالسعادة لبقائه على قيد الحياة ... أشك في ذلك ؛ لأن المرارة ستمتصهم حتى آخر قطرة في أرواحهم !!

أما أنا فكنتُ أَعْرفُ بأنني قد مُتُّ بالفعل في (سربرينيتسا) حتى قبل أن نبدأ عملية الاختراق التي لن ينجو منها اثنا عشر أو ثلاثة عشر ألفًا منا ! لقد متُّ بالتحديد في فصل الربيع قبل عامين عندما أعلنت الأمم المتحدة - من قصرها الفخم المُطل على النهر الشرقي في (نيويورك) - المدينة البعيدة جدًّا - أن بلدتي الأم ومسقط رأسي (سربرينيتسا) جزءٌ من أراضيها ، وربما مت قبل ذلك !

في الليلة التي سبقت ذلك الإعلان ، عندما كنتُ أرى في منامي أنني أجوب الغابة .. كنتُ أحلمُ بموتي .. حلمتُ حلمًا جميلًا . الحلم الأكثر روعةً ، بل ألطف وأروع حلم ممكن ، ثم أدركتُ أن الحلمَ ليس له علاقة بي .. الآن أستطيع أن أُميِّز بوضوح أنني كنتُ أحلمُ بموت رجل عزيز علي .. رجل أعز عليَّ حتى من نفسي قبل أن أَصحو من حلمي ، وبينما كنتُ لا أزال أمْشي في الغابة بخطًى رشيقة وسريعة ، تعثَّرتُ بجذر معقود من جذور شجر الزان [1] المُمتدة على طول الطريق في الغابة ، فقذف بي بعيدًا .. ألقى بي وسط رتل

(١) شجر الزان (Beech) : من أشجار الغابات وهو من أظرفها ينمو في جميع الأراضي إلا ذات الرطوبة المفرطة . ساقه مزينة بقشرة سنجابية ملساء . يصل ارتفاعه إلى ٢٠ مترًا مجردة عن الفروع . تنقبض بالجفاف كثيرًا ، وتستعمل في هياكل السفن وفي كل الأعمال التي يوضع فيها الخشب في الماء وهو أفضل

من التعساء سيئ الحظ من سكان (سربرينيتسا) الذين بقوا على قيد الحياة ، وجدت نفسي مُمَدَّدًا على الأرض باسطًا ذراعي وقدمي وعندما فتحت عيني رأيتُ السماء .. ومن بين السحاب الأبيض .. رأيت الجنة أيضًا .. وداخل الجنة ، رأيتُ أنها لم تكن لي .

لم أرغب في الاستيقاظ من الحلم ، لكن الحورية ذات العيون النجلاء الواسعة كانت تحاولُ إقناعي بأنه لم يحن دوري بعد . حاولتُ إقناعها بغير ذلك واجتهدتُ أن أغلبها بالحُجَّة .. أخبرتُها بأنني لا بد أن ألقى حتفي الآن ، لا بد أن أموت الآن حتى لو لم تكن السماء تَنتظِرُني ...

أردتُ أن يُسمَحَ لي بالموت فحسب ... أن تُتاح لي فرصة الموت .. أن أنعم بنعمة الموت ... كُنتُ عنيدًا ولحوحًا في طلبي وكان عليها أن تُظهر لي من الذي حَلمتُ به ... وبينما كنتُ في انتظار أن تُريني أخيرًا من يكون ذلك الرجل .. كان (أيوب غوليتش) يبتسم لي من بين رياض [1] الجنة !

قلتُ لنفسي : هذا الرجل قد يلقى منيَّته هذا الصباح ، أمام عيني مباشرةً ! .

لهذا السبب وَصلتُ إلى (توزلا) في حالة من اليأس والإحباط التام لأنني ما زلت أعيش في هذا العالم .. لأنني ما زلت حيًا بين الأحياء ، كنتُ أميلُ مُستندًا على دُعامة لسياج في (تسيرسكا) ، حافيًا بلا نعال ، بأقدامي المُتورمة التي انتفخَت بحيث تجاوز حجمها كل مقاييس الأحذية - صارت تقريبًا بحجم قبر لطفلٍ صغير - كنت أضعُ على رأسي عمامةً وضعتها بشكل مرتجل ، كانت عبارة عن قميصي المُهترئ وأرتدي سِروالي المُمَزَّقِ الذي لا تزال بقايا شرائطه مُعلقةٌ على عظام وَركي ..

كُنتُ أمشي عبر الأراضي البوسنية الحرة - الغير محتلة - كما لو كُنتُ أغرقُ في أسوأ كابوس يُمكنني أن أراه ، الكابوس الذي انتهى بالنبأ الذي بلغني عن اختفاء ثلاثة آلاف مدني من الرجال والنساء والأولاد الصغار في منطقة (بوتوتساري) وفقد أي أثر من أولئك الثلاثة آلاف مدني الذين وضعوا أنفسهم تحت حماية قوات الحماية الدولية التابعة للأمم المتحدة ! .

من غيره من الأخشاب لصنع المجاديف ؛ ثمر الزان يؤكل ويتحصل منه على الزيت - (المُترجمة) .

(١) رياض : جمع (روضَة) وهي الحديقة أو البُستان أو المرج الأخضر - (المترجمة) .

الشيء الوحيد الذي ما زلتُ قادرًا على فعله هو أن أتذكر اسمَ الكُولُونيل [١] الهولندي الذي غير مسارهم وساقهم إلى « التشيتنيك » ... (**كاريمانز**) .. Karemans ! ذلك هو اسمُه .. Karemans .

وفي (بوتوتساري) أيضًا ، أقدمت خمسة عشر امرأة من النساء الشابات - المُثقلات بمشاعر الخزي والعار - على شنق أنفسهن بعد أن تم اغتصابهن [٢] .. كن يُعلِّقن أنفسهن على الأغصان المنخفضة من الأشجار ، في الوقت الذي كان فيه (**كاريمانز**) يشربُ نخب زميله الصربي ، الضابط (ملاديتش) في قاعدة قوات الحماية الدولية .

الشابات الأخريات مُنِعنَ من شنق أنفسهم ... حيل بينهن وبين الخلاص بالموت .. وبوصفهن من غنائم الحرب ، أُجبرن كسبايا على أن يُصبحن جزءًا من البغايا والعاهرات المُتجولات اللاتي يزرن مواقع قوات « التشيتنيك » ويطفن بها مُتَنَقِّلات من موقع لآخر .

أجل الشيء الوحيد الذي ما زلتُ قادرًا على تذكره جيدًا هو اسمُ ذلك الكُولُونيل الهولندي الذي قام أيضًا بتسليمهم إلى « التشيتنيك » (**كاريمانز**) .. Karemans !

إنه هو ..

كاريمانز ..

---

(١) كُولُونيل : عَقِيد في الجيش - (المترجمة) .

(٢) انتبه العالم مبكرًا لتفشي جريمة اغتصاب البوسنيات المسلمات في ثنايا الحرب التي شنها الصرب على من اعتبروهم دائمًا أعداءهم التاريخيين ، وقد أشار التقرير الصادر عن منظمة العفو الدولية سنة ١٩٩٣م إلى ذلك الواقع وطرح العدد ثلاث آلاف للمغتصبات ، ولكن الأيام التي تلت صدور التقرير أثبتت أن العدد لم يتوقف عند ذلك الرقم وإلى اليوم لا توجد إحصائية رسمية عنهن ، هناك معلومات شحيحة من الأمم المتحدة ، ومن المنظمات المهتمة بهذه الظاهرة ، وحسب البعض فإنها تشمل حوالي عشرين ألف امرأة وأحدث الأرقام تقول إنهن بين خمس عشرة وعشرين ألف ضحية . وكان القصد من اغتصاب البوسنيات هو تدمير المرأة المسلمة البوسنية ، فالاغتصاب كان يتم بشكل منظم تمامًا ؛ كما اغتصبت فتيات لم يتجاوز عمرهن عشر سنوات واغتصبت نسوة عجائز فوق الستين من عمرهن . وما من شك في أن الاغتصاب في البوسنة كان عملًا سياسيًا وجزءًا من مخطط عدواني استهدف (البوسنة والهرسك) ، لم يكن المقصود هو الاعتداء الجسدي فقط ، فكما تم التخطيط لمهاجمة المدن والقرى بالسلاح الثقيل ، فقد قرر المُعتدون أيضًا أن يغتصبوا أكبر عدد ممكن من النساء ليهينوا ويؤثروا في كل المواطنين سلبيًا - (المُترجمة) .

كاريمانز ..

كاريمانز ..

كاريمانز ..

(**كاريمانز**) .... يبدو أنني في نَوبَة جنون [١] .. حيث لا أزال أُكرِّر اسمَ ذلك الكُولُونِيل الهولندي (**كاريمانز**) .... الذي سمعتُ أنه قد أتى من بلادٍ جميلة ...

أغمضتُ عينيَّ صارخًا صرخةً ثاقبة مُدوية :

(**كاااريماااانز**) ....

صرختُ بكل جهدي وأنا أجفلُ من الألم ..كما لو كنت أتقيأ خالص حزني ووجعي ... صرختُ بذلك الاسم من أعمق نقطة في رئتيَّ وسط طابور من رفاقي الموتى ، الطابور الذي صرتُ أنا الوحيدُ فيه ... في رتل من الموتى لم يكن فيه حي غيري ..

كان (**كاريمانز**) من هولندا ، التي لطاما كنا نظن أنها بلاد لطيفة ..

وبَعدَ اسمه ظللت أكرِّر الأرقام **٨١٩** بشكل مسعور ، و **٨٣٦** ، من أين حَصَلتُ عَليها ؟ ماذا يمكن أن تَعْني تلك الأرقام ؟ لا شيء ؛ إلا أن قرارات الأمم المتحدة حول المناطق الآمنة كانت قد صدرت تحت هذه الأرقام .

كاريمانز ..

٨٣٦ ..

٨١٩ ..

٨١٩ كار ٨٣٦ يمانز ..

كا .. ٨ .. ر ٣ ،. ..ي ١ ،. .. ما .. ٩ .. ن ٦ .. ز ١ ،. .. !! النهر الشرقي ... الشرق النهري ... نيويورك ... يورك نيو !! .

---

(١) الجنون (Insanity) : أخطر الاضطرابات التي تصيب الدماغ وتؤدي إلى ذهاب العقل وفساده ، ويتسم بانهيار عقلي مصحوب بتضعضع عاطفي شديد ، وقد يُصاب المرء بنوبات من الجنون المؤقت كما قد تطرأ تغيرات على الدماغ تؤدي إلى توقفه عن النمو ، وقد يعتريه ضمور شديد وتلف في الخلايا الدماغية وتغيرات في قشرة الدماغ وهو ما يؤدي إلى ما يُعرف بالجنون الدائم – (المُترجمة) .

هل هذا هو الانهيار العصبي ... الجنون ؟ أم أنه مجرد انهيار الفهم المنطقي بعد أن تداعت بنية العالم الحديث الذي أعلن الديمقراطية كنظام لحكم الحضارة الأكثر رقيًا وتقدمًا ؟ لا أدري ...فذلك أبعد من حدود إدراكي ... خصوصًا وأنني لم أعد في حالتي العقلية الطبيعية .. لَستُ في حالة عقلية سليمة على الإطلاق . وليس لي الحقُّ في التفكير أكثر .

من مكان ما ، كنتُ أُلاحظُ بأن الأطفال يهربون منِّي وكانت التفاتة مني نحوهم تجعلهم يهرعون مختفين في الأزقة ومداخل البيوت ... وحتى الكلاب الجرباء التي لا يسلم منها المارة كانت تبتعدُ من طريقي ... كانت تنبحني فقط عن بعد غير مُتجاسرة على الاقتراب مني .. والنساء العجائز كن يرتعدن من الخوف عندما تقع عيونهن عليَّ ، كن يَنسحبن داخل أنفسهن حيث يقمن بإخفاء رؤوسهن داخل صدورهن ويبصقن في صدورهن الذابلة ! .

كنت شبحًا حيًا .. هيكلًا مُظلمًا يقف إلى جانب الطريق وينظر في اتجاه المجهول .. كائنًا خُرافيًا من عالمٍ غريب ... كُنتُ إنسانًا من زمانٍ مختلف ...

كنت أشبه ما يكون بإنسان العصر الحجري .. الإنسان الأول الذي ابتدعه (داروين) [1] .. تلك الوحوش الهَمَجِية التي نراها في الأفلام .. فهكذا يبدو وحش (داروين) عندما يرجعُ من نهار طويل قضاه وهو يطاردُ فريسته دون أن ينجح في صيدها والإمساك بها ، ولا في سحب الذكر - من نفس ذلك الجنس البشري - الميت من شعره ؛ ولا في جلب الأنثى - من جنس البشر أيضًا - والتي ما زالت حيَّةً - وحملها على كتفيه كغنيمة ... ولكن مخرج الفيلم لا يَهتمُّ بمصير المُطاردين الذين كان يلاحقهم وتمكنوا - بأُعجوبة - من الهرب والنجاة بحياتهم والفيلم لا يلفت الانتباه إليهم ، ولهذا السبب لم أستطع أن أقارنَ نفسي بأحد هؤلاء .. على الرغم من أنَّني أَشْبههم لدرجةٍ كبيرة .

---

(١) تشارلز روبرت داروين (Charles Robert Darwin) (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) : عالم حيوان ، إنجليزي الجنسية ، ولد في إنجلترا في ١٢ فبراير ١٨٠٩م ، وتوفي في ١٩ إبريل ١٨٨٢م ، اشتهر بنظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي حول نشأة الإنسان ، غير أن (داروين) قد واجه بعض ردود الفعل المناوئة لنظريته المخالفة لعقيدة الديانات السماوية - (المترجمة) .

وفي (توزلا) ، وضعوني أمام صندوق عتيق كانت الصور الملونة تتحرك من خلاله .. وبدلًا من صور الأكراد المسعورين الذين كانوا يتدافعون باهتياج شديد من أجل شبكة الإمدادات الغذائية المُتدلية من المروحية ، رَأيتُ تلك الصور في بلدتي ، ومن مقر قيادتهم في (سربرينيتسا) كان البطل الصربي الرئيسي الذي يقوم بدور قائدهم (ملاديتش) يصيح ليجعل صوته مسموعًا .. كان يصرخ تقريبًا ليُسمع الناس صوته :

- « ها قد انتقمنا أخيرًا من الأتراك - هذه هي نهايةُ تمردنا وثوراتنا ضد الداهية [1] » !

يا إلهي ، إنها الأمور التي ما زالوا يتذكرونها ، منذ متى يتذكرونها ؟ وبالطريقة التي تَذكّروها بها !!

وفي لحظة ، قفزت إلى ذهني الحقائق التي ظلت مخفية لمدة طويلة والتي ما كانت تُقرأ في كتب التاريخ المدرسية أو في الملاحم الشعرية ولكنها ما زالت تسطع في سماء عقلي :

« قمَعَ البوسنيون الانتفاضة الصربية الأولى التي عُرفت بالتمرد ضد « الداهية » .. وقد نَجحت الانتفاضة الثانيةُ فقط ؛ لأن الجنود البوسنيين رفضوا الامتثال لأوامر (إسطنبول) ولم يرغبوا في الاصطدام مرةً ثانيةً بالصرب المتغطرسين في الباشالوك [2] بـ (بلغراد) . و كانت النتيجة أن كَافأ البابُ العالي [3] صربيا بدولة على حساب البوسنة ، وبدلًا من أن

(١) الداهية : الطاغية المستبد - ينطقها الصرب كما تُنطق بالعربية تمامًا - ويُستَعملُ هذا التعبير لوصف الانكشاريين ، وهم الجنود العثمانيون الذين استولوا على صربيا في بداية القرن التاسع عشر ، والانكشاري (Janissary) كان في الأصل لقب يطلق على الجندي العثماني الذي يُجند كرقيق للسلطان ، ولكن منذ منتصف القرن السابع عشر صار يُجند في الجيش كغيره من الجنود المسلمين العاديين ؛ حيث أسس « عثمان بن أدرخان » جيشًا خاصًا تربى أفراده منذ الصغر تربية دينية خالصة ودربوا تدريبًا عسكريًّا راقيًا وقد سمي هذا الجيش المكرس للجهاد الـ « يني شاريه » وتعني العسكر الجديد حُرفت إلى « الانكشارية » وجرى تشويه صورتهم فى كتب التاريخ ، فقد نشأت الدولة العثمانية نشأة إسلامية خالصة مشبوبة بإيمان عميق متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة ، وكانت أحلى عبارة على ألسنة الجنود العثمانيين (نسبة إلى جدهم عثمان) عند التنادي على الجهاد « إما غازٍ وإما شهيد » وقد أطلق على زعيمها لقب الغازي أي المجاهد في سبيل الله - (المُترجمة) .

(٢) الباشالوك (Pashaluk) : اسم عثماني يطلق على المنطقة التي يحكمها الباشا - (المُترجمة) .

(٣) البابُ العالي : اسم عثماني يطلق على البرلمان أو مجلس الشعب أو الأمَّة - (المُترجمة) .

يُكافئ محاربيه الشجعان أخيرًا بدولة مستقلة ، أخمد انتفاضة البوسنيين بقسوة ووحشية تحت قيادة القائد النقيب (حسين غراداشكيفتش بك) لصالح التوسُّع السريع لصربيا بقدر امتداد نهر (درينا) » .

هناك أناس بل وشعوب وأمم بأسرها يعرفون فقط كيف يَتذكَّرون جيدًا الشرَّ الذي وقع لهم وأقل أذًى مسهم ذات يوم ؛ ولكنهم لا يُحسنون تذكر أي شيء سوى الإساءة التي تعرضوا إليها ، ولا يعرفون كيف يتذكَّرون الخير والأمور الحسنة التي حظوا بها ، إنهم يَختارون بدلًا من ذلك أن يعملوا بجد على تذكير الناس بالأحداث السيئة والأفعال الشريرة التي ارتكبت بحقهم ؟

* * *

في السنوات المُبكرة التي تلت الحرب ، وأثناء سفري إلى (سراييفو) وبينما كنت أنظرُ إلى نهر (يادار) من نافذة الحافلة ، اكتشفت كيف لم يخطر ببالي من قبل أنه كان نهرًا عميقًا ، كان دائمًا أخضر اللون فحسب . لاحظتُ أنه كان سريعًا أيضًا .. كان يجري ويندفع بسرعة ولكن عمقه فقط هو ما جعله بالكاد نهرًا .. كان يُعد نهرًا تجاوزًا .. يُمكِنُ القول بأنه كان جدولًا صغيرًا لطيفًا لونه أخضر . لكن من مَوقِعي هذا ، وفي مواجهته مباشرة ، كان (يادار) نهرًا مُكتمل الأهلية ... نهرًا سريع الجريان وعميقًا .. كان هناك عشرة منا تقريبًا ، كان علينا أن نتشابك بالأيدي لكي نعبره .

عبرنا إلى الضفة الأخرى بالقُرب من مقهى « ديوجوم » الذي تمتلكه عائلة (كافازباشيتس) البوسنية .. تلك العائلة العريقة من (نوفا كاسابا) .

* * *

كانت قُرى بلدية (تسيرسكا) تتمدد أمامنا .. رأينا حطام المنازل ، والدمار المحيط بالمدينة من الجهات كلها ... تلك الأطلال المُهدمة التي بطشت بها يد الحرب ، كانت كل قرية أشبه بمدينة أشباح أكثر شبهًا بصور فيلم ، « برلين ووارسو » . في الحقيقة كانت البيوت في قُرى (تِسيرسكا) صغيرة جدًّا بالمقارنة مع البيوت في (برلين) ، و (وارسو) ؛ إلا أن شوارع تلك المُدن الكبيرة لم تكن تنمو فيها

الأعشاب .. أما في شوارع القرى في (تسيرسكا) فالحشائش تنمو الآن على الجانبين ... كُنتُ أمشي خلال الأعشاب والحشائش الضارة السريعة النمو التي انبثقت كالشياطين من بين حصباء [١] الطريق الناعمة ... كل الشوارع كانت مليئة بالنباتات التي تنمو بشكل عشوائي ، كانت نباتات القُرّاص [٢] والزُّعْرُور [٣] قد غزت بقايا البيوت المُخَرَّبَة في (تسِيرسكا) ، لم يكن هناك بيت واحد لم يُحطَّمْ ويُدمر .. وعلى الأرض كانت بقايا الركام الذي يُذكر بالحرب الأعنف في أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ..

بعد أن هَربَ البوسنيون من هذا المكان - في منتصف شتاء الحرب الأولى - أخذ « التشيتنيك » يجوسون خلال القُرى المَهْجُورة ، كانوا يجوبونها جميعًا ويُدمرون كل بيت فيها . ولم يطأ أحد هذه الطريق من بعدهم . كنا أول من يخطو على هذه الطريق منذ هروبنا ولم يصل إنسان قبلنا إلى هنا منذ أن غادرها الجنود « التشيتنيك » .

ولمدة عامين ونصف لم يتواجد فيها أي كائن حي .. لم تمر من هنا أي روح حية . كان الخرَاب الجهنمي يعمُّ المكان والدَّمَار الموحش يَسُودُ المنطقة بأسرها ... كان الصرب يفزعون من (تسيرسكا) .. كانوا مذعورين من الأشباح الـ (باليبا) [٤] ! .

وبعد سُقُوط (تسِيرسكا) في أيدي « التشيتنيك » في الفترة من نهاية فبراير / شباط إلى بداية مارس / آذار من عام ١٩٩٣م ، لم تعد تلك البلدة تصلح لسكنى البشر . بقيت أرضًا مهجورة .. خاوية على عروشها ..

ومن (تسِيرسكا) المُدمرة كنا نَبعثُ بالرسائل إلى (توزلا) ، على أمل أن يمدوا لنا يد العون ويُرسلُوا إلينا النجدة ..

وبينما كان الجزء من الطابور - الذي وجدتُ نفسي فيه - يَعبرُ (تسِيرسكا) ، لم يتجاسر « التشيتنيك » ولم يجرؤوا على الدخول إلى مدينة الأشباح (تسِيرسكا)

---

(١) حَصْباء : حَصًى أو بَحْص - (المترجمة) . (٢) القُرَّاص (Nettle) : نبات شائك - (المترجمة) .

(٣) الزُّعْرُور (Thorn) : شجر شائك من الفصيلة الوردية - (المترجمة) .

(٤) (باليبا) balija : كنية مذمومة للمسلم البوسني عبارة عن لَفْظ أو تعبير انتقاصي يستخدمه الصرب بقصد ازدراء مسلمي البوسنة .

أثناء بحثهم عن البوسنيين الذين كانوا في طريقهم إلى (توزلا) ، بل ولم يتبعوا المجموعة التي تَخلَّفتْ هناك ، لم يُهاجمونَا حتى بالأسلحة الخفيفة . كانوا يضربونَنا فقط من مسافة بعيدة بنيران المدافع ويُمطِرُونا من طائراتهم بوابل من الغازات السامة . فقط مؤخرًا ، وأثناء مُطاردة بقايا الفلول المجروحة لطوابير البوسنيين المَسحُوقين ، كانوا يقتلونَ أكبر عدد من البائسين العاجزين بقدر ما يريدون ، وكانوا يجهزون على أي أحد يستطيعون الوصُول إليه .

وأمام الأطلال المُتبقية من العيادة الطبية ، كان الجنرال الفرنسي (موريلون) يُصافح زميله الصربي أمام كاميرات التصوير التلفزيونية ، وقد كتب الصرب بعد سقوط (تسيرسكا) :

- « هذه هي صربيا » .

بل هذا هو الزُّور بعينه .. هذا هو الباطل ! .

إن كان هناك أي شيء ينتمي بشدة إلى البوسنيين ، فلا بُد أن تكون (تسِيرسكا) ، بل ليس فيها أي شيء لا ينتمي إلى البوسنة ، ليس هناك حتى قبر واحد غير بوسني ، وحتى على العديد من شواهد القبور المُنتصبة في (تسِيرسكا) منذ القرون الوسطى لم يكن هناك صليب واحد على أيٍّ منها .. كان عليها فقط نقوش الهلال مع النجمة ونقش السيف (١) .

كانت (تسِيرسكا) أول بلدة تعتنق الإسلام في البوسنة ، وبعد ذلك بوقت قصير ، كان قُرابة الثلاثين ألف من العوائل البوسنية العريقة والنبلاء الأخيار يطلبُون من السلطان الفاتح أن يسمح لهم بالتحول إلى الإسلام ، كانت (تسِيرسكا) قد سبقت جميع البوسنيين إلى الإسلام على الفور وبسرعة مُتناهية وحتى قبل وصول الأرثوذكس الأوائل إلى أرض البوسنة ، أولئك الذين سيعلنون في وقت لاحق ، بأنهم « الصرب » وأن (تسيرسكا) هي (صربيا) ، على الرغم من أنهم لم يستقروا يومًا في (تسِيرسكا) !!

* * *

---

(١) الهلال والنجمة والسيف كلها رموز تشير إلى العهد العثماني وهو ما يؤكد الهوية الإسلامية للمكان - (المترجمة) .

حاولت أن أحزرُ وأُخمن أين يُمكنُ أن تكونَ بيوت قرية (جوبيليه) وهي إحدى ضواحي (تسِيرسكا) ، استرشدت بجبل (أودرتس) وتوجهت باستخدام الجبل كعلامة كان الشيء الوحيد الغير مُهَدَّم ، فهو جبل ضخمُ جدًّا ...

وبعد أن تزوجت (تنزيلا) من (قادر قادريتش) عاشت في قرية (جوبيليه) .

كنتُ الشاهدُ على وفاة زوجها ، وأعرف أيضًا بأن قائد الكتيبة (فضيل) ، قد أرسل (شفيق أوزونوفيتش) إلى موت مُحقق . وعندما ظهر (شفيق أوزونوفيتش) لـ (تنزيلا) أخبرها كيف حدث ذلك .

وكان عليَّ التوضيح فحسب ، فقط أن أشرح كيف حدث ذلك .

لكي نجعل « التشيتنيك » يعتقدون أنه كان هناك الكثيرون منا في ذلك الجزء من مسرح العمليات الحربية ، استمر (فضيل) في إعادة توزيع مواقع القوات على الخط الأمامي الممتد على طول الجبهة ، ظل ينقل الجنود من طرف الخط إلى نهايته الأخرى ، تاركًا (شفيق أوزونوفيتش) يجري وحده عبر الخنادق وسط طلقات الرصاص التي كانت تُطلقُ من المواقع المختلفة ، وقد آتت تلك الطلقـات أكلها ... ليس مرة واحدة بل عدَّة مرات .

كان (شفيق أوزونوفيتش) كل شيء ما عدا جبان ، يصدق عليه كل شيء إلا الجبن .. لكنه كان عنيدًا أيضًا وصَعب المرَاس ، بدأ بمعالجة هذه المسألة ، فقال بأنه لم يُردْ أن يُساء فهمه أو أن يُفسر موقفه على نحو خاطئ ؛ وأنه ليس خائفًا .. ليس خائفًا مطلقًا ؛ ولكنه قلق فحسب .. وقال : إن لديه هاجس داخلي غريب .

كنتُ أعرف بأن الشهداء يحلمون بموتهم . إنهم يرون موتهم في منامهم كإشارة خفية من عالم بعيد ، وقد تنبهتُ إلى أن (شفيق أوزونوفيتش) كان لديه شعور داخلي باقتراب منيته ؛ لذا بَدأتُ بمضايقة القائد (فضيل) والضغط عليه :

« لا بد وأن « التشيتنيك » قد لفت انتباههم إعادة التوزيع السريع لمواقع قواتنا ، خاصة وأنهم قد أصبحوا - بفضل اتصالاتهم - على اطلاع جيد بكل ما يدور في (سَربرينيتسا) ، ولا بد وأنهم يتساءلون عن سبب إعادة التوزيع السريع لقواتنا ؛ لأنهم يعرفون عدد رجالنا المُسلحين ؛ إذ لا بد أن لديهم معلومات أكيدة حول

عددنا ، وقد نجحت تلك الخدعة وأدت الغرض منها قبل الآن . نجحت بالفعل عدة مرات ولكن لا بد وأن لديهم الآن معلومات جديدة وسوف يضغطون على رجالهم في دائرة المخابرات ويحصلون على معلومات استخبارية دقيقة ؛ لذلك لا يمكن خداعهم بخطة إعادة التوزيع السريعة بعد الآن .. وهذا يفسر لماذا كان (شفيق أوزونوفيتش) قلقًا جدًّا لهذه الدرجة .. أنا أعرف جيدًا من يكون (شفيق أوزونوفيتش) .. إنه ليس جبانًا ... أنا أعرفه تمام المعرفة » .

أجاب قائد الكتيبة :

- « كما ترى .. كما ترى يا (مرجان جوزو) ، لقد أعفيناك من واجبك كإمام . إنك حتى لا ترتدي زيَّ الإمام والأحمدية . وحتى إن فعلتَ ، فلن يبدو ذلك الزي مُلائمًا لك ، فالرجل الذي يُؤمن بالخرافات لا يُمكنه أن يُمارس مهنة الإمامة ولا يليق به أن يُؤدي وظيفة الإمام . والإسلام هو العلم . لا تُشوش عملي بالخُرافات . إن جيشي يَنشط ويقوى بالتكبير .. إنه يُشحن بصيحات التكبير .. أرأيت أني أيضًا أَعْرف بعض الشيء عن الدين ؟ » .

ذلك الضابط الصغير السن .. الفَرخ الصغيرُ الغر ، الذي أكمل دَورَةً تَعليمية تلقى فيها مُقررًا دِرَاسِيًّا تمهيديًّا وسريعًا عن الإسلام على الطريقة التي تمنى الشيوعيون أن تقدمها المدارس الدينية - الإسلام على الطريقة الشيوعية - حيث تهميش الجانب الروحاني من الرسالة السماوية الأخيرة ، والتركيز على الماديات والمحسوسات المُجسدة . إنه حتى لم يفكر مجرد تفكير في تصديق ما قلته أو ما قاله (شفيق أوزونوفيتش) .

لم نُقابلْ قوات « التشيتنيك » المُتناثرة على طول خط الجبهة الأمامي ، كانوا قد جمَّعوا قواتهم في المكان الذي كان تحت حماية (شفيق أوزونوفيتش) فقط ، وكان يُدافع عنه بمفرده ..قاموا بإطلاق النار من كل أسلحتهم انقضُّوا بكل قوتهم صوب الجزء من الخط الأمامي الذي يحرسه (شفيق أوزونوفيتش) ، نَسفوه نسفًا كاملًا .. وتحول في لحظات إلى هباءٍ منثورٍ .

وقد وُضعَ داخل قبره زي واحد - يُفترض بأنه من البزة الرسمية للجيش - وحفنة تراب من الأرض المحروقة ... من المكان الذي سقطت فيه مُعظم القذائف ، ووضعت أيضًا صُورةٌ فُوتُوغرافية من بطاقته العسكرية التي لم يكن هو شخصيًّا يحملها عادةً .

وقد ألقى قائد الكتيبة كلمة أمام قبرِه ، قال بأن الموت البطولي لـ (شفيق أوزونوفيتش) مَكَّنَ من الانتقال المهم من خط الجبهة الأمامي ، لم يكن « التشيتنيك » على المواقع التي تحت هجمات جيشنا ، في ذلك الوَقت ركَّزوا قواتهم من ناحية الخط الأمامي المحمي فقط بواسطة (شفيق أوزونوفيتش) ، وبقيامهم بذلك ، عندما عَبرَ رجالنا الخط الأمامي بدون أي مقاومة من المواقع التي هاجموها ، وَجدَ « التشيتنيك » أنفسهم وقد أُحيط بهم ، وأدركوا أنهم محاصرون ، وهكذا ، فقد ثأر (شفيق أوزونوفيتش) وانتقم منهم ... هكذا علَّقَ قائد الكتيبة .

وانهالت أول كومة من تراب (سربرينيتسا) على التابوت الفارغ في قبر (شفيق أوزونوفيتش) وعندها صَرخَ قائد الكتيبة (فضيل) :

- « أُهنِّئُك بالشهادة » .

ومدَّ يَده بتعالٍ إلى والد (شفيق أوزونوفيتش) المُتوفى .

أجاب أبو الميت : « شكرًا » ، لكنه لم يَقبل مُصافحة اليَد الممتدة ، وبدلًا من ذلك صوب قبضته المفتوحة تجاه قائد الكتيبة ؛ وفجأةً ... نزل بكف يده على وجهه !

وبعد تلك الصفعة الشديدة ، ومنذ تلك اللحظة ظلت أذن القائد تُصدر طنينًا مزعجًا جدًّا على نحوٍ أسوأ من لو أن قذيفة قد انفجرت داخل أذنه .

تلك هي قصَّةُ (شفيق أوزونوفيتش) الذي مُنِحَ وسام الزَّنبَقَة الذَّهبية .

أما (قادر قادريتش) زوج (تنزيلا) فلم يمت شهيدًا ؛ لأنه مات وهو غارق في سُكره ، وليس من شأني أن أذهب لأخبر (تنزيلا) بذلك . يَجِبُ أن تَعرفَ هي بنفسها أنه في لحظة موته كان في حالة سُكر رحمةُ اللَّه ، لكنه منذ أن أَدمن الشُّرب لم يصح من سُكره ولم يكن مُتزنًا كليًا . نعم ، لقد كان مَعي في الخندق . فقد قدر اللَّه أن نكُون معًا . كان من الممكن أنْ يُقْتَلَ بجانب أي شخص آخر ، لكنه قُتِلَ أمام عيوني مباشرةً إنها مشيئة اللَّه ..

وقد أحببتُه كمقاتِل عظيم ، ولكني لم أُحب مطلقًا حقيقة أنه كان يشرب الخمر ، لكني كنتُ أُلقي اللوم على الكحول أكثر من أن ألومه هو شخصيًا ؛ لذا

فقد أحببتُ ذلك المقاتل أكثر مما كرهتُ هوسَه بالشرب واستحواذ الخمر على عقله .

كنا نقفُ بجانب بعضنا البعض .. كان ذلك ليلًا ، وكان (قادر قادريتش) قد عثر على قنينة خمر ، حاولتُ منعه من شربها ونصحته كثيرًا ، لكنه ظل يلقي الأعذار ويعرض الحجج كما يفعل مدمني الخمر عادةً :

- « إنني أحترمك وأضع قبعتي تحية لك . وإن كُنتَ لا تحتمل أن أشرب أمامك لأنك تعمَلُ كإمام فأنا لن أشربها أمامك . وبهذه الطريقة لن تصدني وتمنعني عنها » .

واستنادًا إلى كلماته - حيث كان على علم بأنني قد أشتغل كإمام - استطعتُ أن أخمن بأنه كان يعرف شيئًا عن ماضيَّ القريب .. فقِلةٌ من الناس كانوا يعرفون أنّني قد أنهيتُ دراستي في المدرسة الدينية .. ولكن حتى على فرض أن ذلك التخمين كان صحيحًا ، فلم يكن هناك وقت للاستفسار والتحقيقات ، فسرعان ما رَفعَ (قادر قادرتيش) رأسه للخلف - بالقدر الذي يكفي للارتشاف بضعة جرعات عميقة - فقط بالقدر الذي يكفي لبرُوز جبهته وقنينته فوق حافة الخندق . وفي تلك اللحظة أطلق عليه قنّاص صربي الرصاص ، لتدخل الرصاصة مع شظايا زجاج القنينة إلى دماغه . وعلى الفور سَقطَ جثةً هامدة لا حياة فيها .. وارتطم بالأرض مُحدثًا صَوتًا ثقيلًا مكتومًا .. سقط ميتًا ... سكرانًا !

كان قناصة « التشتنيك » يراقبوننا باستخدام الأشعة تحت الحمراء ، وكل قناص منهم كان يضع إصبعه على زِنَاد بُندُقِيته ، كنا جميعًا نعرف ذلك ، وكان (قادر قادريتش) يعرف ذلك أيضًا ، ولم أكن بحاجة إلى أن أُذكِّرَه ، ولكنني فعَلتُ .

أتُراه كان مصدقًا ومُعجبًا أشد الإعجاب بالأسطورة التي كانت تُحكى عنه والتي انتشرت وتناقلها الناس فيما بينهم .. تلك القصص الشعبية التي كانت تذكره على أنه (قادر الثاني) من قرية (أوسمَاتشه) الذي لم تكن هناك رصاصة تحمل اسمه ؟!

أنا لا أَعرفُ كيف لقي (قادر) من قرية (أوسمَاتشه) حتفه ، وما إن كان قد وَصلَ يومًا إلى خَط النهاية ، فقد أُشيعَ بأنه كان في (الأرجنتين) ؛ وبأنه كان

في (أستراليا) و (لبنان) ؛ ولا أدري هل كان يُحاولُ من خلال التجوُّل حول العالم ، أن يُضلل ويُضيِّع مُطَارِديه الذين يُلَاحِقونه من الـ UDBA [1] ، ومُتَعَقِّبيه من الـ KOS ؟ [2] أم أن الناس ببساطة كانوا يُبالغون في كل شيء من أجل الحفاظ على ذكرى البوسني الذي كان عَقَبَةً كَأداء أمام « التشيتنيك » وأنهم كانوا يخترعون الحكايا والأساطير حول البطل الذي لا يُقهر من أجل الإبقاء على ذكراه منتعشة وسيرته مفعمة بالحياة ؟

إلا في مناسبةٍ واحدة .

كان ذلك ، في ربيع عام ١٩٤١م ، حين كان الجيش اليوغسلافي في تلك الفترة في حالة اضطراب وتقلقل كانوا يتساءلون في حيرة عن المكان الذي عليهم أن يحثوا خُطاهُم مُسرعين نحوه هربًا من الألمان ، انطَلَقوا أولًا إلى (فويفودينا) ، لكن بَعدَ أن اشتبكوا هناك في مواجهة مع المجريين (الهنغاريين) ، هَربوا في الاتجاه الجنوبي مُعتقدين بأنهم سيتمكنون من الهرب كما فعلوا من قبل في الحرب العالمية الأولى . حدث ذلك عندما عَبرَ (قادر) نهر (درينا) في منطقة (سكيلاني) ودَخلَ مدينة (باينا باشتا) لمعرفة ما الذي كان يحدث في مناطق الصرب المجاورة . فقاموا بالقبض عليه وأسروه بالرغم من أنه لم تكن هناك حاجة لذلك ؛ لأنه جاء إليهم وهو لا يتوقَّعُ أن يُلحق به أي أذى وهو في أيديهم . لكنهم قبضوا عليه وألقوا به مُقيدًا في زريبة خنازير ، كان مُكَبَّلًا تمامًا ومُصَفَّدًا بالكامل ، وأبقوه مُكَتَّفًا هناك لثلاثة أيام بلياليها مع الخنازير الجائعة . عندما جاؤوا في اليوم الرابع ، مُتشوقين لأن يحدقوا بملئ عيونهم في نَعلَي حذائه العسكري ذي الرقبة الطويلة ويلقوا نظرة مُتشفية في سقف جمجمته ، آملين أن تكون تلك الأشياء هي الأثر الوحيد المُتبقي من العملاق الـ (باليا) [3] الضخم ، وَلكنهم وجدوا ثلاثة خنازير مذبوحة وقد نُحرت من رقابها ، كان قد جَزَّ حلوقها وشَقَّها بأسنانه ، وعاد إلى قرية (أوسمَاتشه) مَعْضُوضًا بعد أن عضَّته الخنازير في جميع أنحاء جسده .

في اليوم الرابع كان قد نهض على قدميه بعد أن دهـنَ جروحه المُلَوثة بدهن

---

(١) خدمة أمن الدولة اليوغسلافية . (٢) دائرة المخابرات اليوغسلافية .

(٣) (باليا) balija : كنية مذمومة للمسلم البوسني عبارة عن لفظ أو تعبير انتقاصي يستخدمه الصرب بقصد ازدراء مسلمي البوسنة .

أرنب . وفي اليوم التالي ، أي اليوم الخامس من تحرُّره من الأسر ، أعلَنَ نفسه مدافعًا عن البوسنيين واتخذ من قرية (أوسمَاتشه) مَقَرًّا للقيادة ومَركَزًا رَئِيسًا لحركة المُقاومة التي يقودها . في البداية انضم إليه عدد قليل من الناس وبشكلٍ سريعٍ وفوريٍّ بعد ذلك كان هناك المزيد والمزيد من الذين عادوا إلى صوابهم ووَقفوا بجانبه والتحقوا بصفه ، فقط لَو أن (سربرينيتسا) قد انضمَّت إليه مُبكرًا في وقت سابق ، لما كان عليها أن تنتظر المذبحة المروعة التي وقعت في هذه الحرب التي لم تكن مستعدة لها .

* * *

لقد اعتاد جَدِّي رَحِمَهُ اللهُ أن يُخبرني ويقول لي مرارًا :

« في البداية المُبكرة للحرب العالمية الأولى - كما في الحربين التاليتين - انقضَّ « التشيتنيك » على (سربرينيتسا) . كان القائد (كوستا تودوروفيتش) قد أُرسلَ مع الجيشِ من (صِربيا) . وبمساعدة الصرب المحليين ، ذَبحَ وقَتلَ كل ما وقعت يديه عليه ، وقد أُتيحَت لهم الفُرصَة لفعل ذلك ، وكَانَ لدَيهم الوَقت المنَاسِب لتنفيذ تلك الجرائم . كان رجال (سربرينيتسا) قد جُنِّدوا في الخدمة الإلزامية العسكرية ، وتم تعيينهم في مواقع بعيدة عن بلادهم كما سيقوا كمُكَلَّفين مُنتَدَبين إلى ساحات المعارك المختلفة ، بعيدًا من بيوتهم .

وعندما أدرك أولئك الذين نجوا من المذبحة وبقوا في (سربرينيتسا) بأن الأمور قد تطورت وأصبحت أكثر جدية وخطورة ، تذكروا مجدَ البوسنة القديم - عندما كان البوسنيون لا يخشون الصرب ولا يخافون منهم أبدًا - فتَجمَّع كل الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة والعاجزون الذين يُمكِنُهم بالكاد أن يقفوا على أقدامهم ، وفي اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر / تشرين الأول لعام ١٩١٤م ، تمكنوا من دَحر الغُزاة الذين كانوا يُعرفون في ذلك الوقت أيضًا باسم « التشيتنيك » وهزموهم هزيمة مُنكرة . وتحت قيادة قائد آخر من ذلك الزمان .. (أوريتش) القديم من أبناء بلده (بوتوتشارسكا ريكا) ... اتجهوا قاصدين (كوستا) وهم يحملون بنادقهم العتيقة ذات المغلاق الخلفي والتي كانت تُعمر وتُحشى بالرصاص من مؤخرتها .

وبعد عشر سنوات ، عندما وَحَّدت مملكة يوغسلافيا قوتها وترسَّخَ مُلكها الذي امتد ليضم البوسنة أيضًا ، أُقيم نُصبٌ تذكاري تكريمًا لذلك الحدث ، وليس تكريمًا

لـ (أوريتش) ؛ ذلك البطل العظيم الذي حرر (سربرينيتسا) من براثن الطغاة المُعتَدين ، وبدلًا من ذلك ، أُهدي ذلك النصب التذكاري إلى أهالي (كوستا) وليس (سربرينيتسا) ، الذين هللوا له وهتفوا بحياته باعتباره البطل العَظِيم والمحرر الباسل .

وبعد مرور سبع وعشرين سنة على حادثة (كوستا تودوروفيتش) ، اندلعت الحرب ، في بداية ربيع عام ١٩٤١م . وحَدثتْ مذبحة هائلة ضد البوسنيين في (سربرينيتسا) . ومرة أخرى كان اسم الجزّارون « التشيتنيك » !

في هذه الحرب ، قام أحد الزعماء من (براتوناتس) الذين تنتهي أسماؤهم بـ « زيكيتس » بالهجوم على (سربرينيتسا) منذ البداية المُبكرة للحرب . وجلب معه أيضًا عصابات « التشيتنيك » من (صربيا) ، الذين قاموا بتخريب المدينة بمساعدة من قبل المتطوعين المحليين ، كان ذلك الزعيم من عائلة « زيكيتس » في (براتوناتس) - حيث مقر قيادة « التشيتنيك » - يعود لمهاجمة (سربرينيتسا) وقتما شاء ، إلى أن جاء اليوم الذي انطلق فيه عبر (ساشا) ، حيث نُصب له كمينٌ هناك . كما نجح المقاومون في إسقاط رتل كامل من سيارات « التشيتنيك » في كمين في (بوتوتساري) .

ثم انقلب البوسنيون الأكبر سنًّا على بعضهم البعض . قالوا بأنه لا يهم كيف ستنتهي هذه الحرب ، فالحكم الصربي سيتحققِ ولا مناص من تَسَلُّط الصرب وبسط سَيطَرتهم ونُفُوذهم علينا ، وبأننا يَجبُ أن نَكونَ محظوظين لمجرد أن ننجو من هذا العدوان الصربي ، وبدلًا من أن يُوضِّحُوا ويشرحوا كَيفَ يُمكن إنقاذ الأبرياء الذين لم تُوضع رقابهم بعدُ تحت السكين كانوا يُثبِّطونَ همم الرجال الأقوياء البنية ويُرجفون عزائمهم ويثْنونهم عن الدفاع عن أنفسهم » .

* * *

كان (قادر) قد اعتاد على التقاط « التشيتنيك » تمامًا كما اعتادوا هم على أن يلتقطوا القمل من لحاهم . تمامًا مثل (أيوب غوليتش) رَحِمَهُ اللهُ الذي اعتاد على تكويمهم في عربته التي يجرها حصان ثم يقُود عربته الطافحة بجثثهم في أرجاء المدينة .

كان جَدِّي يُخبِرُني دائمًا بأن « التشتنيك » بعد أن خسروا الحرب قد انضموا إلى

الثوار عقب الحرب مباشرةً بنيّة واضحة ، وقاموا بقلب نهري (لينا) ، و (درينا) رأسًا على عقب - على حد قولهم - على أمل أن يعثروا على العدو الأكبر للدولة - (قادر) ، وسواء أكان قد تبخر من الأرض واختفى كنسمة الهواء أم أنه تحول إلى قطرة ماء وابتلعته الأرض أَم أنه هرب من البلاد ، فالنتيجة أنهم - لم يمسكوا به ولم يقبضوا عليه ، ولا يُمكن أن يكون قد قُتل ؛ لأنه لم يكن هناك رصاصة تحمل اسمه أو تجرؤ على اختراق جسده ، وكان قد تَعوَّدَ بعد أن يَعُود من المعركة ، على أن يَهز جسمه ببساطة ويَسقطُ الرصاصَ من معطفه .

تُرى ماذا سيكُونُ مصير (قادر) الأسطورة من عائلة (جوبيليا) ؟

ومن عساه أن يَعرفَ ذلك ؟ لكن ما أَعرفه جيدًا هو أنني حذَّرته وكنتُ سأحذره أيضًا حتى لو عَلمتُ بأنه كان زوج فتاتي التي لَم يُقدَّر لي أن أتزوجها ... حذَّرته بالرغم من أنه لم تكن هناك حاجة لتَحذيره ، فقد كان يعرف بأنهم يتربصون بنا ، وأنهم سيَطلقون النار بمجرد أن نُخرجَ رؤوسنا من الخندق . لكن زجاج القنينة لمع في ضوء القمر وأومضت الزجاجة بومضة كالبرق ، وهو لم يَتجرع جرعة صغيرة فحسب ، بل ابتلع بسرعة وشراهة شربة كبيرة وعميقة من القنينة التي كان يَرفعها والتي برزت على سطح الخندق ، ولم يكن من الصعب على القنَّاص أن يُصيب هدفه .

ويشهد اللّه أنني لم أَعرف بأن (تنزيلا مُهوردار) قد تزوجته وأنني اكتشفتُ ذلك لاحقًا ، عندما شاع نبأ وفاته وبدأ الناس بتداول الحديث حول ظروف موته وعندما بَدأ الهمازون والمغتابون بتحريك ألسنتهم بشأني وعندما بدأ الهمز واللَّمز عني ، فأثناء تنقيبهم وبحثهم في سيرة حياة (قادر قادريتش) ، اكتشفوا ببهجة خبيثة ونشوة ماكرة قدرنا المشترك .. (تنزيلا مهوردار) .

* * *

لم يتصور أحد كيف يمكن أن تَكُونَ قمة جبل (أودرتس) أرضًا مُسْتَوِيَة ... كان الجبل يَقِفُ بشموخ مُطِلًّا على جميع المناطق المحيطة به ومن كل الاتجاهات ، كانت قمته تبرز بوضوح ، لكن على سطحه يبدو المشهد مختلفًا تمامًا حيث تبدو قمته البارزة

كصَفيحة التَحميص المصنوعة من التَّنَك ، بمساحة تتسع لإنشاء ملعبين لكرة القدم . ملاعب نظيفة نظافة فائقة ، ليس على أرضها فرع شجرة واحد أَو حتى ورقة شجر ، فقط كان هناك الحَشِيش الأخضر والأوراق العُشبية القصيرة التي يُطلق عليها اسم (فلاسنيسا) ، التي تُداعبها الريح ، لم أكُنْ أعلم بوجود مثل هذا الجمال ، وعلى نحو خاص أدهشني أنني كُنتُ لا أزال قادرًا على مُلاحَظَة الجمال وإدراكه ، لكن ليس لمدة طويلة ، فبينما كنا نُحاولُ أن نستريح في أدرتس ، وبينما كنا في نفس الوقت نُقاوم النوم الثقيل ، جَاءت إلينا مجموعة مذعورة من زملائنا من أهل البلدة ببعض الأخبار الفظيعة المُرعبة ، ففي الليلة الماضية طوَّقَ « التشيتنيك » جزءًا من طابُور القافِلَة البشرية ، وتم إعادة خمسة آلاف – على الأقل – من البوسنيين في اتجاه (كرافيتسه) .

وقد حدثني (صالح يوزونوفيتش) عن كيفية هروبه من « التشيتنيك » وكيف اختبأ على تَلَة وقضى الليل بأكمله وهو يستمع إلى صوت الصرخات المفزعة وصوت إطلاق النار . وفي الصباح شاهدهم وهم يصفون البوسنيين الذين سقطوا على الأرض وأيديهم مربوطَة وراء ظهورهم بالسلك . كان أولئك هم الذين لم يُقْتَلوا أثناءَ اللَّيل من التعذيب . أدرك كم كان ذلك وحشيًا وشاذًا للغاية ؛ لكنه كان لديه ما يكفي من الوقت لإحصائهم جميعًا ، وكان قد أوشك على الانتهاء من عدهم (بَعْدَ أَنْ أحصى ألفًا ونِصْف الألف من الأشخاص المطروحين على الأرض) عندما بدأت الدبابات من طرفي الطريق بالتحرك ، وعندما هدأ صوت أزيز وقرقرة جنازير الدبابات ، ظهر صوت العواء المؤلم للأجساد المتلوية التي كانت تتمعج وتتلوى تحت وطأة الألم الرهيب ، وبعد أن تلاشى صوت الدبابات تمامًا كان صوت الأنَّات المكتومة لا يزال يُسمع بوضوح ، ثم ظَهرت الشاحنات ذات العربات المقطورة . وقاموا بتحميل البوسنيين – الذين تم سحقهم – على الشاحنات ؛ منهم المشطور إلى نصفين ، ومنهم من تحول كليًا إلى لحم مَفْرُوم تحت الجنازير الفولاذية للدبابة ، ولم ينج سوى عدد قليل فقط من الأسرى المُقيدين بعد ذلك ، أطلقوا الرصاص عليهم وقذفوا بأجسامهم على قمة الشاحنات المقطورة فوق كتلة الأجساد المسْحُوقة ، رأى (صالح) أيضًا كيف غيرت قافلة الشاحنات المقطورة مسارها في قرية (كونييفيتش بوليه) واتجهت نحو (زفورنيك) .

وفيما بعد ، في (توزلا) ، أخبرني (عثمان خاليلوفيتش) من أبناء بلدة (سُوتييسكا) بأن أولئك الذين ذُبحوا في (كرافيتسه) رُمِيت جثثهم في طَمْي من

نفايات مصنع أوكسيد الألمنيوم (الألومونيا) في (كاراكاي) ، بالقُرب من (زفورنيك) . ففي ذلك المكانِ ، لن يُعثر على أثر لأحد منهم أبدًا ، هذا إذا أُتيح لأي أحد أن يَبحثَ عنهم .

* * *

كان (عثمان خاليلوفيتش) موجود بنفسه في (كاراكاي) ... حيث أُسِرَ مع ثلاثة آلاف آخرين من سكان (سربرينيتسا) تم القبض على العديد منهم عندما قُطع الطريق على قافلتهم في المكان الذي عَبرتُ فيه نهر (يادار) بالقرب من مقهى « ديوجوم » وكان الآخرون قد حوصروا ، كان « التشيتنيك » يركبون السيارات التي تحمل علامة « قوات الحماية الدولية » ، و « الصليب الأحمر » ويسيرون على الطريق العمومي ، مُستخدمين مكبِّرات الصوت الضخمة التي كانت تَدعو البوسنيين إلى وَضْع أنفسهم تحت حماية هذه المنظمات الدولية ، وقد خَدعوا بعض البوسنيين عن طريق إجبار رفاقهم المأسُورِين بالفعل على التحدث إليهم بمكبِّرات الصوت وإقناعهم بالاستِسلام إلى مراقبي السلام العالمين ، ثم حمل المَخْدُوعين في الشاحنات المقطورة وأَخذوا إلى (كاراكاي) . وبمجرد وصولهم إلى هناك أرغموا على الدخول إلى مُستودع مصنع أوكسيد الألمنيوم ، واستمر القتل لساعات ، وكان بوسع أي فرد من « التشيتنيك » أن يَسير حاملًا رشاشه ويبدأ بإطلاق النّار بعشوائية ، كما لو كان في نزهةٍ لطيفة .

وبعد ذلك سَيُحملُ القتلى والجرحى ، باستعمال البولدوزرات (الجرافات) ، ويتم التخلص منهم في الحاويات الضخمة التي تحتوي على نفَايات المنجم ، ومنها إلى مقلب النفايات [١] حيث يتم تفريغها لتدفن الجثث مع من بقي حيًا من الجرحى في طَمْي من النفايات الكيميائية .

وقد أتعب هذا العمل قوات « التشيتنيك » وتخدرت أيديهم من فرط التعب والإجهاد ، ثم وقد هبط الليل فكان لا بد أن يتوقَّفوا عن القتل بعض الوقت .

وعندما خَمدت الضوضاء وهدأ ضجيج المذبحة المروعة ، تسلل (عثمان) خلسةً وخَرجَ ليلًا . كانت جثث البوسنيين تتساقط أمام عينيه تحت وابل الرصاص ؛ لكنه لم يُجرح ، بل إنه لم يُصب بخدش .

(١) مَقْلَب النفايات : مكان تُلْقَى فيه النفايات - (المترجمة) .

ثم وصل إلى منطقة الأرض الحرة في (زفورنيك) بعد ثلاثة أيام من التجوال .

* * *

كما حكى لي (صفوت نوكيتش) روايته أيضًا ، كان قد جاءَ قبل سنتين من (تيبيرسكا) إلى (سربرينيتسا) مُعتقدًا بأنه قد نجا وفر بجلده أخيرًا ، وَلِحَظِّهِ السيئ وجد نفسه بين الأسرى الألفين الذين نُقلوا إلى (كاراكاي) حيث أطلقت عليهم النيران هناك على المرج الأخضر . كان قد جُرح فحسب وتسلل ليلًا وبرفقته زميل آخر لم يُجْرح ، وانطلقا خلسة من مَرجِ المَوتى .

* * *

تَحدثتُ أيضًا مع الرجل الذي أُطلق عليه الرصاص بجوار نهر (يادار) ، خلف مقهى « كافازباشيتس » . كان على خمسمائة من سكان (سربرينيتسا) أن يُسلِّموا أنفسهم وهم يحاولون أن يعبروا الطريق السريع ، فقد كانوا مُحاصرين وأُرغموا على الاصطفاف على شكل خط بطول ضفَّة النهر وأمطروا بوابل من نيران الرشاشات الآلية ، وحَملَ النهرُ جُثثَ القتلى ، وعلى بُعد كيلو متر أَو اثنين أسفل النهرِ أدركَ أنه كان يَسبحُ وبأنه كان لا يزال حيًا .

* * *

في طريقها إلى الأراضي البوسنية الحرة - الغير مُحتلة - تفرقت قافلة البوسنيين الباقين على قيد الحياة وانقسم الطابور إلى عِدَّة أجزاء ، رغب البعض في أخذ قسط من الراحة ، وتكرار التوقف لعدة مرات أكثر . وفريق آخر غلبهم النعاس وغرقوا في النوم ، بينما انفصل آخرون وتفرقوا إلى مجموعات أصغر ، وعَمِلَ « التشيتنيك » كل ما استطاعوا لتقسيم القافلة إلى أجزاء قدر الإمكان ، ثمَّ بَدؤوا بإرسال رجالهم لاختراق صفوفنا والتغلغل بيننا كأنهم نَفَرٌ منا ، ومن ثم يَقُودونَنا في الاتجاه الخاطئ . اختلط بنا مئات ومئات من « التشتنيك » ، كَيفَ ؟ حَسنًا ، كانوا قد تخفوا للتمويه في أزياء رسمية لا تحمل أي شارة [1] كانوا قد ارتدوا - مثلنا تمامًا - تشكيلة مختلفة من الملابس ، مزيج من الملابس المدنية - العسكرية ، كما فعل الأعضاء في حركة

(١) شارَة : عَلاَمَة أو رَمْز أو شِعَار لجيش الدولة التابع لها الجندي - (المترجمة) .

« أوستاشا »[1] في (كرواتيا) عندما كانوا يقتلون الصرب في قُرى شرق البوسنة قبل خمسة وخمسين سنةً ، وكانوا يُنادون بعضهم البعض بأسماء بوسنية ، وقد تمكن الصرب من القيام بذلك ؛ لأن منطقة الأراضي الحرة - الغير مُحتلة - في (سربرينيتسا) كانت كبيرة جدًّا ، وقد احتشد الكثير من اللاجئين وتكدسوا هناك من بقاع البوسنة المُختلفة ، وهو ما جعل من المستحيل على أي شخص أن يعرف أي شخص آخر .

ونادرًا ما استطاع أيٌّ منا - حتى أولئك الذين احتفظوا بكامل قواهم العقلية - أن يعرف حتى أين كنا ؟ فقد سرنا مشيًا على الأقدام بامتداد التلال البرية وعلى طول البراري والغابات التي لم تطأها قدم أحد منا أبدًا قبل ذلك ، فأنى لنا أن نعرف ما إن كان أي شخص يُشيرُ لنا في الاتجاه الصحيح أم لا ؟ وكيف لنا أن نُقاوم عرضًا بشُرب كوب من العصير أو أكل قطعة خبزٍ ، في وقت كانت فيه رشفة من أي سائل ولُقْمَة من أي طعام تعني الحياة ؟ خصوصًا ، إن كنت على يقين بأن من يُقدم لك ذلك العرض هو رفيقُكَ في السلاح ؛ لكنه في الحقيقة لم يكن كذلك ؟

من ناحية أخرى ، لم يوجد بيننا شخص واحد يشكُّ في أن التعزيزات من (توزلا) كانت ستَصِلُ في أي لحظة ، كان على قيادتنا ورجالنا في القيادة أن يعرفوا - حتى قبل أن نعرف نحن - بأن (سربرينيتسا) كانت على وشك أن تسقط وكان عليهم أن يُرسلوا العون والمساعدة ؛ ولهذا فحتى إن تحرك الشك في نفس أحدنا واشتبه في أيٍّ من الوجوه الغريبة بيننا ، فسوف تهدأ شُبهاته سريعًا وببساطة عندما يظن بأن هؤلاء الأغراب كانوا يمثلون المساعدة ويد العون القادمة من (توزلا) وبأنهم جاؤوا ليُقدموا لنا الطعام لنسترد عافيتنا ونجدد قوتنا ، وحاول أن تكتشف أو تميز أحد من أحد وسط هذه المَغْمَغَة .

وقد عُرِضت المشروبات عليَّ أيضًا ، وكنت قد تعلَّمتُ درسًا عندما قُدِّم إليَّ الماء

---

(١) أوستاشا (Ustasha) : حركة كرواتية قومية فاشية تأسست في الحرب العالمية الثانية وتزعمها أشد السياسيين الكروات راديكالية وهو (أنتي بافليتش Ante Pavelic) حيث شرع في تأسيس الحركة في الخارج بمعاونة (موسوليني) ، وهي الحركة التي تسلمت السلطة في « دولة كرواتيا المستقلة » وهي حركة إرهابية متطرفة . (انظر كتاب : البوسنة تأليف نويل مالكوم وترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م) - (المترجمة) .

فلم أشرب منه ، أحيانًا كنت آخذُ لعقة من المِلح من حقيبة ورقية صغيرة ، وأحيانًا كان عليَّ أن أتناول بعض السُّكر ؛ ولكنني لم أترك أبدًا القافلة الرئيسية ، بقيت فيها ولم أذهب إلى الذين قدَّموا الطعام والمشروبات .

ولم يتوقف السيل الهادر لطلقات الرشاشات الآلية ، وكان رجالنا أيضًا يطلقون النار على « التشيتنيك » ، وكان الصرب يقتلون أولئك الذين يتفرقون وينفصلون عن القافلة ، وكان رجالنا يقتلون بعضهم البعض أيضًا .

* * *

عندما التقيتُ بـ (تنزيلا) أخيرًا في (توزلا) وبينما كُنتُ أضعُ تقريرًا حول ظروف السنوات الثلاث التي سبقت سقوط (سربرينيتسا) ، بناءً على طلب اللجنة الرسمية لجمع الأدلة حول الأسباب التي أدت إلى سقوطها ، إضافة إلى مهمة الإشارة إلى الأسباب التي قد تكون وراء نجاتي وتوضيح كيف ساعدتني تلك الأسباب على النجاة والبقاء على قيد الحياة ، وللمرة الثانية ، وصلتني رسالة من الخارج ، إنها من صديقي (تسيزا) وهو شاعر سابق من (سربرينيتسا) ، كان قد جُرِحَ عدة مرات . وقبل سقوط (سربرينيتسا) بسنة واحدة ، نُقِل بطائرة مروحية إلى (توزلا) ، وعندما سَمِعَ بأنني استطعتُ أن أنجو وأنني ما زلت على قيد الحياة ، أرسل لي رسالة قصيرة ؛ ولكنني لم أرد على رسالته ؛ لذا كَتبَ لي مرة ثانية ، كتب يقول بأنه سَيُصدق أنني نَجوتُ فقط بعد أن أرد على رسالته ، بل إنه لا يُصدق أنه هو شخصيًا لا يزال حيًا يُرزق ، وأوضحَ في رسالته بأنه ذَهبَ إلى (ألمانيا) لتلقي المزيد من العلاج بطريقته الخاصة ، حيث لم يسمح السلوفينيون له بالدُّخول إلى بلادهم عن طريق (كرواتيا) ؛ لذا فقد عَبرَ حدودَهم تحت جنح الظلام متسللًا خلال حقول الذرة ، وفي (المجر) زُجَّ به في السجن ، وقد تَقيَّحَت ساقه من الكاحل [١] إلى الحقْو [٢] ولم يَستطيعوا أن يُبعدوه ويرحلوه إلى البوسنة لأنها ليست من دول الجوار ، وليس هناك حدود مشتركة بين الدولتين ، كما أن (كرواتيا) لن تقبله . وعندما اتضح له بأن صربيا كانت ترغب في الحصول عليه ، رَشى الحارسَ

(١) الكاحِل : رسغ القدم أو الرجل - (المترجمة) .

(٢) الحقْو أو (الأربية) : منشأ أو أصل الفخذ أو المنطقة من جسم الإنسان التي يلتقي عندها الفخذ بمنطقة الحوض - (المترجمة) .

بالمخدرات التي رَبحَها من لعب الورق مَع سائقين يونانيين كانا في نفس الزنزانة . ودون الكثير من المتاعب ، وعن طريق الاختباء تحت مشمع الشاحنة التي كانت تنتظر في أقرب ساحة انتظار قابلها في طريقه ، وصل إلى (ألمانيا) ، وفي (ألمانيا) بُتِرَت ساقه ، ثم التقى بعائلته في (برلين) ، كانوا لا يزالون أحياء ! وقد أرسل لي مائة مارك وصحيفتنا التي تُنشر في (السويد) ، كانت الصحيفة تُرسل إليه من قِبل بعض البوسنيين ، وعلى صفحاتها تضمنت رسالة من رفيقنا في السلاح (وحدت مويانوفيتش) ، الذي هَربَ من (توزلا) إلى (النمسا) ومن هناك كَتبَ إلى أبيه وأخته في (استوكهولم) كيف تمكن من النجاة ؟ وكانت صحيفة « هيرالد [١] البوسنة والهرسك » قد نَشرَت صورًا مُلونة من كتابٍ لـ (ناصر أوريتش) بعنوان « سربرينيتسا تَشْهدُ وتتهمُ » ، كما نشرت رسالة (وحدت) بأكملها .

* * *

وها أنا أَضعُ رسالةَ (وحدت) في هذا المكانِ بالذات ، وبشكل مُختصر ، دون أن أُفكر فيما إن كان المُحقق (نامق الأسود) الذي كان يستجوبني سيَأْخذُ ذلك على محمل خاطئ أو أنه سيفهم بطريقة خاطئة أو مغلوطة أنني أفعلُ ذلك بعد أن تبينَّ لي أنني حينما كُنْتُ عَلى رَأسِ الطابور ، كنت قد انفصلتُ عنْ أغلب الناسِ من خلفنا . وسارت الأمور بالطريقَة التي يُفترض أن تسير عليها ، كان من المُفترض أن نلاقي المصير الأسوأ ؛ لأننا كُنَّا عَلى رَأسِ الطابور وفي واجهة الاقْتِحام ، ولكننا كنا محظوظين وحصلنا على المصير الأفضل . ومن المُحتمل أننا تُرِكنَا عن قصد لأن الصرب لا بد وأنهم كَانوا يخشون إن تركوا مقدمة الطابور دون هجوم أن يتجمع الطابور من جديد ، ومن المحتمل أيضًا أنهم لَمْ يَحْصُلوا على فرصة مناسبة لمُهَاجَمَتنا ؛ أَو أنهم لم يتوفر لديهم الوقتُ الكافي للتفكير ، على أمل أن يتم الإجهاز علينا في معاقلهم وحصونهم في (تسرنى فره) و (بارلوج) و (باندوريتسا) و (باليكوفيتسي) ، حيث وَصلتْ المساعدات مَع متطوعينا الذين وَجدوا أنفسهم في (توزلا) .

وهذه هيَ رواية شاهد العيان (وحدت) :

---

(١) هيرالد Herald : اسمٌ لصحيفة يعني الناطق بلسان شخص أو جماعة أو السفير الرسمي - (المترجمة) .

بقينا نَمْشي طوال الليلِ متجهين إلى (ياجليتسي) ، وما أن وصلنا إلى هناك حتى وَصلتْنا الأخبار : لقد سَقطَت (زيبا) ! ، و « التشيتنيك » سيتركون البوسنيين يغادرون حيث إنهم أيضًا قد فَقَدوا بلدة (إلبياش) ؛ لذا فإنهم يحترقون شوقًا وينتظرون بفارغ الصبر خروج الناس مِن (سربرينيتسا) حتى يسمح رجالنا بخروج أهلهم من الصرب ويوفروا لهم ممرًا آمنًا للخروج مِنْ (إلبياش) .

سقط البعض في الفخ الصربي واستسلموا .

كان هناك بالفعل بَعْض « التشيتنيك » الذين اخترقوا صفوفنا وتسللوا بيننا...

بقي معظم شعبنا مع الطابور الرئيسي ؛ كنا نَتحركُ ببطء ونتوقف وقفات متكرِّرة . واستمروا بالقَول : « الألغام في كل مكان » . وخلفنا امتدَّ الطابور لعشَرة إلى خمسة عشرَ كيلومتر أخرى . وكانت قطع الورق الصغيرة مَنْثُورة على طول الطريق . قالوا لنا إنه حيثما توجد قطعة من الورق - يوجد لغم تحتها . ولم نكد نغادر وقبل أن نتجاوز الخمسمائة متر فحسب ، التقينا بمجموعات من الناسِ في الملابس الرسمية المُموَّهة كانوا يَجْلسونَ على طول الطريق . ويُوزِّعونَ العصائرَ ا من أين تأتي تلك العصائر في الوقت الذي يتعذر فيه العثور على كِسْرة خبز ؟! لحسن الحظ ، لَمْ آخذ أيًا منها .

كنا قد مَشينَا قُرابة الكيلومتر ، عندما قال لنا قائد المسيرة :

« في حال تعرضنا للقصف لا تتفرقُوا ؛ فالألغام في كل مكان » .

صاح (مولد) مِنْ أبناء بلدة (كنيزوفي) وهو يَصْرخُ في وجهي :

- « (وحدت) ، دعنا نستدر للخلف لنأخذ وقفة صغيرة » .

قمت بحركة سريعة خاطفة للخلف وقلت له بلهجة حادة :

- « لا أُريدُ أن أفعل ذلك ! » .

- « هيا تعال معي ، قُم باستِدَارَة ولتخرج من الطابور . أنا أَحتاجُ للذهاب ! » .

- « أنا لَستُ بِحاجةٍ إلى أَنْ أَذْهبَ ! لماذا تُريدني معك ؟ هل تَحتاجُني لكي أطرد عنك الذباب ! » .

أخذ يتوسل :

- « أرجوك ؟ » .

- « لا يا رجل ، اتركني .. دعني وشأني ! » .

ركض (مولد) نحوي وهَمسَ في أُذني :

- « سَيقتلوننا ، إننا نُساق لحتفنا وخصوصًا لوائنا [1] ... إن « التشيتنيك » يقُودُونا . » .

- « هيّا ، لا تكُن سخيفًا ! » .

تَخلَّفَ (مولد) والتحقتُ أنا بمكاني في الطابور .

وقبل أن نقطع حتى مسافة كيلومترين ، صادفنا خمسة مِنْ رجالِنا ، صرعى على جانبي الطريقِ بعد أن قَتلتْ القذيفة ثلاثة إخوة ورجلين آخرين .

وعلى مسافةٍ أبعد قليلًا .. عثرنا على اثني عشرَ آخرين مِنْ رجالِنا يتمدَّدونَ على الأرض . دون أي أثرٍ للدِّماء ، ومع ذلك كانوا جميعًا مَوتى ! .

سألت :

- « ما هذا ؟ » .

- « لقد شَربوا ماءً مُسَمَّمًا ؟ » .

بدأنَا بالتِقاط تلك القصاصات الورقية لنرى ما إن كان هناك ألغام تحتها ... ولكن لم نجد شيئًا تحتها ...لا شيء ! .

مَشينَا ثلاثة كيلومترات أخرى ، كان الطابور يوشك أن يتوقف . إننا تائِهون .. لقد ضللنا الطريق . كَانَ أحد أفراد « التشيتنيك » يقُودُنا نحو الطريق الخاطئ . وقد هَربَ بعد أن أدركَ أننا اكتشفنا أنه لم تكن هناك ألغام .

ومِنْ مُقدمة الطابور انتقلت رسالة مفادها أن قوات « التشيتنيك » من أمامنا وبأنَّنا يجب ألا نتقدم في مسيرنا أبعد من ذلك . ثُمَّ ظَهرَ جندي ، كان يسبُّ ويلْعنُ ،

(١) اللواء : فرقة من الفرق العسكرية - (المترجمة) .

وقال لنا :

- « عليَّ أَنْ أَقُودَكم يا رجال وأَن أَنزعَ الألغام ! » .

ووضع نفسه في مُقدمة الطابور .

قيل إنه مِنْ كتيبةِ (بردسكي) .

مررنا ببعض الرجالِ ممَنْ قِيلَ بأنَّهم كَانوا عَلى رأسِ الطابور وبأنَّهم قد يَكُونوا من « التشيتنيك » ، كانوا يرقدون ممددين على جانبِ الطريقِ . قيل بأنَّهم من رجالنا وبأنَّهم لم يَستطيعوا التقدم لخطوة إضافية واحدة . ولكن ذلك لم يكن صحيحًا إطلاقًا ، بل كَانوا من « التشيتنيك » أيضًا وكانوا ينتظرون الفرصة لاختِراق الرتل والتغلغل داخل الطابور .

تَوقَّفنا قليلًا .. وأخبرنا الدليل الذي كان يتقَدم الطابور ويقودنا بأن الطريقَ أمامنا مَبْذُورٌ بالألغامِ .

- « انتظروا ، سَأعودُ بعد ثانية واحدة ! » .

وتركَنا !

وفَجْأة ، انهالت القذائف فوق رؤوسِنا تمامًا وهبطت على مؤخّرةِ الطابور .

أدركتُ ما كان يجري :

- « يا رجال ، ما الأمر ؟ ! إن أحد أفراد « التشيتنيك » يقُودُنا ! » .

لكنهم لم يُصدقوني . وأنا أيضًا لَمْ أُصدق (مولد) القادم مِنْ بلدة (كنيزوفي) .

وفوق كُلِّ هذا ، أخذ أحد الرجالِ مِنْ مقدمة الطابور يوجه إليَّ السِّباب واللعنات لأنني أثير الرعب والفزع ، واتجه نحوي قائلًا :

- « مَنْ هذا الذي يثير الذعر ويتسبب في الرعبِ ؟! » .

التزمت الصمت . وكذلك سَكت الآخرون ، ونزع الرجل الذي كَانَ يَمْشي نحوي سلاح الكلاشينكوف المُعلق على كتفه وصوبه في اتجاهِنا .

قُتِل مائة رجل على الأقل تحت وابل الرصاص .

وبالفعل عاد الرجل الذي قالَ بأنَّه سيعود في ثانية . قالَ بأنَّه وَجدَ الطريقَ . وعلى الفور ، تَوقَّفنا مرة ثانية . ومرة أخرى أخبرنا بأنَّ الطريق إلى الأمام مُلغَّمٌ وبأنَّه سيعود في ثانية . كان يُرِيدُ أن يفحص الأرض ويُدقق في التضاريسِ . وسَيَجِدُ طريقًا !

وذهبتُ خلفه وتعقبته ، إلى أن وصل إلى جدولِ ماءٍ صغير .. تتبعته وهو يهبط إلى الجدولِ . وعندما سمعني صرخ قائلًا :

- « أنت أيها التركي يا بن العاهرة ! أنت خَمَّنتَ وكشفتَ الأمر ! » .

لكني كُنْتُ أسرعَ منه .. قضيتُ عليه بشلالٍ نارِيٍّ من رشاشي الآلي .

وعندما عُدتُ كانت القذائف قد نسفت الناسَ وفتكت بهم بعد أن حولتهم إلى مجرد قِطَعٍ وأشلاءٍ بشرية ، وكانت الرشاشات الآلية لا تزال تَبصق بُصَاقها القاتل ! .

لقد وقع هذا اللواء في فخٍّ - باتت الفرقة مُطوقةً ومُحاصرةً كليًا .

وخلال الوقت الذي استغرقناه لنبدأ باستِعادة هدوئِنا والسيطرة من جديد على رباطة جأشنا وبعد أن قمنا بالرد على النيران ، كان المئات من رجالِنا قد قُتلوا وجُرِح ثمانون .

وصلتنا الأخبار التي تقول بأن اللواء الذي يحمل الرمز (rd ٢٨٣) لَمْ يُنجزْ أي تقدمٍ ولم يحرزْ أي نصرٍ يُذكر . كَانَ بين أفراد اللواء ٢٨٩ جريحًا ! عُدنا لمُسَاعَدَتهم . وقمنا بَحْملهم والصعود بهم فوق التَّلِّ .

كنَّا قد تلقينا أمرًا بحَمْل جميع الجرحى إلى الطريقِ الذي يَرْبطُ بين (كرافيتسا) و (روجاتس) .

كان الرجال مُتعبين ومُرْهَقين بعد أن شَربوا الماءَ ، وبدأ العديد مِنْهم يَفْقدون صوابهم بفعل السمِّ الموجود في الماءِ وفي العصير والهواء الفاسد أيضًا .

وصلنا إلى الطريق . لم يكن هناك ولا حتى ألف منَّا ، وقد تسلمنا أمرًا مفاده أن علينا أنْ نَحْملَ الجرحى وبأن الطريق مُأمنٌ وأن لا خطر يتهدد سلامتنا ، كان الطريقُ خالٍ تمامًا ، وفجأة ، أفلت الجحيم الهادر من زمامه مرة ثانية . وانهمر القصف مِنْ كُل الجوانب . ومن جديد ، كنا مُحاصرين ومُطوقين كليًا . كانوا يَضْربوننَا بكُلِّ

شيء ، مِن البنادق ذات العيار الأصغر إلى أثقل العيارات النارية ، استخدموا كافة أنواع القذائف . ولم تكن إحدى تلك الطلقات لتسقط على الأرض دون أن تقتل خمسين رجلًا على الأقل !!

اتخذتُ ساترًا واختبأتُ وراءه ، كنتُ أُطلقُ النار ، وكان الآخرون يَسْقطونَ أمام عيني ، ولم أَعْرِف ما إن كانوا أحياءً أَم موتى . واستمر ذلك لساعتين .

أراد بعضهم الاسْتِسْلام .

لم أستطع أَنْ أَرفعَ جسمي . حاولتُ أن أُنادي على الرجلِ الذي كان يَرقد ممددًا على ذراعي الأيمنِ . لم يكن يتحركُ . سحبتُ ذراعي مِنْ تحته وقلبت جسده ودحرجته بعيدًا عني ، وحاولت أن أُنادي على الرجلِ المُلقى على يسارِي . كان هو أيضًا ميتًا .

حلَّ الظلام ، وتصاعدت الصرخات حولي من كل اتجاه ؛ ثلة تصرخ من الألم ، وأخرى مِنَ الخوفِ . كان هناك أيضًا صيحات الرجال وهم ينادون على بعضهم البعض . كانت الأصوات تختلط جميعًا وتذوب في صوتٍ واحدٍ يشبه هزيم الرعد . وكانت الغابة تردد الصرخات بصدى متطاول متتابع وتُدوي كما لو كانت تتلوى هي الأخرى من الألم .

هزني أحد الأشخاص ، وهو يقُولُ :

- « أَنا (أيوب غوليتش) ! » .

- « ياه ماذا ، (أيوب غوليتش) ؟! هل هذا معقول ؟! » .

- « نعم نعم ، إنه أَنا (أيوب غوليتش) . اصغ إليَّ بعناية ، اسمعني جيدًا » .

نظرتُ باتجاهه .. كان قد جمَّع الباقين على قيد الحياة .. قال لي :

- « سَتَأْخذُ كُلَّ الجرحى إلى قمةِ التَّلّ ، ذاك هو مكانُ التجمُّعِ . لقد تمَّ التفاوض على وقف إطلاق النار ، اكتشفَ العالمُ ما يَحْدثُ لشعبنا وأجبرَ الصرب على وقف الأعمال العدائية ، ولأننا كنَّا في منطقة تقع تحت سيطرتِهم ، فسيأخذونَ الجرحى . لَكنَّها مجرد إجراءات شكلية فحسب ، فقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تنتظرُ على الطريق . وسنحصل على ممر آمن ! » .

لم يكن هناك بوسني واحد في (سربرينيتسا) لم يسمعْ عن (أيوب غوليتش) ! ومعظمهم لمَ يره أبدًا ، ولكن أنَّى للمرء أن يعرف بأنَّ ذلك الشخص لَيسَ هو ؟ .

حَملنا المجروحينَ لمدة خمس ساعاتٍ كاملةٍ .

جَلسنا لأَخْذ قسط من الراحة ، كنَّا نَشتكي ونتَذَمَّر ؛ لأنه لم يكن هناك أحد مِن القيادةِ ، وكان أحد الجنود يُشيرُ إلى مجموعة من الرجالِ في الظلامِ ، ويَقُولُ بأنَّ تلك كَانتْ القيادة ، ولكني لم ألحَظَ أي أحدٍ ولَمْ أُميزّ مَعَالِم أيٍّ واحدٍ منهم .

كان قد تَجَمَّع أسفل التل من خمسة إلى ستة آلاف شخصٍ . كانوا يَنحدرونَ مِنْ كُلِّ حدبٍ وصوبٍ ، وهم يَحْملُون الجرحى .

وكان أولئك الذين تَخلَّفَوا منَّا ، يَطْلبونَ مِنَّا الاسْتِسْلام ، كانوا يَصْرخونَ مِنْ كُلِّ الجوانب مستخدمين مكبِّرات الصوت ، كانوا يَقُولونَ بأنَّنا مُحاصرون ، وفي تلك اللحظةِ هرع نحوي رجل في الزيِّ الرسمي وهو يَصْرخُ :

- « إخوتي ، ساعدُوني ! إنهم يُريدونَ قَطْع رقبتي ! » .

تجمَّعنا حوله . شعرتُ أنّه لَيسَ واحدًا منَّا . إنه من « التشيتنيك » ، يُمْكِنُني أَنْ أَحسَّ بذلك .. إلا أنني لم أَعْرف ما الذي يهدف إليه .

صرخت :

- « إنك من « التشيتنيك » ! » .

- « لا لَستُ منهم . أَنا مِنْ (سانديتسي) » .

- « أنت لَسْتَ مِنْ (سانديتسي) . أَعْرِفُ كُلَّ مسلمٍ مِنْ (سانديتسي) ! » .

قلت له ذلك ، لكنِّي في الحقيقة لم أكن أَعْرِفُ .

- « بل إنني منهم ! » .

- « لا لَسْتَ منهم ! » .

- « وماذا يهم إذا لم أكن ؟ ! انظرْ حولك » .

نظرنا حولنا . وبنَظْرة بانورامية سريعة وخاطفة : كان « التشيتنيك » يُحاصروننا

بالكامل . كانوا يطوقوننا بِكُلِّ مَعْنَى الكَلِمَة .. على كُلِّ التلال من جميع الجهات . ولا مكان للهرب .

صرخوا بوجهي قائلين :

- « لَنْ نؤذيك . نريد التَفَاوُض ! » .

وافق بعض مَنْ بقى على قيد الحياة من اللواء (nd٢٨٢) على التفاوض على استسلامِنا .

وأدركتُ فَجْأةً بأنَّني لم أكن أَعْرِفُ الجندي الذي اصطف بين رجالنا .

وما أن أقدم بعض الرجالِ على الاصطفاف لتشكيل الصفوف ، حتى مزقتهم قذائف الرشاشات الآلية ، ولم ينجُ منهم أحد ، ولا فرد واحد ! .

كنت أَقِفُ مُستندًا بظهري إلى شجرةٍ .

كرّروا الأمر بالوقوف على هيئة صفوف ، لكن هذه المرة ، صدر الأمر مِنْ جنود مِنْ (سربرينيتسا) ؛ لذا فمن البديهي أن أولئك الذين شكّلوا الصفوف من قبل كَانوا من الصرب ، والآن علينا نحن أنْ نقف لنُشكِّلَ الصفوف .

- « انْبطح أرضًا ! » .

كنت لا أزال مُتّكئًا على الشجرةِ ، وقد اقترب مني الرجل الذي قدَّمَ نفسه على أنه (أيوب غوليتش) .

سألته :

- « من أين أنت يا رجُل ؟ » .

- « ماذا تَعْني بسؤالك هذا ؟ مِنْ (فوليافيتسه) ! » .

وفي تلك الأثناء كان رجالنا قد شكّلوا صفوفًا وتم إطلاق النار عليهم مرة ثانية .

كان يقف بجانبي شخص رأى وجهَ الرجلِ الذي استمرَّ في إخْباري بأنَّه (أيوب غوليتش) فقال له :

- « أنقذني يا (فلادان) ؟ أنت مِنْ منطقة (نوجوتسيفيتسي) ، لقد عرفتك » .

وبمجرد تلفظه بتلك الكلمات ، فَجَّرَ الرجل الذي كَانَ يدعي أنه (أيوب غوليتش) قُنْبلة خاطِفة وسَرِيعة باتجاهه . رَددتُ برَمي القنبلة اليدوية عند قدميه . وأرْتميت جانبًا . انفجرت قنبلتي اليدوية وأحدثت صوتًا عاليًا ، ونسفت (أيوب غوليتش) المُزيَّف ، أما أنا فقد قذف بي الانفجار المُدوي إلى أسفل . تدحرجت على الأرضِ المُنْحَدِرةِ لأرسو في أحضان أجَمَة [1] كثيفة من شُجَيْرَات العُلَّيق [2] .

ومِنْ فوق التَّلِّ كانت البنادق تُقرقع وتعصف بكامل قوتها . ووسط كُلِّ ذلك الوميض المُتَوَهِّج للبنادق ، رأيت كيف كان زملائي البوسنيون يتساقطون تحت وابل الرصاص كأعجاز نخلٍ خاوية .

كان بعض رجالِنا يردُّونَ بإطلاق النيران ، وكان الرجال مِنْ (سربرينيتسا) يَردُّونَ بإطلاق النار أيضًا . كان كُلُّ شيء مُشتعلًا تمامًا ؛ الأرض والسماء . أين نحن الآن ؟ « التشيتنيك » في كل مكان . قمتُ باستغلال كُلِّ تلك الضجَّة والجَعْجَعَة وعُدْتُ إلى قاعدةِ التَّلِّ ، رقدتُ وسط المَوتى ، ومِنْ قمةِ التَّلِّ كانت تُسمع كل أنواع الصَّيحات ، كان أصحاب الأجساد المُشَوَّهة والمُقَطَّعة يحتضرون .. ويصرخون . كانوا يَصْرخونَ بأسمائهم وأسماء عائلاتهم .

أنَا فلان ابن فلان ، مِنْ منطقة كذا .. ، أرسلوا تحياتي إلى أطفالي .

وكان البعض يَصْرخونَ ويُرسلون السلام إلى زوجاتِهم . والبعض الآخر يَذْكرونَ أسماءَ أمهاتِهم . كان الناس يَصْرخونَ .. يُعثرون سلاماتهم ويطلقون تحياتهم في فضاء الليلِ ... آملين أن تحملها نسمات الليل الخفيفة وتوصلها إلى أحبتهم .

ومِنْ أسفل التلِّ ، وباستخدام مكبِّرات الصوت كانوا يدعون كُلَّ شخصٍ للاستِسلام :

- « لا تتركوا أنفسكم لتمُوتُوا وتزهق أرواحكم هباءً .. إنَّ الحافلاتَ تَنتظرُكم وسَتُنقلونَ جميعًا إلى (توزلا) ! لا خِدَعَ بعد الآن . تم التوصل إلى اتفاق مع الأمم

(١) أجَمَة : منطقة غابات أو أدغال مُغطاة بالأشجار والشُجَيْرات - (المترجمة) .

(٢) العُلَّيق (نبات) : نوع من التوت - (المترجمة) .

المتَّحدةِ . ولكم الأمان بضَمَانَة القائد الصربي (ملاديتش) شخصياً ! » .

كنتُ أعتقدُ بأنَّ كُلَّ شخص من حولي كَانَ ميتًا ، إلا أني شهدتُ قلَّة منهم ينهضون ويسيرون باتجاه أسفل التلِّ . لم أتحرك . تظاهرتُ بِأنَّني ميت !

لكن كان ينتظرنا ما هو أسوأ ، كان القادم هو الأسوأ . لَمْ يَعُدْ الجرحى يَستطيعونَ تحمل مُعَاناة الألم أكثر من ذلك . كانوا يَصرخون طالبِينَ النجدةَ . تصاعدت صَيحاتهم .. وكانت السماء تدوي بصرخاتهم .

كان « التشيتنيك » يترنَّحُون من حولنا ، ويصيحون بصوت يُشبه العواء : « أين أنتم ؟! » .

وما أن يُجيب أحد الجرحى البوسنيين في جُنح الظلامِ ، حتى يُجهز « التشيتنيك » عليهم بقطع رقابهم .

كنتُ أَسْمعُ صوت انْبِجاس نوافير الدم من رقاب الضحايا وتفجرها .. وأصوات شلالات الدم المُتَدَفق باندفاع رهيب ، سمعتُ تلك الأصوات حتى مِن الأماكنِ التي لَمْ يُجب فيها الجرحى ولم يردوا على صيحاتهم . كانوا يَقْطعونَ رقاب المَوتى أيضًا !!

حلَّ الفجر وهم مُستمرونَ بالذَّبح ... بزغ ضوء الشمس وهم مُستمرونَ بالذَّبح والدم يتفجر ينابيع حمراء ...

كنتُ لا أزال راقدًا بين المَوتى ، أنتظر . لا أدري ماذا أَنتظر؟ كنتُ فقط أنتظر وأستمع . كنتُ راقدًا على ظهري أَختلس نظرة من بين رموشِي ، أُراقبهم وهم يَذْبحونَ الناسَ كما لو كَانوا خِرافًا . وبعضهم كان يُفضل أن ينحر الرقبة مِنْ الظهرِ !!

اعتقدتُ بأنَّهم قد ذَبحوا الجميع ولم يبق سواي . ظننتُ أنهم انتهوا من ذبح الجميع ... من لا يزال على قيد الحياة ومن كان في عداد الموتى . وعندما صَرخ أحد « التشيتنيك » فَجْأةً :

- « أنت ، لماذا تَتظاهر بأنك ميت ؟ إنه دوركَ الآن ! » .

توقَّفت نبضات قلبي ..

أجاب أحد الشباب . واستطعتُ أَنْ أَسْمعَ أصواتًا كما لو أنهم كَانوا يَشقُّونَ بطنَه . كانوا يُمزِّقونَ أحشاءه .

وبَدأَ كُلُّ شيء بالدَّوَران السريع . الأشجار .. السماء ... التلال .. وأحشاء ذلك الشاب .

لا بد أنَّني فقدتُ الوعي ، وربما أنني قضيتُ اليوم التالي بأكمله على هذه الحالة .. كنتُ أتمايلُ وأترنح هنا وهناك فوق التَّلِّ .

وفي الأعلى ، على قمةِ التَّلِّ ، كان كل من بقي حيًا قد أصيب بالجنُون . بعضهم مَنْ هبط إلى أسفل التل باتجاه « التشيتنيك » . ومنهم من كانوا يقْتلونَ بعضهم البعض . لكن معظمهم كانوا يقْتلُون أنفسهم . لَم يحتفظْ أحدٌ منهم بعقله سليمًا . اختَلَطَتْ عُقولهم وسلب الجنون صوابهم جميعًا . قام (عزت) مِنْ أبناء بلدة (بولياتسي) ، أَخو (يبهائيا) ، برمي قنبلة يدوية وقتل خمسة مِنْ رجالِنا سَأَلْته ماذا فعل ؟!

- « ألا تَرى أنَّهم من « التشيتنيك » ! إنهم لَيسوا من رجالنا ! » .

كان يَحْملُ القنبلة اليدويةَ الثانيةَ قريبًا من جسده . قام بتفجير نفسه أيضًا .

عُدتُ إلى سفح التَّلِّ ورقدتُ بين المَوتى .

قضيتُ خمسة أو ستة أيام وأنا أحاول أن أعثر على شخص عاقل ، وفي الليل كنتُ أنام بين المَوتى . وكنت قد أكلتُ الطعام المتُعفن الذي عثرتُ عليه . كنتُ أخرجه من الأكياس التي عصرتها أيدي رفاقِي المتُصَلِّبة ، كانت الأكياس مَضْغُوطة بإحكام داخل قبضات الأيدي المتُشنجة لرفقائي في السلاح . واستمعتُ إلى « التشيتنيك » عندما كانوا يَجوبونَ المنطقة بحثًا عن رقاب أولئك الذين يشَكُّون في وجود أيٍّ من علامات الحياةِ في أجسادهم .

مرة أخرى ، صعدتُ زحفًا على التَّلِّ . كَانَ اليومُ السابعُ أَو الثامن . وكانت الهضبة بأكملها مُغطَّاة بالموَتى . تعثرتُ بـ (سوليو) ، وكان مِنْ (بوسموليتسيي) ، وجدته يرقد خاملًا بلا حراك . وضعتُ يَدي على جسده وأدركتُ أنه ما زال حيًا .

أشرتُ له برأسي وعيوني في محاولةِ لأن أُعلمه بأنَّنا يَجِبُ أَنْ نُحاولَ الخرُوجَ من

هذا الجحيم . وكان هو أيضًا يُريدُ أَنْ يَفعل ذلك ! وبدأنا التحرك بالفعل . لكنَّنا لم نكد نَنْهض حتى وجدنا أنفسنا مُحاصرين بالكامل بقوات « التشيتنيك » . ثبَّت (سوليو) قبضة يده حول قنبلة يدوية وقبض عليها بقوة شديدة ، وخرَّ صريعًا على الفور . نأيتُ بنفسي جانبًا ، وأبقيت رأسي مُنخفضًا لأحمي نفسي من شظايا الانفجار ، فررتُ بسرعة جنونية نحو الغابة . رَكضتُ .. و .. ركضتُ أكثر .. وكنتُ أصطدم بالأشجار وأرتطم بفروع الشُجيرات .. اتجهت نحو الغابةِ .

رَكضتُ .. و .. ركضتُ حتى أدركتُ بأنَّني عبرتُ الغابة كلها وبأنَّني وصلتُ إلى مَرجٍ فسيحٍ به مجموعة من الناسِ . تعرفتُ على بعضهم . حاولتُ إقْناعهم بأنَّنا يَجِبُ أَنْ نَهرب ؛ لأن « التشيتنيك » ليسوا بعيدين عنَّا وأنهم خلفنا مباشرةً وبأنَّهم قَتلوا الآلافَ من رجالِنا .

وقد تعرف العديد منَّا مِنْ سكان (سربرينيتسا) على بعضهم البعض وقرَّروا مُحَاوَلَة الهروبِ معًا . شَققنا طريقنا بالزَّحْف على طول الأرضِ . انحدرنَا أسفل التَّلِّ ووصلنا إلى جدول ماءٍ صغيرٍ . ثم إلى التلِّ الثاني . والثالث . زَحْفًا على أجساد المَوتى . أجسادٌ مُكدَّسة بعضها فوق البعض . ثم صعدنا أحد التلال زحفًا لنجد أنفسنا في أحد الغابات وهناك اِنْبطَحنَا على الأرض في سكون تامٍّ . واسترحنا قليلًا . وفجأةً ، سمعنا « التشيتنيك » وهم يتجادلونَ . كانوا سَيَمرونَ دون أن يلحظوا وجودنا ، لولا أن أحد رجالِنا أخذ يَصْرخُ ، أو رُبَّمَا كَانَ هو أيضًا من « التشيتنيك » ، وقد يكون أحد رجالنا وقد اِخْتَلَطَ عَقْلُهُ وأصَابهُ مَسٌّ مِنَ الجُنُون . هتف الرجلُ قائلًا :

- « أنت ، هَلْ أحضرتني إلى هنا لأُقتل ؟! » .

ورمى قنبلة يدوية على (حسن) مِنْ (سربرينيتسا) . فرفس (حسن) القنبلة وقذفها بعيدًا عنه . وانفجرت القنبلة . وأُصيب كل واحد مِنَّا بشظية في جسده . أخرجت شظيتي خارج جسمِي بعد أن حَفرتُ مكانها بأظافري .

رَكضَ « التشيتنيك » خلفنا بِكُلِّ الاتجاهات ، ونحن انشققنا إلى مجموعتين ؛ هربت مجموعتي إلى (سيبيوتسينا) . وجدنا حشدًا ضخمًا من الناس يتجاوز الألف شخص ، من بينهم (فيهبيبا) ابن (علياء) مِنْ بلدة (ييتس) ؛ كان مُخْتَلّ

العَقْل وقد جُنَّ تمامًا . حاولتُ مُسَاعَدَته ليهدئ أعصابه ويركز أفكاره وناقشته مُحاولًا إقناعه بالمجيء مَعي .

أجابني قائلًا :

- « إطلاقًا ! .. « التشيتنيك » في كل مكان حولنا . ليس هناك أي مكان نذهب إليه . أَنا سأبقى هنا . لا بد أن يأتي شخص ما ويَحْصلَ علينا ! » .

تقدمت مجموعتي بخطة ؟ أخبرنا الآخرون بأنَّنا أشد حُمقًا مِنْ (فيهيبيا) ابن علياء . أين عسانا أن نذهب وهم يقُولونَ أن الألغام في كل مكان ؟

قرر واحد وعشرون رجلًا منَّا بأننا إما أن نتصرف ونفعل شيئًا وإما أن نموت . انطلقنا وبَدأنَا اختراق المجهول ! لم نكن نَعْرِفُ أين نَذْهبُ . لا أحد يَعْرِفُ الطريقَ . أخذنا نخمن أين الطريق . كانت المروحيات تُحلق فوقنا . وكنَّا نَسْمع صوت نِباح كلابِ « التشيتنيك » التي تَلقت تدريبًا طويلًا لسَنَواتٍ وتم إحضارها الآن خصيصًا مِنْ كليةِ « كلاب الشرطة » في (نِش) ، برفقة فِرقَة المَغَاوِير [1] مِنْ (نِش) أيضًا .

وفي منتصفِ الغابةِ قابلنا رجلًا جريحًا . قال بأنَّه لم يتَحرك منذ أحد عشر يومًا . أخبرنا بمكان المَوتى ، جمعنا بَعْض الأطعمة والضماداتِ ، وكُلَّ شيء وَجدنَاه على أجسامِ المَوتى . قُمنا بتضميد جراح المُصابين وأعطيناهم شيئًا من الطعام . وانتظرنا هبوط الليل ، ولكنه أخبرنا بألا نَذْهب اللَّيلة .

- « سَتَذْهبون غدًا . في منتصفِ النهار . لقد استكشفت المنطقة وعرفتُ كُلَّ شيء . أَعْرِفُ أَيَّ طريقٍ يُمْكِنُكم أَنْ تَذهبوا إليه وكَيفَ تصلون إليه » .

شرح لنا أَيَّ طريق يَجِبُ أَنْ نَسلك . سوف نتنَقَّل مشيًا على الأقدام تحت نظر « التشيتنيك » الذين يمرون الأرض من حولنا . كان هناك خمسة تلالٍ تحيط بنا وكُلُّ مِنْها تحميه وتحرسه المدفعية على التَّلِّ الآخرِ . كان كل تلٍّ مُغطًّى بحماية مُكثفة من

---

(١) فِرْقَةُ المَغَاوِير : الكُومانْدُوز أو الفِدَائِيُّون المُقَاتلون حتى الموت والمُدربون على تدريبات عسكرية خاصة - (المترجمة) .

قِبل مدفعية التل المقابل . قال بأننا يَجِبُ أَنْ نَقضي الليلةَ هنا . فقد نَفْقدُ طريقَنا أثناءَ اللَّيلِ ؛ لِهذا يَجِبُ أَنْ نَتحركَ أثناءَ النهار . وأن علينا أن نسمح لهم برؤيتنا . وهكذا سَيعتقدونَ بأنَّنا منهم . كان العديد من « التشيتنيك » قد اجتمعوا حول سربرينيتسا لدرجة أنَّهم لَنْ يَستطيعوا أن يُميزوا وجودنا بينهم ، ولن يُدركوا أننا لَسنا منهم إذا تنقَّلنا وتحركنا بحرية بينهم .

ولم يتمكن دليلنا المصاب من المجَيء مَعنا . كانت رصاصة قد ثَقبتْ رئتيه مباشرةً ، وما أن حاول المَشي حتى تقيأ دمًا ، كان الدمُّ يتفجر مُتدفِّقًا من فمه كما تفور الحمم البركانية من فوهة بركان غاضب . وكَانَ سَيَمُوتُ على الفور لو لم نسعفه بالطعام .

تحركنا بسرعة ، لكنَّنا كنا نمشي باتجاه (سربرينيتسا) . أخبرنا الرجل المُصاب أين كُنَّا وبأنَّنا كنا نسير في الاتجاهِ الخاطئِ ، وبأنَّنا لَسنا بعيدينَ عنْ (سربرينيتسا) ، وبأنَّه مِن الأفضل لنا الآن ، رَيثَمَا يتوقَّف الهيجانِ التشيتنيكي - وهو ما لن يحدث - أن نكُونَ قريبين من (سربرينيتسا) بقدر الإمكان ؛ لأن « التشيتنيك » لن يتوقَّعُوا وجودنا هناك ، وفيما بعد ، وعندما يغفل « التشيتنيك » عن مؤخِّرةِ قواتهم ، علينا أنْ نُحاولَ اختراقَهم والتسلل من بينهم .

كانت الخطة جُنُونِيّة تقريبًا وربما لم تكن كذلك (ولكن هل هناك شيء أكثر جنونًا من ذلك ؟) ، لكننا بعد وقت قصير شققنا طريقنا نحو الخطوط الأمامية لقوات « التشيتنيك » . مررنا أمام عيونِهم مباشرةً . كانوا مُنهمكين بعملِهم ، مشغولين بشؤونهم . وكنا نحن كذلك . تظاهرنا بالعمل معهم كأفضل ما عملنا مع بعض رجالِنا . وهذا ما فعلناه إلى أن حلَّ الظلام ونمنا قُرب أحد الجداولِ المائية في الغابةِ .

تَمَدَّدنا مُستلْقين وكان الماء يجري بجوارنا ونحن نَمُوتُ مِن العطشِ . لكننا لم نَشْرب رشفة منه ، فقد كان الجدولُ يغُصُّ بجثث المَوتى . لم نَستطع تمييز « التشيتنيك » بعضهم من بعض ، فيما عدا ذلك الشخص الذي شذَّ عنهم بلباسِه المدني .

كان ذلك حين عثر علينا ابنُ عمنا (فيكريت) . كَانَ جريحًا ومَخْبولًا مُخْتَل العَقْل . وقد أصدر أمرًا بقوله :

- « ارفعوا أيديكم أيها « التشيتنيك » اللقطاء .. أيها الأنذال ! » .

كان يَحْملُ سكينًا في يَده . وأخذ يُشيرُ بها في اتجاهنا جميعًا نحن الواحد والعشرين رجلًا . كَانَ كل واحد مِنَّا يحمل أسلحة شخصِية عديدة بقدر ما يُمْكِنُه أنْ يَحْملَ ! حاولنا أن نُسَاعده على جمعها كلها ، ولكن (فيكريت) رفض الاستِماع إلينا :

قال بلهجةٍ آمرة :

« اخلعوا ملابسكم الداخلية ! » « دعوني أرى مَنْ أنتم ؟ » .

لَم يكن لَدينا أي خيار سوى أن نصرف النظر عن فكرة قضاء الليلِ هنا وغادرنا تاركين (فيكريت) وراءنا .

ولَمْ نكد نبتعد أكثر من ثلاثمائة مترٍ عندما بدأ أَزيز سرب الرصاصِ .. وبدأت الرصاصات الهادرة تطَنُّ وتئز فوق رؤوسِنا من جديد .. إنهم يرحبون بوصولنا بوابِل مِنَ الرصَاصِ .. توقّفنا عن الحركة وبقينا هادئينَ في سكون تام . دُفْعَة أخرى من رَشَقَات البنادق والقنَابِل والمدَافِع وكافة أنواع الأسلحة النَّارِيّة . ودُفْعَة أخرى من « التشيتنيك » ! كانوا يُنادونَ على بعضهم البعض ، بالكلماتِ وطلقات الرصاص . فهمنا أنّهم يَدْعونَ كُلَّ فرد منهم إلى التجمُّعِ صباحًا بالقُرب من الثكناتِ . وكان المدْعُوين « التشيتنيك » يُبدون عن موافقتهم بالعواء والصياح .

تراجعت أصواتهم وأصبحت نداءاتهم أكثر بُعدًا .

كنا قد عَرفنَا بالفعل أين كُنَّا . لقد كُنَّا بالتأكيد فوق أرضنا المخْضَرة ، نحن على مَرجنا وعشبِنا الآن . عَرفنَا أيضًا أيَّ ثكنات تلك التي كَانوا يتحدَّثونَ عنها . قرَّرنا السير في اتجاهِ الثكناتِ ، لكننَّا سَنلتزمُ السير على جانبِ الطريق . فلَيس من الصواب أنْ نَمْشي بشكل مُباشر ومُسْتقِيم إلى مكان تجمعهم .

كُنَّا نَمْشي بصعوبةٍ بالغةٍ ، عطشى ومُنهَكون ، وقبل الفجر كُنَّا في منتصف الطريق على التَّلِّ فوق الثكناتِ ، كان هناك مَشْهَدًا يُمكننا أن نراه . كان

« التشيتنيك » قد تَركوا مواقعهم فوق التلال وتجمَّعوا على السهلِ [١] أمام الثكناتِ .

كانوا يَرمونَ بقبعَّاتهم العسكرية ويَعْوونَ في وجه الشاحناتِ المقبلةِ . وكنا نُراقبهم وهم يُنزلونَ الفتيات مِن الشاحناتِ – الفتيات اللواتي وُضِعنَ تحت حمايةِ الأُمم المتَّحدةَ في (بوتوتشارسكا ريكا) عندما كَانَت (سربرينيتسا) تَسْقط – كانوا يُرغمون الفتيات على النزول من الشاحنات ؛ حيث كان الصرب يجرِّبون أولئك الفتيات وهم يَلْبسون خوذَات الأُمم المتحدةَ بدلًا من قُبعات ثكناتهم وكتائبهم العسكرية ، مُباشرةً أمام جنود حفظ السلام الهولنديين وتحت أنظارهم تمامًا ؟

كانت الفتيات المذهولات يتعثَّرن ، يترَنَّحن ويتمَايلن ، ويسقُطن ، وخلفهن حشدٌ من الأوْباش المُغْتَصِبين .

وبدأت طقوس العَرْبَدَة في الثكناتِ العسكرية وسط الغابة ، وتصاعدت الصيحات مِن الأجساد المنهوبة للفتيات المَنْكُوبات تَدْوي مُجلجلةً في جنبات الغابة .. تلك الأجساد كانت تئن فقط وتصرخ طلبًا للمساعدةِ . كانت أشبه بدُمى تتنَفس .. لا يُمكن أَنْ يَكُونَ قد بقي فيها أي أثر للروح ؟

لَمْ أَعُدْ قادرًا على التفكير ، تَمنَّيتُ فقط ، من أعماق روحِي ، وأكثر من أي شيء آخر في العالم ، بل أكثر مِنْ حياتي ، تَمنَّيتُ أن ينجو مَعي شخص ما مِنْ هذه المجموعةِ حتى يمكننا أن نُدلي بشهادتنا وأن نشهد على ما رأينا وما نَسمعُه الآن . فعندما تنتهي الحرب ، أُريدُ أن يعرف أبناء الصرب وأحفادهم في البوسنة بمواخير [٢] الغابة التي أقامها آباؤهم وأجدادهم ، وأن يعلموا بأنَّ أندادهم ونُظرائهم البوسنيين حافظوا على ذكرى هذا الحدثِ وأبقوه حيًا في ذاكرتهم .

* * *

« توقَّف ! توقَّف ، أنت أيها اللقيط .. أيها « التشيتنيك » الأنذال ، توقَّفوا ! » .

توقَّفتُ .

---

(١) السَهْل : الأرْض المُنْبَسِطَة – (المترجمة) .

(٢) مواخير : جمع (ماخُور) وهو بَيْتُ الدَّعَارَة – (المترجمة) .

وتوقَّف الرتل من خلفي ومن أمامي ، كان رأسي مُنخفضًا لأسفل ونظرتي مُثبتةٌ على قدمِيَّ ، وكان أحدهم يلْعنني ، أردت أن أضحك ، لكن الصوتَ كَانَ جادًّا وصارمًا .

نظرتُ في اتجاهِ الصوتِ . إنه (حسن تافرو) ! أَعْرفُه جيدًا . إنه رجل طيب وبطل عظيم . ولكنها الأمور التي مَرَّ بها والأماكن التي كَانَ فيها كجُندي متَطَوِّع في الجَيْشِ .

صرخ قائلًا :

- « لا يُمكنك أن تستغفلني .. لا تَستطيع أن تخْدَع (حسن تافرو) ! .
إنني أَعْرفُكم ! أَعْرفُ مَنْ أنتم ! يُمْكِنُني أَنْ أَعْرفَكم من رائحتكم النتنة ! » .

صرخ في وجهه رجلٌ كان يعرفه وقال :

- « لَسنا من « التشيتنيك » يا (حسن) ! إنَّنا نَتْنين ورائِحَتنا كَرِيهَة مثلهم فقط لأننا لم نغتسل منذ ثلاثة أيامٍ وأربع ليالٍ » .

صرخ حسن وهو يسحبُ زِنَاد بُنْدقِيَّته :

- « اخرس ! » .

- « (حسن) ، أَخي ! انتظر ، إنه أنا ، أنا (عمر) ! أَنا أَخوكَ ! أخوك الوحيد ! لقد سممَك « التشيتنيك » . لا تفعل ؟ » .

وانفجرت نيران البندقية وتدفق الرصاص ! أَنا أيضًا سقطتُ على الأرض . فاجأني (حسن تافرو) بصليَّة [1] من الرصاص فخارت قواي وسقطتُ أرضًا .

لكنَّه لَمْ يُسقطني بالرصاصِ ، بل بصوتِ إطلاق النارِ فقط ... مجرد الصوت أطاح بي وأوقع بي إلى الأرض .. لهذا الحد كُنْتُ قَدْ أَصْبَحتُ ضعيفًا جدًّا وبلغتُ من شدة الضعف والإعياءِ لدرجة أن مجرد صوتِ إطلاقِ النار أطاح بقدميَّ وأوقعَني على الأرض ! .

---

(١) صليَّة : دفْقَة من الرصاص - (المترجمة) .

فتحتُ عينَيَّ ، رأيتُ السماء ، وعلى جانبي ، كانت تظهر قمم الأشجارِ وقد اصطفت وكأنها تيجان فوق رؤوس ملكية ، وبجواري كَانَ (عمر تافرو) يَتمدَّد على الأرض مُغَطًّى بالدِّماء ، كان ميتًا ..

صَرخ أحدهم :

- « أوه يا رجل ، لقد قَتلتَ أَخَّاكَ ! » .

ومرة ثانيةً ، انطلقت صليّة من الرصاص . ومرة ثانيةً ، متُّ .. متُّ من جديد .. لقد جَعلَني صوت إطلاقِ النار أتجمَّدُ من الخوفِ . كان الناسُ يَصْرخونَ ، يعوون من الألمِ ، وبطلنا (حسن تافرو) قَتلَنا جميعًا .

فكَّرت في نفسي .. حَسنًا إن كنت سأمُوتُ على أية حال ، فعلى الأقل سيقتُلني بطلنا (حسن تافرو) وسأموتُ بيديه لا بيد « التشيتنيك » ! نهضتُ ونظرتُ نحو (حسن) .. أصررتُ بعناد اليائس على ألا يقتلني أحد غير (حسن) .. تقدمتُ وأنا أختنق من داخلي بالخوف .. لكنه ليس هناك ، ما هذا ؟ أين اختفى (حسن) ؟ .

ثم ظهر (حسن) مِنْ وراء شجرة زانٍ ، في نهايةِ فسحة الغابةِ ، كان يَصْرخُ :

- « حَسنًا ، حَسنًا ؟ هناك الكثير والمزيد منكم ؟ إني أَستسلمُ ؟ هنا ، أنا أَستسلمُ ؟ » .

قام بفَكِّ حزامه ، مع قِراب [1] المسدَّس . كان يُزيلُه بيده اليسرى . وفي نفس الوقت كان يَرْفعُ مدفعه الكلاشينكوف ، قام بحركة بذراعِه كما لو كان سَيَقْذف بالكلاشينكوف بعيدًا عن نفسه ، كان على وشك أَنْ يَقذف بسلاحه ليطير في الهواء عندما التقطه ثانيةً .

- « آهاه ، آهاه ! أنتم أيها « التشيتنيك » اللقطاء .. أيها الأنذال ! (حسن تافرو) لا يَستسلمُ . لَنْ تَحصلوا عليَّ حيًّا ! » .

وأطلق صليَّةً من النيران صوبها نحو جسمِه من جبهتِه إلى أخمص قدميه . رَشَّ نفسه بالرصاصِ على طولِ جسمِه !! .

---

(١) قِراب : غطاء جلدي لتثبيت المسدس في الخاصرة - (المترجمة) .

نظرتُ حولي ، أخذتُ أُقلّب الأجساد المُلقاة على الأرض . كانوا جميعًا مَوتى . خمسة وعشرون رجلًا . ومع إضافة (حسن تافرو) ، يصبحون ستة وعشرين قتيلًا بوسنيًا . وأنا وحدي . ثُمَّ سَقطتُ أنا (مرجان جوزو) على الأرضِ مُحدثًا صوتًا غَلِيظًا مكتومًا .

وقد سمعته : صوت أمِّي وهي تَنادي على ابنِها الميتِ ، بعيدًا عنْ هنا ، في فضاءٍ لَا يتزامن مع الأوقات التي تمرُّ بها (سربرينيتسا) . لقد استيقظتْ أمي مِن النومِ ، كانت تهذي وتَصِيحُ باسم ابنِها الذي لم يعد له وجود . ولا تَعْرِفُ تلك المرأة العجوز الطيبة ما إن كانت تتعذَّبُ بكابوس أَم أنه جزء من الواقع .

وتلك الأم لا تَعْرِفُ بأنَّ ابنَها فُقِدَ مُنذُ وقت طويل بعد أن غيَّبه الموت . وبأنَّني أَعِيشُ في الموتِ . ورُبَّمَا كانت تَعْرِفُ ؟ رُبَّمَا تَعْرِفُ ذلك أفضل مِنّي ؟ تُرى كم سَتَكُونُ أفضل حالًا لو لم يكن لديها أنا !! لو لم يكن لديها ولد لَكَانَ أفضل لها . ولو أني وُلدتُ بدون أم ، لكان ذلك أفضل . ولكنتُ أحسن حالًا .

- « أمي ، قد يَكُونُ من الأسهل لكلينا ألا ننتمي إلى بعضنا البعض .. لو كان ذلك لكان الأفضل لكلينا » .

- « لا تقُل ذلك يا (مُرجان) يا ولدي ! ليس هناك معاناة أسوأ في هذا العالمِ مِنْ أن تعيش أم لترى أبناءها يَمُوتونَ أمامها ؟ » .

- « ولكن يا أمي ، لقد مِتٌّ قَبلي وقبل (فخر الدين) . لقد مِتٌّ منذ زمن طويل . مِتٌّ منذ عهد بعيد حتى قبل (فخر الدين) ، ابنكِ وأخي ، يُمْكِنُ أَنْ أتذكَّرَ ذلك بصعوبة بالغة ! » .

- « أنت لا تَعْرِفُ يا بني . لقد كنت صغيرًا ... أصغر من (فخر الدين) ، الذي انضمَّ إلى أمِّه هنا . وماذا عن أختِكَ ؟ » .

ما دامت أمِّي لم تكتشف ذلك ، فقد تكون أختي على قيد الحياة . أنا ، نفسي ، لم أستطع التعرف على عظامِها في موقعِ تنفيذ الإعدام برجالِ ونِساءِ (سربرينيتسا) المُحترقين .

لِهذا فلن أُخبر أمي عن أختِي التي أُحرقت حيَّة ، أردتُ أَنْ لا أَعْرف بأنَّ أختي

لَيستْ حيَّةَ . فضلتُ أَنْ أُوافقَ على رُؤية اسمها على قائمةِ المفقودين . ورُبَّما سَيَحْدثُ لها نفس ما حدث لجدِّنا (رحمن بك جوزو) الذي عاد إلى الدنيا بعد أن يئس الجميع من رُؤيته حيًّا ثانيةً .

لكني أَخْشى أَنْ هذه كَانتْ الحرب الأقذر من بين جميع الحروب ، الحرب التي بعد أن تضع أوزارها لَن يَرْجع منها أسير بوسني حيٌّ أبدًا ... مهما بلغ مقدار أملنا وتفاؤلنا !! .

كنتُ على عجلةٍ لإجابة أمِّي :

- « أختي اختفتْ ، لكننَّا سَنَجِدُها » .

- « آمل أن تكون على صوابٍ يا بُني ؟ » .

- « أوه ، أمِّي ، أَتمنَّى أَنْ أَرى جَدِّي . لقد كَبرتُ وترعرعتُ مَعه ؟ » .

- « مَع جَدِّك ؟! وما الذي حَدثَ لأَبيك (ثاقب أفندي) ؟ » .

- « أبي أيضًا فارق الحياة الدنيا ، لقد رحل هو الآخر ، أنا لا أَعْرفُ بالضبط بعد كَمْ مُذ رحلت أنت ؟ أنا لا أَستطيعُ أن أُجَمِّع أفكاري لكي يُمْكِنني أَنْ أُخمِّنَ ذلك ، لكن مضى وقت طويل منذ أن فارق الدنيا من بعدك . وكَبرتُ مَع جَدِّي (رحمن بك) ؟ » .

- « مع (رحمن بك) ؟ كَبرت مَعه ؟ لا يُمكن أَنْ يكون لك ابنًا ! (رحمن بك) أيضًا هنا ، في هذا العالَمِ . فقط (ثاقب أفندي) لَيسَ هنا » .

- « لقد نشأتُ مع جَدِّي الطيب (رحمن بك) ، والد أبي (ثاقب أفندي) ، الذي كَانَ زوجك ؟ إذا كان هناك مَعك ، فكَيفَ لم يخبرك ؟ وكَيفَ لم تسأليه أنت ؟ » .

- « إنك لا تَعْرف ، الأمور مختلفة هنا . إنها لَيسَت على الطريقة التي يتصورها الناس ويتخيَّلونَها ؟ انتظر يا بني ، (رحمن بك) هنا . يُريدُ أن يتحدث مَعك » .

- « هَلْ تُحاولين إخباري بأنَّك في مَقْصُورَة (كُشْك) هاتفٍ عموميٍّ ؟! » .

- « وما هو الهاتف يا بني » .

- « هيا يا أمِّي ، دعكِ من التندُّر والمزاح !! » .

- « أوه ، لقد نسيتها . وما الذي تَعْرِفُه أمك عن الهواتفِ . إنها حتى لم تكن على قيد الحياة عندما وصلت الهواتف إلى (سربرينيتسا) . ولم تكن متواجدة في تلك الأماكنِ من الحياةِ التي عشتُ فيها حتى يُمْكِنُها أَنْ تَعْرِفَ أيَّ شيء يتعلق بالهواتفِ ؟ قام الألمان بمدِّ الأسلاك بطول مائة متر ، ثم خمسة عشر كيلومتر ، مِنْ موقعِ لآخر حسب الحاجة ، وبعد ذلك يبدؤون بتدوير ذلك المقبضِ الدَوَّار بسرعة : ألو ! مرحى مرحى ، يا لها من أُعْجُوبَة تِقْنِية[1] ! مُعْجِزَة عَجِيبَة حقًّا ؛ لأنه إذا قُطع السلكُ ، فسوف ينقطع الاتصال بين الموقع والقيادةِ ، تمامًا كما حدث مع فَوْجنا العَسْكَرِيِّ الذي بقي يقاتل الروس وظلَّ يقاتل حتى بعد أن انتهت الحرب ووضعت أوزارها . وهكذا وقعتُ في الأسر وأخذوني أَسيرًا . ذَهبتُ إلى الأسرِ ؟ وما عساك أن تفعل ، لقد قُطع السلكُ !! » .

- « هَلْ هذا جَدُّك (رحمن) ؟ ! لقد تعرفتُ على صوتك بصعوبة .. بالكاد يُمكنني تمييز صوتك ؟ » .

- « إنه أنا ، إنه أنا » .

- « وأمي ؟ أين أمي » .

- « ألا تَراها » .

- « بل إنني لَمْ أَرها حتى من قبل . رأيتك أنت فقط . ولكني سَمعتُها !! » .

- « احمد اللّه على ذلك . هذا يعني أَنني أظهر لك في منامك فقط . وذلك يَعْني أَنَّك أفلت من الموت . لقد نجوت بإذن اللّه . لقد كُنْت تحتضر عندما سَمعت صوت أمِّك . ولو كُنْت رأيتها ، لمت ، ولرأيتني أنا وأمَّكَ معًا . ولكنت أتيت إلى هنا . إنها هنا . ولكن يُمْكِنُكَ أَنْ تَراني أنا فقط ؟ .

- « أنت فقط ! » .

- « اشْكر اللّه ، أَنني آتي إليك فقط في أحلامِكَ » .

- « وأبي ؟ أين أبي في ذلك العالمِ ؟ » .

- « لم يَلْتَقِ أبوك بأمِّكَ في هذا العالمِ ؟ هذا العالمِ شاسِع ؟ » .

---

(١) تِقْنِية : تِكْنُولُوجِيَّة أو مُتَعَلِّقة بِالتِّكْنُولُوجيا - (المترجمة) .

- « أين أبي ؟ » .

- « انْس أباك . لقد قضى أبوكَ عمره بأكمله في الزَّمَن الميّت . لقد كَانَ يَحتضر مَع البوسنة . إلا أن كلينا - أنت وأنا - قُدِّر علينا أن ... ! » .

- « قُدِّر علينا أن ماذا ؟ ! أن نقضي أعمارنا في بركة من الدِّماء بعُمق ركبتينا ! » .

- « أبوكَ أيضًا كَانَ يَعِيشُ في بركة من الدِّماء بعُمق ركبتيه ، إلا أن كلًّا منَّا ، أنت وأنا ، كنا نعرف على الأقل بأنَّنا كُنَّا أحياءً ؟ في زماني وزمانك ، على الأقل كان البوسني يذهب إلى المعركةِ ضد العدو ! وقد قاتلنَا بشكل بطولي ؟ » .

- « أُريدُ أن أرى أمِّي . يا جَدِّي ، إنِّي أفتقدُ أبي ؟ » .

- « دعهم وشأنهم . إنه أنا فقط من يظهر لك في مِنامكَ . عليك أن تواصل المسير ؟ » .

- « جَدِّي ! .. » .

لكنه لا يُجيبُ .

- « جَدِّي ! » .

لا أَستطيعُ سَمَاعه .

- « (رحمن بك) ، يا رفيقي العجوز ! » .

لا شيء ؟ .

لقد اختفى جَدِّي ..

- « جَدِّي ، البيت القديم لم يعد له وجود ! » .

لا شيء ؟

وحيثُ إنني لا أَستطيعُ الاستِمْرار في الحُلْم ، على الرغم من أنَّني أُريدُ ذلك وأتوقُ إليه أكثر من أي شيء آخر ... فلا بدَّ أنَّني كُنْتُ أتخيَّلُ فقط بأنني أَحْلمُ ؟ .

- « جَدِّي ، أنا لا أَستطيعُ رُؤيتك ولا أَستطيعُ سَماعك ! نَسيتُ إخْبارك ، يا رفيقي العجوز ، بأنَّ بيتنا لَم يعد له وجود .. ولا أي شيء موجود ! ولا حتى (سربرينيتسا) ؟ » .

أجاب جَدِّي :

- « أَعْرِفُ ، أَعْرِفُ » ، « إنك لا تَعْرِفُ منذ متى أعَرف ذلك ! حتى إن أبوكَ لم يكَن قد وُلدَ بعد وقد عرفت مذ ذلك الوقت المُبكر بما تَشْعرُ به الآن وأنا أحس تمامًا حتى بما تحس به على جلدِكَ . وتمامًا كما أَظْهرُ الآن في حلمِكَ ، كذلك ظَهرتَ أنت في منامي ذات يوم ؟ » .

- « أَعْرِفُ بأنَّك تَعْرِفُ . أَتذكَّرُ ذلك ! » .

- « تَتذكّرُ ؟ ! أنت لا تستطيعُ أن تتَذكر ذلك ! » .

- « أَتذكَّرُ مِنْ كتاباتِكَ التي تَركتْها في موضع السورة السابعة من القرآنِ الكريم ، والتي خبأتها وأخفيتها تحت اللوْح الخَشَبِيِّ التاسع عشر للأرضية غُرف الطابق العلوي للبيتِ القديمِ ؟ » .

- « إنها سورة الأعراف ؟ » .

- « نعم ، يا جَدِّي ، نعم ! هي سورة الأعراف ؟ » .

- « تلك هي السورة ؟ » .

- « جَدِّي ! » .

- « جَدِّي ! » .

« جدددي ي ي ي ي ي ! » .

أدركتُ بأنَّ جَدِّي لن يُجيب أكثر من ذلك . إنه أنا ، ذاك الذي يتكلَّمُ مع نفسه في هذا العالمِ ..في هذه الدنيا .

- « يا رفيقي العجوز ! » .

« جَدِّي ! » .

« رحمن بك ! » .

لا شيء ...

* * *

اللّهُ وحده يعلَمُ كَمْ من الوقت بقيتُ بين إخوتِي المَوتى . أنا ، نفسي ، لا أعْرفُ

منذ متى كُنْتُ أَرقدُ فاقِد الوَعْي مَغْشِيًّا عَلَيَّ وسط الرجالِ المَوتى من أبناء (سربرينيتسا) في فسحة الغابةِ التي لا يُمكنُ أَنْ تَأْخُذَ أي اسمٍ ، في موازاة الغابةِ المُسجَّلَة في مكتبِ تسجيل الأراضي تحت رقم مُعين إلى جانب الحرفين (K و C) ، الغابة التي تقع على جبل يَجِبُ أَنْ يكونَ له اسم لكنّي لن أَستطيع أن أتَذكره طوال حياتي .

وحَتَّى الآن لَا أستطيع أن أتبين كَمْ من الوقت كُنْتُ حيًّا ومنذ متى أنا ميت ، بل إنني لا أَستطيعُ حتى أن أكتشف ذلك عن طريق التَّخمين . هَلْ كان عشْر دقائق ، ثلاث ساعاتٍ ، خمس عشْرة ساعة ، يوم ونِصْف . ببساطة أنا لا أَستطيعُ مَلء تلك الفجوة الزمنية في عقلي .. أعْرفُ فقط بأنّني سافرتُ لستٍّ ليالٍ وخمسة أيامٍ .

ثم أيقظتني الضوضاء وجلبتني مِنْ بين المَوتى . كان بَعْض الرجالِ يَمرونَ بي ويَصْرخونَ بالْتيَاع وحُرْقَة قبل أن يُسددوا نحوي نظرات الرُّعِب المُريعة ، كانوا يسألونني ما إن كَانَ هناك من بقي حيًّا غيري . وأنا لا أَستطيعُ إجابتهم . لَم أكن أعرف أين أنا ؟ ولا حتى من أَنا ؟ كانوا يَصِيحونَ بي للمَجيء مَعهم . لكنَّهم لم يَدْعونَني باسمِي . كانوا يَدْعونَني بالاسمِ الذي وَجدتُه في كتاباتِ (رحمن بك جوزو) . كانوا يُنادونَني (مرجان) . ليس هناك مثل هذه الأسماءِ في البوسنة . وليس بين الذكور البوسنيين من يحمل الاسم المُذكر « مرجان » . فقد مر وقت طويل منذ أن تُرِكتْ البوسنة محرومةً من شواطئ تطل على البحر ، ولهذا يصعب على مثل هذا الاسم البحري أن يعيش في البوسنة .

كان بعضهُمْ يُحاول إقْناعي بأنَّنا نعرف بعضنا البعض منذ سَنَواتٍ . ويُخبرونَني بأنَّ الغازاتِ السامَّة كَانتْ قَدْ أُلقِيتْ مِن الطائراتِ - سمٌّ سريع المفعول وله تأثيرات فتاكة وقاتلةِ ؛ وأن قوات « التشيتنيك » لعلمها في أي اتجاه كُنَّا نَتحرَّكُ ، كَانَ لَدَيهم الوقتُ الكافي لتسميم الجداولِ التي كان لا بُدَّ أنْ نَشْربَ منها الماءَ .

إنهم يَقُولونَ بِأَنَّ سكان (سربرينيتسا) الذين بقوا على قيد الحياة ، سوف يَحسُّون بعواقب صحيَّة وخيمة وسيعانون من تأثيرات لاحقة قوية وعنيفة

كالانهيارات العصبية والتوهم [(١)] والهوس [(٢)] والاكتئاب [(٣)] والذُّهَان [(٤)] .

لقد سَمعتُ كل ما كَانوا يَقُولونَه لي . تَذكَّرتُ كُلَّ شيءٍ ، لكنَّي لَمْ أعْرِف ما الذي كَانوا يَتحدَّثونَ عنه .

قلتُ مُحاولًا التَخَلُّص مِنْهم :

– « يا رجال ؟ » ... « فقط دعوني أَعرفُ من أكونُ . أنا لا أَعْرِفُ حتى من أَنا ، ناهيك عن مَنْ أنتم ! » .

ظلوا يُرددون ويكررون بأنَّهم منا وينتمون إلينا . بالطبع سيَقُولونَ ذلك . ثمَّ أوضحوا لي بأنهم مِنْ (سربرينيتسا) . أعَلمُ يقينًا بأنَّ كلًّا من « التشيتنيك » وسكان (سربرينيتسا) الحقيقيين سيُخبرونني بأنَّهم مِنْ (سربرينيتسا) .

كَانوا يُحاولونَ دون جدوى أن يقدموا البراهين الدامغة والأدلة الأكثر إقناعًا التي

---

(١) التوهم (Illusion) : اعتقاد ثابت بفكرة خاطئة لا تتفق مع الوقائع . ويشكل بالنسبة للمريض اقتناعًا مطلقًا غير خاضع لمبادئ العقل ، وأسبابه كثيرة ولكن ليس له علاقة بالصحة العقلية فقد ينشأ عن التعب والإرهاق الشديد أو عن الحمَّى أو أي سبب آخر – (المُترجمة) .

(٢) الهوس (Hypomania) : مرض عقلي يمتاز المريض به بالنشاط المفرط وبذبذبات في المزاج تتدرج من مزاج عادي إلى مرحٍ أو انقباض أو تبادل بينهما ، وقد يميل المهووس إلى الصخب والمرح – (المُترجمة) .

(٣) الاكتئاب (Depression) : اضطراب في الشخصية يكون سببه إما عُصابي أو ذهاني ، يتسم النوع العصابي منه بالحزن الشديد وفقد الشهية والشعور بالعجز والتشاؤم والتأنيب المستمر للنفس ويسمى أحيانًا « اكتئابًا استجابيًّا » reactive depression ؛ لأنه قد ينشأ كاستجابة لفقدان شخص عزيز أو نتيجة فشل العمل أو انقطاع علاقة اجتماعية وثيقة . أما النوع الذهاني فهو درجة شديدة من الاكتئاب ومصادره الخارجية غير محددة ، وقد تنتهي حالات بعض المصابين به بمحاولة الانتحار أو الانتحار العقلي وتصحبه اضطرابات عقلية وإدراكية كالهلاوس والهواجس – (المُترجمة) .

(٤) الذُّهَان (Psychosis) : اضطراب شديد في الشخصية ، يبدو في صورة اختلال عنيف في القوى العقلية واضطراب في إدراك الواقع والحياة الانفعالية وعجز عن قضاء الحاجات الحيوية مما يؤدي إلى عدم حدوث التوافق بين الفرد وذاته وبينه وبين الآخرين ، وهو ينقسم إلى قسمين ؛ الأول : عضوي المنشأ كبداية الخرف أو تصلب شرايين المخ أو كاضطراب هرموني أو اختلال شديد في عملية الهدم والبناء ، والنوع الثاني : وظيفي أو نفسي وليس له أي أساس عضوي مثل الفصام ، والبارانويا أو جنون الارتياب والشيزوفرينيا أو الفصام – (المُترجمة) .

تُؤكد هويتهم ، وكان لا بُدَّ أنْ أَذْهبَ مَعهم على أية حال . قلت لنفسي : على أية حال ، إذا كَانوا مِنْ (سربرينيتسا) وعَرفوا بأنَّني كُنْتُ منهم ، فإنهم لن يَتجاوزوني ، ويتركوني لوحدي من خلفهم . وإذا كَانوا مِن « التشيتنيك » وعَرفوا بأنَّني لست أحدهم ، فإنهم لن يَتْركوني حيًّا .

أَخذوني مَعهم . في البداية كانوا يَسْحبونَني .. جَرُّوني على الأرض أولًا ، ثمَّ أخذوا مَطَرَتي [1] التي مَلأْتُها بماءِ الجدولِ . أفلت من قبضتهم وهممت بالجري مبتعدًا عنهم ، لكنَّهم أمْسكوا بي ثانيةً . كنت أريد الذهاب خلف مَطَرَتي . فقد كنت أَمُوتُ من العطشِ وكانوا قد قذفوا الماء الذي كان معي بعيدًا . فيما بعد ، ذَهبتُ مَعهم فحسب ولَم أعد أَسْأَلُ عن الماء ولم أعد أطلب شرب الماءِ .

كُنْتُ أَمْشي مَعهم في مكان ما في منتصفِ الطابور الصغيرِ . رُبَّمَا كنَّا خمسة عشرَ رجلًا .. تقريبًا خمسة عشرَ .

قال أحدهم :

- « الآن لَيسَ بعيدًا جدًّا ! » .

منذ ساعات وهو يتطوع بتقديرِ طولِ الرِحْلَة . وربما توهمت فقط بأنَّني كُنْتُ مَعهم لساعاتٍ ؟ .

وظلَّ رجل آخر يجيبه :

- « بعيدًا الآن .. بعيدًا الآن !! » .

كانت إضافتهم الرتيبة والمُملة للكلماتِ تُذكِّرني بنشر الخشبِ ، التكرار الممل للصوتِ الذي كان يصيبني بالجنون حتى عندما كُنْتُ طبيعيًا تمامًا ، أَو على الأقل ، عندما كنت أقل جنونًا بعض الشيء مما أَنا عليه الآن .. ما زلتُ أَتَذكر صداقتي قَبْلَ الحرب مَع اختصاصي علم النفس والأعصاب (حسن ديبان) . لقد اعتاد أن يَقُول بأنَّه حتى الأطفال لا يَجِبُ أَنْ يُسْمح لهم - لأن لديهم الميل لذلك - بتكرار نفس الكلماتِ أَو الجُمَلِ ؛ لأن ذلك غير صحي وقد يُؤدِّي إلى الجنونِ .

---

(١) مَطَرَة : قِرْبَة أو حافِظَةُ الماء (زمزمية) - (المترجمة) .

لكنّي بقيتُ أستمع إلى الرجلين مِنْ طابورنا :

- « الآن لَيسَ بعيدًا ! » .
- « بعيدًا الآن ! » .
- « الآن لَيسَ بعيدًا ! » .
- « بعيدًا الآن ! » .
- « بعيدًا الآن ! » .
- « الآن لَيسَ بعيدًا ! » .

صرختُ قائلًا : « متى سنصل إلى هناك ؟! » .

- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .

كانت تلك العبارة الرتيبة تتنقل عبر الطابور من فم لفم منطلقة من مقدمة الطابور إلى نهايته واستطعت أن أعد العبارات وهكذا عرفت أن ترتيبي كان الرجل السابع في الطابور .

- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .
- « اهدأ ... هناك ! » .

فقط « اهدأ » ... ولا شيء أكثر ... ثلاثة عشرَ ردًّا . ! إذا كنا قد رَددنَا كلُّنا تلك العبارة ، فقد كان هناك ثلاثة عشرَ منًّا .

ثم الهدوووووء ... كان صوت الهدوء المُميت والصمت القاتل أسوأ مِنْ صوت نشر الخشبِ على هذا الإيقاعِ - « الآن لَيسَ بعيدًا ! » .. « بعيدًا الآن ! » ... وبدأ النوم يُثقلُ جفونَي ... أخذتِ أَهزُّ رأسي ... وأخضُّه خضًّا ... كنت أكافح بكل عزيمتي ولكن كانت كُلُّ قوّتي قد هَربتْ مني .

- « بعيدًا الآن ! » .

- « بعيدًا الآن ! » .

انزلقت يدي إلى جيبي .. كانت الورقة تُخشخش . إنها فارغة . فضضتها وفككتُ لُفافتها - في طيتين أو ثلاثة كانت توجد بعض ذرات السُكرِ المُلتصقة . لعقتُها . وفي الجيبِ الآخرِ - ما زالَ هناك بَعْض الملحِ . أخذُت لعقة . كم كانَ ذلك لَطِيفًا . استَلْطَفت طعمه وشعرت بالراحة .. وإن لم تتجاوز ذرات السُكرِ القليلة مع القليل مِن الملحِ حدود فَمي . إلا أنني شعرتُ بالراحة .

إنني أَعْرفُ من أَنا ، وما وظيفتي ، وأين أَنا . (مرجان جوزو) ، مسّاح الأراضي . وأنا الآن أَجوب شوارع (ليوبليانا) [١] .. أَمْشي في شارع (ترومومستوفليه) ... وفي الميدان تمثال للشاعر (فرانس بريزيرن) [٢] . وفوق تمثالِ الشاعر توجد حورية عارية .

---

(١) ليوبليانا (Ljubljana) : عاصمة دولة سلوفينيا - (المُترجمة) .

(٢) فرانس بريزيرن France Preseren (٣ ديسمبر ١٨٠٠ - ٨ فبراير ١٨٤٩ م) : (بالسلوفينية : France Preheren ويشار إليه أحيانًا بالاسم فرانز بريشيرن Franz Prescheren وهي الصيغة الألمانية لاسمه والتي كانت تستخدم سابقًا أثناء حكم النمسا لسلوفينيا) شاعر غنائي من أبرز الشعراء السلوفينيين ذو صيت رفيع ليس فقط على مستوى قومه ولكن على صعيد الأدب الأوروبي كافة ، يعتبر بريشيرن من أبرز الرومانسيين الأوروبيين ، ولد في قرية (فيربا) في سلوفينيا لعائلة قروية ، كانت والدته تأمل أن يصبح ابنها قسيسًا لكنه لم يلتحق بالإكليروس أبدًا . درس الفلسفة ثم القانون في الجامعة في فينا ، وبعد أن حصلَ على شهادة الدكتوراه في القانون عُين كمساعد في شركة محاماة في لايباخ (ليوبليانا اليوم) عاصمة النمسا الريفية آنذاك . لكنه لم يتمكن من أن يصبح محاميًا مستقلًا ، وكان يكتب الشعر في وقت فراغه . من أشهر أعمال بريشيرن قصيدة سونيتني فينيتس (Sonetni Venec) ، والتي تعني إكليل من الأهازيج ، التي كتبها بوحي من حبه غير السعيد لجوليا بريمِتس (Julija Primic) ومن موت أحد أصدقائه وهو

وقد نُقش على الحجارة التي تُمثل قاعدة التمثالِ : « بريشيرن » ... إنهم لَمْ يُعلمونا في المدرسةِ أن (بريزيرن Presern) كَان اسمه (بريزيرين Preseren) .. إنني أمشي في شارع « كوبوفا » . مكتب البريد القديم . فندق « سلون » . تراجعت قليلًا ، عدت إلى شارع « كوبوفا » .. على الجانبِ الأيسر لاحظتُ مطعم « ماكدونالد » الجديد ... (بريشيرن) مرة ثانية مَع ثلاثة حروف « e » بالإضافة إلى تمثال من البرونز لحورية عارية فوقه . لم تكن حورية ...بل كَانتْ عاهرةً شهيرة ومعروفة في (ليوبليانا) ، وقد أحدثت اللحظة التي أُزيح فيها الستار عن التمثالِ فضيحة في الطبقات الراقية من المجتمعِ السلوفيني ، لكنَّ ذلك نُسِي تمامًا ، والآن ، أصبحتْ العاهرة حورية . لا زلت أَمْشي على الجانبِ الآخرِ من شارع (ترومومستوفليه) . استمريت في المشي للأمام مباشرةً . ظللتُ أسير قُدمًا ..كان ذلك « منطقيًا » كما اعتاد السلوفينيون أن يَقُولوا . استدرتُ لليسار . وعلى يميني مباشرة كان مقهى « بيناتي » ، حيث كراسي الخيزرانِ ، ارتميتُ على أحدها ومِلتُ بظهري إلى الوراء ، كان اسمَ النادلةِ (يوزيتسا) .

قلتُ لها :

– « حسنًا يا (يوزا) » . « واحد قهوة بوسنية . مع فنجانين من فضلك . املئي أحدهمَا تمامًا .. حتى حافته بالسُّكرِ والآخر بالملحِ ! هَلْ فَهمتي ؟ » .

أجابت (يوزا) :

الشاعر ماتيا تشوب (Matija Cop) . نتيجة لهذه الظروف الحزينة فإن العديد من أبيات القصيدة جاء على شكل مزيج من عواطف الحزن والسعادة . كتبت كلمات قصيدة سونيتني فينيتس بشكل مميز حيث كان السطر الأخير من كل مقطع (سوناتا) يشكل السطر الأول في المقطع الذي يليه ، مما جعل الأربعة عشر مقطعًا التي تتكون منها القصيدة تتداخل كإكليل من القطع الشعرية الغنائية العاطفية . كذلك فإن الأسطر الأولى من المقاطع الأربعة عشر تكون مقطعًا آخر وتشكل الأحرف الأولى من هذه الأسطر جملة « Primicovi Julji » والتي تعني إلى جوليا بريمتس . ولبريشيرن قصيدة أخرى بعنوان Zdravljica اتخذ المقطع السابع منها نشيدًا وطنيًا لسلوفينيا منذ عام ١٩٩١ م . ترجمت أشعاره إلى عدة لغات كما كتب العديد منها بالألمانية . عندما نشرت بعض أشعاره في الصحف لأول مرة كان ذلك باللغتين السلوفينية والألمانية مما يدلل على عبقريته الشعرية ؛ توفي بريشيرن في ٨ فبراير من عام ١٨٤٩م في مدينة كرانيي السلوفينية ، وقد اتخذ هذا اليوم عيدًا ثقافيًا لسلوفينيا وهو ما يعرف بيوم بريشيرن . وكذلك فإن صورة بريشيرن تظهر على فئة الألف دولار السلوفيني ، وله تمثال في ميدان بريشيرن في العاصمة ليوبليانا تحدق عيناه باتجاه نحت لجوليا على حائط لمبنى مقابل – (المُترجمة) .

- « نعم ، نعم ، أَفْهمُ طلبك ! » .

كانت سريعة في تلبية مطلبِي . تَذَوَّقتُ قهوتي .. استطيبتُ مذاقها وتَمَتَّعتُ بِنَكْهَتها اللذيذة ، وبينما أجلس على الكرسي مُسترخيًا مَائلًا بظهرِي للخلف .. أخذت أتلذذ برشف القهوة الطازجة الخارجة للتوّ من المِزْجَل[1] التركي . كنت أَرْتشفُ القهوةَ وأَتناوبُ أَخْذ لعقة من السُّكرِ ولعقة من الملحِ . وأَنا أُدركُ بِأَنَّني في غابة بوسنية ، بعيدًا عنْ أيِ مدينة ، وبأَنَّني لَيْسَ لدي أي فكرة عن أن الاسم الأخير لـ(بريزيرن Presern) .. هو في الحقيقة (بريزيرين Preseren) بثلاثة حروف « e » ... وبأن تلك الحوريات كنَّ عاهرات . أَعْرفُ أيضًا بأنَّني لم يسبق لي التواجد في (ليوبليانا) مُطلقًا ولم أذهب إليها يومًا . إلا أن النادلة (يوزيتسا) كانت تَمْشي قادمة نحوي من جديد . وقدمت لي مِنْ صينيتِها جهاز راديو - بدون دراجة - كان الراديو يُذيع الأخبار باللغةِ البوسنيةِ الأَصِيلة .. بلسانٍ بوسني صِرْف :

- « إن قوات الجيشِ البوسني - جزء من القسمِ الرابع والعشرينِ - وبمساعدَة المتطوعين مِنْ شرق البوسنة نجحت في تَحْطيم مواقع « التشيتنيك » الأمامية ونقاط مراكزهم العَسْكَرية قُرْب المنطقة الحُرَّة في (زفورنيك) ومكّنت سكان (سربرينيتسا) - الذين غادروا بلدتَهم وبَدؤوا السير في موكبٍ بلغ طوله ثمانين كيلومترًا خلال الأَراضي التي تقع تَحْتَ سَيْطَرَة القواتِ الصربيةِ - من تحقيق الفتح النهائي الكبير . وقد أنجزوا ذلك التَقَدُّم الهائل ، هذا ويُقدَّر عدد الناجين بنحو خمسة آلاف شخص ..لقد حقق هؤلاء الفتح الأكبر وبقوا على قيد الحياة ! » .

بدأ الراديو بالطَقْطَقَة ، أغلقتُ المذياع بسرعة خاطفة .. وغيرتُ موقفي .. أنا لست في (ليوبليانا) بعد الآن .. لست فيها أكثر من ذلك ... ولم أكن فيها أبدًا ! .

إنني فَقَطْ أَسيرُ في الطابور الذي لا يمتلك أي أحد فيه راديو ترنزستور ، في الرتل الذي لا يستطيع المرء أن يسمع فيه أي شيء سوى أَنْ يَسْمع شخصين ، يقول أحدهما : « الآن هو لَيسَ بعيدًا » ، والآخر : « بعيدًا الآن » !

* * *

(١) المِزْجَل : غَلَّايَة - (المترجمة) .

هَلْ نجا خمسة آلاف ؟ .

قُتل ثلاثة عشر ألفًا ونصْف ؟ إنْ لمْ يكن أكثر ! بل هم أكثر خاصة إن كان على المرء أَنْ يَحْسبَ أكثر مِنْ ألفين شخص قُتِلوا واختفوا في أول سنتينِ مِنْ سنوات الدفاعِ عن (سربرينيتسا) .

تُرى لو أننا لم نتزحزح عنْ (سربرينيتسا) ، هل كَانَ سيُقْتَلُ العديد منا ؟ هل كان من المُمكن أنْ تنجو (سربرينيتسا) !!

والأطفال والنساء والعجائز ! كم منهم كان من المُمكن ألا يُقْتَلوا وتُزهق أرواحهم لو لم ننسحب من (سربرينيتسا) التي استولى عليها « التشيتنيك » بمساعدة الأمم المتَّحدة التي خَدعتْنا بالوَعْد بإرْسال طائرات الناتو القاذفة للقنابل إن نحن تراجعنا للوراء أكثر وتقهقرنا إلى البلدةِ ؛ ولهذا بَدأنا مسيرة الثمانين كيلومترًا فوق التلالِ وأسفل جداولِ البوسنة المحتلَّة مضحِّين بأنفسنا لأجل سلامتهم !

وهَلْ لو صدرت لنًا أوامر مختلفة ، هَلْ كان بإمكاننا أنْ نُحرِّرَ (زفورنيك) أَو (ولاسنيتسا) ؟ ولكن بالرغم من أنَّ هذه الأسئلة كَانتْ تَمُرُّ بذهني عندما كُنَّا ننطلق من (سربرينيتسا) في مغامرة « كسر الحصار » دون أن أعرف إجابتها أما الآن فأنا أعلم إجابة كل سؤال حتى أنني ، من السَّهلِ أَنْ أكُونَ جنرالًا الآن بعد سقوط (سربرينيتسا) !!

أنا لا أَعْرفُ . أنا لا أَعْرفُ أيَّ شيء . لا أَعْرفُ ماذا أَقُولُ . أنا لا أَستطيعُ الاحتفاظ بعقلي سليمًا .

وأَنا - من وراء نفسي وبصرف النظر عن آلامها - أشعر بسعادةٍ جزئية .. بكمية لا نهائية مِن السعادةِ ، أستشعر في داخلي بمقدار من السعادة كَانَ من المُمكن أَنْ يكُونَ عظيمًا لدرجة يصعب قياسها وتفوق أي مُحاولة للحصر لو أنني كنتُ تحت أيِّ ظروف أخرى . ووفقًا لأيِّ معايير ، فأَنا سعيدٌ على أية حال ؛ لأن (تنزيلا) تُوشك أنْ تَلدَ ! ومنذ أيامٍ وأنا أَمْشي بين الخيام التي نُصبت حول (توزلا) كنت

أتنقل مِنْ خيمةٍ إلى خيمةٍ ، أسْألُ اللاجئين ما إذا كان أحدهم يَعْرف أيَّ شيءٍ عن الطبيبِ (ماهميتس) .

سألني قائدي (فضيل) الذي تُرِكَ على الطَّريق إلى (توزلا) بدون كتيبتِه بِرُمَّتِها ؛ ولذا فهو الآن يَسْألُني خارج نطاق وظيفتِه العسكريةِ قائلًا :

- « هون عليك ، خذْ الأمور ببساطة ماذا تُريدُ مَن (ماهميتس) ؟ » .

أجبته :

- « زوجتي سَتَلِدُ في أيَّةِ لَحظَةٍ ، أوَدُّ أن يقوم هو بتوليدها ! » .

قال لي قائد كتيبتي السابقِ :

- « يا لك من أحمق ! ... أنا لا أَستطيعُ أن أُصدق بأنَّني قاتلتُ وخُضتُ الحرب مَعك في (سربرينيتسا) ! إن (توزلا) مليئة بأطباء التوليد ، وهذا الرجل يَسْألُ عن (ماهميتس) طبيب الأطفال ! » .

* * *

لم أتَعَجَّب ولم أندهش أبدًا عندما التقيتُ بـ (نامق الأسود) في (توزلا) .

لا شيء يُمْكِنُ أَنْ يُفاجئَني بعد الآن .

لقد زارَني لعدَّة مرات في المخيَّمِ في مطارِ (دوبرافه) ودعاني بإصْرار إلى أن أَقوم بزيارته . لكنني لم أذهب لرؤيته قط ... ثمَّ ، جاؤوا بعد ذلك لإحْضَاري وأَخذوني لزيارته .

وفي مهلة صمتٍ نادرة أثناء استجوابِه المُستبد المُلح وإصراري المُستميت على أنَّهُ لَيسَ ذنبي أنني ما زِلتُ حيًا ، استطعتُ أن أسأله سؤالًا واحدًا :

- « يا (نامق) أستحلفك باللَّه ، بحق اللَّه ألم تَمُتْ عندما كنت تَمُوت ؟ » .

أجابَ مستجوبي بفتور :

- « هيا ، لا تهتم أيها الجندي المثير الشفقة ؟ ... وتذكَّرْ ما قلته لك عندما كُنْتَ في ذلك الخندقِ ، هناك في (غلوغوفا) . أخبرتُك بأنَّني أُذِيتُ على وجه الخصوص

عندما بَدؤوا باستجوابك . أخبرتُك ، منذ زمن طويل ، بما كان يجري بالفعل ، والآن أنت في موقف يُمكنك تَفْهمه واستيعابه تمامًا . وقد حذَّرتُك بأنَّ الاستجوابات أسوأ مِن الموتِ ، خصوصًا عندما يكون رجال بلدك هم المُستجوبون ، وبأن كلانا يَعْرف ذلك أفضل مِنْ أي شخص آخر . والآن أنت تُجرب ذلك بنفسك : رجل من أبناء شعبِكَ يستجوبك !! وها أنا أَستجوبُك وأحقق معك . وهذا ما أَتحدَّثُ عنه . وقد دقت ساعة الحقيقة . لا تُخبرني بأنَّك لَمْ تَعرفْ ذلك في حينه ؛ لذا ابدأ بالغِنَاء ! هيا غرِد وأسمعني .. اعترف بما حَدثَ في (سربرينيتسا) . ابدأ الحديث ! افتح فَمَكَ ! » .

أنا لا أَدري ما إن كنتُ قد استمعتُ إليه بكامل وعيي وشعوري ، لكنِّي فَتحتُ فَمي . لَمْ أنطق بكلمة .. لم أَتلفظْ بأي صوت . كُنْتُ فقط أشعر بفَمي المفتوحِ ، وشَعرتُ بأنَّ رائحة كريهة منتنة كَانتْ ستَخْرجُ منه . هي نفسها تلك الرائحة الكريهة التي فاحت منْذ بِداية هذا الانتشارِ السريعِ للموتِ ..

الموت ...

إنه الموتُ هو الذي يُكافحُ من أجل الخروج من بين شفاهِي المُنفرجةِ .. كان فمي مفتوحًا بالفعل :

– « لماذا لم أمُت في (سربرينيتسا) ؟! » .

صَرخَ (نامق الأسود) :

– « ماذا ؟! » .

– « لماذا لم أمُت في (سربرينيتسا) ؟! » .

صرخ من أعماق رئتيه :

– « أنت تَكْذبُ ! » .. تَكْذبُ ! أنت تَكْذبُ مرة أخرى ! تَكْذبُ أيها الكلب ! لقد مِتَّ في (سربرينيتسا) ! » .

– « مِتَّ ؟؟؟ » .

- « مِتّ !!! » .

وبلا مبالاة تمامًا ، كان يَتلوَّى في كرسيه الجلدِ ويَستعدُّ للبَدْء بالاستجواب من جديد . لكنّي أثْخَنتهُ ضَرْبًا ، أشْبَعتهُ من اللكمَات لا الكلمات :

- « نعم أنا أَكْذبُ » .

- « ماذا قُلتَ ؟! » .

- « أنا أَكْذبُ . ذلك ما أَقُولُه ، أنا أَكْذبُ ! أنت على حقٍّ ، أنا أَكْذبُ ... أكذب ، فقط لأقر وأعترف ... لأُنْقذ نفسي مِن الحياةِ » .

* * *

سالف إن ، أرغنتي بارتيا

Salve in aeternum, argenti patriae.

الوَدَاع .. الوَدَاع إلى الأبد .. يا أرض أجدادي الفضِّية ..

* * *

الخاتمَة

بعد أن عَلمَ - في الحقيقة بَعْدَ أَنْ أُعلِّمَ - حلف الناتو بمقتل ستة آلاف شخص من سكان (سربرينيتسا) كَانوا قَدْ قُتِلوا بقسوة وبأبشع الطُّرق الوحشية ، رَدًّ للمرة الأُولى خلال العدوانِ الصربي على البوسنة وعلى امتداد المذابح الجماعية ضد البوسنيين بالطريقة التي كان يُمكنُ أنْ يرد بها قبل وقتٍ مُبَكِّر ومنذ بداية العدوان في مارس / آذارَ مِنْ عام ١٩٩٢م ؛ ولذلك فإنَ اجْتِيَاح (سربرينيتسا) وتَدْمِيرها هو فقط ما جعل الحرب أقرب للهَزيمَة في (البوسنة) و (كرواتيا) . وقد استفاد الفيلقان السابع والثالث من الفرصة المَمْنُوحة ، ولكن على وجه الخصوص استفادت قوات الفيلق الخامس لجيشِ البوسنة والهرسك التي انطلقت في نفس الوقت لتحرير (كرواتيا) و (بوسانسكا قراپينا) إلا أنَّ تلك القوات قد توقفت مباشرةً قبل الاستيلاء على (بريدور) ؛ حيث صدر أمر أوقفوا بمقتضاه تقدُّمهم نحو نهر (درينا) . أما بقية الفيالق النظامية الأخرى في جيشِ جمهورية « البوسنة والهرسك » فقد أفلتت منها الفرصة ولم تستفد من زمن الفرصة المَمْنُوحة ، خصوصًا فيلق (توزلا) الثاني ، الذي كَان الأقربَ إلى نهر (درينا) .

لم يكن الستة الآلاف (٦,٠٠٠) هو عدد سكان (سربرينيتسا) الذين قتلوا بطريقة وحشية ، بل إنَّ عدد الذين ضُربوا بالهروات حتى الموت بلغ ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائة (١٣,٥٠٠) فضلًا عن أولئك الذين قُتِلوا أثناء دفاعهم عن (سربرينيتسا) ، وأكثر من خمسة عشر ألف (١٥,٠٠٠) بوسني كانوا في (سربرينيتسا) ودافعوا عن البوسنة ودَفعوا حياتهم ثمنًا لمستقبلِ بلادهم .

وبدلًا مِنْ استخدام اتفاقية دايتون (Dayton) للسلامِ لاستعَادة « المنطقة الآمنة » التي تم التنازل عنها بِصُورَةٍ مُؤَقَّتَة ، وعِوضًا عن ردها رَسْمِيًا إلى ملكية حكومة جمهورية (البوسنة والهرسك) في (سراييفو) ، فإن الأمم المتَّحدة سَمحَت ببَقاء (سربرينيتسا) تحت الاحتلالِ الصربي .

وذات يوم عقب سقوط (سربرينيتسا) في أيدي (التشيتنيك » في ١٢ يوليو / تموزِ من عام ١٩٩٥م ، وبقَرَار خاص مِنْ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدةِ صدر أمر مفاده « أنَّ على قواتِ صرب البوسنة مغادرة المنطقة الآمنة في (سربرينيتسا) فورًا » .

ولَمْ يمتثلْ لهذا القرار .. وحتى الآن لا يزال القرار يحتاج إلى الامتثال إليه .

في هذه الأثناء ، كان بوسع كُلِّ مَنْ في البوسنة والعالم بأسره أَنْ يُشاهد عبر شبكة السي إن إن (CNN) كيف أن الأمهات الناجيات من مذبحة (سربرينيتسا) كُنَّ يُفتّشنَ عن الطعام لأطفالهن وسط أكوام القمامة الخاصة بقوات الحماية الدولية في (توزلا) ، كان العالم بأسره يُراقب الأُمهات البوسنيات وهنَّ يُنقبن عن كِسرة خُبز تُقيم أود أطفالِهن أو أي شيء يصلح للأكل في مَقْلَب نفَايات قوات الحماية الدولية .

ويَبْقى تَدْمِير (سربرينيتسا) أكبر وَصْمَة عار وخزي على ضميرِ الحضارةِ الحديثةِ . وبُقْعَة تُلَطِّخ بِالدَّم وجه المَدَنِيَّة المُعَاصرة وستبقى مأساة (سربرينيتسا) سُبة تمرِّغ سمْعَة الحضارةِ الحديثةِ في الوَحْل .

« إنَّ التَّضْحِيَة بـ (سربرينيتسا) وتَقْدِيمها كذَبِيحَةٍ أو قُرْبان هي عَهْدٌ أبديٌّ للبوسنة ولجميع البوسنيين ، منذ اللحظة وإلى الأبد ، بعدم الاكتفاء بالشعَارات الجوفاء مثل « لن نَنْسى أبدًا » و « لن نَغْفر أبدًا » ، إن ما حدث لـ (سربرينيتسا) لا يَجِبُ أَنْ يُنَسى بأي حال ويجب أن نمنع سقوط ستائر النسيان على (سربرينيتسا) بأي ثمن وألا يُغفر ما حدث بها ، مهما حاول أولئك الذين لم يتذوقوا الظلم شخصيًا ولم يُضْطَهدوا يومًا أن يرغمونا على التسامح والصفح ومهما كانوا كثيرين ، أولئك الذين من بيننا ولَمْ يبيتوا يومًا مَجْنِيًا عَلَيْهِم مَهْضُومي الحَقّ ومع ذلك يحاولون إجْبارنا على القبولِ بفكرة أن الانتقام خَطِيئَة ودَنسٌ ينتهِكُ حُرْمَةَ المُقدسات » .

إسْنَام تَالِيْتش

بيهاتش – يوليو / تموز ١٩٩٦م

* * *

تعقيب

بقلم : ماري بوتر إنجل [١]

الأستاذة بكلية اللاهوت - جامعة شيكاغو

إنَّ « قصَّةَ سربرينيتسا » هي أفضل رواية قرأتُها منذ العديد مِن السَّنَواتِ . حقًّا إنها معجزة أن يستطيع أي شخص أنْ يكتبَ مثل هذه الرواية مطلقًا . وأنَّى لأحد أن يَتحدث عن الأشياء البشعة التي لا يُمكن وصفها أو الحديث عنها ؟ كَيفَ لأي أحد أن يَخْلق شيئًا جميلًا وذا مغزًى من بين كُلِّ ذلك الحزنِ والرعب والأعمال الوحشية والسخافة ! والمعجزةُ الأعظمُ أنَّ هذه الرواية كُتِبَت بهذه السرعة عقب انتهاء المذبحةِ المُريعة . لا بدَّ وأنَّ السَّيد « تاليتش » قد كَتبَ هذه الرواية في غيبوبة الموت البيضاءِ ! وإلا فكيف أمكنه ، وهو الناجي من المذبحة ، أن يُلقي بنفسه من جديد في قلب تلك المُعاناة ليتجرع مرة ثانية تَباريح العذاب وحُرْقَة الحَسْرَة ؟ .. كيف أمكنه أن يغطس غَطسة ثانيةً في جحيم الحُزْن والألمِ لكي يَطلع علينا بهذه الكلماتِ ولكي يضعها لنا على الورق !

هذه الرواية لا يُمْكن أنْ تقارنَ بأيِّ رواية أخرى ؛ ولكن على الرغم من ذلك فإنها تذكِّرني برواية أخرى ، رواية واحدة فقط .. تلك الرواية الفرنسية التي تدور أحداثها حول محرقةِ اليهود في الحرب العالمية الثانيةِ والتي نَشرَها « أندريه شوارتز - بارت » لَيسَ بعد فترة طويلة من انتهاء تلك الحربِ . وكتلك الرواية الأخيرة بالضبط ، تَنْسجُ

---

(١) ماري بوتر إنجل Mary Potter Engel : كاتبة وأديبة حاصلة على الدكتوراه في عِلْم اللاهُوت - جامعة شيكاغو . درستْ - قبل أن تُصبح كاتبة قصةٍ - تاريخ وتَفْسِير عِلْم اللاهُوت والمساواة بين الجنسين لعدّة سَنَوات في معاهد التعليم الثانوية اللاهُوتي المسيحيةِ . تَتضمنُ كُتبُها اللا قصصيةُ أبعاد الأنثروبيولوجيا (عِلْمُ الإنسان أو عِلْمُ البَشَريَّات) عند جون كالفين (١٩٩٨م) .. وكتابها « لترتفع كُل الأصوات » : البِناء المسيحي اللاهُوتي مِن الجانب السفلي (١٩٩٩م) . و« تنقيح الماضي » : نظرة في تاريخ الأنثروبيولوجيا (١٩٩٢م) . وقد نُشِرت روايتها الأولى وباكورة إنتاجها القصصي « امرأة من الملح » في العام (٢٠٠١م) ... ثم صدرت روايتها « الغرباء والزوَّار المؤقّتون » مجموعة من القصص الجنوبيةِ المُتصلةِ عام (٢٠٠٤م) عن دار نشر « كونتربوينت » . واستلمت عام ٢٠٠٣ م زمالة اتحاد لجنة فناني ولاية واشنطن للفنونِ ، تدرسُ حاليًا في « ليموند الشمالية الغربية » LIMMUD NW وتَعملُ الآن على كتابة رواية جديدة .

« قصّة سربرينيتسا » - ببراعة وتألق - التاريخ القديم والحديث والمُعاصر معًا ، السياسة ، الثقافات المتنوّعة ، التقاليد الدينية ، الميراث العائلي للقادة والزُّعَماء الرُّوحانيين ، صراع الأديان ، المرح ، وقصص الحبِّ .. يمزج « تاليتش » كلَّ ذلك بشكل بديع ليروي قصّة إسقاط شعبٍ في قاع الجحيم على يد جيرانِه . وكما فعل « شوارتز - بارت » ، يُركِّزُ « تاليتش » في هذه القصَّةِ المعقَّدةِ على حياةِ رجلٍ واحد ، يَتتبَّعُ مراحل انهياره ويرصد كيف عاين الموت أثناء الحياةِ ويُظهر جُهودَه البطوليةَ لأجل الحفاظ على إنسانيته وسط حالة من اللاإنسانية والبربرية المتوحشة ، واصفًا مُحاولاته الأسطورية للإبقاء على إخلاصه وإيمانه باللّٰه في عالم يبدو أنه قد هَجرَ اللّٰه وتجاهل وجوده بالكامل ، ليس هذا فحسب ، بل ويعثر على معنًى لأشياء سَخِيفة وتافِهة بِلَا طَعْم ولا معنًى .. ويحاول أن يجد فهمًا منطقيًّا لشيء لامَنْطِقِي .. شيء عَبَثِيٌّ لامَعْقُول يتَعَذّر فهمه أو استيعابه . كل هذه المُجاهدة وغيرها من صور الكِفاحِ التي خاضها (مرجان) بطل رواية « تاليتش » ، وهو يواجه رعب الحصار الصربي لـ (سربرينيتسا) وكذلك وهو يروي الماضي القاسي والعَنيف الذي واجهه جَدُّه كجندي ، كلُّ ذلك كفيلٌ بشلب لُبِّ القارئ وتحريك فؤاده .

أما من الناحية التقْنية والفَنّية ، فلا شيء في هذه الروايةِ لا يُثير التَعَجُّب . وقد ذَكرتُ بالفعل قدرةَ المُؤلف الفائقة على نَسْج عدة عناصرِ متنوعة معًا على نحو مُرضٍ لا يصل لحد الإزعاج .. وفي كُلِّ مَرَّةٍ كنتُ أتعجب كيف نجح المُؤلف في الإمساك بخيط معينٌ يَتعلَّقُ ببطل القصَّةِ المستمرةِ (مرجان) ثم يُعيد نسج ذلك الخيطِ مَع النسيج الكاملِ للقصة مُكررًا بعض الأجزاء بحرفيَّة ملحوظة ومهارةٍ فائقة .. لقد استخدم التكرار على نحو مثالي تمامًا وليس مُمل على الإطلاق .. بحيث يبدو التكرار كرَجْع الصَّدَى في الخاتمة ، أَو كمُوْجَز مؤثِّر في المُقدمة . وقد أنجز ذلك لَيسَ فقط باستخدام الخلاصات المَوْضُوعةِ في أماكنها بشكل مُتقن ولكن باستخدام الصورِ أيضًا ، فخاتم الزواج الذي لعب دورًا هامًّا في الفَقَراتِ الافتتاحيةِ ينجح في اسْتِدْعاء وحشية الصرب إلى الذّاكِرَة ويَعاود الظهور لاحقًا وبعد غياب طويل في مشاهد الحبِّ الهَلْوَسية مَع (تنزيلا) في جحيمِ (سربرينيتسا) ليُظهر كمَّ الحبِّ والرحمةِ الذي بقي داخل نفسه حتى في غمرة جُنونِه وانهياره .

و« تاليتش » لا يَنسحبُ ويسدل الستار على وحشيةِ الحربِ . بل استعمل ببراعة

الوقائع الواردة في دفتر يوميات الحربِ الخاص بجدِّه ، التلفزيون الصربي ، تقارير الإذاعة البوسنية ، بيانات تفصيلية أُخذت مباشرة من مصادرها الأولى ... مِنْ الناجين من مذبحة (سربرينيتسا) ، الوصف الطبي للمجاعةِ ، وكتابات تصف المعركة من موقع الأحداث تصور المشاهد اللامعقولة ، استخدم كل ذلك لإقحام القارئ ودفعه في قلب ذلك الجحيم . إلا أنه يُباعد بين هذه الصور الوحشيةِ بفواصلِ مِن الماضي البعيدِ بالإضافة إلى فَتَرَاتٍ فاصِلَة عبارة عن نفحات من قصة الحبِّ العظيمِ واسْتِراحَات من الدُّعَابَة الظريفة والفُكَاهَة اللطيفة ، وتلك الفواصل تسلط الضوء على الدمار الذي يجتاح عالمه وفي نفس الوقت تتيح الفرصة للقارئ ليلتقط أنفاسه وهكذا يتمكن القارئ من سماع ورُؤية مشاهد الرعبِ والمعاناةِ بأكملها دون أَنْ يكون مغْمورًا ومغموسًا فيها .

إن تَرْكِيب هذه الروايةِ وتصميمها وتَنْفِيذها بهذا الشكل الرائع يُبرهن بشكلٍ واضح وأكيد على أنها عمل بديع لفنان بارِع وماهر جدًّا .

لقد سحرتني هذه القصَّة مِنْ أول صفحةٍ فيها وحتى آخر صفحة منها ؛ أولًا بسبب الصوتِ ... الصوت الحاضر بقوة في كل صفحة من صفحات الرواية ... وهو ما منح الكثير من الطاقة لكل صفحةٍ ، الصوت الذي يكون حزينًا تارةً ومضحكًا وغاضبًا تارةً أخرى ، ومشحونًا بالحب أحيانًا وموحيًا بالثقة ، ومرعبًا أحيانًا أخرى ، ولكنه كان حاضرًا دائمًا وأبدًا ومفعمًا بالحياة . كما سحرتني هذه القصَّةِ أيضًا بأسلوب الكتابة الذي لم تذهب الترجمة برونقه وجماله فحتى من خلال الترجمةِ يُمْكِنُك أَنْ تَسْمعَ الإيقاعَ وتَنوع الجُمَلِ مع تغيُّر الشخصيات وفي لحظات انهيار الراوي ودخوله في دوَّامات اللامعقول والجنونِ الأعظم . كما أن الشخصيات في هذه الرواية أخَّاذة وساحرة أيضًا . كُلُّ شخصية فيها لا يمكن أن تُنسَى ، النساء كما الرجال . وكذلك الطريقة التي مزج بها « تاليتش » بين التقاليد الإسلامية والثقافة الغربية في شخصية الراوي (مرجان) كانت لافِتة لِلنَّظَر ، وجديرة بالملاحظة .. ففي عالمِ (مرجان) المعقَّدِ ، تجد رقصة الزواجِ الفلكلورية « الكولو » ، وتعويذة طرد الأرواحَ الشريرة ، والأشباح وتقارير الحرب جنبًا إلى جنب مع المُناقشاتِ الذكيةِ حول شخصية كافكا (جوزيف . ك) ؛ وسرد آياتٍ من القرآن وتفسيرها كل ذلك يتدفق كالماءِ الذي يجعل الحياة تدب وتنشط خلال المحادثاتِ

بين الجنود العُشاق ، وبين الراوي وصديقِه الطبيب ، وبين ذلك الراوي ونفسه . هذا التصوير والرسم بالألفاظ المُفعم بالحياةِ وكِفاح الشخصية المسلمة المُعاصرة في حد ذاته يَجْعلُ هذا العمل قيمًا وجَدِيرًا بالقراءة .

ثُمَّ هناك المشاهد .. إن « تاليتش » كاتب مَشْهَد عظيم ... ليس بإمكاني أن أنزع من عقلي مَشْهَد جَدٍّ (مرجان) مع زملائه الجنود وهم يصلُّونَ في الغابةِ وقد أحاط بهم البورياتيين من قبائل « البوريات Buryat » .

إن تصوير ذلك المَشْهَد التَمْثِيلي للصلاة المشحون بالعاطفة الشديدة يُعد مَفْخَرَةً وعَمَلًا فَذًّا لكاتبٍ مدهش . وكذلك مشاهد الحبِّ الهلوسيةِ النابِضة بِالحَيَاة ، بين (مرجان) و (تنزيلا) تكاد تقفز مِن الصفحةِ ، لتقَرع عقل القارئُ بقوةٍ مضاعفة .. قوَّةِ الحبِّ العظيمِ ومعاناةِ خسارةِ ذلك الحبِّ بسبب القدر والحربِ . كما يُعدُّ مشهد الصحفيين الغربيين وهم يُسجلون تقريرًا عن لحظة النُطْق بالحُكْم التاريخي للجنرالِ (موريلون) مِنْ سطح بناية في (سرايفو) في ثمانية أَو أكثر من المعاني المختلفةِ جدًّا مشهدًا عَبَثِيًّا جَدِيرًا بمَسْرَح اللامَعْقُول لكافكا . وأيضًا مشاهد الموكبِ الهارب من (سربرينيتسا) ومشاهد المعركة قُرب النهاية كلها مشاهد لا تُنْسَى أبدًا .. حيث يَشْهدُ البوسني الناجي ذَبْح رفاقِه بعد انتهاء المعركةِ وحيث يَقْتلُ البطل البوسني أَخاه ورفاقَه ؛ لأنه فقد عقله بعد أن جُنَّ بسبب أكاذيبِ وافْتِراءات « التشيتنيك » وما عاد يُصدق عيونه التي تقول له أَنَّ هؤلاءِ هم زملاؤه البوسنيون ، فالذعر والإرهاب الذي تعرضوا له - بَعْدَ أَنْ انضم إليهم الجواسيس الذين ادعوا أنهم منهم - أدخلهم في حيْرة وجعلهم عاجزين عن معرفة بعضهم البعض ولم يعد بوسع أي واحد أن يَعْرف كَيفَ يُميز الحقيقةَ .

وبعرض هذه المشاهدِ الختاميةِ التي تُظهر حجم الأكاذيبِ والافْتِراءات التي قادَت البوسنيين إلى حتفهم في (سربرينيتسا) وبمَزْج تلك التشْكِيلة المتنوعة من البيانات والتقارير في كافة أنحاء الروايةِ - وبتسجيله للتاريخ كما سجَّله مراسلو وكالات الأنباء الغربية ، بيانات التلفزيون الصربي ، تقارير الإذاعة البوسنية ، الشهادات الحيَّة المباشرة للناجين من المأساة ، وبواسطة الأدَاء الفني الرائع الذي استخدمه الراوي لعرض الحقيقةِ ، بكل ذلك المزيج المدهش - قام « تاليتش » بتشكيل هذه الرواية لكي يُؤسس إلى ضرورة وحتميَّة الاسْتِعْلام والتساؤل عن الحقيقةِ ، والعدالة ، والإيمان والعلاقة

بينهم . كَيفَ نَقُولُ الحقيقة ؟ مَنِ الذي يقول الحقيقة ؟ كيف تخلق الأكاذيب وكيف يتم استعمالُها ؟ هَل بالإمكان أَنْ يَنْجو الإيمانُ من الأكاذيبِ والظلمِ ؟ .

إنَّ « **قصَّةَ سربرينيتسا** » قصَّة مُتميِّزة ومُلِحَّة حُكيت من العقل والقلبِ معًا ، إنها القصَّة التي يَحتاجُ العالم إلى سماعها . فهذه الرواية تَدْفعُ بالقارئ عميقًا إلى عالم غني ومعقَّد تَرْجعُ جذوره إلى قرون من الزمن وتَصِلُ فروعه إلى أبعد زوايا الأرضِ عمقًا ، وبينما تركز الرواية طوال الوَقت على رجلٍ واحدٍ مِنْ بلدة واحدة تعمل في نفس الوقت على إثارة التسَاؤُلات الإنسانية العالمية التي تتعلق بالحقيقةِ ، والعدالة ، والإيمان . في الحقيقة أنا لا أستطيعُ أن أمتَدح هذه الرواية بما فيه الكفاية ! .

د/ ماري بوتر إنجل

* * *

كلمة أخيرة

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

هناك سؤال جوهري لم تطرحه وسائل الإعلام التي واكبت أحداث حرب البوسنة وهو لماذا وقعت تلك الجرائم ؟ ما هي الخلفية التي حركتها ؟ لماذا يحدث ذلك للمسلمين فى البوسنة والهرسك ؟! وما معنى عمليات التطهير العرقي ؟ ...

في حدود اطلاعي لم أجد من طرح هذا الجانب على نحو يُجيب بشكل مُقنع على تلك الأسئلة ، وحينما كنتُ اطلع بحزنٍ شديد على أخبار المذابح والمجازر التي تعرض لها المسلمون في البوسنة .. على تلك البشاعة التي وقعت في شرق أوروبا « المُتحضرة جدًّا » وفي السنوات الختامية للألفية الثانية ؛ على الأحداث البربرية التي لا يمكن لعقل أن يتفهم حدوثها بعد أن بلغت البشرية سن الرشد والنضوج ؛ شعرتُ بكثيرٍ من الألم .. ألم حقيقي في عيني وقلبي .. ثم دفعني الألم إلى أن أتساءل ما الذي يجعل جنديًّا شابًّا في ريعان شبابه يتطوع بمحض إرادته في قوات الميليشيات الصربية المتطرفة ليغزو بلادًا ويقتل أبرياءً وينشر الكدر على مرمى البصر ؟ .. ما الذي أصاب نفسية هذا الشاب بكل هذا التشوه ؟ .. إن من يُقدم على ارتكاب أعمال بهذا المستوى من الوحشية لا بد وأن يكون مصابًا بعاهة نفسية بالغة جدًّا .. ما الذي جعل هذا الصبي يفعل هذا .. وما الذي يجعل أبويه يباركان خطاه ؟ .

إنها العُقد النفسية الموروثة جيلًا بعد جيل .. إنه العنف الذي يتم تلقينه في البيت والمدرسة والشارع .. العنف الذي استمد شرعيته من العنف الأكبر الذي مارسته الدولة ومن استعداد النظام العالمي في ذلك الوقت لتقبله .. فمجزرة (سربرينيتسا) تمثل فشل المجتمع البشري العالمي ؛ لأن الضحايا قد وضعوا ثقتهم في الحماية العالمية ، ولكنَّ المجتمع العالميَّ خيَّب أملهم . فهذا فشل كبير جماعي يُستحى منه !!

يقول التاريخ : « إن العنف يعتبر شرعيًا للوصول إلى الأهداف الدينية » .. أو بالأحرى الأهداف السياسية المختبئة تحت الأقنعة الدينية .. تلك العبارة ذات تداعيات إيجابية .. ولهذا السبب سميت الشوارع والنصب التذكارية بأسماء المعارك حتى تلك التي كانت عبارة عن هجمات حربية - غزوات غاشمة - على حقوق الآخرين .. وكالعادة لا بد من توفر « الذريعة الشرعية » التي تتكفل بتحويل « الغزاة » إلى « أبطال » .. والظلم والعدوان إلى بطولة وطنية يفتخر بها .. !! .

إن ما جرى في البوسنة ، لا سيما في سربرينيتسا ؛ هو جريمة تتطلب إنزال عقوبة الإعدام ضد المتورطين في الإبادة والمُتسترين عليها .. ومأساة وعار على المجتمع الدولي لا ينبغي السماح بتكرارها .. وتاريخ المجزرة (**١١ يوليو**) هو ألم يشعر به جميع العالم وليس يومًا وطنيًا للاحتفال .. والجناة الذين ارتكبوا « مجزرة سربرينيتسا » ليسوا أبطالًا بل مجرمي حرب أساؤوا للعالم أجمع .. ولا يمكن لأحد مهما بلغ من التدليس والتلفيق أن يصنع منهم أبطالًا .. إنهم مجرمون لا دين لهم ! .

ومن يدخل في العقد النفسية الموروثة لدى الصرب يجد في ثناياها أن هؤلاء القوم حكمهم الأتراك لخمسة قرون متتالية ولطول هذه المدة امتزج الأتراك بالصرب وتزوج الكثير منهم من نسائهم مما جعلهم يعتقدون أنهم فقدوا نقاءهم العرقي بسبب دخول الأتراك (العثمانيين) ، كما يتهم الصرب البوسنيين المسلمين بأنهم خانوا الصرب عندما دخلوا في الإسلام دين الأتراك المحتلين .

وفي الواقع لا يُمكن فهم حقيقة النزاع والجذور العميقة لكراهية الصرب لجيرانهم المسلمين دون الرجوع بضعة خطوات إلى الوراء عبر تاريخ البوسنة وجغرافيتها .. خطوات تسمح بتفهم أسباب المُعاناة التي يعانيها المسلمون في جمهورية « البوسنة والهرسك » [١] :

● بإيجاز شديد يمكن تقسيم سكان يوغسلافيا السابقة على أساس طائفي إلى مسلمين ومسيحيين أرثوذكس (أغلبهم من أصل صربي) ومسيحيين كاثوليك (أغلبهم من أصل كرواتي) ؛ حيث يصعب تقسيم السكان في إقليم البلقان على غير هذا الأساس بسبب عبور العديد من الأجناس المختلفة من وإلى يوغسلافيا السابقة كما أن أجناسًا أخرى عديدة قد استقرت فى هذه البلاد بعد غزوات حربية احتلت فيها هذه المناطق أو عبرت منها لمناطق أبعد . فقد مثلت منطقة البلقان منذ العهد الروماني مفرق طرق للحضارات وممرًا من أوربا الوسطى إلى أوربا البلقانية ؛

(١) تمثل « البوسنة » جغرافيًا المناطق الوسطى والشرقية والغربية أما « الهرسك » فهي اسم منطقة حوض نهر (نيريتفا) ومن الناحية السياسية فالبوسنة والهرسك كانتا في السابق منطقتين تفصل بينهما سلسلة جبال إيفان ثم اندمجتا على يد ملك البوسنة بان (كوترومانيتش) (١٣٢٢ - ١٣٥٣م) ومنذ ذلك الوقت ظلتا دولة واحدة وإن كثر الكروات في الهرسك . وبالقرب من مدينة (موستار) يمكن زيارة منبع نهر (نيريتفا) ورؤية قلعة حجرية في أعالي الجبال كانت تعود للملك (هرسك) الذي سميت الأراضي التابعة له باسمه . وهذا هو سبب الاسم الثنائي « بوسنة وهرسك » .

ولهذا احتلها الرومان حوالي أربعة قرون واحتلتها المجر في القرن الثاني عشر الميلادي وأصبحت في القرن السادس عشر الميلادي ولاية عثمانية . وقد تأثرت الأراضي اليوغوسلافية بهذه الحملات فكان أن بسطت الكنيسة الروسية (الأرثوذكسية) نفوذها على الصرب بالقرب من حدودها الغربية (الصرب أرثوذكس) بينما بسطت الكنيسة الكاثوليكية سلطانها على المناطق ذات الأغلبية الكرواتية التي تتاخم الحدود الإيطالية الشرقية (إيطاليا معقل بابا الكاثوليك) .

● أما سكان منطقة (البوسنة والهرسك) فقد قاوموا بعناد وصلابة القوات الرومانية وساعدهم على ذلك الطبيعة الجبلية الوعرة للإقليم . ونشأت دولة البوسنة القروسطية - في القرون الوسطى- حيث برز أول حاكم أو (بان Ban) لها باسم (بوريتش) خلال الفترة (١١٥٤ - ١١٦٤م) ، وجاء بعده الحاكم الكبير (كولين) الذي توسعت حدود البوسنة في عهده خلال (١١٨٠ - ١٢٠٤م) وتميزت كدولة في المنطقة بنظامها الإقطاعي الذي ترسخ ، مع التركيز على الديانة الجديدة (البوغوميلية) [1] ، التي أخذت في الانتشار بشكل ملحوظ في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي في مناطق عديدة بالدولة الرومانية والتي أعتُبرت هرطقة سواء من قبل المسيحية الكاثوليكية أو الأرثوذكسية ، مما أدى إلى سلسلة حروب للقضاء على هذه « الهرطقة » ، وهكذا وحتى منذ القرون الوسطى كانت المسيحية في البوسنة (البوغوميلية) تختلف عن (الأرثوذكسية) في صربيا و (الكاثوليكية) في كرواتيا ، وهو ما كان يبرر لكل طرف أن يتدخل في البوسنة بحجة تخليص البوسنة من « الهرطقة » ونشر المسيحية « الحقة » ، التي كانت تعني هنا نشر النفوذ الديني /

---

(١) البوغوميلية (Bogomili) : حركة بلغارية هرطيقية أسسها في القرن العاشر قسيس يدعى « بوجيوميل » (حبيب الله) ، ثم انتشرت في القرون التالية في القسطنطينية وبقية مناطق البلقان ؛ بما في ذلك مقدونيا وأجزاء من صربيا ، وهي تبشر بلاهوت مانوي « ثنائي » يكاد يكون للشيطان فيه قوة تكافئ قوة الله أو تكاد . وفيها أن العالم المرئي إنما هو من خلق الشيطان وأنه ليس في إمكان البشر أن يخلصوا أنفسهم من براثن العالم المادي إلا باتباع حياة تزهد وتقشف متخلين عن اللحم والنبيذ والاتصال الجنسي . والمطابقة بين المادة ومملكة الشيطان لها مضامين أو معانٍ لاهوتية بعيدة المدى ؛ مثل : اعتبار تجسد المسيح نوعًا من الوهم والخيال ؛ ومن ثمَّ لم يكن في الإمكان حدوث موته على الصليب . وبالتالي كان لا بد لمراسم كثيرة تنطوي على مواد مادية مثل التعميد بالماء أن تنبذ ؛ وأن الصليب يعتبر رمزًا مزدوجًا لاعتقاد زائف . وكان مرفوضًا أيضًا استخدام مباني الكنيسة وكان الهيكل التنظيمي للكنيسة التقليدية ممقوتًا وخاصة أديرته الثرية (انظر : Runciman; Medieval Manichee .P: 93-63) .

السياسي لهذا الطرف أو ذاك . ومن هنا تنبع « اللعنة » الملاحقة للشعب البوسني من موقعه بين صربيا وكرواتيا ؛ حيث كان كل طرف يحرص على ضم البوسنة إليه ، وأيضًا من نزعته القوية للحفاظ على خصوصيته [١] .

● وحتى بعد أن تمكنت القوات الرومانية من بسط نفوذها على أراضي البوسنة والهرسك وضمها إلى إقليم « دلماسية » ، ظل سكانها على عقيدة (البوغوميلية) ، وقد نشطت الكنيسة الكاثوليكية للقضاء على هذا المذهب بشتى الوسائل إلا أن سكان البوسنة ظلوا على عقيدتهم (البوغوميلية) كما فشلت أيضًا محاولات ملوك المجر في الفترة التي احتلوا فيها البوسنة والهرسك في أثناء أصحاب هذه العقيدة عنها .

● من المهم ملاحظة أن سكان البوسنة هم أوروبيون وسكان أصليون للبلاد - من السلاف الجنوبيين [٢] - وليسوا أتراكًا [٣] بل هم من نفس الأصول التى انحدر منها الصرب إلا أن الصرب خضعوا لنفوذ الكنيسة الأرثوذكسية في (روسيا) بينما ظل سكان البوسنة على عقيدتهم (البوغوميلية) .

● اجتاز العثمانيون البحر عام ١٤٣٥م بعد أن عبروا مضيق البسفور واستولوا على شبه جزيرة (غاليبولي) ، ثم قصدوا أوروبا ففتحوا مدينة (أدرنة) عام ١٣٦١م بقيادة (مراد بن أدرخان) وجعلوها عاصمة للدولة الإسلامية القوية في أوروبا .

● دعا البابا إلى حرب صليبية عامة ضمنها دول البلقان ونصارى الغرب فانتصر عليهم (مراد الأول) وفتح (صوفيا) و(نِش) و(مقدونيا) و(سالونيك) باليونان .

● تكوَّن حلف من الصرب والبوسنيين والبلغار والمجريين والألبان للقيام بحملة ضد الدولة المسلمة الناهضة وتصدى لهم (بايزيد) أو الصاعقة- الذي خلف (مراد

---

(١) الطبعة الخامسة من كتاب « لعنة المسلمين » للأكاديمي والسياسي البوسنوي المعروف نياز دوراكوفيتش Nijaz Durakovic, Prokletstvo Muslimana, Tuzla (HARFO- GRAF) 1998 .

(٢) السلاف الجنوبيون هم القبائل القديمة التي سكنت جنوب البلقان ومعظم سكان يوغسلافيا السابقة ينحدرون من تلك القبائل ؛ فكلمة « يوغسلافيا » نفسها تحمل اسم تلك الشعوب السلافية الجنوبية فهي مركبة من مقطعين : « يوغ » ومعناها « الجنوب » و« سلافيا » هو اسم لمجموعة الأمم السلافية (انظر : المسلمون في يوغسلافيا تأليف : د / رجب يشار بويا . (ص ٩) - دار السلام - (٢٠٠٤م) - (المترجمة) .

(٣) هناك من يخلط بين مسلمي البوسنة وبين الأتراك بل إن الصرب يزعمون أنهم أتراك نقلتهم الدولة العثمانية إلى البلقان ولذلك ينادون المسلم بالتركي .

الأول) وهزمهم وتم أسر ملك الصرب ؛ وانضمت بذلك الأراضي الصربية إلى الدولة العثمانية وكان آخر هذه الأراضي مدينة (بلغراد) سنة ١٤٥٢م .

● جمع « سيجموند » ملك المجر جيشًا من الفرسان الذين تطوعوا من أوروبا الغربية وكل دول البلقان لكن (بايزيد) هزم جمعهم وطاردهم حتى (النمسا) .

● قام السلطان العثماني (محمد الفاتح) عام ١٤٥٣م بفتح القسطنطينية وبذلك أنهى العثمانيـون وإلى الأبد الإمبراطورية البيزنطية - العدو الرئيسي والتقليدي للمسلمين على مدى ثمانية قرون - وأصبح « إسلامبول » ، أي « مدينة الإسلام » الاسم الجديد للقسطنطينية عاصمة الدولة الإسلامية العالمية منذ فتحها وحتى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣م عندما حوَّل « أتاتورك » العاصمة إلى (أنقرة) .

● واصل الخليفة المسلم (محمد الفاتح) جهاده فهزم الصرب وضمها للدولة الإسلامية وواجه حلفًا من البندقية والألبان فدمرهم وضم ألبانيا للدولة العثمانية عام ١٤٦٨م وتوغل فى البلاد التابعة للبندقية على ساحل بحر الأدرياتيك واستولى على مدينة « تارنتو » الإيطالية عام ١٤٨٠م بعد أن سيطر على المضايق التي تفصل إيطاليا عن البلقان وأصبح المسلمون سادة البحر المتوسط ومضايقه .

● توالت الفتوحات العثمانية وأخذ نفوذ العثمانيين يمتد ليصل بلاد البلقان ففتحت البوسنة والهرسك عام ١٤٨١م على يد الخليفة المسلم محمد الفاتح ثم فتح معظم أراضي كرواتيا ووصل العثمانيون إلى (سلوفينيا) غير أنهم لم يفتحوها .

● ظل سكان منطقة البلقان ما بين أرثوذكس وكاثوليك بينما أقبل أتباع (البوغوميلية) وحدهم على الإسلام ؛ لأنهم وجدوا الإسلام قريبًا من عقيدتهم حيث كانوا يرفضون عقيدة التثليث ودخلوا في الإسلام طواعية وما يؤكد ذلك أن الصرب ظلوا على مذاهبهم وكذلك الكروات . وكانت البوسنة والهرسك - رغم أنها إقليم مسلم يخضع لنفوذ الدولة الإسلامية الكبرى (الخلافة العثمانية) - تستقبل كل من ضاق بالنزاع بين الأرثوذكس والكاثوليك من أهل الصرب والكروات وعاشوا بين المسلمين في أمن وسلام ؛ ولهذا كانت البوسنة - ولا تزال - تمثل نقطة يشتد حولها النزاع بسبب اختلافها الثقافي والديني عن بقية الجماعات السكانية الأخرى التي تعيش فيها .

● وقد عُرف البوسنيون - أتباع (البوغوميلية) بعد أن اعتنقوا الإسلام -

بالبُشناق Bosniak [1] أو البشانقة وتُكتب (Bosnjaci) باللهجة المحلية . وهذا ما يُبرز دور الإسلام الحاسم في تبلور هذا الشعب عن الشعوب المجاورة التي تتحدث اللغة ذاتها (الصرب والكروات وأهل الجبل الأسود / المونتغريون) ولكن تختلف فيما بينها بالخصائص الدينية والثقافية والسياسية ؛ فالفرق بين الألبان والبشناق يكمن في أن الألبان استمدوا وحدتهم من اللغة (حيث إن اسمهم القومي يدل على التعبير في اللغة الألبانية) ؛ ولذلك يوجد بينهم مسلمون ومسيحيون ويهود ، بينما لدى سلاف الجنوب (الصرب والكروات والبشانقة) جاء التمايز بين الشعوب الجديدة بالاستناد إلى الدين (الكاثوليكية والأرثوذكسية) وهو ما جعل البشناق يتميزون عن غيرهم باعتناقهم للإسلام [2] .

- توالت الفتوحات العثمانية فتمَّ فتح (الهرسك) عام ١٤٨١م ، ثم معظم أراضي (كرواتيا) ثم وصل العثمانيون إلى (سلوفينيا) غير أنهم لم يفتحوها .
- أخذت الدولة العثمانية تتقهقر وتتوالى عليها الهزائم فاحتل النمساويون (كرواتيا) في أوائل القرن السابع عشر . ثم ثار سكان الجبل الأسود سنة ١٦٩٧م واستقلوا بأنفسهم إلا أن العثمانيين استعادوها سنة ١٧٣٨م .
- ظلت (البوسنة والهرسك) جزءًا من الإمبراطورية العثمانية حتى مؤتمر (برلين) الذي عقده زعماء الدول الأوروبية الكبرى سنة ١٨٧٨م . حيث أنهى مؤتمر برلين الحرب التركية - الروسية (١٨٧٧ - ١٨٧٨م) ومنحت لإمبراطورية النمسا والمجر الإدارة المؤقتة للبوسنة والهرسك . وهكذا اضطر العثمانيون - بعد أن ضعفت دولتهم - إلى التخلي عن بلاد البشناق والهرسك للنمسا والمجر ، وبذلك يكون الحكم العثماني قد ظل عدد السنوات التالية :
- كرواتيا ونويفودنا ٤٠ سنة .

---

(١) المقصود بالبشانقة Bosnjaci الشعب الذي كان يشكل الأغلبية منذ بداية التاريخ الحديث للبوسنة ، بعد أن اعتنق الإسلام ، والذي كان يعي نفسه باستمرار كشعب متميز له لغة وثقافة خاصة ولكنه أخذ يتعرض إلى تهديد وتطهير جسدي ونفسي وسياسي وثقافي منذ نهاية القرن الثامن عشر نتيجة للتطورات السياسية الجديدة في البلقان ، وهو ما جعله ينكمش وينحصر في الدفاع عن وجوده .

(٢) (Mustafa Imamovic, Historija Bosnjaka, Sarajevo (Preporod 1998)) الكتاب المرجعي الضخم « تاريخ البشانقة » للمؤرخ مصطفى إماموفيتش الذي ألف خلال ١٩٩٣ - ١٩٩٦م وصدر في طبعته الأولى خلال ١٩٩٦م وفي طبعته الثانية خلال ١٩٩٨م .

- صربيا ٣٨٠ سنة .
- البشناق والهرسك ٤١٥ سنة .
- الجبل الأسود ٤٢٠ سنة .
- كوسوفو ٤٣٠ سنة .
- مقدونيا ٥٤٠ سنة .

- في سنة ١٩١٢م سيطرت دولتا الصرب والجبل الأسود على أجزاء ألبانية كبيرة وهاجر كثير من المسلمين إلى الأناضول وبعض البلاد الإسلامية هربًا من التشريد والاضطهاد ومحاولات التنصير تحت نير الحكم النمساوي المجري .

- ثار المسلمون في عام ١٩٠٠م ونجحوا في الحصول على الحكم الذاتي في الأمور الدينية سنة ١٩٠٩م .

- بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أصبحت البوسنة والهرسك تحت اسم مملكة « الصرب و(الكروات) و (سلوفينيا) » . وبعد هزيمة النمسا في الحرب العالمية الأولى تأسست الدولة اليوغسلافية سنة ١٩٢٩م ، بعد جلاء الاستعمار النمساوي .

- لم تعترف الدولة الجديدة (يوغسلافيا) التي ضمت البوسنة في ١٩١٨م بشعب البوشناق وحاولت قيادتها المستحيل لتذويبه وتغييبه ، وصادروا جميع أراضيهم سنة ١٩١٨م ، وأعطوها للفلاحين الأرثوذكس . كما قضوا على المدارس والكتاتيب والمساجد كلها الواحد تلو الآخر ، وبنى على أنقاضها المسارح وإسطبلات الخيول . وهو ما استمر في بداية يوغسلافيا الجمهورية تحت حكم الحزب الشيوعي إلى أن تم الاعتراف بهذا الشعب باسم جديد « المسلمون » بالميم الكبيرة Muslimani تمييزًا لهم عن المسلمين بالميم الصغيرة muslimani التي كانت تشمل كل المؤمنين بالإسلام في يوغسلافيا السابقة .

- مع مطلع العقد الثاني من القرن العشرين استقرت أوضاع المسلمين وتضاءلت هجرتهم وخف الاضطهاد . وعاشت الأغلبية المسلمة في البوسنة مع الصرب والكروات وكانوا مختلطين متداخلين على أنهم جميعًا سكان « البوسنة والهرسك » وإن اختلفت طوائفهم فكانوا جيرانًا يعيشون مع بعضهم حتى إنك قد تجد صربية من صرب البوسنة متزوجة مسلم بوسني . وتجدر الإشارة إلى أن هناك صرب من البوسنة وهناك صرب من صربيا وكلاهما أرثوذكس .

• سُمح في هذه الأثناء بتأسيس الحزب الإسلامي اليوغسلافي بزعامة الدكتور (محمد سباهو) الذي ترأس عدة حكومات يوغسلافية بين الحربين .

• وفي أثناء الحرب العالمية الثانية احتلت دول المحور بزعامة (ألمانيا) و(إيطاليا) و(يوغوسلافيا) ، وأصبحت (كرواتيا) دولة مستقلة لفترة قصيرة ولكنها في واقع الأمر كانت تحت سيطرة (ألمانيا) .

• بعد انتهاء الحرب استولى الشيوعيون على الحكم وأصبحت يوغوسلافيا دولة فيدرالية أي دولة تكون فيها السلطات مشاركة بين الحكومة المركزية والجمهوريات .

• تنازل الشيوعيون عام ١٩٩٠م عن انفرادهم بالسلطة فبدأت تتكون أحزاب سياسية في البلاد ، وفي تلك السنة عقدت البوسنة والهرسك انتخابات حرة لأول مرة ، وفازت الأحزاب غير الشيوعية بمعظم المقاعد في المجلس التشريعي .

• وفي ١٩٩١م عندما انفرط عقد الاتحاد اليوغسلافى وبعد التحولات في أوروبا الشرقية بدأت يوغوسلافيا في الانقسام على نفسها وأخذت بعض الجمهوريات اليوغسلافية تطالب بالاستقلال والانفصال وكان من بين هذه الجمهوريات (سلوفينيا) و(كرواتيا) و(البوسنة والهرسك) و(مقدونيا) .

• بعد أن أعلنت كلٌّ من (كرواتيا) و(سلوفينيا) استقلالهما ، أعلنت (البوسنة والهرسك) سيادتها واستقلالها عام ١٩٩٢م إثر استفتاء - على غرار ما حدث في باقي الجمهوريات بعد سقوط الحكم الشيوعي - ولكن هذا الأمر لم يكن ليرضي الصرب الذين طمعوا فى وراثة الاتحاد اليوغسلافى وإقامة « صربيا الكبرى » على حساب (البوسنة والهرسك) وشجعهم على ذلك سيطرتهم القوية على الجيش الاتحادي اليوغسلافي وتأييد جمهورية الجبل الأسود وانضمامها معهم .

• بدأ الصرب بالهجوم على الكروات (الكاثوليك) وعندها قامت الدنيا ولم تقعد وقام بابا روما بشجب الهجوم الصربي على كرواتيا وذهب إلى المجر (التي تبعد ٣٠كم عن كرواتيا) لوقف الحرب وأرسلت الأمم المتحدة المبعوثين والمعونات وقوات لحفظ السلام بلغت ١٤,٠٠٠ جندي إلى أن تم وقف إطلاق النار .

• بعد أن استقلت (البوسنة والهرسك) وحصلت على موافقة العالم على استقلالها ، عارض عدد كبير من الصرب الذين يعيشون في (البوسنة والهرسك) إعلان الاستقلال ، وبدأ الصرب الذين كان يساندهم الجيش اليوغوسلافي القومي

حربًا ضد كل من لم يكن صربيًا . وانتهجوا سياسة التطهير العرقي . ليس هذا فحسب ، بل إن عدو الصرب التقليدي « الكروات » اتحدوا معهم على اقتسام المسلمين وهكذا تحول الصرب والكروات الذين عاشوا في أحضان البوسنة إلى وحوش تنهش في الكيان الذي طالما آواهم ووسعهم .. وبدأ الوحش الكرواتي الصربي في قضم الأراضي البوسنية من طرفيها . ولكن تجدر الإشارة إلى أن بعض صرب البوسنة وكذلك الكروات كانوا يقاتلون في صفوف المسلمين ذودًا عن « البوسنة والهرسك » .

● قام الجيش الصربي بعمليات إبادة ضد مسلمي (البوسنة والهرسك) الذين كان عليهم أن يواجهوا - دون أي سلاح - (الجيش الاتحادي) رابع جيش في أوروبا من حيث القوة ، بالإضافة إلى الميليشيات الصربية المسلحة في الداخل ، وهكذا وقع المستضعفون المسلمون بين شقي الرحى ، فمن خارج المدن والقرى البوسنية المسلمة لم يتوقف القصف اليومي بالمدافع الثقيلة والهاون . ومن الداخل قامت الميليشيات بعمل المجازر والمذابح التي تشيب لهما الولدان .

● في عام ١٩٩٢م بدأت الولايات المتحدة في رفع تقارير عن بعض حوادث انتهاكات حقوق الإنسان في البوسنة وأفادت تلك التقارير أن صرب البوسنة قد عذبوا وقتلوا كثيرًا من مسلمي البوسنة والكروات في بعض معسكرات الاعتقال .

● بالرغم من القصف المدفعي غير المنقطع الذي قام به الصرب لعاصمة البوسنة والهرسك (سراييفو) وغيرها من المدن ، فإن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة منع توصيل السلاح لمسلمي البوسنة وفرض حصارًا على الصرب كان غير ذي جدوى . وبقيت الأمور في اضطراب حيث كان الصرب يخترقون أي هدنة تعقد بواسطة آخرين وكانت الدول الإسلامية ترسل إمدادات الغذاء والدواء إلى أولئك المحاصرين من المسلمين من قبل الصرب .

● وبالرغم من هجمات حلف شمال الأطلسي على المواقع الصربية بقيت الحرب الدامية مستمرة عام ١٩٩٥م بين البوسنيين والكرواتيين - الذين عقدوا اتفاقية تعاون لصد الهجمات الصربية - وبين الصربيين من طرف آخر .

● وانتهت الحرب بدخول القوات الدولية إلى (البوسنة والهرسك) ومن ثمَّ إلى (كوسوفو) بعد اندلاع الصراع العرقي فيها أيضًا . حيث قصف حلف شمال

الأطلسي المواقع الصربية وتم توقيع اتفاق سلام « دايتون » وأنشأ اتحاد كرواتي - مسلم ووحدة صربية تجتمع كلها في كنفدرالية تحت راية منظمة حلف شمال الأطلسي .

● ومع حرب الاستقلال ١٩٩٢ - ١٩٩٥م استرد هذا الشعب اسمه التاريخي (البشناق) .

بهذه الخلفية التاريخية المُعقدة - يمكن فهم التركيبة الذهنية التي تُخول لصاحبها سفك الدماء وهتك الأعراض باسم التطهير العرقي وارتكاب الأفعال البشعة - التي تُعدها كل الديانات والأنظمة الاجتماعية خطايا من العيار الثقيل - باسم الدين والوطن .

واليوم عند القراءة أو عند الكتابة عن تلك المأساة أسمع صوت سؤال في رأسي .. في الواقع أسمع صوتي في رأسي .. كأنه صوت مخي يقول بحرقة محمومة : ما المانع إذًا من أن تعود أعمال الإبادة مرة أخرى ؟ .

وكغيري من محبي السلام ما زلتُ مهمومةً بمأساة البوسنة لأنني أرى أن المأساة يمكن أن تتكرر إذا ما تكررت العوامل التي أدت إلى ظهورها .. وما لم تطهر المنطقة من ثقافة الكراهية والتعصب .. وما لم يتم إنصاف الضحايا في هذه المأساة وما لم يتحلَّ النضال الوطني والسياسي بالأخلاقيات اللازمة لأي مناضل .. فسيبقى السلام مجرد استراحة قصيرة بين حربين .. مجرد ضوء أخضر وسيقع ذلك مجددًا !!

● ولكنني أثق بعدالة أكبر من عدالة النظام العالمي .. وأتفهم تمامًا ضرورة الثمن القاسي - والعادل في الوقت نفسه - الذي يجب أن يدفعه كل المستكبرين والمتجبرين في الأرض .. الذين - وإن أفلتوا من محكمة العدل الدولية - لن يفلتوا من محكمة السماء .. هذا هو اليقين الوحيد في عالم يموج بالأكاذيب ... والوعد الحق الذي لا ريب فيه .. الكلمة الأخيرة ستكون للعدل ، والمجرمون سيلقون عقاب ما فعلوه إن لم يكن في هذه الحياة ففي الآخرة ...

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠] .

صَهباء محمّد بندق
القاهرة ٢٠٠٧م

نُبذة عن المُؤلفِ

• ولدَ إسنام تاليتش في (ولاسنيتسا) في شمال شرق البوسنة في عام ١٩٥٤م .

• عَملَ كمراسل ومحرِّرلصحِيفَة « أوسلوبودزينيه/ أوسلوبوجينيا Oslobodjenje » ومعناها الحرية ، وهي صحيفة يومية تصدر في (سرايِيفو) ، وهي الجريدة التي دمرت مبناها المدفعية الصربية ورغم ذلك لم تتوقف عن الصدور - من البدروم - يومًا واحدًا .

• عملَ منذ عام ١٩٩٣م كمحرِّر لمجلة « ليليان Ljiljan » الأسبوعية ، التي بدأت خلال الحربِ ضدَّ البوسنة .

• حصل على العديد من الجوائز الصحفية : حصل لثلاث مرات على الجائزةِ السنويةِ لصحيفةِ « أوسلوبودزينيه oslobodjenje » ، ثمَّ بمناسبةِ الطبعةِ المائتين مِنْ مَجَلة « ليليان Ljiljan » ، حصل على الجائزة السنوية لجمعيةِ صحفييّ البوسنة والهرسك عن كتابِ التحقيقات الصحفية (١٩٨٦م) .

• حصل على عدد من الجوائز في العديد مِن المسابقاتِ الأدبيةِ : حصل لثلاث مرات على الجائزة الأولى لمسابقة « زيبو ديزداريفيتش Zijo Dizdarevic » الأدبية عن القصَّة القصيرة ، وحصل لمرَّتين على الجائزةِ الأولى للقصَّة القصيرة في المسابقةِ الأدبيةِ الأكثر احترامًا في يوغسلافيا السابقة ، ومرَّة أخرى بَعْدَ أَنْ حصلتْ البوسنة والهرسك على استقلالها .

• تم تَمثيل أعماله في العديد من المخْتارات والمقْتَطَفات الأدبية ، واستعراضات (بانُورَامَا) ما قَبْل الحربِ وأدبِ الحربِ في البوسنة والهرسك .

• تُرجمَت أشعاره إلى العديد من اللغات ؛ منها : اللغة الإنجليزية ، والسلوفينية ، والتشيكية ، والهنغارية . والألبانية ، وكذلك السويدية .

• نَشرَ اثني عشرَ عملًا :

- المُضطَهَد والأم المقدسة (رواية) ١٩٨٣م .
- ليل بلا فجر (قصص قصيرة) ١٩٨٥م .
- الرجل الذي يُصلح الزمن (تحقيق صحفي) ١٩٨٥م .
- العامل الموسمي (رواية) ١٩٨٨م .

- درب العرائسِ الفضِّية (قصص قصيرة) ١٩٨٩م .
- كم هائل من الخيوطِ الحمراءِ (رواية) ١٩٨٩م .
- لا يُمكننا العَيْش بدون البوسنة (شعر عن الحربِ) ١٩٩٣م .
- النمر (رواية قصيرة حول الحربِ ضدَّ البوسنة) ١٩٩٤م .
- اللاجئون (نَثْر عن حربٍ) ١٩٩٤م .
- قصّة سربرينيتسا (رواية) ١٩٩٨م ؛ الطبعة الثانية ٢٠٠٢م .
- رحلة بحرية مِنْ مكة المكرمة ، رواية ، ٢٠٠١م .
- بيت على نهر (قصص قصيرة) ٢٠٠٣م .
- العاصفة (رواية) ٢٠٠٤م .
- قصص كَبيرة وأخرى قصيرة ، ٢٠٠٥م .

* * *

نُبذة عن المُترجمة

- د. صهباء محمد بندق .
- حاصلة على بكالوريوس العلوم - جامعة القاهرة - عام ١٩٩٣م .
- حاصلة على بكالوريوس الطب والجراحة - جامعة القاهرة - عام ١٩٩٧م .
- حاصلة على دبلوم الدراسات الإسلامية (معهد الباقوري) - القاهرة - عام ٢٠٠٠م .
- حاصلة على دبلوم المركز الثقافي الإسلامي (معهد إعداد الدعاة) - القاهرة - ٢٠٠٢م .
- أتمت دورة تدريبية في العلاج بالطب البديل ، جامعة الزقازيق - ٢٠٠٤م .
- عضو هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، بمكة المكرمة .
- مستشارة صفحة الاستشارات الصحية بموقع إسلام أون لاين . نت .
- أعدت أول رسالة ماجستير حول أثر الحجامة على الجهاز المناعي بكلية الطب قسم الميكروبيولوجي - جامعة الأزهر ، وقبلت الرسالة بتقدير ممتاز .
- تكتب بشكل منتظم في العديد من المجلات والدوريات .
- لها من المؤلفات المطبوعة :

فلسفة الزي الإسلامي للمرأة (دار السلام) ، الحب كيف نفهمه وكيف نمارسه ؟ (دار السلام) ، التلبينة وصية النبي ودواء العصر (مركز الإعلام العربي) ، كيف نفهم الحب ؟ (مركز الإعلام العربي) ، ١٢٠ هدية رمضانية (مركز الإعلام العربي) ، بنت النور (دار الراية) ، صيدليتك من مطبخك (دار الراية) .

- Cupping Therapy: The Great Missing Therapy .
- Cupping Therapy: The Ancient Art of Healing .

- لها العديد من المساهمات الكتابية في شبكة الإنترنت الدولية على المواقع التالية :

- موقع إسلام أون لاين : http:// www.islamonline.net.
- موقع إسلام اليوم : http:// www. islamtoday. com
- موقع مسلمة : http:// www. muslema. com
- موقع منظمة العلوم الإسلامية والأبحاث : http:// www. islamschool. org
- ويمكنك التواصل معها من خلال البريد الإلكتروني التالي : Sahboob19@hotmail.com

Sahaboob19@yahoo. com

* * *

فهرس المحتويات

* * *

رقم الإيداع

٢٠٠٧/١٦٢٨٣

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-342-581-9

حول الرواية

إنّ الماضي العاصف لسربرينيتسا - تلك البلدة الصغيرة ذات الطبيعة الجبلية الواقعة في الجزء الشمالي الشرقي من دولة البوسنة القديمة - يمتد لألفي سنة قبل قيام الحضارة الغربية الحديثة . ورواية " قصة سربرينيتسا " عبارة عن " وثيقة أدبية " عن ذلك التاريخ وهي تركز بشكل خاص على أحداث الجزء الأخير من القرن العشرين في الفترة بين ١٩٩٢ و ١٩٩٥ م عندما نفذ ذلك العدوان البربري المسلح ضد البوسنة و مسلمي البوسنة " البشناق " وهم من سكان أوروبا الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام منذ وصوله إليهم وليسوا جالية هاجرت إليه من بلاد إسلامية أخرى. وبقيت سربرينيتسا-التي كانت تخضع لحماية القوات الدولية خلال الحرب التي استمرت بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٥م - تقاوم وحدها وتدافع عن نفسها بجهد يفوق طاقة البشر لثلاث سنوات ونصف ؛ فقط لكي ينفذ المعتدي الصربيّ عدوانا جديدا في يوليو/تموز من عام ١٩٩٥م وينجز المذبحة التي راح ضحيتها ١٠,٠٠٠ مسلم من الرجال والعجائز والنساء والأطفال . وعند الأخذ بالحسبان أولئك الذين قتلوا منذ عام ١٩٩٢م يصل عدد الأرواح التي أزهقت في جيب سربرينيتسا المسلم ١٥,٠٠٠ إنسان. وأغلب من بقي من الضحايا لم يتعاف لحد الآن . وتعد هذه المذبحة أسوأ حادثة قتل جماعي في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية!.

إنّ النساء البوسنيات من سكان سربرينيتسا اللواتي بقين على قيد الحياة ؛ معروفات حول العالم بكفاحهن السلمي من أجل الوصول إلى حقيقة ما حدث في سربرينيتسا ؛ وهن مصرات على الاستمرار في بذل الجهد لإثبات حقيقة ما حدث في بلدتهن ؛ ولهذا فهن يعتبرن هذه الرواية ملكا لهن .. وأنها تخصهن بشكل وثيق . وقد أدهشهن مؤلف هذه الرواية الذي، كما يقلن عنه : " استطاع أن يصور كل ما جرى دون أن يسمح لمشاهد الرعب والذعر التي تضمنتها القصة بأن تزعج القارئ أو أن تنفره ، وهو مع ذلك نجح في نقل رسالة المعاناة إلى القراء " .

إنّ القصة الرئيسية المتعلقة بمقاومة سربرينيتسا وسقوطها، يرويها بطل الرواية (مرجان جوزو) ، بالإضافة إلى قصة أخرى من دفتر يوميات الحرب الخاص بجده (رحمن بيك جوزو) ، الجندي الأسير الذي وقع في الأسر الروسي أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي رواية " قصة سربرينيتسا" تتداخل القصتان وتتشابكان معا على نحو مدهش وبديع للغاية !.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)

email:info@dar-alsalam.com
www.dar-alsalam.com